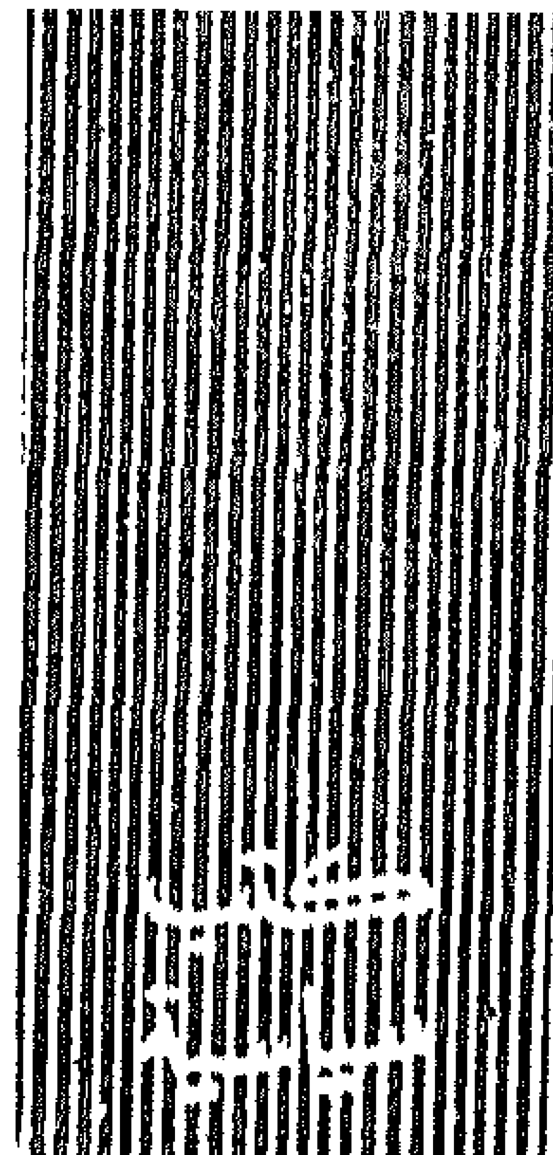




الطريق إلى السويس

بقلم

ارسكين تشايلدرز

تعريب

خيري حمّاد

تقدمة المعرب

قليلون من الكتاب الغربيين ، هم الذين يعالجون في كتاباتهم .. قضايانا العربية ، معالجة موضوعية ، تخلو من الغرض ، وتسمو على الهوى ، اذ أن معظم من يحاولون الكتابة في هذه القضايا من الغربيين ، يكونون في الغالب متأثرين أشد التأثر ، بما لبلادهم من سياسات خاصة تجاه هذه القضايا ، وبما لها من مصالح ضخمة في بلادنا ، ولهذا تجيء كتاباتهم ، دائما ، مفتقرة الى الصدق والى الموضوعية ، ومتحيزة تكاد تنطق بالهوى والغرض والبعد عن الحقيقة .

وارسكين تشايلدرز ، الذى نعرب اليوم كتابه هذا « الطريق الى السويس » ، ليس بالغريب على القراء العرب ، فقد سبق لى أن عربت له كتابا آخر ، قبل زهاء عامين ، اسميته « الحقيقة عن العالم العربى » تمشيا مع مضمون الكتاب فى أصله الانكليزى ، لا مع مفاهيمى عن هذا « العالم » الذى أومن به وطنا واحدا ، يعيش فيه شعب عربى واحد ، وقد قدمت لذلك الكتاب قائلا : « عندما قرات هذا الكتاب فى أصله الانكليزى ، خيل الى اننى اقرا شيئا جديدا ، بالرغم من أن ما فيه من مادة لا تخرج عما اعرفه ، سواء من ناحية السياق التاريخى، او تسلسل الحوادث وتطور الافكار والآراء والمعتقدات . لكن الجديد فى هذا الكتاب انه يصدر عن كاتب غربى ، لعل انتماءه الى الاصل الايرلندى الذى جاهد طويلا فى سبيل الحرية والاستقلال قد لعب دورا كبيرا فى هذه الروح المتجردة التى تظهر فى الاجزاء الغالبة من هذا الكتاب . واعتقدت أن من الواجب اطلاع القارىء العربى على هذا الكتاب ، الذى جاء جديدا فى طريقة تجرده ، وعدم انحيازه ، ومنصفا فى نقله للحوادث والاتجاهات والتيارات ، وصريحا فى الحكم على الامور والوقائع » .

ولم تفارق تلك الصراحة وهذه الموضوعية التى لا زمت تشايلدرز فى كتابه الاول ، ماسرده فى كتابه الثانى هذا ، الذى نتولى اليوم

تعريبه ، والذى يتناول فى صلبه قضية العدوان الثلاثى الآثم على مصر فى عام ١٩٥٦ ، مع بحوث تمهيدية شاملة للمقدمات التى أدت الى تلك السياسة العدوانية واستقراء كامل لنتائجها وآثارها ؛ ولكنه برغم هذه الصراحة ، وبرغم تلك الموضوعية ، وبرغم السعى الواقعى وراء الحقيقة المنزهة عن الهوى والغرض ، وقع فى اخطاء وهنات رأيت ايضاحها والتعليق عليها فى الهوامش ، نازعا الى الاعتقاد ، بأن أخطاءه هذه لم تكن نتيجة تحيز مقصود ، أو غرض خفى ، وانما نتيجة افتقاره أحيانا الى بعض التفهم الكامل لحقائق الاسلام ، وروح القومية العربية الحقة ٠

ونحن قد لانوافق المؤلف على بعض الاتجاهات فى تفكيره ، بل قد نخالفه فيها مخالفة واضحة وصريحة ، ولكن هذا لا يمنعنا من الحرص على نقلها الى القارىء العربى بأمانة وتجرد واخلاص ، ايمانا منا ، بأن تشايلدرز وهو الانسان الغربى فى ثقافته وتفكيره ، واتجاهه ، يحمل طابع التحرر - كل التحرر فى كتاباته - من الآراء الاستعمارية العتيقة ، ومن المصالح الاستغلالية الهادفة الى ابتزاز الثروات والسيطرة على الاسواق ، ومن نظريات التسلط وقواعد السيادة الامبراطورية ، ونحن ندرك أيضا بأن ما يسعى اليه تشايلدرز هو عرض الحقائق على طريقته وطبقا لمفاهيمه ، مع دعوة صريحة يوجهها الى الغرب الذى ينتمى اليه ، لقيام عهد جديد من التفهم لمشاكل العرب ، وأهدافهم وعقائدهم ، والتقدير الكامل القائم على حسن الادراك لنوازعهم وعواطفهم واتجاهاتهم

وقد يحقق تشايلدرز بعض النجاح فيما يهدف اليه ، لكن مثل هذا النجاح ، لا يمكن ان يكون على نطاق واسع ، الا اذا كان هناك اكثر من كاتب كتشايلدرز ، والا اذا تخلى الغرب عن أحلامه فى السيطرة على وطننا ، وفى استغلال مواردنا وثرواتنا لحساب رأسماليته الجشعة ، وتوقف عن دعم العملاء من ممثلى الرجعية فى البلاد العربية الذين يستخدمهم ستارا يختفى وراءه ، لينفذ مصالحه وأهدافه الاستعمارية ٠ ومثل هذا التطور .. بعيد الاحتمال ، كل البعد ، فى الوقت الحاضر على الأقل طالما أن للاستعمار مصلحة كبرى فى دعم اسرائيل وحمايتها ، بعد أن تولى خلقها فى الوطن العربى ليدق اسفينا فيه ، ويعمل عن طريقها على متابعة خطته فى تجزئة هذا الوطن لضمان مصالحه ٠

والمؤلف كاتب ايرلندى متحرر ، كتب فى عدة صحف بريطانية ، ويعالج مختلف القضايا والمشاكل الافريقية والآسيوية ، ويعمل فى التعليق - فى الاذاعات البريطانية الداخلية والموجهة - على الاحداث

الدولية . وهو .. فى كل مايكتب ويذيع .. يجتهد ان يكون موضوعيا ، بعيدا عن التحيز والهوى والغرض .

وهو ايرلندى ، درس فى مدارس دبلن وكلياتها ، ثم واصل دراساته الجامعية فى الولايات المتحدة الامريكية وقد طاف بمختلف ارجاء الشرق الاوسط وافريقية وآسيا والامريكتين الشمالية والجنوبية، ومازال والده على قيد الحياة ، ويشغل منصبا وزاريا فى حكومة ايرلندا .

اما الكتاب الذى نتولى تعريبه الآن ، فيتناول مشاكل الوطن العربى ، مع التركيز على العدوان الثلاثى وأزمة السويس ، وهو يستهله واضعا امامه سؤاله .. « ماالذى وقع ابان أزمة السويس فعلا ؟ » ثم يمضى محاولا الرد على هذا السؤال ، ومقدما الى قرائه القصة الكاملة ، وهى فى محتواها ومداولاتها اكثر تشابكا وايضاحا مما عرفه العالم عن هذه القصة حتى الآن ، ولا سيما بالنسبة الى ما يكشفه من اسرار وخفايا عن الادعاءات التى أوردها ايدن فى مذكراته .

ولعل أبرز ما فى هذا الكتاب من محاولة ، انه يحاول الربط بين ازمة السويس وبين واقع السياسة الاستعمارية فى الوطن العربى فيصور العدوان الثلاثى بأنه جزء من الخطة الشاملة التى اصطبغت بها علاقات الغرب بالوطن العربى ، منذ نشأت هذه العلاقات حتى تمثلت فى محاولة السيطرة الغربية على العرب . ولا ريب فى أن هذا الربط ، يعتبر تفهما من جانب المؤلف لحقيقة مشاكلنا المعاصرة .

ولعل خير ما أختم به تقدمتى هذه ، التأكيد بأن هذا الكتاب جدير بالقراءة لما فيه من وضوح وصراحة آمل أن أكون قد وفقت فى عرضهما على القارىء العربى . والله ولى التوفيق .

القاهرة فى ٢٦ من اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٦٢

خيرى حماد

الإهداء

إلى زوجتي سونيا :

التي شاركتني كل شيء ، وقطعت معي في غضون خمس سنوات أكثر من ثلاثين ألف ميل ... والتي عاشت معي أيام الخير وأيام الشقاء ... فتاهت معي في الجبال والصحاري ... ودفنت نفسها معي في أكوام الكتب ... وسارت معي كل شبر من الطريق لأنها آمنت بما أؤديه من رسالة ..

اي . جي . سي

مقدمة المؤلف

انقضت خمس سنوات قصار ، منذ عاش العالم ، أزمة تعتبر من أخطر الازمات التى مر به بعد انتهـــاء الحرب العالمية الاخيرة ، وقد اهتزت بريطانيا من هذه الأزمة التى أصابتها بالتشنج ، والتى انهت ــ بصورة مباغتة وفجائية ــ الحياة السياسية الطويلة البـــارزة لرئيس وزرائها ، وعرضت حكومته لقرار الادانة الذى أصدرته غالبية العالم . وكان ثمن هذه الهزة ، على صعيد المال وحده ، خسارة تفوق المائتين والخمسين مليونا من الجنيهات ، ولم تعوضهــا وتنقذ البلاد من كارثة تدهور جنيهاتها ، الا القروض الامريكية العاجلة . وانطوت الازمة كذلك على بعض الاتهامات الخطيرة للغاية ، والتى لا يمكن للانسان أن يتصور توجيهها الى حكومة ديموقراطية الزمت نفسها بالحفاظ على السلام ، والولاء لميثاق الامم المتحدة .

ومع ذلك تظل ازمة « السويس » اخطر ماشـــهدته اواســط القرن العشرين من أزمات ، وأســوأها تفسيرا ، وأصعبها على التبرير . حقا هناك ازمات أخرى ، لم يعرف تاريخها الكامل بعد ، ولكن هذه الازمات ، وبينها بالطبع حصار برلين وحرب كوريا ، تنطوى على أسرار حافظت طبيعة الحرب الباردة على خفاياها ، وتحتم على العـــالم ان ينتظر التوصل فى المستقبل الى دقائقها بعد الكشف عما فى موســـكو وبكين من وثائق . لكن ازمة « السويس » متفردة فى طبيعتها ، اذ انها لا تنطوى على اية أسرار حقة ، ومع ذلك لم يشعر المسئولون عنها ، بأن الواجب يحتم عليهم اجراء تحقيق رسمى فيها ، وتمكنوا بالفعل ، بعد انقضاء أقل من ثلاث سنوات عليها ، من الفوز فى انتخابات ، استبعد

موضوع السويس عن منابرها الخطابية • وبالرغم من الحقيقة الواقعة ، وهى أن ثمة دلائل قوية ، كافية ، تشير الى سلوك يخجل منه الكثيرون من البريطان ، اذا ماووجهوا به مواجهة جلية واضحة ، فان ثمة حقيقة أخرى لايمكن نكرانها وهى ان بريطانيا فى مجموعها ، قررت عزوفها عن معرفة ما ارتكب باسمها فى أواخر عام ١٩٥٦ •

ولقد جهدت فى هذا الكتاب أن اعرض القصة الكاملة لهذه القضية الغريبة الشاذة ، ليطلع عليها ، على الاقل ، اولئك الذين يمقتون مجرد الفكرة ، فى انهم عاشوا جزءا من عام من أعوام حياتهم ، فى بلد ديموقراطى وكانهم على مسرح لم ترتفع ستارته بصورة كاملة ، وانما ظلت نصف مرفوعة . وحاولت أن أمضى الى أكثر من مجرد محاولة البحث والتنقيب عن الحقائق المتعلقة بأحداث الفترة الواقعة بين يوليو (تموز) ونوفمبر (تشرين الثانى) من عام ١٩٥٦ ، فى كل من لندن وباريس وواشنطن والقاهرة وتل أبيب . فأزمة السويس فى منتهى الاهمية ، ولا يمكن فهمها والحكم عليها حكما صحيحا ، الا على اعتبار انها التعبير العسكرى النهائى ، عن الصراع فى العلاقات العربية ـ الغربية ، بعد أن ظلت سحب هذا الصراع تتجمع سنوات طويلة قبل عام ١٩٥٦ . لكنها لم تضع نهاية لهذا الصراع ، وقد انقضى عامان آخران عليها قبل الوصـول الى النقطة التى لاردة فيها ، والتى تمثلت فى ثورة بغداد فى الرابع عشر من تموز (يوليو) عام ١٩٥٨ ومع ذلك .. وحتى بعد هذا التاريخ .. ظلت علاقات الغرب بهذه المنطقة التى تضم خمسة وثمانين مليونا من الناس مختفية وراء سحب من الصراع الذى لم تقرر نتيجته بعد ، ومن الشكوك المتباطئة المتأنية ، والافكار المسيطرة المتسلطة .

وهكذا حاولت أن أعرض فى هذا الكتاب ، اسرار السويس التى لا استطيع ان اسميها الا نصف اسرار ، ضمن هذا الاطار الاكبر اتساعا والاكثر أهمية ، والأقدم عهدا • وعلى هذا الاسـاس وحده ، أجرؤ عـلى الاعراب عن أملى فى الا يدرج كتابى هذا ضمن « قائمة الكتب » التى وضعت عن السويس مجرد ادراج سطحى ، وكلى امل فى أن يعرض ردودا اكمل لأسئلة مختلفة عن حقيقة ما وقع فى غضون تلك الأشهر العجيبة من عام ١٩٥٦ كما آمل ايضـا فى ان يسـاعد على ايضـاح ما وقع من «أخطاء» فى السياسات الغربية فى الشرق الأوسط بمجموعه، وأوصل تلك السياسات الى حالة التحطم الكامل ، التى شهدتها بغداد فى عام ١٩٥٨ ، وكذلك على تصوير المشاكل المسـتمرة التى يواجهها العرب أنفسهم مع الغرب أيضا •

وقد كتبت القسم الاكبر من هذه القصة على النحو الذى يفكر فيه العرب ، ومتأثرا بالمحيط الذى يعيشون فيه · ولكن فى الوقت الذى كنت احاول ان ابسط وجهة النظر العربية ، توخيت ايضا ان اجمع الآراء والصور التى كوناها ـ نحن فى الغرب ـ طيلة قرون طويلة عن العرب وأن أبرز تأثيرها على السياسات التى أتبعناها معهم ·

وارى من الخير ان اوضح للخبراء فى هذه القضايا ، اننى لم أحاول فى هذه الصفحات أن اعالج جميع قضايا الشرق الأوسط على نحو تفصيلى متشابه ، او ان اسجل الأحداث طبقا لتسلسها التاريخى . فهناك كتب عدة مشهورة ، تعرض السجل الكامل للأحداث فى كل بلد من البلاد · وكان هدفى ـ على النقيض من ذلك ـ متابعة التيارات الواسعة للتاريخ المعاصر ، مركزا بالتفصيل على الاحداث البارزة ، وعلى مشاكل هذه البلاد ، التى كانت مسرحا للأزمات الاخيرة .

وتعنى كلمة « الشرق الاوسط » فى هذا الكتاب ، الاجزاء الوسطى والشرقية من الوطن العربى فقط ، مستثنيا منه البلدان غير العربية التى يشملها الاصطلاح من الناحية الأكاديمية ·· كتركيا مثلا · وارى لزاما على من الناحية الاخرى أن أحدد ما اعنيه بكلمة « الغرب » فى هذا الكتاب ، انها تشمل مجموعة من الشعوب والحكومات ، بل تشمل حكومات ذات سياسات أكثر تفاوتا مما يعنيه المعنى العادى العام لهذه الكلمة · وقد حاولت أن أستخدم هذا التعبير كمجرد تعميم فقط ، بالنسبة الى العرب ، فى حدود ما يمكن تسميته بالمجموعة الثقافية أو المنطقة الجغرافية ، اللتين تتأثر أوضاعهما تجاه العرب تأثرا كاملا بما تقوم به الدول الغربية من اعمال . اما الدول الغربية التى اعنيها بهذه التسمية ، فهى فى جميع الحالات : الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا ، كما ان ما أعنيه بعبارة « الساسة الغربيون » هم ساسة هذه الدول الثلاث .

وانى لاأتحمل اخيرا مسئولية كل عبارة وردت فى هذا الكتاب ، وكم تمنيت لو قراته ارملة جدى الذى لم أعرفه قط .

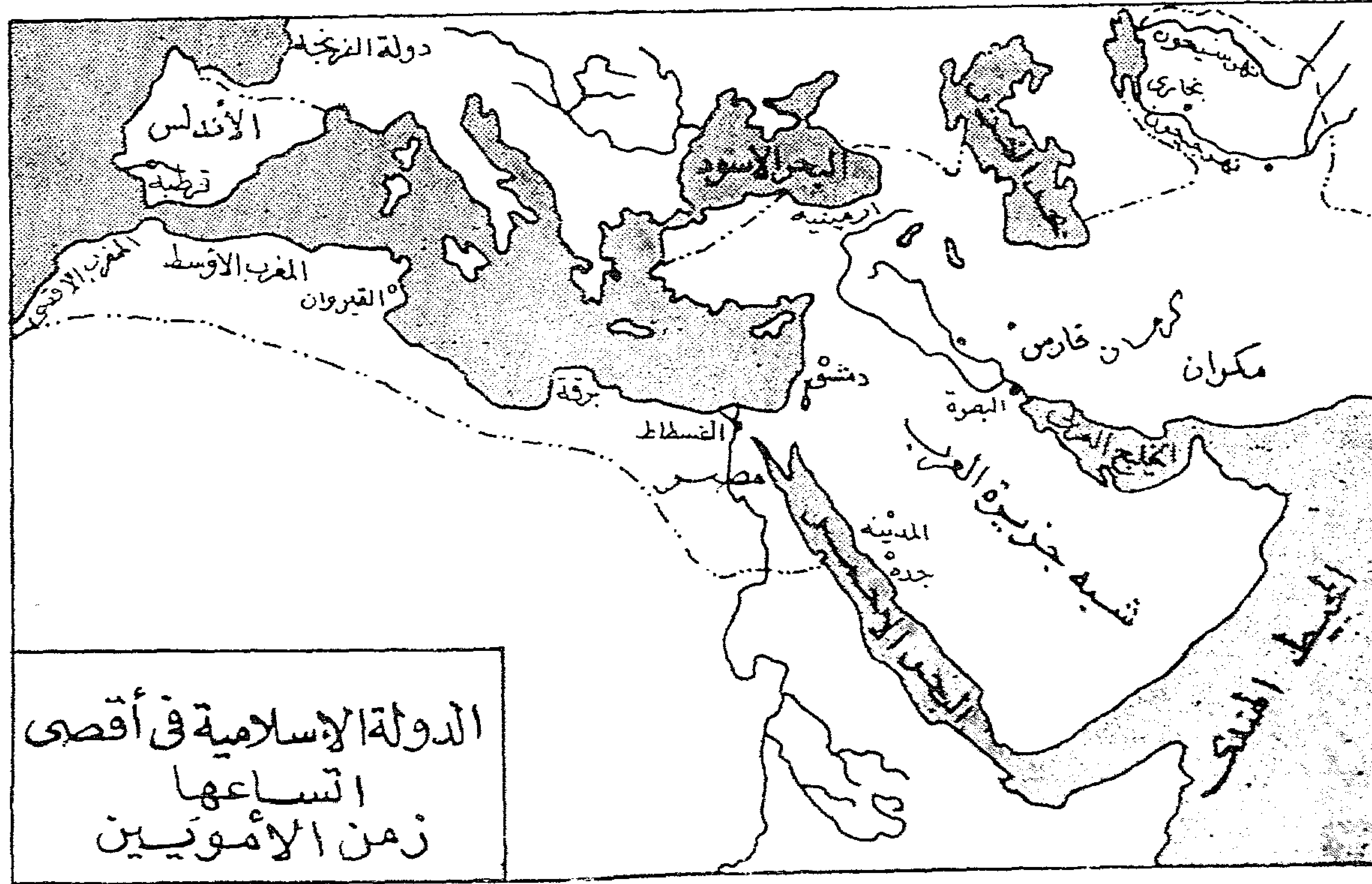
لندن ـ نوفمبر ١٩٦١

ارسكين تشايلدرز


خريطة سياسية للشرق الأوسط
أوائل القرن السابع الميلادى
الامبراطورية البيزنطية
الدولة الساسانية
دولة الاحباش
أوربا
دولة القوط الغربيين
ايطاليا
البحر الأسود
نهر سيحون
بلاد ما وراء النهرين
نهر جيحون
البحر المتوسط
بلاد المغرب
الحيرة
شبه جزيرة العرب
يثرب
مكة
نهر النيل
البحر الأحمر
المحيط الهندى

إتساع الدولة العربية
فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى

دولة القوط الغربيين
أوربا
بحر الروم
القسطنطينية
البحر الأسود
نهر سيحون
بلاد ما وراء النهرين
نهر جيحون
خراسان
(المغرب)
بلاد البربر
البحر المتوسط
دمشق
المدائن
برقة
حصن بابليون
الحيرة
فارس
الخليج العربي
مصر
يثرب
مكة
البحر الأحمر
المحيط الهندى
الحبشة


الدولة الإسلامية فى أقصى
اتساعها
زمن الأمويين
دولة الفرنجة
الأندلس
قرطبة
المغرب الأقصى
المغرب الأوسط
القيروان
برقة
الفسطاط
مصر
دمشق
البحر الأسود
ارمينيه
البصرة
الخليج العربي
شبه جزيرة العرب
المدينه
جده
البحر الأحمر
كرمان
فارس
مكران
المحيط الهندى
نهر سيحون
بخارى
نهر جيحون

العدوان الثلاثي على الشرق العربي
في العصور الوسطى

الغزو الصليبي للشرق (١٠٩٧ - ١٢٦١م)

الغزو المغولي للشرق (١٢٥٨ - ١٣٢٠م)

الغزو العثماني للشرق (١٥١٠ - ١٥١٧م)

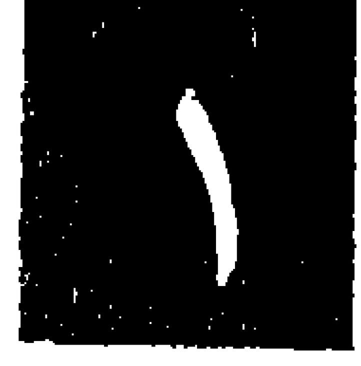
فرنسا
البندقية
جنوه
صقلية
اسبانيا
المغرب
القسطنطينية
بلاد الترك
نهر سيحون
نهر جيحون
بغداد
دمشق
بيت المقدس
القاهرة
مصر
المدينة
مكة
شبه جزيرة العرب

ومــــع ذلك ، فلن أقترف تلك الخطيئــة المؤلمة ، من فقد ايمــانى بالانسان . وانى لأوثر أن أتطلع ، الى استهلال فصل جديد فى التــــاريخ البشرى ، بعد أن يكون الطوفان قد انتهى ، ويكون الجو قد تطهر بروح من العمل والتضحية .

((وقد يبزغ ذلك الفجر من هذا الافق ، من الشرق ، حيث تشرق الشمس . وسيجئ اليوم الذى يتابع فيــه الانســان الذى لا يقهر طريق فتوحاته متخطيــا جميــع العوائق والموانع ، ليستعيد تراثه الانسانى الضائع)) .

رسالة رابندرانات تاغور الأخيرة

الطريق إلى السويس



الفكرة الغربية عن العرب

« بالرغم من أن الغـالبية العظمى لا تمت من النـاحية العنصرية الى الدم العربى ، الا انها اندمجت في تيار التعريب ، واضحت اخلاقها وتقاليدها تحمل الطابع العربى ، وأصبحت ، ولعل هذا هو الاهم ، ناطقة باللغة العربية » .

جورج انطونيوس في كتابه « يقظة العرب »

« كانت القومية التى نمت نتيجة الاتصال باوربا ، تاصيلا لعقيدة الشخصية القومية المستقلة .. وهى في الوقت ذاته ايمان بطراز من الاخوة الروحية ، التى تربط الشعب بوشائجها لتتالف منه الامة »

مادهو بانيكار في كتابه « آسيا والسيطرة الغربية »



نشأت فى القرن التاسع عشر ، ومستهل القرن العشرين ، مع توسع الامبراطوريات الأوربية ، وتوطيد أقدامها فى العالم العربى ـ الآسيوى ، فكرة معارضة ، لدى الشعوب التابعة ، تنطوى بالرغم من كتمانها على الخطورة المتناهية • وقد فات حتى الآن الوقت الكافى لىمكيننا من تعريف هذه الفكرة وتحديدها تحديدا ايجابيا لا تردد فيه ، فهى منبثقة عن التلاحم بين أربع قوى ، أولاها الوعى الجديد ، عند الشعوب الآسيوية والعربية بتراثها التاريخى الذى تستطيع أن تفاخر به وتزهو ، وثانيتها المقاومة الجوهرية للتحكم الأوربى الأجنبى ، وثالثتها الاعجاب العظيم والرغبة فى التعرف الى أكثر ظاهرتين فى الحضارة الاوربية الحديثة استهواء للنفس ، وهما التفوق فى حرفة السياسة والتفوق فى التقنية (التكنولوجى) ورابعتها وآخرها المفاهيم الجديدة فى هذه الحضارة عن القومية • وقد أوجز الباانديت نهرو هذا التطور بالنسبة الى الهند فى العبارات التالية •

« كانت يقظة الهند مزدوجة الاتجاه ، فهى تتطلع الى الغرب ، ولكنها تتطلع فى الوقت ذاته الى نفسها والى تاريخها » (١)

ويصح هذا القول أيضـا ، على المنطقة التى نلقبها الآن « بالعـالم العـربى » ، والتى خبرت عدوان الغـرب الضخم فى النواحى العسـكرية والدبلوماسية والسياسية والتجارية ، وهو عدوان يحق لنا أن نعـود بتاريخه الى نزول نابليون فى مصر عام ١٧٩٨ ٠ وقد انقضت قرون عدة على انتهاء عصر العرب الذهبى ، عندما كانت قرطبة « جوهرة العالم » ، وكانت مكتبات بغداد ومراكزها التعليمية ، ودراساتها العلمية تثير اهتمام أوربا وتفيد منها كما أثارت ثورتنا الصناعية ، فيما بعد ، العرب وأفادتهم وقد اختفت الامبراطورية العظيمة التى أقامهـا الزحف العربى الرائع منطلقا من شبه جزيرتهم النـائية بين عامى ٦٣٤ و ٧٣٢ ميـلادية والتى امتدت من حوض اللوار فى فرنسا حتى حوض السند فى الهند ٠ وأدى الانحلال الداخلى وحملات الصليبيين وهجمات السلاجقة الاتراك ومنغول جنـكيز خان الى اضعاف الوطن العربى ، الى الحد الذى دفعـه الى الاذعان لتوسع الأتراك العثمانيين بين عامى ١٥١٧ و ١٥٦٦ ٠

لكن العرب استطاعوا الحفاظ طيلة هذه القرون من التدهور والخراب والغزو ومن ثم طيـلة قرون السيطرة الاستعمارية العثمانية ، على تراث بارز كل البروز ٠ فلقد حملوا معهم من الجزيرة العربية لغة غنية كل الغنى بالخيال الواسع ٠ ولما كانت هذه اللغة ، هى لغة امبراطوريتهم واسلامهم ، فلقد غدت والحالة هذه ، المستودع الحقيقى لـكل ما فى العصر الذهبى من تقاليد . وباتت اللغة العربية بصـورة لا تضـارعها لغة اية امبراطورية أخرى طيلة الالفى سنة السابقة ، متأصلة تأصلا عميقا عند جميع شعوب الامبراطورية العربية من سواحل افريقيـة الشـمالية الغربية على المحيط الاطلسى حتى الخليج العربى ٠ وغدت كذلك لغـة التخاطب المشتركة حتى عند الشعوب التى لا تدين بالاسلام ، من مسيحيين ويهود ٠ ولم تكن قوة هذا التراث الهائل واضحة فى بداية القرن التاسع عشر حتى عند وارثيه ، بل ظلت هاجعة ، وكأنها بذرة تنتظر الانبات والبروز ٠ ولم يكن الناطقون بالعربيـة يعتبرون أنفسهم « عربا » من الناحية القوميـة ، وانمـا كانوا يميزون بالمقاطعات التى ينتمون اليها ، أو بالمدن التى يعيشـون فيها ، أو بالقبائل أو الطوائف الدينية المستقلة التى يؤلفون جزءا منها ، وركدت الدراسات فى اللغة العربية كما تحول علماء الفقه الى شىء من التزمت الذى

---

(١) اكتشاف الهند لجون داى ــ نيويورك ١٩٤٦ ٠

حملهم على التمسك بالتقاليد تمسكا صارما • ولكن « اللغة » ظلت على حالها ، بكل ما لها من طاقات قوية ، قوة من قوى التوحيد بين فئات الشعب المتباعدة ومصدرا من مصادر بعث اهتمام هذه الفئات بتراثها المشترك •

ولم يكن من قبيل الصدفة العارضة مطلقا أن السائحين الأوربيين الذين وفدوا الى هذه المنطقة التى سيطر عليها الجمود فى مطلع القرن التاسع عشر قد تمكنوا من رؤية ما عجز أهلها عن رؤيته حتى ذلك التاريخ • وفى وسعنا أن نضرب مثلا كاستهلال لليقظة العربية الحديثة ، بالتقرير الذى قدمه القس وليام جراهام ، عضو البعثة التبشيرية الانكليزية البروتستانتية الذى زار الشرق الأدنى عندما شرع هذا الشرق فى يقظته ، ولم يكن فى وسع هذا القس نفسه أن يعرف مدى ما فى أقواله من صدق التكهن والتنبؤ بالغيب اذ قال :

« يحتاج الشرق أكثر ما يحتاج الى صحيفة جيدة تصدر باللغة العربية •• والعرب شعب فطن مضياف تواق الى المعرفة ، اما الحكومة القائمة فى دمشق ، فليست الا حكومة غريبة يعتبرها الشعب أجنبية ، شاذة ، مكروهة ، تماما كما ينظر شعب لندن الى أية حكومة فرنسية تقوم فى ربوع بلاده• ولو تمكن هذا الشعب من تحطيم الاغلال الفكرية والبدنية التى تكبله ، فستنطلق بين شعوب الشرق المتبلدة قوة دافعة هائلة ، تستطيع عن طريق العلم والادب والثقافة العامة ، أن تمهد الطريق الى مستقبل مجيد مشرق •

ولكن هذه المياه الراكدة ، ما زالت حتى الآن مفتقرة الى الحافز الذى يحركها » (١)

ولكن هذا الحافز ما لبث أن تولد فى الوقت نفسه الذى طبع فيه كتاب القس جراهام هذا • ولايثير صدور هذا الحافز عن الغرب دهشة تزيد عن الدهشة التى أثارها حديث الرجل عن العرب كأمة واحدة (٢) فلقد نشأت مع التنافس بين الدول الكبرى على السيطرة الاستراتيجية ، والتوسع الاقليمى ، والاسواق التجارية ، رغبة عارمة لدى عدد صغير

---

(١) كتاب « الاردن والراين » للقس وليام جراهام • لندن ١٨٥٤

(٢) أعتقد ان المؤلف قد أخطأ هنا في تعليل أسباب الوثبة العربية فقد ارجع حافزها الى التأثير الغربى ، على حين لا يعدو هذا التأثير ان يكون عاملا مساعدا ليس الا اذ ان وثبات الشعوب تعود في حقيقتها الى الحتمية التاريخية والواقع المادى والتمسك بالتراث التاريخى • (المعرب)

ولكنه متزايد باستمرار ، من المفكرين العرب ، للتأثر بالافكار الغربية السياسية ، وراحوا يفكرون فيما يعنيه حب الوطن الظاهر في فرنسا ، وما تحمله عبارة « الأمة » التي « استصرخها » نابليون في المنشورات التي وضعها باللغة العربية ووزعها عند وصوله الى أرض مصر ، من معان عميقة. وسار هذا التطلع الى المعرفة ، جنبا الى جنب ، مع الوعي الجديد بالتراث العربي ، نتيجة المدارس الجديدة التي فتحها الحكام المحليون التواقون الى مجاراة عصرية الغرب ، أو البعثات التبشيرية الغربية في هذه البلاد • واستخرجت المخطوطات العربية القديمة بعد نفض الغبار عنها من المحفوظات المنسية ، وانهال على المنطقة فيض متدفق من الافكار العنيفة التي حملتها كتب الغرب ، والتي خلقتها الثورة الفرنسية وثورة أمريكا ، ووثبة ايطاليا في سبيل تحررها من الاستعمار النمسوي ووحدتها ، وكتابات ادموند بيرك Burke (١) وثورة بريطانيا الصناعية ، وشرع الباحثون المسيحيون من العرب في البحث عن شخصية سياسية عربية ، تتفوق على الاعتبارات الدينية ، بينما حاول اخوانهم من الباحثين المسلمين، ايجاد أوجه الشبه بين عبارة « القومية » الفرنسية وبين لفظ « الأمة » الذي وعوا معانيه في ثقافتهم القديمة •

ولكن الغموض والابهام ظلا يلفان هذا البحث المفرط عن طراز الشخصية الجماعية التي رأى فيها هؤلاء المفكرون العرب ضرورة حيوية لهم لمجاراة الدينامية الغربية الجديدة • ولم تخرج النتائج التي توصلوا اليها في البداية عن حدود الاحكام الاختبارية المائعة . واختلطت عليهم التعبيرات السياسية الاوربية عند ترجمتها الى العربية، لعدم وجود مرادفات دقيقة لها في العربية • فهناك كلمة « وطن » ، ولكنها لا تعني الا المكان الذي يعيش فيه الانسان • وهناك كلمة « قوم » وهي كلمة عربية قديمة تعود الى أيام البداوة في الصحراء ، ولا تعني الا « الجماعة القبلية » التي كان ابن البادية يعتبر نفسه جزءا منها ، حيثما عاش هو أو عاشت جماعته• وكانت ثمة كلمة « أمة » ، ولكنها كانت تعني آنذاك « جماعة المؤمنين » ، وتمتد الى اصقاع نائية لتشملهم خارج حدود البلاد العربية ، أي في البلاد

---

(١) بيرك أدموند (١٧٢٩ ــ ١٧٧٩) سياسي بريطاني مشهور ولد في دبلن عاصمة ايرلندة الحالية حيث كان والده يعمل محاميا ، ودرس هو أيضا الحقوق ومارس المحاماة، وغدا نائبا في مجلس العموم البريطاني • من أول المفكرين الانكليز الذين انتقلوا في بحثهم من حل المشكلات السياسية والاقتصادية من الخيال الى الواقع المادى • من اشهر مؤلفاته « تاريخ انكلترا » و « ملاحظات على الوضع الراهن للامة » و « افكار حول النقمة الراهنة » و « رسائل الى جونيوس » • (المعرب)

التي امتدت اليها رسالة العروبة الأخرى، وهي الاسلام ، ونشرت جذورها القوية فيها (١) ٠

واذا كانت التعابير قد خلقت متاعب للمفكرين القوميين العرب ، فان أوضاعهم السياسية والجغرافية لم تكن أضعف أثرا من خلق هذه المتاعب لهم ، وذلك عند البحث عن تعريب القومية فى المفاهيم الغربية فأين الحقائق الجغرافية لمنطقتهم التى يستلزمها تعبير الدولة القومية ؟ لم تكن هناك بالفعل الا بعض الحدود الطبيعية المماثلة للحدود التى لاغنى عنها فى تعيين الدول القومية الأوربية ٠ ففى كل ناحية من النواحى تنساب المدن والارض المزروعة لتذوب وتختفى أخيرا فى الصحارى المتمردة التى لم تذلل بعد ، ولم تكن الحدود الصورية الارادية القائمة الا أداة لتحقيق أغراض الجزية والضريبة ، ولا تحمل أى معنى من معانى القداسة أو الكرامة التى تحملها حدود الدول القومية ٠ فكيف يمكن ، والحالة هذه ، الربط بين السلطة السياسية الفعلية فى الشرق الاوسط وبين الكيان القومى ؟ كانت مصر شبه مستقلة تحكمها أسرة محمد على ، ولكنها ظلت اسميا على الاقل ايالة من ايالات الامبراطورية العثمانية التى لا تحمل الطابع العربى وانما تمتد أيضا الى القارة الاوربية نفسها ٠ وازداد مع مرور حقب القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ما فى مشكلة السلطة السياسية من تعقيد بدلا من أن ينقص أو يضعف ٠ فلقد اغتصبت أيدى الفرنسيين الجزائر منذ عام ١٨٣٠ ، ولحقت بها تونس فى عام ١٨٨١ ، واحتلت بريطانيا مصر فى عام ١٨٨٢ ، ثم ما عتمت ان الحقت بها السودان فى عام ١٨٩٨ ، وغزت ايطاليا الاراضى الليبية فى عام ١٩١١ ، وتحول المغرب (مراكش) الى محمية فرنسية فى عام ١٩١٢ ولكن مع توالى ظهور هذه الأدلة على السيطرة الغربية ، تضخم البحث عن مفهوم سياسى يحمل طابع التوحيد والثورية ٠ وقد تزايد عدد المثقفين من جراء تدفق طلائع الصحف العربية والمجلات والكتب الحديثة من مطابع مصر وسورية ، واستأثرت هذه المناقشة العقلية بأفكارهم .

---

(١) اذا كان العرب قد تأخروا في تحديد التعابير للمفاهيم القومية ، فان السبب في ذلك لا يرجع الى عدم وجودها في لغتهم ، بل الى تأخر نهضتهم القومية حتى القرن الاخير ، ويبدو ان المؤلف قد نسي ان هذه التعابير نفسها لم تكن موجودة في الغرب قبل عصر الثورة الفرنسية أو عصر النهضة على اكثر تقدير ، وان الامبراطورية الرومانية المقدسة التى عاشت قرونا طويلة في اوربا في القرون الوسطى ومستهل العصر الحديث، كانت تشمل عددا من الوحدات القومية الحالية كالمانيا واسبانيا وهولندة وبلجيكا وايطاليا والمجر وغيرها .　　　(المعرب)

ولقد رأينا هذا التلاحم بين اعتزاز المرء الجديد بماضيه ، وبين سعيه الحديث للوصول الى الشخصية القومية ، يبرز ايضا كل البروز فى الهند، وأراد ماكولى (١) أن يجعل قوة السيد البريطانى (المهراجا) مستمدة ، كما استمد « أخيل » قوته من كعب قدمه (٢) من طريق ادخال نظام جديد من التعليم الغربى يهدف الى خلق طبقـة من « الهنود البريطانيين » الموثوق بهم ، لـكن هـذا النظام أدى فى الحقيقـة الى تغذية الشعور الفومى عنـد الهنود (٣) ولكن يجب علينا على الفور ، وكأمر فى منتهى الأهمية اذا أردنا اعداد المسرح الصحيح لدراستنا هذه ، أن نوضح أن ثمة فرقا عظيما يبرز بين التجربة فى الهند ، والتجربة العربية • فهنـاك أى فى الهند سلطة استعمارية شاملة وواحدة وواضحة تسيطر على شبه قارة محدودة المعالم أما هنا أى فى الوطن العربى ، فعدة دول غربية تجزىء هذا الوطن وتقسمه الى مناطق مختلفـة السيطرة • وبينما ركز الهنود ، حتى دون وجود رابطة لغوية مشتركة تربطهم ، نزوعهم القومى ضد « عدو » واحد واضح ، فى أرض ذات حدود طبيعية بينة ، نرى الشـعوب العربية مرغمة على تركيز نزوع قومى أقل تلاحما ضد « أعداء »متعددين وضمن حدود لا معنى لها فى العرف الطبيعى •

وفى وسعنا أن نرى الفرق واضحا حتى قبيل الحرب العـالمية الاولى فمنـذ احتـلال البريطانيين أرض مصر عام ١٨٨٢ ، تركز الفـكر القومى والطاقة الثورية فى مصر على الوجود البريطانى فى أرضها • أما فى المشرق العربى فقد تركزت الطاقة القومية من ناحية أخرى ضد السيطرة التركية العثمانية ولا سـيما بعد أن عطل السـلطان فجأة الدستور الذى وضـعه مدحت باشـا فى عام ١٨٧٦ ، ويمـكن رؤية ما فى هـذا البون الالزامى المفروض من مغـاز كاملة ، بابراز نقطتين أخريين • فلقـد علق المصريون

---

(١) البارون توماس ماكولى (١٨٠٠ ــ ١٨٥٩) مؤرخ وسياسي بريطانى مشهور درس في جامعة كمبردج ، وعمل في الصحافة حقبة من الزمن اشتهر امره فيها ككاتب معروف . انتخب عضوا في مجلس العموم ١٨٣٠ ، تولى الوزارة اكثر من مرة ، وأصبح عضوا في مجلس الهند الاعلى ومن أشهر كتبه تاريخ انكلترا الذى يعتبر في طليعة الكتب الادبية والتاريخية .

(٢) اخيل بطل الالياذة الاسطورى في أدب الاغريق . وصف بأنه الانسان الذى لا يقهر وقيل انه كان يستمد قوته من قدمه التى امسكت بها امه ثيتيس عندما غطسته في نهر ستيكس لتمنحه القوة .

(٣) سعى الاستعمار البريطانى طيلة حكمه للهند ، جاهدا لاضفاء الطابع البريطانى على الهنود ، ولكن الشخصية القومية الهندية ، قاومت جميع هذه المحاولات وتغلبت عليها ، لتحقق ارادة التاريخ وحتميته . (المعرب)

فى مرحلة من المراحل آمالهم فى مناهضة بريطانيا على عون القسطنطينية العثمانية ، التى كان القوميون فى الشرق الأدنى يحاولون مناهضتها ومقاومتها (١) ومع ذلك كانت اللغة التى يتكلم بها الشعب فى هذين الجزءين من الوطن العربى طيلة هذه المدة ، هى العربية ، كما كانت المقالات التى تنشر والتى تعبر عن طرائق التفكير فيهما ، عربية أيضا . وبالرغم من أن قومية محدودة المقومات وذاتية المحتوى ، كانت آخذة فى النمو فى مصر فى ذلك الحين ، الا أن مصر نفسها كانت تخطو خطوات واسعة فى تطوير الصحافة والطباعة العربية وصناعة النشر والاعلام .

وقدر لهذه النزعة القومية المجزأة الهدف (٢) ، والتى كانت لا تزال تبحث عن أسسها العقائدية الدائمة والنهائية ، أن تظل قائمة ، عدة حقب أخرى ، وان كان « المقام » المشترك المتمثل فى اللغة والتقاليد العربية ، ظل يفرض نفسه فى كل ميدان من ميادين النشاط الانسانى باستثناء العمل السياسى . وهنا تبدو المفارقة الساخرة ، بين ما قاله الزعيم الوطنى المصرى ، سعد زغلول ، لمندوبى المشرق العربى فى مؤتمر فرساى فى عام ١٩١٩ من أن « مشكلتنا مصرية وليست عربية » (٣) ، وبين ما كتبه فى العام نفسه فى مصر الدكتور عبدالوهاب عزام اذ قال :

« ان هذا الأدب الذى نقرؤه وندرسه ونحفظه ، ونستمع اليه ، ونستمتع به ونفخر — هذا الادب الذى نربى أبناءنا عليه ، والذى نأخذ من فضائله مثلنا ، ومن رذائله عبارات قذفنا ... هذا الأدب الذى نرجع اليه كمرشد فى السراء والضراء ... هو حقا الادب العربى — أدبنا — دون سواه » (٤)

---

(١) أعتقد ان المؤلف قد غالى في تصويره هذا كل الغلو ، واذا كان قد وقع شيء من التقارب ابان الحرب العالمية الاولى بين المصريين والعثمانيين ، فمرد هذا التقارب الى سبب واحد فحسب ، وهو أن كليهما كان يناهض عدوا « مشتركا » وهو انجلترا التى كانت قد سلبت مصر حريتها .

(٢) لم تكن هناك تجزئة في الهدف مطلقا . فالهدف واحد ، وهو مكافحة الاستعمار سواء أكان هذا الاستعمار بريطانيا أم تركيا .

(٣) لا يمكن أن يفهم من قول سعد زغلول . ان مصر كانت تعتبر نفسها في عزلة من العرب ، وما أفهمه منه ، لا يعدو ان يكون تركيزا آنيا على مشكلة التحرر من الاستعمار . واذا كان قد وجد في وقت ما بعض التجزيء في الحركات النضالية ، فان الجريرة فيه تقع على الاستعمار الذى عمل جاهدا على عزل هذه الحركات من بعضها .

(٤) فقرة مقتبسة من كتاب « مصر في منتصف القرن العشرين » لشارل عيساوى اوكسفورد ١٩٥٤ . (المعرب)

وقد انقضى نحو من ثلاثين عاما ، قبل أن تتفجر هذه الأهمية الكاملة للقاعدة الثقافية العربية فى مصر المعاصرة ، لتغمر المسرح السياسى فى الشرق الأوسط • وعندما تفجرت ، لم تتمكن الدول الغربية التى عودت نفسها على أن ترى مصر «مصرية» ليس الا ، من تفهم حقيقة ماحدث تفهما كاملا •

وعندما اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى ، كان الهدف الأساسى فى التحرر من كل حكم أجنبى ، قويا فى جميع أرجاء الشرق الاوسط حتى ولو لم يكن المذهب العقائدى الذى تستند اليه هذه الحرية قد اتضح بعد• ولكن هذا الهدف كان قويا الى درجة كافية لحمل الوطنيين فى كل من مصر والشرق الادنى على أن يجدوا التشجيع لهم، من وعود الحلفاء بتقرير المصير، فلقد أبلغت بريطانيا المصريين فى البيان الذى أصدره جرانفيل (١) فى عام ١٨٨٣ ، أن احتلالها لمصر ليس الا مؤقتا وبات من حقهم والحالة هذه أن يتوقعوا على ضوء هذا العهد البريطانى القديم ، وعلى ضوء وعود الحلفاء الجديدة بتقرير المصير ، أن يتحرروا فى نهاية هذه الحرب التى أجبروا على الاشتراك فيها دون أن يؤخذ رأيهم فيها • أما فى المشرق العربى ، فان الوطنيين الذين كانوا قد ركزوا آمالهم على ثورة جماعة « تركيا الفتاة » ضد السلطان ، فقدوا هذه الآمال الآن ، بعد أن تبين لهم ان هذه الجماعة قد شرعت الآن أيضا فى مكافحة مطالبهم فى الحكم الذاتى ، بالعنف والقوة• وأحس هؤلاء العرب باهتمام بريطانيا الزائد بالحصول على عون ضد الاتراك، ولكنهم ظلوا فى الوقت نفسه مشبعين بالشكوك فى نيات البريطانيين بعد الحرب ، مما دفعهم الى الحصول على وعود مكتوبة باستقلال « دولة عربية متحدة» مقابل اشتراكهم فيما يطلق عليه الآن اسم الثورة العربية• ولقد كانت هذه الثورة باهظة الثمن فظيعة التكاليف ، لا بالنسبة الى الارواح التى خسرها العرب فى الاعمال العسكرية المجردة فحسب ، بل بالنسبة الى ما قام به الاتراك من شنق وتعذيب وتجويع لا وازع له ولا ضمير فى كل من لبنان وسورية •

ولكن النتيجة الفعلية للحرب العالمية الاولى فى الشرق الاوسط بالرغم من جميع العهود المكتوبة الخاصة والعامة ، وبالرغم من الثمن الذى قدمه العرب للاشتراك فى الحرب ، ولدت فى عقل انسان الشرق

---

(١) اللورد جورج جرانفيل (١٨١٥ — ١٨٩١) درس في ايتون واكسفورد . تولى وزارة المستعمرات في بريطانيا بين عامى ١٨٧٠ و ١٨٧٤ وعامى ١٨٨٠ و ١٨٨٥ . (المعرب)

الاوسط مرارة لايمكن المبالغة فى التأكيد عليها ، اذ أنهـا أكبر من كل مبالغة ، عندما يمس الموضوع الرئيسى لقصتنا • فمصر لم تعط استقلالها الا بعد ثورة مريرة استطالت أربع سنوات ، كما رافقت التصريح الرسمى باستقلالها ، شروط احتفظت لبريطانيا بسلطات تجعل من ذلك الاستقلال مهزلة مضحكة • أما الشرق العربى فـكان جزاؤه على ثورته العربية ضد الاتراك ، ومساعدته للحلفاء ، تقطيع أوصاله القـائمة خارج الجـزيرة العربيـة بين الانتدابين الفرنسى والبريطانى ، مع اضافة جرح ، لا مثيل له فى القارة الآسيوية كلها ، انبثق عن وعد بلفور الذى تعهد بفلسطين للصهيونية •

ولقد دأب بعض المعلقين ، اتبـاعا « لموضة » سرت بينهم ، على اظهار شيء من الضيق بهـذا الرصيد من السخط على بريطانيا وفرنسـا الذى خلقته خيانات الحلفاء للعرب بعد عام ١٩١٨ • وتبدو سياسات القوة التى عرفت فى الحرب العالمية الاولى ، للـكثيرين منا الآن وفى عام ١٩٦٠ شيئا عتيقا باليا للغاية • ولكن ما لم نتفهم تمام التفهم ، كل ما لحق بالعرب فى تلك السـنوات من نتائج تلك السياسة فلن يكون فى وسـعنا أن نتفهم ماتبع ذلك من أحداث• فلم تكن القضية مجرد استمرار للحكم الاستعمارى متحديا وعود الحرب بتقرير المصير ، كما كان الوضع بالنسبة للمستعمرات الآسيوية ، وانما كانت فرض حـكم أجنبى جديد يستعاض به عن الحـكم التركى الذى دعى العرب واقنعوا بوعـود التحـرر لمحـاربته ، برغم ماسيدفعونه لهذه الحرب من ثمن باهظ(١) •

ولم يقف الامر عند هـذا الحد • فقـد اقتطع فى اللحظة التى ظهر فيها أول تعبير عن فـكرة الوحدة العربيـة ، نتيجة التلاحم الذى تحدثنـا عنـه قبل قليل بين الافـكار العربية والغربية ، شـطر كبير من العـالم المستعرب ، عن سابق عمد واصرار ، وباستخدام القوة والعنف • وجاء فرض نظام الانتداب الذى شمل فلسطين وشرق الاردن ولبنـان وسورية والعراق ، والذى صـور للعالم بأسره على أنه « وصـاية مقدسة فى عنق الحضارة » ذريعـة قيل ان القصد منها تهيئة هذه الشعوب للوصول الى حق تقرير المصير فى النهاية • وليس من العجيب حقا ، أن تكون الدولتان

---

(١) قد يكون ادعاء المؤلف بأن العرب لم يحاربوا الاتراك في الحرب العالمية الاولى الا بتحريض من الحلفاء ، تشويها للحقيقة ، واذا صح هذا القول بالنسبة الى القيادة الهاشمية للثورة العربية ، والى بعض عملاء الحلفاء الآخرين ، فانه لا يصح مطلقا على جميع الثائرين العرب الذين لم يحاربوا الا من أجل التحرر والاستقلال ، (المعرب)

المنتدبتان ، نفساهما ، قد اعتبرتا هذا الانتداب مظهرا من مظاهر النفاق، قصد به أن يوارى السياسة الاستعمارية القديمة ، فى ثوب قشيب لا يستحقه من القداسة والطهارة ٠٠ وهكذا ولد نظام الانتداب ، كغيره من أفكار الرئيس الامريكى ولسون ، متسربلا بلباس الجود ليخفى ما رافق ولادته من فقدان الشرعية ٠٠ (١)

ولم ترسم فى أى جزء آخر من الدنيا الافريقية ـ الآسيوية حدود جديدة على الخرائط فى مثل هذا العهد المتأخر من عهود الاستعمار ، كتلك التى رسمت فى الشرق الاوسط ٠ ولم يعلن فى أى جزء آخر من أجزاء العالم فى عام ١٩١٧ ، عن وجود بلاد يسكنها أهلها ، قد أضحت مفتحة الابواب لاستقبال هجرة جماعية من غرباء دخلاء ، عرف عنهم أنهم يسعون لاقامة دولة لهم بينما يحرم على أهلها الاصليين حقهم فى تقرير مصيرهم فى بلادهم فلسطين ٠ ولم تتطلب السياسة الاستعمارية فى أى جزء من الدنيا الافريقية ـ العربية ـ الآسيوية ، فى الفترة التى تلت عام ١٩١٨ فرض مثل هذه السيطرة العسكرية الكاملة بل الوحشية ، كالتى فرضت على المغرب (مراكش) وليبيا والعراق ومسورية بين عامى ١٩٢٠ و ١٩٣٠. وعلينا أن نؤكد ، اذ أن تأكيدنا هذا جوهرى لفهم ما يتلو من فصول هذا الكتاب ، ان النزعة القومية فى الشرق الاوسط ، قد تأثرت بعد عام ١٩١٨ ، بظاهرة فريدة فى بابها ٠ فهذه البلاد ليست من المستعمرات . ولم يكن أهلها أتباعا ، خاضعين كل الخضوع ، حتى يتجهوا بنضالهم ، بشكل واضح ومباشر ضد الدولة المستعمرة ، فالسيادة البريطانية والفرنسية فيها مقنعة ، متسترة وراء الانتدابات أولا ، ومن ثم وراء المعاهدات المعقودة بين أنداد متساوين فى السيادة ظاهرا وكان هذا التقنع والتستر يستهدف عيون الغربيين أيضا ٠وهكذا بينما كان الغربيون يرون فى ثلاثينات وأربعينات من القرن الحالى أن الهنود أو البورميين أو الاندونيسيين لم يكونوا « أحرارا »، كانوا يرون أن عرب الشرق الاوسط، « أحرار » تماما ٠ فهم يرون أن لهم ملوكا ورؤساء ، وان لديهم سفارات . اذن ترى ما الذى يدعوهم ، أى العرب الى الشكوى ؟ ٠

ولهذه الاسباب كلها ، ولاسباب أخرى ستبرز أمامنا فى الصفحات والفصول التالية ، نستطيع أن نقول : اننا نحن هنا فى الغرب كنا نضايق هذه الشعوب ونطاردها ، بشكل لم يسبق له مثيل فى أى مكان فى الميدان

---

(١) تعريف الكونت كارلو سفورزا مقتبس من مجلة «الشرق الادنى» شيكاغو ١٩٤٣ ٠

الاستعمارى القديم • ولقد ولدت اتفاقات الصلح ، التى خلفت الحرب العالمية الاولى ، عند الجيل العربى الذى ولد بين عامى ١٩١٠ و ١٩٢٠ ، طرازا من التقزز القوى ، وخيبة الأمل المرة ، يوضح الى حد كبير ما نعنيه بصورة خاصة بكلمة « النفور » عند العرب • وعندما شب هذا الجيل ، وانتقل الى مرحلة النضوج ، لم يقع ما يحدو هذا الجيل الى التخفيف من غلواء ما فى حكمه على الغرب من مرارة ، ولولاها ، لكان يعجب به كل الاعجاب ، ولقد ظل شبح اتفاقات الصلح يخيم ككابوس يجسم على السياسة العربية منذ ذلك الحين (١) •

وقبل أن نتولى شرح هذه الفكرة شرحا تفصيليا ، أرى أن ثمة فكرة أخرى لا تقل عن هذه أهمية ، وان كانت تقل عنها مركزا وتقديرا • واذا كان العرب قد حملوا الى الشرق الاوسط الذى خلقته اتفاقات الصلح وجهة نظر خاصة تجاه الدول الغربية ، فان الغرب قد حمل الى الشرق الاوسط نفسه ، وجهة نظر معينة عن العرب • وقد قدر لهذين الرأيين أن يؤثرا على السياسة الرسمية وعلى أحكامها ، وأن يكيفا الرأى العام الغربى ، طيلة سنوات السخط والازمات التى استمرت حتى يومنا هذا •

(١) كتاب سورية ولبنان لالبرت حورانى ــ اوكسفورد لندن ١٩٤٦ .



الصورة العربية عند الغرب

« ترى ماهى الافكار والآراء والصور التى نحملها في عقولنا عن هذه البلاد وتلك الشعوب التى كنا نعتبرها بعيدة عنا حتى الآن ؟ ولما كنا مجبرين على إن نقوم تجاهها بعمل مضاد ، ترى ماالذى نعثر عليه في ماضينا لنستخدمه في هذا العمل المضاد ؟ » .

هارولد ايزاكس وجهن دى في « دراسات عن الصور الاسوية » .

« تؤلف جميع المخاوف والعداوات والشكوك ... التى نجمت عن المعركة الكبرى بين اوربة المسيحية وبين عالم الاسلام ... جـزءا من التراث الادبى عند كل اوربى مثقف ، وهى كامنة في المادة التى جعلها موضوعا لقراءاته العامة ... تاركة في عقله الباطن عددا يتفاوت فيالوفرة والقلة من الاهواء والضغائن » .

مقالة « العرب والغرب » للدكتور وليد الخالدى في مجلة الجامعة الامريكية في بيروت .

أدت اتفاقات الصلح التى عقدت بعد عام ١٩١٨ الى قيـام علاقات وثيقة متصلة بين بريطانيا وفرنسا أو الغرب عامة من ناحية ، وبين العرب من الناحية الاخرى · وليس ثمة من ريب فى أن كل تفهم أو عدم تفهم متبادل بين مجموعتى هذه الشعوب سيترك أثره ، فى هـذا الموضوع من نواحيه الثقافية والسياسية والتجارية وقد باتت الدولتان الآن أى بعد عام ١٩١٨ ، متورطتين فى ميزانيتين ضخمتين للانفاق فى الشرق الاوسط، وأضحت حكومتاهما تبعا لذلك متأثرتين بقرارات برلمانيهما وتعليقـات صحافتهما ، طبقا لما يحمله هذان البرلمانان أو تلك الصحافة من أفكار عن العرب تعكسها عن الرأى العام فى البلدين ، أو تبثها فيه · وقد تحتم على الحكومتين، نظرا لوجود الانتداب أن تواجها تتبعصعبة الامم لسياستهما(١)

---

(١) كتاب « العربى المستقل » تاليف السير هيوبرت يونج .

وكان لا بد من أن يتأثر هـذا التتبع بمـا يحمله الغـرب عن العرب من أفكار ٠

ترى ماهى الافكار والآراء والصور التى يحملها الغرب عن العرب والتى كانت تؤثر على السياسة الرسمية تجاههم ؟ وما الصور التى يحملها المثقفون الغربيون والدوائر المتعلمة والمثقفة ؟ وما المفهوم العـام الواسع عن « الرجل العربى » ٠٠؟ وكيف يمكن لهذا المفهوم أن يؤثر على التقبل الشعبى للسياسة الرسمية ؟٠

لنعد الى سؤالنا الاول ، ترى ما الذى نعثر عليـه فى ماضينا حتى نستخدمه فى عملنا المضاد ؟ تعود علاقتنا بالعرب الى نحو من ألف ومائتى عام ، وظلت الثقافة الغربية ، تجمع الفكر عن العرب طيلة هذه القرون ٠ وقد نقش أول ظهور بارز للعرب فى المسرح العالمى ، فى التراث الغربى ٠ وقد اعتبر الزحف التوسعى العربى الاسلامى على الابواب الشرقية للعالم المسيحى فى القسطنطينية فى عام ٧١٧ ميلادية ، وعلى قلب فرنسا فى عام ٧٣٢ ، ظاهرة طبيعية مرعبة ومخيفة ، تركت جذورها فى ثقافتنا ٠ وقد امتزجت هذه الظاهرة ، مع المولد الحقيقى للعصر المسيحى المتوسط ومطلع النظام الاوربى ٠ ولم يخلف أى تغلغل أجنبى مثل هذا الاثر الذى خلفه التغلغل العربى فى تراثنا السياسى والثقـافى والادبى ٠ ولو تفحص أى غربى زوايا عقله الباطن بحثا فن أية فكرة تتصل بالعرب ، تعلقت به فى غضون الألف عام الماضية ، لاستمع الى الاصداء الخافتة التى خلفتها معركة تور (١) . وقد لايكون فى حاجة الى قراءة تاريخ جيبون ، ليستوعب هذا الصدى ، وان كان هذا المؤرخ قد أوضحه ايضاحا تاما قبل نحو من مائتى عام اذ قال :

« لقد امتد خط الزحف الظافر أكثر من ألف ميل من صخرة جبـل طارق حتى شواطىء اللوار ٠ ولو تكرر هذا الزحف مسافة أخرى مماثلة، لحمـل العرب الى حدود بولنـدة ، وجبـال اسكوتلندة ٠٠٠ ولأوصـل الاسطول العربى الى مصب التيمز بحرا كما يشاء دون أن يشتبك فى أية معركة حربية ٠٠ ولربما كان من المحتمل أيضا ، أن يدرس القـرآن الآن فى مدارس اكسفورد ٠ » (٢)

---

(١) اشارة الى معركة تور أو مايسميها العرب ببلاط الشهداء . وقد وقعت عام ٧٣٢ ميلادية على نهر اللوار بين القائد العربى عبد الرحمن الغافقى وقائد الفرنجـة شارل مارتل . وقد استشهد فيها كثير من ابطال العرب . وكانت نقطة التحول فى تاريخ الفتوحات العربية فى الغرب . (المعرب)

(٢) كتاب « انحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية » للمؤرخ البريطانى جيبون.

وقد ظلت هذه « الأصداء » منذ أيام تور عن العرب المسلمين متأصلة فى عقول الاوربيين يعززها الصراع المستمر مع العرب عند المداخل الجنوبية للقارة • وكان أول رد فعل دينى من جانب المسيحية ضد الاسلام ، ما ذكره جون داماسين (١) فى عظاته فى القرن الثامن من أن الاسلام هرطقة انشقاقية (٢) ولكن ما لبثت الكنيسة أن اتخذت لنفسها خصائص الدولة المنظمة ، وباتت تعتبر نفسها « جيشا مرابطا على تربة المسيحية » (٣) وتزاوجت هذه النظرة العسكرية ، مع موجة من الحماسة ومن القومية الوليدة المتمثلة فى ظهور شارلمان وهكذا تسربت الى أولى قصص الفروسية فى أوربا فكرة دينية مرعبة وعصبية عن العرب والاسلام تختلط دائما بالخرافات الشعبية •

ويرجع تاريخ أول مثل بارز من هذه الامثلة ، الى حادث وقع فى عام ٧٧٨ ميلادية ، وبات خالدا فى تراثنا الادبى حتى يومنا هذا • فلقد وقعت معركة رونسيفال ، وكانت فى الواقع مجرد اشتباكات مؤخرة ، بين وحدات من قوات شارل العائدة تحت قيادة رولان من أسبانيا وبين عصابة من الباسك المسيحيين • ولم يمض ثلاثمائة عام ، حتى غدت هذه القصة احدى أساطير الفروسية فى أوربا ، وحتى تحول الباسكيون الى مسلمين ، وانقلب اسلامهم الى وثنية شيطانية تعبد آلهة كثيرة ...

« كان الوثنيون يهتفون ••• أنجدنا يامحمد •••

وانتقموا لنا يا آلهتنا من شارل (٤) » •

وعلى الرغم من أن هذه الاسطورة الكثيرة التزويق ظلت تنشد فى فرنسا بصورة رئيسية ، الا أنها سرعان ما استأثرت بخيال المسيحية كلها خارج فرنسا فى وقت مبكر أيضا • وظلت أغنية رولان النص الموحد الذى يدرس فى المدارس قرونا عدة ، والمصدر الاساسى منذ الطفولة ، لوجهة النظر التى يكونها الغربى عن العرب والاسلام •

وليس ثمة الكثير مما يشابه مثل هذا الانطباع العميق المختزن منذ

---

(١) داماسين يوحنا — (٦٧٦ — ٧٤٩) • من علماء اللاهوت المسيحيين وقد ولد في دمشق ، وعاش في دير على مقربة من مدينة القدس واشتهر أمره بالاناشيد الدينية والعظات التى وضعها •

(٢) كتاب الامبراطورية البيزنطية لفاسيلييف •

(٣) كتاب تاريخ محاكم التفتيش في العصور الوسطى لا.ش.ش.لى •

(٤) انشودة رولان •

الطفولة ،على ثقافتنا ازاء عقيدة قديمة ، وشعب تمكن من البقاء حتى يواجهنا اليوم • لكن هذه «الصورة» مالبثت أن أحيطت بالكثير من التفاصيل • فهى لا تنشأ عن مجرد الاحساس بالخطر العسكرى على أوربا والاستهانة بالاسلام ، وانما تنشأ كذلك عن الفكرة القائلة بأن العرب المسلمين قد أعملوا سيوفهم فى المسيحيين كافة ، اذا امتنع هؤلاء عن التحول الى الاسلام • وليس ثمة شك فى أن المحاربين العرب عرفوا بشدة البأس ، وخفة الحركة ، كما أن طريقة انتقامهم من الجيوش التى تحاربهم كانت معروفة ومشهورة، ولا ريب فى أن الفكرة القائلة بأن الجيوش العربية الفاتحة كانت تقطع رءوس جميع المدنيين المسيحيين بسيوفها المعوجة ، خاطئة كل الخطأ • فلم تكتف الامبراطورية العربية بالتسامح مع غير المسلمين ، بل كانت لها فائدة محققة فى مثل هذا التسامح وذلك عن طريق الجزية التى تفرضها عليهم • (١) ولكن مع مضى القرون شرع الغرب فى الاعتقاد بأن الاحتلال العربى الاسلامى للقدس ، ليس الا ذروة هذا التقطيع المزعوم لرءوس المسيحيين ، وكان هذا هو الذى دفع الصليبيين الى المبادرة لانقاذها من أيدى من كانوا يسمونهم بالكفرة ، عن طريق رموز البطولة الايجابية للسيف والطبق المسيحيين •

ولكن الصورة الصحيحة لتاريخ القدس المبكر ما لبثت أن تسللت الى تعليمنا • وحسر الباحثون النقاب ، عن أنه فى الوقت الذى توقف فيه الخليفة العربى عمر بن الخطاب أمام القدس ، ليعقد معاهدة مع ذوى الشأن فيها تضمن لاهلها من مسيحيين ويهود حرية العبادة شريطة دفعهم للجزية، راح صليبيونا فيما بعد يدخلون مدينة القدس عن طريق الخديعة ويغرقونها فى حمام حقيقى من الدم (٢) وقد توافرت لنا الآن صورة أكثر دقة عن الحوافز الحقيقية التى دفعت الى الحروب الصليبية ، وهى حوافز تشبه الى حد كبير تلك التى دفعت العرب فى طريق توسعهم الخيالى (٣) وتكون

---

(١) لا ادرى كيف توصل المؤلف الى هذه الفكرة الخاطئة . اذ ان كل من يعرف اقل شيء عن الاسلام يدرك أن الدين الحنيف أوصي بالتسامح مع أهل الكتاب على أسس روحية لاشأن للعامل المادى فيها . — المعرب —

(٢) كتاب «الحروب الصليبية» لستيفان رانسيمان الذى قال ... ودخل الصليبيون شوارع القدس يقتلون كل من يلقونه من رجال ونساء واطفال دون تمييز ، كما أحرقوا يهود المدينة وهم أحياء داخل كنيسهم .

(٣) يبدو أن المؤلف كان متأثرا هنا كل التأثر بما كتبه بعض المؤرخين الغربيين المتحيزين من العوامل المادية في الفتح الاسلامى ، متناسين أن الفاتحين العرب ، كانوا حملة رسالة روحية هى الاسلام ، الذى بشر به محمد (صلى الله عليه وسلم) وقد يكون=

مزيجا من الايمان الحربى والضغط الاقتصادى من الداخل ، واغراء الثروات الخرافية الموعودة (١) ٠

ويمكننا رؤية الجدة فى هـذه التصحيحات الاكاديمية لتاريخنا عن العرب والاسلام ، من الرأى الذى نادى به أستاذ من اكسفورد فى عام ١٨٩٤ عندما تحدث عن ظهور النبى محمد اذ قال :

« وحلت أخيرا اللحظة الحاسمة التى تحولت فيها تعليماته من مباركة البلاد العربية الى « لعنة العالم » ٠ وعندما شـعر بأن قوته باتت كافية ، أمر المتشيعين له ، بحمل السلاح ، وفرض الاسلام على جيرانهم بالقوة (٢) وظهور تيار من الخديعة والثأر والانغماس الأنانى ٠٠٠(٣) ٠

وقد عززت أساطير عدة هذه الفكرة من « لعنة العالم » ومن الاساطير التقليدية التى يحاول علمـاؤنا المعاصرون جاهدين محوها من مجالات معرفتنا وبينها الادعاء بأن العرب الأول الذين غزوا مصر عام ٦٤٠ ميلادية هم الذين تولوا احراق مكتبة الاسكندرية وتخريبها (٤) وتعكس هـــذه الاسطورة الاعتقاد الغربى الشائع بأن الحضارة العربية الاولى ، لم تكن الا مركبا من العنف ومن الديانة الجماهيرية ، والانغماس الانانى الخـالص فى المطامع ، وانها حضارة لا تحترم العـلم ولا تقيم له وزنا ٠ ومن الحق أن يقال أن تسعين فى المائة من الغربيين يربطون كلمة «بغداد» بقصص الف ليلة وليلة ، دون أن يأبه واحد منهم بالتفكير فى انها كانت فى يوم ماأعظم مراكز العالم فى الدراسة والعلم ، وأنها كانت حافلة بالمعاهد والمـكتبات والمراصد وشارحى التراث الحضارى الاغريقى ٠

وليس من العسير علينا أن نتتبع هذه الصورة المركبة عبر القرون ابتداء بالهزةالمرعبة الأولى التىوقعت فىعهد معركة تور . واستمر عداء

= المستر تشايلدرز وهذا هو الغالب ، قد فاتت عليه هذه الحقيقة عن حسن نية ، لانه من أحرار الفكر ومن الذين يتوخون الانصاف فيما يكتبونه . — المعرب —

(١) كتاب .. مرجع عن تاريخ القرون الوسطى .. لناشر وماكينل .

(٢) لا أدرى كيف يسمح من يدعى العلم ويعمل في الحقل الجامعى كأستاذ اكسفورد هذا لنفسه بمثل هذا التشويه للحقائق التاريخية اذ أن وصايا النبى (صلى الله عليه وسلم) لقادة الغزوات التى كان يوفدها ، والتى اوردتها جميع كتب التاريخ العربى تناقض هذه المزاعم تماما . — المعرب —

(٣) كتاب العصور المظلمة لشارلز اومئن .

(٤) تؤيد كتب التاريخ الصحيحة أن نصف المكتبة قد أحرق في عهد قيصر وان الصليبيين هم الذين تولوا احراق مابقى منها في عام ١٣٦٥ .

اللاهوت والدراسات الدينية للاسلام مع تقدم هذه الدراسات على حاله اذا لم نقل انه استمر فى النمو المضطرد . وتنكر العلماء والادباء الغربيون للاسلام فرفض مارتن لوثر مثلا أن يقرأ القرآن ووصمه بمختلف النعوت وواصل أدباء الغرب الحملة على الاسلام ومبادرته بالعداء ، مما يظهر بوضوح فى الكثير من كتب الادب والتاريخ . وقد استمرت هذه الفكرة على قوتها حتى القرن التاسع عشر وما زالت تعيش فى عقلنا الباطن حتى اليوم .

وجاءت موجة جديدة كل الجدة من التجارب الخارجية الواقعية ، لتسير بصورة موازية مع النظرة الباطنية المسيحية تجاه الاسلام ولتستفزها دافعة بذكريات أوربا عن المسلمين خطوة اخرى. فقد بات « الاتراك المسلمون » منذ سقوط القسطنطينية فى عام ١٤٥٣ يهددون أوربا تهديدا خطيرا أكثر من مائتى عام وباتت ديانة الاتراك وعاداتهم وحتى ملابسهم تثير مخاوف الاوربيين وتستفز فضولهم الكاره لها . وضاع اجدادنا من جراء اعتناق الاتراك للاسلام فلم يتبينوا حقيقة الفروق الضخمة التى تقوم بين العثمانيين والعرب . وراح الادب الغربى يصور التركى على أنه رمز الخداع والمكر والنزوع الى الشهوات ، كما ظهر فى الصورة التى رسمها شكسبير فى مسرحية « عطيل » للرجل التركى على لسان عطيل بطل هذه المسرحية .

وشرعت جامعتا أوكسفورد وكمبردج فى مستهل القرن السابع عشر فى انشاء معاهد جديدة للدراسات العربية ، هادفتين من ورائها الى استكشاف الكتب العظيمة التى نقلها العرب الى أوربا ، ومتأثرتين الى حد كبير بالنفوذ الكنسى . لكن هذا الوميض المبكر فى الدراسات العربية لم يبدل شيئا من موقف العداء الذى يقفه الغرب عامة من العرب والمسلمين ولم تخلف المجموعة القليلة من الكتاب «الكلبيين» (اشارة الى الفلسفة الكلبية الشكية ..) من أمثال بيير بايل وروجر ويليام ، والتى دعت الى التسامح وأبدت رغبتها فى ان تكون المسيحية طاهرة كل الطهر فى حماستها التبشيرية الا أثرا ضئيلا لا يكاد يذكر .

وتوقف التهديد العثمانى للقارة الاوربية على أسوار فيينا فى عام ١٦٨٣ م ، وبدأ الاتراك السير فى طريق تدهورهم الطويل . وشرع سلاطينهم يتدرجون نحو الاتجار مع أوربا ، حتى انهم سمحوا للمبعوثين الاوربيين بالاشتراك فى دسائسهم . وأخذ تجار أوربا ودبلوماسيوها ومبشروها ومكتشفوها، يعودون الى بلادهم حاملين صورة تركية عثمانية

الى حد كبير عن عرب الشرق الاوسط . وقد عززت هذه الاتصالات الجديدة في حد ذاتها الاسطورة الشاملة التى حملها المسيحيون فى الغرب ، عن ترف المسلمين وقسوتهم ، وحياة اللهو والبذخ التى يحيونها . وأسهمت كذلك فى ظهور تأثيرات أوربية داخلية جديدة ، على المواقف العامة تجاه العرب تمثلت فى أسلوب القرن الثامن عشر الذى حاول محاكاة ما تميز به الادب الشرقى أوالمنتحل صفة الشرقية من رومانتيكية ابداعية. وظهرت ترجمة جالاند الفرنسية لألف ليلة وليلة فى عام ١٧٠٨ لتعقبها « قصص فارسية » و « قصص من تركيا » .

وأثر هذا الاسلوب الادبى على نفر من كبار الشخصيات الادبية فى العصر المذكور ، كرد فعل على ما أسماه الكاتب الانكليزى « بوزويل » بنظام التفاؤل . وشرع الاديب البريطانى المشهور ، الدكتور صمويل جونسون ، فى وضع كتابه «راسيلاس» الذى ضمنه الوصايا التى ترمز الى استخدام الرومانتيكية الشرقية فى استبعاد التفاؤل اذ قال :

« وأنت يامن تتابع بلهفة أطياف الأمل ، وتتعلق بأهدابه التى توحى اليك بأن الشيخوخة ستحقق أحلام الشباب ، وان الغد سيعوض على ما فى الحاضر من نقائص وعيوب عليك أن تصغى الى قصة راسيلاس أمير الحبشة » (١)

وترجمت راسيلاس التى صدرت فى عام ١٧٦٠ الى الايطالية والفرنسية والالمانية والهولندية . وقد جاءت أثر صدور « رؤيا ميرزا » للكاتب أديسون واتفقت مع رسائل فارسية « التى وضعها الفيلسوف الفرنسى الشهير مونتسكيو ، مستخدما من الشرق ذريعة لتوجيه مايشاء من نقد اجتماعى . وكان هناك أيضا كتاب «فاتيك» لمؤلفه بيكفورد الذى يجمع بين الاسلوب القوطى والشرقى وكتاب «زاديج» لفولتير ، وكلها كتابات تضيف الى الانطباعات الغربية «عن الشرق» صورا عن طرائف الف ليلة وليلة . وكان تعبير «الشرق» فى تلك الايام يعنى «الاتراك» والمسلمين كما يعنى الهنود أيضا ، ومن هنا نشأ الافتراض بأن «تعبير» العرب ليس الا تسمية ثانية للأتراك . ولم يكن فى الامكان فى مثل هذا المسرح السياسى والادبى فهم الاسلام على حقيقته فهما صحيحا . ولعل هذا هو السبب الذى حدا باستاذ العربية فى جامعة أوكسفورد الى الحملة فى عام ١٧٨٤ على الاسلام مشوها حقيقته وناعتا اياه بالتضليل .

---

(١) كتاب «راسيلاس» لصمويل جونسون ــ الفصل الاول .

ونصل الآن الى القرن التاسع عشر ، اى الى الوقت الذى عاد فيه الغرب عودة حاسمة الى الاتصال بالشرق الاوسط . وقد اتسعت الآن آفاق الاتصالات بين العرب والغرب . وبات الترحال الى ماوراء الحدود الاوربية الآمنة هواية عظمى عند الاثرياء وذوى النفوس القلقة، والادراك اليقظ المتنبه . وكان بين هؤلاء الرحالة ، فولنى الفرنسى ، وبيركهاردت السويسرى ، وريتشارد بيرتون ، ودوتى وبيرى وبالانت البريطانيون . واجتذب الشرق الاوسط فى القرن التاسع عشر مجموعة ضخمة من المفكرين الاوربيين ، واستهوت مصر فى عهد محمد على ريشارد كوبدن، كما ارتحل السياسى الداهية دزرائيلى عبر اراضى مصر والشرق الادنى فى شبابه ، ودون ملاحظات هامة نقتطف منها مايلى :

« .. هناك شىء من السحر فى الحياة الشرقية ، وهو الراحة والاسترخاء » .

« وقد تركت على هذه الطبيعة ، انا الذى نشأت فى الاوساط الزائفة للحضارة الفاسدة ، والذى انغمست انغماسا طليقا فى طريق الشهوات والنزوات ، اثرا عميقا ... وفى وسعى ان أقول صادقا اننى نفضت عنى فى ربوع سورية وسهولها ، كل طموح شخصى » (١) .

ولكنه لم ينفض عنه طموحه حقا فنحن نرى فى قول دزرائيلى هذا بعض الاستهواء الذى خلفته الصحراء العربية فى نفوس الكثيرين والذى سنعود اليه بعد قليل . ولكن اقوال دزرائيلى تمثل جانبا واحدا من الصورة ، فى حين كان ثمة جانب آخر يتمثل فى كتاب « جورج ووكر » لمؤلفه انطونى ترولوب الذى صور الناحية السلبية والمحتقرة والمزدراة التى الفت جزءا ضخما من تراثنا الادبى عن الشرق ، والذى جاء فيه مايلى :

« وسواء اكانوا عربا ام اتراكا ام اقباطا ، فهم طراز واحد لاتباين فيه . انهم جميعا ينتمون الى عنصر مخادع وضيع جبان . وهم يتخلفون عنا كثيرا نحن الذين اتبعنا تعاليم المسيحية . ولكنهم يتفوقون علينا فى شىء واحد ، وهو انهم يحسنون الحفاظ على كرامتهم (٢) . »

ولعل هذه « الكرامة الشخصية » بعينها هى التى استهوت بعض

---

(١) منقول عن كتاب «ديزى» لهيسكيث بيرسون .

(٢) انطونى ترولوب فى كتابه « قصص من جميع البلاد » لندن عام ١٨٦٣ .

الناس من الغربيين واثارت حنق بعضهم الآخر وسخطه . ولاريب فى أن الصورة التى رسمها ترولوب كانت بين الصور الشائعة المقروءة عن الشرق الاوسط والتى أثرت على العالم الناطق بالانجليزية فى اواسط القرن التاسع عشر ، وكانت نموذجا من الازدراء الكامن عند الغربيين للشرق ، وهو الازدراء الذى مالبث أن اصبح عاما شاملا فى السنوات اللاحقة .

وشرع الرحالة الحديثون يفدون من أمريكا أيضا ، ولعل مذكرات الكاتب الامريكى ماركتوين التى نشرها فى عام ١٨٦٧ عن «نزهاته فىأوربا والبلاد المقدسة » تعطى لمحات رائعة عن الصور التى كان يحملها الغرب عن العرب حتى قبل مائة عام (١) ولقد رأينا فى انطباعاته عن رحلاته مزيجا من الروح الامريكية المناهضة للاستعمار ، والتراث العام للحروب الصليبية ، والمواقف المسيحية من الاسلام وكذلك من الصور التى قدر لها أن تغدو طاغية فى اهميتها عن المفهوم البدوى الصحراوى للعرب .

وقد كتب مارك توين عن سورية يقول :

« لو كان ثمة من شعب مضطهد قائم ، فانه هذا الشعب الذى نراه مكبلا بالاغلال فى ظل طغيان الامبراطورية العثمانية المنافى للانسانية . والسوريون جد فقراء ، ومع ذلك فقد فرض عليهم نظام مرهقللضرائب يكاد يطحنهم طحنا ، ولو فرض هذا النظام على أى شعب آخر ، لطوح به الىالجنون . . ولو اعطىالسوريون قسطا منالحرية والتعليم لباتوا شعبا راضيا قانعا . . . وكثيرا مانراهم يتوسلون الى الاجانب ، ليدفعوا العالم الكبير الواسع الى المبادرة فى يوم ما الى مساعدتهم وانقاذهم»(٢) .

ولاحظ السير ريتشارد بيرتون بعد نحو من ثلاثين عاما ، انه بالرغم من ظهور روح جديدة للتقصى والبحث فى الغرب عن الاسلام ، فان الحزازات القديمة التى خلفتها الحروب الصليبية ، والاضاليل الشائعة

---

(١) مارك توين في كتابه « ابرياء في الخارج » ـ امريكا ١٨٦٩ .

(٢) اعتقد أن مارك توين كان مغاليا في دعواه هذه ، اذ ان عرب سورية لم يكونوا قط راغبين في تبديل الاستعمار التركى باستعمار غربى مهما كان شأنه ، وقد ثبت صحة ذلك في الثورة التى ما لبثوا أن اعلنوها على الفرنسيين في عام ١٩٢٥ وفي حربهم لهم في ميسلون عام ١٩٢٠ عندما رأوا ان الفرنسيين يريدون استعمارهم ، واذا صح ادعاؤه بأن بعض السوريين قد اتصلوا به ، فهم من أولئك الذين يربطون مصيرهم دائما بمصير المستعمر وهم اقلية لايعتد بها . — المعرب —

عن العرب ، كانت لاتزال مسيطرة وغالبة (١) . ولاريب فى أن وصف مارك توين للرحلة التى قام بها الى القدس من انها رائعة للغـاية على هـذا الصعيد ، وأرى انها جديرة بالاقتباس هنا . . .

«وكان الاثر الرائع الذى استهوانا جميعا ، السيف القديم البسيط الذى كان يستعمله ذلك الصليبى الكبير جودفرى بولوان الذى بات يدعى بجودفرى ملك القدس . وليس ثمة من فصل فى دنيا المسيحية يستهوى الناس كهذا السيف . فهو يستثير فى عمل كل انسان جميع الذكريات التى ظلت هاجعة فيه عن الحروب المقـدسة ، ويعمر افـكاره بصـور الصليبيين لابسى الدروع ، والجيوش الزاحفة ، والمعارك والحصارات المفروضة .

« وليس فى وسعى ان انسى سيف جودفرى القديم هذا بعد اليوم . وقد جربته فى شخص مسلم، فمر فيه كما يمر فى العجين . وتسلطت على روح الصليبيين ، ولو كانت لدى مقبرة قريبة ، لوددت ان أقضى بهـذا السيف على كل من فى القدس . . . من الكفرة . » (٢)

وراح مارك توين يدون بعد ذلك افكاره التى انتـابته ابان حادث يتناول الجياد التى استخدمها فى رحلته . ولا ريب فى ان الصورة التى يرسمها هذا الامريكى العادى المنبت ، تكشف النقاب ، عن أن فكرة العرب الرحل فى الصحراء . كانت لاتزال فى مطلع القرن التاسع عشر ، مسيطرة على افكارنا هنا فى الغرب فهو يقول :

« كنت أتوق فى صباى لو كنت عربيا من أبناء الصحراء ، وكانت لى مهرة جميلة ادعوها « سليما » أو « بنيامين » أو «محمدا» (يالها من روح متعصبة خبيثة) ، وأتولى اطعامها بيدى ، وادعهـا تلج الخيمـة ، وأعلمها طريقة ملاطفتى لتنظر الى نظرة عطوف بعينيها الجميلتين . . وكنت اتوق لو جاءنى بعد ذلك غريب ، فعرض على مائة الف دولار ثمنا لها ، فيحل بى مايحل بالعرب الآخرين من تردد ولهفة الى المال ، لايلبث ان يغلبه حبى لفرسى . لأقول أخيرا « هل افارقك يا فرسى العزيزة الجميلة؟ لا . لن أفارقك ماحييت ! امض عنى أيها الرجل الذى تحاول اغرائى .

---

(١) كتاب بيرتون . « اليهود والغجر والمسلمون » ــ لندن ١٨٩٨ . (المعرب)

(٢) آثرت أن أنقل هذه الفقرة كاملة الى العربية لاظهر حقيقة النظرة الشريرة التى كان ينظر بها الغربيون ، ومازال ينظر بها بعضهم الى العرب دون اى زخرف او تزويق . (المعرب)

فأنا أحتقر ذهبك . ثم امتطى صهوتها لاذهب بها طرادا كالريح فى الصحراء » (١) •

واستمر هذا المزيج الغريب فى طريقة معاملة الغرب للعالم العربى والذى يجمع بين الاستهواء والتقزز ، فى النمو مع كل مرحلة جديدة من مراحل التغلغل العربى . وظل التركي الذى لايمكن وصفه يستثير طيلة القرن التاسع عشر التقزز والغضب الجامح . وظلت الكراهية لعقيدته تسيطر على جميع مواقفنا من الغرب . وادت مذابح عام ١٨٦٠ فى الشرق الادنى والتى لا سابقة لها فى التاريخ العربى الى الابقاء على الروح الصليبية بالرغم من الحقيقة الواقعة وهى أن الدافع اليها يعود الى السياسات الدولية لبريطانيا وفرنسا . وسرعان مالحقت بها فظائع الاتراك فى البلقان ، ثم أدت الاحقاد الدفينة الى افتعال اضطرابات الاسكندرية التى أسفرت عن ضرب مدافع البحرية البريطانية لمينائها فى عام ١٨٨١ (٢) •

وبدأت بعد ذلك مرحلة جديدة ، وهى مرحلة الاتصال الفعلى المباشر بين مئات الالوف من الجنود البريطانيين وبين جزء من العالم العربى ـ الاسلامى مما أنبت ثمارا جديدة من الكراهية • وادى مقتل جوردون ورجاله فى الخرطوم على أيدى دراويش المهدى ، الى خلق انطباعات جديدة فى العقل العام البريطانى قدر لها أن تعيش حقبا عدة • وظلت قوات بريطانية قوامها أحد عشر ألف جندى ترابط باستمرار بين عامى ١٨٨٢ و ١٩١٤ فى أراضى مصر التى لم يكن احتلالها مريحا بأية حال لهذه القوات • وحملت فى نهاية القرن قوة أخرى أضخم عددا ، قصصا جديدة عن الحملة التأديبية التى قام بها كتشنر فى السودان • وخبر تسعمائة ألف جندى بريطانى

---

(١) يتضح من هذا الخيال الغريب السقيم ، وما سبقه ان الغربيين كانوا يخلطون دائما بين العرب والاتراك ، وان الروح الصليبية كانت لاتزال مسيطرة على الكثيرين منهم وجلهم من الادباء والمفكرين . (المعرب)

(٢) استغلت صحف لندن هذه الاضطرابات الى أقصي حدود الاستغلال لتخلق الجو الصالح لتبرير غزوها الاراضي المصرية واحتلالها في عام ١٨٨٢ ، ويروى ويلتون وين في كتابه « ناصر مصر » أن صحف لندن حاولت قبيل العدوان الثلاثى على السويس في عام ١٩٥٦ ، اتباع نفس الاسلوب ، اذ ابرق رؤساء تحرير بعض الصحف اللندنية الى مراسليهم في القاهرة قبيل العدوان يطلبون منهم تزويدهم بقصص عما يلقاه البريطانيون في مصر من أذى ، ولكن هؤلاء المراسلين لم يستطيعوا ارضاء رؤساء تحريرهم ، اذ لم يكن ثمة من انسان يلحق الاذى بالمدنيين البريطانيين . ومع ذلك فقد تمكنت الصحافة البريطانية من خلق الجو المناسب بأساليب اخرى . (المؤلف)

ابان الحرب العالميـة الاولى ، مصر المشاكسة الحرون ، النـاقمة ، الشاعرة بامتهان كرامتها ، فى حين مضى آخرون من الهند الى العراق ، وتلت ذلك سنوات رابطت فيها الألوف والألوف المتعاقبة فى مصر وفى بلاد الانتداب الى الشرق منها ٠

وكانت الصور والآراء التى حملها هؤلاء الرجال ، عن الوطن العربى الى شطر ضخم من الراى العام البريطانى ، سلبية حتما منطوية على الزراية ، ولم يكن الجندى العامل فى قوات الحماية فى اى بلد افريقى آسيوى يرزح تحت كابوس الاحتلال أو الوصاية ، يعيش عيشة مريحة طيبة ، فكيف يعيش براحة فى بلدان الشرق الاوسـط ، التى لم تقم قط بينها وبين الدول المحتلة او المستعمرة ، العلاقات المنظمة التى تقوم عادة بين البلدين المستعمر والمستعمر ؟. وكان الجندى البريطانى يعيش فى هذا الجزء من العالم فى حالة مستمرة من التوتر ، ولا يكاد ينقضى عام دون وقوع اضطرابات من نوع ما يتحتم على هؤلاء الجنود اخمادها وسحقها ٠ يضاف الى هذا أن المحيط الذى يراه جندى الاحتلال كان ضيقا كل الضيق وسلبيا كل السلبيـة ٠ ولا تحمل رسـائله التى يبعث بهـا الى ذويه فى بريطانيا ، او قصصه التى يرويها فى ثكنته بعد عودته من رحلة فى الخارج ، الا طابع الحديث عن الأوكار الليلية العابثة التى أمها ٠ والاسواق القديمة المعتمة القـذرة ، والذباب والحرارة والمرض والموت ، وبائعى الصـور الجنسية القذرة ، أو بائعات الهوى ، وتجار التحف والهدايا المخادعين ، وقطاع الطرق فى الليل ، والجمـاهير الغاضبة فى النهار ٠ وتلتف اسوأ العناصر من الاهلين حول جنود الاحتلال ٠ ولم تكن هذه الانطباعات المثيرة فى أى وقت أكثر قوة منها فى الفترة التى شملتها الحربان العالميتان عندما اعتبر أهل البلاد ، اناسا « لا مبالين » بل متفرجين خائفين فى صراع عالمى مميت ٠ ولما كان الالوف من الجنود البريطانيين العاديين الذين أدوا الخدمة العسكرية فى الخـارج ٠ قد أقاموا فى مصر مدة أطول من اقامتهم فى أى بلد عربى آخر ، فان الحزازات المتجمعة ضد المصريين كانت طاغية فى عام ١٩٥٦ ٠

وهكذا باتت الصـــورة الغربية الشاملة عن العرب أكثر تعقيدا واضطرابا ، وتناقضا مع مرور الزمن ٠ ولم يحل مطلع القرن الحالى حتى كانت كتب لا تعد ولا تحصى قد صدرت عن الصحراء العربية ، ورسخت صورها فى عقول الغربيين من ذوى المكانة الاجتماعية والتعليمية البارزة ٠ فلقد عثر دزرائيلى على الراحة والبساطة فى سهول سورية الصحراوية ولكن كان هناك بين الرمال ما هو أكثر من البساطة والراحة ٠ فهناك

المفارقة الواضحة بين هذه البيد الواسعة ، الصامتة ، النظيفة التى تقطنها قلة من الشيوخ القبليين الأنوفين ، الواثقين بأنفسهم ومن يتبعهم من رجال ، وبين مايراه جميع الغربيين تقريبا فى مدن الشرق الاوسط من قذارة ومكر « تركي » وفساد وعنف • وأصبح الغربى يرى بعين الواقع فى الصحراء العربية وحصنا لكل ما توارثه من ضغائن موروثة عن العرب والمسلمين بينما يرى فى المدينة العربية ما يؤكد هذه الضغائن ، وكان الكثيرون من البريطانيين الذين يمرون فى أحياء القاهرة القديمة ، يرون فى الرجل المهلهل الثياب الذى يتجه الى مكة بصلاته التى يؤديها على حصيرة فقط ، تحيط بها النفايات ، شيئا منفرا ، فى حين يرون فى صلاة البدوى وتقواه فى الصحراء ، شيئا نظيفا يستهوى النفس ويجتذبها •

وقد قدر لهذا الاستهواء الزائد أن يغدو كبير الاهمية ، ولا سيما فى تاريخ الشرق الاوسط فى عصرنا الراهن ، مما يتطلب منا ان نوجه اليه شيئا من الدرس والاستقصاء • وليس ثمة من شك فى أن كل من وجد نفسه يوما ما فى الصحراء العربية ، يعرف تماما سحرها وان كان القليلون منهم فقط هم الذين يستطيعون أن يوضحوا هذا التأثر بها • والصحراء شديدة النقاء ، كثيرة العزلة ورائعة الجمال • وهى تحيى كل رجل غربى التحية التى تتفق مع فلسفته فى الحياة • فهى توقفه رجلا وحيدا امام خالقه ، أو تجعله رجلا على اتصال بالطبيعة ، أو انسانا تجرد من كل استهواء للحياة الآلية فى المدن ، او مخلوقا تكشفت له نفسه وبات عاجزا عن تجنب شكوكه ومخاوفه ومظاهر الضعف الطبيعية فيه • ولكن مهما كانت التحية التى تواجه الصحراء بها زائرها الغربى ، فان فيها شيئا من الانقسام الذاتى ، أو من مواجهة المطلق • ولا ريب فى أن هذه المواجهة للمطلق عند انسان القرن العشرين فى الغرب ، الثائر برغم انفه على المذاهب المادية العقلية وعلى محاولة التلاقى فى المفاهيم التى أقام عليها مجتمعه ، تعتبر تجربة مخيفة برغم مافيها من استهواء وجاذبية •

والافق مستعص بما فيه من خواء على الارادة الانسانية ، أما الاطلاقية فى الصحراء فطاغية كل الطغيان . ويتساءل الغربى عما اذا كان ثمة من رجل يستطيع أن يتفاهم فى يوم ما مع هذا المحيط المرعب الذى يستثير فى نفس رائيه انحرافات جنسية « ماسوشية » جذابة • وتبدو هناك فى الأفق البعيد ، مجموعة من البقع السود منتشرة فوق الرمال ، انها خيام البدو السوداء • وقد يكون اللقاء غريبا ولكن مع كل لقاء جديد يبرز هناك سحر أعظم • فهناك أناس يتقبلون الصحراء

كما هي وينسجمون معها · ويبدو انهم بالرغم من خشونتهم وبالرغم من افتقارهم الى الثقافة فى معناها الغربى ، فانهم سواء الأغنياء منهم وهم القلة ، أو الفقراء وهم الكثرة ، قد وصلوا الى نوع من التفاهم المنسجم مع المطلق ، وتبدو آراؤهم فى الحياة صلبة لا تعرف اللين أو الهوادة ، كما تبدو طريقتهم فى العيش فى منتهى البساطة والبعد عن التهذيب والتشذيب · وهم لا يحملون أى ظلال عن الحقيقة ، أو تدرجا فى المعتقدات ، أو خطوطا فاصلة بين الخير والشر ، أو بين الهدف واللا هدف · فهناك اله يؤمن به البدوى ، وهو اله متناه فى القوة وليس ثمة فى الصحراء الا أمثلة قليلة على ثورة الانسان الفانى على هذا الاله وتكوينه · ويبدو أن ليس ثمة من صراع فى نفس هذا البدوى بين الله والمحيط والارادة اللا ذاتية · واذا كانت غريزة الغربى تدفعه الى الثورة والحنق على ما يبديه البدوى من « قدرية » كادعائه بأن وفاة ولده الذى كان فى الامكان شفاؤه من مرضه ، ناجمة عن ارادة الله ، فان واقع الصحراء يدعوه الى الصمت ، اذ أن مثل هذا الايمان بها لايعتبر « قدرية » مطلقا ، بينما يعتبر كذلك اذا صدر عن أبناء الاحياء الفقيرة القذرة فى المدن ·

هذه هى الصورة التى حملتها فئة خاصة من الغربيين ولا سيما من البريطانيين الذين أدوا خدمتهم العسكرية فى الوطن العربى فى النصف الاول من القرن الحالى · وقد تداخلت عوامل كثيرة لا عد لها ولا حصر فى هذه العلاقة الوثيقة والقوية ، التى قامت بين هذه الفئة من ناحية وبين الصحراء وبدوها من الناحية الاخرى ، ولكنها تفاوتت فى قوة ما فيها من تأكيد بتفاوت الافراد واختلافهم · وعادت المسيحية الى الحياة عند عدد من البريطانيين الورعين بشكل لم يألفوه فى أى جو غربى · وانهارت أمامهم جميع المكائد والمناقشات العقائدية ، وتأثير الايقونات والوسطاء من البشر وتهاوت صفوف المعابد والكنائس أمام هذا السقف السماوى الواسع الذى يمتد فوق الصحراء · وعندما عاد هؤلاء الناس الى وطنهم فى الغرب ، بدا لهم المحتوى الغربى بما فيه من زخرف للنصرانية ، أشبه ما يكون بالمركز المهجور النائى ، أو بمحاولة التفاهم الشامل مع الحقيقة المركزة ، الصارخة فى البلاد التى نشأت فيها النصرانية · وبات من الاسهل على الجندى المسيحى أو الحاكم الغربى فى الصحراء ، أن يتفهم الاسلام وأن ينحى جانبا جميع الحزازات الموروثة البالية التى توارثتها دنيا النصرانية تجاه أضدادها ·

وساد الاعتقاد بالاضافة الى كل ذلك بأن أهل الصحراء يتمتعون

بقوة ومزايا خاصة يحتاجون اليها ويمكن تطبيقها فى كل مكان ، فهم نبلاء أصليون ينحدرون من القبائل العربية العريقة ، ويتفاخر شيوخهم القبليون بأنسابهم • وبدا نبلاء البدو للكثيرين من الغربيين الذين تولوا دراستهم فى سنوات التدهور النهائى للامبراطورية العثمانية بمظهر « العرب الاقحاح الوحيدين فى الشرق الأوسط » ، وأنهم هم الذين يعتزون بالحفاظ على تقاليدهم خلافا لأبناء المدن الذين اختلطت دماؤهم وأنسابهم مع الاتراك وغيرهم من الاقوام الاخرى •

وعندما تطلبت دواعى السوقية (الاستراتيجية) ودوافع السياسة فى خضم الحرب العالمية الاولى وما بعدها ، واقتضت مطالب السيادة والسلطان ، أن يقوم الاتصال مع ابناء الصحراء ، وأن تضمن مساعدتهم • اتفق بحث البريطانيين عن « الارستقراطية الفعالة العاملة » مع انجذابهم نحو هذا المحيط البدوى • ووجدت أفكار هذه المجموعة العقلية من ذوى النفوذ ، من عسكريين وجوابين للصحراء فى الشرق الاوسط ، تأثيرا لها لدى انصارهم فى الغرب ، وأثرت تأثيرا حاسما فى تقرير السياسات العامة (١) •

وقد بدأت فكرة بدو الصحراء تتثبت فى أفكار الغربيين وتنمو منذ أمد ما • ولكنها ما لبثت أن تقوت الى حد طاغ نتيجة الاسطورة التى حيكت حول رجل قدر له ان يبرز فى الحرب العالمية الأولى وهو تى • اى • لورنس • ولا ريب فى ان الأثر الضخم الذى تركته كتابات هذا الرجل عند المثقفين الغربيين ، والشعبية المثيرة التى رافقت نشر مغامراته على الراى العام الغربى ، قد تركا تأثيرات ثقافية متناهية الاهمية فى السياسة الغربية فى الوطن العربى فى غضون الاربعين سنة الماضية •

ولم تقتصر الشعبية الجماهيرية التى كسبها لورنس وبدو الصحراء الذى اشتهر هو بأنه « ملكهم غير المتوج » على القارة الأوربية بل تعدتها الى امريكا ، حيث باتت شخصية الشيخ العربى صورة ذائعة

---

(١) لو عاد المرء الى التاريخ العربى الحديث ابان الحرب العالمية الاولى وبعدها، لوجد ان الاستعمار اراد ان يخلق من بعض الشخصيات البدوية في كل مكان وضع أقدامه فيه طبقة ارستقراطية جديدة يربط مصالحها الى مصالحه ويستخدمها اداة لتحقيق اغراضه في المنطقة . وقد عمل اعمدة الاستعمار البريطانى في المنطقة من امثال فيلبى واورنس وبرسي كوكس وجرترودبل وبيك باشا وجلوب وغيرهم كثير على خلق هذه الطبقة واضفاء العروش والتيجان ومظاهر الزعامة القبلية عليها . لاستخدامهم كما ابتت احداث التاريخ العربى الحديث في ضمان مصالحه ورعايتها .

(المعرب)

الانتشار وقد رأينا الحكومة الامريكية توفد رسميا لويل توماس (الكبير) المحاضر فى جامعة برنستون ، فى عام ١٩١٧ الى أوربا ليكتب تاريخا عن الحرب العالمية بطريقة تغرى الشعب الامريكي بدخولها وألقى توماس نظرة على خنادق الجبهة الغربية التى تنتشر فوقها الجثث وتملؤها الوحول ، فقرر أن ليس فى هذه الجبهة من الرومانطيقية والسحر ما يدعو الى بعث الحماسة فى نفوس الامريكيين لدخول الحرب وانتقل من أوربا بمساعدة جون بوخان من رجال مصلحة الاستعلامات التى انشئت حديثا فى لندن ، الى جبهة الفريق (الجنرال) اللنبى ، فى الشرق ، علّه يعثر فيها على مادة أفضل . وتعرف فى شهر فبراير (شباط) من عام ١٩١٨ ، فى مدينة القدس التى كان جيش اللنبى قد احتلها قبل برهة وجيزة ، الى ضابط بريطانى شاب يرتدى ملابس البدو الزاهية ، ويدعى لورنس « البلاد العربية » . وادرك لويل توماس فورا ، انه قد التقى باحدى الشخصيات النادرة فى التاريخ ومضى لتوه يعمل فى جمع المعلومات والتقاط الصور عن الثورة العربية التى كان لورنس على اتصال وثيق بها .

ولكن الهدنة ما لبثت أن عقدت قبل أن يحقق لويل توماس ما يتوخاه من نتائج من رحلته ، وما كاد يعود الى نيويورك ، حتى شرع فى التاسع من مارس (آذار) عام ١٩١٩ يفتتح موسم المحاضرات التصويرية بسلسلة أطلق عليها اسم « مع لورنس فى بلاد العرب » ولم تكن هذه المحاضرات الا مجموعة من الصور التى تمثل انطلاق الجياد والابل فى طرادها والمحجبات من النساء ، والاماكن المقدسة ، والشيوخ الذين لا يحصر عددهم من زعماء البادية . وما لبثت هذه المحاضرات ان انتقلت الى حدائق ميدان ماديسون لتكون أوسع انتشارا . وأجرى الرجل عقودا تمتد مدة عام كامل ، يطوف فيه بصوره ومحاضراته ربوع أمريكا كلها ، ولكن الشريط ما لبث أن نقل برجاء خاص الى لندن ، ليعرض فى شهر أغسطس (آب) من عام ١٩١٩ فى حدائق كوفنت أمام حشد ضخم من النظارة فى ليلة الافتتاح . وقد أضفى على الافتتاح جو آخر من التزويق بعرض أوبرا عن النيل ورقصة الاقنعة السبعة ، وظهور مغن ايرلندى يحاول محاكاة الآذان الاسلامى داعيا الى الصلاة ، وعمت الحماسة العاصمة البريطانية ، وانتقلت المحاضرة المصورة من جديد الى البرت هول . وحث لويد جورج — رئيس وزراء بريطانيا آنذاك — لويل توماس على الانتقال بمحاضراته فى جولة يطوف بها العالم الناطق بالانكليزية وقد لبى الكاتب الامريكى رغبة لويد جورج بعد

نحو من ستة شهور ٠ وكان أكثر من مليـــــون انســـــان قد شاهدوا في غضـون ذلك هذا الشريط التصويرى فى لندن ٠ وقد عرض نحـــوا من ألفى مرة فى أمريكا وبريطانيا واستراليا وغيرها من الاماكن ، ورافقت هذه العروض حملات صحفية واسعة النطاق فى الصـــحف اليوميـــــة والمجلات ٠ وبيع من كتاب توماس الذى حمل الاسم نفسه أكثر من مائتى ألف نسخة من طبعته الانكليزية وحدها ، وهو رقم خيالى بالنســـبة الى حقبة العشرين ٠

ولم يحظ العرب قطعا قبل هذا التاريخ أو بعده ، بمثل هذه الدعاية الخيالية الكبيرة فى العالم الغربى ٠ وأدى تمثيل رواية «الشيخ» لرودولف فالنتينو والصور التى جمعها توماس عن لورنس وعن العرب ، الى ظهـــور البلاد العربية على الخريطة : وآثار فيلم « الشيخ » استجابة ضـــخمة فى العصر الذى تلا الحرب والذى تميز بالميل الى المغامرات المتهورة ، والتعطش الى الأجواء الرومانطيقية وحياة المجازفة ، والقلق الخطير الناجم عن ازدحام العصر الآلى ٠ ولم يكن هناك من يرغب فى أن يذكر بطراز الفروسية الذى عرفته الجبهة الغربية ٠ ولا ريب فى أن الناس فى بريطانيا كانوا أكثر تأثرا برؤية الشيخ القبلى الجرىء يندفع من الصحراء ليخطف فتاة أوربية جميلة ، ثم يقوم بعد ذلك ضابط أوربى أكثر شجاعة بانقاذها منه ٠ وقد تم اخضاع الغرب الكبير فى أمريـــــكا ، ليألف الناس فيه المســـاحات الشاسعة والمغامرات ، وســـــاعد الشيخ العربى فى ملء فراغ معين ٠ واجتازت الصــــــورة المحيـــط الاطلسى ، مزودة الجماعات المثقفة على جانبى المحيط ـ بالأمور التى كانت تفتقدها ٠

ولكن هل كانت الصورة التى انطبعت فى العقل الغربى الحديث هى بالفعل صورة الوطن العربى ؟ أرى لزاما أن نبقى على هذا السؤال بلا رد مدة أطول مع الاكتفاء بأن نلاحظ أن الصورة التى انطبعت فى عقول جماهير الشعب ، كانت تمثل بصورة طاغية الانسان العربىعلى أنه رجل الصحراء الذى لا يملك مسكنا ثابتا مستقرا ، والذى يصنع لنفسه الشريعة التى يريدها ، والتى تكون فى جوهرها ٠ كراهية المجتمعات المدنية المنظمـــــة والمحكومة حكما جماعيا ، والمسترخية العيش ٠ يضاف الى هذا ، ولعـــل هذا هو الأهم ، انه كان هناك نوع من الرونق الايجابى لهذه الصــــورة وهو عنصر الاعجاب الرومانطيقى بصعاليك الصحراء ٠

ونمت الى جانب هذه الصورة الشائعة ، صورة أخرى أكثر تعقيدا عند أولئك الذين يتمتعون بمزيد من الثقافة والميل الى المعرفة ٠ وأضحت

كتابات لورنس نفسها بكل ما فيها من عذوبة الاسلوب والوصف الرائع للصحراء حافزا حقيقيا للآخرين • وشرع الكثيرون فى اخراج الكتب عن الصحراء العربية وعن عرب الصحراء أيضا ، متناولة الكشف عن تجاهلها ، وعن طبيعتها ونباتاتها وحيواناتها وآثارها ، وذكرياتها الحربية ، على أن لورنس ظل المرجع الذى لا يبارى أو يجارى فى الحديث عن العرب ، أو لم يطلق عليه كتاب « من هو ؟ » لقب « أمير الجزيرة العربية » •

وهكذا لعبت آراؤه عن الشخصية العربية وعن نوازعها السياسية دورا كبيرا فى تشكيل عقل الغربى المثقف تشـــكيلا سرعان ما برز فى السياسة الغربية الرسمية • فلقد ذكر لنا لورنس أن فى الامكان أن يقف العرب من أية فكرة موقفا متارجحا كالخيط المتذبذب ، الى أن تكون الفكرة قد اختفت ويكون العمل قد انتهى الى حطام •• وهكذا يشبه العرب الماء فى عدم استقراره ورجرجته(١) وخلقت كتب لورنس وغيره من البريطانيين الذين عادوا لتوهم من الصحراء • صورة مبهمة عن العقلية العربية تقوم على أساس الشكل الذى رسموه لشخصية القبيلة العربية • ولعل من النتائج الحيوية الاخرى ، التى انبثقت عن هذه الكتب ، الاعتقاد الشامل الذى ساد الغرب « بأن العرب قد يتحدثون كثيرا عن الوحدة ولكنهم لن يتولوا تحقيقها أبدا » • أو لم يقل لورنس نفسه ان « الوحدة العربية هى فكرة انســان مجنون •• وان ما أراه من سبيل هو قيام مجموعة من الدول الصغيرة » (٢) وهكذا كانت الطبيعة الكاملة للمجتمع البدوى القبلى ، متناقضة مع الفكرة الغربية عن الوحدة السياسية •

وهكذا كان من الطبيعى بالنسبة الى الجمهور البريطانى والى المثقفين وساسة الفترة التى تلت نهاية الحرب العالمية الاولى ، أن السياسة البريطانية فى الوطن العربى يجب أن ترتكز على نبلاء الصحراء وعلى الشخصيات الثرية والمحافظة والنبيلة فى المدن ، طالما أن هؤلاء على استعداد للتعاون مع بريطانيا

---

(١) كتاب لورنس « الثورة في الصحراء » نيويورك •

(٢) رسالة لورنس الى مؤرخ حياته ليدل هارت ـ فابر ـ لندن ١٩٣٨ • لايقصد مؤلف هذا الكتاب أن يقول ان لورنس لم يكن يعرف شيئا ابدا عن العرب ولكن مايود قوله هو ان هذه المعرفة قد بولغ في تقديرها تمام المبالغة • فلقـد ثبت خطل الكثير من احكامه وتوصياته • ولكن الحالة التى أحاطت به ، جعلت آراءه في كثير من المشـاكل الحاسمة وفي لحظات حرجة في المفاوضات التي تلت عام ١٩١٨ تتخذ شكلا باتا قاطعا • وقد سيطر على رجال من أمثال ونسـتون تشرشل الذى اشركه في رسم خريطة الشرق الاوسط على الورق • (المؤلف)

ومع ساستها • وقد صح هذا القول بالنسبة الى السياسة البريطانية فى الجنوب والخليج العربيين ، وبات الآن صحيحا بالنسبة الى امارة عبد الله فى شرق الاردن والى مملكة العراق الجديدة • وعلى القارىء ألا يظن أن نبلاء الصحراء هؤلاء كانوا خانعين مستكينين دائما ، فعلى النقيض من ذلك كان اعرابهم الانوف عن شكل من اشكال الوطنية العربية الذى تحترمه السلطات البريطانية بسبب مافيه من جذور ارستقراطية وتاريخية ، جزءا من العلاقة القائمة بينهم وبين هذه السلطات (١) •

وكان فيلق الموظفين البريطانيين من عسكريين ودبلوماسيين ومستشارين مدنيين ، الذين يمثلون بريطانيا فى الشرق الاوسط ، يعربون دائما عن مدى استهواء الصحراء البدوية لهم • وكانت الكتب التى يرجعون اليهـا هى من طراز ما ألفه دوتى وهوجارت ولورنس وجروترودبل • وعززت التجارب الشخصية التى مروا بها سواء أكانوا فى الوظيفة ، أم خارجها فى أجازاتهم المحلية القصيرة ، هذا الاستهواء الذى تبعثـه الصحراء فى نفوسهم ، فلقد بان من شروط البروز فى المجتمع ، أن يكون المرء قد قضى وقتا فى الصحراء ، وأن يكون قد تعرف الى البدو • وهل يمكن للمدينة العربية التى توفر لهم بما فيها من قذارات ودسائس وأمراض ومثيرات وضيعة يومية ، تعـرض لهم ، شيئا يعوضهم عن اغراءات البادية ؟ لقد كان ما يتميز به عمال المدن العربية من جهل وفقر ، وما تسعى اليه طبقتها التجارية الوسطى الحديثة النعمة من اقتباس للحياة الغربية ، ومظاهر السخط التى تصدر عن الموظفين من ذوى الياقات «المنشاة» والميول التى يبديها الاساتذة والمعلمون لتذكير البريطانيين بالمبادىء التى يبشرون بها فى بلادهم ويتناسونها فى الشرق الأوسط ، والحركات القلقة التى تقوم بها الأجيال الجديدة من الطلاب ، كلها عوامل تؤلف الجانب السلبى من صورة الشرق الاوسط وحياته التى تدفع هؤلاء البريطانيين الى التقرب من الصحراء

وهكذا بات فى وسعنا الآن أن نرسم خطوط الصورة التى كانت ماثلة فى أذهان الغربيين عن العرب ، وأن نشير فورا الى وجود « ازدواجية فى الافكار التى تجمع بين روعـة الصحراء وروعة شيوخها فى عبـاءاتهم

---

(١) لم تكن مواقف المعارضة التى كان يقفها هؤلاء العملاء ، متظاهرين بالوطنيـة الا تحسنا وزيفا لخداع الجماهير العربية ، باتفاق مع السـلطات البريطانية الحاكمـة .
ويبدو من قول المؤلف انه اراد الاشارة الى هذه الحقيقة دون ايضاحها ايضاحا كافيا .

(المعرب)

الفضفاضة وعقولهم الذهبية المقصبة وكوفياتهم الحريرية البيضاء ، وبين صورة العرب فى المدن التى تتمثل فى القذارة والحطة والخديعة (١) وكتب بريطانى بارز آخر شهد هذه العملية كلها على النحو التالى :

« كان هناك ميل واضح الى اظهار المزيد من الحب والعطف للشيوخ القبليين الرائعى الصورة، الساحرى الهيئات ، والى ممثلى الارياف وكبرائها دون العرب المثقفين ثقافة غربيـــة ، المتميزين بالقلق والســخط من أبناء المدن ، واذا كان ثمة من اضــطرابات فان مصدرها هؤلاء الناس المثقفون ثقافة غربية » (٢) .

ونصل الآن الى سؤال واضح .. ترى ما هي الحقيقة ؟ التقى فى عام ١٩٥٥ ضابط بحرى أمريكى مثقف ، بضابط مصرى فى مكان ما فى ايطاليا . وعندما علم الضابط الامريكى أن صديقه يعيش فى القاهرة ، راح يوجه اليه السؤال التالى بصورة فى منتهى الجد قائلا : « آه قل لى ، هل أقمت خيمتك على مقربة من النيل؟» وهل يبعد هذا السؤال كثيرا عن الصورة التى حملها الغرب عن عالم الصحراء العربية ؟ اننا فى حاجة الى الرد على هـــذا الســؤال فى شكلين اثنين ، اولهما معــرفة نســبة البدو بين العرب ، والآخر درجة التحول الى حياة المدن ونسبته فى غضون الثــلاثين عاما التى تلت عام ١٩١٨ والتى كانت صورة بدوى الصحراء ، مســيطرة سيطرة كلية على الغرب . وهذه بعض المعلومات الأساسية .

« لم يكن فى مصر فى عام ١٩٢٧ أكثر من خمسمائة ألف من البدو من انصـــاف المتحضرين يعيشون وسط شعب يتجاوز عدده أربعـــة عشر مليونا . وكان عدد ســكان المدن يربو على نصـــف الرقم الكلى للسكان . وعندما حل عام ١٩٤٧ كان نحو من ثلاثة وعشرين فى المائة من مجموع السكان يعيشون فى عشرين مدينة فقط ، وكان عدد البدو قد هبط الى الخمسة والخمسين الفا من مجموع التسعة عشر مليونا . وكان عدد سكان القاهرة فى عام ١٩٢٢ نحوا من ثمانمائة الف ثم ارتفع هذا الرقم فى عام ١٩٥٢ حتى بلغ مليونين ولم تكن هناك « خيام تقوم الى جانب النيل » .

---

(١) كراكتاكوس ــ كتاب « ثورة العراق » لندن ١٩٥٩ . وقد نقله معرب هـذا الكتاب الى العربية .

(٢) ميشيل ابونيدس فى حديثه الاذاعى « التفاهم مع العرب » ٧ اغسطس ١٩٥٨ ــ لندن .

« وكان عدد أبناء القبائل الرحل فى سورية ولبنان فى عام ١٩٢٢ نحوا من ثلثمائة وخمسين ألفا من مجموع سكان يربو على المليون · وكان ما يربو على الخمسة والعشرين فى المائة من الرقم الكلى ، يعيشون فى مدن دمشق وبيروت وحلب وطرابلس وحمص · ويبلغ عدد سكان سورية اليوم أربعة ملايين ونصف المليون وعدد سكان لبنان مليونا ونصف المليون · ويعيش نحو من مليونين من مجموع السكان فى البلدين فى عشر مدن رئيسية · ولا يعدو عدد البدو الآن أكثر من مائة وسبعين ألفا وارتفع عدد سكان دمشق من (١٨٨) ألفا الى (٣٠٣) آلاف وعدد سكان بيروت من (٩٥) ألفا الى « ٢٤٧ » ألفا .

وكان عدد البدو فى فلسطين فى عام ١٩٣١ لا يربو على الواحد والستين ألفا من مجموع السكان العرب البالغ عددهم تسعمائة ألف · وكان نحو من خمسة وعشرين فى المائة من مجموع السكان العرب من أهل المدن · أما البقية فتعيش اذا استثنينا البدو على العمل المستقر فى الحقول ومع ذلك فلقد كانت هناك فكرة مستقرة طيلة أيام الانتداب ، وتعمل الصهيونية على ترويجها ، بأن فلسطين ، أرض خالية تقريبا من السكان ·

« وعندما اقتطع تشرشل ولورنس، فى خريطة رسماها على غطاء مائدة فى أحد مطاعم لندن ، شرق الاردن من الصحراء السورية ، كان عدد البدو فيها يبلغ نصف عدد السكان تقريبا · فلقد كان العدد الاجمالى للسكان لا يتجاوز الثلثمائة ألف منهم (٥٤) الفا يعيشون فى المدن الصغيرة · ولكن عندما ضمت مملكة الاردن الجديدة الى أرضها فى عام ١٩٤٩ ما تبقى من فلسطين العربية ، تبدلت الصورة الفعلية لترتيب السكان فى البلاد بالرغم من عدم وقوع أى تبدل فى نسبة البدو فى الضفة الغربية · وبات التكوين الاجتماعى للبلاد على النحو التالى (٤٥٠) الفا يسكنون المدن و (٣٨٥) ألفا من أهل القرى المتحضرين و (٤٧٠) ألفا من اللاجئين ومعظمهم من أهل المدن السابقين أو من الفلاحين المستقرين و (٦٥) ألفا من البدو واشباه الرحل · وارتفع عدد سكان عمان من عشرين ألفا فى عام ١٩٢٢ الى مائتى ألف » ··

« وكان عدد سكان العراق عند بدء هذه الفترة يشتمل على نسبة كبيرة من أبناء القبائل يعيشون بصورة جماعية على أراضى القبيلة المشاع · وكان عدد سكان بغداد (١٤٥) الفا من مجموع مليونى نسمة يعيشون فى العراق كله · وبلغ عدد سكان بغداد فى عام ١٩٥٢ ، نحوا من (٤٧٠) الفا بينما ارتفع عدد سكان العراق كله الى الخمسة

ملايين منهم ثمانية فى المائة فقط من البدو الرحل واثنان وعشرون فى المائة من أهل المدن ، واثنان وعشرون فى المائة من الفلاحين وثمانية وأربعون من البدو المستقرين الذين يعملون فى الزراعة » ٠

هذه هى البلاد والكيانات السياسية الجديدة الخلق ، التى تركزت عليها السياسة الغربية ، والصورة الغربية العامة عن العرب طيلة السنوات الثلاثين التى انقضت بين تسويات الصلح بين عامى ١٩١٩ و ١٩٢٢ ، وبين ثورة الجيل العربى الجديد بين عامى ١٩٤٩ و ١٩٥٢ ٠ ولا ريب فى أن الارقام التى سردناها تتحدث عن نفسها (١) وهكذا كانت صورة بدو الصحراء خيالا خطرا خادعا حتى فى عام ١٩٢٢ ٠ ولكنها ما لبثت أن انقلبت فى عام ١٩٥٢ الى سراب كامل قوامه سوء الفهم الى درجة استثنائية ٠ ويعيش اليوم فى الشرق الاوسط العربى أى بين مصر والعراق وبين شمال سورية وعدن نحو من أربعين مليونا ٠ ويعيش نحو من ثمانية ملايين من هذا العدد الاجمالى فى المدن والبلدان الكبيرة وحدها ٠ وليس فى المنطقة كلها بالرغم من شمولها الجزيرة العربية أيضا ، أكثر من ثلاثة ملايين ونصف المليون من البدو الرحل ، أو انصاف الرحل ٠ ولكن بالرغم من هذه الحقيقة التى تعززها الارقام ، ما زالت الصور الغربية التى تمثل السياسات الغربية ، تعرض الصحراء ، والبدو العرب ، وأشجار النخيل العربية التى تمثل الواحات ، وقد ظهر فيها شيخ عربى فى سيارته الكاديلاك ليمثل على سبيل الافتراض صورة « الف ليلة وليلة » فى الوطن العربى ٠ وكثيرا ما تظهر هذه الصورة الساخرة أيضا وجه خروشوف وهو يطل من وراء شجرة نخيل منعزلة ٠

وليس ثمة الا القليل من الامثلة المشابهة لهذه من مفاهيم الغرب عن أقوام وجماعات ثقافية أخرى ، حيث تتعرض هذه المفاهيم لاعادة النظر جذريا وبصورة مستمرة فى الصحافة والمدارس والحلقات السياسية ٠ وقد قمت ذات مرة فى أحد أعياد الميلاد الاخيرة بجولة دراسية طفت فيها بمكتبات لندن ، للبحث عن الكتب الجديدة للاطفال فى مختلف الاعمار ٠ ورأيت فى طوافى هذا ، الصورة العربية التى تلقن حتى الآن لجيل غربى جديد ، والتى اكتفى هنا بسرد مثلين معبرين كل التعبير عنها ، أما المثل الاول ففى صورة كتاب قصصى ٠

---

(١) استندت في هذه الارقام الى الاحصاءات الرسمية : والى تقارير اللجان الملكية لفلسطين وكتاب الدكتور محمد عوض عن «الجماعات القبلية في الشرق الاوسط»
(المعرب)

« واندفع العرب يصرخون صراخا حادا ، ثم كبحوا جماح جيادهم فأوقفوها بصورة مفاجئة · وترجل رجل طويل معقوف الانف عن جواده، وقال بعد أن حيا تحية هازئة بانكليزية سيئة ·· ان الشيخ الرازى تحت تصرفك ·· وعليك أن تأتى معنا ·· » (١)

أما المثل الثانى فيعكس بصورة لاشك فيها مشكلة خطيرة تواجه المشرف على تأليف الكتب المدرسية أو الموجزات الاعلامية · فهو يود أن يرسم نماذج مميزة من الشخصيات البشرية وطرز السلوك وأشكال المحيطات فى كل منطقة من مناطق العالم · انه لايريد أن يضلل القارىء الطفل ، ولكن بالرغم من ذلك ومن هذه الرغبة التى يدعيها ، فان أطفال الغرب من صبيان وفتيات مازالوا يلقنون عن الوطن العربى على النحو التالى :

يعيش عبد الناصر فى البلاد العربية وهى بلاد حارة جافة لاينزل المطر فيها الا لماما · ومعظم البلاد العربية أرض صحراوية ·· والقبيلة التى ينتمى اليها عبد الناصر ، من البدو الرحل الذين لا يستقرون فى مكان واحد ، وانما يتنقلون فى الصحراء بحثا عن المرعى والماء لقطعان اغنامهم وماعزهم وابلهم ·· ويستقل عبد الناصر نفسه الجمل فى تنقلاته » (٢) ·

وأخيرا هناك عنصر مهم آخر يتمثل فى الصورة الثقافية المركبة التى نحملها للعرب ، والتى أرى أنها جديرة بالملاحظة ، وأعنى بها مواقفنا من مصر · لقد بدأت صلات العرب الحديثة مع الشرق الاوسط من رسمية ومالية وأثرية وتربوية وسياحية ، بمصر قبل غيرها من أجزاء هذا الشرق ، وكانت أكثرها شمولا واتساعا · ولقد تقرب الغرب من مصر ، وهو يحمل فى عقله الجماعى ، عدة مفاهيم ثابتة الرسوخ · فلقد كان من الراسخ فى الثقافة الغربية أن المصريين يؤلفون عنصرا من أقدم الاجناس البشرية المنظمة فى العالم ، وظل مفهوم « الجنس » هذا ، الذى يقرر الطبيعة الثقافية والسياسية لاى بلد من البلاد أو شعب من الشعوب ، قويا بالنسبة الى فكرة الغرب عن مصر ، حتى انقضاء امد طويل من القرن العشرين · وليس ثمة شك فى أن رفض العلم الحديث ،

---

(١) قصة «واحة الزيت» في كتاب الديلى ميل السنوى للاطفال ـ لندن ١٩٥٨ ·

(٢) كتاب « نظرة الى الاطفال الآخرين » لفادسبى ـ لندن ١٩٥٨ ·

ومفاهيم علم الأجناس البشرية ، بالاضافة الى المفاهيم العنصرية ، مازال يتسلط على الكثير من وجهات نظرنا عن العالم ·

وكنتيجة لهذه المفاهيم ، كانت مصر تعنى للغرب حضـــــارة أقدم عهدا بكثير من حضارة العرب ، وبات من المتعذر والحالة هذه على الغـربى أن يفهم « تعريب » مصر الذى وقع قبل أكثر من ألف عام أى منذ ايام الفتح العربى لها فى عام ٦٤٠ ميلادية ، والذى استمر حتى اليوم · ولقد كان معظم أبناء الطبقة المختارة التى ظلت أوربا والغرب على اتصال بها حتى عام ١٨٨٢ ، من الاتراك ، الذين تأثروا بطرق الحضارة الاوربيـــة الجديدة · وكانت الحركة الوطنية التى واجهتها بريطانيـــا فى مصر بين عامى ١٨٨٢ و ١٩٥٢ ، مصرية الطابع الى حد كبير كما سبق لنا وأسلفنا فى هذا الحديث ، ونمت اعراف ســـياسية وادارية كاملة حول النظرية القائلة بأن « المصريين » يؤلفون عنصرا بشريا قائما بذاته ، يختلف كل الاختلاف عن شعب الوطن العربى · وعلى هذا الاســـاس كانت دوائر السياسة البريطانية وأجهزتها التى تعنى بمصر غير الدوائر والاجهـزة التى تعنى بالاجزاء الاخرى من الشرق العربى ، وكانت طبائع الرجال الذين يتولون الاشراف على هذه الدوائر والأجهزة وشخصياتهم مختلفة كل الاختلاف بالنسبة الى هذين الجزئين من الشرق الاوسط · وبالاختصار كان من المستحيل تصور وجود رجل كلورنس ينظم قوة ثورية من الفلاحين المصريين كما كان من المؤكد ، أن شخصا مثل « جلوب » ، لا يمكن أن يوجد ليحب المصريين ·

ولم يكن هذا الانقسام المتزمت مجرد ثمرة من ثمار العصر · فهناك فى أعماق العقل الباطن للثقافة الغربية تحيز خاص ضد « المصريين » ، ونحن نستمد هذا التحيز من تلاواتنا الكتاب المقدس فى مدارس الاحد ، ولا ريب فى أن دوره فى مواقف الدول الغربية من نزاع مصر الحديثـة واسرائيل الجديدة ، يؤلف موضوعا جديرا بالدرس · وعنـــــدما عادت أوربا الى اكتشاف مصر من جديد اكتسب هذا الغرض الجوهرى مزيدا من القوة والتعزيز ووجد أسلافنا من رجال القرن التاسع عشر ــ وقد تشبعوا بروح طبيعية من الكبرياء والاعتزاز بمنجزات حضارتنا الغربية ــ فى مصر بلدا غارقا فى التدهور والتاخر ، ولا تضم الا فئة قليلة مختارة ، تثير تصرفاتها وثقافتها المختلطة ، أعصاب هؤلاء الاسلاف ، وتضللهم · وظل منذ ذلك الحين سؤال حائر فيه معنى الزراية ، يسيطر على عقولنا ، وهو كيف يمكن لهذا الشعب الذى كان موهوبا فى يوم ما الى درجة عظيمة

أن يهبط الى هذا الدرك ؟ أولا يمكن أن يعزى ذلك الى عيب متوارث في أصول هذا العنصر ؟ .

وظلت العلاقات المصرية ـ الاوربية منذ ذلك الحين ، تمثل أكثر العلاقات التي ظهرت مع نشوء الاستعمار والسياسات المالية توترا ، واثارة وازعاجا . وظلت مصر منذ هبوط نابليون أرضها ، وطيلة عهد محمد على الحديث النعمة بالملك ، وايام عرابي الرجل العصامي . وطيلة ايام الاحتلال المزعجة ، مصدر اثارة لبريطانيا وفرنسا والغرب عامة . وكان من العسير بصورة خاصة ، بل من المستحيل على معظم البريطانيين الذين يعملون في مصر أن يقنعوا انفسهم بأنهم يؤدون عملا يقوم على الحب أو على نظرية الايثار الاستعمارية الليبرالية . واقامت تجارب السياسة البريطانية في مصر القائمة على أساس فرض القوة بصورة رئيسية ، شيئا من الاجتهاد النفسي أما في الشرق والمغرب العربيين فان الاحلام الخاصة باعادة بعث التاريخ العربي والمبادىء الظاهرة لأنظمة الانتداب ، تمكنت من أن تشجع وجود نظرية العمل الانساني القائم على الحب .. ولقد شهدت شوارع لندن وأدنبره في عام ١٩٥٥ ، جوقة موسيقية من البدو الاردنيين تعزف أنغامها وهي تمر فيها ، فتستثير في نفوس السامعين كل الذكريات المتعلقة بلورنس ، ولم يكن هناك من يتصور . أن مثل هذه الحفاوة ، قد تقابل بها فرقة مصرية مماثلة في بريطانيا في الفترة الواقعة بين عامي ١٨٨٢و١٩٣٦ وهي الفترة التي كانت بريطانيا تفرض فيها على مصر حكما شبه استعماري . وكانت صورة أمير شاب من أمراء « الاسرة المالكة العربية » وهو يدخل كلية هارو أو كلية ساند هرست لاول مرة ، تستهوي قراء مجلة « لندن ايلستريتد نيوز » ، في حين كانت ثمار النربية المصرية تستفزهم ، وكان فاروق نفسه يوري بتصرفاته هذا الاستفزاز ، اذ أن القليلين في الغرب هم الذين كانوا يعرفون أن فاروقا بعيد عن مصر بعد الارض عن السماء .

وعندما نعرض الازمات وألوان الصراع التي وقعت في السنوات الاخيرة ، لا نرى داعيا مطلقا للمبالغة في أثر هذا الكره العميق عند الغرب للمصريين أو أثر هذا الفصل من الغرب بين مصر والعرب ، اذ أن الكره والفصل قائمان ولا يحتاجان الى مبالغة . ولم تتح لهذا البلد ـ الذي يعتبر أكبر البلاد العربية وأكثرها تقدما ، ومحور اندفاعها وانطلاقها ، والذي كان أول ماثار منها وجنح الى الاصلاح ، وانطلق صوته عاليا يعرض ميول العرب الى الحياد في الحرب الباردة ـ الفرصة ليتفهمه العقل الغربي تفهما واقعيا صحيحا . ولقد رأينا كاتبا بريطانيا لامعا

يصف الثقافة المصرية بأنها « وليد هجين قد اجهض » كما رأينا صحيفة « لايف » الواسعة الانتشار على صعيد عالمي تصف « عبير القاهرة » في عام ١٩٥٨ بأنه عطر مزيج من الياسمين والعرق وقاتل الذباب ، يختلط مع الغبار الذى عاش أكثر من خمسة آلاف عام(١) ، واستند « جلوب باشا » حرفيا الى أقوال التوراة لكى يقيم الدليل على انه « لايمكن الركون الى المصريين » (٢) ، كما أدلت المنظمات الصهيونية العالمية بدلوها بين الدلاء فى هذه الحملة على مصر ، متباكية على ما ارتكبه الفراعنة القدماء من مظالم مع العبرانيين • وقد وجدت كل هذه الحملات أرضا خصبة في هذه البلاد •

اذن فكيف يمكن لنا تخليص جميع هذه « الافكار والآراء والصور » التى تجمعت وتراكمت ، وتشبع بها عقل الغربى وأثرت على ردود فعله تجاه الوطن العربى الحديث ؟ ان هذه الصورة كغيرها من الصور المماثلة كثيرة التعقيد ، وتنطوى على العديد من المتناقضات • فقد يمسى أحد الاحداث عصبا ثقافيا معينا ، فى حين قد يدفع حدث آخر ، عصبا يائسا ثانيا الى القفز والوثوب • ولكن فى وسعنا أن نشد العناصر الاساسية بعضها الى بعض ، فنتمكن بذلك من فهم الادوار التى لعبتها فى تاريخ الشرق الاوسط الحديث ••• وهذه هى ••

١ ـ الخوف من المسلمين :

ظهر هذا الخوف أول ما ظهر ، مع بدء الزحف العربى باتجاه أوربا فى عهد الفتوحات العربية ، ثم ما لبث أن تعزز باجتياح الاتراك لقسم من أوربا ، اذ أن الاتراك والعرب يجتمعون فى اسلاميتهم • وتأصل فى عقول الغربيين منذ ذلك التاريخ خوف عميق الجذور فى أن يقوم تحد جديد لأوربا ينطلق من الشرق الاوسط • وعلى ضوء هذه الحقيقة

---

(١) عدد ٢٧ أكتوبر ١٩٥٨ من مجلة لايف ـ مقال لجى بيرك •

(٢) من كتاب جلوب «جندى مع العرب» وهناك فقرات مماثلة في غرابتها وخيالها من الطبيعة المصرية في كتاب « بريطانيا والعرب » ولا ريب في ان العدد الكبير من القراء الذين قرءوا رواية نيفل شوت من المعركة الذرية الهائلة في المستقبل والتى نشرها بعنوان « على الشاطىء » في عام ١٩٥٧ ، قد هزوا رءوسهم موافقين عندما وجدوا ان الكاتب قد صور المصريين لا الروس على انهم الذين سيلقون القنابل الذرية على واشنطن ولندن •

ـ المؤلف ـ

رأينا مجلة « التايم » الأمريكية ، تكتب الى قرائها ابان أزمة السويس في عام ١٩٥٦ ما يلى :

« انطلق جيش مدهش ؛ تحفزه قوى الاسلام الدافعة ، هادرا من الجزيرة العربية ··· فلم يتوقف الا على مقربة من نهر اللوار فى فرنسا على أيدى شارل مارتل · وتراجع المسلمون لينغمسوا فى حياة اللهو بين المسك والاماء ، ولتدب المنازعات بينهم ؛ ولكنهم ما لبثوا أن وحدوا صفوفهم وقد أثارت جنونهم الصلبان الحمراء تغزو بلادهم · · ليحطموا ثلاث موجات من الصليبيين ·

« واحتل المسلمون القسطنطينية فى عام ١٤٥٣ · وهم يصرخون هيا لاستباحة المدينة ، ثم اندفعوا يكتسحون كل ما أمامهم حتى وصلوا الى فيينا · وتمكن الغرب أخيرا من رد المسلمين ، ولكنه لم يستطع طرد ذكريات ألف عام من الخوف والفزع » (١) ·

٣ ـ مفاهيم ألف ليلة وليلة :

وهناك عنصر ثان فى صورتنا المركبة عن العرب ، وهو الاعتقاد بأن المجتمع العربى أصيل فى استرخائه وكسله وفساده ؛ وانه ، أى المجتمع مزيج من الترف البالغ والمكر والخداع والتصوف الممزوج بالقسوة والفتيات الراقصات والتراجة· وتعكس صورنا الساخرة(الكاريكاتورية) وكتابات صحافتنا ، صورة من عقلنا الباطن عن الامير العربى الحديث ، الجالس متربعا فوق الارائك الحريرية ، وقد اتقدت أصابعه بالخواتم الثمينة التى تحليها ، ووقف الى جانبه وزيره الأكبر يهمس فى أذنه بنبأ مؤامرة جديدة يحيكها ؛ فى حين تتضاحك نساء حريمه لابسات الحرير الشفاف ، من حوله ، وقد احطن بنافورة داخل القاعة ولكن هذه الصورة تؤلف مفارقة عجيبة ، مع صورة الزعيم العربى الحديث ؛ الذى يعيش حياة متزنة فى طهرها وخلوها من الفساد ، والذى يحيا فى بيت عادى للغاية فى ضواحى عاصمته ، والتى رسمتها مجلة « لايف » اذ قالت ···

« وفى كل ليلة يجلس عبد الناصر فى غرفته معتزا بما حققه من انتصار ، ليحدد ما كان فى يوم ما مجرد حلم ، فى تعابير واضحة محدودة » ·

---

(١) عدد مجلة تايم في ٢٠ آب عام ١٩٥٦ · ويبدو ان كاتب المقال نسي ان العرب عندما تراجعوا بعد معركة تور ، قد اقاموا مراكز حيوية جدا للدراسات والعلم ، لم يعرف العالم مثيلا لها من قبل · (المعرب)

٣ ـ شعب الصحراء :

من المعتقدات الشائعة فى الغرب ، أن العرب ، فى طراز معيشتهم شعب من شعوب الصحراء التى تتعهد الجمال وتعيش فى الخيام السوداء ٠ وتتسلط عليها المنازعات القبلية الدامية ٠ ولا ريب فى أن الاستنتاج العام المرتجل ، الذى يستخلص هذه الصورة الزائفة ، هو أن العرب أكثر من أى شعب افريقى ـ آسيوى آخر ، عاجزون عن طراز التنظيم الاجتماعى فى الحياة المدنية المستقرة وعن طراز السلوك الذى نعرفه عند الشعوب الحديثة و « الأليفة » وقد لا أبالغ ان قلت ، انه لو اشترك مائة شخص من الغربيين العاديين فى مسابقة للكلمات المترابطة ، وطلب اليهم أن يذكروا الكلمة المترابطة مع كلمة « رحل » ؛ لأجاب تسعون منهم على الاقل وفورا بكلمة « عرب » ، ولاستخدم الباقون منهم كلمة « لايركن اليهم » ٠ ويعتبر الغرب أن الخلافات بين العرب، شيء غريزى أصيل ٠

٤ ـ العرب الطيبون :

وانبثقت على أى حال ، عن هذه الصورة القاتمة ، صورة فرعية أخرى ايجابية ولكنها مضللة ، وهى أن « العربى حقا »هو الذى ينتمى الى أهل الصحراء » وأدى البحث الآلى من المحافظين البريطانيين ومن الموظفين الذين قدر لهم أن يوجهوا السياسة البريطانية أو يمثلوها عن « الارستقراطية المحلية » الى استئثار الصحراء بميولهم ، وذلك لأنها تمثل لهم هنا ، ماتمثله الجبال السامقة والمحيطات فى بلادهم ، مما أدى الى تعلقهم بالشيوخ والأمراء ٠ وبدا لهم هؤلاء فى صورة « العرب الطيبين » ، الذين يمكن الركون اليهم ، والذين يعتبرون أقرب الناس شبها بارستقراطية البلاد المأهولة ٠

٥ ـ العرب الاشرار :

يرى الغربيون ـ نتيجة لما ذكرناه فى الفقرتين الثالثة والرابعة ٠ وعلى ضوء الحقيقة الواقعة وهى أن معظم المتاعب التى واجهها الغرب انما نشأت بصورة طاغية عن المدن والبلدان الصغيرة ـ فى العرب من سكان المدن أناسا خطيرين ووضيعين ، متأثرين بتلك « الدهمائية» وذلك « الخداع » اللذين ربطتهما قرون من الحزازات والضغائن بأهل الشرق وفى مثل هذا المنظر ، يكثر الغربيون من الحديث عن « البقشيش » ، وعن « الدهماء » وعن « القذارات » وعن « سياسات الشارع » وهى أقوال ناشئة من ناحية عن أسوأ التجارب مع موانىء الشرق الاوسط ومدنه ومن

ناحية أخرى عن المفارقة بين هذه المدن وبين مايبدو في الصحراء من نقاء سحرى .

وهكذا لم يكن الغرب ولاسيما البريطانيون منه أهلا لمعالجة نشوء الوطنية العربية الجمهورية في المدن ، التى لم يكن لبدو الصحراء أى شأن يذكر فيها ، والتى كانت متعارضة مع الارستقراطية القديمة حتما .

« وهكذا ظهرت أمام العقل البريطانى ولاسيما أمام الجانب المحافظ منه ، نفس الفجوة من سوء التفهم للجيل الجديد من العرب ، وهى التى كانت قد ظهرت فيما مضى بين الجيل العربى القديم وبين جماهير شعبه » (١) .

٦ - مصر ليست عربية :

وهناك عامل أخير ولكنه ليس بأقل شأنا من العوامل الأخرى ، فى تأثيره على الطريقة التى عاملنا فيها الشرق الاوسط مؤخرا ، وهذا العامل هو مايحس به الغرب من كراهية عميقة للمصريين والتشكيك بهم ، بالاضافة الى الاعتقاد السائد بأن مصر « ليست عربية » وأنها ليست جزءا من العالم المستعرب ، وأنها والحالة هذه ليست مؤهلة لأن تتزعم الحركات السياسية فى الوطن العربى أو تفرض نفوذا فيه . وليست هناك عند جماهير البريطانيين من كلمة أكثر تعبيرا عن الكراهية والتشكيك اللذين يقابل بهما البريطانيون أى شعب غريب آخر من كلمة « مصرى »، ولكن شريان البغضاء هذا ينساب عبر الثقافات الغربية عصورا طويلة ، وقد تعزز أخيرا ، ويا للسخرية ، بما يوحى به النزاع بين مصر واسرائيل من ذكريات وارتباطات قديمة تعود الى أيام التوراة (٢) .

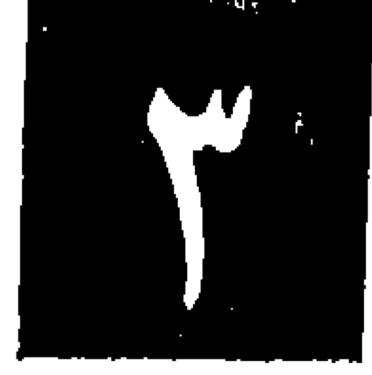
وانى لأرى آن جميع هذه التأثيرات على الفكر الغربى قد ألفت أثرا فى منتهى التخريب والتدمير . ويشعر الساسة والمحررون وكتاب المقالات

---

(١) مقالة ايونيدس ايفا « التفاهم مع العرب » .

(٢) يرجع حقد الاستعمار على مصر الى أسباب منها القديم ومنها الحديث ، فعلى صخرة مصر واتحادها مع الشام في أيام صلاح الدين تحطمت أحلام الصليبيين المستعمرين في احتلال الوطن العربى . وكان شعب مصر هو الذى ناهض الاستعمار الفرنسي في عهد نابليون والاستعمار البريطاني في عهد عرابى ، وما تبع ذلك من ثورات بلغت أوجها في ثورة مصر الكبرى عام ١٩٥٢ ، التى حطمت آخر ما تبقى للاستعمار من نفوذ في أرضها ، والتى هى قمة النضال العربى لتحرير الوطن العربى كله من ربقة الاستعمار واعوانه من ممثلى الرجعية الخائنة . (المعرب)

الصحفية ورسامو « الكاريكاتور » بالاغراء ليجعلوا من « العرب » أو « المصريين » هدف سخطهم ووسائط سخرياتهم « المشوقة » ، وهو مايظهر بوضوح فى معظم المقالات والصور الساخرة والكتب التى وضعت عن المنطقة فى السنوات الأخيرة • وبينما كانت صورنا عن العرب تؤلف سرابا خادعا يقوم بيننا وبين المنطقة التى تضم فى أطرافها الكثير من مصالحنا الحيوية ، فان هذه الصور نفسها هى التى جعلت من المنطقة المكان الحديث الذى ينظر اليه الغربيون من اتباع الفلسفة الشكية ، وهو التعبير الأدبى عن عالم غربى يحس بالخطر من خسارة صداقة العرب فى عاصفة من السخرية الحمقاء ، المتكلفة • وعلينا الآن أن نتجه بأبصارنا الى هذه القصة الطويلة الملتوية •



النظام القديم

١٩٢٣ ـ ١٩٥٣

« لقد استهل فصل جديد ، وافتتح طراز جديد للنضال لا ضد الاستعمار فحسب بل ضد اتباعه وأعوانه » .

من مقال « خواطر عراقية » ـ ١٩٥٨

*** * ***

« رأى الشبان بوضوح ، واحسوا احساسا قويا بمدى ما تعيش فيه جماهير الشعب الوضيعة من تخلف ... وادى تطلعهم الى الاصلاح الاجتماعى ، الى نشوب صراع داخلى بينهم وبين أبناء الجيل الذى سبقهم من المحافظين » .

ميشيل ايونيدس ١٩٥٨

تطور فى الفترة الواقعة بين عامى ١٩٢٢ و ١٩٥٢ ، نظام جديد شمل النواحى السياسية والدبلوماسية والاجتماعية والاقتصادية ، فى كل من مصر ولبنان وسورية وشرق الاردن والعراق ، ولكن هذا النظام مالبث أن شرع فى الانهيار بعد عام ١٩٤٨ ، وأتت عليه ثورة مصر فى عام ١٩٥٢ ، ولما كانت سياسات الدول الغربية قد بنيت على اسس هذا النظام ، فقد شرعت هى أيضا فى الانهيار من جراء تهاوى الاسس التى قامت عليها . ويمكن تلخيص السبب باختصار . فى آن جيلا فتيا جديدا كان قد بدأ ينضج تحت سطح الشرق الاوسط بين عامى ١٩٢٢ و ١٩٥٢ وان هذا الجيل بدأ يحاول تحطيم القمقم الذى يجد نفسه حبيسا فيه ، باصرار غاضب ، نافد الصبر ، للخلاص من كل ما انطوى عليه « النظام القديم » من مضامين .

ولكن ما هى المضامين التى انطوى عليها ذلك النظام ؟ لقد ظهرت عدة كتب ومراجع قيمة ارخت بتفصيل وأسهاب الفترة الواقعة بين عامى ١٩٢٢ و ١٩٥٢ . وليس من هدف هذا الكتاب أن يتناول تاريخ هذه الفترة . فلقد بات أكثر أهمية لنا أن نرى فى ذلك النظام القديم

القاعدة العقلية والعاطفية التى بنيت عليها الحركة الوطنية التى تحتم على الغـرب أن يواجهها فى حقبـة الخمسين • ولم يقم أحد بتمييز هـذه الحقيقة فى ذلك الوقت . فلقد انقضى القسم الاكبر من الحقبة المذكورة، دون ان يتمكن ســـاسة الغرب ومعظم المختصين بشـــئون الشرق الأوسط ، والشطر الأكبر من الصحافة الغربيـــة ، من ادراك حقيقة ما كان واقعا ، وما هى العوامل التى ادت الى وقوعه ولماذا . لكن هناك حقيقتين اود ان اؤكدهما واولاهما أن الجيل الذى ولد بين عامى ١٩١٠ و ١٩٢٠ كان لا يزال مجهولا منا كل الجهل وبعيدا عن أنظارنا ، والأخرى ان السبب الحقيقى فيما حدث يقوم الى حد كبير على طبيعة الاوضاع الدبلوماسية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية للنظام القديم الذى اعتمدت الدول الغربية عليه .

ويتمثل جوهر العلاقة التى قامت بين بريطانيا وفرنسا من ناحية ،بين الشرق الاوسط العربى من الناحية الاخرى ، وبين عامى ١٩٢٢ و ١٩٥٢ ، فى أن هاتين الدولتين عملتا على دعم مصالحهما السوقية (الاستراتيجية) والاقتصادية والثقافية بوسائل لا تصل الى حدود الوسائل الاستعمارية المطلقة ، وان كانت تبعد عن اساليب التعاون التى تقوم مع حكومات حرة ، محترمة وذاتية الارادة وممثلة لشعوبها . ولقد اعلنت مصر فى عام ١٩٢٢ دولة مستقلة ، لا لان السلطة البريطانية قد آمنت بحق مصر فى هذا الاستقلال او بصواب منحها استقلالها ، بل لان هذه السلطات وجدت ان الضرورة الواضحة تحتم عليها اتخاذ هذه الخطوة لمواجهة الثورة الحتمية . لكن هذا الاستقلال ظل مشروطا على أية حال ، ومقيـــدا بصلاحيـات احتفظت بهـــا بريطانيا لنفسها ومنها الاشراف على سياسة مصر الخارجية (حتى عام ١٩٣٦) ؛ واستمرار الاحتلال العسكرى البريطانى فى جميع انحاء مصر حتى عام ١٩٣٦ ايضا، وبقاء هذا الاحتلال فى منطقة القناة بعد هـــذا التاريخ فى حكم المظهر وفى مصر كلها فى حكم الواقع ، طيلة أيام الحرب العالمية الثانية وحتى عام ١٩٤٧ ، والعودة الى منطقة القناة وحدها منذ هذا التاريخ حتى عام ١٩٥٦ • وهكذا ظلت قضية هذا الاحتلال تتحكم فى العلاقات المصرية ـ البريطانية منذ البداية حتى النهاية ، مضافا اليها معضلة المطالب القومية لوحدة وادى النيل ، وهى المطالب التى لم تكن الحكومات البريطانيـــه المتعاقبة على استعداد للتسليم بها •

وكانت العلاقة مختلفة الى حد ما فى المشرق العربى . فالقد تبين من الناحية السياسية استحالة تنفيذ المعاهدات السرية التى عقدت بين بريطانيا وفرنسا فى عام ١٩١٦ لتجزئة الولايات العربية السابقة فى الامبراطورية العثمانية والواقعة خارج شبه الجزيرة العربية . وقد عولجت المشكلة باقامة انتدابات بريطانية وفرنسية على مشرق عربى تم تقطيع أوصاله ايضا . فلقد اعطيت بريطانيا الانتداب على فلسطين وشرق الاردن والعراق ، كما أعطيت فرنسا الانتداب على سورية ولبنان . وكانت هذه الانتدابات « على الورق » مجرد وصاية أقرت من الناحية الدولية نيابة عن عصبة الامم ، للوصول بالشعوب المعنية الى مرحلة تقرير مصيرها بحرية كاملة ، وبأسرع ما يمكن دون أى تدخل . ولقد رأى الكثيرون من الاحرار البريطانيين والفرنسيين الانتداب بهذا المنظار ، وكرس الكثيرون ممن عملوا فى البلاد المنتدب عليها حياتهم لتحقيق هذا المفهوم . لكن الواقع كان يناقض هذا المفهوم كل المناقضة ، فلقد ثبت أن الانتداب كان من الناحية العملية وسيلة لجأت اليها الدولتان للحصول على التسهيلات الاستراتيجية الدائمة ، مقابل انهاء الوصاية على هذه البلاد والاعتراف بسيادتها .

واعتقد الكثيرون من الساسة البريطانيين والفرنسيين أيضا أن هذه « المساومة » معقولة كل العقل ، ومتفقة كل الاتفاق مع أهداف نظام الانتداب ، طالما أن معاهدات التحالف ستؤدى الى تدعيم العلاقات بين العرب وبين هذه الدول التى يعتقد بأنها تجسد كل ما هو سام وجميل فى طراز النظام العالمى الذى يفترض أن عصبة الامم كانت تسعى لاقامته .

وتم فى مصر والبلاد الواقعة تحت الانتداب تنفيذ الكثير من المشروعات القيمة ، المفيدة ، فى مجموعة واسعة من الحقول والميادين فى مشورة كل من الدولتين المحتلتين ومساعدتها (١) . ولقد بالغ أنصار هذه الفترة فى تقويم هذه المشروعات وتقديرها فى حين قلل الوطنيون من

---

(١) كان من الطبيعى أن تسير هذه البلاد سواء أكان الانتداب قائما عليها أم لم يكن في طريق التقدم مجاراة للعصر ، وان كان من المحتوم ان يكون هذا التقدم أسرع حثا بكثير مما اذا كانت هذه البلاد متحررة من الانتداب الذى ان صح انه قام ببعض المشروعات في البلاد التى كان يتولى السيطرة عليها ، فانما كانت هذه المشروعات هادفة الى خدمة مصالحه هو قبل مصالح الذين تولى الانتداب عليهم . (المعرب)

شأنها وقيمتها ولا يثير أى من الموقفين دهشة الانسان المنصف . فهناك حقيقة مفجعة وهى أن كلا من الفريقين كان باستمرار ، فى موقف الخلاف العنيد المتزمت مع الفريق الآخر فى مختلف القضايا الجوهرية . وكان من المحتوم بالنسبة لهذه العــلاقات الغربية ــ العربية التى استمرت طيلة ثلاثين عاما أن تنفجر كما لو كانت تمثل احتلالا استعماريا كاملا . ومن المحتمل ان تكون فى بعض النواحى اكثر قابلية للانفجار من العلاقات الاستعمارية . ولم تشرع الدول الاستعمارية فى التسليم باســتقلال الشعوب الآسيوية الا بعد انتهاء الحرب الثانية ، وعندما فعلت ذلك ، لم يكن هناك أمل فى تمكنها من الحفاظ على قواعدها السوقية . وتحتم عليها أن تنسحب انسحابا كاملا شاملا . أما فى الشرق الاوسط ، فقد سلمت الدولتان الاستعماريتان للعراق فى عام ١٩٣٢ ولمصر وســورية ولبنان فى عام ١٩٣٦ ، بشكليات السيادة فى حين ظلتا تحتفظان بواقع استمرار الوجود السوقى (الاستراتيجى) المقنع الوجه .

ولم تلق هذه الصفقات أى قبول شعبى ، ولم يرض بها رضاء كاملا حتى أفراد ذلك الجيل المحافظ القديم من الساسة الوطنيين . أما بالنسبة الى الجيل الفتى فقد رأى فى هذه العملية اذلالا يفوق حدود الوصف . وكان البريطانيون والفرنسيون يتحدثون عن هذه « المنح » فى حدود « الاحترام المتبادل بين دول متكافئة السيادة » ولم تكن هذه الكلمات بالنسبة الى الجيل الجديد من الشبان والفتيان الذى كان يرقب هذه الايماءات ، الا مجرد تعابير جوفاء لا تعنى شيئا ابدا . وقد يكون من الصعب على الغربى ان يفهم هذه الحقائق ، ولكن الفكر الوطنى يرى أن المعاهدات التى تسمح ببقاء القوات الاجنبية والقواعد الجوية، لا تكون قائمة بين انداد الا اذا عقدت فى منتهى الطواعية والحرية ، ولم تكن هى فى واقعها ثمنا لتلك الحرية المكتسبة . ولم يكن فى مكنة أى شاب عراقى ، يعرف أن « السيادة » لم تمنح لبلاده الا ثمنا لمنحها القواعد الجوية للسلاح الجوى البريطانى ، أن ينسى بسهولة أن هذا السلاح قد استخدم فى مطلع حقبة العشرين لاخضاع العراق بعد ثورته الدموية التى استهدفت مقاومة فرض الحكم الانتدابى نفسه . ولقد استعاد السوريون عندما سمعوا بمعاهدتهم الجديدة مع فرنسا ، التى لم تبرمها هذه ابدا ، ذكريات قصف الفرنسيين لدمشق ، وقذفها بالقنابل ، فى الوقت نفسه الذى كانت فرنسا تحــاول فيه أن تفرض نظام الانتداب الذى طبلت له العصبة وزمرت ، على ســورية نفسها .

ولم يكن فى امكان أية معاهدة مصرية ـ انجليزية تضمن مجرد جـلاء القوات البريطانية الى منطقة قناة السويس ، أن تقدم أية ضمانات صحيحة على أن بريطانيا ستحترم استقلال مصر احتراما كاملا . ولقد احتلت مصر فعلا فى عام ١٨٨٢ وكان احتلالها صادرا عن منطقة القناة نفسها .

وفى خضم هذه الموجة العارمة من مرارة الوطنية العربية وصخبها ، كان ثمة عامل آخر ، دفع بالشرق الاوسط فى فترة ١٩٢٢ ـ ١٩٥٢ ، الى حالة من الغضب والخوف والازدراء ، لم تواجهه أية دولة غربية فى آسيا . ولم تكن هناك أية مستعمرة فى آسيا ، مهما كانت نائية بعيدة تشبه فى أوضاعها ، مشـكلة فلسـطين . فلقد ظل جيل كامل من العسـكريين البريطانيين وموظفى الادارة بين عامى ١٩١٨ ، ١٩٤٨ ، يحاولون ، وقـد حطم بعضهم فؤاده أو فقد حيـاته ابان العملية ، تنفيـذ سياستين متناقضتين ذاك التناقض الذى يحمل طابع التفجر واليأس . وقد ادت هذه السياسات المتناقضة الى تفجير المواقف العربية خارج فلسطين ايضـا . فلقد كان من المفروض أن الانتداب قد أعطى الى بريطانيا ، لاعداد عرب فلسطين ، وهم أهل البلاد الاصـليون وذوو الجذور التاريخية فيها ، لمرحلة تقرير المصير ، وهو ما وعد به العرب على أية حال ابان الحرب العـالمية الاولى ، ثم حرمهم منه الانتـداب نفسه . ولكن الاوامر صدرت الى الموظفين البريطانيين فى الوقت نفسه بأن يفتحوا أبواب فلسطين للاستعمار الجماعى لليهود الذين لاصلة لهم بها طبقا لبرنامج صيهونى يهدف بصراحة الى اقامة دولة يهودية بطريق التدرج .

ولم يشهد القرن العشرون ما يمـاثل العمـل الذى ارتـكبه البريطانيون فى فلسطين ، أو ما يمكن اعتباره سابقة له ، من الفصل عن طريق العنف بين شـعب والأسرة التى ينتمى اليهـا ـ لاسيما وان فلسطين كانت تعتبر جزءا من سورية العربية ـ ، ومن الاعلان بجد وحزم ، بأن الفرض من هذا الفصل ، رفع مستوى هذا الشعب الى مرتبة الحق فى تقرير المصير ، فى حين تكون الغاية الحقيقية ، فرض جماعة دخيلة عليه ، غايتها أن تجعـل من أرضـه « يهودية كمـا أن انجلترا انجليزية » (١) ولم تحاول أية دولة استعمارية القيام بمثل هذا العمل الاستفزازى فى أى مكان من آسيا ، وهكذا قدر لفلسطين أن تغـدو

---

(١) كتاب وايزمن « التجربة والخطأ » .

السرطان الفريد فى نوعه ، الذى يسمم العلاقات القومية العربية بالغرب، ويورى صراعها معه .

كانت هذه الخصائص الخارجية الشاملة لهذه الفترة التى امتدت ثلاثين عاما • ولكن كان ثمة عامل جوهرى آخر على أية حال ميز طبيعة السياسات فى الشرق الأوسط العربى عن تلك التى اتبعت فى المستعمرات الآسيوية . وهكذا ظهر فى حقبة الاربعين بين السلطة الحاكمة ، وبين الجماهير العربية التى خرجت الى الميدان قيادة وطنية فتية لتوجيهها، نظام سياسى واجتماعى واقتصادى قوى ، يشمل الوطن العربى كله • وكان هذا النظام يمثل بوجه عام ، تلك القوى المحلية الراغبة فى التعاون مع السلطات الحاكمة (الدولتان الغربيتان) او العاجزة عن معارضتها. وهكذا تحول الصراع الاساسى الى تصادم بين ثلاث قوى أو أربع بتعبير أصح . ولما لم يكن هناك اى جزء من الشرق الاوسط العربى متحررا من القوات والنفوذ الاجنبيين فان النضال الاساسى الذى يقوم به الشبان العرب تدرج بصورة ظاهرة نحو من كان هؤلاء الشبان يدعونهم بأعوان الاستعمار . ولم يكن هناك من سيد مستعمر يتجه النضال ضده مباشرة وبصورة صريحة . وبينما كان فى وسع نهرو ورفاقه فى الهند أن يتحدوا جماعة « العهد القديم » المحافظة ويتغلبوا عليها داخل الحركة الوطنية نفسها ، واجه أقرانهم فى الشرق الاوسط العربى «عهدا قديما» يقبض على زمام السلطان الفعلى والقانونى والبوليسى فى الميادين الاقتصادية والسياسية والعسكرية . وأرى لزاما علينا أن نتولى الآن وبايجاز استقصاء ما كان يدور فى الاطار الداخلى فى مختلف البلاد •

مصر :

اعلنت انجلترا من جانبها فحسب فى عام ١٩٢٢ استقلال مصر تحت النظام الملكى ، ونصبت السلطان فؤاد ملكا عليها ، فى الوقت الذى كان الزعماء الوطنيون وبينهم سعد زغلول يقضون ايامهم فى المنفى وبدأ فى مصر على الفور صراع مستمر مثلث الزوايا . وراح القصر الملكى يتعاون فى بعض الاوقات مع السلطات البريطانية ، ويعارضها فى أوقات أخرى طبقا لاتجاه الرياح السياسية .

وكانت دار المعتمد البريطانى تؤيد الملك ضد البرلمان أحيانا وتعارضه أحيانا أخرى • وراحت الأحزاب السياسية ، وقد صرفها تدخل القصر عن حقيقة أهدافها ، تقضى جل أوقاتها فى معارضة هذا التدخل • وما لبث الوفد ، وهو الحزب الوطنى المسيطر ، أن تفتت وتمزق ، من جراء

الخلافات الداخلية بين أعضائه فى موضوع الدور الحقيقى للملك فى نظام الحكم ، لاسيما وان جذور التحول الى الجمهورية كانت قائمة فى هـــذا الحزب وان ظلت ضعيفة لا يكاد يحس بها أحد ، وكان فى وسع الوفد أن يعتمد دائما على قوته فى كسب الانتخابات ، ولكنه ما أن يكسبها فى اية مرة من المرات ، حتى تتفرق وحدة الهدف التى سادت أعضاءه ابانها ، وحتى يركن الى الاسترخاء ، ويفقد التوجيه الصحيح . وكثيرا ما لجأ القصر الى اقالة وزارة جديدة تم انتخابها او الى تأجيل البرلمان وحله وتعطيل الدستور ، عملا بنصيحة بريطانيا او بدونها اذا رأى ان النذر السياسية غير مواتية له . وهكذا كانت تنطلق الانتهازية والمصالح الخاصة حرة طليقة فى ظل مثل هذه الاوضاع .

وكان الاقطاعيون ، هم الذين يسيطرون على الجهاز السياسى فى مصر كلها . وجلهم من الاقطاعيين الاصليين الغائبين عن أرضهم الذين يصرفون أيامهم كلها موزعيها بين القاهرة وأوربا والاسكندرية . وكان الواحد منهم يدير اقطاعياته ، وكأنها عالم خاص به ، ولا شأن لأحد به . وكان فى امكانهم أو امكان وكلائهم أن يضـــمنوا الفوز فى الانتخابات البرلمانية ، باستخدام وسائل تشمل دفع ناخبيهم ومعظمهم من الفلاحين الذين يعملون فى اقطاعياتهم الى صناديق الاقتراع تحت وطأة العصى . واذا ما رأوا فى مكانة الملك عاملا مساعدا لهم على النجاح ، لجأوا الى استغلال هذه المكانة بعلم الملك او دون علمه . وقيل ان احد الباشوات أعد فى احدى المعارك الانتخابية التى جرت قبيل الثورة (١٩٥٢) ، جهاز هاتف على المنبر الذى يستخدمه فى القـــاء خطبه الانتخابية . وقــرع جرس الهاتف وهو يلقى خطابه فرد عليه موحيا الى الجماهير بأن فاروق هو الذى يحدثه طالبا مشورته . وبالطبع لم يكن الملك هو المتحدث ، بل كان أخوه هو المتحدث من مكان قريب . ولكن الخدعة تركت الاثر المطلوب منها .. فليس فى وسع انسان أن يتحدى « رجل الملك » دون أن يتعرض للعقاب .

وفى وسع المرء ان يدرك حقيقة ما كانت تتمتع به هذه الفئة المختارة من أصحاب الارض من سلطان سياسى واقتصادى من رؤية الارقام البسيطة المجردة . ففى بلد يضـــم نحوا من عشرين مليونا من السكان (احصاءات قديمة !) ، يعتمدون فى معاشهم الى حد كبير على الارض ، يملك الفان فقط ، نحوا من خمس الاراضى الزراعية كلها . وتملك الاسرة المالكة وحدها مباشرة مائة وثمانين الف فدان من مجموع الاراضى الزراعية التى لا تتجاوز مساحتها ستة ملايين فدان .

وقفزت الصناعة والتجارة فى مصر بعد عام ١٩٢٢ قفزات سريعة ولم يحل عام ١٩٤٧ حتى كان هناك نحو من ستة وعشرين ألف مصنع فى البلاد . ولكن هذه التطورات لم تخلق طبقة قوية من رجال الصناعة وادارة الاعمال والتجار ، تستطيع أن تتحدى السلطان السياسى للفئة المختارة من كبار الملاك • فلقد كان الشطر الاكبر من الصناعة الجديدة ومن التجارة ملكا للاجانب وتحت ادارتهم ، وكان الاجانب يملكون فى عام ١٩٤٨ نحوا من واحد وستين فى المائة من مجموع رءوس الاموال فى الشركات المساهمة . يضاف الى هذا ان الفئة المختارة من كبار الملاك كانت هى التى خططت شكل المجتمع المصرى ورسمت له خطاه وحياته العامة منذ أمد طويل ، بحيث اجبر المصريون الذين ارتقوا عن طريق الصناعة والتجارة ، الى الظهور بمظهر التبعية الرمزية للطبقة الارستقراطية من الملاك . وراح ذوو المكانة والمال من ابناء المدن يقيمون أقطاعيات جديدة ، وانضمت الفئة المختارة من هؤلاء الى النوادى الخاصة بكبار الملاك .

وعكست البرلمانات التى سيطر عليها الوفد فى هذه الفترة الزمنية الخصائص الاساسية للاتجاه السياسى . وكان زعماء الوفد من الوطنيين ، وان كانوا محافظين فى الشئون الاجتماعية والاقتصادية • وكانت ميولهم المحافظة قوية الى الحد الذى دفعهم فى ميولهم الى التشريع التقدمى الى عدم المساس بالضرائب الاساسية والكيان السياسى للبلاد . وقد يكون صحيحا ان البلاد خطت خطوات كبيرة فى حقل التعليم العام فى المدن بين عامى ١٩٢٢ و ١٩٥٢ ، وأن البرلمان قد اقر فى عام ١٩٤٢ قانونا مهما لتنظيم الحركة النقابية وحقق تقدما ملحوظا فى حقل الصحة العامة فى المدن ، وسن فى نهاية عام ١٩٥٠ تشريعا مهما للضمان الاجتماعى . وكان كبار الملاك فى داخل الوفد وخارجه يتسامحون فى مثل هذه الاجراءات ، فبعضهم يقرها عن ايمان واخلاص ، وبعضهم الآخر يرى فيها وسيلة امن لتجنب الهياج والاضطراب فى المدن . ولكن لم يكن فى مكنة أى برلمان فى مصر بين عامى ١٩٢٢ و ١٩٥٢ ، أن يسن قانونا للاصلاح الزراعى . ورفض البرلمان الاقتراحات التى قدمت اليه فى عام ١٩٤٥ ، ومن ثم فى عام ١٩٥٠ بتحديد الملكية الزراعية . ومع ذلك فقد ظل عدد السكان فى مصر فى تزايد مطرد وارتفع الرقم من ثلاثة عشر مليونا فى عام ١٩٢٢ الى واحد وعشرين مليونا فى عام ١٩٥٢ • وهبط مستوى دخل الفرد من جراء هذا الارتفاع فى عدد السكان ، ولم يحل عام ١٩٥٢ حتى كان ثلث جمهور الريف المصرى غير منتج من الناحية الاقتصادية .

وراح الكيان السياسى والاجتماعى والاقتصادى ، ينهار فى مصر شيئا فشيئا سنة بعد أخرى ، وفقد الوفد قدرته على اجتذاب ولاء الالوف من العاطلين ، ومن ذوى الاجور الضئيلة من خريجى الجامعات، ومن الجيل الفتى الجديد من المتعلمين وأنصاف المتعلمين من أبناء المدن والريف وكذلك ولاء الجماهير الكبيرة من الفلاحين . وكانت مباذل القصر وتصرفاته تستفز باستمرار مشاعر الناس بأن الاسرة المالكة ليست بالمصرية حقا ، وانما هى السلالة المباشرة للاسرة التركية القديمة التى ينتمى اليها محمد على ، (أعتقد انها اسرة البانية لا تركية) ، لاسيما وان الملك فؤاد نفسه كان يتقن الايطالية أكثر من العربية ، وأدت موجات الفساد والطغيان والجبروت عند ذوى المراكز العالية ، ومهزلة البرلمانات وتجاهلها لحالة الفقر المتزايدة التى تعانى منها الجماهير ، الى اجتذاب مصر نحو دوامة من السخط الاجتماعى والقلق الوطنى الذى بلغ حده ٠

ولم يكن فى الامكان رسم خط فاصل فى الناحيتين الواقعية والمعنوية بين هذا البنيان الداخلى المتهاوى وبين الاستعمارية البريطانية، فلقد كان الارتباط بينهما حتى عام ١٩٣٦ ، كاملا كل الكمال ، ولم يقع حتى بعد معاهدة عام ١٩٣٦ ، أى تبدل فى العلاقات النفسية بين البريطانيين وغيرهم من الاوربيين فى مصر من ناحية ، وبين شعب البلاد من الناحية الاخرى ٠ وقد يقال أن المحاكم الخاصة التى كانت تعزل الاوربيين عن القانون المصرى العام عزلا كاملا ، قد الغيت ، ولكن ظلت ثمة النوادى الخاصة بالأوربيين التى لا يسمح للمصريين بالانضمام اليها ، وظلت أوضاع الامتيازات والحماية ، وظلت الرواتب العالية التى تبلغ ستة أضعاف الرواتب العادية للمصريين كما ظلت الاشارة المزدرية الدائمة الى المصريين بأنهم «الاهلون» .

وظل شبان مصر ، ينضجون طيلة هذه السنوات ، وينضج معهم شعورهم بالكره للألوف من مظاهر الوخز والطعن لكرامتهم الشخصية والقومية . وكان الطالب المصرى يقرأ سير احدى المناقشات التى تتناول مصر فى مجلس العموم البريطانى ، ويجد فيما يقرؤه توازنا منصفا الى حد ما بين استعمارية المحافظين المنزمتة وشكوك الاحرار الاصيلة. ولكنه لا يلبث بعد انقضاء خمس دقائق على ما قرأه ، أن يستمع بصورة عارضة الى نقاش بين بريطانيين يعيشان فى بلاده فى موضوع مصر ، فينتفض غضبا وخجلا مما استمع اليه ٠ ولم يكن كثيرون من البريطانيين الذين يعيشون فى مصر يدركون حق الادراك مدى اسهامهم فى هذه المرارات المتزايدة ٠

وكثيرون منهم يقبعون فى أبراجهم العاجية ومجتمعاتهم الصغيرة المتسامية، ينظرون من ورائها الى المصريين ، فيرونهم اشباحا من الفقر ، ومن الافتقار الى الكفاية . وتؤدى نظرتهم هذه الى المزيد من كراهيتهم لهم. وقد يقال ان بعض البريطانيين كانوا يعطفون على المصريين ، ولكن هؤلاء ايضا يبدون وكأن مصر ملك لهم ، أو كأنها بلد لا يستحق حتى الزراية منهم . كما بدا فى أحاديثهم عن مصر وتقاليدها ومشاكلها وقيادتها السياسية . وشعور التملك ، حتى ولو كان نابعا عن حسن نية ، لا يقل فى سوئه واثارته للآخرين عن شعور المهانة والازدراء .

وجاءت الحرب العالمية الثانية باحتلال بريطانيا لمصر من جديد احتلالا كاملا وفعالا . كما جاءت باذلال يعتبر من أسوأ ماعرفته مصر من اذلال . واذا كان قدامى السياسيين المحافظين قد احسوا بهذه الاساءات ، فان هذا الشعور بالاحتلال ، والارغام على دخول الحرب دون أن يكون لبلادهم حق الخيار ، قد تضخم من جراء ما أصاب الدولة التى يمثلونها بمراكزهم وكطبقة مختارة من اهانة . أما بالنسبة الى مصر الجديدة ، فقد كانت الاساءة موجهة الى شعب بكامله .

« لقد توقعوا من المصريين ان يسلكوا سلوك الحلفاء المخلصين فى الوقت الذى يعاملون فيه كشعب محتل . وكان جنودهم يسيرون عبر شوارع القاهرة ينشدون الاغانى القذرة التى تمس كرامتنا فى الصميم. وكان مما يفوق حدود التصور أن يطلب الى المصريين فلسفة هذه المعاملة التى يلقونها ، وكل ما كانوا يعرفونه أن الجيش البريطانى يحتل مصر ، وأن جنود هذا الجيش ينظرون اليهم بعين الزراية » (١) .

ولكن الكثيرين من البريطانيين ما زالوا ينظرون بعين الغضب الى مصر ، كلما عادوا بذكرياتهم الى الحرب العالمية الثانية والى عواطف المصريين تجاههم التى كانت موضع الشك . ونحن نرى فى أى تواطؤ مع المحور امرا مؤذيا ، حتى ولو بات هذا التواطؤ شأنا من شئون الماضى. ولكن هذا الوضع يرسم صورة واضحة جلية لشعبين بل لعالمين يقفان عند مفترق الطرق . فلقد كان من المستحيل أن ندرج فى قائمة الحلفاء الأوفياء شعبا يرزح تحت وطأة الاحتلال والاذلال والازدراء ، وان نطلب

---

(١) حدث نفس الشيء في الحرب العالمية الثانية وتنكرت بريطانيا لوعودها لمصر بالاستقلال الكامل . ولا ريب في أن هذه الصورة التى يرسمها احد المصريين صادقة الى حد كبير . (المؤلف)

منه الحماسة فى خوض حرب لم يكن هو الذى بدأها ، ولم يستشر فى أمر الاشتراك فيها ، وانما وجد نفسه متورطا فيها بكل بساطة ، وأن يقف فيها الى جانب دول « ديمقراطية » كانت احداها هى التى جعلت من بلاده مهزلة من مهازل الحرية . ان هذا مستحيل كل الاستحالة .

وهكذا بدات فترة ١٩٢٢ ــ ١٩٥٢ ، فى عيون شبان مصر الفتية المثقفة وكأنها قاعة خانقة من قاعات المرايا التى يضيع المسار فيها من كثرتها ، فهم نظرا لافتقارهم الى السلطان السياسى ، يرون فى جانب واحد هذه الجماهير الفقيرة من الفلاحين تعيش حياة دون مستوى الكرامة الانسانية ، والى صف هذه الجماهير تقف رؤاهم عما يجب أن يكون لها من كرامة وتقدم . وكانوا يرون فى الجانب الثانى طبقة اقلية من الباشوات المحافظين والاقطاعيين ، تسيطر على برلمان زائف الديموقراطية ، وتقف وراء هذه الطبقة ، ملكية دخيلة حمقاء ذات نزعات شريرة معيبة ، وخلف الجميع يقف ذلك الطيف الذى لا يغيب أبدا من السيطرة الاجنبية البريطانية فى الخارج والنفوذ فى الداخل .

شرق الاردن :

كانت شرق الاردن على سبيل المقارنة حتى عام ١٩٥٠ ، بلدا يختلف فى اوضاعه ، عن مصر كل الاختلاف . فثلاثة أرباع أراضيه صحارى قاحلة جرداء ، ولا يقيم فيه الا نحو من أربعمائة الف انسان يعيشون على موارد محدودة الى الدرجة التى تجعل اقامة دولة حديثة شبه متحضرة فيه أمرا غير ذى موضوع . وكان معظم السكان من ابناء القبائل الذين يدينون الى حد كبير بالولاء للامير عبد الله الذى يتولى الضباط البريطانيون قيادة جيشه ، ويشرف الموظفون البريطانيون على ادارة حكومته ، وتعتمد ميزانيته على ما يناله من عون مالى من بريطانيا . وكان فى امكان الاستهواء البدوى للخيال البريطانى ، أن يجد ضالته فى مثل هذه الامارة الصغيرة ، التى خلقت خطط تشرشل كيانها المصطنع ، وكان عبد الله يتمرد أحيانا على خالقى امارته ، ولكن كان فى وسع مزيج من النصائح الابوية والتذكير بحقيقة المصدر الذى يتناول منه موارده ، والايماءات المهذبة المنطوية على الاحترام للسلالة التى ينتمى اليها ، كافية للتغلب على هذا التمرد العارض منه . واذا حدث وظهر بعض المتطرفين فى المدن ، المتاثرين بالتيارات الوطنية والقومية المتجمعة خارج

حدود هذه الدولة المحمية ، فان السبيل الاسهل لقمعهم ، ايداعهم فى السجون الصحراوية ، وهذا ما كان يحدث بالفعل .

ولربما كان من حق جلوب باشا والحالة هذه ان يذكر «ان الاردن كله كان بين عامى ١٩٣٢ و ١٩٤٨ ، من أسعد البلاد الصغيرة حالا فى العالم . اذ على الرغم من الاضطرابات والثورات فى البلاد المجاورة ، ومن الحرب العالمية أيضا ، بدا الاردن وكأنه يحيا حياة ملؤها السعادة » (١) .

وجاء التبدل ، عندما تورط شرق الاردن فى الحرب الفلسطينية فى عام ١٩٤٨ ، وضم الى مملكته الاردنية الجديدة ما تبقى من فلسطين العربية خارج نطاق الاراضى التى تحتلها اسرائيل . وارتفع عدد السكان الى ثلاثة أضعاف ، بعد أن اضيف الى المملكة مليون من الفلسطينيين الذين تعمل المرارات فى نفوسهم ، والذين يتميزون بالوعى السياسى والثقافة النسبية ، حاملين معهم التيار الجارف الرئيسى للوطنية العربية المدينية ، وقتل عبد الله فى القدس فى منتصف عام ١٩٥١ . ولا ريب فى أن تعليق جلوب على ما وقع يحسر النقاب عن أشياء كثيرة ...

« واثار اختفاء الملك عبد الله حالة من الفزع والاضطراب فى الاردن فلقد كانت قبضته القوية هى التى تمسك بكل شىء منذ عام ١٩٢١ . ولم يكن الساسة فى ظله اكثر من مجرد دمى لا تملك الا أن توافقه على كل شىء ولم يكن قد نشأ فى الاردن بعد أى قادة سياسيين أو رجال دولة ، فالملك هو كل شىء فى البلاد » .

وكان فى وسع جلوب أن يضيف الى هذا الوجود المطلق الذى ينسبه الى الملك ، أوصياءه البريطانيين ، الذين يمثلون جهازا لم ينته امره تماما بموت الملك . وكانت معاهدة عام ١٩٤٨ ، التى افترض فيها أن تكون خطوة تقدمية لما سبقها من معاهدات ، قد أعطت لبريطانيا الحق فى أن يقوم فى أيام السلم بحماية المطارات والموانى والطرق ، واقامة القواعد للسلاح الجوى البريطانى فى المفرق وعمان ، كما منحتها تسهيلات المرور للقوات البريطانية فى الخارج فى أيام السلم والحرب والحق فى «المشورة» وفى المساعدة على ادارة اقتصاد الاردن فى ظل الاعانة المالية البريطانية. ولم تكن كل هذه الحقوق والامتيازات استغلالا استعماريا ، ولكنها كانت بكل تأكيد ، غير ما يفهمه شعب الاردن بعد عام ١٩٤٩ من«الاستقلال

(١) كتاب جلوب ــ جندى مع العرب .

السيادى» . وقد انعكس سخط هذا الشعب المتزايد ، فى لهجة جلوب الحزينة وفى حملته على ما دعاه « بالدسائس والاباطيل التى يروجها عدد من الساسة والمحامين الذين ينتمى معظمهم الى الضفة الغربية التى يعيش فيها غالب الفلسطينيين » ٠

وباتت العلاقة الآن شخصية بالنسبة الى أمثال جلوب ، وسياسته بالنسبة الى بريطانيا ، يائسة كل اليأس ، ولا ينفع معها اللجوء بازدياد الى استخدام السجون الصحراوية النائية لسجن «المشاغبين» ، اذ أن هذا الاجراء لايعدو أن يكون عملا استفزازيا يقصد منه التأجيل ليس الا٠ ومن المحتمل أن تكون أردن جلوب وكيركبرايد وأمثالهما قد عاشت هذه المدة التى عاشتها لعدم وجود نقمة اقتصادية فيها شبيهة بالنقمة التى سيطرت على الحركة الوطنية الحديثة فى كل مكان آخر . ولم تتعد النقمة حدود المخيمات التى يعيش فيها نحو من نصف مليون من اللاجئين الفلسطينيين العرب ، الذين يعيشون فى وصاية الامم المتحدة ، والذين يرفضون ادماجهم فى حياة البلاد التى يقيمون فيها .

سورية ولبنان :

بدأت سلطات الانتداب الفرنسى فى سورية عملها بتشجيع الحركات الانفصالية ، فخلقت عدة دويلات وهمية فى البلاد ، مبررة خلقها بوجود نزعات انفصالية ووجود أقليات فى البلاد . وتقوم وراء هذه الاجراءات كما تقوم وراء السياسات الفرنسية الاخرى فى سورية ولبنان غاية عامة وهى مقاومة القومية العربية خوفا من نتائجها لا بالنسبة الى سورية ولبنان فحسب بل بالنسبة الى ما يمكن أن توحى به من اتجاهات الى المغرب العربى الذى يضم مراكش والجزائر وتونس ، وكانت هناك من الناحية الثانية رغبة أخرى فى تقوية مركزها فى لبنان عن طريق المسيحيين فيه ، لتجعل منه ركيزة للنفوذ السياسى والثقافى الفرنسى فى شرق البحر المتوسط وقد سهلت طبيعة الاراضى السورية ، ووقوع الجيوب المزروعة والمدن المنعزلة فى الطرف الغربى من الصحراء السورية الكبرى ، للفرنسيين تنفيذ سياستهم فى اضعاف البلاد .

ولكن المقاومة للحكم الفرنسى ظلت مستمرة وشاملة طيلة الوقت منذ فرض الانتداب على البلاد بقوة السلاح . وتألفت القيادة التى انبثقت عن هذا النضال من جماعات من الافراد من ذوى النفوذ واتباعهم ، يؤلفون على الرغم من وطنيتهم العنيفة فى هذه القضية الجوهرية ، حدا وسطا

بين من كان يدعوهم الفرنسيون «بالمعتدلين» واولئك الذين يسمونهم « بالمتطرفين » ولم يكن ثمة مناص من أن يميل ذوو المصالح الشخصية والعائلية التى يمكن لها أن تزدهر فى ظل الرعاية الفرنسية ، الى الوقوف فى زمرة المعتدلين . وهكذا كانت القيادة تمثل مصالح بعيدة كل البعد عن مصالح الجماهير بوجه عام ، فهى تمثل كبار الملاك الاقطاعيين فى حمص وحماة ، والفئة المختارة التقليدية من تجار حلب الذين تشابكت مصالحهم بازدياد مع مصالح الاقطاعيين المحليين عن طريق استثمار رءوس أموالهم التجارية فى الزراعة ، وجماعة «الحلقة الذهبية» من تجار دمشق وأرباب الصناعة الصغيرة فيها والزعماء القبليين فى بلاد العلويين فى الشمال الغربى وجبل الدروز فى الجنوب .

وشكل الشباب الوطنى فى المدن ابتداء من عام ١٩٣٠ ، منظمات متماسكة نسبيا ، وان ظلت مفتقرة الى السلطان السياسى الفعال، الذى يضمن لها التأثير على النظام القديم الذى تسيطر عليه بصورة اساسية اقطاعية الارض . ونشأت ببطء فى الفترة التى سبقت الحرب العالمية الثانية طبقة تجارية ومهنية جديدة فى المدن ثم ما لبثت حركة النشوء هذه أن غذت الخطى بعد انتهاء الحرب لكنها أيضا لم تتمكن من الحصول على التأثير البارز الحاسم على السياسات السورية بسبب ما لافرادها انفسهم من ارتباطات عائلية بطبقه ملاك الارض . ودخلت سورية بعد حرب فلسطين التى خلقت وعيا سياسيا فعالا بين صغار ضباط الجيش ، فترة من الافتقار للاستقرار السياسى ، انصرف ابانها التفكير المتطرف عن قضايا الاصلاح الداخلى الى قضايا فلسطين والوحدة العربية ، مما أتاح للنظام القديم الفرصة ليوسع من نفوذه عن طريق المناورات الماكرة التى يقوم بها بين الانقلابات المتعددة .

وهدف الانتداب الفرنسى فى لبنان كما ذكرت قبل قليل الى تعهد المسيحيين الموارنة ، ومنحهم حدا من القوة الدائمة يتفوقون به على المسلمين ليكون لبنان قاعدة للنفوذ الفرنسى فى الشرق الادنى . واشار الاحصاء الرسمى الذى أجرى فى لبنان فى عام ١٩٣٢ الى وجود نسبة ٥٥ الى ٤٥ بين المسيحيين والمسلمين ، ولكن اى احصاء آخر لم يجر منذ ذلك التاريخ . وسهل على السياسات الفرنسية تنفيذ غاياتها فى لبنان ، طبيعة الفئة المختارة الحاكمة ، على النحو الذى نمت فيه حتى فى أيام العثمانيين . فلقد تألفت هذه الفئة من عدد صغير جدا من الأسر المالكة للارض من كلا المجموعتين الدينيتين والمتشابكة فى علاقاتها

الاجتماعية ، وأدى النشاط التجارى الذى تسيطر عليه أيضا فئة صغيرة من الأسر البارزة ، الى نمو ثروات جديدة بعد عام ١٩١٨ · وظل هذان النوعان من الثروات التى تملكها أسر معينة ، يسيطران على الاوضاع السياسية فى لبنان . وبرزت أسماء كالعوينى والخورى وعريضة وكتانة وبطرس وسرسق ، تؤلف شركات وهمية تتقاسم الارباح المستثمرة فى ظل نظام محافظ يشرف عليه الفرنسيون · ولكن هذا النظام ما لبث فى النهاية أن هزم الاهداف الفرنسية ، اذ أن هذه الاسر ، على الرغم من محافظتها فى الميدان الاجتماعى . كانت تحس احساسا وطنيا . وواجهت فرنسا فى عام ١٩٤٣ شيئا لم تكن تتوقعه وهو الاتحاد الذى ضم الزعماء المسيحيين والمسلمين فى مطالبتهم بالاستقلال الكامل ، ووجدت فرنسا نفسها تطرد اخيرا فى عام ١٩٤٦ من الشرق الادنى ، ثمرة كفاح الشعب ضدها ونتيجة الضغط البريطانى الضرورى ، واللوم الذى وجهته الامم المتحدة اليها .

لكن زعامة لبنان المستقل ، ظلت على اى حال محافظة من الناحية الاجتماعية . ورفض حتى الزعماء المسلمون بسبب أوضاعهم الاجتماعية الاقتصادية ، ازعاج انظمة الضرائب والاراضى فى الجمهورية الصغيرة · وتضخمت ثروات الاسر البارزة تضخما هائلا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عن طريق التجارة المخزونة النامية وتحويل العملة ، وظهرت مع هذا الازدهار التجارى طبقة جديدة من الموظفين والعمال الصناعيين . وظلت الاراضى المزروعة فى البلاد ملكا لنحو من مائتى شخص من كبار الملاك . وظلت الحاجة ماسة الى انقاذ لبنان من الطائفية التى تقضى بتوزيع الرتب والمناصب والثروات على أسس طائفية ، ولم يتقدم انسان لحل هذه المشكلة . لكن التيارات الخفية للسخط الاجتماعى فى لبنان ، لم تتصل اتصالا مباشرا بالتيارات الرئيسية للقومية العربية ، وذلك بسبب الموقف المنعزل الذى تقفه الجمهورية من هذه التيارات ، طبقا للميثاق الوطنى الذى أقرته جميع الطوائف فى البلاد فى عام ١٩٤٣ · ومع ذلك فقد أسهمت هذه التيارات الخفية اسهاما قويا وان كان غير مباشر فى الضجر الذى تحس به الاجيال الجديدة من الزعامات القديمة التقليدية فى طول البلاد وعرضها ·

العـــراق :

جدير بنا أن نلاحظ أنه فى الوقت الذى تحولت فيه المحميات العربية الفرنسية الى جمهوريات ، نرى تلك التى كانت فى ظل السيطرة

البريطانية تتحول الى ملكيـــات كمصر وشرق الاردن والعراق · وقد استوردت السلطات البريطانية الى العـــراق الملك فيصل الأول ليتولى عرشه · وكان البريطانيون يرون فيه الهالة التى خلقوها للأسرة الهاشمية والثورة العربية ، وكان قد لعب أيضا دورا بارزا فى الجهود التى بذلها العرب لكسب اعتراف الحلفاء بمطالبهم الاستقلالية فى فرساى · ومع ذلك فهناك سؤال يبرز الى الاذهان فورا ، وهو هل كان يقدر للنظـام الملكى الجديد فى العراق أن يبقى لو أنه اتبع سياسة فيها المزيد من التحرر خلال حقبتى الثلاثين والاربعين من هـــذه الفترة ؟ لم يكن فيصل يذعن اذعانا كاملا للوصاية البريطانية ، ولذا فقد تمتع بشىء من الشعبية فى العراق الى أن توفى فى عام ١٩٣٣ ، ليخلفه ولده الملك غازى الذى تميز عن والده بمزيد من الوطنية ومن الشعبية · وظل غازى قائمـا عـلى الحكم فى العراق حتى عام ١٩٣٩ ، عندما قتل فى حادث سيارة · وسارت الملكية العراقية بعد هذا التاريخ وفى عهد وصـــاية ولى العهد الأمير عبد الاله ، خال الملك الطفل فيصل الثانى فى طريق التدهور المتزايد فى السمعة والمكانة ·

كان عبد الاله فى منتهى الطموح ، وكان يبحث على الأقل ، عن الأبهة والعظمة محاولا محاكاة الأسرة المالكة فى بريطانيا على الأقل ، والوصول الى عرش يقيمه لنفسه فى دمشـــق على الاكثر · وقد أدرك عبد الاله ، بعد انقلاب رشيد عالى الكيلانى فى عام ١٩٤١ الذى استهدف الحياد ولكن سرعان ما انتهى أمره بالقضـــاء عليه ، أنه فى حاجة الى شخصية سياسية قوية فى العراق يتحالف معها · وهكذا نشأ التحالف القوى والتعـــاون الوثيق بين الوصى وبين نورى السعيد ، الذى كان ضابطا فى الثورة العربية والميال كل الميل الى بريطانيا والمؤسس للجيش العراقى والرجل القوى الذى يتطلع الى اقامة « هلال خصيب » تتزعمه بغداد ويضم العراق وسورية وشرق الاردن ·

ولم يكن نورى السعيد ديكتاتورا بقدر ماكان الرأس البارز لنظام حكم القلة (أوليجاركى) يضم التجار الأثرياء فى المدن وكبار الشيوخ من ملاك الارض فى الارياف العراقية · وقد لعبت الفئة الاخيرة أى ملاك الارض دورا فى منتهى الخطورة والاهمية فى النظام السياسى فى العراق بين عامى ١٩٣٣ و ١٩٥٨ · ولقد بدأ العراق فى عهد الانتداب كبلاد تضم مساحات شاسعة من الارض تؤجر اجارة قبلية جماعية ترتكز على نظام « الديرة » القديم فى العهد العثمانى · ولكن سلطات الانتداب ما لبثت قبل انتهاء حكمها المباشر ان فرضت قوانين جديدة لتسوية الاراضى ·

وكان من المفروض أن تخلق هذه القوانين مجموعات من الاراضى تسجل على أنها الملك الشخصى للشيوخ ، ومجموعات أخرى تسجل ملكا لأبناء القبيلة . وتمكن الشيوخ، وفى ظل المحاكم البريطانية مع الأسف، من حمل الألقاب بصورة عملية ؛ ومن الحصول على السلطان والثروات . وباتت سيطرتهم على الريف العراقى طاغية لا تنازع . وصدر قانون فى عام ١٩٣٣ يخولهم صلاحية اقامة سجون خاصة لمستأجرى أراضيهم ، وللمدنيين من المزارعين «بالحصة» . وأضحى هؤلاء الشيوخ قوة سياسية رئيسية فى العراق . ولم يعد باستطاعة أية حكومة أن تظل فى كرسى الحكم بدونهم الا اذا حاولت مصادرة أملاكهم .

ولكن عبد الاله ونورى السعيد لم يحاولا قط القيام بمثل هذه الخطوة . وبات العراق على النقيض من ذلك بلدا حبيس نظام اقطاعى قاس . تزخر فيه برلمانات نورى السعيد بالمستقلين الذين يمثلون الشيوخ الذين يرتكز نورى الى سلطتهم على جماهير الفلاحين العراقيين . وكانت الحكومة اذا رأت الحاجة ماسة الى تشريع قد يهدد ثروات الشيوخ تهديدا مهما كان طفيفا ، تقوم بالتعويض المناسب لهم فتمنحهم المزيد من أراضى الدولة . ولم يكن فى الامكان اقرار أى قانون قد يمس حقوق الملكية التى تخص الشيوخ . وكان النظام من الشمول الكامل بحيث تنتهى تقريبا جميع الاراضى التى استصلحت ، بقصد توزيعها فى الظاهر على المعدمين الذين لا يملكون أرضا ؛ الى أيادى الشيوخ . وكانت الطرق التى تعبد ؛ تلتوى بقدرة قادر ، لتمر بأراضى الشيوخ . وهكذا لم يحل عام ١٩٥٨ حتى كانت جميع الاراضى الصالحة للزراعة فى العراق ملكا لاربعة فى المائة فقط من مجموع السكان . وكان نحو من ٢٧٢ رجلا يملكون خمس هذه الاراضى بينما يملك ٣٣٤٧ شخصا آخرين خمسين آخرين ، وذلك فى بلاد تضم خمسة ملايين من الفلاحين .

ونشأت عن هذه الأوضاع الريفية المريعة والقاتمة حركة دائبة للتحول الى المدن . وهكذا أضحت المدن العراقية ولا سيما بغداد تضم مع مرور السنين ، ثلاثة عناصر متفجرة ؛ عددها آخذ فى الازدياد بصورة مستمرة ؛ وهى الطبقة الوسطى الناشئة التى تضم الشبان من المتعلمين وأنصاف المتعلمين ؛ وطبقة من عمال المدن تعيش فى مساكن قذرة ، وطبقة من اللاجئين الهاربين من عبودية الارض عند الشيوخ ؛ تعيش فى أكواخ من الصفيح أو من القصب والطين . وبلغ عدد هؤلاء الأخيرين نحوا من مائتى ألف حول بغداد وحدها فى عام ١٩٥٨ .

وظهر طيلة هذه الفترة فئة من الوطنيين الاحرار الذين هدفوا الى اصلاح هذا النظام الشرير المشين ، من أمثال كامل الجادرجي الذى تلقى علومه فى مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية • ولكن النظام كان منيعــا لا تنفذ اليه أيدى المصلحين • فالبرلمان محشــو بالفئات التى تعـارض الاصلاح ، والوزراء يؤخذون من فئات التجار الاثرياء والشيوخ القبليين والدوائر المهنية المحافظة القديمة • وباتت المناصب الوزارية تتناقلهـا تسعون أسرة تقريبـا أصبح أفرادها يسمـــون « بأفراد جوقة نورى الموسيقية » وقد ينسحب نورى من كرسى الحكم فى الآونات التى يختارها ، ولكنه يظل حتى وهو خارج الحكم القوة المهيمنة وراء الكواليس • وأقام نورى قوة بوليسية سرية تتقن معرفة الاخطار السياسية قبل وقوعها • وكان الاحرار الذين يتجاوزون الحدود المسموح بها ، يرسلون الى « أعالى النهر» الى أماكن تفرض عليهم فيها الاقامة الجبرية من أمثال بلدة تكريت • أما الاحرار الاقل شهرة فيمضون الى السجون التى لا يستثنى التعذيب منها • ولاسيما اذا كان هؤلاء قد أساءوا الى عبد الاله الذى عرف بالحقد والتعطش الى الانتقام •

وأنشأ نورى السعيد فى عام ١٩٥٠ مجلسا للاعمار يتولى انفاق سبعين فى المائة من واردات زيت العراق المتزايدة فى أعمال التطـوير الداخلى • وكانت الخطة سليمة من ناحية الاســاس ، وقد تم الاشراف على تنفيذها بطريقة معقولة فحقق المجلس تقدما ملحوظا فى الاعمـــال الانشائية الضخمة التى تولاها كبناء السدود للوقاية من الفيضان كسد دوكان العظيم وشق الطرق واقامة محطات توليد الكهرباء وما أشبه ذلك من مشروعات • وبدا المشروع بالنسبة الى الغرب البعيد كعمل من أكثر الاعمال المتنورة التى قامت بها الزعامة السياسية فى الشرق الاوســط ، ولكنها طبقت دون أن تمس نظاما يعتبر من أسوأ الانظمة الاقطاعية كلها فى حقبة الخمسين • ولم يكن نورى السعيد أو غيره من شخصيات العهد على استعداد لمحاولة احداث أى تبدل فيه •

ولم يكن نورى السعيد مجرد «دمية» بريطانية • فلقد كان تحالفه مع بريطانيا يقوم على عقيدة أساسية مالبثت أن لطفت غلواؤها بتاثير وطنية الجيل الذى عاش فيه • ولكن العراقيين الشبان كانوا يرون فى هذا النظام الحكومى كله ، شيئا مترابطا مع بريطانيا فى النواحى السوقية (الاستراتيجية) والملكية والصناعية ــ النفطية ، والسياسية وان هذا الوضع قائم بدافع الحاجة الكلية • وكان هذا العهد ، هو الذى طالما أشـار اليه الوزراء المحافظون البريطانيـون فى بياناتهم الرسـمية العامة بأنه يمثل « آكثر

أصدقائنا اخلاصا في الشرق الاوسط وأجدرهم بالركون والثقة » ٠ وأخذت حاجة نورى السعيد وعبد الاله الى العون البريطاني ضد خصومهما تزداد شيئا فشيئا ٠ وكانت التجربة بالنسبة الى شبان العراق ، شبيهة بقاعة المرايا ، التى خبرها شباب مصر ، فلقد كان الاقطاع فيه أسوأ حالة من الاقطاع فى مصر ، قبل عام ١٩٥٢ ٠ واستمر حكم « الاستعمار وأعوانه » في العراق مدة أطول ، عبر سنوات من أقسى ما مر به القوميون العرب في أى مكان طيلة القرن الحالى ٠ ولم يكن ثمة ما هو أقرب الى التنبؤ ، من القوة الثورية التى انطلقت مندفعة من الرماد الراكد ، ومصورة غضب العراق فى الرابع عشر من تموز (يوليو) عام ١٩٥٨ ٠

الخاتمة :

راعيت فى هذا العرض الذى قدمته للنظام الذى كان قائما فى الشرق الأوسط بين عامى ١٩٢٢ و ١٩٥٢ استخدام كل ما ساور الجيل الجديد الذى انتقل من مرحلة الطفولة الى مرحلة البلوغ ، ومن الامل الى الخيبة المرة والاحساس بالعار مما يفعله كبارهم ٠ وأنا لاأقصد من كل هذا، أن أوحى للقارىء بأنه لو اتيح المجال للجيل الجديد من رجال وكذلك من نساء أخذ عددهن فى الزيادة الضخمة ، لوضع أفكارهم العصرية المتحررة موضع التنفيذ ، لحولوا المجتمع الذى يعيشون فيه الى فردوس من الفضائل الغربية ٠ ولم تكن كذلك الغاية فى كل ما قلت عن النظام القديم ، أن أقلل من قيمة زعمائه ومنفذيه، فلقد كان معظم (كذا) هؤلاء وطنيين مخلصين طبقا لمفاهيمهم الخاصة ، ولم يكن منهم الا النفر القليل من النفعيين (١) ٠

وليس من العدل ولا من الامانة التاريخية فى شيء ، أن نسمح لهذا السرد بتشجيع الفكرة التى تمثل السياسات البريطانية والفرنسية على انها لعبة « الشرطة واللصوص » أو « القديسين والشياطين » ٠ فلقد ضحى الكثيرون بأرواحهم ، وضحوا بصحتهم ، وهم يعملون ، لافى خدمة الامبراطورية وحدها أو فى خدمة مناطق النفوذ فحسب ، بل سعيا وراء تحقيق أحلامهم فى ايجاد شرق أوسط أفضل فى ظل الوصاية البريطانية والفرنسية ٠

ولكن النظام كله كان يقوم على الخداع والوعود التى نكث بها ، وعلى

---

(١) ان اخلاصهم يتمثل في ولائهم للدولة المستعمرة ، وطغيان الملكية ، وتشريد الاحرار ٠ (المعرب)

تجزئة الشعوب المتطلعة الى الوحدة ، وفرض وصاية عليها البست ثوبا براقا من التضليل ، واذا كانت قد دبرت بليل ، وتم حملها عن طريق الخنا غير المشروع الذى يحطم حياة من حملتها . وكان هذا النظام يفتقر الى معظم حسنات الاستعمار (١) • وان كان يضم كل مافيه من مساوى ومن اضطهادات لا تسمن ولا تغنى من جوع ، مغلفة بأقنعة خادعة يثير تكشفها الكثير من الاستفزاز والغضب • ولم تعد القضية بعد انتهـــاء الحرب العالمية الثانية الا مجرد وقت ليس الا ، لينطلق الجيل الجديد من القمقم الذى حبس فيه ، ماردا جبارا مخيفا ، وليعرض الغرب الطريقة التى يقبل بها تحديات هذا الجيل التى لم يعد فى امكانه ، أى الغرب ، تجاهلها • وعلينا أن ننتقل الآن الى البحث فى أمر هذا الجيل عشية انفجار ثورته •

---

(١) داب الاستعمار دائما على اضفاء مايسميه بالرسالة الحضارية على الاعمال التى يقوم بها فى مستعمراته . فهو يعنى ببعض الاصلاحات التى يقـوم بها لا سـعيا وراء الاصلاح نفسه ، وانما ليجعل من المستعمرات التى يسيطر عليها البقرة الحلوب التى تحقق له مصالحه الاقتصادية ، وتؤمن له طرقه الاستراتيجية ومناطق نفوذه . فليس ثمة من طريق تعبد الا وتكون الغاية الرئيسية منها تامين المواصلات الاستعمارية ، وليس ثمة من أرض تستصلح الا والهدف منها زيادة انتاج المواد الزراعية اللازمة لصـناعة الدول المستعمرة وغذائها . لكنه خداع الاستعمار دائما ؟ . (المعرب)



الجيل الجديد

« لكل شعب من شعوب الارض ثورتان ثورة سياسية يسترد بها حقه فى حكم نفسه بنفسه من يد طاغية فرض عليه ، أو من جيش معتد أقام فى أرضه دون رضائه ٠٠ وثورة اجتماعية تتصارع فيها طبقاته ثم يستقر الامر فيها على ما يحقق العدالة لابناء الوطن الواحد ٠٠ أما نحن فان التجربة الهائلة التى امتحن بها شعبنا هى أن تعيش الثورتان معا فى وقت واحد » ٠

جمال عبد الناصر فى « فلسفة الثورة »

عاصرت الفترة التى عاشها الشرق الاوسط من تاريخه بين عامى ١٩٢٢ و ١٩٥٢ ، الحقبة التى تحول فيها الغرب من ليبرالية القرن التاسع عشر السياسية الى التحرر الاجتماعى ، الذى انتقل من حقل النظرية الى ملكوت التطبيق العملى الواضح كل الوضوح ٠ وبرز فى الولايات المتحدة وبريطانيا وأوربا الغربية عامة ، المفهوم القائل بأن الدولة هى الوصية الشرعية المسئولة عن تحقيق العدالة الاجتماعية والرخاء الاجتماعى ٠ وغدت العقيدة الليبرالية القديمة الداعية الى تمجيد حرية الفرد فى التملك وفى الرأى ، المتركزة فى توقع قيام أوضاع مثالية ــ تذوى فى ظلها أعمال الحكومات وتتضاءل ــ مذهبا قاصرا بل ينطوى على الاجحاف ٠ ولم تكن هذه المذاهب الداعية الى التبدل فى الافكار السياسية والاجتماعية والاقتصادية الاساسية ٠ لتعتبر فى الشرق الاوسط ، فجة أو تافهة على أى حال من الاحوال ٠ وفتحت أحداث الثورة الروسية ، واضراب بريطانيا العام سنة ١٩٢٦ ، والأزمه الاقتصادية العظيمة فى الولايات المتحدة وما تبعها من نظام التوزيع الجديد (النيوديل) ، والاشتراكية الوطنية الالمانية ، والاتحادات الفاشية الايطالية وصخب الراديكالية فى فرنسا ، فتحت عيون الشبان العرب

الذين كانوا يقضون فى هذه الفترة بين عامى ١٩٢٢ و ١٩٥٢ سنى دراستهم فى المعاهد ، والكليات العسكرية والجامعات المختلفة •

وكانت قيادة المجتمع الذى يعيش فيه هؤلاء الشبان فى أيدى الكهول ، الذين كل ما يمكن أن يقال عنهم أنهم نشأوا على غموض مدرسة القرن التاسع عشر الليبرالية « (١) ولكن نظام فترة « ١٩٢٢ - ١٩٥٢ » لم يحل بين هذه العقول الفتية وبين التفتح على التيارات الحديثة للفكر الغربى • واجتاحت الشرق الأوسط فى هذه الحقب الثلاث ثورة عملية فعالة فى ميدان التعليم • وقد لا يدرك الكثيرون أن جامعات مصر ، كانت تخرج فى عام ١٩٤٦ طلابا يبلغ عددهم بالنسبة الى مجموع السكان فى البلاد أحد عشر ضعفا لما كانت تخرجه الجامعات البريطانية فى الوقت نفسه • ولا ريب فى أن المستويات كانت متفاوتة ، ولكنها لم تكن فى أى مكان فى الشرق الاوسط من الانخفاض بحيث تحول دون ظهور طوفان من المشاكل الجديدة التى تثار ، ومن المبادىء الحديثة التى تعتنق ، ودون أن تقف اجراءات الغرب التطبيقية مرآة صافية أمام الطلاب الشبان يتميزون فيها بوضوح عن طريق المقارنة ، العيوب والشرور الكثيرة فى المحيط الذى يعيشون فيه •

وظهرت فى المنطقة فى الوقت نفسه طبقة جديدة من الذين يعملون فى التجارة والادارة والمهن المختلفة ، كونت مستودعا أو بوتقة تترعرع فيها الافكار الجديدة •• وكانت هذه الفئة تؤلف حاجزا طبقيا بين الأغنياء والفقراء ، وتضم المحامين والضباط والاطباء والمهندسين والموظفين ومديرى الاعمال والمستخدمين والكتبة فى دوائر الحكومة والاعمال التجارية وصغار المزارعين والتجار والصناعيين من أرباب الحرف (٢) •

ولكن هذا الحاجز الطبقى ، لم يكن يملك من الثروة والوفرة العددية والتنظيم السياسى والمكانة الاجتماعية ما يمكنه من تحدى النظام القائم تحديا جديا ، بله استفزاز الجماهير لتنظيمها والتعبير عن آرائها • وهكذا ظل الحاجز يؤلف طبقة تعيش فى حيوية « قلقة » بين هؤلاء الذين

---

(١) من مقال لوليد خالدى عنوانه « التيارات السياسية في الهلال الخصيب » في « مجلة العالم اليوم » ١٩٥٦ .

(٢) من مقال لمورو برجر عنوانه « الطبقة الوسطى في الوطن العربى » ومقال « الشرق الاوسط في مرحلة الانتقال » .

يمسكون بزمام السلطان وبين أولئك الذين يقبعون عاجزين فى شقائهم • وأدى التحول السريع الى حياة المدن ، وهو ما عرضنا أرقامه فى فصل سابق الى ظهور طبقة عمالية جديدة فى المدن ، ولكنها ظلت تفتقر الى تنظيمات الطبقة العاملة الفعالة على غرار ما نعرفه فى الغرب .

ترى ما هى الآراء التى كانت تعتمل فى نفوس هذا الجيل الجديد الذى يحس بالكبت ، ويسيطر عليه القلق ؟ لقد أبرزت هذه الآراء فى الفصول السابقة ولكنى أرى أنها تستحق الايضاح كل الوضوح كمقدمة لثورة حقبة الخمسين .

لقد كان هذا الجيل أول رعيل عربى استخلص أفكاره المتلاحمة المتماسكة من جذور الغرب الحديث الفكرية وينابيعها ، فقد عرف كل شىء عن الثورة الفرنسية والثورة الامريكية وحركة الوحدة الايطالية والثورة الارلندية والحركة الوطنية الهندية (١) . وكان هذا الجيل العربى أيضا أول من وجد أمامه من الاجيال بفضل النهضة الفكرية التى ترعرعت فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، صورة واضحة عن تراثها العربى العظيم • وعلى ضوء هذه الحقائق نستطيع أن نقول ، انه فى الوقت الذى رحب فيه أبناء الشرق الأوسط بهذا التداخل مع الغرب ، فان النتيجة الطبيعة لهذا التداخل ، نمو روح من السخط والمقت لما يبدو فى بلادهم من انحراف من جانب الغربيين عن هذه المبادىء الغربية نفسها • وهكذا رأى هؤلاء الشبان العرب أن الحضارة التى تبدو فى حوافزها الحديثة وروحها مناقضة للاستعمارية ، تمارس استعمارها فى البلاد التى يعيشون فيها •

ولم تكد الحرب العالمية الثانية تضع أوزارها ، حتى كان الكيل قد طفح بالسخط والمقت ، وتحول كما تحول فى الهند الى أزمة روحية أصيلة • ورأى الشبان العرب أمامهم قائمة طويلة من الوعود التى أغدقها

---

(١) ليس ثمة من ريب في أن الثورات يفيد بعضها من بعض ، فاللاحق منها يتعظ بما وقع فى الثورات السابقة من دروس وعبر وتجارب . ولكن هذه العظات لا يمكن ان تعتبر ايحاء بالثورة نفسها ، ولا سيما اذا كانت الثورة أصيلة مستمدة من الواقع المادى والرسالة التاريخية كالثورة العربية . ولذا فلا يمكن القول ان الثورة العربية استمدت وحيها من الثورات التى درسها ابناء الجيل الصاعد والتى وقعت فى مختلف انحاء العالم ، اذ انها ثورة أصيلة ، منبثقة من واقع النقمة العربية على الاستعمار وما يرافقه من استغلال اقتصادى ومن تطلع العرب الى الحرية ، ومن تأثرهم بتراثهم التاريخى . (المعرب)

الغرب فى الحرب العالمية الثانية تقف جنبا الى جنب مع هـذا الاحجام الظاهر من الدول الكبرى عن تنفيذ هـذه الوعود عندما دقت أجراس السلام ، وسرعان ما اختفى ما أحس به السوريون من اعتراف بالجميل لبريطانيا على مساعدتها لهم في الخلاص من الفرنسيين ليحل محله شعور عارم بالسخط على الاحـداث التى وقعت بعد الحرب فى فلسطين التى تعيش فى ظل انتداب البريطانيين ٠ وانسحبت حكومة العمال البريطانية من الهند دون أن تطلب معاهدة تضمن لها القواعد أو « مجالس الدفاع المشتركة » ٠ ولكن هذه الحكومة ذاتها أصرت على طلب هذه القواعد ومجالس الدفاع من مصر والعراق ، وتورطت في اقامة دولة غريبة دخيلة فى فلسطين العربية(١) ٠ ومن العسير على أن أبالغ فى شرح ما تركته هـذه المفارقات من أثر كبير للغاية ٠ وبدا للعرب أن ميثاق الاطلسى وميثاق الامم المتحدة ، وما رافقهما من دعايات أخلاقية صدرت عن الحلفاء أيام الحرب ، قد طبقت كلها على جميع أجزاء العالم وحتى على جنوب آسيا وجنوبها الشرقى ، ولكنها لم تطبق على العرب أو على الافريقيين ٠ وأدت سياسة الولايات المتحدة فى القضـية الفلسطينية الى خيبة آمال العـرب فى أمريكا على أنها الدولة الغربية الوحيدة التى يمكن للعرب أن يأملوا ف العدالة منها ٠ وهى الآمال التى انبثقت عن مبادىء ولسون فى عـام ١٩١٨ (٢) . واتضح فى عام ١٩٤٧ أيضا أن روسـيا السوفياتية قد تورطت كذلك فى الاندفاع الصهيونى لخلق دولة لليهود فى فلسطين ٠

---

(١) ليس من الصحيح بالنسـبة الى كاتب منصف أن يقـول ان بريطانيـا قد «تورطت» مجرد تورط في اقامة اسرائيل الدخيلة في الوطن العربى ولكن هذه الادعاءات وما شابهها من القول باضطرار بريطانيا او أمريكا الىتأييد الصهيونية تحت تاثير النفوذ العالمى اليهودى ، ليست الا مزاعم يقصد منها التمويه، واخفاء حقيقة الجريمة الكبرى التى ارتكبها الاستعمار ممثلا في بريطانيا أولا وفي أمريكا التى تولت قيادة الجبهة الغربية التى تضم الدول الاستعمارية ثانيا في حق شعب فلسطين . ولم يكن خلق اسرائيلمجرد «تورط» ، بل كان تنفيذا لخطة استعمارية قديمة لفصل الوطن العربى الى جزئين عن طريق اقامة جسم غريب في وسطه وهو اسرائيل ، وقد جاء وعد بلفور تجسـيدا لهـذه الخطة التى تلاقت أحلام الصهيونية فيها مع خطط الاستعمار واطماعه في الوطن العربى. وعلى هذا تكون بريطانيا هى التى خلقت اسرائيل ومهدت السبيل وفق خطة منظمـة مدروسة لخلقها عن سابق عمد واصرار لا عن مجرد تورط عارض . — المعرب —

(٢) يحاول الكتاب الغربيون ، حتى ولو كانوا من المنصفين كل الانصاف أو بعضه ، ان ينزعوا عن الحركة العربية التحررية والوحدوية طابع الاصالة المنبثق عن الواقع المادى والرسالة التاريخية . فهم يتهمون كل حركة عربية أصيلة بالارتباط بشـكل او بآخر بالتيارات الاجنبية ، فثورات فلسطين المتعددة انعكاس للتحريض النازى والفاشي،

ونمت فى عقول أبناء هذا الجيل المنفعل ، المترقب رغبـــة عارمة لا تكتفى بمجرد الاصرار على تصفية كل سيطرة أجنبية فحسب بل تتطلع الى الحيلولة دون تمكن أية دولة من الدول العظمى من عقد تحالف مع أى جزء من أجزاء الوطن العربى • ومضت هذه الرغبة الى أبعد من الحيـاد وعدم الانحياز اللذين تبنتهما الهند • فلقد كانت ناجمة عن الخوف من التورط فى أية أحابيل تعاهدية فى منطقة كانت تبدو حلبة مكشـوفة لتصارع القوى العالمية المتضاربة • ولم يكن الحافز على هذه الرغبة فى البداية ايجابيا كحافز نهرو ، اذ أن نظرية تخفيف حدة التوتر السياسى بين الدول عن طريق « توسيع مساحة دول عدم الانحياز » ، لم تصبح وطيدة الاركان عند القوميين العرب المعاصرين الا بعد مدة طويلة • وكان الباعث العربى فى بادىء الأمر ، ذاتيا ينبع عن الرغبة الغريزية فى الدفاع عن النفس ، وذلك بعد التجارب المريرة القاسية التى مر بها العرب فى فترة تزيد على القرن لا مع دولة كبيرة واحدة بل مع مجموعة من الدول التى أقحمت نفسها فى شئون الوطن العربى • وكان أبناء هذا الجيل الصاعد كثيرا ما استمعوا الى الحجج التى اصطنعها المستعمرون لتـدعيم « المحالفات الصديقة بين الانداد » على نحو ما ورد فى المعاهدات التى تلت الانتداب من تعابير ، فمجوا هذه الاساليب الاقناعية الحلوة الطعم الشائكة الملمس • فلا بدع أن رفضوا والحالة هذه مثل هذه الاوضـــاع ، فى أى جزء من أجزاء منطقتهم العربية التى نشدوا تامين قواها الدفاعية عن طريق الوحدة والحصول على الاسلحة الحديثة بوســـائل استقلالية • وحملت سياسات التحالف الدولية ومنح التسهيلات السوقية للأجانب اليهم طابع نسيج العناكب الجبارة التى تحاول الامتـداد من الشـمال الى الجنوب أو بالعكس • وكانوا يرون فى أى حلف تعاهدى أو قاعدة سوقية فى أى جزء من الشرق الاوسط ، مجرد زاوية لهذا النسيج يحاول الامتداد منها الى الأجزاء الاخرى فى الشمال والجنوب • والقاعدة الحربية التى يسمح بها فى العراق ، تؤثر على مصر وتورطها ، كما أن أية قاعدة

= وثورة رشيد عالى في العراق حركة نجمت عن التحريض النـــازى ، واندفاع سورية الثورى ضد فرنســا من وحى الجنرال سبيرز والسياسة البريطانية ، وثورة العـرب الكبرى بقيادة الزعيم الملهم الرئيس عبد الناصر ، اندفاعة متأثرة بالاتجاهات الشيوعية الى غير ذلك من الاتهامات والتخرصات التى يعرف مبتكروها انها كاذبة وبعيدة عن الحق كل البعد . وليس ثمة من شك في أن هذا القول بالآمال العـربية في أمريكا او في غير امريكا ليس الا من قبيل هذه التخرصات لابعاد الاصالة عن الحركات العـربية .

(المعرب)

فى مصر ، تؤثر على سورية وتورطها · ولم تكن هذه الآراء مجرد خيالات وهمية ، ولكنها كانت تنعكس فى كل مناقشة تجرى فى مجلس العموم البريطانى وفى كل تحليل تنشره صحيفة « التايمز » عن الاوضاع السوقية فى الشرق الاوسط ، وفى كل كتاب يصدر عن حجة غربى فى الشئون العربية ، ومن حق شبان العرب والحالة هذه أن يروا مثل هذه الآراء ، لا سيما وأنهم يلاحظون أن خبراء الغرب وساسته يتقدمون دائما بنظريات عن السوقية الموحدة للمنطقة ·

وتبدو هذه الوحدة التى ينشدها العرب منبثقة على أى حال عن عقائد ايجابية من ناحية وعن املاءات الدفاع عن النفس من الناحية الاخرى· وسأتناول الافكار المتعلقة بالوحدة العربية فى فصل مستقل هو الفصل الرابع عشر لانها تستحق مثل هذا التفصيل · ولكنى أرى لزاما على أن أدون هنا أن نمو العقيدة الوحدوية لم يكن مجرد عملية سهلة متماسكة تسير فى طريق تفرشها الورود · فلقد انهمكت مصر منذ عام ١٨٨٢ فى نضالها التحررى الخاص بها ، وظلت على هذا النحو من الانهماك طيلة حقبتى العشرين والثلاثين من القرن الحالى · وشنق الاتراك فى المشرق العربى فى عام ١٩١٦ عددا من دعاة القومية العربية ، كما نفوا عددا آخر منهم كما كمموا أفواههم · ومع ذلك ، فقد بزغت فكرة الوحدة العربية بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى ، على شكل منشورات وقرارات ومذكرات، تعيد الى أذهان الحلفاء العهود التى قطعوها على أنفسهم ابان الحرب والتى تجاهلوها فى فرساى ، ولكن معاهدات الصلح بما فرضته من تجزئات ألقت ستارا من الارتباك والتشويش على هذه المطامح الوحدوية . ووجدت القيادة المحافظة الجديدة فى أجزاء الوطن العربى نفسها مضطرة الى العمل ضمن هذا الاطار الجديد من الحدود المصطنعة ، وراح جميع أولئك الراغبين فى التعاون مع بريطانيا وفرنسا ، والذين ترتكز مصالحهم الاستثمارية النامية على هذه التجزئة الجديدة للوطن العربى ، يعملون خفية ضد الوحدة وان تظاهروا بالعمل من أجلها · ويمكن تلخيص هذا الوضع فى الفقرة التالية التى وردت فى مقال متأخر استعرض الحالة التى قامت فى حقبة العشرين ··

« وبدا الناس وقد فقدوا شكلهم الاصيل · فاذا نظر الواحد منهم الى نفسه ، كانت نظرته هذه بعينين استعارهما من الغرب ··· واذا ماتناقشوا فى أنفسهم ، انحصر نقاشهم فى اختيار أى من الافكار العديدة المطلقة أو الافكار التى تخص كلا منهم يمكن تطبيقها على أوضاعهم ·

وكثيرا ما تساءلوا : هل هم من « الغربيين » أو من « الشرقيين » ، وهل هم من « العرب » أو من « السوريين » أو من « اللبنانيين » (١) •

ولكن فكرة الأمة العربية الواحدة ، التى تتخطى الحدود المصطنعة وتسمو فوق المعتقدات الدينية ، ما لبثت أن سارت فى طريق التقوى والرسوخ وان كانت بصورة متدرجة منذ أواسط العقد الرابع من القرن الحالى • وباتت هذه الفكرة تؤلف اقنوما من الاقانيم الثلاثة للجيل الصاعد فى شعاراته وهى التحرر من كل حكم واحتلال أجنبيين ، وعدم التورط فى أحلاف الدول العظمى ، وتحقيق الوحدة العربية الوثيقة • وأدت الاحداث المتلاحقة التى وقعت ابتداء من مراكش وانتهاء بفلسطين الى العثور على متنفس جديد حاد لهذا الشعور المتولد بالاخوة العربية • وعملت طرق المواصلات الحديثة وانتشار التعليم بين العرب على اشباع الجيل الجديد بشعور من الجماعية العربية ، جماعية التراث الماضى ، وجماعية المشاكل الحاضرة وجماعية الآمال فى المستقبل • ولكن هذا الجيل كان يرى حيثما التفت ببصره ، تفرقة تسود شيوخه القابضين على زمام الحكم والسلطان وثبط هذا المنظر من عزائمه ، فهناك منافسات سلالية بين الهاشميين والسعوديين وهناك ملكية فى مصر تحاول استغلال هذه الحزازات والصراع وهناك أطماع عبد الله أمير شرق الاردن فى مملكة أكبر ، وهناك مشاريع نورى السعيد وعبد الاله ، لتحقيق الهلال الخصيب، وهناك الميول عند بعض القادة السوريين الى العراق ، والميول عند البعض الآخر ضده • وتحولت سياسة بريطانيا الرسمية بعد عام ١٩٤٣ الى تشجيع ايجاد وحدة عربية أوثق عرى (٢) لكن الجيل الجديد كان يرى فى الانباء التى تحملها الايام المتعاقبة تشجيعا من بريطانيا للمنافسات والمكائد التى تعرقل سير الوحدة العربية .

ويحتاج العامل الأخير الى شيء من الشرح والتفصيل ، فالشاب العربى الذى يزداد احساسه بالوطن العربى الذى يقع وراء الحدود

---

(١) مقالة لألبرت حورانى عنوانها .. عشرون سنة من التبدل في مجلة « منبر الشرق الاوسط » آيار «مايو» ١٩٥٧ •

(٢) يقصد المؤلف هنا تشجيع انطونى ايدن وزير خارجية بريطانيا آنذاك لقيام الجامعة العربية . ولكن كل عربى واع يدرك ان بريطانيا قصدت من خلق الجامعة العربية أن تكون أولا أداة لتكريس التجزئة القائمة في الوطن العربى ومنع وحدته وهو ما اثبتت الايام صحته ، وان تكون ثانيا اداة تسخرها في تثبيت مصالحها في الوطن العربى • (المعرب)

المصطنعة للبلاد التى يعيش فيها ، يرى الفقر والفساد والاستعمار والصهيونية التى تضغط على جميع أجزاء وطنه ــ كما يراها ــ وتعيش على التفرقة الموجودة فيه ٠ وبعد أن تشبع هذا الشاب بالآراء العلمانية و « العقلانية » التى تسود المجتمعات فى عرب القرن العشرين ، أصبح لا يرى فى عقائده الدينية حلا لمشاكله الدنيوية المعقدة أو وسيلة للامتزاج مع اتباع الديانات الاخرى فى وطنه ٠ ولما كان قد نشأ فكريا على رؤية المشاكل الاقتصادية على ضوء الافادة المادية والمنسقة من الموارد الاقليمية، فقد رأى أن منطقته تضيع هذه الموارد فى منافساتها الاقتصادية ٠ ورأى وهو الذى تربى على رؤية التنافس الدولى فى العالم قائما بين مجموعات من الشعوب تتفق كل منها فى تفكيرها ومصالحها أن عكس هذا يقوم فى المنافسات الرسمية بين العرب أنفسهم ٠ ومهما كان « المنشور » العدسى الذى يستخدمه فى دراسة عالمه الخاص به ، فقد تبين له ان الحاجة للوحدة ، الوحدة الحقيقية ، هى النتيجة الطبيعية التى لا غنى عنها أبدا ٠

وكانت هناك تأثيرات عقائدية خارجية جديدة انطبعت فى مخيلته ، وفى طليعتها القوميات الآسيوية والفكرة الثابتة عن القومية المنبثقة من المانيا ٠ وكانت الهند تعرض قومية متحدة لشعب يتحدث بمائتى لغة مختلفة وبلهجات تنتشر فى أكثر من خمسمائة وحدة اقليمية مختلفة ٠ وظهرت فى ألمانيا تيارات فكرية سياسية سبقت قيام النازية بأمد طويل ولكنها لم تصل الى الوطن العربى الا مع ظهور النازية ، وهى تتلخص فى فكرة غامضة عن « الشعب الواحد » اعتبرت أقرب الى الاوضاع العربية من فكرة « القومية » السابقة حسب مفهومها الفرنسى ٠

وأدى تفاعل هذه العوامل والتأثيرات كلها الى بروز شعار واحد منذ حقبة الثلاثين وهو شعار « القومية العربية » الذى بات مسيطرا كل السيطرة ، ويرتفع فوق كل هتاف ٠ وتعنى كلمة القوم فى اللغة العربية الجماعة التى ينتمى اليها ابن القبيلة البدوى ، والتى يشعر نحوها بالالتزام في العون كما ينعم بما يقدمه اليه أفرادها من مساعدة ، دون تقيد بالمكان الذى يقيم فيه ٠ وليس لكلمة القوم من مرادف دقيق فى اللغات الغربية ٠ ولكن معنى هذه الكلمة ما لبث أن تبدل فى حقبة الثلاثين فأضحت تعنى « الشعب الواحد » فى المفهوم الالمانى « للشعب » وباتت القومية تعنى « شخصية الشعب الواحد » التى تسمو فوق الحدود الرسمية ولا تتقيد بقيود المنشأ أو مكان الاقامة ٠ وباتت كما فى وسعنا أن نقول ، العقيدة التى تحدد مفهوم « الشخصية القومية » التى يتلهف لتحقيقها الوطن العربى كله ٠

وأخذ الفرق الكبير بين مفهومى « الوطنية » و « القومية » فى البروز بشكل ظاهر فى التفكير القومى • وبدأ الناس يتحدثون عن الوطنية عندما يعنون بالاخلاص الوطنى لدولتهم القائمة كالعراق مثلا • ولكن اتجاه أفكارهم بصورة متزايدة نحو الهدف الأكبر من « الشخصية القومية العربية » ، وهو اتجاه قضت به وعززته أوضاع المنطقة كلها ، جعلهم يتخذون من « القومية » الصورة القوية التى تجتذبهم وتستفزهم • وكان الانقسام بين المعنيين قويا ، نشيطا طيلة السنوات التى كانت الجامعة العربية فيها بميثاقها الواهى ، وكيانها المتراخى ؛ المركز الوحيد المتيسر الذى تلتف حوله أهداف العرب ومطامحهم • وليس ثمة من شك فى أن الفكرة القومية كانت نشطة فى مصر قبل قيام الرئيس عبد الناصر ، ولكنها كانت فى حاجة الى المحرك الذى يحركها والى القيادة الديناميكية التى تجعل منها الحلم الذى تتطلع اليه عيون الملايين .

وسرعان ما تممت هذه الاهداف الخارجية من استقلال ووحدة وحياد بأهداف داخلية ترمى الى الاصلاح • وكان الشبان والشابات الذين يعودون من الدراسة فى الغرب ، أو يتطلعون الى بلادهم فى منظار كتاب مدرسى غربى فى كلية من كليات الشرق الاوسط ، يحسون بشعور من المهانة والخجل يغمرهم تماما ، وكانوا من الناحية الطبقية أقرب الى جماهير الفلاحين وساكنى المدن من أسلافهم ، بل أقرب الى تلك الفئات من أبناء الطبقة الوسطى وفق المفهوم الغربى لهذه الكلمة • وكان لهم جميعا أبناء عمومة من الفلاحين الأميين الذين يجهلون القراءة والكتابة ، وللكثيرين منهم جذور فى قرى الريف أو فى المدن التى تضم « الاسرة » الواحدة منها المئات • وكانوا يحسون بالغضب والسخط على ما يبديه كبارهم من عدم اكتراث بهذه الاوضاع من الفقر والمرض والجهل التى تسود مجتمعهم ، وعلى انغماس هؤلاء الكبار فى حياة بيروقراطية بالية ، واغراقهم فى المحسوبية والابتزاز والافتقار الى الكفاية ، اغراقا يسير فى طريق الزيادة لا فى طريق النقصان • ولا بدع والحالة هذه اذا ما تطلع الشبان بلهفة وتشوق الى ظهور القيادة الصافية النظيفة ، السامية فوق الفساد ، البعيدة عن الاثرة ، المتصفة بالحزم والارادة •

وكان النظام الجمهورى مطلبا متأصلا فى سعيهم الى الاصلاح الاجتماعى • فهم ينظرون الى ممثلى أمريكا وفرنسا فى الغرب ، والى ممثلى الهند وأندونيسيا فى الشرق ، ويقارنون بين أوضاع هذه البلاد كلها وبين السجل الطافح بالشرور للملكيات العربية • لم تكن هناك ملكيات عربية ذات جذور وتقاليد عريقة ، فالعروش والامارات التى أقيمت فى عام ١٩٢٠،

كانت من صنع بريطانيا وخلقها • وكان في وسع هذا الجيل الجديد من أبناء المدن أن يتسامح وأن ينظر بشيء من الاحترام لهذه الملكيات ، ولكنه لا يجد مكانا في تفكيره مطلقا لذلك الاستهواء الذى تثيره ملكيات الصحراء البدوية في عقول الغربيين • فطراز القيادة الذى ينشده هو النقيض تماما لهذا الذى يبرز في المجتمع البدوى الذى يعتبره مجتمعا عتيقا باليا • وكان هذا الميل الذى يراه أبناء الجيل الجديد عند الغربيين لذلك المجتمع يستثير سخطهم لما يحسون به من اذلال ، ولأن هذا الموقف يتناقض كل التناقض مع المفاهيم التى أعجبوا بها في الغرب •

وأخذت «الاشتراكية» و «الديموقراطية الاجتماعية» تجتذبان هذا الجيل بدرجة متزايدة • ولكن النظام الداخلى الذى يتحكم في بلادهم والذى يعارض هذه الافكار متصل اتصالا وثيقا بالدولة العظمى الخارجية التى يقف نظامهم عاجزا أمام ما تفرضه على عالمهم من حصار وضيق • ولذلك نرى هذا الجيل الجديد ، من رجال ونساء يؤمنون ايمانا متزايدا بهذين التحديين ، ولا ريب في أن هذا الالتحام بين القومية والحياد في السياسة الخارجية والميل الى الجمهورية والاصلاح الاجتماعى في الشئون الداخلية يعتبر من أكثر الاتجاهات جوهرية في تاريخ الشرق الاوسط في أواسط القرن العشرين • ويختلف هذا الاتجاه ، عن اتجاه الجيل المماثل من القوميين في الهند ، فلقد كان اشتراكيو حزب المؤتمر الهندى ، يتوقعون الوصول الى السلطان السياسى في البلاد ، فور جلاء البريطانيين عنها • وكانوا يدركون كامل الادراك وجود قوى في المجتمع الهندى مغرقة في محافظتها » وفي عتيق تفكيرها ومناهضتها للاشتراكية • ولكن هذه القوى لم تكن تملك أى سلطان سياسى قوى في ظل السادة « الراجات » البريطانيين ، كما أن حركة المؤتمر الهندى نفسها كانت تضم عددا من الاشتراكيين أو مناهضى الاشتراكية ، وفي مقدمتهم رجل المال الكبير بيرلا ، الذى اجتذبه نداء غاندى الى الحركة الوطنية • وكان من الممكن بالنسبة الى الاشتراكيين الهنود ، أن يقودوا حركة نضال وطنى صادق ضد « السيد » البريطانى ، في الوقت الذى يضعون فيه الخطط ، وهم في أتم الثقة من قدرتهم على التنفيذ ، لوضع برنامج متطرف للاصلاح الاجتماعى الداخلى بعد الاستقلال • أما في الشرق الاوسط العربى ، فان الجيل المماثل للجيل الهندى ، لم يكن على ثقة من قدرته على تحقيق مايشاء من اصلاح اجتماعى ، بعد الانتهاء من مرحلة التحرر فالفئات المختارة ذات السلطان ، القائمة على الحكم في دول ذاتية الحكم وظاهرة السيادة ، مرتبطة على ما يبدو بالسيطرة الخارجية • وكان من الصعب تصور قيام

هذه الفئات بحركة ثورية فى الاتجاه الخارجى ضد الاستعمار ولذا كان من الصعب أيضا تصورها ، وقد أخذت على عاتقها مهمة ثورية اجتماعية في الاتجاه الخارجى • ولقد طال أمد انتظار هذا الجيل كما قال الرئيس جمال عبد الناصر •

« اننا لم نكن نستطيع أن نؤخر عقارب الساعة أو نقدمها ونتحكم فى الزمن ، وكذلك لم يكن فى استطاعتنا أن نقوم على طريق التاريخ بمهمة جندى المرور ، فنوقف مرور الثورة حتى تمر ثورة أخرى ونحول بذلك دون وقوع حادث اصطدام ، وانما كان الشيء الوحيد الذى نستطيعه هو أن نتصرف بقدر الامكان ، وننجو من أن يطحننا شقا الرحى ، وكان لابد من أن نسير فى طريق الثورتين معا » •

ولكن لم لم تنشأ حركة سياسية وحدوية عظيمة تعكس كل هذه الآراء الفتية ؟ ولم لم تقم أحزاب متماسكة في أهدافها ونشيطة فى عملها لتعكس هذه الاراء فى كل جزء من أجزاء الوطن العربى ؟ لعل خير وصف، يصدر عنا الآن وبعد انقضاء هذا الامد الطويل، هو أن نقول : انهذا الجيل من رجال ونساء قد ولد بين عامى ١٩٠٠ و ١٩٢٠ أو بين عامى ١٩١٠ و ١٩٢٠ بصورة خاصة ، وانه كان يتصف بالغموض وعدم التبلور الكامل فى الشكل • ولقد كان هذا الجيل على هذا النحو من الغموض وعدم التبلور عندما شرع فى الوصول الى الحكم فى حقبة الخمسين ، وأسهم غموضه فى توسيع هوة الخلاف وعدم التفاهم بين العرب والغربيين فى هذه الحقبة • ونحن فى الغرب لا نستطيع أن نفهم وجود تيارات سياسية اجتماعية ، الا اذا كانت صادرة عن أحزاب قائمة منظمة ومتناهية القوة وواضحة ، ولها برامجها التى نستطيع فهمها ، وقادتها الذين نتمكن من تمييزهم ودراستهم ، واحترامهم بالنسبة الى مواقفهم وأفكارهم • ولم تكن هذه الاوضاع ظاهرة لنا بالنسبة الى الجيل العربى الذى ولد بين عامى ١٩١٠ و ١٩٢٠ •

وفى وسعنا القول بصورة عامة ان أفكار هذا الجيل القلقة قد انعكست فى ثلاث مجموعات • فالى اليمين مجموعة قوية من الاخوان المسلمين يقودها حسن البنا • وقد دأب منذ عام ١٩٣٤ على تأسيس فروع للاخوان فى خارج مصر • ونادى ابان الحرب العالمية الثانية بالحياد وانشأ جهازا ارهابيا ذا خلايا سرية مزودة بالسلاح والذخيرة ، مدربة تدريبا عسكريا • وحقق للحركة سمعتها فى حرب فلسطين فى عام١٩٤٨، عندما قاتلت وحدات متطوعة من الاخوان بشيء من التعصب والبسالة ،

وحاول البنا فى فترة الاضطراب التى وقعت فى مصر فى شتاء ذلك العام، الوصول الى الحكم ، ولكن الحكومة قابلت الحزب بحملة من الاعتقالات والارهاب وقام أعضاؤه باغتيال النقراشى باشا ، ولم يحل فبراير (شباط) عام ١٩٤٩ ، حتى اغتيل حسن البنا نفسه اما بتحريض من الحكومة القائمة أو على أيدى الفئات الارهابية الخاصة التى كان فاروق قد ألفها • وضعفت المنظمة بعد ذلك فى السنوات الثلاث التالية وان ظلت تجتذب أتباعا لها من الفلاحين وعمال المدن والموظفين والطلاب وبعض المثقفين فى مصر ، وجماعات أقل عددا فى سورية والاردن والسودان •

ووقفت الى الطرف البعيد الآخر فى اليسار ، ظلال وجماعات مختلفة من الشيوعيين • وقد شرع فى تاليف هذه الخلايا فى مصر منذ عام ١٩٢٠ وفى سورية والعراق ابان حقبة الثلاثين • وعلى الرغم من أن الشيوعية قد تمكنت من تحقيق بعض التقدم عن طريق النقابات العمالية الناشئة ولا سيما فى مصر ، الا أن الاحزاب الشيوعية ، كأحزاب ؛ كانت محرمة طيلة الفترة الواقعـــة بين عامى ١٩٢٢ و ١٩٥٢ ، بقرارات الحكومات المحافظة وتحت تاثير الدول الاستعمارية ونفوذها • ولم تقم البلاد العربيه اية علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفياتى الا فى حقبة الاربعين ، واقتصر اهتمام السياسة السوفياتية فى المنطقة نفسها طيلة هذه الفترة الاولى ، على العناية بشئون الكنائس الارثوذكية الشرقية ، وعلى بعض النشاط فى ايران • ولكن هذا النشاط الشيوعى ما لبث أن تزايد بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية • ومضت السفارات والمفوضيات السوفياتية الجديدة الى العمل ناشطة كل النشاط • واتسع الاهتمام بالحليف السوفياتى الظافر للدول الغربية وسرعان ما تالفت « اللجان الوطنية للعمـــال والطلاب » وكذلك « جماعات التحرر الوطنى » •

ولكن النشاط الشيوعى فى الوطن العربى فى حقبة الاربعين لم يكن اكثر من مجرد تعبير عن القلق والسخط ، وعن البحث عن افكار جديدة وأسلحة يمكن استخدامها ضـــد الاستعمار وأعوانه • وليس ثمة من شك فى أن قوى قاسية من الشيوعيين المدربين المتفانين فى عقيدتهم قد نشأت فى مصر وسورية والعراق ، لكن ما وقع من اضطرابات ومظاهرات وما تالف من لجان محلية وما صدر من منشورات بين آونة وأخرى ، لم يكن الا ثمرة نشاط شبان لا يعرفون شيئا أو شيئا حقيقيا من الماركسية ــ اللينينية ولا يحملون لها أى ولاء ولم تكن سمعة الاتحاد الســوفيتى نفسه عاملا واضحا مؤكدا ولا سيما بعد أن أيدت موسكو مشروع تقسيم

فلسطين لعام ١٩٤٧ فى الامم المتحدة ، وبعد أن أسرعت روسيا على الفور للاعتراف باسرائيل بعد خلقها فى عام ١٩٤٨ · ولم يؤد استخدام المسلمين الروس فى السفارات والمفوضيات السوفياتية الى أية نتيجة ، اذ أنه لم يلق هوى لدى غالبية أبناء الجيل الجديد الذين اتجهت أفكارهم اتجاهات علمانية (١) .

واستقرت المثل والنظريات الرئيسية لهذا الجيل وسطا بين هذين الطرفين المتباعدين · وكانت هذه المثل والنظريات المنبثقة من الوسط تتلخص فى القومية والحياد والوحدة وتبنى النظام الجمهورى والاصلاح الاجتماعى الذى ينشده الشبان والذى توصلوا اليه بعد أن خبروا كافة الآراء والنظريات للفئات التى انضموا اليها · ولكنهم سرعان ماخرجوامنها بعد أن تبينوا عجزها عن أن تحقق لهم أى تقدم فى المضمار السياسى · وكثيرا ما لجأ هؤلاء الشبان الذين كانوا يعيشون وكأنهم فى دوامة بين مد وجزر ، وفى خضم التجارب والاستهواء الى البحث عن قيام حزب شجاع جديد ، لا يلبث أن يبزغ ويلقى التأييد الحماسى حتى ينهار تحت وطأة الانقسامات الداخلية أو اضطهاد رجال الشرطة ·

ولكن لم كان يقع هذا ؟ تنبثق أسباب عدة من العوامل التى سبق لنا أن شرحناها · فلقد كان فى امكان السلطة الفرنسية أو البريطانية ، فى القسم الأكبر من هذه المدن أن تقضى على نشاط أى حزب تعتبره خطرا أما عن طريق العمل المباشر فى ظل الانتداب ، أو عن طريق اظهار الامتعاض لأنظمة الحكم القائمة التى تأتمر بأمرها · وكانت هذه الانظمة تسحق الحركات واحدة اثر اخرى وتسكتها ، فلقد أغلق نورى السعيد حزبى الاستقلال والوطنى الديموقراطى أكثر من مرة · ولم يكن فى وسع

---

(١) اعتقد ان المؤلف قد غالى كثيرا في تقدير قوة جناحى اليمين والشمال · في تيارات الفكر العربى الحديث . وقد يقال ان جماعة الاخوان المسلمين وجدت في يوم ما تأييدا جماهيريا واسعا . اذ انها كانت ، اذا ما استثنينا الحركة الشيوعية التى لا يمكن ان تلقى تأييدا على نطاق واسع في الوطن العربى بسبب تصادمها من الناحية العقائدية مع الفكرة العربية العارمة المتطلعة الى الوحدة الشاملة للوطن العربى ، الحركة المنظمة الوحيدة الكبيرة التى استهوت الجماهير برفعها شعارات مكافحة الاستعمار في تلك الحقبة من التاريخ العربى الحديث. ولكن هذه الحركة ما لبثت أن فقدت انصارها بعد قيام ثورة مصر التحررية الصادقة في صراعها مع الاستعمار وبعد ان تكشفت الحركة للرأى العربى الواعى على حقيقتها التعصبية مما يتناقض مع مفاهيم القومية العربية الصحيحة ومع أسس التفكير العالمى الحديث .

(المعرب)

الاشتراكيين فى سورية أن يشقوا طريقهم بنجاح أمام تجمع من عناصر الاقطاعيين والتجار وشيوخ القبائل فى أية انتخابات نيابية • وأراد بعض شباب حزب الوفد فى مصر ، ان يصلحوا حزبهم ويطوروه ضمن الاطار الحزبى ولكنهم كانوا يصدمون دائما ويفشلون نتيجة معارضـة آبائهم لهم •

وكانت طاعة رب الأسرة وما زالت قوة لها خطرها الكبير فى مجتمع الشرق الاوسط • وكان تحدى السلطان المسيطر فى المنطقة التى يعيش فيها أى شاب ، يتطلب من هذا الشاب الكثير من الشجاعة ، كما قد يورطه فى خطر خسارته لما يشعر به من أمن فى ماله وعمله ومكانته الاجتماعية

ويرى هذا الشباب ان كل من فى مجتمعه يمت اليه بصلة القربى أو بعلاقة ما من العلاقات • فهذا المجتمع يشكل هرما ألف احترام الشيوخ من الاثرياء الذين يفوزون عادة بالمقاعد البرلمانية ، واحترام الذين يحتلون مكانة اجتماعية بارزة فى المدن والبلدان الصغيرة ، أو الذين يؤيدون احدى الشخصيات المحافظة الكبيرة • وقد يغدو الشاب من غلاة المنادين بالاصلاح وهو فى مدرسته الثانوية أو فى الجامعة التى التحق بها سواء أكانت جامعة هارفرد أو كمبردج أو السوربون أو القاهرة أو دمشـق أو بيروت الامريكية • ولكنه لا يكاد يخرج من جامعتـه ، ويواجه الضرورة الماسة للحصول على عمل ، حتى نراه يصبح اقل حماسة فى التعبير عن آرائه . وكان الشاب اذ ما خرج الى الحياة العملية فى السنوات الاخيرة من النظام القديم وجد نفسه وسط فوج ضخم من الشبان المتعلمين الذين لا تكاد الوظائف الخالية ، ان وجدت ، تكفى لجزء قليل منهم • ولو أسعفه الحظ ووصل الى وظيفة من الوظائف فانه كثيرا ما يكون فى هـذه الحالة مدينا بها الى نفوذ الكبير فى أسرته . الذى يود هذا الشاب لو اطاح به وبأفكاره وبالدور الذى يلعبه فى النظـام القائم • أما اذا حرم الشاب من الوظيفة فانه يظل فى هذه الحالة عالة على أسرته •

وكانت الاوضاع ابتداء بدار الاعتماد البريطانية أو الفرنسية أو بسفارة احدى هاتين الدولتين ، ومرورا بالقصر والحكومات الرجعية ، والبرلمانات التى يسـيطر عليهـا الاقطاعيون والمرتشـون والفاسدون ، وانتهاء بالعلاقات العـائلية الشخصية ، أشـبه ما تكون بستار كثيف ، محكم الغطاء من القمع والكبت والمرارات يلقى بثقله على هذا الجيل الجديد• وكانت مثالية الكثيرين من أبناء هذا الجيل أيضا هشة سهلة التكسر

ومفتقرة الى القوة الذاتيـة على الاحتمال . وكثيرا ما وجد هؤلاء ، أن من الاسهل عليهم لو استسلموا ، ورفعوا أيديهم علامة الاذعان .

هذه هي بعض الاسباب الواقعية ، المشروعة التي تجعل من حقنا التحدث عن وجود « جيل مختلف » تحت القشرة الظاهرية لمجتمع الشرق الأوسط عن النحو الذى كان الغرب يراه فيه قبل حقبة الخمسين ، وهو جيل سرعان ما تخاذل وانحرف في الازمان الثورية التي وقعت في هـذه الحقبة نفسها . ولكن كانت ثمة أسباب عقائدية أساسية أيضا . فلم تكن تلك الفترة من نوع الأوقات التى توصل الناس عادة الى التفكير الهادىء والمناقشات الطويلة المدى . ولقد كانت جميع أوضاع المجتمع العربى مناهضة لأى تطوير منظم يقـوم على أساس برامج سياسـية واقتصادية متبادلة التحدى ، واضحة ، مميزة .

وكان العرب يحاولون منذ عام ١٨٥٠ تقريبا أن يدرسوا فى حقب قصيرة التجـارب التى مررنا نحن بهـا فى الغرب عبر قرون طويلة ، وأن يفهموها ويطبقوها ، على الرغم من أنهم كانوا لا يزالون يعيشون فى دوامات من الضغط السياسى الدولى ومن التبدل المستمر فى حكامهم ، من العهد العثمانى فى مصر مثلا الى عهد الاسرة المالـكة الجديدة ومنها الى الاحتلال البريطانى ومن الاتراك العثمانيين فى البلاد العربية الاخرى الى فترة قصيرة من الامل فى الاستقلال ومنهـا الى حكام غرباء عنهم . واذا نظرنا الى الامور على هذا الضوء ، تبين لنا أن التطورات التى وقعت بين عامى ١٨٠٠ و ١٩٢٢ كانت مهمة وبارزة كل البروز . وبات فى وسع الشبان العـرب أن يدرسوا الآن وأن يهضموا تقنية الغـرب الحديثة فى الطب والهندسة والزراعة وعلم الطبيعة والكيمياء والاساليب الفنية الصناعية . ولكن ترى كيف يمكن تطبيق أفكار الغرب الحديثة فى الحقلين السياسى والاقتصادى فى مجتمع يختلف كل الاختلاف فى تكوينه الاجتماعى ومدى التعليم فيه ، وطرق التعبير السياسى فيه عن مجتمع الغرب ؟ فلم تشهد البلاد العربية ثورة صناعية . ولم تقم فيها طبقة عمالية صناعية . وليس فيها أيضا طبقة وسطى بالمعنى الغربى من الكلمة . فكيف يمكن للشاب العربى أن يجد فى حقل التجارب الغربية نظريات وبرامج للتقدم الاجتماعى ــ الاقتصادى تقوم على العنصر الفرد الوحيد والعظيم فى مجتمعه وهو الطبقة العمـالية الزراعيـة التى تميزت بالتراخى ، والتى قتلهـا الفقر ، وتأخرت فى حقل التقنية الجديدة .

ولم تكن « الاشتراكية » لهذا الجيل الا مجموعة من المثل المعممة

التي تهدف الى تصفية السلطان السياسى لطبقة ملاك الاراضى والرأسماليين التجار ، لمصلحة جماهير الفلاحين التى تؤلف ثمانين فى المائة من الشعب. وكانت اشتراكيته أيضا مزيجا من التأثيرات الخارجية المنبثقة عن الثورة الروسية والاشتراكية الفابية البريطانية وسياسة التوزيع الجديد الامريكية وميثاق الاطلسى ومشروع بيفردج . ولا ريب فى الاستنتاج بأن هذه الاشتراكية كانت تفتقر الى الوضوح فى التفكير ، صحيح وواقع الى حد كبير . وقد يكون فى امكان المسترخى فى مقعده المريح فى الغرب أو الجالس فى مكتبه الصحفى هناك ، أن يستخف بالمشاكل الموجودة فى الشرق . ولكن عندما يقف المرء فى قرية عربية ويشرع بعين عقله فى حساب الارقام والمشاكل الاجتماعية التى قد تواجه العربى الساعى وراء الاشتراكية ، ثم يأخذ فى مقارنة كل ذلك مع ما يماثله من أرقام ومشاكل فى الغرب فانه سرعان ما يخجل من استخفافه السابق ، ويختلط عطفه بالسؤال الحائر الذى يسيطر على كل لب وفؤاد ... وهو ... ترى من أين نبدأ ؟ ولم يكن الشبان العرب بين عامى ١٩٢٢ و ١٩٤٧ قد أفادوا حتى من النتائج التى يمكن أن تتمخض عن الاستعمار المباشر سواء أكان بريطانيا أم فرنسيا ، عن طريق التجارب المستمرة فى حكم القانون وحق الاجتماع ، والخدمات المدنية والتعليم الجامعى ، والصحافة والطباعة ، والنقاش فى القضايا السياسية والاجتماعية على الاسلوب الغربى(١) . ولم تكن العلاقة مع الفكر الغربى فى الشرق الاوسط ، وثيقة فى يوم ما على النحو الذى كانت فيه فى تلك الايام ، فهى تستفز شباب الجيل الجديد فكريا وادراكيا من ناحية ، وهى تدعو الى خلق المرارات وعدم الفهم من الناحية الأخرى اذ أنها متنكرة وراء شعار من النظام القديم القائم .

ولم يكن فى امكان هذه الاوضاع العقائدية والتنظيمية أن تؤدى الى نشوء حركة سياسية قوية ، ثابتة ، منظمة ، جيدة الفكر ؛ يكون فى استطاعتها أن تبدل النظام القائم . لكنها أدت من الناحية الأخرى الى شعور عميق ؛ منفعل ؛ من المرارة والتجربة وحياكة المؤامرات التافهة وتأسيس الاحزاب الجديدة الضئيلة ، والى ساعات لا عد لها ولا حصر من المناقشات السياسية العقيمة فى المقاهى ، وكذلك الى تفجرات عاطفية عنيفة تصل الى القمة أحيانا ، عندما يشعر أفراد الجيل بحادث فيه بعض

---

(١) هذه الفوائد التى يشير اليها المؤلف وينسبها الى الاستعمار لاتعدو ان تكون سطحية وفي القشور دون اللباب ، ولذا لا يمكن النظر الى الاستعمار على انه ذو فوائد ابدا . (المعرب)

الاذلال لكراماتهم يتعلقون به وكأنه القشـــة الاخيرة وحملت المرارات والاضطهادات والصراعات الداخلية بين المثل العليا والمصالح الشـخصية كثيرا من الشبان على هجر السياسة كنشاط قذر ولا جدوى منه • فكل شيء انحلال وعار ، وقد ظلت النتائج حتى يومنا هذا متمثلة فى القلق السياسى والافتقار الى الفكر المركز ، والى خلق جو من الانشغال بالمشاكل الآتية يوما بعد يوم ، ووجود تفاؤل يعود الى فروغ الصبر حتى فى الحقبة الجديدة التى ما زال الوصول الى الاهداف فيها بعيدا كل البعد •

الضباط الشبان :

وانطوى هذا الجيل على مجموعة من الشبان الذين يمكن أن ينسبوا الى « الطبقة الوسطى » القلقة الوجود ، والذين قدر لقلقهم أن يلعب دورا حاســما كل الحسم • واذا ما استثنينا الصحراء ، حيث يسكن البــدو ، أمكننا القول بأن الشرق الاوسط ، كان خاليا من التقاليد العســـكرية العريقة ، اذ لم تكن هناك كتائب وأفواج يرجع تاريخهـا الى قرون خلت ، يتولى قياداتها التقليدية ضباط ينتمون الى الاسر الارستقراطية، ويتشبعون بمفاهيم الولاء للدولة أيا كان شأنها وشكلها ، لانهم يؤلفون جزءا منها • وعندما شرعت الجيوش الجديدة الصغيرة فى النمو والتطور فى مختلف أرجاء الوطن العربى كان ضباط هذه الجيوش ينتمون الى الطبقة الوسطى الجديدة الناشئة من قاعدة الطبقة الفلاحية التى كنا قد تحدثنا عنها من قبل • وكان بعض الشبان ينضمون الى سلك الضباط بعد الدراســة الثانوية أو بعد قسط أعلى من التعليم العالى لان الحياة فى هذا السلك ، كانت تضمن لهم الامن والطمأنينة ولأن بعضهم كان ينظر الى العمـل فى الجيش على أنه وسيلة لخدمة الشعب وكانت مراحل التعليم التى مروا بها قد بثت فى نفوسهم نفس وجهات النظر الاساسية التى سادت الجيل الجديد كله • والتى شرحناها من قبل ، وعملت دراساتهم العســـكرية اللاحقة فى الكتب الغربية على تقوية هذه الآراء فى نفوسهم ودعمها •

ولكن تحتم عليهم فى حقبة الفترة الواقعة بين عامى ١٩٢٢ و ١٩٥٢ أن يلعبوا دورا يبعث فى نفوسهم الكثير من الشعور بالمرارة والخجل • ولم يكن من الامور السهلة على نفوسهم أن يتلقوا الاوامر باطلاق النيران على مواطنيهم عندما يتظاهرون احتجاجا على السياسات التى تلحق المهانة بالجيش الوطنى بنفس الدرجة التى تلحقها بالشعب كله • وكان الضباط الشبان فى جيوش مصر وسورية والعراق والاردن يشعرون بأن لندن وباريس تنظر الى جيوشـهم بعين الازدراء • وهم يرون عندما يؤدون

نوباتهم نى حراسة القصور الملكية ، أو ينفذون واجبا آخر من واجبات الدولة ، وفى تصرفات بعض رؤسائهم من كبار الضباط ، صورة الفئة المختارة المريضة الفاسدة التى تتحكم فى بلادهم · وكان من الضرورى بالنسبة لهم أن يدركوا أنهم لا يزيدون فى ميولهم الديموقراطية ، على اخوانهم من المدنيين من أبناء نفس الجيل ونفس الطبقة اللذين ينتمون اليهما ولكن مع مرور السنوات ، لم تظهر فى الأفق أية دلائل على أن الاستقلال قريب أو أن الاصلاح الداخلى ممكن عن طريق النظام القائم ، وشرع هؤلاء الضباط الشبان فى التفكير بما على جيوشهم من واجب أساسى يتصل بالدولة والشعب · وكانوا يرون أن هدف العسكريين ليس الوصول الى الحكم بل الدفاع عن الذين يحكمون من أعدائهم سواء أكانوا من الخارج أم من الداخل · وعلى هذا الأساس يجب أن تكون الحكومة التى يدافعون عنها صالحة تستحق الدفاع · أما اذا كانت الحكومة غير صالحة لأن يدافع الجيش عنها ، فان على العسكريين اختيار أحد السبيلين اما قبول الفساد الراهن المستشرى واما التدخل فى الشئون المدنية ·

ولم يكن هناك أى احساس لدى العسكريين من الشبان بالتفوق على المدنيين أو بالتميز الطبقى ، عندما يتولد لديهم الاعتقاد بأن من حق الجيش أن يتدخل · وليس ثمة من ريب فى أن حملة الغربيين على تدخل الجيش فى الشئون العامة للشعب ، قد أضافت مزيدا من التوتر الى العلاقات بين العرب والغرب فى حقبة الخمسين فهؤلاء الضباط الشبان يرون أن الجيش هو العنصر الوحيد فى مجتمعهم الذى يمثل جماهير الشعب الذى يستمد الجيش منه ضباطه وجنوده · ولم تكن لديهم رغبة قوية عارمة فى السلطان السياسى . ولكن سير الاحداث فى السياسات المدنية فى بلادهم دفعهم شيئا فشيئا الى الفكرة التى تأصلت لديهم بوجود فئة واحدة ليست تنبثق الا من صميم الشعب ، ويثق أفرادها بعضهم ببعض، قادرة على القيام بعمل حازم حاسم ·

وكان تفاؤل هؤلاء الضباط الشبان قويا وهائلا ، فقد آمنوا بأن دورهم سيكون فى حماية أهداف الشعب ليس الا ، واعادة الضالين الى سبيلهم السوى ، ولقد قال الرئيس عبد الناصر فى مستهل عهد الثورة ، « وأما دورنا فهو دور الحراس فقط لا يزيد ولا ينقص ، الحراس لمدة معينة بالذات موقوتة بأجل ··· وما أشبه مهمتنا فى هذا الوضع بدور الذى يمضى فيجمع الشاردين والتائهين ليضعهم على الطريق الصحيح ثم يتركهم يواصلون السير » ·

وكانت لهم ثقة عمياء بأن الفرج سيتحقق بالقضاء على العهود البائدة . وكان ايمان الضباط الشبان منصبا فى البداية على أنه بعد انقضاء فترة قصيرة نسبيا سيتمكن الجيش من انهاء السيطرة الاجنبية والقضاء على الفساد الداخلى ، وآنذاك يمكن لهم أن ينسحبوا تاركين أمر الثورة الداخلية القائمة على أسس الاصلاح البعيد المدى ، والتقدم الى نظام سياسى مدنى يتجدد شبابه يضم نفرا من الذين يحظون بثقة الأمة .

ولقد قال الرئيس جمال عبد الناصر فى هذا المعنى ...

« لقد كنت اتصور قبل ٢٣ يوليو أن الامة كلها متحفزة متأهبة ، وانها لا تنتظر الا طليعة تقتحم أمامها السور ؛ فتندفع الأمة وراءها صفوفا متراصة منتظمة تزحف زحفا مقدسا الى الهدف الكبير ..

« ولكن ما أبعد الحقيقة عن الخيال ... كانت الجموع التى جاءت اشياعا متفرقة ، وفلولا متناثرة ... وكنا فى حاجة الى النظام فلم نجد وراءنا الا الفوضى ، وكنا فى حاجة الى الاتحاد فلم نجد وراءنا الا الخلاف ؛ وكنا فى حاجة الى العمل فلم نجد وراءنا الا الخنوع والتكاسل » .

وكل من يلاحظ هذه الاقوال المنبثقة عن سلامة الطوية وخيبة الامل المرة الواضحة ، من الضابط الشاب الذى قاد أول ثورة حاسمة فى تاريخ هذا الجيل ، والتى سنرجع اليها فيما بعد ؛ يجد أن هذه الاعترافات الصريحة التى صدرت عنه فى عام ١٩٥٤ كانت تعكس ايمانا وأملا يستحقان حتى قبل أن تحل نهاية النظام القديم بما فيهما من مثالية ، احترام المراقبين الغربيين ودهشتهم . ففى هذه الاقوال ، وفى خضم هذا البحث عن الافضل فى الشرق الاوسط العربى ، طراز من المثالية التى جرى الغرب على احترامها والتأثر بها . ولكن مأساة الغرب ، تقوم فى أنه لم يستطع تمييز هذه المثالية الخفية قبل أن تنطلق الى السطح ، وفى انه لم يكن ميالا الى أخذ « العرب » بمحمل الجد . ولعل من السخريات المرة أن شبان هذا الجيل الجديد من العرب وشاباته ، كانوا يحاولون بطرائقهم وعلى صعيدهم أن يطبقوا كل ما حققه الغرب فى الماضى من منجزات أملا منهم فى أن يؤدى ذلك الى مستقبل أفضل لشعبهم . ولكن أعين ساسة الغرب عميت عن رؤية الحقيقة متأثرين باستهواء الصحراء لهم ، وبما تركته التراثات الثقافية الاخرى فى نفوسهم من غضب ونزع ، فعملوا على ابعاد أبناء هذا الجيل عنهم بمختلف السبل والوسائل .

وبدا النظام القديم فى الشرق الاوسط فى التداعى اعتبارا من عام ١٩٤٦ ، ولا سيما فى مصر . وكانت فكرة اضطرار الجيش الى القيام بالعمل نتيجة ما يبدو على المدنيين من ضعف قد شرعت فى النمو منذ عام ١٩٤٠ ٠ وكان لا بد من أن يهوى كيان هذا النظام القديم ممزقا فى حقبة الخمسين اما فى مصر أو فى اى مكان آخر نتيجة وطاة السخط الاجتماعى والتذمر الوطنى . وسرعان ما وقع حادث قدر له أن يمثل دور الدافع أو الحافز . الذى يضم كافة الشكاوى والآلام ومشاعر الذلة والهوان .

فلقد حطمت كارثة العرب فى فلسطين فى عام ١٩٤٨ — ١٩٤٩ الشرق الاوسط من أسسه وقواعده . وعكست هذه الكارثة الصورة التى لا مكر فيها ولا استخفاء ، جميع الشرور ونواحى الضعف التى كان الجيل الجديد قد شرع فى مقتها واستنكارها ٠ وكانت القنابل اليدوية تنفجر فى أيدى الجنود العرب بسبب تسلحهم بالاسلحة الفاسدة التى استوردت بطرق فاسدة . واتيحت للدولة الدخيلة الجديدة التى صدر الامر للجيوش العربية بمهاجمتها ، الفرصة لاعلان وجودها عن طريق دعم الانتداب البريطانى لها ، وتأييد أمريكا وروسيا الدبلوماسى لقيامها ، والضعف المستشرى فى الجامعة العربية بسبب ما تتنازعها من خلافات ومناقشات بين دولها الاعضاء ٠ وافتقرت الحملة العربية العسكرية الى التنسيق ، عاكسة التجزئة التى فرضها الاستعمار على الأمة العربية والتى استغلها الحكام السائرون فى ركابه ، وراح الشبان العرب الذين عادوا من فلسطين ، العسكريون منهم والمدنيون ، وقد ساءتهم الحيرة والذهول ، يتطلعون حولهم الى كل اتجاه وهم يتساءلون ٠٠٠ هل وقع مثل هذه النكبة فى اى مكان آخر غير فلسطين ؟ وهل شهد القرن العشرون فى أى مكان آخر ، مجموعة من الغرباء يسمح لهم المجىء الى بلاد مأهوله بشعبها لاقتحامها ، ولاعلان دولة لهم يطردون منها أهلها ؟ (١) ، وكيف

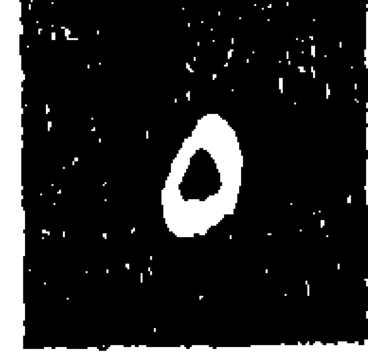
---

(١) اثبتت المقالات التى نشرها وليد الخالدى في أعداد « منبر الشرق الاوسط » في صيف عام ١٩٥٩ ، والمقال الذى نشره المؤلف بعنوان « الخروج الثانى » في مجلة السبكتاتور بتاريخ ١٢ آيار «مايو» عام ١٩٦١ والمقال الذى نشره فان دير هوفن ليونارد في لاهاى بعنوان « الحقيقة من فلسطين » في عام ١٩٦٠ ، والمدعومة كلها بالوثائق والمستندات ، كذب الادعاء الصهيونى بأن عرب فلسطين هربوا من بلادهم تنفيذا لأوامر زعمائهم . ويبدو ان الغرب متأثر بأباطيل الصهيونية ودعاياتها الكاذبة لم يعرف أن عرب فلسطين قد أخرجوا من ديارهم تحت وطأة الارهاب الصهيونى . ولكن العرب كانوا يعرفون هذه الحقيقة تمام المعرفة . وعلى ضوء ذلك يمكن فهم ما تركته هذه الحقائق من أثر فيهم . (المؤلف)

يمكن لهذه الجماعة التى لا يربو عددها على سبعمائة وخمسين الفا من الأفاقين أن يوقعوا الهزيمة بثلاثة وثلاثين مليونا من البشر ؟

وفى نطاق مثل هذه الأسئلة حاول الشبان العرب ، أن يتجرعوا مرارة الهزة التى عانوها فى فلسطين وأخذوا يحاولون الافادة من العبر والدروس التى تلقوها فى فلسطين .

***



ثورة جيل

هناك ثلاث مراحل في كل عمل عظيم ، مرحلة الايمان ، عندما يعتقد الانسان بالهدف ويحلم به ، ومرحلة التفكير عندما يتحول الاعتقاد الى فكرة وعقيدة ، ومرحلة العمل عندما تظهر الفكرة على صعيد العمل وقد وصلنا الآن الى عتبة المرحلة الثالثة .

موسى العلمي .. في كتابه عبرة فلسطين

لم تبدأ الثورة فى مصر . فقد تم عقد اتفاقات الهدنة مع اسرائيل فى يوليو (تموز) عام ١٩٤٩ ، وظل الشرق الاوسط يعيش السنوات الثلاث التالية فى غليان مستمر ، ولكن دون أية نتيجة حاسمة ، ويمكن القول بأن الثورة بدات حتى قبل نشوب حرب فلسطين ، فى الاضطرابات والمظاهرات التى وقعت فى العراق فى مستهل عام ١٩٤٨ ، احتجاجا على المعاهدة العراقية الانجليزية المقترحة المسماة « بمعاهدة بورتسموث» والتى اضطر الفريقان الى ركنها على الرف اثر هذه الاضطرابات ، ووقعت فى ديسمبر (كانون الاول) عام ١٩٤٨ اضطرابات ضد الحكومة السورية القائمة آنذاك واستدعى الجيش لقمع الاضطرابات ، وفى الثلاثين من مارس (آذار) عام ١٩٤٩ ، تدخل الجيش السورى فى السياسة ، وتولى الزعيم حسنى الزعيم شئون الحكم ، ووقف الوطن العربى فترة قصيرة مبهور الأنفاس ، فهل يقدر لحسنى الزعيم أن يكون أتاتورك العرب ؟ وهل يعنى هذا الانقلاب بداية تبدل حقيقى ؟ ولكن لم تمض ستة شهور حتى كان حسنى الزعيم فى عداد الأموات ، وانتقلت السلطة الى ضابط سورى آخر ، ودخلت سورية فترة خمس سنوات من عدم الاستقرار ، يتدخل الجيش ابانها فى كل مرة ولكن دون أن يقوم بتبديل جذرى حاسم ، يغير الاوضاع القديمة .

وشرع نورى السعيد فى العراق بموافقة عبد الاله الكثير الخوف ، منذ عام ١٩٤٩ ، فى تشديد قبضته على البلاد ، وأخذ فى اقامة وزارة

قوية للداخلية اصبحت شرطتهـا السرية مبعث الفزع فى طول البـلاد وعرضها وأثارت مشروعاتها للتنميـة فى عام ١٩٥٠ حماسـة السـفارة البريطانية فى بغداد وبريطانيا ذاتها ، كما خففت من غلواء بعض الاحرار من العراقيين . وجثم على العراق عهد استطال ثمانى سـنوات ، وقمعت ابانه بعض الاضطرابات ولكن تمكن النظام المثلث الزوايا والمؤلف من نورى وعبد الاله وشيوخ القبائل من اخفاتها ومن الحيلولة دون وقـوع اية تغيرات اساسية فى الحقلين السياسى والاجتماعى ، بفضل ما لقيه هذا المثلث من تأييد بريطانيا أولا وامريكا ثانيا ، وبفضل ما فرضه من تنكيل داخلى رهيب .

ووقع تبدل تاريخى فى شرق الاردن نتيجة ضم ما تبقى من فلسطين العربية اليه ، وبات الملك عبد الله ومعه «الوجود» البريطانى فى البـلاد بكامله يواجهان منذ ذلك الحين معارضة مشتدة من الفلسطينيين العرب، وأيدت نتائج الانتخابات التى جرت فى أواسط عام ١٩٥٠ هذه الحقيقة ، وهذا الاتجاه . ولم يمض عام حتى هوى الملك عبد الله فى العشرين من يوليو (تموز) عام ١٩٥١ قتيلا فى مدينة القدس ، وارتقى ولده طلال العرش وسط موجة من الترحيب الشعبى ، لما عرف عنه من تحرر فى الفكر ومن شعور وطنى أصيل ، ولكنه كان مصابا بمرض خطير فى الغدد يؤثر كلما اشتد عليه فى قواه العقلية ، ودخلت المملكة الاردنية الصغيرة ذات الكيان المصطنع حقبة من التوتر وعدم الاستقرار المزمنين ، وتمكن الزعمـاء السياسيون المحافظون من ابناء المدرسة القديمة ، وجلهم من الضـفة الشرقية ، من العمل حتى عام ١٩٥٦ بالتعاون مع المستشارين البريطانيين المدنيين ومع جلوب باشا على ابقاء العلاقات مع بريطانيا وعلى اخفـات صوت الوطنية العربية الصاعدة والجديدة بين أبنـاء فلسطين الذين غدوا رعايا للاردن .

وسارت الامور فى مصر باتجاه أول أزمة حاسمة فى الوطن العربى بين أبناء الجيلين القديم والحديث ، وكان نشاط حركة الاخوان المسلمين فى عام ١٩٤٨ ، واخماد هذا النشاط فى عام ١٩٤٩ ، أول نذير بهـذه الأزمة وظهرت فى الأفق نذر مختلفة اخرى ، فقد طلق فاروق زوجته فريدة فى عام ١٩٤٨ ، واضرب رجال البوليس يطالبون بأجور اعلى ، وغلت البلاد بالغضب من جراء ارتفاع اسعار المواد الغذائية ، وانتشرت القصص عن مباذل فاروق فى حياته الخاصة ، وجثم على البلاد شعور بالعار مما وقع فى فلسطين ، واقصى الوفد عن الحكم ، ولم يكن رئيس الوزراء الجديد « ابراهيم عبد الهـادى » الذى يمثل الاقليـة من القادة

الملهمين ، وقرر فاروق فى يوليو عام ١٩٤٩ ــ واقره زعماء الوفد على رأيه ــ بأن الوقت قد حان ليعود الى الحكم من جديد ، الحزب الوحيد الذى ظل دائما يتمتع بشىء من التأييد الشعبى .

وعادت أغلبية الوفد الى البرلمان فى يناير (كانون الثانى) عام ١٩٥٠ واكتظت مقاعد مجلس الشيوخ بأنصار هذا الحزب الذى عمل جاهدا وعن طريق التحالف مع القصر ، ودون أى نجاح على ان يسدل الستار على قصص الفساد المروع المستشرى والتى تناولت قضية الاسلحة الفاسدة ابان حرب فلسطين ، واخذت احزاب الأقلية المغالية فى ميولها المحافظة ، تروج هذه القصص للطعن فى الوفد وتشويه سمعته ، ولم تتمكن الحملات الصحفية التى شنتها هذه الاحزاب من تقوية مركزها ولكنها عززت مشاعر المرارة التى يحس بها أبناء الجيل تجاه النظام السياسى القديم كله .

ولاح فى الأفق بصيص من الأمل ، تركز فى جهود رجل فرد لتحقيق ما كانت البلاد مفتقرة اليه ، فقد أدركت حكومة الوفد بعض أخطائها الماضية وسمحت لوزير الشئون الاجتماعية فيها «أحمد حسين» وهو ليبرالى الفكر الى حد ما ، بانفاذ مشروع ناقص للضمان الاجتماعى ، يضمن الامن للأرامل والاطفال والأيتام والعجزة والشيوخ ، ومنحت الحكومات علاوات للموظفين وزيادات فى أجور عمال الصناعة ، ولكن خطواتها هذه أدت الى غلاء عمودى فى الاسعار وادى جيشان الحرب الكورية الى ارتفاع أسعار القطن مما أكسب حكومة الوفد عطف أهل الأرياف ، ولكن سرعان ما امتدت يد الرشوة والفساد عندما أخذ الطلب على القطن يسير فى طريق الانخفاض ، ووجد الناس أن هذا الارتفاع المصطنع فى الاسعار قد أدى الى ابقاء نتاج موسم ١٩٥١ ــ ١٩٥٢ كاسدا لا يجد من يبتاعه .

واستقال احمد حسين عندما أحس بأن الأيدى الفاسدة قد امتدت الى مشروع ضمانه الاجتماعى لافساده ، واستقال عبد المتعال وزير المالية ، نتيجة فضيحة القطن ، وأحست الحكومة بموجات الاضطراب المتزايد فى حركة الاخوان المسلمين التى تجدد نشاطها ، فأطلقت سراح معظم اعضائها المعتقلين ، وبدات تزاول نشاطها هذه المرة بقوة وشدة ، وظلت بريطانيا هى محور كل ما فى البلاد من اضطراب انصب على المطالبة بجلاء البريطانيين عن مصر كلها ، وعلى وحدة وادى النيل .

وكثر الحديث عن وجوب اتخاذ موقف الحياد فى الحرب الكورية وفى الحرب الباردة وشمل هذا الحديث جميع أوساط اليمين واليسار والوسط وهوجمت السفارتان البريطانية والامريكية فى شهر أغسطس (آب) عام ١٩٥١ ، بمناسبة الذكرى السنوية للمعاهدة المصرية البريطانية المعقودة فى عام ١٩٣٦، وأعدت الحكومة فى الثامن من أكتوبر (تشرين الاول) من العام نفسه مراسيم قدمتها الى مجلس النواب تقضى بالغاء معاهدة عام ١٩٣٦ والغاء الحكم الثنائى فى السودان ، واعلان فاروق ملكا على مصر والسودان ولم تمض خمسة أيام حتى كانت بريطانيا تقدم مشروع منظمة الدفاع المشترك عن الشرق الاوسط ، بالنيابة عنها وعن فرنسا وتركيا والولايات المتحدة ، ولعل من الأدلة على وجود هوة كبيرة بين آراء الغرب وبين الواقع العربى هو ان هذا الاقتراح تضمن انذارا بأن بريطانيا لن تنظر فى موضوع الجلاء عن قناة السويس الا اذا قبلت مصر مشروع منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط .

وهكذا بدأ الشتاء القدرى : شتاء عام ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ الذى اشتدت فيه حملات الفدائيين على القوات البريطانية فى منطقة القناة . التى وصلت الى أوجها فى اللحظة المرعبة التى وقعت فى الخامس والعشرين من يناير : عندما علمت مصر أن القوات البريطانية فى منطقة القناة قد أبادت أفراد مركز شرطة عن آخرهم ، وغدت القاهرة فى صباح السادس والعشرين من يناير المسمى « بالسبت الأسود » فريسة للاضطرابات الجماهيرية وأعمال الحرق والتخريب التى استهدفت أول ما استهدفت المؤسسات البريطانية ثم تحولت الى كل ما يمثل حكم الاجنبى وحكم الباشوات ، وكانت يد الاخوان المسلمين واضحة البروز فى حرائق ذلك اليوم ، واذا لم يكن فى الامكان اقامة الدليل على أن الاخوان كانوا المحرضين الحقيقيين على أعمال ذلك اليوم فان مما لا ريب فيه أنهم تولوا على الاقل تنفيذ بعض الهجمات ولاسيما التى استهدفت منها الحانات ودور السينما .

وقرر هذا اليوم نهاية النظام القديم ، وتعثرت خطى مصر طيلة الأشهر الستة التالية فى ظل وزارات متعاقبة ، حاول بعضها القيام فى اللحظة الأخيرة ببعض الاصلاحات الداخلية ، ليسقط على الفور بعد أن يفقد عطف القصر الذى كان بدوره واقعا تحت ضغط عدد كبير من العناصر السياسية المنتمية للنظام القديم على اختلاف أشكالها ، والتى كان لهـا ما يبرر خوفها من افتضاح دسائسها وأخاديعها ، وانتخب فى يناير عام ١٩٥٢ ضابط مصرى يدعى اللواء محمد نجيب رئيسا لنادى ضباط الجيش متغلبا فى المعركة الانتخابية على مرشح الملك فاروق ؛ وعاش فاروق بين

يناير ويوليو من العام نفسه تحت سيطرة كابوس مرعب ؛ وهو وجوب الخلاص من هؤلاء الضباط الشبان الذين كانوا وراء انتخاب محمـــد نجيب ، وتوجهت فى الثانى والعشرين من يوليو الى القصر الملكى آخر مجموعة من الوزراء لأداء اليمين القـــانونية وتشكيل حكومة جديدة ؛ وعندما وصلت المجموعة الوزارية الى القصر ؛ وجدت أن الملك قد اختار « رجله » وهو صهره ليتولى وزارة الحربية سعيا وراء سحق حـــركة الضباط الشبان .

وبينما كانت القيادة العليا للجيش تبحث فى تلك الليلة الوسائل التى يجب اتخاذها لتنفيذ ارادة الملك ؛ قام الضباط الأحرار بانقلابهم الأبيض الذى أوصلهم الى الحكم فى سرعة البرق الخاطف ودون أى سفك للدماء ؛ وتولت اعلان النبأ اذاعة القاهرة فى صباح الثالث والعشرين من يوليو (تموز) عام ١٩٥٢ .

وكانت ثورة مصر عام ١٩٥٢ ؛ وما تلاها من اعلان الجمهورية فى الثامن عشر من يونيو (حزيران) عام ١٩٥٣ ؛ أول عمل حاسم ضـــد النظام القديم ، وأول تعبير يصل الى السلطة الفعلية ، عن الآراء التى كانت تعتمل فى النفوس بين أبناء الأجيال الصاعدة ، وسرت أنباء الثـــورة سريان البرق الخاطف الى جميع أرجاء الوطن العربى ، ولما جاءت الاشهر المتعاقبة ، وكل شهر منها يحمل دليلا جديدا على أصالة الثورة وما يرافقها من تغيير جذرى مركز للأوضاع ، فان عيون أبناء المنطقة العربية كلهـــا ظلت متركزة على هؤلاء الضباط الشبان الذين حسروا النقاب لأول مرة عن آرائهم فى البيان الذى أذاعوه فى الساعة السابعة من صباح الثالث والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢ اذ قالوا :

« الى شعب مصر . . اجتازت مصر فترةعصيبة فى تاريخها الاخيرمن الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم وقد كان لهذه العوامل تأثير كبير على الجيش وتسبب المرتشون المغرضون فى هزيمتنا فى حرب فلسطين . .

« وأما فترة ما بعد الحرب فقد تضافرت فيها عوامل الفساد وتآمر الخونة على الجيش وتولى أمره اما جاهل أو خائن أو فاسد حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها ، وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا وتولى أمرنا فى داخل الجيش رجال نثق فى قدرتهم وفى خلقهم وفى وطنيتهم » .

وتعاقبت البيانات ، ووقع حادث يكاد لا يصدق تلا الأحداث الأولى من النوع الذى كان العرب ينتظرونه بفارغ الصبر فى كل مكان فى أرجاء

الوطن العربى ، وتسلم فاروق بعد أربعة أيام من قيام الثورة انذارا جاء فيه :

« نظرا لما لاقته البلاد فى العهد الاخير من فوضى شـاملة عمت جميع المرافق نتيجة سوء تصرفكم وعبثكم بالدستور ، وامتهانكم لارادة الشعب حتى أصبح كل فرد من أفراده لا يطمئن على حياته أو ماله أو كرامته .

ولقد ساءت سمعة مصر بين شعوب العـــالم من تماديكم فى هذا المسلك حتى أصبح الخونة المرتشون يجدون فى ظلكم الحماية والأمن والثراء الفاحش والاسراف الماجن على حساب الشعب الجائع الفقير ، ولقد تجلت آية ذلك فى حرب فلسطين ، وما يتبعها من فضائح الأســلحة الفاسدة ؛ وما ترتب عليها من محاكمات تعرضت لتدخلكم السافر مما افسد الحقائق وزعزع الثقة فى العدالة ؛ وساعد الخونة على ترسم هذه الخطا فأثرى من أثرى ، وفجر من فجر ، وكيف لا والناس على دين ملوكهم .

لذلك قد فوضنى الجيش الممثل لقوة الشعب أن أطلب من جلالتكم التنازل عن العرش » .

وأذيع فى الثلاثين من يوليو نبأ الغاء الألقاب فى مصر كلها ؛ كألقاب « الباشا » و « البك » التى كانت ترمز الى الماضى البغيض المظلم ؛ وسرعان ما انتشرت الأنباء أيضا عن تشكيل اللجان والمحاكم للتحقيق فى قضـايا الابتزاز والرشوة والفســاد فى كل مظهر من مظاهر الادارة والحيـاة الاقتصادية فى مصر ؛ وصدر فى التاسع من سبتمبر عام ١٩٥٢ ، قانون بمرسوم استهل بالعبارة الغريبة التالية :

« لا يجوز لأى شخص أن يمتلك أكثر من مائتى فـدان من الاراضى الزراعية وكل عقد يترتب عليه مخالفة هذا الحكم يعتبر باطلا ولا يجوز تسجيله (١) » .

واذا قدر لهذه البيانات أن يشمل صداها جميع أرجاء مصر فانهـا سرعان ما سمعت ودرست فى جميع أنحاء الوطن العربى حيثما يستطيع الناس القراءة أو الاستماع الى اذاعات ، وليس من العســير على المرء أن يفهم الآثار التى ترتبت عليها على ضوء الحقائق التى حاولت سردهـــا وايضاحها ؛ وبدأت حكومة الثورة فى مصر تتخذ مواقف حازمة حاسمة

---

(١) المادة الاولى من مرسوم القانون رقم ١٧٨ الصادر في عدد الجريدة الرسمية رقم ١٣٠ لعام ١٩٥٢ .

فى كل حقل من حقول الشكوى والتذمر ، سواء منها السيطرة الأجنبية أو الملكيات المتهاوية أو الاقطاعيات الثرية أو الفساد والافتقار الى الكفاية او فلسطين ؛ وتحدث رئيسها آنذاك عن « حماية الشعب العربى من الدجل السياسى » وطلب الى الجماهير الغفيرة أن تتابعه فى الابتهال الى الله ، بأن يهب بلاده العزيزة حياة مقبلة تتحرر فيها من قيود العبودية كما رفع شعار « الاتحاد والنظام والعمل » ·

ووضع محام فلسطينى بارز بدأ شبابه فى العهد العثمانى ولكنه جارى الاجيال العربية الصاعدة فى تفكيرها متفهما لها ، كتابا ممتازا فى عام ١٩٤٩ يعتبر من أوسع الكتب انتشارا فى تلك الحقبة الزمانية · فلقد تحدث موسى العلمى فى كتابه « عبرة فلسطين » بهدوء ولكن مع عمق فى التحليل ، عن جميع مظاهر الضعف فى المجتمع العربى التى أدت الى كارثة فلسطين وكان والد المؤلف نائبا فى البرلمان العثمانى ، اما هو فقد درس فى كمبردج وأصبح محاميا للتاج فى حكومة فلسطين حتى عـــام ١٩٣٧ عندما استقال ليكرس نفسه لخدمة القضية الفلسطينية ، وأصبح فى عام ١٩٤٤ من أكثر الشخصيات نفوذا ، اذ مثل فلسطين فى مؤتمر الاسكندرية الذى وضع بروتوكول الجامعة العربية · وعلى الرغم من انه أضحى فى عام ١٩٤٩ واحدا من اللاجئين الفلسطينيين الذين أربى عددهم على الستمائة والخمسين ألفا الا أن مرارته لم تحل بينه وبين رؤية العدو الحقيقى المختفى وراء العدو المبــاشر وهو الصهيونية ، ومن يساندها من الدول الكبرى فقال :

« ولقد فشلنا فى الميدان السياسى كما فشلنا فى الميدان العســكرى ولم تكن مظاهر ضعفنا هذه الا انعكاسا لحالة الأمة العربية وحكوماتها الراهنة (أى فى عام ١٩٤٩) · فنحن نعيش فى ظل نظام سياسى مفكك يقوم على التجزئة ، وقد انعكس أثره على قواتنا فى المعركة ؛ وعلى ماتتميز به هذه الحكومات من ضعف واسترخاء · يضاف الى هذا أن شئون هذه الأمة كانت موكولة الى حكومات تفتقر الى الكفاية كما كانت الامة نفسها لا تزال ضعيفة فى وعيها ونضجها وكان ضياع فلسطين كارثة عظمى لها نتائجها البعيدة الأثر بالنسبة الى وجود الأمة العربية نفسها · واذا قدر للعرب أن يسارعوا الى مواجهة الخطر قبل أن يداهمهم ويجتاحهم ؛ فما زال أمامهم متسع من الوقت لمواجهته ·

« ويتمثل العلاج الأول فى الوحدة لكى يصبح العرب من جديد

كتلة سياسية قوية متماسكة ، ولقد كانت الوحدة لحسن الحظ الهدف الأساسى لحركتنا القومية منذ نشوئها .

« ولكن الوحدة وحدها لا تكفى ، فنحن فى حاجة الى « تعصير » شامل لكل أفق من آفاق الحياة والفكر العربيين .

ولقد عكس هذا النداء الذى وجهه موسى العلمى على الرغم مما فيه من هدوء واتزان يفوقان الاجواء العقلية التى كانت تسود المشرق العربى، حقيقة ماكان يدور فى خلد الاجيال العربية الصاعدة . واذا ماحملنا هذا النداء على أنه مرآة تقف أمام الانباء التى انبثقت عن مصر منذ منتصف عام ١٩٥٢ ، تبينت لنا فورا حقيقة ماعنته الثورة ؛ فلقد كان العرب منذ أمد بعيد ينظرون الى مصر على أنها المركز الأكبر فى عالمهم ، ولم تكن مصر مجرد أكبر دولة عربية فحسب ؛ ولا مجرد المحور الجغرافى للوطن العربى فقط . بل كانت أيضا أكثر البلاد العربية تقدما فى ميادين التربية والصناعة والعلم وفى ضخامة صحافتها ووسائل اعلامها ونشرها ، وصناعة الاشرطة السينمائية فيها ، ومهما كان المنظار الذى يستخدمه الفرد فى الحقلين السياسى والاجتماعى فان مصر تبدو فيه ذات أهمية عالمية ، فالمسلمون يتعلقون بالقاهرة لوجود الجامع الازهر ؛ وهو مركز الاشعاع الاسلامى فيها ؛ وكبار ملاك الارض من الاقطاعيين الأثرياء ، ينظرون بعين الخوف والقلق الى ما حل بالباشوات الكبار السابقين فى مصير الذين انتزعت منهم ممتلكاتهم، وهكذا دواليك عبر الطبقات المختلفة للمنظار حيث يعمل الخوف والايحاء عملهما ؛ فى اثارة دوافع الفضول الزائد أو القلق الشديد ؛ وتعلقت عيون جميع العرب بمصر التى تجتاز مراحلها الثورية لا كبلد بعيد غريب بل كمفتاح لمستقبل المنطقة كلها .

وأعلنت الجمهورية فى مصر فى الثامن عشر من يونيو (حزيران) عام ١٩٥٣ ، وظهرت شخصية الرئيس عبد الناصر على بروزها أمام الوطن العربى كنائب لرئيس الوزراء ووزير للداخلية ؛ واتضح من اسناد وزارة الداخلية اليه أهمية الدور الذى يمثله فى الثورة اذ أن هذه الوزارة كانت تعتبر من أخطر المناصب فى جميع أرجاء الوطن العربى .. واتضح أيضا أن النظام الجديد ليس قائما على حكم فرد هو رئيس الجمهورية بل على سيطرة جماعة ثورية تؤلف مجلس قيادة الثورة ؛ وهكذا بدت الجمهورية الجديدة تطورا طيبا يمضى بالبلاد بعيدا عن الماضى الكريه ؛ وانقضى عام ١٩٥٣ فى محاكمات لمعالجة قضايا الابتزاز والرشوة والمحاولات المناهضة للثورة التى يقوم بها أعوان العهد القديم ؛ وتمت مصادرة جميع

ممتلكات الأسرة المالكة وأذيع فى الخامس عشر من سبتمبر (أيلول) نبأ المحاولة التى قام بها بعض أركان العهد البائد للاطاحة بالثــورة ؛ وانطلقت الصحف والمنشورات والاذاعات تسرد الدليل تلو الدليل على خيانات العهد البائد وبغيه ،وتفضح قضايا الاسلحة الفاسدة فى حرب فلســطين ومباذل فاروق وحقيقة حريق القاهرة ، بطانة الملك الفاســدة والمرتشــية ، وأعلن أن الاموال التى ســتجمع من بيــع الممتلكات الملكية ستســتخدم فى أعمال الاصلاح الاجتماعى واعلن العهد الثورى فى يناير (كانون الثانى) عام ١٩٥٣ تشكيل مجلس دائم لتنمية الانتاج القومى ٠

واتضح وجود اهتمام ضخم داخل مصر وخارجهــا ، بما ستفعله الثورة بالنسبة الى بريطانيا والسودان ، وكان ثمة كثيرون من أفراد الاجيال الصــــاعدة ، ينظرون الى مطالب مصر فى السودان بشىء من التحفظ والشك اذ أن هذه المطالب تركزت حول رغبة الملكية التى يدعمها الباشوات فى الاستيلاء على تلك البلاد ؛ واستقبلت الخطوة الأولى التى اتخذتها حكومة الثــورة بموجب اتفاق التاسع والعشرين من أكتــوبر (تشرين الأول) عام ١٩٥٢ ؛ الذى قضى باعلان حق السودانيين فى الخيار بين الاستقلال الكامل أو الوحدة مع مصر بالترحيب الشــامل ، ووقع مجلس قيادة الثــورة فى الثانى عشر من فبراير (شباط) عام ١٩٥٣ اتفاقا مع بريطانيا بشأن منح السودان الحكم الذاتى والحق فى تقرير المصير ٠

وهكذا تم الفصل لاول مرة فى تاريخ النزاع بين مصر وانجلترا بين القضيتين الاساســيتين وهى الجلاء والســودان ، أما وقد سويت القضية الثانية الآن ، فقد برز على الفور التساؤل عما ستفعله قيادة الثــورة بالنسبة الى موضوع القناة ٠ ؟

وراح الناس يتساءلون أيضا عن الموقف الذى ستقفه قيادة الثورة من المساعى التى تبذلهــا الدول الغربيــة لتنظيم حلف دفاعى عن الشرق الأوسط؛ وظهرت كل هذه القضايا بالنسبة الى أولئك الذين يرقبــون ما تفعله مصر من مختلف أرجاء الوطن العربى بمثابة قضايا اختبارية ومحك تجربة ٠

وتحدث جمال عبد الناصر فى الثانى عشر من ابريل (نيسان) عام ١٩٥٣ الى مجلة الأوبزرفر البريطانية فقال ان حكومته على استعداد للحفاظ على قاعدة قناة السويس ، ولكنها تعلم أنها فى حاجة الى المساعدة، واضاف ان فى مكنة الفنيين البريطانيين ان يقدموا هذه المساعدة على

شريطة أن تفهم بريطانيا بوضوح وصراحة أن وجودهم لا يعنى مطلقـــا الاحتلال المقنع للبــلاد • وذكر عبد الناصر أيضـــا أن مصر لن تشترك فى أى حلف دفاعى مع الدول الغربية • وكان الوطن العربى كله يرقب سير المفاوضات حول هذه القضية بين انجلترا ومصر . وانطوى موقف مجلس قيادة الثورة على شىء من الرغبة فى التفاهم ولكنه لم يكن مرضـــــيا لبريطانيا ، ترى هل تصمد الثورة المصرية فى موقفها وسياستها ، أو أنها ستذعن ، كما أذعنت كل حكومة أخرى فى الوطن العربى لبريطانيا منذ عام ١٩٢٢ ؟ هذا هو السؤال الذى كان يمثل أمام كل فرد من أبناء الجيل الجديد •

وتلت ذلك فترة من التطورات الداخلية ضمن اطار مجلس قيـادة الثورة والنظام الجمهورى الجديد ؛ وظل الوطن العربى كله طيلة هـذه الفترة التى امتدت نحوا من عـــام ، يرقب هذه التطورات بعين القلق والوجل ، وأوقف عبد الناصر حركات الفدائيين فى منطقة القناة حتى يتمكن من متابعة المفاوضات التى كان قد شرع فيهـــا مع لندن فى جو أفضل ؛ وعنت هذه الخطوة شيئا واحدا قبل كل شىء وهو أن جماعة الاخوان المسلمين قد حلت نهائيا وتفرق أفرادها ، واعتقل قادتها الكبار•• ولكن هذه الخطوة التى قام بها عبد الناصر ، مصحوبة بما سبقها من خطوات لوقف التيار الشيوعى ، كانت ضرورية جدا لتطهير جبهة الوطن الداخلية •

وانطلقت الانباء فى السابع والعشرين من يوليو (تموز) تحمل اعلان التوقيع على اتفاق مع بريطانيا يقضى بجلاء بريطانيـــا الكامل عن قاعدة القناة فى غضون عشرين شهرا ، وبقيام المتعهدين المدنيين البريطانيين بأعمال الصيانة فى القاعدة البريطانية ، ونص الاتفاق أيضـــا على شرط ثالث وهو يسمح لبريطانيا فى حالة تعرض مصر أو تركيا أو أية دولة من الدول العربية المنضمة الى ميثاق الضمان الجماعى العربى الذى أقرته الجامعة لهجوم من دولة ثالثة ، بالرجوع الى منطقة القناة واعادة احتلالها ، واعتبر هذا النص ترضية من جانب مصر ، لم تعجب الأجيال العربيـــة الصاعدة بالرغم من التأكيدات الكثيرة التى سرعان ما أطلقهـــا الرئيس عبد الناصر بأن مصر ستتبع سياسة الحياد المطلق فى الصراع بين الدول الكبرى •

وكان شهر أكتوبر عام ١٩٥٤ حرجا كل الحرج ، فقد وقع الرئيس عبد الناصر بصورة رسمية فى التاسع عشر من أكتوبر (تشرين الاول)

اتفاق الجلاء بين مصر وبريطانيا ، ولم يكن هذا الاتفاق صورة كاملة لطرد البريطانيين غير المشروط والشامل من البلاد ، وهو المطلب الذى كان ينادى به الشعب منذ أمد بعيد ، وراح أبناء الجيل الصاعد فى الوطن العربى يتساءلون عما اذا كان فى امكان الثورة أن تتابع سياسة الحياد الكامل فى ظل مثل هذا الاتفاق • فهناك نص جوهرى يشترط وجود تركيا بين البلدان التى يؤدى الهجوم عليها الى عودة البريطانيين الى منطقة القناة • واعتبر بعضهم أن هذا النص يؤلف ارتباطا سريا مع حلف الاطلسى • ولكن كانت هناك حقيقة واقعة وهى أن الوطن العربى لا يقبل أى نوع من الاتفاق مع بريطانيا يسمح لها باعادة قواتها لأى سبب من الأسباب الى البلاد ، ولكن هذه الأعين الساهرة من أبناء الجيل العربى ، استطاعت التثبت من أن عبد الناصر قد ضمن لبلاده جلاء القوات البريطانية عنها فى أوقات السلم • وقام رفيقه فى السلاح (المرحوم) صلاح سالم بجولة فى ربوع الوطن العربى فى صيف عام ١٩٥٤ وكان ثمة من يعتقد بأن هذا الاتفاق كان سليما من الناحية التكتيكية ، بينما كان هناك آخرون يقولون ان من المتيسر الحكم للاتفاق أو عليه ، وهل يؤثر فى وضع مصر كدولة تبنت سياسة الحياد ؟ •

وحاول عامل يعمل فى صناعة الصفيح فى السادس والعشرين من أكتوبر (تشرين الأول) أن يطلق النار على الزعيم المصرى الذى كان قد بلغ السادسة والثلاثين من عمره ، حين كان يشرح فى خطاب يلقيه على شعب الاسكندرية فى اجتماع عام ، نصوص هذا الاتفاق ؛ ولكن الرصاصة أخطأت الزعيم :

ومضى عبد الناصر فى خطابه مباشرة يقول :

أيها المواطنون

اذا مات جمال عبد الناصر •• فانه يموت مطمئنا لأنكم كلكم جمال عبد الناصر لا تخافوا الموت فالدنيا فانية •

أيها المصريون

لن تكون حياة مصر معلقة بحياة جمال عبد الناصر •• بل هى معلقة بكفاحكم •

أيها المواطنون

سيروا الى الامام .. فمصر اليوم قد حصلت على عزتها وكرامتها وحريتها •

سيروا الى الامام على بركة الله نحو المجد والعزة والحرية ٠

وقوبل هذا الخطاب بكثير من التأثر ٠ وكانت سيطرة عبد الناصر على نفسه بعد الحادث والكلمات التى استعملها فور وقوعه ، بمثابة مقياس لشخصية هذا الرجل ٠ كما كانت حدثا فريدا من نوعه فى السياسات العربية ٠ ولكن لم تمض أيام حتى حمل الوضع أنباء أخرى ٠ فقد شرع فى حملة شـــاملة من جديد لمطاردة فلول الاخوان المسلمين ٠ ومحاكمة بعض قادتهم أمـــام محاكم ثورية خاصة ؛ لاشتراكهم فى المؤامرة التى استهدفت حياة القائد ٠

***

وكان المشرق العربى يتمخض عن أحداث جسام فى عام ١٩٥٤ ٠ فقد ظهر الى حيز الوجود ودنيا النشاط الضخم ، حزب جديد فى سورية هو حزب البعث العربى الذى تولى تأسيسه اثنان من خريجى جامعة السربون وهما ميشال عفلق وصلاح البيطار ٠ وفر الزعيم الشيشكلى من البلاد ، واعيد دستور عام ١٩٥٠، وتمكن الحزب من الفوز بستة عشر مقعدا فى الانتخابات النيابية التى جرت فى سبتمبر ، ودلل هذا الفوز – وان لم يكن مسيطرا فى مجلس يضم مائة واثنين وأربعين نائبا – على اتجاه مهم فى طريق التعبير عن الوحدة والحياد والاشتراكية ، وهى الشعارات الرئيسية التى رفع الحزب لواءها . واحس نورى السعيد فى العراق بالقلق من الاوضاع السائدة ، مما دعاه الى حل جميع الاحزاب السياسية بمرسوم استصدره فى شهر سبتمبر (ايلول) من العام نفسه . واقام الملك حسين الفتى فى الاردن فى شهر مايو (ايار) من العام حكومة محافظة رئيسها توفيق أبو الهدى ، واسفرت الانتخابات التى جرت فى نفس العام ، والتى زيفت بصورة متناهية فى المكر والذكاء عن مظاهرات ضخمة وقع معظمها فى الضفة الغربية (١) وتمكن الجيش من اعادة فرض النظام ولكن اتجاه غالبية الرأى العام الاردنى كان واضحا كل الوضـــوح ٠ فبالاضافة الى ما خلفته ثورة مصر من آثار وانطباعات ؛ كانت ثمة عوامل اخرى بعثت هذه الموجة من القلق فى المنطقة كلها . فهناك حوادث الحدود مع اسرائيل ، ولا سيما مذبحة قبية التى قامت بها قوات اسرائيل على الحدود الاردنية فى أواخر ١٩٥٣ ، والمحاولات التى بذلتها الدول

---

(١) كانت اعنف المظاهرات التى وقعت فى العاصمة عمان وهى فى الضفة الشرقية احتجاجا على تزييف الانتخابات وقد اسفرت عن وقوع عشرات القتلى والجرحى ٠ (المعرب)

الغربية لاشراك الحكومات العربية فى منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط واشعال الحركات الوطنيـــة فى المغرب وتونس ، وطلائع الثورة فى الجزائر ، والاثر القوى الذى كان نهرو يخلفه بسياسته الحيادية فى أزمة الهند الصينية فى عام ١٩٥٤ وفى شحن الاساحة الامريكية الى الباكستان.

وراح الفضول يدفع الكثيرين لمعرفة هذا القائد العربى الجـديد الذى ظهر فى مصر ، وفى عام ١٩٥٤ ، مضى محام فلسطينى شاب درس فى جامعة بيروت الامريكية وغدا عضوا بارزا فى حزب البعث العربى فى الاردن ،الى القاهرة ليرى بنفسه حقيقة هذا القائد العربى الجديد . وكان هذا المحامى وهو عبد الله الريماوى نموذجا لابناء الجيل الصاعد ، وسياسيا محترفا درس النظريات السياسية الغربية فى جامعة بيروت وتابع نمو الحركات القومية فى آسيا ودرس تاريخ أمته فأصبح فى عام ١٩٥٤ من المؤمنين بالاشتراكية والحياد والنظام الجمهورى والوحـدة العربية .

ولقد قال لى ذات يوم فى عام ١٩٥٤ ... « عندما رأينا ، معشر أعضاء البعث هذا القائد العربى يظهر لاول مرة ، كنا تحت تأثير بعض الشكوك» . ولكنه ذهب الى مصر . وجرى له حديث طويل ، مع قائد الثورة المصرية ، ثم عاد الى بـــلده ، مقتنعا بعد هذا الحديث ، بأن عبد الناصر زعيم قومى أصيل ، ومؤمن اشد الايمان بسياسة الحياد ، وبالمثل الديموقراطية الصحيحة .

واحس زعيم مسلم له مركزه المهم فى لبنان ، وهو صائب ســـلام بالقلق من النشاط الذى يبديه (المرحوم) صلاح ســـالم ، الذى كان الرئيس عبد الناصر قد أوفده فى جولة يطوف بها البـــلاد العربية فى صيف عام ١٩٥٤ . وقال لى هذا الزعيم .. «واحسست بالحاجة الماسة الى معرفة جمال عبد الناصر ومدى اتجاهاته القوميـــة . ولم أستطع ذات يوم أن أكبح جماح ما أحس به من لهفة ، فأخذت أول طائرة حملتنى الى القاهرة . واجتمعت هناك بعبد الناصر ، وتحدثت معه حديثا صريحا وقد خرجت من لدنه ، وأنا واثق كل الثقة ، مطمئن كل الاطمئنان» ووضع صائب سلام منذ ذلك اليوم ثقته الخالصة فى الزعيم العــربى الجديد .

وصف لنا ديزموند ستيوارت فى كتابه « مصر الفتـــاة » زيارة أخرى من هذه الزيارات الكثيرة التى كانت تهدف الى اختبار الزعيم العربى الشاب الجديد . وكان الزائرون هذه المرة ، جماعة من عمداء

الكليات المصرية وأساتذتها ، وروى اخصائى فى مرض السرطان ، كان بين هذه الجماعة لستيوارت انطباعاته عن الزيارة فقال :

« لقد اصبت بالدهشة فى بادىء الامر . فبيت عبد الناصر أكثر بساطة من بيتى أنا . ولم يكن فى البيت عدد كاف من المقاعد واضطر القائمون على امر البيت الى استعارة بعض المقاعد . ورفض عبد الناصر أن يجلس ، قبل أن يقتعد آخر ضيف من الضيوف مجلسه . وأخيرا ، سمح عبد الناصر ، لكل واحد من افراد الجماعة ، وهم كثر بالكلام ، ولم يحاول قط ان يقطع على اى متكلم حديثه . وعندما انتهى جميع العمداء والاساتذة من الكلام ، رد عبد الناصر وارتاد بردوده آفاقا واسعة من المعرفة بان فيها احساس دقيق بالحقائق المتعلقة بالقانون والتاريخ والاحداث العالمية » .

هذه نماذج من انطباعات الذين مضوا للقاء عبد الناصر فى عام ١٩٥٤ والتعرف اليه . ولكنه كان لا يزال حتى ذلك التاريخ غير واضح تماما للملايين من جماهير الشعب العربى . ولكن قدر لعامى ١٩٥٥ و ١٩٥٦ ، أن يظهرا هذا القائد على حقيقته الحاسمة الواضحة لملايين العرب الذين آمنوا بقيادته .

***

وكان قد انقضى نحو من قرن كامل على وقوف شاعر عربى شاب يدعى ابراهيم اليازجى ، وسط حشد سرى لاعضاء الجمعية العلمية السورية الجديدة ليلقى قصيدة له ، أراد أن يجعل منها أنشودة الأمة العربية جعل مطلعها ...

أفيقوا وهبوا ايها العرب ...

وذكر فيها ان تيار القضية العربية قد انطلق فى اقصى مداه ، وان اتباعها سيواصلون السير قدما الى الامام .

وقد بات فى الامكان الآن بالنسبة الى الكثيرين من البريطانيين الذين رأوا الشرق الاوسط بأعينهم فى عام ١٩٥٥ ، أن يدوروا ويلفوا فى هذا الجيشان السريع والدوامة الكبيرة ، لينأوا بأنفسهم عن هذا التيار الجديد ، بهمهمة خافتة منفعلة ... قائلين .. « لقد شبعنا من هذا السخف من قبل » ، ولكن ثبت ان مما يجفو الحكمة ويخالفها بالنسبة الى مصالح بريطانيا والغرب عامة ، أن ينظر الى هذه الآلام التى تتولد عن مخاض الشعوب الجديدة بعين الزراية أو الخوف أو المقاومة الحرون.

للتطور ، ثبت أن من الحمق كل الحمق ، الاكتفاء بترداد القول المأثور ... « ان سياستنا واضحة لا تحتاج الى شرح » اذ لما كانت السياسة شأنا لا يمكن تقريره من جانب واحد ، ولا يمكن آن يكون ذاتي التولد او ذاتي المحتوى ، فان هذه السياسة لا يمكن أن تتبدل بمحض ارادة واضعها وتقريره • انهـا نسيج يربط بين الشعوب وبين أهدافهـا ومطامعها وامزجتها وقادتها وقواها التعبيرية . واذا كان من حق هذا المزيج من العوامل ، أن يولد التغير الداخلى الذاتى الذى يريده ، فان مما لا يليق بمهندسى هذه السياسة القابعين فى مكاتبهم المعزولة النائية او غرف خرائطهم ان يكتفوا بالتأكيد على وضوح سياستهم • اذ سرعان مايتضح ، سواء عن طريق الفجاءة أو التدرج ، وعن طريق السلم أو العنف • ان هذه السياسة لم تعد قائمة ، وأن «هدفها» الذى يؤلف جزءا لايتجزأ منها ، قد انحرف عن طريقه .

وكان هذا التحول جاريا فى الوطن العربى مدة سنوات أطول مما يطيب لنا تعداده • ولقد سبق لباحث حكيم ان قال قبل عشر سنوات كاملة من بدء هذا التيار الجديد فى مسيره محذرا ..

« مازال العرب يقفون موقف التبعية على العموم من الغرب .. وليس فى وسعهم الا ان يستجيبوا لما يفعله الغرب معهم اما عن طريق المحاكاة أو طريق الارتكاس . ولا ريب فى ان الوضع هو الذى يقرر الى حد كبير موقفهم منه .. فكل شيء مائع فىالوطن العربى فى هذاالجيل .. ومازالت الفرصة متاحة لبريطانيا لعدة سنوات قادمة ، لاثبات عزمها وقدرتها على مساعدة العرب فى واجباتهم البناءة ، واذا ما أضـاعت بريطانيا فرصتها الآن فلن تتاح لها فرصة أخرى فيما بعد » (١) .

وقد انقضت عشر سـنوات قاسية ، وكانت سنة ١٩٥٤ هى « القسم المائى » ، أو « النقطة الفاصلة » ، التى لا مجال بعدها لحساب جديد .

---

(١) البرت حورانى في كتابه « بريطانيا الدائمى والعالم العربى » لندن ١٩٤٥.

٦

نهاية أو بداية

« اننا نقف الآن على عتبة مرحلة حاسمة من مراحل كفاح شعبنا ، لقد وضع الهدف الاكبر من اهداف الثورة منذ هذه اللحظة موضع التنفيذ الفعلى فقد وقعنا الآن بالاحرف الاولى اتفاقا ينهى الاحتلال ، وينظم عملية جلاء القوات البريطانية عن ارض مصر الخالدة ، وبذلك تخلص أرض الوطن لابنائه شريفة عزيزة منيعة بعد أن قاست اثنين وسبعين عاما مريرة حزينة » .

جمال عبد الناصر
في ٢٧ يوليو ١٩٥٤
من اذاعة القاهرة

***

ليس من الثابت ماذا كان هذا الاتفاق الانجليزى ـ المصرى قد ينتهى الى فوضي وانهيار كاملين في الشرق الاوسط أو انه سيكون بداية علاقة جديدة مع مصر . وهذا لايتوقف على مصر بل على موقف الحكومة البريطانية .

خطاب ريشارد كروسمان في مجلس العموم في ٢٩ يوليو ١٩٥٤ .

***

لا تؤدى المخلوقات البشرية ، سـواء أكانت من المواطنين أم من وزرائهم ، أعمالها ، طبقا لنقاط التحول فى التاريخ . وتميل هذه النقاط الى الانسياب كما يميلون هم الى الانسياب معها ، « وما الضوء الذى تبعثه التجربة الا كمصباح فى مؤخرة السفينة ، ينشر ضوءه على الامواج التى تخلفها » . (١) ولكن فى تاريخ كل دولة عظيمة وثابتة الدعائم نقاط لقاء بين السلطان والسياسيات ، تكون ثابتة بشكل بارز بحيث لا

---

(١) صمويل كولردج في كتابه «ذكريات» عام ١٨٣١ .

يمكن للتبدلات الاساسية التى تتعلق بها ، أن تمر دون أن تترك آثارا فيها عميقة الجذور . ولقد كان اتفاق الجلاء المصرى ــ الانجليزى ، لعام ١٩٥٤ ، على صعيد التاريخ وطبقا لكل ما يدرسه المرء عن هذا الاتفاق فى معاهد بريطانيا وجامعاتها ، تبدلا جوهريا وكانت السويس هى نقطة اللقاء فى هذا التبدل . وعندما وقع هذا الاتفاق فى القاهرة فى السابع والعشرين من يوليو (تموز) عـــام ١٩٥٤ ، بالاحرف الاولى ، بدا من الناحية الحسية ان التاريخ قد « توقف » ، وان توقفه هذا استدعى أعمق قدر من التفكير وامعان النظر ، منذ جلا البريطانيون عن الهند .

فلقد تقرر أن تجلو بريطانيا عن منطقة قناة السويس فى عـــام ١٩٥٦ ، وكان هذا القرار من أكثر الاحداث « اثارة » فى تاريخ شعب كان قد شرع فى تحوله النبيل والمؤلم فى آن واحد ، من كيان الامبراطورية الى كيان جامعة الشعوب البريطانية . وقد تطلب هــذا الجلاء ظهور تيارات تاريخية تثير مواعيد بدايتها الكثير من الجدل الاكاديمى ، وان لم يؤد وصولها الى الاوج الى مثل هذا الجدل :

وفى وسع المرء ان يعود بذاكرته الى أيام بلاسى (١) ، أو الى ما اصاب بريطانيا فى هذه الايام من جراء هبوط نابليون أرض مصر(٢) . أو الى نحو من قرن كامل . عندما منح حاكم مصر امتيازا لدليسبس يســـمح له بموجبه بشق القناة أو الى عام ١٨٨٢ ، عندما نزلت جيوش الاحتلال التى يقودها «ولزلى» من القناة لتقضى على ثورة عرابى المصرية ، وهو الرجل الذى بات اسمه يثير كراهية « صالونات » لندن ونواديها . والذى حاول أن يغلق القناة « ليضمن الدفاع عن مصر » . وقد تكون الصورة احدى هذه الذكريات ، ومع ذلك فان مغازى القرار كانت ثورية تمامـــا . ترى ماهى المواقف التقليدية والسياسات التى بات من الواجب الآن وبعد هذا التطور اعادة النظر فيها ؟ وما المشاكل الجديدة الواضـــحة وضوحا مطلقا ياترى ؟

عندما تخلت بريطانيا عن الهند وبورما فى عامى ١٩٤٧ و ١٩٤٨ بات موضوع طرق المواصلات السوقية « الاستراتيجية » الامبراطورية

---

(١) بلاسي اسم قرية في البنغال ، اشتهر امرها بالانتصار الذى حققه كلايف على سراج الدولة «نواب» البنغال في الهند في عام ١٧٥٧ . وتقع القرية على بعد ثلاثةوثمانين ميلا من كلكوتا .

(٢) عندما سقط نابليـــون في عام ١٨١٥ ، تكهن محمد على لبـ كهاردت قائلا : « لا بد وان تأخذ انكلترا مصر في يوم ما كحصتها من تراث الامبراطورية التركية » .

بما فيه من مفاهيم واجراءات ، اى الطريق الى الهند واستراليا موضع نقاش مكشوف وقد اختفى الكثير من الاهداف الاصلية لهذه الطريق ، ولم يعد فى الامكان الحفاظ من جانب واحد على المواقع البريطانية السوقية على طول هذه الطريق الا بأعمال تعويقية تستطيل من سنة الى اخرى . وكانت الهند وبورما وسيلان قد مضت فى موجة من الثورات الوطنية التى ستتحدى كل ما تبقى من تلك الطريق . ولما كان ضياع الهند قد أضعف الخط السوقى فى الشرق الاوسط ، فان هذا الضياع قد تطلب اعادة النظر جذريا فى موضوع القومية العربية . وقد أطلقت السنوات التى انقضت بعد الحرب العالمية الاولى تحذيرا قويا ، فاذا كان ثمة معارضة من جانب الشرق الاوسط للقواعد البريطانية ، فان الاحتفاظ بهذه القواعد ، يجب أن يعاد النظر فيه باستمرار على ضوء « الموجود » الذى لا يزيد من أمن الصداقات المحلية والتجارة والود السياسى ، وكلها امور قد تضيع حتى فى حالة الانسحاب .

ويصدق هذا التحليل على كل ما وقع فى مصر منذ عام ١٩١٨ . ولكن القرار بالجلاء عن مصر ، قد ضاعف من صدق هذا التحليل بالنسبة الى موضوع من موضوعات السلطان البريطانى الذى يفرض من جانب واحد ليس الا . فهل يعتبر العراق مأمونا يا ترى ؟ وهل الاردن مأمون أيضا ؟ وما العلائم السياسية على هذا الامن ؟ وهل يتمتع « أصدقاء » الاتصالات البريطانية السوقية بأية شعبية ؟ وهل هم من التقدمية بحيث يستطيعون أن يحتفظوا بثقة اهلهم العرب ؟ لقد جاءت ثورة مصر عام ١٩٥٢ ، فأطاحت بجيل كامل من الحكم والحكام . فهل من الثابت أن هذه الثورة نتيجة اتجاه مصرى خالص ؟ وما الذى يقبع وراء الغطاء الرسمى الظاهرى فى العراق والاردن ؟ .

وكان هناك موضوع اخر أكثر شمولا واتساعا . فلقد قذفت ثورة مصر فى عام ١٩٥٢ وما أعقبه من ضرورة الجلاء البريطانى عن مصر : بحكومة جديدة على الخريطة السياسية الدولية للعالم ، ستكيف سياستها الخارجية حتما على ضوء مصالح مصر وحدها. وقد يبدو هذا القول الآن مجرد فجاجة وسخف ولكنه لم يكن كذلك فى عام ١٩٥٢ . فلقد سار الساسة البريطانيون منذ مطلع القرن التاسع عشر على أساس سياسة ثابتة وهى عدم السماح لروسيا « بالمرور من المضايق » . وكانوا يرون دائما وجوب الحيلولة دون وصول روسيا الى الشرق الاوسط بقواها العسكرية أو سلطانها الدبلوماسى أو سيطرتها التجارية . وقد تحققت هذه السياسة حتى عام ١٩١٨ ، عن طريق دعم الموانى العثمانية

والسيطرة عليها لتجعل منها حاجزا فى طريق روسيا ، وكذلك عن طريق السيطرة على الاجزاء العربية فى الامبراطورية العثمانية بالاشتراك مع فرنسا وايطاليا ، وباحتلال مصر عسكريا فى عام ١٨٨٢ . واحتفظت بريطانيـــا بهذه السياسة بعد انهيار الامبراطورية العثمانية بالاشراف المستمر علىسياسة مصر الخارجية اشرافا كاملا حتى عام ١٩٣٦ ، وابان الحرب العالمية الثانية واشرافا خفيا بعد هذا التاريخ ، وكذلك بالاشتراك مع فرنسا فى الوصاية المسيطرة على ما تبقى من أرجاء الشرق الاوسط . وفى وسع الاتحاد السوفياتى ان يقيم علاقات دبلوماســـية له مع مصر ولكن لا يمكن لبريطانيا ان تتسامح فى قيام حكومة مصرية تسيطر على علاقاتها الاجنبية ، وتوجهها لصيانة مصالحها .

واثمرت ثورة مصر فى عام ١٩٥٢ ، نظاما وطنيا قويا يثق بقدرته المطلقة على تبديل كل هذه الاوضاع . فاولا وقبل كل شيء يجب أن تقوم القواعد الاساسية لسياســـة مصر الخارجية على الحياد مهما كانت الاتجاهات الثانوية الفرعية أحيانا . وكل عهد يحاول بعد عام ١٩٥٢ الخروج على هذه السياسة يعرض نفسه للثورة عليه . ولم يكن كل هذا مجرد احتمال ، بل كان حقيقة واقعة . وبات فى وسع المصريين بعد ان تحرروا من الاحتلال والسيطرة الاجنبيتين ، ان يشرعوا فى التعبير عن التجارب التى مروا بها طيلة مائة وخمسين عاما من تمسكهم بسياسات الدول الكبرى ، وهى تجارب لا يمكن لهم أن يصفوها الا بأنها مفجعة . وكانت هذه العلائم السياسة المكشوفة لهذا الحياد المصرى المتأصل ، تعود فى جذورها الى ما قبل الحـــرب العالمية الاولى . وهى جذور استطالت حتى عام ١٩٥٠ ، وتبنتها النخبة المختارة القديمة التى لم تكن تستمد روحها من مصر الوطنية الاصيلة (١) .

وكان من المتوقع أن يبدأ المصريون ، وقد تحرروا ، من النظر بتوكيد وحزم الى جميع الدول وكانها من الدول العظمى . واذا كان الهنـود يقبلون على قراءة خطبة جورج واشنطن الوداعية بمزيد من الاهتمام ، كان من حق المصريين أن يتقبلوه بالمزيد من الود الصادق ، اذ أنهم قد خبروا خبرة عميقة تفوق خبرة الهنود ما تعنيه « الدول الكبرى » وبصورة اكثر جماعية . . .

---

(١) لم تكن هناك اية حكومة قبل الثورة راغبة فى الانضمام الى منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط .

« فلماذا يتحتم علينا ونحن نرسم مصيرنا ونربطه بمصير أى جزء من أوربا أن نربط أمننا ورخاءنا بما ينتاب الأوربيين من مطامح وتنافس وما يسيطر عليهم من مصالح »(١) ٠

ولكن هناك أكثر من وجه الشبه هذا بالنسبة الى مصر الجديدة التى تم الجلاء عنها . ولا ريب فى آن رسالة واشنطن تنطبق عليها حرفيا حتى ولو أخذت ظواهر اللغة لا مضامينها الخفية اذ تقول ...

« وليس ثمة من شك فى أن التحيز المفرط لدولة اجنبية واحدة ، والكراهية المفرطة لدولة أخرى ، تدفع أولئك الذين ينفذون العمل السياسى الى رؤية الخطر نابعا من جانب واحد ليس الا ٠ فالوطنيون الذين يقاومون دسائس هذه الدولة المفضلة ، قد يتعرضون الى آن يصبحوا موضع الشك والمقت بينما يتمكن عملاء تلك الدولة من الاغرار من اغتصاب ثقة الشعب وتصفيقه ، فى سعيهم للاذعان لمصالحهم » ٠

ولا تكتفى مصر برفض الانضواء فى ظل اشتعال الحرب الباردة عن طريق التحالف ، بل ان مصر الجديدة ، تحاول أن تساوى بين الدول الغربية وبين الاتحاد السوفياتى فى علاقاتها الخارجية ، على اعتبار انها جميعا من « الدول الاجنبية » . ولم يعد للاتحاد السوفياتى منذ اليوم شأن أقل من شأن بريطانيا وفرنسا وأمريكا كقوى دبلوماسية فى الشرق الاوسط كما فى جنوب آسيا(٢) . وفى امكان الحركة القومية العربية أن تقاوم السلطان السوفياتى الفعلى ٠ ولكن ليس فى الامكان الآن اغلاق المنطقة فى وجه دبلوماسية الكتلة السوفياتية وتجارتها ودعايتها ٠

وهكذا طرأ على المشكلة كلها تحول كبير . ولم تعد القضية مجرد هل يمكن « الابقاء » على مصر ، الى جانب الغرب وحده . بل باتت القضية الجديدة تتلخص فى كيفية رسم كل سياسة عربية على انفراد، للحيلولة دون اتاحة فرص خاصة للاتحاد السوفياتى . ويتميز صراع الحرب الباردة بوجود صعيدين ، احدهما سوقى (استراتيجى) والآخر

---

(١) مقتطفات من الخطاب . كوما نغر « وثائق من التاريخ الامريكى » نيويورك ١٩٤٥ .

(٢) كانت الدبلوماسية السوفياتية كحقيقة واقعة ، قد دخلت الى المنطقة في مشكلة فلسطين عامى ١٩٤٧ و ١٩٤٨ ، وبرز هذا الدخول أيضا في الحادث الذى ظهرت فيه الدولة الغاصبة ، عندما سارع الاتحاد السوفياتى الى احتذاء حذو أمريكا في الاعتراف باسرائيل في ١٥ ايار عام ١٩٤٨ ، مكرسا دخوله الدبلوماسي الى المنطقة .

ثورى داخلى ، وأصبح من الواجب اجراء حساب دقيق فى موضوع تصور حصول الغرب على أية قاعدة سوقية فى أى بلد افريقى ـ آسيوى يتأجج بالمشاعر الوطنية . واذا كان الحصول على مثل هذه القاعدة يعنى الاطاحة بحكومة اختارت سياسة الحياد ، فهل يكون فى قدرة حليفتها وقد حددت الغاية من وجودها ، آن تقيم الدليل على أنها اقدر على خلق رأى عام فى الداخل ، وايجاد منظمات تكفل مقاومة الشيوعية الداخلية فى أرضها ؟ (١) واذا كان الحصول على مثل هذه القاعدة يعنى تأييد أى حكم قائم وراغب فى التعاون ، فهل يستطيع ذلك الحكم الاحتفاظ بثقة شعبه ؟ وهل يمكن لسياساته الداخلية والاجتماعية والاقتصادية أن تجد بديلا قويا عن الشيوعية المحلية ؟ واذا لم يكن فى استطاعته تحقيق ذلك فهل تكون اقامة القاعدة او حتى مجرد محاولة اقامتها جديرة بمثل هذه المغامرة ؟ وهل تعادل ما يتحقق من نصر للدعاية السوفياتية بسببها .

واثار الجلاء المتفق عليه عن منطقة قناة السويس اخيرا قضايا أكثر اتصالا بالمنطقة . وان كان يحمل خصائص وصبغات دولية . وكانت مشكلة فلسطين احدى هذه القضايا ، فقد نص البيان الثلاثى لعام ١٩٥٠ على تعهد بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا بالحفاظ على الاوضاع العربية ـ الاسرائيلية الراهنة ، سواء بالنسبة الى الخطوط التى رسمتها اتفاقات هدنة عام ١٩٤٩ ، أو بالنسبة الى التوازن فى التسلح بين الفريقين . وعنى انسحاب القوة البريطانية فى منطقة القناة ازالة عازل قوى يقف حاجزا ضد نشوب اى حرب كبرى أو التهديد بنشوبها بين اسرائيل وبين أكبر دولة عربية . ولا ريب فى أن انسحاب هذه القوة من مصر التى تحكمها حكومة من الضباط الشبان المتميزين بالحيوية والدينامية والذين حاربوا فى فلسطين نفسها . سيثير مخاوف بالغة فى اسرائيل . ترى الى أين يمكن أن تؤدى مخاوف اسرائيل هذه ؟ .

ويثير الجلاء مشكلة اخرى تتعلق بالقناة نفسها أى بمستقبل الشركة التى يملكها الغرب والتى تتولى ادارة الممر المائى العظيم والافادة من مزاياه وارباحه . وكان من المفروغ منه ان امتياز القناة سيظل سارى المفعول حتى عام ١٩٦٨ . ولكن القناة ظلت تمثل أكثر من سبعين عاما ، قضية اساسية بالنسبة الى الحركة الوطنية المصرية ، ولا ريب فى أن

---

(١) يكاد المؤلف هنا يعترف بوضوح ، بما تبذله الدول الغربية من جهود ، وما تحركه من مؤامرات احيانا للاطاحة بأى حكم لا ترى منه انه موال لها فى أى جزء من أجزاء الوطن العربى . (المعرب)

قضايا الاستغلال غير المتكافىء للقناة ، وما يملكه الانكليز والفرنسيون فى شركتها ، وارتباطهما النفسى المتأصل بذكريات الماضى الخانع المذعن كلها ستظل قائمة بعد ان يجلو آخر جندى بريطانى عن المنطقة . ولاريب أيضا فى أن كل من كان على آتصال بمصر فى عام ١٩٥٤ قد توقع كل ما يعنيه هذا الجلاء . وكانت الاشارة من جانب الغرب الى « قداسة الامتياز الممنوح للشركة ، تعنى فى عيون المصريين . مجرد ضغط تتعرض له بلادهم من الدول الغربية » . واذا لم تقم حقبة جديدة حقا بين الغرب ومصر ، فان الامتياز سيكون أحد مخلفات الحقبة الماضية الباقية التى لابد لها من أن تختفى تحت الضغط .



كانت هذه هى أوليات التبدلات الخطيرة والمشكلات التى تبرز آليا وبصورة طبيعية نتيجة اتفاق الجلاء عن مصر . وقد لا تكون هذه الاوليات وتلك المشكلات واضحة أمام البريطانى العادى ، ولذا فان رد فعله المتوقع لن يزيد على ... ترى ما الذى نحن مقدمون عليه ؟ هل نحن على وشك الاستسلام للمصريين ؟ ولكن ألم يكن فى وسع كل من يعرف التاريخ الاستعمارى البريطانى ، أو على كل من يعرف أو على اتصال بمن يعرف تاريخ الشرق الاوسط ، ان يتجاهل هذه القضايا الاساسية فى عام ١٩٥٤ . ومن الصعب على المرء أن يفكر بوجود أى مكان آخر فى عالم مابعد الحرب العالمية الثانية ، وصلت فيه سياساتنا التقليدية بمثل هذا الوضوح ، الى هذه النقطة الفاصلة فى التحول بالنسبة الى اية حكومة بريطانية . وكان الشعب البريطانى فى ذلك الحين ، فى حاجة الى قيادة واضحة ، جريئة مطلعة قادرة على الايضاح . واذا كان لابد من اتخاذ قرار بالجلاء ، فقد كان من اللازم اللازب ، آن يوضع ذلك القرار ويوضح فى عبارات تجعل فى الامكان تفهم الشعب البريطانى ما يقتضيه هذا القرار من تعديلات وتغييرات فى القضايا الاخرى المتعلقة بالشرق الاوسط .

ولكن المناقشات التى دارت فى مجلس العموم حول الاتفاق الموقع بالأحرف الاولى ، كانت اشبه ماتكون بالمأساة . وكان لابد لانسان مثل ونستون تشرشل ، رجل الامبراطورية العظيم ، آن يكون قادرا ، على اخفاء تلك الصورة الجريئة من القيادة التى خبرها الشعب فى الحرب العالمية الثانية ، على الشعب البريطانى الذى كان فى أمس الحاجة الى من يوضح له ذلك القرار . ولكن كل ما فعله دفاعا عن الحكومة ، هو ايضاح الجلاء بعبارات سلبية ، جوفاء ، طنانة ، اذ اكتفى بالقول بأن

الجلاء عن منطقة القناة لم يعد امرا هاما اذ ان ماتقدمه القـــاعدة من تسهيلات سوقية (استراتيجية) لم يعد أمرا حيويا بالنسبة الى العصر النووى الجديد . وهذا كل ماصدر عن رئيس الوزراء المحافظ . ولكن رسالة زعامة المعارضة العمالية ، لم تكن اقل افتقارا الى الالهام أيضا . ولم يكن فى وسع المستر آتلى ان يقاوم ماأتاحته له هذه الفرصة من تذكير تشرشل ومحافظيه بسنوات الهجوم الطويلة التى تعرض لها العمال بسبب تقطيعهم اوصال الامبراطورية ، وراح بعد ذلك يفند الاتفاق ويصفه بأنه صيغ ، فى اسوأ عبارات رأيتها فى حياتى .. وراح الجناح اليمينى فى حزب المحافظين استكمالا للمأساة ، وهو الجناح الذى أشتهر أمره فيما بعد باسم « متمردى قناة السويس » ، يصف الاتفاق بانه مجرد استسلام . وتركزت التعليقات الاخرى ولا سيما من العمـــال ، على ما يسببه هذا الاتفاق من خطر على اسرائيل .

ولا ريب فى ان هذا الفراغ القيادى ، وهذا الافتقار الى الايضاح الواقعى للشعب البريطانى بحقيقة ما وقع فى عـام ١٩٥٤ ، هو الذى أدى فى حكم الواقع الى وضع قواعد ذلك التخبط المتشنج المنفعل الذى شهدناه فى عام ١٩٥٦ .

لكن المستر ايدن ، بصفة كونه وزيرا للخارجية طلب الى مجلس العموم ، أن يوضح لمصر ان بريطانيا ستدخل « العهد الجديد ، يحدوها تصميم واقعى على محاولة انجاح الاتفاق » . وراح بعد ذلك يتحدث عن الفرصة الجديدة المتاحة « لاقامة أوضاع الصداقة مع جميع البـــلاد العربية وتوطيد دعائمها » . وعندما تم ابرام الاتفاق بصورة نهائية فى أكتوبر عام ١٩٥٤ ، بعث ايدن برسالة الى جمال عبد الناصر ، أشار فيها الى الاتفاق واصفا اياه بأنه « خطوة هامة الى الامام لايجاد تفاهم وصداقة على أسس جديدة بين البلدين » .

ترى ما الذى عناه ايدن بقوله هذا ؟ وماذا كان ايدن ووزارة خارجيته ، يعرفان عن العهد المصرى الجديد الذى سيتعاملان معه ؟ وما المعلومات الجانبية والتقديرات السياسية للاوضاع التى كان فى وسع أى — سياسى — غربى أن يحصل عليها من سفارته فى القاهرة فى عام ١٩٥٤ بالنسبة الى هذا « المقدم » : الطويل القامة ، الحاد المزاج ، والذى بات واضحا كل الوضوح الآن انه عصب السلطان فى مصر الجديدة فى عهدها الجديد ؟ أرى لزاما على قبل الغوص فى تسلسل الاحداث طبقا لسياقها التاريخى ، ان ارسم مثل هذه الصورة لعبد الناصر ، وذلك

لان اسم هذا القائد سيتكرر فيما تبقى من قصتنا وقد انصبت عليه اتهامات الغربيين الرسميين مصورة اياه على غير صورته الحقيقية .

ولد عبد الناصر عام ١٩١٨ من أب كان يعمل وكيلا لمكتب بريد وكان أولاد عمه من الفلاحين الأميين ، ولكن توافر للاسرة بعض المال الذي مكنها من ارسال الفتى الطويل القامة ونحياها الى احدى المدارس الثانوية فى القاهرة . وكانت التجربة التعليمية التى مر بها هناك نموذجا للتجارب التى مر بها كل فرد من ابناء جيله ، فقد تعلم شيئا عن تراثه العربى ــ المصرى من ناحية . وعما جاء به الغرب من أفكار عن القومية والعدالة الاجتماعية والتقدم الاقتصادى من الناحية الأخرى . وأظهر الشاب منذ أيامه المبكرة ، مواهب وميولا قيادية ، اذ تولى قيادة اضرابات الطلبة ومظاهراتهم احتجاجا على الاحتلال البريطانى وعلى التغلغل الصهيونى فى فلسطين . وكانت الحياة فى نظره ونظر الشبان الذين هم فى مثل سنه ومركزه الاجتماعى ، فى طول الشرق الأوسط وعرضه ، تفاعلا دائما من الألم والواقع المر القاسى . ولقد روى فيما بعد قائلا ... « وكان الواحد منا يعود من مدرسته ، وقد أحس بعالم جديد كامل يقف امامه ؛ ولكنه لا يلبث أن يجد نفسه فى بيت ، ليس فيه مايكفى من الطعام » .

ومكنته مراحله التعليمية من الانتقال الى المجتمع المصرى فى المدينة ، وهو المجتمع الذى كان يتطلع اليه بعين فلاح ينتمى الى جماهير الفلاحين الذين يمثلون مصر فى جوهرها ، مع الصورة الجديدة الاخرى لبلاده ، التى طبعتها فى نفسه علومه التى درسها فى مدرسته . وقد أصدر فى عام ١٩٥٤ ، وقبيل توقيع اتفاق الجلاء ، كتابا ضمنه ذكرياته وأفكاره التى صور فى أسلوبها الذى يعتريه بعض الغموض الدليل على ما يحمله من أفكار سياسية (١) .

ونرى فى هذا الكتاب تحللا كاملا من مفاهيم القيادة المصرية فى الماضى وهى التى كانت تعيش فى عزلة كاملة فى ثقافتها وطبقيتها وثرائها ووجهة نظرها الى الحياة عن جماهير الشعب المصرى الحاشدة ، اذ يقول :

---

(١) أرى أن المؤلف قد أخطأ خطأ كبيرا فى وصفه أسلوب السيد الرئيس فى كتابه هذا بالغموض ، اذ أن كتابات الرئيس وخطبه تتصف بالوضوح الذى يمكن كل انسان مهما كانت ثقافته من فهم ما يود الرئيس قوله . وما يعنيه . ولعل جهل المؤلف بالعربية هو الذى اوقعه فى هذا الخطأ . (المعرب)

« انا انظر احيانا الى أسرة مصرية عادية من آلاف الاسر التى تعيش فى العاصمة . فالاب مثلا ، فلاح معمم من صميم الريف . والام سيدة منحدرة من اصـــل تركى . وابنـــاء الاسرة فى مدارس على النظـــام الانجليزى . وفتياتها فى مدارس على النظام الفرنسى . كل هذا بين روح القرن الثالث عشر ومظاهر القرن العشرين ..

أنظر الى هـــذا وأحس فى أعماقى بفهم للحيرة التى نقاسيها والتخبط الذى يفترسنا .. ثم أقول لنفسى : سوف يتبلور هذا المجتمع، وسوف يتماسك وسوف يكون وحدة قوية متجانسة . انما ينبغى أن نشد أعصابنا ، ونتحمل فترة الانتقال » .

وكان من الواضح فى عام ١٩٥٤ ، ان جمال عبد الناصر ســـيعمل بالنسبة الى هذه الافكار التى دونها . والى جذوره العائلية التى ينتمى اليها . والى طريقة الحياة الزائدة التى يعيشها ، طبقا لما تمليه عليه امته التى تتالف اغلبيتها الساحقة من الفلاحين الذين يعيشون فى فقر مهين . وكان من المؤكد أيضا انه سيعمل طبقا للرغبة العارمة والعميقة الجذور والمعمرة اكثر من قـــرن كامل ، عنـــد جماهير المصريين فى تبنى الحيـــاد ومعارضة الاحلاف مع اي من الدول الكبرى . واذا ما تفهمنا هـــذه الخصائص الجوهرية لشخصيته ، امكننا أن نحسب بشىء من اليقين والتأكيد ، أن عبد الناصر ، ومن حوله من رجال يحملون نفس طابعه ، سيقاومون باصرار وعناد اى ضغط أجنبى . قد تحاول اية دولة كبرى فرضه عليهم سواء أكان هذا الضغط دبلوماسيا أم ماليا أم عسكريا .

والتحق عبد الناصر بالكلية العسكرية طالبا وهو فى الثامنة عشرة ثم مالبث أن عاد اليها مدرسا وهو في السادسة والعشرين . لينتقل منها بعد قليل الى كلية أركان الحرب طالبا من جديد . وعندما بلغ الثلاثين من عمره ، اشترك فى حرب فلسطين فى عام ١٩٤٨ – ١٩٤٩ . وعلى الرغم من الجراح التى أصيب بها فقد قاد وحداته فى المعركة التى كان جلوب باشا يرقبها من أعالى جبال الخليل (اسمها القديم جبال اليهودية) ، دون أن يعرف حقيقتها ، والتى وصفها « بالمقاومة المصرية العنيدة » التى تبذلها حامية محصورة فى موقع يدعى الفالوجة . وفى وسع المرء ان يحدس بان تجربة فلسطين قد تركت أثرا لا يمحى فى عقل ذلك الرجل الذى بات رئيسا لوزراء مصر فى عام ١٩٥٤ . ولكن أى دبلوماسى عربى . وجد فى القاهرة فى ذلك التاريخ لم يكن فى حاجة الى ان يكلف نفسه عناء مثل هذا الحدس . فلقد تحدث عبد الناصر فى تلك المقالات نفسها التى نشرها،

عن هذه التجربة ، وضمنها عبارة يمكن أن تعتبر نذيرا مرشدا لكل من كان يتساءل عن السياسات الخارجية التى سيتبعها قائد النظام الجديد • وهو فى هذه العبارة أيضا يتحلل من الماضى • فلقد سبق لآخر زعيم وطنى مصرى كبير أن قال لممثلى المشرق العربى فى فرساى عام ١٩١٩ ، « ان مشكلتنا مصرية وليست بالمشكلة العربية » ولكن جمال عبد الناصر نشر ما يلى فى عام ١٩٥٤ وحتى قبيل توقيع الاتفاق الذى قرر خلاص مصر من آخر قيد بريطانى على سياستها الخارجية بالحروف الاولى فقال :

« وكنت أخرج الى الاطلال المحطمة من حولى بفعل نيران العدو ، ثم أسبح بعيدا مع الخيال •

••• وكانت الصورة تبدو فى ذلك الوقت واضحة أمام بصيرتى ••

ان الظروف السياسية المحيطة بالعاصمة التى نتلقى منها الاوامر تحيطها بحصار ، وتلحق بها عجزا أكثر من الذى تصنعه بنا نحن القابعين فى منطقة الفالوجة •

ثم هذه قوات اخواننا فى السلاح وفى الوطن الكبير وفى المصلحة المشتركة ، وفى الدافع الذى جعلنا نهرول الى أرض فلسطين •

هذه هى جيوش اخواننا •• جيشا جيشا •• كلها هى أيضـــا محاصرة ـ بفعل الظروف التى كانت تحيط بهـــا والتى كانت تحيط بحكوماتها ••

وكانت شعوبنا جميعـــا تبدو فى مؤخرة الخطوط ضحية مؤامرة محبوكة أخفت عنها عمدا حقيقة ما يجرى ، وضللتها حتى عن وجودها نفسه ••

••• كنت مؤمنا بأن الذى يحدث لفلسطين كان يمكن أن يحدث •• وما زال احتمال حدوثه قائما ـ لأى بلد فى هذه المنطقة ما دام مستسلما للعوامل والعناصر والقوى التى تحكمه الآن ••

••• وأيدت الحوادث التى جرت بعد ذلك هذا الاعتقاد فى نفسى

••• كان الحادث يقع فى القاهرة فيقع مثيل له فى دمشق غدا ، وفى بيروت ، وفى عمان ، وفى بغداد وغيرها •

وكان ذلك كله طبيعيا مع الصورة التى رسمتها التجارب فى نفسى• منطقة واحدة ونفس الظروف ، ونفس العوامل •• بل ونفس القوى المتألبة عليها جميعا •

وكان واضحا أن الاستعمار هو أبرز هذه القوى ·

ولقد بدأت بعد أن استقرت كل هذه الحقائق فى نفسى أومن بكفاح واحد مشترك » ·

ومن المألوف ، عندما يظهر زعيم جديد فى بلد له أهميته الدولية ، أن تقوم الدول الكبرى المعنية بهذا البلد باجراء دراسات دقيقة عن هذا الزعيم عن طريق مبعوثيها ومخابراتها وصحفييها الخبراء بذلك البلد ، وموثوقيها ، وأن تجمع عنه كل نتفة من نتف الاخبار التى تلقى ضوءا على سياسات حكومته المقبلة · ولو لم تكن هناك أية معلومات أخرى من أى نوع عن الرئيس عبد الناصر ، لكانت هذه الفقرة البارزة التى وردت فى الكتاب الذى نشره وضمنه عقيدته ، كافية فى حد ذاتها لاظهار مايعتزمه من استئناف الدور القيادى الكامل الذى يجب أن تقوم به مصر على المسرح العربى ، ولحرمت أى سياسى غربى من الادعاءات التى يتلوها لازالة أسباب السخط والدهشة التى سادت الجميع بالنسبة الى ما حدث فى عام ١٩٥٥ · واذا كانت هذه النذر التعبيرية لم تؤلف جزءا من الصورة التى حملها أنطوني ايدن عن « العهد الجديد » ، فان مسئولية الخطأ فى ذلك تقع على ايدن وحده وعلى مبعوثيه وخبرائه ·

ومع ذلك فقد كان هناك ماهو أكثر تحديدا ودقة فى سجل الرئيس عبد الناصر قبيل منتصف عـــام ١٩٥٤ · فلقد قام جون فوستردالاس وزير خارجية أمريكا فى ربيع عام ١٩٥٣ بزيارة القـــاهرة ليبحث مع مسئوليها فى الخطط التى وضعها لاقامة « حزام شمالى » سوفيتى على طول حدود الاتحاد السوفياتى الجنوبية ، يعززه فى الشرق الاوســط حلف دفاعى عميق ، هو عين منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط التى قدمت الى دول الشرق الاوسط منذ عام ١٩٥٠ وكان مصيرها الرفض · وقد قابل دالاس الضابط المصرى الشاب البالغ الخامسة والثـــلاثين من عمره ، والذى كان قد قاد فعلا الثورة المصرية منذ شرع فى اعداد خلاياها فى عام ١٩٤٢ (١) واستمع عبد الناصر الى الوزير الامريكى ثم رد عليه بحزم قائلا :

« اننا نعارض الاشتراك فى أية أحلاف مع أية دولة أجنبية ، لأن لدينا أسبابا قوية تدفعنا الى الشـك فيها ، ولان شعوبنا لن تؤيد أية حكومة تشترك فى مثل هذه الاحلاف · وأنت تطلب منـا الآن أن نحمط

---

(١) كتاب بالانكليزية « الثورة على النيل » للسيد انور السادات ــ لندن ١٩٥٧

الاهداف التى نريدها . فالدفاع عن هـذه المنطقة يجب أن ينبثق من داخلها ، أى من شيء يمكن له أن يوحد شعبها . وهذه القوة ، أو الجبهة الداخلية ، هى قوميتنا واصلاحنا الاجتماعى وتقدمنا . واذا قدر لقـوة هذه الجبهة الداخلية التى مازال لزاما علينـــا بناؤها أن تضعف نتيجة الاشتراك فى أحلاف غير مقبولة شعبيا ، فليس ثمة الا قوة سياســـية واحدة تستطيع ان تكسب من هذا الضعف . ان الخطر الاكبر للشيوعية على هذه المنطقة يكمن فى داخلها ولا يأتى من خارجها ، أى فى هجوم يشن من الداخل ليس الا . وما قيمة الخطوط السوقية اذا كان الهجوم سيشن من الداخل لا من الخاج » .

وقد أتيح لعدد من المبعـوثين الدبلوماســيين الغربيين الآخرين الذين قدر لهم أن يجتمعوا الى عبد الناصر فى عام ١٩٥٣ ، أن يحصلوا منه على نفس هذه الوجهات النظرية المعبرة والتى تحمل نفس الطابع التنبؤى بما قد يحدث . وكانت هذه المقابلات قد وقعت قبل أن يتحمل مسئوليات الحكم الكاملة . وقبل أن يعقد اتفاق الجلاء مع بريطانيا . وقبل أن تشرع مصر فى انتهاج سياسة عامة تشمل المنطقة كلها . ولو قام المستر دالاس أو غيره من الساسة الغربيين بالرحيــل الى أى مكان آخر فى الشرق الاوسط العربى فى عام ١٩٥٣ ، واتصلوا بالقوميين من أبناء جيل عبد الناصر ، لتلقوا منهم الرد نفسه الذى كانوا يتلقونه من عبد الناصر ، وفى حدود المفاهيم نفسها . ولم تكن وجهات النظر هذه مجرد كره أعمى للاجانب أو مجرد آراء قومية سلبية . انها تدرك خطر الشيوعية وتؤكد أبعادها الثورية الداخلية . ولكن عبد الناصر لا يحدد تقديراته التى يعرضهـــا لدالاس على ضوء هذه الابعـــاد المحدودة . وقد نقل الى وزير خارجية الولايات المتحدة فى عام ١٩٥٣ أيضا رأيه فى أن تقوية « الجبهة الداخلية » يجب أن تكون مصـــحوبة بطاقات دفاعية خارجية قوية تتشكل عن طريق ميثاق الضمان الجماعى العربى المستقل كل الاستقلال وغير المنحاز ، شريطة أن يقوى هذا الميثاق بتنســـيق عسكرى ، ويدعم بالاسلحـــة الحديثة التى يجب على الغرب ، ان كان حكيما ، أن يزوده بها دون أية اشتراطات سياسية .

وهكذا لم يكن ثمة شك فى موقف العهد الجديد فى عامى ١٩٥٣ و ١٩٥٤ . فلقد أعلن عبد الناصر فى خطبه العامة وأحاديثه الشخصية أن مصر لن تعقد أية محـــالفات دفاعية أجنبية . وكانت الخطب التى يلقيها على الضباط فى جماعات هيئة التحرير ومهرجاناتهـــا تحذر من الشيوعية على أنها عقيدة غريبة مستوردة تميل الى الولاء لراية أجنبية ،

تماما كما كان يقول نهرو ، وكان فى وسع أية سفارة غربية أن تفهم تحذيراته هذه وتدونها . وهكذا كان الموقف واضحا تمام الوضوح ، كأى موقف تتخذه أية حكومة ثورية . وهكذا كان العهد مع « الغرب » أى أنه لم يكن شيوعيا ، وكان قائده يحس بالخطر النابع عن تلك الجهة ولكنه لم يكن « مع الغرب » بالمعنى المقصود من أحلاف الحرب الباردة ، كما لم يكن هناك أى سبب يدعو الى الاعتقاد بأنه سيكون « مع الغرب » فى حدود ذلك المعنى ، وكان ثمة ما يدعو الى الاعتقاد بأن أى ضغط على العهد لم يكن ليؤدى الى مثل هذا الاشتراك فى الاحلاف وأنه سيؤدى على النقيض من ذلك الى استفزاز مقاومة عنيفة غاضبة .

ولكن قضية أحلاف الحرب الباردة ، كانت أوسع نطاقا وأفقا من مصر . ففى الصورة التى رسمها عبد الناصر عن الفالوجة فى المقال الذى نشره فى ابريل عام ١٩٥٤ ، أوضح الزعيم نظريته الاساسية عن موضوع الوحدة العربية ، وبين مفهومه فى وجود وطن واحد ، وامة عربية واحدة « ترتبط بروابط تجعل من وطننا كلا كاملا لا يتجزأ ، يدافع عنه أبناؤه على هذا الاساس لا على أساس وحدات متفرقة ومنعزلة . ولم يكن فى هذه النظرية شىء جديد وانما تنبع من ثقافة مشتركة عاشت حقبا بل قرونا طويلة . ولكن الشىء الجديد الآن الذى ينطوى على أهمية كبرى وكان جديرا بساسة الغرب أن يلاحظوه ، هو أنه قام فى عام ١٩٥٤ رئيس وزراء ثورى محايد فى مصر ، يدعو الى هذه الفكرة ، بعد سنوات طويلة من انشغال مصر داخل حدودها الضيقة، هذا اذا استثنينا اشتغالها بالمنافسات القائمة بين الحكام ضمن اطار الجامعة العربية . وهكذا كان هناك تحذير علنى واضح من النوع الذى يندر أن يحصل الساسة على ما يشبهه فى تقدير المواقف التى يريدونها . وكان حريا بهؤلاء الساسة — الغربيين طبعا — أن يبادروا الى اعادة درس وجهات النظر العربية ، ليقرروا ما اذا كانت مبادرة مصر على هذا الاساس تلقى استجابةفى المناطق الاخرى من الشرق الاوسط . ولم يكن ثمة من شك فى يوليو عام ١٩٥٤ فى حقيقة ما ستكشف عنه هذه الدراسات ، ولو أن ساسة الغرب كانوا من الذكاء بحيث يحملون أنفسهم على التعمق تحت سطحية الوثوق بالحكام « الاصدقاء » .

ولقد وافق عبد الناصر وهو برم كاره فى اتفاق الجلاء الذى وقعه مع بريطانيا على التساهل فى نقطة واحدة ، وهى بند الردة الى الحرب ، الذى يربط مصر الى تركيا فى حالة تعرض هذه لهجوم ،

يقصد به كما هو اضح الهجوم من الاتحاد السوفياتى ، مما يعنى نشوب الحرب العالمية الثالثة ، أو تعرض أى بلد عربى آخر لمثل هذا الهجوم • وكان من الواضح لاى شخص فى القاهرة فى ذلك الحين ، ان رئيس الوزراء المصرى ، كان يعرف تمام المعرفة ، أن تساهله فى قبول هذا الشرط ، سيلقى نفورا شعبيا طاغيا ، لا سيما وأن الرأى العام المصرى والعربى فى كل مكان ، كان يقف ضد الارتباط بأية معاهدة مع بريطانيا حتى ولو كانت غير نافذة المفعول فى أوقات السلم • ولكن هذا التساهل كان أيضا بمثابة اختبار أو ورقة «عباد الشمس» تغطس فى مياه الشرق الاوســـط السياســـية لارشاد السياسة الغربية الى الخطة التى يجب عليها انتهاجها فى المستقبل •

وتم أخيرا ابرام الاتفاق فى التاسع عشر من أكتوبر عـــام ١٩٥٤ وسط موجة عارمة من التوتر فى مصر والنقد المكشوف لعبد الناصر فى سورية مع اتهامه بأنه « أداة فى يد الغرب » (١) وظهرت فى السادس والعشرين من أكتوبر البراهين الجازمة والأدلة القاطعة على ما يجـوز لساسة الغرب أن يطالبوا به وما لا يجوز طبقا لمتطلبات الحكمة السياسية اذ بينما كان عبد النـــاصر يقف على المنصة فى الاسكندرية أمام حشد شعبى هائل ، شارحا نصوص الاتفاق الذى عقـــده ، انطلقت رصاصات من مسدس يحمله أحد القتلة تحاول اغتياله . ولكنه نجا منها بأعجوبة ويبدو أن الاخوان المسلمين أرادوا استغلال مايحس به العربوالمصريون من نفور لهذا الاتفاق ، فحاولوا القيام بانقلاب داخلى (٢) •

وكان هذا الشرط أول وآخر تســـاهل صدر عن عبد الناصر • وكانت العبرة للغرب قوية للغاية • فلم تكن هنـــاك قـــوة ثابتة فى السياسات المصرية تستطيع أن تتسامح مع الغرب أو تفسح له المجال لعقد حلف من أحلاف الحرب الباردة لا مع مصر ولا مع أى بلد آخر فى

---

(١) ليس ثمة من ريب في ان معظم هده الانتقادات صدرت اما عن الاخوان المسلمين الدين كان بعض قادتهم قد فروا الى سورية أو عن جماعات الشيوعيين •

(٢) يكثر المؤلف هنا من القول بأن سيادة الرئيس عبد الناصر ، قد تســاهل في هده الفقرة من الاتفاق مع بريطانيا . ولكننا لا نرى في الموضوع أى تساهل ، وانما كان مجرد ضرورة سياسية حتمتها عليه الاوضاع التى دارت ابانها المفاوضات من ناحيـة ووجوب الحصول على الجلاء العاجل ، ليتمكن العهد الجديد بعد أن تتحرر أرض مصر من وطأة الاحتلال من اختيار السياسة الحيادية التى يراها وتنفيدها دون خوف من وجود قوات الاحتلال الاجنبى على أرض مصر نفسها وقد أكدت الاحـداث فيما بعـد صحة وجهة نظره . (المعرب)

الشرق الاوسط · وكان من حق المستر دالاس ومن حق ايدن أن يدرسا كل مالديهما من ملاحظات عن عبد الناصر ، وعن سياساته وعن الاجواء العامة التى تسود الشرق الاوسط بكامله · وكان الرجل لا يزال فى مستهل شبابه ، وبالرغم من كفاياته الثورية العظيمة ، لم يكن بعد هو ورفاقه قد أتيحت لهم ، على الرغم من اتقاد ذكائهم ونشاطهم ، الخبرة الكافية فى السياسات الدولية الماكرة · وكانت له ولرفاقه آراء قوية وأمزجة عنيفة ومع ذلك فقد أعرب عبد الناصر فى الثامن والعشرين من سبتمبر (أيلول) عن أمله فى بداية جديدة ، مع بريطانيا والغرب ، وعاد فكرر هذا الأمل نفسه فى شهر اكتوبر عندما أصبح الاتفاق سارى المفعول · وكان ايدن أيضا قد أعرب عن نفس هذه الامنيات ·

وتوقفت القضية عند هذا الحد · فلقد هدفت الحكومة البريطانية من عقدها اتفاق الجلاء ، الى ضمان الحصول على قاعدة سوقية (استراتيجية) فى مصر ، عند نشوب حرب عالمية ، من حكومة مصرية تقف موقفا متصلبا من موضوع تأييد الحياد ، ولذا فقد وافقت وهى كارهة على هذا التساهل الذى عرضها لموجة من السخط فى المنطقة العربية كلها · وكان من الواضح أن قادة العهد الجديد يميلون الى الغرب فى الميول السياسية العامة وفى معارضتهم الداخلية والعقائدية للشيوعية(١) وقد وقع عبد الناصر اتفاقا مع الولايات المتحدة الامريكية فى نوفمبر (تشرين الثانى) للمعونة الفنية والاقتصادية ·

وأصبح الوضع متوقفا الآن على ما تريده الحكومتان البريطانية ، والامريكية من الشرق الاوسط ، وما تستطيعان الحصول عليه ضمن الشروط التى لم يعد فى وسعهما املاؤها على مصر · وأصبح من الواضح أن أية حركة جديدة قد تقومان بها فى أى مكان آخر فى الشرق الاوسط ستؤثر تأثيرا عميقا على العلاقات مع العهد الجديد فى مصر الذى ربط نفسه علنا بفكرة « المنطقة الواحدة » وبعقيدة الوحدة العربية الوثقى ضمن اطار من سياسة الحياد الايجابى · ولم يكن فى وسع أى من ساسة

---

(١) يخطىء المؤلف كل الخطأ عندما يقول ان قادة العهد الثورى فى مصر كانوا ميالين الى الغرب . كما يخطىء الغربيون الآخرون الذين اتهموهم ردحا طويلا من الزمن بالميل الى الشيوعية . اما الحقيقة فهى ان سياسة هذا العهد انبثقت فى مطلع الحقبة عن الحياد الايجابى الذى مالبثت ان تحول الى سياسة كاملة وشاملة من عدم الانحياز المطلق ، التى تعنى اتباع السياسات الاستقلالية الكاملة فى كافة الشئون الداخلية والخارجية . (المعرب)

الغرب أن يعتقد اذا كان يستطيع القراءة ، واذا كانت له عينان تبصران واذنان تسمعان وبعث برسله يجسون النبض فى مدن الشرق الاوسط وبلدانه أن يشك فى مدى الاهتمام الذى يعلقه أبنــاء هذا الشرق على النظام الثورى فى مصر • ولم يكن فى وسع أى انسان مدرك من ساسة الغرب أن يعتقد ان عبد الناصر نظرا لتساهله الوحيد فيما مضى بالنسبة الى الحيـــاد فى حالة وقوع حرب عالميـــة ، سيتساهل من جديد ، أو سيتسامح مع أى حلف جديد يفرض فرضا على هذه « المنطقة الواحدة » التى يؤمن بها • يضاف الى هذا ، وهو أمر هام ، أن المبعوثين الغربيين فى القاهرة ، كانوا فى وضع أفضل من أبناء المنطقة فى الفترة الواقعة بين يونيو ونوفمبر من عـام ١٩٥٤ ، ليعرفوا حقيقـــة وجهات نظـر عبد الناصر •

كانت هذه هى القضايا والحقائق الجـــوهرية التى سادت الشرق الاوسط قبل أن يربط ايدن بلاده بريطانيا باتفـــاق الجلاء الذى يعتبر أعظم انحراف عن سياسات بريطانيا فى الماضى منذ أعلنت انسحابها من الهند • وبات «العهد الجديد» الذى تأمل بريطانيا أن تستهله مع مصر ، أكثر دول الشرق الاوسط العربى تقدما ، ومحور الوجود فيه ، وأكثر بلاده ثورية، يعتمد أول مايعتمد ، على مدى استعداد بريطانيا الرسمى لدراسة هذه القضايا كلها ، وما ينطلق عنها من تكهنات • وهكذا بات لزاما على بريطانيا أن تقرر الطريق التى يتحتم عليها أن تسلكهـــــا • ولعل من السخرية بالنسبة الى الغرب أن نؤكد ان موقف مصر الرسمى ، هو الذى ظل واضحا كل الوضوح طيلة الوقت وأن عبد الناصر قد حافظ باخلاص على هذا الموقف طيلة الازمات التى تلت والتى تعتبر « أزمات ثقة » قبل كل شىء ، نتج عنها تراشق فى الاتهـــامات وتبـــادل الشكوك واثارة الاستفزاز والغضب المتبادلين ، مما أدى الى انطلاق تلك الكتلة الثلجية هادرة مزمجرة هبوطا مع المنحدر ، متجهة الى سيناء والسويس •



هبوطا من المنحدر الى السويس

« كان باستطاعة كل من عرف الرأى العام العراقى قبل عام ١٩٥٣ عندما كان عبد الناصر لايزال بعيدا عن الشهرة ، أن يتكهن تكهنا دقيقا بما سيكون عليه رد فعل العراقيين تجاه حلف بغداد . ولم تجهر القاهرة فيما بعد الا بما كان يسر به العراقيون من قبل » .

كراكتاكوس ـ ثورة العراق



لقد كانت حادثة الثامن والعشرين من فبراير عام ١٩٥٥ نقطة تحول . لقد كان هذاالاعتداء هو ناقوس الخطر ومنذ هذا اليوم بدأنا ندقق في تعرف السلام وفي معنى السلام . وبدانا ندقق في معنى توازن القوى في هذه المنطقة » .

جمال عبد الناصر ـ اكتوبر ١٩٥٥



« ان مبدا الحياد مفهوم لا اخلاقى وقصير النظر .. »

جون فوستر دالاس ٩ يونية ١٩٥٦



اذا أردنا أن نفهم طراز السياسات التى شرع فى تطبيقها الآن والتى قدر لها أن تقضى حتما على كل ما للغرب من مصالح فى الشرق الاوسط ، كان لا بد لها من أن تبقى قائمة وأن يحافظ عليها ، فان من الواجب أن نعتبر التسلسل التاريخي للاحداث التى وقعت فى هذه الفترة التى سادها الاضطراب ، أى بين عامى ١٩٥٤ و ١٩٥٦ ، أمرا لا أهمية له . فمن الناحية الاولى ، أعرب عبد الناصر فى مايو (ايار) عام ١٩٥٣ لدالاس عن الآراء التى سبق لنا أن دوناها ، والتى لم يحد عنها قط فيما بعد . وظهرت مقالاته التى تشرح فكرته عن الحياد العربى المتحد فى ابريل (نيسان) عام ١٩٥٤ . وتم التوقيع بالاحرف الاولى على اتفاق الجلاء فى السابع والعشرين من يوليو عام ١٩٥٤ ، ثم أصبح الاتفاق

سارى المفعول فى التاسع عشر من اكتوبر من العام نفسه وتسجيل هذه التواريخ أمر فى منتهى الأهمية اذ أن حكومتى الولايات المتحدة وبريطانيا فى عهد تشرشل وايدن ، كانتا طبقا للأدلة القائمة تباحثان فى هذه الفترة ذاتها نورى السعيد فى العراق فى موضوع حلف الحرب البـــاردة الذى قدر له حتما ان يحطم كل أمل فى قيـــام عهد جديد مع مصر والشرق الاوسط عامة • وقد بدأت هذه المباحثات قبل شهر مايو من عام ١٩٥٤ • وعندما تكشفت لعبد النـــاصر هذه الازدواجية ، عادت اليه شكوكه عن استمرار وجود مؤامرة مناهضة للقومية العربية ، وظلت هذه الشكوك منذ ذلك التاريخ تطغى على كل كلمة قالها ، أو بثتها اذاعة القاهرة •

ولا أرى بى حاجة الى القول بأن هذه الشكوك لم تكن تســـــاوره وحده ، وانما كانت تتسلط على جميع أبناء جيله من القوميين • وقد يكون من المشـــــاكل المزعجة فى سرد تاريخ هذه السنوات أن يضطر الكاتب الغربى الى الاشارة الى كل شىء ونسبته الى عبد النـــاصر ، اذ أن هذه النسبة أصبحت الشكل السائد لكل اشارة فى الغرب عن هذه الفترة التى لا يمكن فصلها عن عبد الناصر ولا فصله عنهـــــا ، لكن هذه الاسطورة الغربية مبنية على مغالطة واضحة ، اذ أنها تقوم على «فردية» عبد الناصر وعلى «أهميته الشخصية» وحدها وكان ليس ثمة رأى عام عربى يقوم وراء عبد الناصر الذى يعبر عنه أصدق تعبيـــر • وقد بدأت هذه القصة فى مستهل عام ١٩٥٥ ، بظهور حلف بغداد ، وبالهجوم الاسرائيلى الخطير على غزة ، وبصفقة الاسلحة التشيكية •

حلف بغداد :

أحس دالاس بخيبة الامل فى القاهرة فى عام ١٩٥٣ ، فى موضوع اقامة حلف « الحزام الشمالى » فتـــابع البحث فى تحقيق فكرته ، فى الوقت الذى كانت فيه المفـــــاوضات المصرية البريطانية لا تزال دائرة للوصول الى اتفاق الجلاء • وقد أولى نورى السعيد هذه الفكرة جل اهتمامه منذ طلوعها لأول مرة • فقام بزيارة الباكستان فى مارس (آذار) ، وعندما وقعت الباكستان مع تركيا معاهدة دفاعية فى ابريل عام ١٩٥٤ ، راح العراق يعلن قبوله المساعدة العسكرية من الولايات المتحدة ولم يحل شهر مايو حتى كانت الباكستان قد وقعت معاهدة مماثلة مع أمريكا • وشرع نورى السعيد بعد ذلك فى اعداد الاستعدادات الداخلية تأهبا لاتخـــاذ خطوة أخرى أكثر خطورة • وجرت فى شهر يونيو انتخابات عامة رتبها نورى السعيد ترتيبا محكما ، مضعفا جبهة المعارضة الداعية الى سياسة

الحياد ، ومؤمنة « لحزب » نورى فوزا كاسحا بالاغلبية • وسرعان ماقام بحــل جميع الاحزاب السياسية وأعلن عن عزمه على تعديل المعــاهدة الانجليزية ــ العراقية المعقودة فى عام ١٩٣٢ وأراد ضمان التأييد لخطواته الجديدة ، فحل البرلمان وأجرى انتخابات جديدة ، حرمت فيها المعارضة تماما هذه المرة من القيام بالحملة الانتخابية. وفاز حزب نورى، ومالبث بعد ثلاثة أيام أى فى منتصف سبتمبر ، أن شرع فى جولة يزور بها عددا من البلاد فى خارج العراق •

وكانت الحكومتان الامريكية والبريطانية على علم بما يعتزم نورى عمله • وكانت بريطانيا قد فرغت من توقيع اتفاق الجلاء مع مصر بالحروف الاولى ، وأوشك مجلس العموم فيها على الفراغ من مناقشة الاتفاق • وقد شرحت فى فصل سابق بعض القضايا الاساسية التى عرضها الاتفــاق بالنسبة الى سياسة بريطانيا المقبلة فى الشرق الاوسط فهل يقدر لحلف جديد من أحلاف الحرب الباردة أن يلقى التأييد الشــعبى فى العراق ؟ ولم تكن اعدادات نورى فى عام ١٩٥٤ لهذا المشروع ، باخفات صوت كل معارضة سياسية هى الدلالة الاولى على ما يتوقع من رد على هذا السؤال • وقد انقضت ست سنوات طويلة ، ولم تجرؤ فيها أية حكومة بريطانية أو عراقية أيضا على تعديل المعاهدة الثنائية بين العراق وبريطانيا • وقد تخلى الفريقان عن المحاولة الأخيرة التى جرت فى مطلع عام ١٩٤٨ ، وسط اضطرابات عنيفة لم يحل بينها وبين التــحول الى ثورة عارمة شعبية الا الاجراءات العنيفة التى قامت بها الحــكومة ، ووقعت فى عــام ١٩٥٢ اضطرابات جديدة ، هوجمت فيها كل من الســـفارة البريطانية ومكتب المعلومات الامريكى فى بغداد • وكان نورى يفسر جميع هذه الاضطرابات للغربيين على أنها « شيوعية » يقوم بها « الرعاع » • ولكن الناس الذين اعتقلهم وأودعهم السجون وأخرس أصــــواتهم لم يكونوا من الشيوعيين مطلقا ، بل كانوا من القوميين المثقفين خير ثقافة من أعضاء حزبى الاستقلال والوطنى الديموقراطى • وكان آخر دليل على وجود المعــــارضة التى يخشاها نورى ، اغلاقه الحزب الوطنى الديموقراطى ومنع صحيفته عن الصدور فى الثالث من سبتمبر عام ١٩٥٤ أى قبل تسعة أيام فقط من الانتخابات الزائفة الجديدة التى حصل فيها نورى السعيد على الاغلبية التى ضمنت له تحقيق حلف بغداد المقبل •

ولقد عرفنا ما كان عليه رأى عبد الناصر فى أحلاف الدول الكبرى فى عام ١٩٥٣ • وعندما ظهر حلف بغداد الى حيز الوجود نتيجة النشاط الذى قام به نورى السعيد فى مطلع عــــام ١٩٥٥ ، وراحت مصر تهاجمه

وتهاجم نورى السعيد معه ، أخذوا يزعمون أن عبد الناصر كان قد وافق نورى على مشروعه • وكانت الفكرة الغربية التى قامت وراء هذا الادعاء قد هاجمت عبد الناصر ، واتهمته بأنه ليس محايدا حقا ، وأن هجومه على نورى السعيد وحلف بغداد كان «بدافع الغيرة من رجل أعظم منه !!»(١) • وما لم توضح الحقائق بصدد هذه الشائعات الواسعة الانتشار فان الكوارث التى نجمت عن السياسة الغربية قد تتكرر اليوم بنفس القوة التى وقعت بها فى الماضى •

ومكنت حقيقتان دقيقتان نورى السعيد ومن يقف وراءه من سلطات الغرب ، من الترويج لهذا التفسير الذى زعموه لما أبدته مصر من رد فعل لميثاق بغداد ، وأولاهما البند المتساهل فى اتفاق الجلاء عن السويس الذى سبق لنا أن شرحنا سياسة عبد الناصر الرئيسية تجاهه أما ثانيتهما فالادعاء بأن مبعوث عبد الناصر المتنقل الصاغ صلاح سالم، قد أعلن موافقته واذا صح ان (المرحوم) صلاح سالم قد وافق عليه فانه يكون بذلك قد تجاوز صلاحياته والتعليمات الصادرة اليه ، اذ عندما شرع نورى السعيد فى شهر سبتمبر فى جولته الهادفة الى عقد الحلف ، تولى عبد الناصر شخصيا تصحيح أى انطباع خاطىء لديه يدعيه • اذ عندما وصل الى القاهرة بعد زيارته لشمعون رئيس لبنان آنذاك ، علم نورى من عبد الناصر شخصيا أن مصر معارضة معارضة لا انحراف فيها ولا تبدل ، لأى تحالف بين أية دولة عضو فى ميثاق الضمان الجماعى العربى وبين أية دولة أجنبية ، وأعرب عبد الناصر للرئيس العراقى عن تفهمه لاسباب تحمسه لاقامة دفاع قوى ضد روسيا ، ولكن هذا الدفاع كما قال عبد الناصر لايمكن أن يتحقق الا عن طريق تقوية ميثاق الضمان الجماعى العربى لا عن طريق استمرار التحالف مع بريطانيا أو توثيق أواصره •

واذا كان ثمة من ظل للشك فى موقف مصر ، وفيما قاله عبد الناصر لنورى فى القاهرة فى سبتمبر آنذاك من عام ١٩٥٤ ، فان البلاغ الرسمى الذى لا يحمل أى معنى والذى صدر بعد انتهاء المحادثات أشار الى اختلاف وجهات النظر بين الرجلين • وراح نورى نفسه يحمل فى اليوم التالى فى المؤتمر الصحفى الذى عقده ، على سياسة الحياد ، ويحث على توثيق أواصر العلاقات بين العرب والغرب ، ولم يرد عبد الناصر علنا على هذه البيانات

---

(١) كتاب للورد بيردوود عن نورى السعيد ـ كاسل ١٩٥٥ • والكتاب تاريخ كله عطف واعجاب من اللورد الانجليزى المحافظ بنورى السعيد وآرائه • (المؤلف)

الصحفية • وكان قد أنهى محادثاته مع نورى ، على أساس الفهم الواضح بأن رئيس الوزراء العراقى لن يوقع أية معاهدة غير عربية دون أن يخطر بذلك مسبقا جميع الحكومات الاعضاء فى ميثاق الضمان الجماعى العربى •

وقد عرف المبعوثون الغربيون فى القـــاهرة جميع هذه الحقائق ، وواصل نورى السعيد رحلته الى لندن • وتم فى التاسع عشر من أكتوبر التوقيع على اتفاق الجلاء بين مصر وانجلترا • وجرت محاولة الاغتيال فى السادس والعشرين من أكتوبر • وعاد نورى الى العراق بعد زيارته اسطنبول وراح يشدد بعد عودته الى بلاده من اجراءاته البوليسية العنيفة مستصدرا قوانين جديدة يكمم بوســـاطتها أفواه الصحف العراقية ؛ ويحظر عن طريقها كافة الاجتماعات التى يعدها خطيرة •

وعاد موسى الشابندر وزير خارجية العراق فأكد لعبد الناصر فى ديسمبر (كانون الاول) عام ١٩٥٤ ابان اجتماع لوزراء خارجية الدول العربية عقد فى القاهرة بأن العراق لن يدخل فى أية ارتباطات أو مواثيق غير عربية دون الحصول على موافقة مسبقة من الدول الاعضاء فى ميثاق الضمان الجماعى وعاد نورى السعيد الى تأكيد هذا الوعد فى مجلس النواب العراقى • وأعلنت تركيا أن لا علاقة للزيارة القادمة لرئيس وزرائها الى بغداد مطلقا بالشئون الدفاعية • ويبدو أن نورى السعيد كان يود الابقاء على كل شىء هادئا قدر الامكان حتى اللحظة الاخيرة •

وفجأة وبدون أى اتصال أو اخطار للدول العربية الاعضاء فى ميثاق الضمان الجماعى ، أعلن نورى السعيد فى الثانى عشر من يناير عام ١٩٥٥ عقد معـــاهدة جديدة بين تركيا والعراق ودعا الدول الغربية الاخرى الى الاشتراك فيها • ورحبت وزارة الخارجية فى لندن بالانبـاء السعيدة • وهكذا ألقى نورى السعيد بقفازه فى الحلبة ، محرقا سفنه. وبدأ عبد الناصر بعد أربعة أيام يشن أول حملة عنيفة عن طـريق الصـحافة والاذاعـة من طراز لم يسبق للوطن العربى أن شهده من قبل ، وضمن فى حملته هذه تأييد سورية والعربية السعودية واليمن والبنديت نهرو الدبلوماسى وقد صيغت حملة عبدالناصر الاعلامية فى نفس العبارات التى سبق له أن أسر بها الى دالاس فى عام ١٩٥٣ والتى أعلنها فى العام نفسه والعام الذى تلاه ، والتى ذكرها لنورى فى سبتمبر عام ١٩٥٤ • ولم يكن هناك من شىء أكثر توقعا من هذه الحملة المصرية على حلف بغداد • ولم يكن ثمة ما هو أكثر من الاستقبال الحماسى الذى تقابل به جمـــاهير العرب والقادة الوطنيون فى العراق وغيره مثل هذه الحملة. وكان العيب الوحيد

هو عجز القوميين العرب فى العراق عن التعبير عن حماستهم وقد اتمـل هذا العجز أيضـــــا الاردنيين وغيرهم من الكثيرين الذين كانوا لا يزالون يرزحون تحت حكم النظام القديم ٠

ومع ذلك كان لا يزال ثمة فرصة أمام بريطانيا للتفكير والتمعن فى هذه الدلائل المتزايدة على اتجاه التيـــار العربى ، قبل أن تتخذ الخطوة الحاسمة التى لاردة عنها ٠ ولكن بريطانيا لم تتوقف ، ولم تعد بالطبع النظر فى موقفها ٠ وأعلنت فى الخامس من ابريل عام ١٩٥٥ انضمامها رسميا الى حلف بغداد ٠ وأعيد فى الوقت نفسه النظر فى المعـــاهدة الانجليزية ــ العراقية واستبدلت باتفاق خاص قضى بتغيير الاسم الذى يطلق على التسهيلات التى يمنحها العراق للسلاح الجوى البريطانى ليس الا ٠ ووقعت مصر والهند فى اليوم التالى معاهدة صداقة ٠ وهكذا فاتت الفرصة العظيمة وأخذ أبناء الجيل العربى الصاعد يقذفون وراء ظهرهم بكل ما يحمل اسما بريطانيا أو صبغة بريطانية ٠ وضاعت وسط هذه الضجة العنيفة ، التى كانت بمثابة كارثة لبريطانيا ، كل المشاعر التى كان يحس بها المحافظون العرب من العطف على بريطانيا ، والذين كانوا يشعرون بأن الواجب كان يحتم على مصر أن تعترف بجميل بريطانيا (١) لانها وافقت على الجلاء عن قاعدة السويس، التى وصفها اللورد هينشنبروك فى وقت لاحق بأنها « جزء أساسى من المملكة المتحدة » ٠ وساد بريطانيا احساس بالالم ، وبالصدمة من جراء هذه الحملة التى لم تكن تتوقعهـــا بعد تلك الايماءة التى أظهرتها بالجلاء عن القنـــاة . وراحت تستغيث بصداقاتها التقليدية فى الصحراء وبمشاعر « الفصل » بين « المصريين » وبين «العرب» لتواجه هذه الحملة العنيفة التى شنتها القاهرة ٠ ولم يكن الا القليلون من البريطانيين والغربيين يدركون مدى الشعـــور العربى « المختزن » ضد حلف بغداد ، وقوة ما يلقاه استئناف مصر دورها فى السياسة العربية من ترحاب ٠ وكانت هذه المشـــاعر مختفية عن عيون الغربيين وراء نورى السعيد وغيره من ممثلى العهـــود القديمة فى الوطن العربى ٠ وحتى القـــلة من المراسلين الصحفيين الغربيين الذين تميزوا بالدقة وبعد النظر ، والذين عرفوا حقيقة ماكان يحدث فى الوطن العربى. كانوا يجدون تحليلاتهم وتقديراتهم للمواقف تدفن فى مكاتب صحفهم أو

---

(١) لا ادرى ما معنى الجميل فى هذا الصدد ، الا اذا كان الاستقلال نعمة ينعم بها المستعمر وكان جلاء قواته فضلا يمن به ، وكان تصحيح الاوضاع الجائرة صدقة واحسانا ٠ (المعرب)

تحور وتبدل بشيء من المكر والدهاء ، وكثيرا ما قيل لهم ، بأن عليهم أن يبدلوا مواقفهم اذا أرادوا البقاء في مراكزهم ٠

وتأثر الوطن العربي في الثامن عشر من ابريل عام ١٩٥٥ تأثيرا أصيلا وعميقا بافتتاح المؤتمر الافريقي ـ الآسيوي التاريخي في باندونج ومضى جمال عبد الناصر الى المؤتمر على رأس وفد مصري كبير ٠ وقد استقبل في الباكستان كزعيم عظيم ، ثم ما لبث أن استقبل استقبالا أكثر حرارة في الهند ٠ واجتمع في بورما وفي صحبته البانديت نهرو بكل من أونو وشواين لاى ٠ وعندما عاد الى القاهرة ، كان قد أضحى شخصية كبرى من شخصيات الحياد في الدنيا الافريقية ـ الاسيوية ٠ وأخذت ثقة العرب بالزعيم عبد الناصر تزداد يوما بعد يوم ، ورآه العرب في شهر يوليو يستقبل سوكارنو رئيس جمهورية أندونيسيا في القاهرة ٠ ولكن الغرب لاحظ أيضا أن ديمتري شبيلوف المراسل الخاص لصحيفة برافدا السوفياتية كان حاضرا استقبال الزعيم الاندونيسي وهو مع كبار الضيوف على منصة الشرف ٠

صفقة الاسلحة التشيكية :

لم تخف اسرائيل رد فعلها عندما تم التوقيع على اتفاق الجلاء بين مصر وانجلترا في عام ١٩٥٤ ٠ وقال رئيس وزرائها ان هذا الاتفاق يعني « التخلي عن اسرائيل لتواجه قدرها ومصيرها » وكان هذا الجانب من تفكير اسرائيل في غاية الوضوح فلقد تعهدت بريطانيا ومعها فرنسا وأمريكا ـ بموجب البيان الثلاثي ، أن تكون ضامنة للوضع الراهن بين العرب واسرائيل ، كما أقرته اتفاقات الهدنة ٠ وقد تقرر الآن أن تسحب القوات العسكرية الرئيسية الوحيدة التي تملكها احدى الدول الثلاث من الشرق الاوسط في غضون عامين ٠ يضاف الى هذا أن سحب القوات سيتم عن المنطقة التي تفصل أرض مصر ذاتها عن المشارف الغربية لاسرائيل في صحراء سيناء ٠ فماذا يفعل قادة اسرائيل ؟ وماذا يتحتم عليهم أن يتخذوا من قرارات أو يضعوا من بيانات بالاضافة الى لغة الاحتجاج العلني ؟

ولم يتضح ارتكاس اسرائيل الفعلي لهذا الاتفاق الذي سيصبح ساري المفعول اعتبارا من عام ١٩٥٦ ، قبل انقضاء عدة أشهر على توقيعه فلقد وقعت عدة حوادث ، وكان بعضها ضخما كل الضخامة ، واحتل العناوين البارزة للصفحات الاولى من صحف العالم ، ولكن هذه الحوادث لم توح بالصورة الحقيقية ٠ ولكن أهناك صورة حقيقية فعلا ؟ سنحاول

فى فصل لاحق الرد على هذا السؤال أما فى الوقت الحاضر فانى أرى أن أكتفى بتدوين الحقائق كما هى ٠

كان موشى شاريت رئيسا لوزراء اسرائيل فى عـــام ١٩٥٤ وهو صهيونى حتما ولكنه يتميز بالواقعية بصورة عامة ٠ وهو يؤمن أن على اسرائيل أن تتجنب الاستفزاز ، وأن تحاول ، بقدر ما تسمح لها أهدافها تهـدئة مخاوف العرب وتلطيف نقمتهم ٠ وكان بن غوريون ، الداعيــه المشاكس لمدرسة الصهيونية العدوانية قد انسحب من الحكم فى ديسمبر (كانون الاول) ١٩٥٣ ، ومضى الى بيته فى احدى المستعمرات الواقعة فى مثلث النقب ٠

وكانت الحدود المصرية ــ الاسرائيلية قد عاشت فترة هدوء نسبى مدة من الزمن ، باستثناء بعض المشكلات التى كانت تنجم عن عبـــور اللاجئين الفلسطينيين من قطاع غزة الى أراضيهم الواقعة وراء الحدود ٠ وقد ظل التوتر السياسى سائدا الحدود مدة طويلة ، ولكن بعض المراقبين الاسرائيليين ، وهم من خارج نطاق حلقة بن غوريون ، اعتقدوا ــ وكان ذلك فى مطلع عام ١٩٥٤ ــ ان الزعيم المصرى على الرغم من مشـــاعره العدائية لاسرائيل ، لا يريد الحرب ، وأن فى وسعهم أن يأملوا فى أن يكون أكثر الشخصيات العربية واقعيـــة ٠ وسرعان ما اتضـــح لهم أن مصر وبريطانيا باتا على وشك التوقيع على اتفاق الجلاء عن منطقة قناة السويس، وأن التوقيع تم بالأحرف الاولى بالفعل فى نهاية يوليو ١٩٥٤ ٠

ووقع الآن حادثان ، يعتبران ثمـــرة من ثمـــار النزاع العربى الاسرائيلى ٠ فلقد أعلنت القاهرة عن اكتشاف شبكة جاسوسية صهيونية كما وضعت الحكومة المصرية يدها على الباخرة الاسرائيلية « بات جاليم » التى كانت تحاول المرور عبر قناة السويس ٠ وجاء اعلان القاهرة عن الحادث الاول ، يقول ان الجواسيس الاسرائيليين ، حاولوا ٠٠ ووضعوا الخطط لمحاولات جديدة لتخريب الابنية الامريكية والبريطانية فى مصر - (وثبتت المحاولات بعد اكتشاف فضيحة لافون المشهورة فى اسرائيل) ولكن وجهة النظر الغربية استبعدت صحة هذه المحاولات ، كما انهـــا اعتبرت مصادرة مصر للباخرة الاسرائيلية ، مثلا آخر من أمثلة الحصار الذى يفرضه العرب على اسرائيل ، والذى لم يكن الغرب يستسيغه بصفة عامة ٠

ولكن بعد انقضاء ست سنوات ، أى فى عام ١٩٦٠ ، اتضحت ، للصحافة الغربية بعض الحقائق المتعلقة بحوادث عام ١٩٥٤ ، وصدرت

هذه الحقائق عن اسرائيل نفسها • ففى الصراع السرى الذى قام بين كبار الاسرائيليين المسئولين حول مادعى « بقضية لافون » ، وهو الذى كان يتولى وزارة الدفاع فى عام ١٩٥٤ ، سمحت الرقابة الاسرائيلية الصحفية فى عام ١٩٦٠ ، للمراسلين الاجانب بمجرد الاشارة الى « كارثة تتعلق بتدابير الامن فى عام ١٩٥٤ » ثم الى « كارثتين أخريين تتعلقان بالامن أيضا» • ولكن تدابير الرقابة لم تحل دون تسرب بعض الحقائق الجوهرية • وكانت احدى هذه الحقائق القول بأن «كارثة الامن» هذه لم تكن الا فشل جماعة من الجواسيس الاسرائيليين فى اعداد المؤامرة الهادفة الى قيام عمليات تخريبية ضد المبانى الامريكية والبريطانية فى مصر والقاء تبعتها على المصريين ، وأدى الفشل الى اعتقال أفراد الجماعة •

ولست أشك فى أنه عندما تتوافر معلومات أخرى عن أحداث ذلك العام أو تكشف بصورة رسمية ، أو يقوم الدليل على صحتها ، فان الرأى العام الغربى سيعرف أيضا أن « قضية لافون » انطوت كذلك على قرار بايفاد الباخرة بات جاليم الى قناة السويس ، وهى الباخرة الاولى التى تملكها اسرائيل والتى كانت محاولتها أول ما جرى لعبور القناة منذ عام ١٩٤٩ • وكانت مصادرتها أمرا متوقعا كل التوقع •

وقد اكتفيت فى هذه المرحلة فى الكتاب بتدوين هذين الحادثين اللذين وقعا فى خريف عام ١٩٥٤ • لارفقهما بالسؤال الواضح •• ترى ما الذى دفع باسرائيل الى اتخاذ مثل هذه القرارات ؟ وما الذى قصدته من هذه الحملة المتجددة ، المتزايدة لايذاء العلاقات بين مصر والدول الغربية ولم يكد يجف المداد الذى استخدم فى التوقيع بالاحرف الاولى على اتفاق الجلاء ؟ •

وبدأت حملة عبد الناصر على حلف بغداد فى يناير عام ١٩٥٥ • وسرعان ما الهبت الشرق الاوسط العربى بكامله • وفجأة ، خرج دافيد بن عوريون من عزلته فى السابع عشر من فبراير عام ١٩٥٥ ، وتسلم زمام وزارة الدفاع الاسرائيلية خلفا للافون • ولم يمض أحد عشر يوما على هذا التطور ، حتى كانت وحدات من الجيش النظامى الاسرائيلى تخترق حدود الهدنة فى قطاع غزة ، طبقا لخطة عسكرية منظمة استخدمت فيها الاسلحة الثقيلة ، وتهاجم القطاع ، فتقتل ثمانية وثلاثين من المصريين وتصيب بجراح واحدا وثلاثين آخرين • وكان هذا الهجوم أشد ما وقع منذ عام ١٩٤٩ على الحدود المصرية — الاسرائيلية • وبررت اسرائيل رسميا هجومها هذا بأنه عمل ثأرى لما وقع مؤخرا من غارات على اسرائيل

من قطاع غزة • لكن هذه المبررات المزعومة ظلت مفتقرة الى تأييد تقارير الأمم المتحدة ، وتقارير المخابرات الامريكية الموثوقة ؛ وتحليلات الصحافة الغربية التى يمكن الركون اليها ، وكلها أكدت عدم وقوع اية زيادة مهمة فى الغارات على اسرائيل (١) •

وتحولت بين عشية وضحاها ، خطوط الهدنة البعيدة نسبيا وسط رمال سيناء ، فى اعين ابناء الدلتا فى مصر ، الى اماكن تقع على الابواب الخلفية لبلادهم • وكانت غارة غزة هزة عنيفة على صعيد تاريخى ضخم • وعكست اشارة عبد الناصر اليها التى اقتبستها فى مستهل هذا الفصل شعورا عربيا عاما ، طاغيا • وراح هو وزملاؤه يضاعفون من شدة البحث الذى كان قد انقضى عليه الآن عامان عن الاسلحة الحديثة • وكانوا منذ عام ١٩٥٣ • يسعون للحصول على مثل هذه الاسلحة من الدول الغربية ولكن الغرب كان يقابل هذه الطلبات دائما بمطالب مقـــابلة ، وبتسويف ، ومساومة على أساس « هذا مقابل ذاك » للحصول على الاهداف السوقية كمنظمة الدفاع عن الشرق الاوسط ، والاعتذارات المبررة بأن التوازن فى التسلح بين العرب واسرائيل لا يسمح بتلبية مطالب المشتريات المصرية •

وعرض شواين لاى على عبد الناصر أثناء المؤتمر الافريقى الاسيوى فى باندونج فى عام ١٩٥٥ أسلحة من الصين • ودارت فى شـــهر مايو محادثات تمهيدية مع الروس ، ولكن هذه المحادثات لم تؤد الى اتخـــاذ أية قرارات • وراح عبد الناصر ينذر السفير الامريكى فى يونيو ، بأنه اذا لم يبع الغرب الى مصر الاسلحة التى تحتاجها ، لتعد جيشها اعدادا عصريا ، ولتضمن الطاقة الدفاعية الكافية لمجابهة اعتداءات اسرائيـل ، فانها ستجد نفسها مضطرة الى اللجوء الى الكتلة الســـوفياتية للحصول على هذا السلاح • وحصلت مصر فى صيف ذلك العام على أربعين دبابة من طراز « سنتوريون » من بريطانيا ، ولكنها شحنت الى مصر دون أن تكون معها طلقة واحدة من الذخيرة • وراحت بريطانيا تشحن أثر احتجاج مصر ، عشر قذائف لكل دبابة ، وهو عدد لا يكفى حتى لمجرد التجارب الاولية لاطلاق النار وتحديد الهدف •

وبينما كان البحث عن السلاح مستمرا على قدم وساق ، تقـــدم

---

(١) تقارير لجنة الهدنة المشتركة التابعة للامم المتحدة ، وشهادات السفير الامريكى هنرى بايرود امام الكونجرس في يناير عام ١٩٥٧ ، وقرارات مجلس الشيوخ في دورته الخامسة والثمانين . (المؤلف)

عبد الناصر باقتراحات محدودة الى مراقبى الأمم المتحدة ، تهدف إلى تخفيف حدة التوتر على خطوط الهدنة ، وقبل بعض الاقتراحات الأخرى التي قدمها رئيس هيئة الرقابة الدولية • ولكن اسرائيل رفضت هذه الاقتراحات كلها (١) وظلت حدة التوتر على الحدود فى التزايد والارتفاع باستمرار ووصل الغليان فى مصر ولاسيما فى أوساط الجيش وبين اللاجئين فى قطاع غزة حدودا خطرة • واتخذ عبد الناصر قرارا خطيرا فى شهر أغسطس (آب) من العام نفسه لمواجهة هذه التحديات الاسرائيلية ، وليظهر لبن غوريون أن أرواح العرب عنده أثمن من أن يعرضهـــا لخطر العدوان الاسرائيلى ، وأمر بتشكيل وحدات شبه عسكرية من الفدائيين ينضم اليها أبناء اللاجئين من قطاع غزة ويدربون على جميع أعمال الفدائيين من تدمير وتخريب للدخول الى اسرائيل فى مجموعات صغيرة • وليس ثمة من شك فى أن هذا القرار كان له كل ما يبرره • ولكننى أرى فيه مفجرا سياسيا يعطى لاسرائيل ذريعة دائمة للصراخ والعويل والشكوى الى العـــالم (٢) وكان الفدائيون بالطبع يقومون ببث الفزع والرعب داخل اسرائيل كما كانت الغزوات الاسرائيلية العسكرية والدموية تبث الرعب عند اللاجئين العرب الذين تهاجمهم وليس ثمة من شك فى أن الأعمال الثأرية التى حـــاول الاسرائيليون تبرير عدوانهم بها ، والتى انطلت تبريراتها على الغرب ، كانت قد بدأت قبل سنوات طويلة من تأليف وحدات الفـــدائيين • واختارت مدفعية اسرائيل يوم السوق الأسبوعية فى غزة الذى تحتشد فيه المدينة بالوافدين اليها ، لتقذف المدينة بقذائفها فى الأول من سبتمبر مؤدية الى قتل أربعين من المدنيين •

وأعلن عبد الناصر فى السابع من سبتمبر عام ١٩٥٥ عن وجود اتفاق سرى بين فرنسا واسرائيل ، لتزويد هـــذه بالاسلحة ، وأكد أن الشحنات الفرنسية الاخيرة الى اسرائيل تضمنت مائة دبابة فرنســـية وعددا من مقاتلات « الميستير » الفرنسية النفـــاثة السريعة • وحاولت

---

(١) تقارير لجنة الهدنة المشتركة في ١١ ابريل عام ١٩٥٥ .

(٢) لا ادرى تماما ما يقصده المؤلف من هذا التناقض الغريب . فهو يحـــاول من ناحية ابراز صفة « الشرعية » في تأليف فرق الفدائيين ولكنه من الناحية الاخرى يحمل ضمنا على تشكيلها واصفا اياه «بالمفجر السياسي» الذى يبرر لاسرائيل اعمالها الثارية. ويبدو أن المؤلف قد نسي ان اسرائيل كانت دائما هى المعتدية ودون اى مبررات، وان الأمم المتحدة ، وفي طليعتها دول الغرب كانت تقف مكتوفة الأيدى أمام عدوانها وانه ثبت ان الوسيلة الوحيدة لمواجهة عدوانها هى اللجوء الى القوة لمقابلة القوة .

(المعرب)

اسرائيل على الفور أن تنفى هذه الأنباء ، كما وصفها الفرنسيون الرسميون بأنها « مجرد خيال » ٠

وقامت قوات اسرائيل فى الواحد والعشرين من سبتمبر بغزو منطقة العوجة واحتلالها ، وهى منطقة مثلثة الشكل نص اتفاق هدنة عام ١٩٤٩ على بقائها مجردة من السلاح ٠ ولهذه المنطقة أهمية خاصة اذ تمر بهـا جميع الطرق المفتاحية الرئيسية المؤدية الى قلب شبه جزيرة سيناء وادعت اسرائيل لنفسها الحق فى السيادة على هذه المنطقة متحدية بذلك اتفاق الهدنة وقرارات مجلس الأمن التى نصت على ابقاء المنطقة خارج نطاق السيطرة لأى من الفريقين ، ورفضت ـ أى اسرائيل ـ الاذعـان لكافة الطلبات التى وجهتها اليها الأمم المتحدة لسحب قواتها منها ٠ ولقد أفادت اسرائيل من هذه المنطقة ذات الأهمية السوقية الكبيرة التى ظلت تحتلها تحت سمع الأمم المتحدة وبصرها ، عندما شرعت بعد نحو من عام وخمسة أسابيع فى هجومها على سيناء عبر الطرق الرئيسية الممتدة فيها ٠

وراح عبد الناصر يعلن فى السـابع والعشرين من سبتمبر اعلانه المثير بأن مصر بعد أن فشلت فى الحصول على السلاح من الغرب ، ونظرا لمواجهتها خطر التسلح السرى الذى تقوم به اسرائيـل ، عقدت صفقة لشراء الاسلحـة من تشيكوسلوفاكيا مقـابل تزويدها بالقطن والارز المصريين ٠

وذكر عبد الناصر فى الثالث من أكتوبر أن المخـابرات المصرية تمكنت من الوصول الى وثائق للمخابرات البريطانية والفرنسـية تحسر النقاب عن كميات الأسلحة التى زودت فرنسا بها اسرائيل ، وتعلن التقديرات البريطانية للموقف والمتلخصة فى أن مصر لا تنشد الحرب ، وأن نيات اسرائيل غامضة كل الغموض ٠ واعترف النـاطق البريطانى الرسمى بهدوء بصحة هذه الوثائق (١) ولكن العـالم لم يلق بالا لهذا الاعتراف ٠

وعادت قصة طائرات « الميستير » النفاثة الفرنسية الى الظهور من جديد فى السابع من أكتوبر ، عندما ذكر المحرر العسـكرى لصحيفة «التايمز» اللندنية أن اسرائيل قد تقدمت بطلبات فعلا الى فرنسا للحصول على هذه الطائرات ٠ ونقل هانسون بلدوين الى صحيفة « النيويورك

---

(١) صحيفة التايمز عدد ٦ اكتوبر عام ١٩٥٥ ٠

تايمز » في الجانب الآخر من الأطلسي ، نفس الأنبـــاء المتعلقة بهـــذه الطلبات • ولكن اسرائيل وفرنسا واصلتا النفي والانكار •

وعاد بن غوريون فى الثانى من نوفمبر الى رياسة الوزارة بعد أن ظل يشغل وزارة الدفاع طيلة تلك الأشهر الحرجة من عام ١٩٥٥ • وراح يعلن فى الكنيست (البرلمان الاسرائيلى) ، فى اليوم نفسه أنه على استعداد للتفاوض من أجل الصلح مع أى زعيم عربى فورا • ولكنه فى تلك الليلة نفسها ، أمر قواته النظامية ، بعد أن اعتقل مراقبى الهدنة الموجودين فى المنطقة بمهاجمة الوحدات المصرية المرابطة وراء الحدود عند الصبحة فى غارة أخرى من الغارات العنيفة التى ألفها •

ونشرت مجلة « لايف » الامريكية فى السابع من نوفمبر من العام نفسه حديثا أجراه مراسلها مع الرئيس عبد الناصر ، فى موضوع صفقة الاسلحة التشيكية • وقد ذكر الرئيس المصرى فى هذه المقابلة : أن هناك شيئا واحدا مؤكدا وهو أنه لن يستخدم هذه الاسلحة فى شن الحرب • وأضاف أن مصر قد وقعت هذا الاتفاق مع تشيكوسلوفاكيا وهى لا تفكر فى قوة اسرائيل كما هى الآن بل فى قوتها بعد أن تصل اليها الاسلحةالتى حددتها الصفقات السرية التى عقدتها مع فرنسا • وهكذا نرى عبد الناصر يعود من جديد الى تأكيد هذه الصفقة السرية ، ولكن العالم ، وقد أثارته صفقة الأسلحة التى عقدتهـــا مصر مع تشيكوسلوفاكيا ، لم يأبه بهـــذا التحذير الجديد الذى وجهه الرئيس جمال‌عبد الناصر ، واكتفت التعليقات الغربية التى صدرت آنذاك بوصف أقواله على أنها مجرد «اختلاق» •

ولكن الرئيس عبد الناصر لم يكن يختلق أبدا ، فقد سلم الى مراسل « لايف » Life قائمة بهذه الأسلحة الفرنسية التى ستسلم الى اسرائيل أو التى كانت فى طريق التسليم • انها تضم ٧٠ طائرة نفاثة من طراز ميستير ومائة دبابة ، ومائة مدفع ثقيل من عيار (١٥٥) مليمتر ، ومائة وخمسين مدفعا مضادا للدبابات من عيار (٧٥) مليمتر ومن الطراز السريع الحركة •

هل كانت كل هذه الأرقام مجرد اختلاقات ؟ وهل معرفة مصر بوجود صفقة سرية للأسلحة بين فرنسا واسرائيل فرض عليها عقدصفقتها مع تشيكوسلوفاكيا أو أن الأمر هو العكس‌تماما ؟ هذه‌أسئلة ظلت تراود مخيلة الكثيرين ، ولكن عندما أصبح أمر الأسلحة الفرنسية فى حملة سيناء فى أواخر عام ١٩٥٦ معروفا ، وتولى بعض المراقبين الموثوق بهم فحص تفاصيلها تبين أن هذه التفاصيل تتفق تمام الاتفاق ، فى أرقامها

وفى أنواعها ، وأشكالها مع التفاصيل التى قدمها عبد الناصر الى مراسل « لايف » فى عام ١٩٥٥ ٠

الالتزامات بين مصر والكتلة السوفياتية :

ليس ثمة من ريب فى ان صفقة الأسلحة التشيكية ، كانت نصرا دعائيا ضخما للاتحاد السوفياتى ٠ ولم تتمكن الدول الغربية من الحيلولة دون تحقيقه ٠ وكان السؤال المباشر الذى مثل أمام الخواطر فور عقد الصفقة هو ٠٠٠ ترى ما الذى ترمز اليه هذه الصفقة بالنسبة الى ميول عبد الناصر السياسية ؟ فهل تعنى هذه الصفقة التزاما يضع مصر تحت رحمة الضغط السوفياتى عندما يطيب لموسكو أن تبتز من مصر بعض التساهلات والامتيازات ؟ واذا كانت تعتبر نصرا دعائيا لدولة شيوعية كانت قد شرعت فى « تشغيل » جهاز ارسال قوى للبث باللغة العربية فما الذى تستطيع الدول الغربية أن تفعله لمواجهة هذه الحملة الدعائية السوفياتية الواضحة والجديدة ؟ وما الخط الذى سلكه عبد الناصر فى الحديث عن هذه الصفقة الى مواطنيه العرب ؟ ٠

وقبعت وراء هذه الأسئلة القوية التى خلقتها صفقة الأسلحة التشيكية ، قضايا وأسئلة أخرى أكثر اتساعا تتصل بالتزامات مصر الأخرى تجاه الكتلة السوفياتية وميولها نحوها فى شئون التجارة والعون الاقتصادى ٠ وكانت هذه الالتزامات والميول قد بدأت تماما على النحو الذى كان متوقعا منذ حدث التبدل التاريخى فى موقف مصر كلها بعد ثورة عام ١٩٥٢ ٠ فلقد ظل القطن أكثر من مائة عام ، عصب الاقتصاد المصرى ودعامته ، يؤثر عليه بما يطرأ على أسعاره فى الأسواق العالمية من تقلبات الارتفاع والهبوط ٠ وعندما جاء العهد الجديد ، قرر أن يوسع دائرة التصدير وينوعها بحيث تعمل على ازالة هذا الخطر المسلط على اقتصاد البلاد كسيف ديموكليس ، من جراء تقلبات الأسعار ، ولكن تنفيذ هذه الخطوة يتطلب بعض الوقت ، الذى يجب أن تعنى فيه حكومة العهد الجديد ببيع انتاج القطن ٠ وعندما حل عام ١٩٥٤ ، هبطت مشتريات بريطانيا من القطن المصرى هبوطا حادا ٠ وغمر فائض المحصول الامريكى الاسواق الغربية كلها ٠ ويرجع بعض السبب فى المشكلة الى انعدام الثقة فى الخارج فى أسعار القطن المصرى ، نتيجة فضيحة التلاعب بتثبيت أسعار القطن التى وقعت فى عام ١٩٥١ ، أى قبل الثورة ٠ أما السبب الاكبر والرئيسى فيها ، فهو أن الغرب بات عاجزا عن شراء ما يكفى من صادر مصر الوحيد اذ ان القطن كان يؤلف فى تلك السنوات ثمانين فى

المائة من مجموع صادرات البلاد ، وأصبح لزاما على مصر ، أن تبحث عن أسواق أخرى لتصريف قطنها • ومن هنا كانت البداية ، بداية المقايضة بالقطن للحصول على سلع الكتلة السوفياتية وبينها الأسلحة التشيكية طبعا •

ونجم قبول مصر للعون الاقتصادى من دول الكتلة السوفياتية عن دوافع مختلفة أخرى • وليس ثمة من ريب فى أن أية حكومة افريقية ـ آسيوية محايدة ، تواجه أكثر الاحتمالات الاقتصادية الناشئة عن وجود شعب لديها يعانى من عض الجوع ونفاد الصبر ، شمولا ، تنظر الى العون الاقتصادى الخارجى نظرة تختلف كل الاختلاف عن تلك التى تحفز الكونجرس الامريكى على الاقتراع لرصد المخصصات لهذا العون • فلقد كان الحياديون الافرو ـ آسيويون من طراز عبد الناصر ونهرو ، يعرفون تمام المعرفة أن معركة مكافحة الشيوعية ـ هى ـ فى قرى بلادهم نفسها لا فى قاعات الامم المتحدة ، أو غرف التخطيط فى واشنطن وموسكو التى تغمرها الخرائط أو على حدود الحرب الباردة بين السوفيات والغرب • وتتطلب المعركة من هذه القوى سرعة التنفيذ والبت فى الامور كاقامة السدود وبناء المصانع وشق الطرق وتشييد المستشفيات . وكان عبد الناصر يؤثر أن يحصل على العون فى حملته هذه من الغرب . وقد أوضح هذا الايثار ايضاحا مطلقا المرة تلو المرة جهارا وبالوسائل الدبلوماسية . وأعتقد ان نفس هذا الميل يصدق بالنسبة الى الهند أيضا .

ولكن كان هناك عامل آخر ، يزاحم باستمرار هذا الميل الغريزى الى نشدان العون من الغرب وهو الميل الفطرى عند المحايدين الآفرو ـ آسيويين الى عدم المغامرة بوضع كل ما للعون الخارجى الذى ينشدونه من « بيض » فى سلة واحدة مخافة كسرها دفعة واحدة • فهناك قانون طبيعى فى هذا الموضوع يتحكم فيه تحكما كاملا ، يقضى بأن ينمو هذا الحافز على أساس التناسب الطردى مع احساس هؤلاء المحايدين بما يتعرضون له من ضغط سياسى من هذا الجانب أو ذاك من المجموعتين الدوليتين الكبيرتين •

وقد وقع عبد الناصر فى نوفمبر عام ١٩٥٤ ، اتفاقا ضخما للعون الاقتصادى مع الولايات المتحدة الامريكية بقيمة أربعين مليونا من الدولارات ولم تكن واشنطن فى ذلك الوقت ، أى قبل ظهور حلف بغداد أو وقوع غارة غزة تضغط على مصر ضغطا فعالا لحملها على الانضمام الى شبكة المستر دالاس من أحلاف الحرب الباردة • فلقد كان دالاس يعمل على خلق

« حزامه الشمالى » خارج نطاق الوطن العربى . وكان نورى السعيد قد أكد لعبد الناصر وغيره من القـــادة العرب أنه لن يلزم العراق بأى شيء خارج نطاق الوطن العربى ولكن عندما حلت نهايه عام ١٩٥٥ كان الوضع قد تبدل تبـــدلا جذريا من وجهـــة نظر القاهرة . فلقد انتهى ما دعاه عبد الناصر « بشهر العسل القصير » فى العلاقاتالمصرية ــ البريطانية بعد اتفاق الجلاء ، نهاية مفاجئة بظهور حلف بغداد . واخذ عبد الناصر وغيره من القوميين العرب ، يرون منذ ذلك التاريخ حملة مستمرة متزايدة من الضغط تقوم بها الدول الغربية على الوطن العربى لالزامه بعقد معاهدات مع الغرب ، وبرز من جراء هذه الظروف وما رافقها من الناحية الأخرى من عروض سوفياتية قائمة لتقديم العون الاقتصادى غير المشروط ، حافز لتوسيع التزامات مصر فى موضوع المساعدات الاقتصـــــادية ووسعت حكومة الباندين نهرو فى الهند أيضا هذه الالتزامات ورحبت بما قدمته اليها الكتلة السوفياتية من عروض المساعدات غير المشروطة حال تقديمها. وكانت الهند قد احست أيضا بشيء من الضغط الغربى فى الحرب الباردة فى عام ١٩٥٤ ، نتيجة برنامج العون العسكرى بين الباكستان والولايات المتحدة ، وما تبعه من اقامة شبكة للمعاهدات فى جنوب شرقى آسيا ، تخطت الهند كل التخطى ، لكن الاحساس بالضغط كان أقوى فى مصر والشرق الاوسط منه فى الهنـــد ، فلم يكن ثمة هندى واحد يخشى عودة السيطرة البريطانية الى شبه القارة الهندية ومن سوء الحظ ، أن مثل هذا الاحساس لم يكن قائما بالنسبة الى المخاوف العربية . فالفرق فى قضايا العون الاقتصادية كما فى غيرها من القضايا ، بين المعاملة التى تتبناها بريطانيا مع بلد كان مستعمرا لها ذات يوم ، ثم منحته استقلاله وسيادته الكاملين ، المحترمين ، وبين تلك التى توجهها الى محمياتها وانتداباتهـــا السابقة فى الشرق الاوسط العربى ، كان واضحا كل الوضوح وحاسما كل الحسم .

أما وقد ظهر هذا الاتجاه الى حيز الوجود ، فماذا كان من واجب الغرب أن يفعل لمواجهته ؟ كان عليه أن يحافظ على ما للغرب من نصيب فى عون مصر الاقتصادى وتجارتها ، وأن يزيد من هذا النصيب أيضا ، ان لم يكن فى القطن والخزف المصريين ، ففى سلع أخرى محتملة ، أما وقد وضحت هذه الحقيقة أمام أعيننا ، فان من الواجب علينا أن نذكرها دائما عندما ندرس السياسة التى اتبعها الغرب فعلا مع مصر بعد عام ١٩٥٥ .

وكان على السلطات الغربية أيضا أن تدرس بامعان الالتزامات التى

كانت مصر تعقدها مع الكتلة السوفياتية وأن ترى دروب الضغط السياسى التى فتحتها هذه الالتزامات أمام موسكو لتلج منها ، ولاريب فى أنﹶدراسة صفقة الأسلحة التشيكية كانت فى مقدمة هذه الدراسات التى توجب على الغرب القيام بها ، وقد تجاهل الغرب فى هذه الموجة العارمة من الغضب والفزع التى أثارتها الصفقة فى نفوس رجالاته ، الاشتراطات الحذرة والمدروسة التى ضمنها عبد الناصر صفقته هذه ، فقد اشترط أن يسلم التشيكيون مع كل طائرة ودبابة ومدفع فورا ، ماتحتاج اليه هذه الاسلحة من قطع غيار وذخيرة تكفيها لمدة خمس سنوات ، واشترط أيضا أن تسلم هذه الأسلحة فى شحنات ضخمة لا « مفتتة فى دفعات » على النحو الذى سار عليه الغرب معه ، واشترط كذلك أن تباع لمصر مصانع كاملة لانتاج الذخائر الثقيلة ، وليس ثمة ما هو أوضح من الأهداف «المتبصرة» والحكيمة القائمة وراء هذه الاشتراطات. واتخذ عبد الناصر.أيضا من الاجراءات ما يضمن تدريب المصريين على هذه الأسلحة الحديثة فى أوربا الشرقية حرصا منه على تفادى زيادة الخبراء الموجودين فى مصر من أبناء الكتلة الشرقية ، ولعل من المفارقات العجيبة أن عبد الناصر اعترف لخلصائه ابان العدوان الثلاثى على مصر ، بأن هذا الأسلوب الذى اتبعه فى التدريب قد أدى الى ابطائه مما أثر كثيرا على الوضع أيام حرب سيناء (١) ٠

ولا يمكن لمثل هذه الاشتراطات المتناهية فى الحكمة والتعقل أن تصدر عن انسان متهور لايعرف المسئولية أو عن «شيوعى مقنع» أو غيرذلك من الاوصاف التى كان يلصقها المسئولون الغربيون بالرئيس عبد الناصر٠ وظل الرئيس عبد الناصر ، كما ظل رفاقه وأعوانه يعلنون للعرب فى كل مكان ، خطابا بعد خطاب ، واذاعة اثر اذاعة ، ان عون الكتلة السوفياتية لايعنى الشيوعية مطلقا ، وان طريق القومية العربية يختلف تماما عن طريق الشيوعية ، وظل الحزب الشيوعى المصرى من الناحية الداخلية خاضعا لعين الرقابة الساهرة الشديدة ، وكثيرا ماأودع المهيجون من قادته السجون والمعتقلات ، ولم يكن عبد الناصر يختلف فى قوله لمبعوثى الغرب وممثلى صحافته عن حقيقة اتجاهه هذا ، فلقد أفضى لمندوب الاوبزرفر فى مارس عام ١٩٥٦ وكان غليان الغرب يزداد حدة بما نصه :

---

(١) لا شك في أن هذه الاشارة التى أوردها المؤلف على لسان سيادة الرئيس عبد الناصر توضح بجلاء ما تميز به سيادته من صدق واخلاص في سياسته الحيادية ، وما تميز به الغرب من خداع ومكر ، في علاقاته الطويلة مع هذا القائد الصادق الصريح. (المعرب)

« سيختلف شكل الحرب منذ اليوم كل الاختلاف ، فستدور معاركها على الجبهة الداخلية ، وسنلجأ فى هذه المنطقة الى استخدام القـــومية سلاحا قويا لها • وليس ثمة من خطر من الشيوعية ألا عندما تستطيع استغلال مشاعر الجماهير الوطنية • ولكننا تمكنا من انتزاع الدور القيادى منها فى هذا الميدان •

« أما اذا انهارت الجبهة الداخلية ، فلن يكون « للحزام الشمالى » أية قيمة •• وليس ثمة من ريب فى أن هذه الجبهة الداخلية هى التى تتولى وحدها حماية المصالح الأصيلة المشروعة لا للعرب وحدهم بل لبريطانيا أيضا ، وهذا هو السبب الذى يحتم أن تكون للعرب ، منظمتهم الاقليمية الخاصة بهم ، وأن تتركز سياستهم على تقوية ميثاق الضمان الجماعى العربى » (١) •

ووصلت الامور بعد نحو من ثمانية أشهر الى عقدة ، حاولت الحكومة البريطانية ان تحلها عن طريق اقناع برلمانها وشـــعبها بأن الرئيس عبد الناصر قد عقد اتفاقا سريا مع السوفيات يسمح لهم بموجبه أن يجعلوا من شبه جزيرة سيناء ترسانة ضخمة لاسلحتهم وقاعدة لعدوانهم •

ولم تكن القضية اجبار الدول الغربية على تقبل تحليل عبد الناصر لحقيقة الخطر الشيوعى ، على النحو الذى واصل عرضه باستمرار طيلة أعوام ١٩٥٣ و ١٩٥٤ و ١٩٥٥ و ١٩٥٦ ، ولكن القضية كانت فى الموقف الذى كان يتحتم على الغرب أن يتخذه وفى السياسة التى كان من الواجب عليه أن يسير فيها للحفاظ على مصالحه فى المنطقة ، اذا صح أن عبد الناصر يحمل هذه الآراء التى يدافع عنها والتى يؤيدها غيره من قادة العرب فى حالة تمكن الاتحاد السوفياتى من فتح منفذ له الى الوطن العربى عن طريق الاتجار وحملات العون الاقتصادى ، فكيف يمكن لمثل هذا الهدف الغربى أن يتحقق أو يجد عونا له ، اذا كان الغرب يصر على وصف عبد الناصر والحركة التى يمثلها ويقودها « بالتشيع للشيوعية » أو بالتبعية لها ؟ •

وهل كان من الحكمة فى شىء أن نواجه تأييد السوفيات لسياسة

---

(١) مجلة الاوبزرفر عدد ٢٤ من مارس ١٩٥٦، راجع ايضا المقابلة الصحيفة للرئيس عبد الناصر مع مراسل « النيويورك تايمز » بتاريخ الثانى من ابريل عام ١٩٥٦ حيث قال : « لم يعد الشيوعيون المصريون يؤلفون خطرا علينا ، فالخطر الشيوعى الداخلى اقوى في بعض البلاد العربية وفي طليعتها العراق التى عقدتم معها ميثاقا دفاعيا ضد الشيوعية » •

الحياد العربية ، وعروض السوفيات اللامشروطة للعون الاقتصادى ، بالتهجمات الغربية على الحياد العربى وبالمحاولات الغربية لتحطيم هذا الحياد عن طريق المواثيق الجديدة وتقديم العون الغربى المصحوب بالشروط القاسية ؟ .

وكان ثمة أخيرا عامل آخر حيوى وهام للغاية ، فى حاجة الى أن نزنه على ضوء ردود العمل الخطيرة التى صدرت عن الغرب لصفقة الاسلحة التشيكية ولغيرها من الالتزامات بين مصر والكتلة السوفياتية ، ويتلخص هذا العامل فى التساؤل عما اذا كان فى مكنة حكومات كحكومة عبد الناصر ، أن تصمد لأية مطالب سوفياتية مباغتة سعيا وراء الحصول على تساهلات أو امتيازات ، اذا دعمت هذه المطالب بالتهديد بوقف فيض العون الاقتصادى اليها ؟ لقد كان الهدف السوفياتى من فتح هذه الجبهة الجديدة فى الحرب الباردة كسب الاصدقاء والتأثير على الناس ، ولا سيما اذا كانوا من أهل المنطقة غير الملتزمة فى افريقية وآسيا ، ويجعل هذا الهدف السوفياتى من الحكومات الوطنية المحايدة ، أقل أهمية ، وبالتالى أقل تعرضا لمثل هذا الضغط ، اذ أنها كأهداف فردية أقل شأنا من أن تعرض السياسة السوفياتية صداقتها لجماهير الشعوب والفئات المثقفة فى هذه البلاد نفسها الى الضياع من جراء هذا الضغط ، فالاتحاد السوفياتى يعرف أن هذه المعركة تنطوى على شىء من التقليد والمحاكاة . فاذا قبلت الهند العون السوفياتى مثلا ، فان أى نظام حاكم فى بورما ، يكون أكثر استعدادا وثقة بنفسه عندما يقبل مثل هذا العون ، واذا قبلت مصر عون السوفيات فان سورية الشديدة الحساسية ستصبح حتما مهتمة بمثل هذا العون ، وهكذا دواليك .

وكان التسلل المتماثل واضحا كل الوضوح ، وقد وجد منذ اللحظة الاولى التى عقد فيها الاتحاد السوفياتى أول اتفاق للعون الاقتصادى مع أول دولة افريقية ــ آسيوية . ولو حاولت موسكو أن تفرض ضغطا سياسيا على أية حكومة وطنية لا شيوعية ، فانها بعملها هذا تهوى بكل حملتها الى الكارثة ، ولو واجه أى زعيم كعبد الناصر أى طلب ينطوى على الضغط ، كالاصرار على اطلاق سراح الشيوعيين المحليين أو منح القواعد للاتحاد السوفياتى مثلا فان فى وسع هذا الزعيم أن يستدعى الى السفير السوفياتى الذى وجه اليه مثل هذا الطلب ، وأن ينذره بأنه سيعلن على العالم أن الاتحاد السوفياتى يفرض اشتراطات معينة لمعونته ، وأنه يريد أن يجعل من هذه المعونة حصان طروادة ، الذى يتسلل عن طريقه الى أهداف أخرى . وقد تنشب معركة كلامية ومشادة بعد هذا الموقف ،

وليس ثمة من شك فى الجـــانب الذى سيصدقه العرب وبالتـــالى بقية الافريقيين الآسيويين فى هذه المشادة العنيفة ٠

وكان عبد الناصر يعرف أن هذا السلاح المضـــــاد ، متوافر له ، ولا ريب فى أن نهرو لم يكن يقل عنه ادراكا لهذه الحقيقة ٠ وقد اتكل عبد الناصر على هذا السلاح فى مستهل عام ١٩٥٩ ، عندما برز الهجوم الشيوعى من الداخل فلم يتوان عن مهاجمة الشيوعية الدولية ، ومهاجمة المستر خروشوف بالذات ٠ وعندما اتخذ عبد الناصر هذا الموقف ، لم يكن المداد قد جف بعد على توقيع اتفاق ضخم ، يمنح قرضـا سوفياتيا كبيرا لمشروع السد العالى ٠ وعندما كنت أضع كتابى هـذا ، لم يكن المستر خروشوف قد أوقف هذا القرض أو أى اتفاق آخر يتعلق بمعونة الاتحاد السوفياتى الى الجمهورية العربية المتحدة ٠

ولم يكن فى الامكان ، فى خضم هذا الغليـــان الذى أثارته صفقة الاسلحة التشيكية فى أكتوبر ونوفمبر عام ١٩٥٥ ، أن تبرز مثل هذه الاعتبارات الحكيمة الحذرة ، فى كتابات واضعى الفتـــاوى الضخمة أو محررى صحف الغرب ذات الانتشار الواسع ٠ والسؤال الذى يبرز الآن هو لم تقاعس هؤلاء عن « توعية » وجهات نظر الغرب الرسمية وما لحق بها من سياسات بهذه الحقائق ؟ ٠ ولعل الحقيقة الواقعة وهى أن هذه الاعتبارات والحسابات التى لم تخطر فى بال ايدن ودالاس ومستشاريهما راجعة الى حد ما الى ما لحق بكرتنا الثلجية المجازية التى أطلقناها ، من تبدد وتفتت قبل وصولها الى هدفها ٠ وقد قدر للدليل الصحيح أن يبرز فورا فى نوفمبر وديسمبر من عام ١٩٥٥ فى صورة سلسلة من الاعمال التى لم يقدر لها أن تكون موضع الدرس والتسجيل الا لماما ٠ ولا ريب فى أن انشاء حلف بغداد ، والغارة الاسرائيلية على غزة ، وصفقة الاسلحة التشيكية ، تؤلف أحداثا هامة فى التواريخ الصحيحة للشرق الاوسط فى عام ١٩٥٥ ، وأضواء انذارية حمراء ، لفتت أنظار الرئيس عبد النـــاصر ورفاقه من ناحية ، وأنظار الغرب من الناحية الاخرى ٠ وارى لزاما على أن أنتقل الآن ، الى حادث هام آخر ، أو الى ضوء أحمر ثان ظل خفيا عن العيان مدة طويلة ، وان كان قد وقع فى عام ١٩٥٥ ، وقدر له أن يترك آثارا عميقة كل العمق ٠

جيلدهول ومهمة تمبلر :

توافرت الادلة فى الاسابيع التى تلت الثـــورة التى أحدثتها صفقة الاسلحة التشيكية فى كل من واشنطن ولندن ، على أن أيا من الحكومتين

لم تكن تفكر فى أن عبد الناصر قد قرر محاربة اسرائيل ، وأن كلا من الحكومتين ، قد انتابهما القلق فعلا من أن اسرائيل تعد عدتهـــا سائرة نحو الحرب • (١) وفرض النصر المعنوى الجديد الذى حققته روسيا على كل من الدولتين الغربيتين أن تقوما بمحـــاولة آخرى للرد عليه وتخفيف حدة أثره • وراح السير أنطونى ايدن ، نتيجة هذا الشعور يبذل محاولة ضخمة أخرى للتقرب الى الرئيس عبد الناصر •

وقد اتضح جانب من هذه المبادرة الجديدة عندما وصل وزير مالية مصر الى لندن فى شهر نوفمبر سعيا وراء الحصول على عون مالى لتنفيذ مشروع السد العالى فى أسوان • وكان من المعروف أن سفير روسيا فى القاهرة قد عرض على مصر تزويدها بالمعدات اللازمة لبناء الســـد . وسارت محادثات الدكتور القيســـونى فى كل من لندن وواشنطن سيرا هينا ، مما أدى الى بدء المفاوضات الرسمية مع البنـــك الدولى لتمويل المشروع ، بعد أن تلقت ادارة البنك اشارة الرضى من دالاس وايدن •

واتضح الجانب الآخر فى مطلع شهر نوفمبر من مبادرة ايدن • فقد شرع السفير البريطانى فى القاهرة فى زيارة الرئيس عبد الناصر زيارات طويلة ، وقد تمكن من مقابلة الرئيس المصرى فى السابع والثامن من نوفمبر أربع مرات فى مناسبات مختلفة •

وأعلن ايدن فى التاسع من نوفمبر فى الخطاب التقليدى الذى يلقيه رئيس الوزراء عادة فى جيلد هول ، بيانا سياســـيا هاما عن الصراع العربى ـ الاسرائيلى • وكانت زبدة الخطاب أن على الجانبين أن يشرعا فى مفاوضات جدية للوصول الى تفاهم حول المطالب الاقليمية لكل منهما ، اذ أن العرب يقيمون مطالبهم على أساس مشروع تقسيم عام ١٩٤٧ للامم المتحدة على حين تطلب اسرائيل أن تكون خطوط الهدنة « الواقعية » لعام ١٩٤٩ هى أساس المفاوضات • وراح ايدن يوضح على الفور ثمـــار أية محادثات تمهيدية بين مصر وبريطانيا حول هذا الموضوع •

وأعلن عبد النـــاصر ، ان خطاب ايدن يعرض « أساسا صالحا » للمفاوضات واتخذت صحافة القاهرة نفس هـــذا الخط فى تعليقاتها • وسارت التعليقات الرسمية فى العواصم العربية الأخرى فى الاتجاه نفسه ، فلقد تشاور معها عبد الناصر مقدما • ووجد الامين العام للجامعة العربية

---

(١) عدد النيويورك تايمز في الثانى من نوفمبر عام ١٩٥٥ ، الذى نقل أن السفير الامريكى في القاهرة أبلغ حكومته بعدم وجود أية نيات حربية عند مصر •

(المؤلف)

فى نفسه الجرأة ، وهو فى أمريكا لكى يقترح مبادرة لجنة التوفيق الدولية الى العمل فورا ، بعد أن طال سباتها • وأعلن عبد الناصر فى بيان آخر ، ان على الامم المتحدة أن تقوم بدور الوسيط فورا • وراح يذكر لمندوب الأوبزرفر فى مقابلة صحفية ، أن للعرب مطلبا أساسيا ، وهو استعادة الاتصال البرى بين مصر والمشرق العربى ، أى استعادة منطقة النقب التى تستولى عليها اسرائيل •

وكانت فترة من أهم الفترات وأبرزها ، ولم يقلل من أهميتها مبادرة اسرائيل الفورية ، والضجة العالمية التى أحدثتها ، ضد اقتراحات ايدن • وقد نجمت الاهمية عن الحقيقة الواقعة وهى أن نوفمبر عام ١٩٥٥ لم يكن بأية حال من الأحوال لحظة مواتية للترحيب باقتراح يقدمه رئيس وزراء بريطانى بأن يلتقى العرب مع اسرائيل فى نصف الطريق بصدد الاوضاع الاقليمية •• ولم يكن من المامون منذ عام ١٩٤٩ ، لاى زعيم عربى ، بأن يشرع فى محادثات للصلح مع اسرائيل ، لا سيما اذا جاءت المبادرة من احدى الدول الكبرى الموصومة أمام العرب بأنها هى التى عملت على خلق اسرائيل • يضاف الى هذا أن التوتر بين العرب واسرائيل كان قد استمر فى التزايد منذ وقوع الغارة على غزة •

وكان العرب قد هللوا لصفقة الاسلحة التشيكية ، يحدوهم الامل القوى بدنو يوم الحساب النهائى مع الصهيونية • وكان جل ما فى استطاعة العرب أن يقولوه فى تلك اللحظة حتى ولو كانوا فى أحسن حالاتهم وامزجتهم ، بأنه اذا كان ولا بد من المفاوضات ، فان هذه المفاوضات يجب أن تجرى فى الوقت الذى يختارونه هم وطبقا للشروط التى يضعونها •

وقد اتخذ الرئيس عبد الناصر هذا الموقف على ضوء اعتبارين : أولهما : انه لا يريد الحرب بعد مع اسرائيل ، اذ أنه لم يكن قد استكمل استعداداته لها ، وكان يأمل فى أن يؤدى الضغط البريطانى الى وقف اسرائيل عن التفكير فى أى عدوان جديد • وثانيهما : أنه تلقى تأكيدات ايجابية قاطعة من السفير البريطانى ابان محادثاتهما قبيل خطاب ايدن فى جيلد هول بأن بريطانيا ستعمل على « تجميد » حلف بغداد فى المكان الذى يقف فيه ، وكان هذا أمرا هاما لمصر اذ أن سياسة بريطانيا السوقيه (الاستراتيجية) كانت متصلة ، فى رأى العرب ، أوثق الاتصال بتاريخ القضية الفلسطينية •

وكانت الشكوك تغمر الشرق الأوسط طيلة عام ١٩٥٥ ، بأن حلف

بغداد ليس الا أداة جديدة من أدوات الضغط الغربى على العرب لارغامهم على عقد الصلح مع اسرائيل • يضاف الى هذا أن الشكوك كانت قائمة فى أن « جلوب الاردن » قد ينضم الى الحلف ، وأن الاردن نفسه كان يؤلف فى عقل العربى قبل كل شىء حلقة اتصال بين الخطط السوقية البريطانية وبين فلسطين • وكان الافتراض الاساسى أن بريطانيا ، وهى المسيطرة على شرق الاردن ، قد كبحت جماح الجيش العربى الاردنى فى حرب عام ١٩٤٨ وأنها قد رتبت الامر ، آنذاك ، على تسليم أراضى الضفة الغربية الى اسرائيل قبيل هدنة عام ١٩٤٩ •

وكان البيان الواضح الذى تلقاه عبد الناصر بأن حلف بغداد سيجمد ، ولن يوسع ليشمل بلادا عربية أخرى ، هو الذى حمله على الترحيب علنا بخطاب ايدن فى جيلد هول فى أواسط نوفمبر عام١٩٥٥ • ولكن مبادرة ايدن ما لبثت أن تهاوت ، وتداعت على الفور • فلقد تقاعست واشنطن عن تأييدها ، اذ أن صهيونيى امريكا فى ذلك الحين قاموا بحملة ضخمة لجمع الاموال وضمان السلاح والتأييد لاسرائيل • وتعرض ايدن فى مجلس العموم البريطانى نفسه لهجمات أنصار اسرائيل من أعضاء المجلس ، الذين حملوا على اقتراحه الخاص بأن تتنازل اسرائيل عن بعض الاراضى للعرب • ولم يتوان السير انطونى فى التراجع عن موقفه • وفشل من جديد اقتراح غربى آخر عن فلسطين ، كما فشل من قبل كل اقتراح يقضى بأن تتنازل اسرائيل عن بعض ما اغتصبته •

ولكن بينما كان السفير البريطانى فى القاهرة يقابل الرئيس عبد الناصر وينقل اليه تأكيدات ايدن «بتجميد» حلف بغداد ، كانت الحكومة الاردنية فى الوقت نفسه ، بعلم السفارة البريطانية الكامل فى عاصمتها وبتأييدها ، تفاوض الرئيس التركى جلال بايار ، الذى يقوم بزيارتها ، فى موضوع اشتراك الاردن فى الحلف المذكور • وألقى ايدن خطابه فى جيلد هول فى التاسع من نوفمبر ، وسلمت الحكومة الاردنية فى السادس عشر منه الى السفير البريطانى فى عمان اقتراحاتها الرسمية الخاصة باشتراكها فى عضوية الحلف • وكان تأييد عبد الناصر لخطاب جيلد هول ، قد انتشر ابان ذلك ، أوسع انتشار ، فى أرجاء الوطن العربى • وعقد مجلس الحلف اجتماعه فى الواحد والعشرين من نوفمبر ولم يمض أسبوعان حتى كان الفريق السير جيرالد تمبلر رئيس هيئة أركان حرب الامبراطورية ، يصل الى الأردن ، وسرعان ما أعلن أنه جاء الى العاصمة الاردنية ليبحث مع حكومتها موضوع انضمام الاردن الى حلف بغداد •

وعندما وصلت هـذه الانباء الى القاهرة ، أذهلت الدهشة الرئيس عبد الناصر من هذه الخدعة البريطانية الجديدة وغضب لها غضبا شديدا . وشرعت مصر فى حملة فورية وشاملة ضـد مهمة تمبلر ، وتفجر الاردن نفسه فى ثورة غاضبة من الاحتجاج . وليس ثمة من شك فى أن مصر كانت ستعارض بعثة تمبلر سواء أكان ايدن قد قطع على نفسه عهودا فى موضوع حلف بغـداد أم لم يقطعها ، ولـكن الوعود التى حنث بهـا ايدن ، حملت عبد الناصر على التوصل الى استنتاجات أساسية معينة .. وكان لا بد من أن يتفجر الاردن أيضا فى احتجاج غاضب ضد تمبلر وبعثته وضد حلف بغداد ، حتى ولو ظلت اذاعة القاهرة صامتة ، وهو أمر ما لبث أن اعترفت به الصحف الغربية المحافظة . (١) وكانت الانتخابات قد زيفت فى الاردن كمـا زيفت فى العراق فى عام ١٩٥٤ ، لضمان قيام حكومة تمثل العهـد القديم ، تتولى تأييد الارتباط مع بريطـانيا ، وتخفت العواطف الحيادية القومية التى تسيطر على غالبية الشعب الاردنى . ولكن بعثة تمبلر ومهمته كانتا أكبر من أن يسكت عليهما الشعب رغم كل هذه الاحتياطات . واتضح فى منتصف شهر يناير عام ١٩٥٦ ، أن ليس فى وسع أية حكومة أردنية أن تشرك البلاد فى حلف بغداد . وأنحى الغرب بالملامة على مصر . وظهر عبد الناصر الآن أمام جميع العرب ، الزعيم الذى كانوا ينشـدون ظهوره منذ أمد بعيد . وسارعت كرة الثـلج (يعنى علاقات الغرب بالعرب) فى سيرها نحو الهاوية .

ولم يـكد غضب المملكة الصغيرة ، يخبو ، قليـلا حتى أخذ الموظفون البريطانيون يعترفون فى أحاديثهم الخاصـة ، بأن بعثة تمبلر كانت خطأ فاحشا ، ارتكب فى الاردن . ولـكن هـذا الخطأ كان هائلا أيضا بالنسبة لمصر . ورأى فيه الرئيس عبد الناصر ، مثلا آخر من أمثلة الخداع المتعمد المقصـود ، جـريا على مألوف البريطانيين الذين اتهم سـاستهم بأنهم «يخرجون من الباب الأمامي ليحاولوا العودة الى المنطقة من نافذتها الخلفية» . وكانت هذه هى المرة الاخيرة التي وثق فيها الرئيس المصرى بايدن (٢) . كما كانت على الغالب المرة الأخيرة التي رضي فيها أن يدرس اقتراحا يقدمه الغرب فى موضـوع فلسطين . وكانت تفاهة المهمـة التى قام بها تمبلر بالنسبة الى المصـالح البريطانيـة ، ومكانة الرجل العسـكرية قد دفعت عبد الناصر وغيره من القادة العرب الى الشك شكا عميقـا بأن ايدن كان

---

(١) الايكونومست عدد ١٢ يناير ١٩٥٧ .

(٢) من حديث الى الاوبزرفر في ٢٤ مارس ١٩٥٦ .

يحاول حقا الحصول على شيء آخر في فلسطين . ومن المؤكد أن ايدن ، كان يحاول أن يخدع الرئيس عبد الناصر ، وأن يدفع به الى موقف فيــه بعض الحرج والخطورة . (١)

ترى ما الذى كان يريده ايدن ؟ فحتى هذه الأشهر الحرجة ، كانت بريطانيا تتجاهل الحوادث الطفيفة المعزولة ، وتنظر الى الاتهامات المصرية على أنهــا مجرد اختلاقات دعائية . وكان من بين هــذه الادعاءات أن ايدن ونورى السعيد كانا يخططان للاســتيلاء على الاردن وتقسيمه بين العراق واسرائيل . وبدت التهمة غريبة خيالية فى ذلك الحين ، ولكن ما لبث ايدن أن اعترف فى مذكراته بأنه قدم طلبا الى نورى الســعيد بأن يوفد بعض القوات العراقية بالطائرات الى الاردن .

ولكن هذه التهمة الغريبة ما لبثت أن عادت الى الظهور ثانية فى عام ١٩٥٦ . ولم تكن القاهرة وحدها هى التى أثارتها هــذه المرة ، بل باتت جزءا من الاتهامات المحددة التى وجههــا الى ايدن ، وزير خارجية الولايات المتحدة الامريكية .

مارس : جلوب ، لويد ، بينو :

وتميز شهر مارس عام ١٩٥٦ أيضــا بما وقع فيه من تدهور جديد فى الموقف . وأعلن المستر يوجين بلاك محافظ البنك الدولى فى الحادى عشر من فبراير ، أن البنك قد توصل الى اتفــاق مهم مع مصر يقضى بأن يمنح لهــا قرضا بقيمة مائتى مليون دولار لتنفيذ مشروع السد العــالى ، شريطة أن تشترك بريطانيا وأمريكا فى تقديم قرض لها بسبعين مليون دولار أخرى . وسرعان ما أخذت المفاوضات لعقد القرض تمر فى مراحل من الابطاء بسبب امتعاض مصر من شروط البنك العالمى التى تضمنت أن يتولى البنك التدقيق فى ميزانيات الدول التى تطلب منه قروضا ، وأن تتعهد كل دولة تقترض منه بالا تطلب أية قروض أخرى من أية جهة ثانية دون موافقة البنك . ولما كانت مصر قد مرت بمائة عام من التجارب الماضية من الضغط المالى الاجنبى الذى أدى الى احتلالها ، فقد كانت ولا شــك آخر دولة فى العالم ، يمكن

---

(١) أدعى جلوب في كتابه ان بريطانيا قد « امتنعت من مطالبة الأردن بالاشتراك في حلف بغداد » ولكنه يمضي بعد ذلك فيقول : « ولكن عندما جاء الاقتراح من الأردن نفسها رحبت بريطانيا باقتراحها هذا » . وطبعا وقع هذا في غضون أسبوع واحد من وعد ايدن بعدم اشراك أية دولة عربية اخرى في الحلف . (المعرب)

أن تقبل مثل هذه الشروط المعقولة فى ظاهرها دون أن تتحداها • وكان من المقرر أن تجلو عما قريب تلك القوات التى كانت قد أقامت فى مصر أربعة وسبعين عاما كنتيجة مباشرة لقروض القرن التاسع عشر التى أثقلت كاهلها • يضاف الى هذا أن عرض البنك مرتبط بصورة مباشرة مع العروض التى قدمتها الدولتان الغربيتان ، اللتان تتعارض أعمالهما السياسية وأهدافهما السوقية ، فى الشرق الاوسط تعارضا مكشوفا وصريحا مع القومية العربية وسياسة الحياد •

وكان المستر بلاك يعرف هذه الحقائق ويقدرها حق قدرها ولهذا فقد بذل جهودا مضنية ، ليوفق بين أنظمة البنك وبين ما تحس به مصر من حساسية تجاه هذه الشروط • وبينما كانت المفاوضات تسير سيرها البطيء هذا على أساس من الاتفاق المبدئى ، كانت العلاقات العربية ــ الغربية تسير من سيىء الى أسوأ • وطرد جلوب من منصبه فى الاول من مارس ،وطلب اليه أن يغادر الاردن فورا • وحدث أن كان المستر سلوين لويد مجتمعا بالرئيس جمال عبد الناصر ، عندما تلقى الرئيس رسالة تحمل نبأ اخراج جلوب من الاردن • وراح ينقل النبأ الى سلوين لويد • وتوصل وزير خارجية بريطانيا على الفور الى الاستنتاج القائل بأن طرد هذا الجندى البريطانى الممتاز من بلد مرتبط ببريطانيا كالأردن ، لابد وأن يكون تنفيذا لخطة وضعها عبد الناصر ، ووقتها ، لتجيء فى اللحظة التى يجتمع اليه فيها ، لكى يذله بصفة كونه وزيرا كبيرا من وزراء حكومة جلالتها • (١) وأدرك عبد الناصر ، أن كبرياء الوزير البريطانى قد أصيبت فى الصميم ، فحاول أن يهدىء من ثائرته ، وخيل اليه أنه قد نجح فى ذلك عندما غادر الوزير القاهرة فى اليوم التالى • ولكن لويد ما لبث أن قابل مظاهرات غاضبة فى البحرين التى كان البريطانيون يصفونها بأنها واحة من واحات الهدوء الذى يعود فيه الفضل الى بريطانيا وسط هذا الخضم الثائر من الاضطراب فى الشرق الاوسط • وقد واجهته هذه المظاهرات وهو ينتقل من المطار الى المدينة ، تهتف صاخبة ضده ، مطالبة اياه بالعودة الى بلاده • وقد أبلغه الموظفون البريطانيون فى البحرين أن

---

(١) من الحقائق التاريخية الثابتة التى باتت الآن مقبولة عند الجميع انالرئيس عبد الناصر لم يعرف بطرد جلوب قبل وقوعه. ولعل من سخرية الاقدار أنهذه الصدفة قد وقعت بعد أن قرا الملك الصغير حسين في احدى مجلات لندن نعتا لجلوب بانه ــ « ملك الأردن غير المتوج »

(المؤلف)

مثل هذا الحادث ما كان ليقع مطلقا لولا أن الاوامر قد صدرت من الرئيس عبد الناصر الى المتظاهرين بمواجهته بهذه المظاهرات • (١).

وعاد وزير الخارجية الى لنـدن ، حيث كانت دوائرها الرسمية قد استمعت الى قصة طرد جلوب كما رواها هو نفسـه لايدن ، وفسرتها على النحو الذى سبق لنا أن ذكرناه ، من أنها تدبير من هذا الرجل الذى يكره الانجليز أشد الكراهية ، والذى بات قادرا على اعداد الثورات من مكانه النائى البعيد فى أى جزء من أجزاء الوطن العربى • وقد نصح جلوب ايدن بألا يتخذ أى اجراء سريع غاضب مع الاردن • ولـكنه فى التقارير السرية التى قدمها وفى أحاديثه الى الصحافة ، قدم الى الغـرب صورة عن الشرق الاوسط وعزا ما فيه من متاعب الى عمل « المصريين » وعمـل الشيوعيين ودهماء الشارع• وكان طرد جلوب مأساة شخصية وتاريخية فى آن واحد، أما الناحية الشخصية فناجمة عن أن هذا الرجل كان أصيلا فى مفاهيمه عن الاردن والعرب وكان مخلصا لهذه المفاهيم اخلاصا عجيبا (٢) ، وأما الناحية التاريخية فلأن الاردن بكامله قد ضاع ، دون أن يفهم جلوب كيف وقع هذا التبدل • وراح يمثل فى المقالات والكتب التى وضعها فى منفاه بعد طرده من الاردن كل ما ادعاه لنفسه من وقوفه موقف الرحمة المسيحية والفروسية المهذبة ، والإدارة الرءوفة مع « أبناء الصحراء » • وأن الغلطة لم تكن غلطته أبدا ، ولكن ما ذكره من ايضاح لأسـباب طرده لصحيفة النيويورك تايمز ، والصحف البريطانية أيضا ، استثارت لدى الغربيين كل تلك الصـور التى سـبق لنا أن تحدثنا عنهـا فى فصـل سابق • أجل انها استثارت ماكان يحس به الغرب من كره عميق الجذور لمصر ، (٣)

---

(١) كان شعب البحرين ناقما على تصرفات حكامه ، كما أن ايمان هذا الشـعب بالقومية العربية منذ عام ١٩٥٢ هو الذى دفعه الى هذه المظاهرات التى لم تكن كما زعم الغرب بأمر من عبد الناصر • (المعرب)

(٢) أنا لا أود أن انكر على جلوب راسا ما يدعيه من حب شخصي للاردن واهل الصحراء . ولكن هذا الحب ، ان وجد حقا ، لم يكن شيئا يقاس بحبه لوطنه بريطانيا ولا بولائه له واخلاصه وتفانيه في خدمة مصالحه . فلقد كان جلوب منفذ السـياسة البريطانية في الاردن وحاميها ولم يكن ما يدعيه من حب للاردن الا الذريعة التي يحاول بها تبرير كل تصرفاته في الاردن وفي قضية فلسطين وهى التصرفات التي يقع عليها العبء الاكبر من كارثة فلسطين والتى فرضت على الاردن حكم الطغاة الاستعمارى .
(المعرب)

(٣) أعرب جلوب في كتابه « جندى مع العرب » عن اعتقاده « بأن المصريين ليسوا من العرب مطلقا » ، وراح يعزو حملات عبد الناصر على حلف بغداد الى أسس تعـود الى التوراة . (المؤلف)

ومن خوف من الشيوعية ، واستفزاز كل تلك الآراء والصور المخيفة التى كانت تمنع الغربيين من رؤية عرب الاردن على حقيقتهم ، وتقدير ما يحسون به وما يأملون · وما كانوا سيفعلونه حتما حتى ولو لم يظهر عبد الناصر ·

واسفر شهر مارس أيضا عن فكرة شخصية أخرى تسلطت على مستوى رفيع فى الغرب عن عبد الناصر · فلقد كان ذلك الشهر من الاشهر الشديدة المرارة بالنسبة الى فرنسا · اذ رأى الفرنسيون ، وكانت خسارة الهند الصينية ومافيها من مرارة علقمية لاتزال ماثلة فى نفوسهم، ان المغرب (مراكش) وتونس ، قد ضاعا على فرنسا أيضا ، نتيجة استقلالهما · وأصبحت الجزائر لهم أكثر أهمية واغلى قيمة · ومضى بينو وزير خارجية فرنسا الى القاهرة فى أواسط مارس ليعمل على اقناع عبد الناصر ، بالتوقف عن تاييد الثورة الوطنية التى اشتد أوارها فى الجزائر مقابل مساعدة فرنسا للعرب فى سياستهم الحيادية · ولم يفهم المسيو بينو ما عناه عبد الناصر ، عندما أبلغه أن التخلى عن الوطنيين الجزائريين يعنى بالنسبة له تخليه عن «قوميته العربية ، وعن كل مايشعر به من واجبات أخوية» · وأدى فشل بينو فى مهمته فى القاهرة ، الى المساس بسمعته فى فرنسا · ولم يغفر الوزير الفرنسى قط لعبد الناصر هذه الاهانة التى أصابت كرامته · وتقوت نتيجة ذلك ميول فرنسا الرسمية نحو اسرائيل ، وقد عززها ماهنالك من أوجه شبه بين المستوطنين الفرنسيين فى الجزائر وبين الغاصبين الصهيونيين فى اسرائيل الذين يحيط بهم « المسلمون » فى كلتا الحالتين · واعلنت فرنسا فى ابريل أنها ستسلم طائرات « الميستير » النفاثة الى اسرائيل · وصيغ الاعلان الرسمى فى عبارات يشتم منها أن القرار قد اتخذ حديثا ، لا سيما وقد نسى الغرب اشارات عبد الناصر منذ سبعة أشهر الى صفقة طائرات « الميستير » · وكان هذا الاعلان الذى صدر فى شهر ابريل مجرد تطور جديد فى العلاقات ·

أمريكا ـ اسرائيل ـ طهران ـ الصين :

وقعت فى شهرى ابريل ومايو أيضا ورطة أخرى من ورطات العداء المتبادل الناجمة عن السياسات التى كانت تظهر معقولة فى واشنطن ولندن ، ولكنها كانت تستفز مشاعر السخط فى الشرق الاوسط · فلقد كانت حملة اسرائيل على الصعيد العالمى لجمع الاموال وحشد الاسلحة ،

والهاب مشاعر الغرب ضد مصر ، قد قطعت شوطا بعيدا • وسيطرت حالة من الغليان والهدير الخطر على كل من حدود اسرائيل مع مصر وسورية • وأثارت علاقات عبد الناصر الودية بالبانديت نهرو قلق أمريكا وسخطها • وكانت اتصالاته أيضا بالماريشال تيتو ، الذى كان لا يزال موضع الشك بالنسبة الى ماطرأ على أزمة العلاقات المتوترة بين يوغوسلافيا وموسكو من انفراج جديد ، باعثا آخر من بواعث الانزعاج والضيق • وكان خطر نشوب الحرب فى فلسطين قد أقلق الرئيس أيزنهاور طيلة شهرى مارس وابريل ، مما حفزه فى الرابع من ابريل الى السعى للحصول على قرار من مجلس الامن تلبية لاقتراح أمريكى بايفاد المستر همرشولد الامين العام للامم المتحدة الى المنطقة لضمان وقف اطلاق النار فيها ، واعادة اتفاقات الهدنة الى سابق عهدها •

وبينما كان المستر همرشولد يواصل تنفيذ المهمة التى أوكلت اليه، أعلن الاتحاد السوفياتى فى السادس عشر من أبريل أنه على استعداد لدعم أية بادرة تصدر عن الامم المتحدة لتسوية قضية فلسطين ، وأشار اشارة تنطوى على التأييد الى استعداده أيضا لفرض حظر على شحن الاسلحة الى الشرق الأوسط بمجموعه • وهكذا قام دليل واضح جديد على أن الحكومة المصرية لم تكن غافلة عن الاهداف السوفياتية فى المنطقة ــ خلافا لما سبق للغرب أن فهمه من بعض ممثليه ــ وقادت صحافة القاهرة حملة عربية شاملة من رد الفعل المنطوى على الكثير من الشكوك الحادة • ولم يكن أحد قد نسى أن الاتحاد السوفياتى كان من الدول السباقة ، الى اقرار مشروع تقسيم عام ١٩٤٧ ، والى عرض العون على انفاذه ، والى الاعتراف باسرائيل بعد بضع ساعات من اعتراف الرئيس ترومان بها فى الخامس عشر من مايو عام ١٩٤٨ •

ولقد كانت الفترة التى بدأت بمنتصف شهر ابريل لحظة مواتية ، طبقا لجميع التقديرات ، لتقييم الوضع تقييما ينطوى على الحرص والحذر ، بالنسبة الى كل ناحية من نواحى الموقف المعقد فى الشرق الاوسط • واذا كانت شكوك العرب فى الاتحاد السوفياتى قد استثيرت فى هذه الفترة بالخطوة التى خطاها، فلقد كان من واجب الدول الغربية أن تدرس بامعان وسائل تجنب كل ما يؤدى الى اغراق هذه الشكوك باثارة شكوك جديدة عربية فى الغرب• واذا كانت الدول الغربية تود أن ينجح المستر همرشولد حقا فى مهمته فى اعادة الهدوء الى الحدود العربية ــ الاسرائيلية ، وتود أن تخلق أملا فى امكان تحسن السبل المؤدية الى تفاوض محتمل بين الفريقين،

فقد كان حريا بها أن تتجنب القيام بأى عمل جديد قد يؤدى الى استفزاز شكوك العرب • ولم يكن ثمة أهمية فى مثل هذه المواقف المتحفظة • لان يستشير ساسة الغرب عواطفهم ويروا ما اذا كانوا يحبون عبد الناصر أو لا يحبونه ، وما اذا كانوا يكرهون النفسية العربية أو لا يكرهونها • ان المهم فى مثل هـذا الوضع ، هو أن يعرف هؤلاء الساسة الطريقة المثلى للتعامل مع عبد الناصر ومع النفسية العربية لما فيه مصلحة الغرب •

ولكن على الرغم من هذه الضرورة الظاهرة والصريحة • فقـد سلك الغرب سلوكا مغايرا ، اذ لم تمض أيام ثلاثة على البيان الروسى الذى أثار شكوك العرب حتى كنا نرى الولايات المتحدة تعلن انضمامها الى لجنتين من لجان حلف بغداد وهما الاقتصادية ولجنة مكافحة النشاط الهدام ، كما تعلن قيام ارتباط عسكرى أوثق عرى مع دول الحلف كلهـا • ومع ذلك أصرت وزارة الخارجية الامريكية على التأكيد بأن حكومتها لا تعنى بخطواتها هذه الانضمام الى الحلف • لكن هذا التمييز الخفى الماكر لم يكن واضحا عنـد القوميين العرب •

ولم يلبث مجلس حلف شمال الاطلسى أن عقد اجتماع الربيع فى باريس • وكان المستر همرشولد لا يزال ينتقل جيئة وذهابا بين اسرائيل والدول العربية متفاوضا بهدوء وان كان بشىء كبير من الجهد ، لاعادة تثبيت خطوط الهدنة لعام ١٩٤٩ • ولم يتابع الاتحاد السوفياتى اقتراحه لحظر بيع السلاح للشرق الاوسط ، وعندما قام خروشوف وبولجانين بزيارة لندن فى هذه الآونة لم يعودا الى الاشارة اليه • كما أن مضيفيهم من الانجليز الرسميين لم يحـاولوا استغلاله • وتسربت الانبـاء من اجتماعات حلف الاطلسى المعقودة فى باريس تقول ان المستر دالاس قد اقترح طريقة جديدة لحل الصراع العربى ـ الاسرائيلى وان هذه الطريقة تنطوى على قرار من الغرب بارسال أسلحة اضافية الى اسرائيل • وأعلن أيضا أن المجلس قرر أن يعهد الى ثلاثة من « حكمائه » بالقيام بدراسات مستمرة للوضع فى الشرق الاوسط •

وأعلن همرشولد فى التاسع من مايو أن مهمته قد كللت بنجـاح رائع وأن هدفه فى اعلان وقف اطلاق النـار قد تحقق • وراحت فرنسـا تعلن الى العالم فى الثانى عشر من أيار (سبتمبر) ، وكان الشياطين هى التى توجه ساسة الغرب ، ان الولايات المتحدة قد وافقت على تحويل عدد آخر من مقاتلات « الميستير » النفـاثة التى تنتجها فرنسـا لحلف الاطلسى الى اسرائيـل • واتضح فى الوقت نفسـه أيضـا ، أنه على الرغم من أن

الولايات المتحــدة ما زالت تمتنع عن تزويد اسرائيــل بالســلاح ، الا أن المستر دالاس ضغط ضغطا شديدا على الحــكومة الــكندية لبيع طائرات « سابر » النفاثة اليها ٠

وهكذا اختفت آخر لمحة من لمحات الامل ، فى خضم هــذه الاسابيع الستة من الشكوك المتزايدة فى القاهرة ٠ وكانت هــذه الاسابيع الستة قد عرضت أمام عبد الناصر وغيره من القادة العرب، صورة خطرة عن وجود المزيد من التــآمر والدسائس ٠ فهنــاك من الناحية الاولى الاشــارة التى صدرت عن الاتحاد السوفياتى بفرض حظر من جميع الدول الكبرى ، تحت اشراف الأمم المتحدة على تزويد الشرق الاوسط بالاسلحة ، وهى اشارة لم يرفضها الغرب حتى الآن رفضا حاسما ٠ وهنــاك من الناحية الاخرى ثلاث خطوات متتالية زمنيا ، شجعتها الدول الغربية أو قامت بها ، وهى المزيد من الدعم لحلف بغــداد واقحــام حلف الاطلسى نفســه فى مزيد من النشاط المباشر فى شئون الوطن العربى ، وتبنى الحكومةالامريكية السريع لخطوات سلمية تصــدر عن الامم المتحــدة لفرض الصلح على العرب مع اسرائيــل ، والرعاية الامريكية العــاجلة لشحنات أخــرى من الأسلحة لاسرائيل المرتبطة باتفاق سرى مع فرنسا لتزويدها بالسلاح ، والعازمة عزما قاطعا على خوض ما تسميه بالحرب المانعة مع العرب(١) ٠

ووقعت هنــا أيضا حادثة من الحوادث الحــاسمة فى تاريخ الشرق الأوسط ، لم يقدر لها أن تحظى الا باهتمام ضئيل فى الحسابات الصحيحة للموقف ٠ وبدا لعبــد الناصر ســواء أوافقناه أو لم نوافقه على ضــوء هذه السلسلة من الاحداث التى تعاقبت فى شهرى ابريل ومايو ، وجود مؤامرة جديدة تشــبه تلك التى قام بهــا السير أنطونى آيدن فى خطاب جيلدهول وفى أحداث الاردن التى تلته ٠ وأدى هذا الاحساس الى قيــام عبد الناصر بخطوة أخرى من خطواته المنفعلة (٢) ، فى عام ١٩٥٦ ، وهى الاعتراف الدبلوماسى بالصين الشعبية فى الســادس عشر من مايو ، دون أى من الخطوات التمهيدية المعتادة ٠ وكان السبب فى اتخاذه هــذا القرار فى هذا الوقت بالذات ، واضحا من اشــارته الغاضبة الى ماتحيكه الدول

---

(١) لم تنس القاهرة قط وثائق المخابرات البريطانية والفرنسية التى حصلت عليها والتى تعلم الحكومتين المذكورتين بخطر وقوع هجوم من جانب اسرائيل منذ أواسط عام ١٩٥٥ ٠ (المؤلف)

(٢) كان في امكان المؤلف ان يقول « الجريئة » بدلا من المنفعلة لانها هى التعبير الصحيح ٠ (المعرب)

الغربية من مؤامرات مستمرة من ناحية ، ومن الاشارات الواردة فى صحافة القاهرة الى أن روسيا ليست هى المكان الوحيد الذى تستطيع القاهرة أن تحصل منه على السلاح ، من الناحية الأخرى • وسرعان ما أعلن أن بعثة عسكرية مصرية ستسافر عما قريب الى بكين • وكان الهدف من هذه الزيارة واضحا كل الوضوح ، فأى حظر تفرضه الامم المتحدة على شحن السلاح الى الشرق الاوسط لا يقيد الصين الشعبية لأنها ليست عضوا فى الامم المتحدة •

وكان من المحتم أن تعترف مصر بالصين الشعبية ان عاجلا وان آجلا • فالاتجار المتبادل والمتزايد بين البلدين كان لابد وأن يؤدى الى مثل هذا الاعتراف • ولم يكن ثمة من سبب آخر يحول بين مصر وبين هذا الاعتراف أسوة بالهند وغيرها من الدول الافريقية ـ الآسيوية • لكن توقيت الاعتراف كان فى رأيى سيئا كل السوء ، اذ جاء فى الوقت الذى كانت المفاوضات فيه لقرض السد العالى ما زالت معلقة (١) • ولكن الرئيس جمال عبد الناصر اتخذ قراره لوجود عدة دلائل من ناحية ثانية على « طبخ » مؤامرة أخرى خارج الوطن العربى ، ولوجود ضغط غربى لفرض الصلح مع اسرائيل على شروط اسرائيل نفسها ، ولقيام احتمال فى لقاء بين روسيا والغرب ، كما حدث فى عام ١٩٤٨ على خلق سياسة فلسطينية مشتركة وبذلك يتم اغلاق المصدر الوحيد المفتوح أمام مصر لتحقيق تسلحها فى حين يستمر تدفق السلاح الغربى على اسرائيل • وهكذا اتسعت الهوة من جديد بين العرب والغرب •

---

(١) اعتقد ان المؤلف اخطأ في تحليله هنا . فلقد اصر سيادة الرئيس عبد الناصر، منذ البداية ، على وجوب بقاء المساعدات الاقتصادية بعيدة عن الضغط السياسي . وظل طيلة المدة يرفض اية مساعدات اذا كانت مشروطة لان قبولها يعني خروجه على سياسة عدم الانحياز التى جعلها قاعدة اساسية من قواعد سياسته لا يحيد عنها قيد شعرة . ولهذا فلا مجال للقول هنا بان توقيت الاعتراف بالصين كان سيئا ، اذ لا يرى الرئيس اى ارتباط بين هذا الاعتراف وبين المعونة الغربية لمشروع السد العالي .
(المعرب)



فروض السد العالى

« ليس ما يغدقه النهر العظيم على مصر من ميـاه دائمة ، مجرد قضية رخاء وازدهار لها ، بل هى قضية حياة فعلية ووجود ... » .
اللورد ملنر ــ في كتابه « انجلترا في مصر »

قد تبدو مصر على الخريطة مساحة خيالية ضـخمة ، الا اذا كانت هذه الخريطة معبرة عن الاسس الديموقراطية لتوزيع السكان ، وعن توزيع النباتات أيضا . ويمكن رؤية الواقع المفزع الواضح من الطائرة أو من النقاط المهمة فى أرض مصر المأهولة . وقد تندفع بك الطـائرة من ناحية البحر المتوسط ، هادرة مزمجرة ، وسرعان مايتحول الماء الازرق امامك الى حقول كثيفة الزراعة ريقة الخضرة . وتواصل الطائرة هديرها محلقة فوق الدلتا جنوبا باتجاه القـاهرة ، ويأخذ المدى الاخضر الفسيح تحت ناظريك ، يضيق بصـورة متدرجة لينتهى من الناحيتين الشرقية والغربية الى حدود يتحول لونها الى مزيج من اللونين السكرى والبنى ، وتأخذ هذه الحدود فى الاقتراب بعضها من بعض بصورة شديدة متزايدة وتقترب حدود هذا المثلث الاخضر عند القاهرة الى درجة كبيرة . اذ أن الصحراء القاحلة تضغط بشدة عليها عند ضواحي المدينة . وترى وأنت فى طائرتك حقلا من حقول البرسيم ينتهى فجأة الى الرمال عنـد خط يبدو مستقيما الى الحد الذى يحملك على القول بأن خالقا جبارا قـد رسمه لينذر المصريين منذ أقدم عصور التاريخ قائلا .. « فى وسعكم أن تزرعوا وتعيشوا الى هـذا الحـد أما وراءه ، فستموت بـذوركم فى الرمال » ..

ويشتد ضغط ما تحس به من تكاثف الحياة الانسانية وامتدادها من الجذور الارضية منحشرة وسط هذين الفكين من الرمال الجرداء ، كلما ارتحلت جنوبا من رأس دلتا النيل عند القاهرة ، صعودا مع النهر ،

واذا ماكنت تستقل القطار صاعدا مع الوادى ، فانك قادر ولاشك على ان ترى من نافذة عربتك المرتفعات الصحراوية قريبة منك ممتدة الى جانب هذا الخط الضيق الطويل من الخضرة التى ترويها مياه النهر . ويسير قطارك على الضفة الشرقية للنهر ، وتقرع الامثولة التى تتعلمها من هذا الدرس الانسانى شفاف عقلك تماما وكانها الالحان الرتيبة الصادرة من هدير العجلات على الخط الحديدى ، وسرعان ماتجد أمامك مجموعة من الاكواخ القروية المشيدة من الطين الذى أحرقته الشمس ، تحيط بها مساحات من الخضرة تبتعد شيئا فشيئا عن النهر ، لتنقطع فجأة عند حدود ارض رملية بيضاء تتالق على هامة المرتفعات الحادةالتى تؤدى الى الصحراء الشرقية .

وتصل الى أسوان ، ثم تمتد الطريق بعدها لتعبر تمثالا جميلا من تماثيل المعجزات الهندسية وهو خزان أسوان الذى شيد على شكل سلسلة متعاقبة من « الحزامات » منذ عام ١٩٠٤ ، ليغدو الآن أكثر أهمية بعد مولدات الطاقة الكهربية المائية التى اقامتها حكومة الثورة وانتهت من تركيبها فى عام ١٩٦٠ لتنتج طاقة كهربية ضخمة . وتقوم وراء السد طريق جديدة تمتد الى الصحراء الغربية ، وحيدة فى وجودها الذى يرمز الى الامل فى مستقبل أفضل ، الى أن تنتهى بعد مسافة أبعد باتجاه الجنوب الى منعطف يعود بك الى نتوء مرتفع من صخور الجرانيت يطل على النيل .

وهنا يقوم موقع مشروع هندسى هائل ، يكاد يقطع الانفاس من ضخامته يعتبر من معجزات العقل البشرى ، واضخم مانفذ فى العالم الافريقى ـ الآسيوى ، وهو مشروع السد العالى . ويضيق وادى النيل فى هذا المكان ضيقا شديدا ، ولكن السد العالى لن يكون مجرد جدار يغلق الوادى ، اذ سيرتفع نحوا من (٣٣٠) قدما فوق مجرى النهر ، ثم تمتد قمته على جانبى النهر ، فى خط مستقيم الى ان تصل الى الصحراء الصخرية لكى يصبح عرضها نحوا من ثلاثة أميال كاملة . وسيغلق هذا الجدار الهائل من نفسه عند المقاطع العريضة الطبيعية للصحراوين الشرقية والغربية ليؤلف بحيرة هائلة تتسع لمائة وثلاثين الف مليون متر مكعب من الماء ، غامرة الوادى بكامله .

***

وكانت فكرة بناء سد ثان عند اسوان تجول فى مخيلة علماء الطاقة المائية منذ حقب طويلة . وقدلخصت الفكرة فىاقتراحات محددة وضعها

دانينوس فى عام ١٩٤٧ . وعندما شرع الشبان من قادة الثورة فى عام ١٩٥٢ ، فى وضع الخطط اللازمة للتطور الاقتصادى ، عهدوا بالفكرة الى جماعة من الخبراء ليتولوا درسها على جناح السرعة . واستمرت هـذه الدراسات فى طريقها الى أن أعلن الرئيس عبد الناصر فى أكتوبر عام ١٩٥٤ ، القرار بالمضى قدما فى تنفيذ هذا المشروع الذى وصفه بانه حجر الزاوية فى تقدم مصر الاقتصادى (١) . واستقدمت مصر عددا آخر من الخبراء والمستشارين الغربيين الذين تولوا درس المشروع درسا دقيقا مجهدا ووافقوا عليه . وارتحل الدكتور القيسونى وزير مالية مصر فى نوفمبر عام ١٩٥٥ الى الغرب ليفاوض سعيا وراء الحصول على قروض مالية . وكان قد عرف آنذاك أن روسيا عرضت عونها بتقديم مايحتاج اليه المشروع من معدات وأدوات .

وقد نضج مشروع السد العالى فى عقول الخبراء المصريين لا كسد لحاجة واحدة معينة ، بل كمجموعة من الحلول لمجموعة من الحاجات والمشكلات . فعدد السكان يتزايد فى مصر بمعدل نصف مليون انسان فى كل عام ، وهم يعيشون ـ أى أهل مصر كلهم ـ على ستة ملايين فدان من الاراضى المزروعة تؤلف اثنين فى المائة فقط من مساحة البلاد الواسعة كما تظهر على الخريطة . وارى لزاما على لايضاح مايعنيه هذا الواقع ، ان أقيم بعض المقارنات . ففى عام ١٩٥٦ ، كان هناك نحو من ثلاثة وعشرين مليونا من المصريين يعيشون على ستة ملايين فدان من الارض الصالحة للزراعة . وفى هذا العام نفسه كان نحو من (٥٢) مليونا من البريطانيين يعيشون على نحو من (٤٥) مليون فدان من الاراضى الزراعية وبالرغم من هذه الحقيقة ، فقد أنفقت بريطانيا فى السنة نفسها أكثر من بليون جنيه على مجموع المستورد من المواد الغذائية الرئيسية ، مع العلم أن نظامها الزراعى يعتبر من أكثر الانظمة فى العالم كفاية فنية .

ولم تكن مشكلة زيادة المساحات المزروعة فى مصر ، كغيرها من المشكلات التى تواجهها البلاد ذات الطقس المعتدل ، أى مجرد تدريب الفلاحين على الزراعة وتزويدهم بالبذور والمواشى والاسمدة ، انهامشكلة

---

(١) كان الغرب قد تشبع بفكرة خاطئة ، مضللة ، يجمع نشرها بين التعمد وبين البراءة بأن حلم عبد الناصر في انشاء السد العالى لم يقع الا في أواخر عام ١٩٥٥ ليستهوى به عطف الجماهير . جون كونيل ـ البلاد الكثيرة الاهمية . ص٨٥ ـ ٨٦ ـ كاسل ـ لندن ١٩٥٧ .

(المؤلف)

ماء قبل كل شيء ، فى ارض لايكاد المطر ينزل فيها ، او مشكلة جمع مياه هذا الشريان الحياتى الذى ظل يزود مصر بالماء الوف السنين . ولايمكن توسيع الاراضى المزروعة ودفع الخطوط القائمة المستقيمة التى تفصل بين الصحراء والخضرة الى الوراء الا عن طريق المزيد من التسهيلات اللازمة لتخزين مياه النهر العظيم . ويتدفق فى كل عام نحو (٢٨) مليار متر مكعب من الماء من النيل الى البحر المتوسط لتضيع فى لجحه دون اى نفع او فائدة . وفى هذه المليارات الضائعة يقع الحل الجزئى لمشكلة نصيب الفرد فى الاراضى المزروعة ، وهو نصيب يسير فى طريق السوء عاما بعد عام فى مجتمع ريفى كان يتميز بالجهل وبالتقيد بالتقاليد ، الى الحد الذى يجعله لايتسامح مع اية برامج مثالية لتحديد النسل ، الا اذا نجح العهد الجديد فى حمل الفلاحين على الارتفاع بهاماتهم ليفكروا بانفسهم وطبقا لمصالحهم .

ولو كانت المشكلة مجرد ايجاد جهاز مبسط لتخزين المياه لقام حلها فى بناء سلسلة من الخزانات المتوسطة الحجم على نهر النيل . ولكن هنالك عاملا اضافيا آخر وهو ما يطرأ على حجم النهر من تقلبات بين الارتفاع والهبوط سنة بعد اخرى . فهو فى احدى السنين متراخ وواهن، وهو فى سنة اخرى ، مرتفع الى درجة الخطورة ، مما يحمل نحوا من خمسة وعشرين الفا من العمال ، على الوقوف على قدم الحذر والانتباه على ضفتى النهر لان تخطى الماء فوقهما قد يؤدى الى فيضان يغمر نحو ربع الاراضى المأهولة بالسكان فى مصر كلها . وهكذا وجد الخبراء أن الحاجة تقضى بتخزين المياه لا على أساس سنوى بل على أساس « قرنى » ، اى باقامة سد وخزان ، يستطيع أن يضع نهاية لخطر الفيضان من ناحية وأن يجمع الماء الكافى لتامين الحد الاعلى للرى حتى فى السنوات التى يكون فيها منسوب المياه منخفضا . وهذا يعنى اقامة سد عال وضخم حقا .

وقدر الخبراء ان فى استطاعة خزان السد العالى أن يخزن مياها تكفى لرى مليونى فدان آخر بصورة دائمة تضمن استصلاحها الزراعى . وقد يكون هذا الرقم صغيرا بالنسبة الى المشكلة الحقيقية الا انه يعتبر كافيا لزيادة مساحة الارض المزروعة بنسبة الثلث . وقد رأى الكثيرون من الغربيين فى هذه الارقام أيضا أملا ضائعا ، اذ أن عدد السكان فى مصر سيرتفع فى غضون السنوات العشر أو الخمس عشرة التى يستغرقها بناء السد الى حد يجعل حصة الفرد من الارض المزروعة اسوأ مما كانت

عليه قبل هذه الزيادة فى المساحات الزراعية . وبالطبع لم يكن ثمة من الخبراء من ينفى هذا الواقع ، ولكن مشروع السد العالى ينطوى على آمال اخرى ، أكثر ضخامة من مجرد تأمين المياه اللازمة للرى . ففى الامكان استخدام انحدار الماء فى انتاج طاقة كهربية ــ مائية يبلغ مجموع قوتها عشرة آلاف مليون كيلووات فى السنة ، وهو رقم ضخم ، اذا عرف ان مجموع ماأنتجته بريطانيا من طاقة كهربية فى عام ١٩٥٥ ــ ١٩٥٦ لايزيد على الخمسة والسبعين الف مليون كيلووات . وكان من الواضح ايضا ان السبيل الوحيد لخلاص مصر من دائرة الفقر الشريرة المخيفة التى ورثتها الثورة عن العهد البائد هو فى التوسع الصناعى الضخم بالاضافة الى الاستغلال الزراعى الى أقصى الحدود .

ويتبين من هذا أن السد العالى سيؤمن القوة المحركة اللازمة للصناعة . ولكن هذه الصناعة لا تستوعب العمل الاضافى اللازم فى أعداد ضخمة . وليس فى وسعها أن تبدأ فى استيعاب الاعداد المتزايدة باستمرار واصرار فى عمال مصر العاطلين او الذين لايجدون العمل الكافى لهم . واذا ما تحدثت فى هذا الموضوع الى خبراء مصر الاقتصاديين المدربين على النظريات الغربية ، فانهم يتفقون معك فى الرأى ، وان كانوا يضيفون قائلين ان ما يمكن للصناعة أن تفعله فى حل مشكلة الفائض من العمال والفائض من الفقر ، هو انها تزيد فى الدخل القومى بمعدل (٣٣٥) مليونا من الجنيهات ثمرة الخطةالرامية الىالتنمية والتطوير الاقتصاديين .(١) وقال لى احدهم : « ان السد العالى لن يؤمن لكل مصرى من أبناء مصر الآن ولكل مصرى من ابنائها فى المستقبل ، دخلا فرديا أعلى كمجرد دخل ولكنه سيمكننا من أن نؤمن لكل مصرى شيئا من الدخل القومى العام ، وهذه نعمة من الله » . وكل جنيه اضافى يمكن أن ندفعه للاستثمار فى الصناعة أو التعليم أو الاسكان أو الصحة أو الغذاء ، يدفع بالبلاد مسافة أقرب الى نقطة القفز فى الميدانين الاقتصادى والاجتماعى ، التى يبطىء عندها الارتفاع اللولبى لعدد السكان .

كانت هذه هى الحجج والآمال التى تعلقت بالجدار المارد الذى تملؤه الصخور والاسمنت المسلح فوق مدينة أسوان . وكلما تعمق

---

(١) تتضمن قائمة الصناعات الجديدة الفولاذ الذى يصنع الآن فى حلوان ، والاسمدة التى تبنى مصانعها الآن فى أسوان على مقربة من المواد الأولية اللازمة ، والمنسوجات والزجاج والخزف والمحركات ، والكهربيات (الالكترونات) والاحذية وغير ذلك . (المؤلف)

الانسان فى البحث فى موضوعه وفى بحث مشاكل مصر ، بات من الاسهل عليه ، أن يفهم لماذا استأثر المشروع بخيال الناس من رسميين وعاديين . فلقد كان في وسع أفقر الفلاحين وأكثرهم جهلا أن يفهموا ما يمكن لهذا السد الضخم الجديد ان يعنيه . فهو يقتل ايامه . واقفا الى جانب المياه التى تصل الى حقوله من النهر الكبير . وهو يتعلم منذ اللحظة الاولى التى يشرع فيها بمرافقة الكبار من أفراد اسرته الى الحقول كيف يقيم السدود ويفتح الترع ويسيطر على مياهها ويحول اتجاه الترع النيلية الصغيرة والسواقى وكان يعرف من الغرامات التى تفرض عليه احيانا اذا ماأغرق فى استخدام المياه اللازمة لرى حقله ، قيمة هذا السخاء الذى يغدقه عليه النهر العظيم ، وهو يعرف ايضا ان ثمة سدودا قائمة على النيل اليوم ، وانه على الرغم من هذه السدود والخزانات فان كميات هائلة من مياه هذا النهر تنساب دون فائدة عبر بلاده لتصب فى البحر ، وبات السد العالى منذ عام ١٩٥٤ أملا شعبيا عاما .

ولكن تكاليف السد العالى تصل الى حدود اربعمائة مليون من الجنيهات وهو مبلغ أضخم بكثير من موارد مصر المالية ، وسواء أحصلت مصر على الاسلحة التشيكية ام لم تحصل عليها ، فان ثمة مثلا رائعا على الحاجة فى الدنيا الافريقية ـ الآسيوية ، الى المعونة من رءوس الاموال الاجنبية المتنورة ، فهنا يمثل مشروع يحمل طابع أوثق صلات العرفان بالجميل والصداقة التى تقوم بين الحكومات والشعوب المانحة ، وبين الفلاحين الذين يعضهم الفقر بنابه والذين يفيدون من مثل هذا المشروع والاعتقاد بأن هذا المشروع الذى قتل بحثا ودرسا عبر سنوات طويلة من الخبراء المصريين لم يكن أكثر من اهرام جديدة ، افتراض خطر كل الخطورة حقا . والاعتقاد أيضا بأن فى وسع المرء ان يتقدم بعرض علنى ثم لايلبث أن يعود فيسحبه ويسحب معه المعونة المالية اللازمة لانجازه بشىء من الصلافة مع الاعتقاد بأن هذا لايضر الاالمهد الذى يتبنى المشروع انما هو كمن يحاول اللعب بالنار أو المتفجرات . فلم يكن هناك من مشروع آخر فى كل من افريقيا وآسيا أكثر اتصالا وثيقا بالرأى العام الجماهيرى من هذا المشروع .

***

واستمرت المفاوضات بين مصر والبنك الدولى طيلة المدة الواقعة بين فبراير (شباط) وبين يونيو (حزيران) عام ١٩٥٦ ، بينما كانت كرة الكراهية الثلجية مستمرة فى انحدارها ، وتحول الراى العام فى

الكونجرس الامريكى بصورة متزايدة وأكثر اصرارا ضد مصر وضد السد العالى . وكان دعاة الصهيونية وانصارها هناك يضرمون هذه المشاعر من العداء لمصر ، بدعاياتهم وحملاتهم على الرئيس عبد الناصر متهمينه بالشيوعية المقنعة ، وافهم اعضاء الكونجرس من ممثلى الولايات الجنوبية ان زيادة الاراضى الصالحة للزراعة فى مصر ، يعنى المزيد من انتاج القطن ، وهى فى الحقيقة فكرة تتعارض تمام التعارض وبشكل عمودى مع التفكير الاقتصادى المصرى الجديد الذى كان يخشى كل الخشية من استمرار الركون الى القطن كالمورد الاقتصادى الوحيد للبلاد ، وليس من شك فى أن المساحات الاضافية الجديدة التى سيستصلحها ، انشاء السد العالى ستستخدم فى زراعة أى شىء آخر غير القطن ، وراح المستر دالاس الذى كان قد أعلن فى شهر حزيران أن الحياد مفهوم لا أخلاقى وقصير النظر يصغى باهتمام الى مايقوله المسيو بينو عن الرئيس عبد الناصر ، وترك اعتراف مصر بالصين الشعبية اثرا سيئا فى أمريكا أيضا .

واحس سفير مصر فى الولايات المتحدة ، بهذا الشعور العدائى المتزايد فبعث الى الرئيس عبد الناصر فى شهر حزيران يحذره ، ويطلب اليه أن يصل الى اتفاق شامل مع البنك الدولى فى أسرع وقت ممكن فى موضوع القروض الغربية ، واحس عبد الناصر بثقته فى تأييد الرأى العام له ، بعد أن تحررت مصر من القوات الاجنبية ، فوافق على اقتراح سفيره وراح يعلن فى الرابع من يونيو (حزيران) ميزانية مصر الجديدة التى تضمنت زيادة ملحوظة فى نفقات الدفاع ، كما أدرجت مخصصات للمراحل التمهيدية فى مشروع السد ، وبعث محافظ البنك الدولى المستر بلاك فى التاسع من يوليو (تموز) برسالة الى وزير مالية مصر يؤكد له فيها عرض القرض السابق .

ولكن المستر دالاس ، راح يعلن فى اليوم التالى أى فى العاشر من يوليو فى مؤتمره الصحفى ، أن منح مصر القروض بات أمرا غير محتمل واقرت لجنة الاعتمادات التابعة لمجلس الشيوخ الامريكى فى السادس عشر منه لائحة اضافية لموازنة المساعدات الاجنبية لعام ١٩٥٦ ، حظرت فيها على الحكومة استخدام أموال المساعدات فى تمويل مشروع السد العالى دون صلاحية جديدة من الكونجرس ، وراح المستر دالاس يبعث على الفور برسالة الى رئيس اللجنة يعلن فيها رفضه ورفض الرئيس لهذه اللائحة الاضافية ويشير الى «المناورات» والى «المفاوضات الدقيقة»

ومهما عنت هذه الرسالة ، فهناك شيء ثابت ومؤكد ، وهو ان المستر دالاس لم يبعث الى سفارته فى القاهرة او الى الحكومة المصرية ، بأى شيء يرمز الى وجود تبدل فى سياسته تجاه القروض ، ووصل السفير احمد حسين الى الارض الامريكية بالطائرة فى السابع عشر من يوليو وصرح علنا لدى هبوطه منها ، بأن مصر قد قبلت عروض القروض الغربية وانها باتت متلهفة لعقد الاتفاقات الخاصة بها بحيث تستطيع البدء فى العمل فى مشروع السد فور الوصول الى اتفاق مع السودان على توزيع مياه النيل .

واكد ناطق بلسان وزارة الخارجية البريطانية فى لندن ظهر التاسع عشر من يوليو استعداد بريطانيا لتنفيذ عرض القرض ، ولكن لم تمض بضع ساعات على هذا التصريح حتى كان المستر دالاس يستقبل السفير احمد حسين فى مقابلة قصيرة يصدر اثر انتهائها بيانا الى الصحافة يعلن فيه سحب القرض الامريكى ، وذكر البيان أن «التطورات لم تعد مواتية لانجاح المشروع .. وان قدرة مصر على تخصيص مبالغ كافية من مواردها لضمان نجاح المشروع ، قد اصبحت موضع الشك اكثر مما كانت عليه عندما قدم العرض » . وانتشرت الانباء فى مثل سرعة البرق فى جميع انحاء العالم .

وكان المستر دالاس قد قضى الشطر الاكبر من حياته فى مناصب دبلوماسية عالية ، وكان من المعروف انه كثيرا مايفضى ببيانات شفوية مرتجلة وغير مدروسة ولكن بلاغاته الخطية تكون مدروسة ادق الدرس ، وكان يعرف ، كما يعرف اى مبتدىء فى السلك الدبلوماسى ، أن سحب عرض بقرض لمشروع تنمية ضخم سبق ان اعلن وقدم بصورة رسمية الى اية حكومة من الحكومات ، يعتبر قضية دبلوماسية فى منتهى الدقة ، واذا صح ماأكده فى بيانه الذى اصدره فى التاسع عشر من يوليو ، من ان حكومة الولايات المتحدة الامريكية ترغب رغبة قاطعة فى الحفاظ على العلاقات الودية الصادقة مع حكومة مصر وشعبها ، فان من المفروض فى مثل هذه الحالة ان يكون قد اجرى مع القاهرة محادثات سرية سابقة لسحب العرض واتفق معها عليه .

ولكن المستر دالاس لم يفعل هذا ، وكل مافعله هو انه سمح لمصر علنا أولا أن تعلن أنها قبلت عروض القرض بكل ماتنطوى عليه من شروط وانه بعد هذا الاعلان من جانب مصر لا قبله ، راح يعلن ثانيا الى العالم سحب العرض دون أن يبلغ القاهرة بعزمه هذا ، او حتى يتيح الوقت

للمبعوث المصرى لابلاغ القاهرة بقراره هذا ، ثم صاغ هذا البيان ثالثا عن سابق عمد واصرار فى عبارات لامثيل لها فى التاريخ الدبلوماسى تنطوى على النقد واللوم لحكومة مصر وأوضاعها المالية .

ولم تكن مصر وحدها فى السخط الفورى على هذا الاجراء ، فلقد استنكر نهرو ـ الذى كان يحل ضيفا على عبد الناصر آنذاك فى طريق عودته الى بلاده من بريونى ـ هذا العمل الامريكى استنكارا ينطوى على الغضب والسخط ، واعلن الساسة ورجال الصحافة فى طول الدنيا الافريقية الآسيوية وعرضها ، انهم يعتبرون هذا العمل مهينا ، كما يوضح أن معونة الولايات المتحدة مشروطة تخدم السياسة الامريكية ، ووصف رئيس وزراء لبنان قرار دالاس بأنه «اهانة موجهة الى العرب جميعا» كما اعتبرته صحافة الباكستان والهند واندونيسيا «بلطجة دبلوماسية مكشوفة» ولم يمض يومان بالفعل حتى كانت التقارير الصحفية الموثوقة من واشنطن تؤكد صحة هذا النعت ، وتضيف أن هذه الغاية هى التى دفعت دالاس بالفعل الى اتخاذ خطوته ، وان لاشأن لمزاعمه عن الاقتصاد المصرى بهذا الحافز ، وراح الناطقون بلسان وزارة الخارجية الامريكية يعلنون لرجال الصحافة ، أن «بلادا اخرى» غير مصر يجب أن تعتبر من هذا الحادث وتدرك أن ليس فى وسعها «ابتزاز الامتيازات من الولايات المتحدة» وكان هناك حديث سائر عن أن دالاس أراد أن يثأر من مصر للسياسة الحيادية التى تتبعها ، أما الناطقون بلسان البنك العالمى ، فقد ازعجهم هذا التطور كل الازعاج ، ولم يستطيعوا أن يخفوا وجهة نظرهم فى عدم وجود أى عامل جديد يدعو الى تغيير جدارة السد العالى بالعون أو قدرة مصر على تمويل حصتها فى تكاليفه (١) .

ولايمكن وصف النظرية الغربية الرسمية التى استند اليها الغرب فى رفض تقديم العون الى مصر ، بحجة أنها كانت تحاول « اللعب على الحبلين مع الشرق والغرب» الا بأنها نظرية تنطوى على الميل الى المشاكسة. فعندما قدم الغربيون عروضهم لاول مرة ، كانوا يعرفون تمام المعرفة أن موسكو كانت تحاول الصيد فى مياه «السد العالى» وكان الاطراف الثلاثة يعرفون أيضا أن المنافسة قائمة فى هذا الموضوع بين الغرب والشرق . وكان ثمة دليل بارز ومهم تماما ، وهو أن مصر منذ البداية أظهرت ايثارا

---

(١) تقرير لصحيفة التايمز اللندنية من واشنطن عدد الواحد والعشرين من تموز (يوليو) ١٩٥٦ .

واضحا للعون الغربي ، وهو ايثار عرفته الدول الغربية وكانت سريعة فى محاولة استغلاله ، ويمكن القول بأن كل طرف من الاطراف الثلاثة كان يحاول ان «يضرب» الطرفين الآخرين بعضهما ببعض ليفيد هو من ذلك ويصدق عليهم ماقيل عن مبعوثى اوستينوف من انهم « كانوا يعرفون ان الآخرين يعرفون انهم يعرفون ماذا يفعل الآخرون » ولكن اتهام مصر وحدها من جانب الغرب ، كان تضليلا ترك اثره على اى حال فى الراى العام الغربى .

وبدت واشنطون فى هذا القرار الغريب ، وكأنها قد اتخذت زمام المبادرة من جانبها ودون استشارة احد ، ولا ريب فى ان البيان الذى صدر عن وزارة الخارجية البريطانية ظهر التاسع عشر من يوليو ، مؤكدا استعداد بريطانيا لتنفيذ عرض القرض ، قد ابرز الحقيقة الواقعة ، وهى أن سحب بريطانيا لعرضها فى اليوم التالى ، لم يكن الا نتيجة لا مناص منها ، وان انطوت على البرم والدهشة ، لخطوة امريكا فى سحب عرض مشترك ، مترابط ، فليس ثمة من شك فى ان السحب لم يكن مشتركا ونتيجة قرار واحد ولا ريب ايضا فى ان كل امر يتعلق بهذا الموضوع انما صدر عن واشنطن وحدها ، وكنتيجة لذلك ، فقد رافقت موجة الغضب العربى على أمريكا موجة من السخط عند الرأى العام البريطانى لما أثارته الحكومة الامريكية من ازمة دولية كبيرة ، ولاشك فى ان الحقائق تتحدث عن نفسها فى هذا الموضوع .

ولكن هل كانت هذه هى الحقيقة ؟ وهل كانت خطوة دالاس مفاجأة حقا لحكومة ايدن ؟ على الرغم من أن ازمة السويس الاصلية قد طغت طغيانا كاملا على كل شىء وحتى على الجذور ، والعوامل التى أدت اليها ، الا ان ثمة اسبابا رائعة اليوم تدعونا الى الشك بكل ماقيل عن سحب العروض المتعلقة بالسد العالى . وقد وجدت هذه الاسباب قبل عام ١٩٦٠ اى قبل صدور مذكرات ايدن ، ولكن ايدن جاء بعد ذلك متطوعا فى الكشف عن معلومات جديدة لاريب فى أنها غريبة كل الغرابة ، فهناك مجموعة ضخمة من الاسرار والغرائب فى موضوع السويس تحتاج الى تحليلنا و «غربلتنا» ، ولكن يستحيل علينا ، على أى حال أن نمر بالغرائب التى تتعلق بجذور الموضوع واصوله مر الكرام دون ان نابه بها ، فلقد اعترف ايدن فى مذكراته بأن حكومته قد تبادلت «فى اواسط شهر يوليو» اى قبل التاسع عشر منه وجهات النظر مع واشنطن فى موضوع القروض، وقد وجدت أن وزارة الخارجية الامريكية تشترك معها فى شكوكها وانها قررت وجوب سحب عرض القروض . وعلينا أن نلاحظ والحالة هذه

فورا بأن البيان الصادر عن وزارة الخارجية البريطانية فى التاسع عشر من يوليو ، اما أن يكون مجرد خداع علنى متعمد للتضليل ، أو انه صادر عن موظف كان يجهل ماتوصلت اليه الوزارة من قرارات .

ولكن ايدن لم يكتف بهذا ، بل مضى الى أبعد من ذلك ، فهو يؤكد انه بالرغم من اتفاقه مع واشنطن قبـل منتصف يوليو على أن عروض القروض يجب ان تسحب الا أنه .. يقول :

« وكنت افضل التريث فى هذا الموضوع الى اطول مدة ممكنة ، والا أصل الى النتيجة بسرعة ، لا سيما ، أنه لم يكن هناك من داع للاسراع، لكن الامور لم تجر لسوء الحظ كما شئت ، اذ أحست الحكومة المصرية بلا ريب بتردد الغرب واحجامه عن الوعد بتقديم مبالغ أكبر لتنفيـذ المشروع ورأى المستر دالاس ــ فى التاسع عشر من تموز (يوليو) لاعتبارات تمت الى موقف مجلس الشيوخ من المساعدات الخـارجية ــ نفسـه مضطرا الى ابلاغ السفير المصرى الغاء العرض السابق . وقد أبلغنـا بالقرار دون أن نستشار فيه . وهكذا لم تتح لنا الفرصـة لنقـده أو التعليق عليه .

« وقد أسفنا لان هذا الاجراء تم بهذه الصورة المباغتة ، ولم يعط بلدينا الفرصة للتوفيق بين أسلوب التنفيذ وتوقيته ، مع انهما عاملان لايقلان أهمية عن القرار نفسه » (١) .

وهناك سلسلة كاملة من التناقضات والانحرافات فى هذا التأكيد .

واول هذه التناقضات «ايثار» ايدن ، التريث فى سحب العرض أطـول مدة ممكنة ، وهو يورد هذا التأكيد بعد أن يشرح باسهاب وتفصيل كيف أن «أصدقاء» بريطانيا فى الشرق الاوسط ظلوا شهورا طويلة ، وفى طليعتهم نورى العراق ، «يشكون» الى الغرب من هذه العروض بالقروض ، وكانت شكاواهم واضحة اذ أن ايدن يعرضها بجلاء ويعترف بأنه قـد وافقهم عليها حتى أن قرار سحب العرض قد أتخذ تلبية لهـا ، وكانت هـذه الشكاوى تلخص فى أن بريطانيا تحطم «أصدقاءها» المخلصين عن طريق الظهور جهارا بمظهر الاستعداد لتقديم قروض هائلة لعدوهم وعدوها الصريح ، وكانت النقطة الجوهرية فى هذه الشكاوى ، أن العروض علنية .

---

(١) مذكرات انطونى ايدن الجزء الثانى ، تعريب المعرب .

وليس ثمة من ريب فى أن هذه الحجج كانت متفقة مع المنطق ولكن ماينبو عن المنطق تماما هو قول ايدن ـ وهو شيء شاذ ـ انه اتخذ قراره بالتسويف أطول وقت ممكن ، ويؤلف هذا الشذوذ فى القول بوجود العرض القائم علنا خطرا على نورى السعيد ، ومع ذلك فقد قرر ايدن الا يتم سحب العرض الا بعد أمد طويل .. اذ ليس ثمة من حاجة الى العجلة ، وهل كان من الممكن أن يرضى نورى السعيد وأن يهدأ الا اذا قيل للعرب ، علنا وبسرعة بأن عروض القرض قد الغيت وابطلت ؟ واية فائدة كان يحتمل أن يجنيها نورى اذا اكتفت بريطانيا بأن تتخذ قرارا غير مكشوف بعدم تنفيذ العرض ؟ فنورى ورفاقه فى حاجة الى قطيعة علنية بين الغرب ومصر ، ولكن ايدن يقول انه لم يكن يرى ضرورة للسرعة فى هذه القطيعة .

أنا لاارى ذرة من المنطق فى كل هذا ، وان كان هناك ماهو اسوأ منه ، فقد اتضح منذ شهر يونيو لكل من يرقب الاحداث ان قضيةالقرض للسد العالى ، كانت تسير قدما نحو الذروة وان مصر توشك على اتخاذ قرار قاطع ، وكان من الواضح وضوح النهار من الليل ، انه اذا كان ايدن قد قرر عدم تنفيذ العرض ، فان من واجبه نظرا لهذه الذروة التى كان يسير الموضوع نحوها والتى كان ايدن يعرفها ، ان يطلب الى مصر ، الا تفضى بأى بيان علنى عن قرارها بقبول العرض ، ولو تجاهلنا لحظةواحدة البعد الاول عن المنطق ، الذى سجلناه قبل قليل ، ولو صدقنا كلمات ايدن فى ظاهرها ، لتبين لنا أن ليس فى الامكان «التسويف والتريث»اذا كانت مصر باعلان قرارها ، ستفرض على بريطانيا «تحديد موقفها» . وكان على بريطانيا والولايات المتحدة ، أن تقوما هما بالخطوة الاولى ؛ اذ لو كانت مصر ستعلن قرارها بقبول العرض ، فان هدف ايدن من التسويف سيضمحل من نفسه وينهار ، ذلك لان مصر ستكسب عطف الكثيرين بدلا من أن تفقد هيبتها امام العرب .

ونحن مع ذلك نعرف معرفة قاطعة اكيدة ، أن ايدن ودالاس لم يطلبا قط من القاهرة الامتناع عن اصدار بيانات رسمية فى موضوع مفاوضات القرض ، ونحن لانعرف هذا من المصادر البريطانية وحدها ، بل نعرفه ايضا من الشهادة المشفوعة باليمين التى قدمها فيما بعد السفير الامريكى فى القاهرة آنذاك ، والتى ذكر فيها انه لم يسمع أبدا

بقرار سحب العرض أو بأى اعلان عنه الا بعد أن قرأ القرار نفسه فى صحف القاهرة فى التاسع عشر من يوليو (١) .

ولقد خول عبد الناصر سفيره أحمد حسين فى واشنطن أن يعلن قبول مصر للعروض ، ثقة منه بأنه مهما سارت أجواء الرأى العام الغربى سيرا غير موات لمصر فان العروض ستظل قائمة .

وماذا نستنتج من كل هذا ؟ اننا نستنتج أن ايثار ايدن الذى ذكره للتريث واطالة الامر امدا آخر ، لايتفق مطلقا مع الاسباب التى ذكرها هو لسحب العرض بالاضافة الى الحقيقة الواقعة وهى انه لم يتخذ أى اجراء احتياطى مهما كان بدائيا للتأكد من قدرته على التسويف والتريث وهناك ماهو اسوأ فى هذه القصة الغريبة ، فهو يؤكد انه حتى تلك اللحظة التى علم فيها فى التاسع عشر من يوليو بما فعله دالاس . كان لايرى «سببا للعجلة» فى اصدار قرار عن طريقة سحب العرض وتوقيته ، وأن الفرصة لم تتح له للتشاور مع المستر دالاس قبل أن يعلن الاخير قراره ، ولا ريب فى أن السير انطونى لم يتمكن من وضع هذا التأكيد خطيا الا بعد أن حذف عامدا متعمدا من روايته الحقائق المتناهية فى الدقة والتى وقعت حوالى منتصف يوليو .

لقد تعمد ايدن أن يحذف من روايته ان مصر قد اعلنت قبل يومين من بيان دالاس قبولها عروض الغرب ، وانها طلبت الاسراع فى اتمام اتفاقات القرض ، كما اصرت على عقد اجتماع عاجل مع المستر دالاس . وقد عرفت هذه الحقائق كلها فى السابع عشر من يوليو ، ونقلتها البرقيات الصحفية عبر المحيط الاطلسى ، هذا اذا افترضنا أن جميع اتصالات وزارة الخارجية البريطانية قد تعطلت لسبب غريب وغير معروف ، ولا يعقل أن يكون السير أنطونى ايدن قد ظل جاهلا حتى صباح الثامن عشر من يوليو أن الحاجة قد باتت ماسة الآن الى العجلة فى اتخاذ قرار عن الطريقة التى يلغى فيها العرض الذى قبلته مصر ، وأن هذه «العجلة»

---

(١) شهادة المستر بايرود امام لجنة العلاقات الخارجية لمجلس الشيوخ الامريكى فى دورة الكونجرس الخامسة والثمانين ، وكان بايرود قد اختلف مع دالاس فى منتصف يوليو ، لانه كان كما اتهمه الوزير « كثير التأييد لعبد الناصر » وتلقى شيئا من التعنيف فى السادس عشر من يوليو ، ولكن الرجل كان موجودا فى القاهرة ، وكان يعرف كل ما يعرفه الرئيس عبد الناصر ، ولم يكن على علم بقرار سحب القرض قبل التاسع عشر من يوليو . (المؤلف)

تقضي باجراء مشاورات سريعة مع المستر دالاس قبل أن يجتمع هذا الى سفير مصر ومع ذلك نرى أن السير انطونى يدعى بأنه لم يعرف شيئا من كل هذا .

ولكن ماكان يجهله رئيس الوزراء كان معروفا لكل من يقرأ صفحة الانباء الخارجية فى «التايمز» اللندنية او كل من يستمع الى نشرات أخبار الاذاعة البريطانية . وحتى لو صدقنا رواية السير انطونى عن عدم رغبته فى اعلان الانسحاب ، فقد اتيح له يومان كاملان للتشاور معواشنطن والوصول معها الى شكل مشترك من الرد على قبول مصر العلنى وهل من المعقول أن يصدق المرء أن بريطانيا فى مثل هذه القضية التى اعترف رئيس وزرائها ايدن فيما بعد انها كانت تثير شكوكها وشكوك أصدقائها ظلت تقف موقف عدم الاهتمام تجاه الانباء التى صدرت فى السابع عشر من يوليو عن قبول مصر للعرض ؟ وهل من المعقول الا تكون بريطانيا قد رات أن الحاجة ماسة الى اتخاذ اجراء تجاه هذا التطور ؟ وهل من المعقول ان رئيس وزرائها ظل بعد هذا التطور ، يشعر بأن فى الامكان الوقوف موقف التريث من قرار سحب العرض الذى اتفق عليه وان ليس ثمة من حاجة الى استعجال البت فى القضية ؟

حقا انها لقصة ضعيفة تلك التى أوردها السير انطونى ، ولاريب فى أن قصته على النحو التى اوردها فيه ، قد ضاعفت مئات المرات الشكوك القائمة والتى لها مايدعمها من أسس صحيحة من أن ايدن وزملاءه من أعضاء الوزارة البريطانية لم يكونوا أولئك الشركاء الابرياء الذين عرتهم الدهشة ولم يستشاروا فى مهزلة سحب العروض (١) ، ترى اذن ماالغاية التى توخاها ايدن فى ايراده قصته على هذا النحو ؟ وما الذى توخى أن يخفيه من حقائق ؟ ولماذا زعم فى الواقع منذ بداية ازمة السويس حتى بلوغها الاوج من العنف ، زعما باطلا ان الفرصة لم تتح له للتشاور مع الولايات المتحدة ؟

يصعب على المرء الا يثير هذه الاسئلة الهائلة ، التى قد تنطوى على

---

(١) كتاب « ازمة الشرق الاوسط » لونيث وكالفاكوريزى .. اذ يقول المؤلفان.. « ما زال المدى الذى استشارت فيه امريكا حليفتها بريطانيا في موضوع شكوكها وحقيقة الخطوات التى اتخذتها بريطانيا لتوسيع هذه المشاورات من الاسرار الغامضة التى احاطت بالازمة !! ويؤكد روسكو دراموند وجاستون كوبلفيز في كتابهما « نحو الشفير » ان دالاس قد تلقى تأييدا كاملا من ايدن . (المؤلف)

ضرورة اعادة النظر كليا وبصورة جذرية فى جميع الاصول المتعلقة بأزمة السويس ، ولكن لنكتف فى هذه المرحلة من البحث بالحفاظ على هذه الشكوك قائمة بكل مافيها من مفاز ومعان ، وارى لزاما علينا أن نتقدم مرحلة اخرى ، قبل الرجوع الى تلك الاسئلة فى الكشف عن « الاسرار الاساسية لقضية السويس » وارى لزاما علينا ايضا ان نتوقف لنستعرض تاريخ الشرق الاوسط بكامله ، فى المدة التى سبقت بكثير السادس والعشرين من يوليو .



وراح الكثيرون يتحدثون عن نتائج هذه «الضربة» التى وجهها الغرب الى الرئيس عبد الناصر ، ويتوقعون تطورات خطيرة ، فلقد كان عدد كبير من العرب ، يعتقدون على الرغم من غضبهم لهذا العمل من الغرب وقد تأثروا بذكريات العهد البائد ، أن ليس فى وسع أى زعيم عربى ، حتى ولو كان عبد الناصر بشعبيته الهائلة أن يصمد لمثل هذه الضربة القوية ، المتعمدة من جانب الدولتين الغربيتين الكبيرتين (١) لقد كانت ضربة من الضربات التى كثيرا ما أطاحت بالحكومات فى الوطن العربى اما بالاستقالة المصحوبة بالخجل ، أو بالضغط الطاغى من الدولة الغربية المتحكمة . . وشعر العرب فى العشرين من تموز (يوليو) فى كل مكان ، ان كل ماحققوه منذ عام ١٩٥٢ فى طريق الدفاع عن الذات ضد الدول العظمى وان كل مامثله لهم الرئيس عبد الناصر من معانى الكرامة والتحدى للاستعمار ، قد بات معرضا للخطر ، واختلطت صيحات الغضب والنقمة فى كل مكان بشىء من الاذعان والتسليم بأن هذا هو ديدن الغرب منذ القدم .

وكانت هناك مفارقة غريبة فى هذا الارتكاس العربى العام للموقف الجديد وهى مفارقة التفكير تماما فى حدود مايفكر فيه الساسة الغربيون أى الاذعان والتسليم بالمواقف التى كيفت السياسة الغربية ولاسيما

---

(١) لم تكن هذه المخاوف التى أعرب عنها المؤلف ، والتى لا شك في وجودها آنذاك ، قائمة عند أبناء الجيل العربى الصاعد المؤمن بقيادة الرئيس عبد الناصر ، وانما كانت ماثلة في خواطر أبناء الجيل القديم ، الذى ألف تحكم المستعمر وسيطرته ، أو بعض أبناء الجيل المخضرم الذين لم يكونوا من صلابة الايمان « بالشخصية العربية المستقلة » في درجة تمكنهم من استبعاد هذه المخاوف والايمان بقدرة الجيل العربى الجديد الذى يمثل الرئيس عبد الناصر طليعته القيادية على تحدى الغرب والوقوف منه الموقف الصحيح الذى تمليه الكرامة القومية . — المعرب —

البريطانية منها فى الوطن العربى وسيرتها مدة طويلة ، وارى ان هـذه النقطة مهمة كل الاهمية اذا أردنا أن نفهم ماعنته الايام التالية لا بالنسبة الى تاريخ العلاقات العربية الغربيـة فحسب ، وهى أيام تؤلف نقطـة حاسمة لاردة عنها ، بل بالنسبة الى ماكان يسيطر على جماهير العرب من امزجة وآراء .

وقد غضب الرجل الذى تركز عليه الاهتمام فى الايام القليلة التى تلت التاسع عشر من يوليو (تموز) ورفاقه غضبا شديدا ولاسيما بعد ان تواترت التقارير اليه عن حقيقة ماكان يفكر به دالاس ، ولكن رد فعـل عبد الناصر والاتجاه الذى سارت فيه أفكاره ، كانا متوقعين كل التوقع عند كل من عرف مصر والتاريخ المصرى بحيث يمكن اعتبارهما انعكاسا . فهو وحكومته جادان كل الجدية فى موضوع السد العالى ، وهما يريان ان من الواجب ان يبنى بأى شكل من الاشكال ، هـذا اذا ارادت مصر الخلاص من هذه الدائرة الشريرة من الفقر وتزايد السكان الى حد التفجر. واتجه التفكير الى الناحية التى يمكن العثور على المال فيها ولا سيما من النقد الاجنبى اللازم لتمويل المشروع . هذا مجرد اعتبار ولكنه لم يكن الاعتبار الاوحد .

واحس عبد الناصر ، ان حكومته قد اهينت اهانة متعمدة ، مباشرة وعلى نطاق عالمى ، ولكن الاهانة لم تكن موجهة الى الحكومة فحسب بل الى مصر كلها ، والى شعبها بل الى كل شعب كشعبها يتعرض للضغط والاهانة بشكل لايطاق ولايحتمل ، وراح يفكر .. ترى كيف يجب ان يكون رده على هذه الاهانة ؟ وكيف يمكن له ان يبرهن على ان العصر الذى كان يتقبل مثل هذا الضغط قـد ولى وانقضى الى غير رجعـة ؟ وكيف يستطيع ان يبصر العرب والدول الكبرى بهذه الحقيقة ؟ سأعود فى فصل لاحق الى التحدث عن تفكير الرئيس عبد النـاصر ورفاقه ، وأمزجتهم العاطفية بشكل اكثر استفاضة ، ولكننى ارى ان اكتفى هنـا بالقول بأن هذه الافكار كانت تطغى على الرئيس وهو يهبط من طـائرته عائدا الى القاهرة من بريونى ليواجه بهذه الخيالات الغاضبة عن السد العالى .

كان سحب القرض بالنسبة الى مصر ، صورة تعكس اوضاع مصر فى تاريخها طيلة المائة سنة الماضية ، كما كان يتعلق بنهر النيل ، مصدر الحياة لها ، ومحور قلقها واهتمامها الوف السنين ، ولقـد عاشت مصر منذ عام ١٨٥٠ ، أى منذ بدات المفاوضات لشق قناة السويس ، تحت وطاة الضغط المالى الاجنبى ولاسيما عن طريق القروض التى تهدف الى

تمويل المشاريع العامة الرئيسية ، وقد جاء احتلال مصر نفسه فى عام ١٨٨٢ ثمرة هذه التورطات المالية ، وتم تنفيذ الاحتلال عن طريق قناة السويس وقد انتهى هذا الاحتلال قبل شهرين ، اذ غادر آخر جندى بريطانى منطقة القناة ، واتجه تفكير القاهرة الرسمى الى قناة السويس فورا فى تلك الساعات الغاضبة التى تلت التاسع عشر من يوليو ، تماما كما يتجه تفكير البريطانيين حتما الى وستمنستر ولندن ونهر التيمز والقناة الانجليزية عندما تتراءى أمامهم صورة بريطانيا .

وقد طالب الوطنيون المصريون منذ سنوات طويلة حتى قبل أن يولد الرئيس عبد الناصر ، بعودة شركة قناة السويس الى مصر (١) وكانت القناة تمثل منذ حقب طويلة للمصريين رمزا بارزا للضغط الخارجى والاستغلال المالى والاقتصادى ، وكانت الحقائق المتعلقة بها بمثابة «أوراد صوفية » تتكرر على السنة المصريين من ابناء جيل عبد الناصر ، وكانت مصر قد ساهمت بنحو من نصف رأس المال الاصلى وتكاليف شق القناة على صورة اسهم وعمل مجانى وتسهيلات ، ووقعت الخزانة المصرية نتيجة ذلك تحت أعباء ديون للمصارف الاوروبية تستوفى (١٢) فى المائة كفائدة سنوية على المبالغ الاسمية التى أقرضتها لمصر والتى لم تدفع لها فى الحقيقة الا ثلاثة أرباعها أى مجرد سبعة ملايين ونصف المليون من الجنيهات من مجموع عشرة ملايين تستوفى عليها كلها فائدة سنوية قدرها (١٢) فى المائة . وكانت مسئولية حكام مصر عن هذا الابتزاز وامتصاص الدماء ، لاتقل من ناحية استخذائهم عن مسئولية أرباب المصارف من الاوروبيين الذين كانوا يوالون الضجيج والصراخ فى لندن وباريس مطالبين بفوائد اموالهم .. ولقد كان الضعف الداخلى فى مصر ، ومسئولية الحاكمين عنه ، فى رأى أبناء حقبة الخمسين ، هما السببين اللذين اديا الى ثورة عام ١٩٥٢ ، ولكن الذكريات الخارجية لم تنته بقيام الثورة ، بل ظلت قائمة كرمز واضح ، ولقد دون حجة بريطانى فى الموضوع مايلى :

« لقد أرغمت مصر على الاسهام اسهاما ضخما فى منح هذا الامتياز وفى الاعمال الانشائية التى جرت لشق القناة ، دون أن يسمح لها بحصة فى المشروع ، ولا ريب فى أن ماعاناه فلاحو مصر من أعمال السخرة ابان

---

(١) كانت هذه المطالبة موجودة منذ احتل البريطانيون مصر عام ١٨٨٢ ، ولكنها بلغت ذروتها فى عامى ١٩٠٩ و ١٩١٠ عندما اقترحت الشركة اطالة امد امتيازها الى مابعد عام ١٩٦٨ . — المؤلف —

شق القناة ، ومن ابتزاز الاموال منهم فيما بعد لدفع الفوائد على ديون القناة ، تؤلف دينا معنويا فى عنق أوربا لمصر ، لم نسمع أحدا يتحدث عنه فيما بعد » (١) .

ومكن تدهور مصر المالى وسيرها فى طريق الافلاس دزرائيلى فى عام ١٨٧٥ من شراء حصة مصر البالغة (٤٤) فى المائة من اسهم شركة القناة بمبلغ اربعة ملايين من الجنيهات ، مع أن قيمتها الاسمية الاصلية وحدها كانت نحوا من (١٦) مليونا . ومنذ ذلك التاريخ لم يعد من حق مصر قانونا أو ماليا أن تأخذ اية حصة من ارباح الشركة التى أدى ازدهارها الى تحولها الى مصدر من اكبر مصادر جنى الارباح فى الميدان المالى العالمى ، اذ بلغت ارباحها فى عام ١٩٥٦ نحـوا من عشرين مليونا من الجنيهات فى السنة ، وقد طبق مديرو الشركة وبينهم الحكومة البريطانية التى تسيطر على حصة مصر السابقة من أسهم الشركة ، نص مرسوم تسجيل الشركة تطبيقا ينطوى على أكثر عمليات الاستغلال قسـوة فى القرن العشرين للصفقات المالية التى عقدت بطريق القسر فى القرن التاسع عشر . وتظل هناك حقيقة ماثلة وان صعب تصديقها ، وهى أن مصر ظلت حتى عام ١٩٣٧ ، لا تتلقى أى دخل مهما كان ضئيلا من عبور السفن لاراضيها . ولم يقتصر وضعها على رؤية هذا الدخل العظيم ينساب الى الخارج عاما بعد عام فحسب ، بل كانت تجد أن بواخرها التى تحمل العلم المصرى ترغم على دفع رسوم المرور فى أرض مصرية الى شركة يملكها الاجـانب .

ولم تفكر الشركة باصلاح هـذا الوضع الشاذ الا بعد عام ١٩٣٧ وبعد ضغط شديد تعرضت له . وسمح لمصر بموجب اتفاق عام ١٩٤٩ الذى سبق نهاية الشركة ، بأن تتقاضى سبعة فى المائة من دخل الشركة السنوى . واعتبرت الشركة هذه النسبة ضخمة للغاية . ولكن لايحتاج المرء الى أن يكون مصريا ليدرك مدى شعور المصريين تجاهه . وقد نشأ الرجال من أمثال عبد الناصر فى بلاد كان رجال المال الاجانب القابعون فى أجنحتهم الخاصة فى فندق شبرد الأسطورى فى القاهرة ، والى جانبهم أزرار ثلاثة يستدعون بوساطتها الناس لخدمتهم ، لا يتورعون عن ابداء مثل هذه الاشارات من المن على مصر ، بحقوقها . ولم يكن هؤلاء الناس الذين يهرعون لخدمة هؤلاء الماليين والذين يطلق عليهم الاجانب اسـم

---

(١) كتاب السير جورج يونج « مصر » ـ لندن ١٩٢٧ . ـ المؤلف ـ

« أبناء البلد » زراية واستهانة ، الا أبنــاء الشـعب الذى يمت اليـه عبد الناصر .

وقد طافت جميع هذه الذكريات فى مخيلة الرئيس فى العشرين من تموز (يوليو) عندما أثار هذا العمل الذى قام به الغرب والذى لا مثيل له ولا سابقة فى العلاقات الدولية . وعلى الرغم من أن هـذه الذكريات مؤلمة للكثيرين من أصحاب الاحاسيس الوطنية القوية . الا أن من الضرورى أن نحاول التسلل الى عقول العرب لنفهم ردود الفعل التى استثارتهـا الانباء التى أعلنها الرئيس بعد ستة أيام . وعندما تحـدث الرئيس من على نفس المنبر الذى جرت محاولة اغتياله الفاشلة عليه قبل عامين ، أثار دهشــة واعجاب جميع الناس حتى خصـومه من الاخـوان المسلمين والشيوعيين . ولم يكن فى وسع أى مصرى ، مهما كان اتجـاهه فى تلك اللحظة الا أن يعجب بشجاعة هذا القائد وجراته ، وأن يرفع رأسه عاليا معتزا بكرامته . وكان قراره بتأميم شركة قناة السويس ، مصريا فى صميمه ، متأصل الجـذور فى تاريخ بـلاده . مثيرا لدهشة مواطنيـه لا بالنسبـة الى القرار نفسه بل بالنسبة الى هذه الشجاعة العظيمة التى تمثلت فى جراته .

وأنصتت جماهير المثقفين ، التى استفزها سـحب الغرب لعروضه الى القرار والدهشة تغلبها ، وعندما تمثلت أمامهم جميع المعانى التى ينطوى عليها قرار الرئيس ، لم يستطيعوا أن يكبتوا ابتسامة لاحت على وجوههم ، وهـزة تحركت بها رءوسهم وكان لسان حالهم يقول ... « هذا الرجل . لاندرى كيف فعل مافعل ، ولكنه فعل حقا مالم يستطع أن يفعله أى رجل من قبل » . وعندما تبين بعد أسبوع ، مافى رد الفعل الغربى على القرار من عنف ينذر بالخطر . لم يستطع حتى أولئك الذين تحولوا الى النقد ، اخفاء مشاعرهم ، بالاعتزاز بهذه الخطوة التى اعتبرت نقطة تحول فى تاريخهم .

وتفجرت مصر كلها بحماسة منقطعة النظير تأييـدا لعبد الناصر الذى لم يكن قد سبق له أن تغلغل بمثل هذه القوة من قبل الى نفوسهم وشغاف قلوبهم اذ (جلفن)(glavanized) أرواحهم (الجلفنــة تعنى المعالجة بالكهرباء الكيماوية) واستفز مثل الكهرباء ، الكبرياء التى طالما حنوا الى التعبير عنها بقامات منتصبة . وقد لايكون من الغلو فى شىء أن استخدم مثل هذه العبارات لاشرح هـذه اللحظة التاريخية حقا ، فى بلاد عريقة جثم عليها الشقاء طويلا ، وألفت من الغرب تعبيرات الزراية والامتهان .

ومن التضليل كل التضليل ، بما فيه من اخطار ، ان يقال ان هذه الاستجابة العامة والعارمة لخطاب التأميم ، كانت مجرد ثمول ولدته المواطف الدهمائية او نزعات الكره للاجنبى . فلقد مست الدول الغربية ، عن جهل او عن سابق تعمد واصرار ، كل مافى مصر من اعصاب حساسة ، كالفقر والنبل والحياد والضغط المالى . وقد حدث كثيراً من قبل ، وطيلة حقب طويلة ، أن مصر لم تكن تتوقع أن تخرج من هذا الوضع من تحمل الاذى والاذلال .

وكشف القائد الغاضب فى الوقت نفسه عن مدى « تجاهله » لما يتركه التعبير عن احساسات بلاده ، وعن قوة الكبرياء الضخمة التى تسيطر عليها ، وذكرياتها التاريخية ، والخوف « المجلفن » من بريطانيا وفرنسا على الراى العام الغربى . ولم يكن خطاب عبد الناصر بالطبع مرضيا لمسامع الغرب ، وكانت اللحظة التى القى فيها هذا الخطاب من تلك اللحظات التاريخية التى يعمل فيها ويفكر ويتحدث كمصرى صميم من ابناء ريف مصر لا كرئيس لجمهورية بلاد لها مركزها السوقى (الاستراتيجى) المهم الفت سلطاتها الماضية ان تضع بريطانيا وفرنسا نصب اعينها ، وهى تتحدث علنا الى جماهير شعبها . وبدا الضابط المتواضع الخجول ، ذو الثمانية والثلاثين عاما يكتشف وهو فى منتصف خطابه ، الطريقة الصحيحة التى يجب ان يتحدث بها من فوق منبره الى شعبه هو لا الى الآخرين . وهكذا عندما وصل الى هذه المرحلة من تفكيره ، اختفى من أمامه ، كل مايقع وراء المنطقة العربية التى يهمه امرها وحده . حقا لقد كانت ليلة العرب وحدهم من ميدان محمد على فى الاسكندرية الى بغداد شرقا وتطوان غربا .

ولكن العالم سيقرأ خطابه ، ولن يكتفى بقراءة نبأ التأميم ، بل سيطلع على اللهجة التى صيغ فيها الخطاب . وكان قد شرع قبل يومين بشن حملة يضمنها غضبه العارم ، وعندما القى خطابا ضمنه آية قرآنية كريمة اشار فيها الى الامريكان قائلا : « قل موتوا بغيظكم » . واستغل رجال الصحافة الغربية هذه الاشارة ، فابرقوا بها الى صحفهم فى الغرب لتصدر الصحف الامريكية وقد حملت صفحاتها الاولى عناوين ضخمة تقول ان عبد الناصر يريد من الامريكان ان يموتوا غيظا . وكان هذا هو المعنى الحرفى للآية القرآنية ، ولكن الترجمة الحرفية فى ايام الازمات كثيرا ماتكون مدعاة الى الخطر المرعب ، ولاريب أن ماعنته الآية ، لسامعيه من الناس هو انه « لايهتم اذا كانوا يتوائبون من الغيظ فهو عازم على

المضى فيما قرره » ولكن الترجمة التى تتجاهل جميع الفروق فى علم المعانى هى التى جعلت الصحف الغربية تضع هذه العناوين الضخمة التى طالعها القراء الغربيون .

ويبدو أن هذا التطور كان حتميا ، هذا اذا أخذنا بعين الاعتبار كل ما وقع بعد عام ١٩٥٤ ، وكل ما سبق ذلك التاريخ من جذور تاريخية . وكانت كرة الثلج من التوتر المتبادل التى شرحناها فيما مضى على انها رمز لسوء التفاهم بين العرب والغرب ، وما يحدثه سوء الاعلام من فروق وخلافات ، قد وصلت كلها الى درجة طاغية ولا يمكن اصلاحها . وكما أثارت اللغة التى استخدمها دالاس فى بيانه بسحب العروض غضب القاهرة وسخطها مما أدى الى القيام بذلك العمل الانفعالى الخطير خلقت اللغة التى لجأ اليها عبد الناصر فى خطابه تيارا عنيفا من السخط فى الغرب وقد وجد هناك فى جميع أرجاء الغرب ، ولا سيما فى بريطانيا بصفة خاصة ، جماعة من الاحرار ، كانوا يرون الوقوف منذ البداية ، لولا اللهجة التى استخدمها عبد الناصر فى خطابه الذى أعلن تأميم شركة القناة ، موقف الحذر من المحاولات الكثيرة التى جرت لاستغلال العمل الذى قام به . وكان هؤلاء الاحرار ، قد بدأوا بعد وقت قصير يفكرون تفكيرا متزنا ويحللون ما قام به الرئيس عبد الناصر ، ومدى ما فى عمله من خطورة أو لا خطورة . وقد يكون المستر جيتسكيل الزعيم العمالى المثل البارز لهؤلاء الاحرار ، اذ استفاق بعد الكثير من النصائح من الهزة الاولى التى جعلته يشبه التأميم بمؤتمر ميونيخ فى عهد هتلر ، وعاد يتحدث بحرص عن النتائج المهمة العميقة المنتظرة .

ولكن كانت هناك جذور تاريخية نائمة ، ولم تكن فى حاجة الا الى من يوقظها ، لتستفيق من سباتها . وهى مجموعة من القوى التاريخية التى سيطرت على الرأى العام ، كالتشنج العنيف والمرارات الناجمة عن العهود الاستعمارية السابقة فى مصر ، والشعور الغريزى بكره المصريين عند الملايين من الناس العاديين ، الذين لم تحاول السلطات الرسمية فى الغرب التحدث الى طبائعهم العاقلة . وانى لا أظن مطلقا أن هذه القوة السلبية فى بريطانيا كانت حديثة فى أصولها كما يستدل من أية قراءة سطحية للتاريخ ، فلقد كانت ترجيعا لما سبق أن أعلنه اللورد شيلبورن فى عام ١٧٧٨ اذ قال :

« منذ اللحظة التى وافقت فيها حكومتنا على اعلان استقلال أمريكا

بدأت شمس بريطانيا العظمى فى المغيب ، ولن تظل بلادنا بعد اليوم بلادا قوية ، محترمة » (١) .

ولقد كان ثمة صراع دائم ، متحرك، عميق فى بريطانيا بين الاحرار الذين ينشدون مفاهيم مختلفة عن العظمة وبين المحافظين الذين كانوا يقيسون العظمة والقوة بالمقاييس التى حددها شيلبورن فى تعبيراته . ولقد ظهرت الآن تجاه عبد الناصر ومصر والحركة التى يمثلانها نفس اللهجة الغاضبة من التعليقات العامة . التى اتخذها البريطانيون فيما مضى وقبل ظهور الامبراطورية العظمى الثانية فى القرن التاسع عشر من أمريكا الفتية والمصممة على الحفاظ على استقلالها أشد التصميم ، التى صورت على النحو التالى :

« لقد سلكنا مع أمريكا سلوكا ينطوى على صبر لا مثيل له ، ولكن هذا الصبر ، قد خلق حماقات بات لزاما علينا ان نعاقبها » (٢) .

ولم يكن الشعور على طرفى القناة الانجليزية ـ أى فى انجلترا وفرنسا ـ ناجما عن مجرد الغل والحقد . فلقد كانت مفاهيم شيلبون ومخاوفه التى ظهرت الآن فى أقوى مظاهرها ناجمة قبل كل شىء عن شعور أصيل بأن واجب مصر كان يحتم عليها أن تقف موقف « المعترف بالجميل » تجاه كل ما فعلته بريطانيا مع مصر طيلة الحقب العديدة التى تلت عام ١٨٨٢ ، وتجاه موافقتها أخيرا على الجلاء عن مصر فى عام ١٩٥٤. وقد أنهى الاخوان برومبرجر اللذان يعملان كمراسلين صحفيين كتابهما عن السويس بفقرة تكشف الكثير من حقيقة الموقف الفرنسى ، وهذه هى :

« سيأتى اليوم الذى يتحتم فيه على مصر أن تجرى حسابات جديدة . وقد يبدو لها آنذاك ان استعمار فرنسا لم يكن باهظ التكاليف فلقد أقمنا فيها ممرا مائيا شق الصحراء وجعل منها دولة عظيمة . وقد حفرنا لها قنواتها ، وعلمنا طلابها ، وتولت راهباتنا رعاية مرضاها فلماذا تؤدى كل هذه الخدمات التى قدمناها الى أن ينفث المصريون حقدهم علينا فى افريقية الشمالية » (٣) .

---

(١) تاريخ انجلترا البرلمانى المجلد (١٩) لندن ١٧٧٨ .

(٢) مجلة «كوريير» اللندنية عام ١٨١١ في معرض الرد على بيان الرئيس الامريكى جيفرسون بوجوب خروج السفن البريطانية من مياه أمريكا . (المؤلف)

(٣) كتاب اسرار السويس لمؤلفيه الفرنسيين م. ـ ناس . برومبرجر نيويورك ١٩٥٧ .

ولقد كانت هناك في هذا الموضوع ، أى موضوع الحوار التقليدى بين الاستعمار والوطنيين ، فترات أخرى من ردود الفعل تختلف عما حدث في السويس • ولعل الثورة التي وقعت في دبلن فيعام ١٩١٦والتى غطتها أحداث الحرب العامة التى كانت دائرة آنذاك ، والأضخم صورة ووجودا تعتبر احدى هذه الامثلة ، وكانت ثورة غاندى الصريحة التى تمثلت في قرار « اخرجوا من الهند » لعام ١٩٤٢ ، مثلا آخر • ولكن أزمة السويس تظل متفوقة عليها في ضخامتها على أية حال ، لانها من الناحية الاولى شملت أكثر من دولة واحدة بصورة مكشوفة ، ولانها انطوت على أكثر من قوة واحدة للعواطف ووجهات النظر • فلقد شملت أزمة السويس كلا من بريطانيا وفرنسا كما شملت مجالات الحرب الباردة والالتزامات العميقة التى التزم بها عدد من الشعوب تجاه فلسطين والصهيونية فيجميع أرجاء العالم والتى كانمن بينها التزام حزبالعمال البريطانى • وقد انطوت أزمة السويس أيضا على اثارة المخاوفالمهتاجة لكل حكومة من حكومات العالم ، تعتمد تجارتها الى حد ما على القناة •

ولا ريب في أن هذا الجو من المسوغات المتعددة الذى سيطر على بريطانيا وفرنسا ، والذى لم تكبح جماحه القيود العادية التى تفرض على الرأى العام الدولى ، هو الذى اتاح لهاتين الدولتين استخدام خطاب السادس والعشرين من يوليو لغايات تتجاوز حدود كل توافق مع ما أوحى به خطاب الرئيس عبد الناصر ، بل لا يرتبط به بأية حال من الاحوال • ولا ريب في أن هذا الجو نفسه هو الذى اتاح الفرصة لاخفاء كل الحقائق الواقعة المتعلقة بقصة السويس أو ما يمكن أن ندعوه بخفايا السويس وأسرارها • ولم تقف أضخم فضيحة في التاريخ البريطانى مدة طويلة على قدميها ، اذ أعيد الى كرسى الحكم في البلاد اثر انتخابات عام ١٩٥٩ ، التى كانت بمثابة محكمة للرأى العام ، أعضاء حكومة السير انطونى ايدن • وأحس ايدن بهذا القرار الذى أصدره الرأى العام ، فاستخدم أوراق الدولة في اصدار الصورة التى أرادها عما وقع • ولهذا من الاهمية بمكان عظيم أن نحاول درس القصة بكاملها وبجميع ما فيها من تفصيلات • ولقد عثرنا حتى الآن على احدى نقاط الضعف الضخمة في بنيان القصة التى رواها ايدن كشهادة على ما وقع ، وهو ضعف يتعلق بكل ما للازمة من جذور وأصول • وليس ثمة من شك في وجود عدد كبير آخر من أوجه الضعف في هذه القصة أيضا •

والآن كيف سنسير في تفحص هذه القصة ؟ وما الذى نريد أن

نقرره أو نصل اليه ؟؟ لعل من خصائص أية دراسة جدية لقصة السويس أنه كلما اوغل المرء متعمقا فيها ، اتضحت له دلائل جديدة ولاسيما فى مذكرات ايدن نفسها ، على صعوبة العثور على نقطة البداية سواء من الناحية الزمنية أو من ناحية الاتجاه • وعلينا أن ندرس موضوع التواطؤ بين انجلترا وفرنسا واسرائيل فى حرب السويس • وعلينـــا أن نقرر أيضا ، وفى حكم الواقع ، ان هدف بريطانيا وفرنسا والعراق كان منذ بداية الازمة ، الاطاحة بالرئيس جمال عبد الناصر ، وعلينا أن ندرس دراسة دقيقة مدى ما فى القصـــة الاسرائيليـــــة المعروفة من أن قرارها بمهاجمة سيناء قد اتخذ فى حالة سريعة طارئة وفى أواخر شهر اكتوبر من تضليل •

بيد أنه لا يمكن تحليل هذه القضايا الثلاث الواسعة وحدها ، على ضـــوء ما وقع فى الفترة بين الســـادس والعشرين من يوليو والتاســـع والعشرين من اكتوبر اى عنـــدما بدأ الهجوم الاسرائيـــلى • فهنـــاك أدلة جذرية كبيرة ، تعود فى زمنها الى ما قبل الســـادس والعشرين من يوليو فهـــل كان القصد فى ذلك التاريخ وقبله الاطاحة بعبد الناصر ؟ وهـــل كانت اسرائيل تعتزم الاستيلاء على شبه جزيرة سيناء ؟ وهل كان ايدن قد اتفق منذ مدة مع نورى الســـعيد على اعادة تنظيم الصورة فى الشرق الاوســـط كله ؟ وأين تقف قصة الســـد العـــالى من جميع هـــذه الخطط والقضايا ؟ •

علينا أن ندقق البحث فى جميع الادلة التى تثبت هذه القضايا أو تنفيها ، قبـــل أن نستطيع التعمق فى درس آخر من غوامض السويس وسيناء وأكثرها خداعا وغموضا ، وهى مسألة التواطؤ بين الدول الثلاث فى عدوانها وكشف الاسرار المتعلقة بالحرب الثلاثية نفسها •

وهل كانت هنالك حقا أربع طرق تؤدى الى السويس ؟ وهل كانت ثمة أربعة اتجاهات سياسية تطرد فى نموها المستمر فرادى أو متحالفة أو متفقة فى الهدف بين حكومات فرنسا واسرائيل وبريطانيا والعراق ؟ وكل ذلك قبـــل السادس والعشرين من يوليو ؟ وهل هنالك حقا حقائق تختفى وراء الاحداث التى كنا نتابعها فى الصفحات السابقة ؟ •

٩

أربع طرق الى السويس

« كان نورى السعيد يرى الوقائع السياسية بوضوح . فلقد اكد ان اى عمل ضد الاردن لن يصل الى جذور المشكلة الاساسية التى تكمن في مصر » .

مذكرات ايدن ــ بتاريخ السادس والعشرين
من يناير عام ١٩٥٦

❋ ❋

« لم احاول قط اخفاء الحقيقة الواقعة وهى ان موقف حكومة عبد الناصر ، سيترك آثاره في شمال افريقية » .

موليه في سبتمبر ١٩٥٦ . في مؤتمره الصحفى في لندن

❋ ❋

« تختار سوقية «استراتيجية» الحرب أحيانا الوسائل السياسية لايجاد الظروف المواتية لاتخاذ قرار تعبوى (تكتيكى) ، لتوفر بذلك الكثير من التعب والدماء » .

من حديث ليادين للمعلق العسكرى ليدل هارت

❋ ❋

ترى ما المواقف والاتجاهات السياسية والاهداف التى كانت لبريطانيا والعراق وفرنسا واسرائيل عندما بدأ شهر يوليو القدرى فى عام ١٩٥٦ ؟ أرى لزاما أن نبدأ فى بحث ما يتعلق بفرنسا من هذه الاسئلة ...

فرنســـا :

كان شهر مارس من عام ١٩٥٦ ، شــهرا تاريخيا بالنســبة الى الجمهورية الرابعة • فلقد فقدت فرنسا فى ذلك التاريخ كلا من تونس والمغرب اللذين حصلا على استقلالهما • وازدادت أهمية الجزائر لهـا ، وما يتعلق بهذه الاهمية من ضرورة تصفية الثورة الوطنية فيها ، لاسيما وقد كانت فكرة احتمال خسارة فرنسا لهذا البلد الاخير فى افريقيـــة الشمالية تثير غضب الفرنسيين وسخطهم ، ولقد ظل مخططو السياسة الفرنسية طيلة السنوات الثلاثين الماضية ، أو ما يربو عليهـــا ، يرون أوثق الاتصال والترابط قائما بين الشمال الافريقى والشرق الاوسط ، اذ ظل هذا الشرق دائما مصدرا خطرا من مصـــادر الايحاء للحركات الوطنية العربية فى الشمال الافريقى • وها قد ظهر فى القـاهرة الآن قائد يتمتع بشعبية عظيمة واسعة يتولى دعم الثورة الجزائرية ومساندتها جهارا وعلانية • وتحول الغضب الذى يغلى فى نفوس الدوائر السياسية الفرنسية والجيش على الاخص الى ايمان واضح بأن الاطاحة بعبد الناصر هى المفتاح الحقيقى لبقاء الجزائر فرنسية كما يريد الاستعمار الفرنسى •

وكانت لفرنسا حتى عام ١٩٤٦ ، مواطىء قدم سياسية ــ عسكرية فى الشرق الاوسط ــ أى فى سورية ولبنان ــ تعمل منها على محاولة الحيلولة دون تسرب الايحاء الوطنى الخطر الى الشمال الافريقى • ولـكن هذه القواعد ضاعت الآن ، وان كانت قد حلت محلها أداة جديدة محتملة وهى اسرائيل ، لا يقل قادتهـا تلهفا عن تلهف فرنسا على التقليل من شأن عبد الناصر والاطاحة به وبحكمه • ولم يكن لفرنســا فى الشرق الاوسط العربى من المصالح الضخمة ما يحول بينها وبين العمل عـلى اقامة تحالف عسكرى مكشوف وصريح مع اسرائيل • فاذا أضفنا الى هذه الحقيقة الواقعة ، حقائق أخرى بينهـا أوجه الشـبه القائمة بين المهاجرين اليهـــود الى فلسطين والمســـتوطنين الفرنسيين فى الجزائر واعجاب اليسار الفرنسى بالتطورات الاشتراكية فى اسرائيل ، واعجاب العسكريين الاسرائيليين بالعسكرية الفرنسية وخططها وأســـاليبها ، توافرت أمامنا الحوافز الجديدة التى أدت الى تحول الارتبـاطات الودية بينهما الى حلف عسكرى تمت اقامته فى عام ١٩٥٦ •

وهناك فى الحقيقة أدلة قوية للغاية على أن العلاقات الفرنسية ــ الاسرائيلية ، كانت على صـــعيد شحنات الاسلحة المتفق عليها سرا ، والمنكرة علنا ، قوية وحارة منذ عام ١٩٥٥ • ولقد دونا فى فصل سابق

ما وجهه الرئيس عبد الناصر من اتهامات عن وجود مثل هذه الصفقات ، كما دونا محاولات فرنسا واسرائيل نفيها وانكارها ، وما تبع ذلك من تأييد غريب لها ، بسيل طائرات « الميستير » النفاثة الذى بدأ فى التدفق على اسرائيل منذ أبريل عام ١٩٥٦ • وتشير الحقـائق الى أن اسرائيـل بدأت بطلب شحنات (الميستير رقم ٢) منذ شهر نوفمبر عام ١٩٥٤ ، ولكن موظفى وزارة الدفاع الفرنسية ظلوا ينكرون وجود هذه الطلبات حتى بعد انقضاء عام كامل على تقديمها ، ثم واصلوا الانكار والنفى حتى ابريل من عام ١٩٥٦ • وقد دونا فى فصل سابق كيف أن الاسـلحة الفرنسية التى استخدمها الاسرائيليون فى معركة سيناء فى عام ١٩٥٦ قد تطابقت من ناحية الكيفية والكمية مع أقوال الرئيس عبد الناصر فى أواخر عام ١٩٥٥ عن وجود صفقة ضخمة للتسلح بين فرنسا واسرائيـل وهى أقوال واصل الفرنسيون والاسرائيليون نفيها كذبا ونفاقا حتى ابريل عام ١٩٥٦ •

وكان فى الامكان فى عهد الجمهورية الفرنسية الرابعة ، حيث كان لضباط الجيش ولساسة الجناح اليمينى الواقعين تحت سيطرة الرغبة فى الحفاظ على الجزائر نفوذ أضخم بكثير مما يبدو حتى لرئيس الوزراء موليه أحيانا ، أن يعقد اتفاق سرى مع اسرائيل لتزويدها بالسلاح حتى دون وجود تحالف رسمى بينهما يربطهما كدولتين • ولكن سرد الاعمال التى قامت بها فرنسا فى الشرق الاوسط بين شهرى مارس ويوليو من عام ١٩٥٦ يوضح ـ حتى ولو كان مقتضبا كل الاقتضاب ـ وجود رباط يشبه الحلف بين الفريقين ، أو يدل بوضوح على وجود اصرار فرنسى من جانب واحد أى منفـرد عن الدول الغربيـة الاخرى ، على الاطـاحة بعبد الناصر •

ولقد استدعى موليه فى السادس من مارس (آذار) السفير المصرى لمقابلته • وقابله مقابلة جافة تميزت بطابع الحديث عما يلقـاه ثوار الجزائر من عون مصر ومساعدتها • وسرعان ما أعلن فى اليوم نفسه فى باريس أن اسرائيل قد أوصت على شحنات من الاسـلحة المضـادة للدبابات من المصانع الفرنسية •

وأعلن المسيو جاك سوستيل فى التاسع من مارس ، وكان آنذاك حاكما عاما فى الجزائر ، ان السلطات الفرنسية هنـاك قد عثرت على وثيقة من وثائق الثورة الجزائرية ، تقيم الدليل على أن الرئيس عبد الناصر لم يكن يساند جبهة التحرير الجزائرية ويدعمها فحسب بل كان على حد

زعمه يدير من القاهرة دفة الحرب التى تخوضها الجبهة ، وقد ارتكز هذا الاتهام الزائف الكاذب ، الذى ترك أثرا بالغا على تشويه فى ترجمة وثيقة عربية • وهو تشويه لا يمكن أن يكون عارضا وغير متعمد وقد اتضح هذا التشويه عندما ارتكب سوستيل خطأ فاحشا بنشر صـــورة فوتوغرافية للوثيقة فى مجلة «حب الجزائر وآلامها» التى تصدر بالفرنسية •

وأجرى ايدن فى الثانى عشر من مارس محـــادثات مع موليه فى تشيكرز ، وراح الاخير يعلن للصحفيين بعد انتهاء المباحثات أن بريطانيا وفرنسا ، وكذلك الولايات المتحدة على ما يعتقد ، ستتفاهم قبل انقضـاء وقت طويل على أن من واجبهـا أن تتخذ موقفا موحدا من العـــلاقات الدبلوماسية مع مصر • ترى ماهو هذا الموقف الموحد ؟! جدير بنا أن نذكر أن محادثات ايدن ـ موليه قد وقعت بعد عشرة أيام فقط من الهزة التى أصابت داوننج ستريت فى الصميم من جراء طرد جلوب من الاردن •

وقام وزير خارجية فرنسا بزيارة القاهرة حيث اجتمع مع الرئيس عبد النـــاصر فى الرابع عشر من مارس ، وكان بينو قد حاول أن يقنع الجمعية الوطنية الفرنسية (البرلمان) بأن مما يجفو الحكمة اتباع سياسة معادية لعبد الناصر ، وراح يقترح الآن على الرئيس المصرى ، أن تواصل فرنسا سياستها فى عدم الاكتراث بحلف بغداد ، وأن تنأى عن محاولات الضغط التى تحاول الدول الغربية الاخرى فرضها على مصر ، شريطة أن تتوقف مصر عن كل تأييد للثورة الجزائرية ، ولكن عبد الناصر رفض اقتراحات الوزير الفرنسى ، وتحول بينو منذ ذلك التـــاريخ الى خصم شخصى آخر من الخصوم فى الغرب للرئيس عبد الناصر ، الذين يحتلون مراكز مرموقة ، لا سيما وقد اشتد حقده عليه من جراء رفضه لاقتراحاته ، وهو رفض كلفه الكثير من مكانته الشخصية فى فرنسا (١) •

وصدر فى الخـــامس عشر من ابريل أول اعتراف عن بيع طائرات «الميستير» النفاثة الفرنسية الى اسرائيل ، وأعلن فى الثانى عشر من مايو عن وصول دفعة أخرى من هذه الطائرات الى اسرائيل ، واتضح فى شهر مايو أيضا تمام الاتضاح أن فرنسا كانت تحاول حمل لندن وواشنطن

---

(١) كتب ايدن عن الاسبوع الاول من ازمة السويس يقـول : « وكان موليـه قد امتنـع صـادقا عن انتقـاد حلف بغداد منذ زيارته لى في تشيكرز في وقت مبـكر من ذلك العام عندما قمنا بعمل مشترك رائع في طريق تنسيق سياستنا » مذكرات ايدن • (المؤلف)

على العدول عن تقديم القروض لمشروع السد العالى • وصرح بينو بعد عودته من زيارة واشنطن فى شهر يونيو ، أنه اغتنم فرصة وجوده فى العاصمة الأمريكية ليطلع المستر دالاس على حقيقة الرئيس عبد الناصر • وعندما أعلن دالاس فى التاسع عشر من يوليو سحب عروض القرض للسد العالى ، لوحظت على المبعوثين الفرنسيين الدبلوماسيين فى عواصم الشرق الاوسط ، علائم الانشراح ، لا علائم الدهشة أو الجزع •

يتضح من كل ماقلناه ، ومن أمور كثيرة أخرى ، أن اتجاهين أساسيين ، نشيطين كل النشاط كانا يشقان طريقهما فى السياسة الفرنسية ، قبل بدء أزمة السويس بصورة عنيفة فى السادس والعشرين من يوليو ، وحتى قبل سحب عروض القرض للسد العالى ، وكان أول هذين الاتجاهين التصميم على الاطاحة بالرئيس عبد الناصر ، وهو تصميم اتفق عليه منذ شهر مارس كل من موليه وبونيه مع قادة الجيش الفرنسى ومع ساسة الجناح اليمينى فى موضوع الجزائر ، وهكذا لم يكن تأميم عبد الناصر لقناة السويس التى شقها الفرنسيون(١) والتى تتركز فيها المصالح الفرنسية الرئيسية هو السبب الذى أدى الى قرار فرنسا لوجوب الاطاحة به ، اذ أن هذا القرار اتخذ قبل التأميم بكثير •

وكان الاتجاه الثانى فى السياسة الفرنسية يتعلق باسرائيل • • وسنرى فيما بعد أن الحلف الحقيقى العسكرى بين فرنسا واسرائيل قد بدأ ابان أزمة السويس ، وان لم يكن وليد ساعته ، أو مجرد قرار فرنسى مفاجىء ، وقد عرف الآن أن فرنسا واسرائيل توصلتا فى السابع من أغسطس (آب) أى بعد أقل من أسبوعين من تأميم عبد الناصر لشركة القناة الى اتفاق يقضى بالشروع فى تنفيذ برنامج سريع لتسليم شحنات ضخمة من الاسلحة الى اسرائيل فى منتهى السرية ، وكان بعض موظفى وزارة الدفاع الاسرائيلية هم الذين توصلوا الى هذا الاتفاق فى باريس نيابة عن حكومتهم • وظلت هذه الحقيقة هى كل ما عرف عن هذا الموضوع حتى التاسع من مارس عام ١٩٦٠ ، عند ما آثر جى موليه ، أن يضيف من قريته الصغيرة التى يقيم فيها فى شمال فرنسا بعض التفاصيل الى قصة سيناء والسويس اذ قال فى خطاب ألقاه : « ان بن جوريون جاء سرا الى باريس قبيل الهجوم على سيناء حيث أبلغه أن اسرائيل تتوقع هجوما من

---

(١) أرى من الافتئات على الحق والحقيقة أن يقال بأن الفرنسيين هم الذين شقوا القناة ، فصحيح أن دليسيبس الفرنسي هو صاحب المشروع ولكن القناة شقت بأموال مصرية على الغالب ، وبأيد مصرية خالصة • (المعرب)

مصر ، وانه لذلك يطلب المزيد من السلاح » ومضى موليه يقول : « ولا أرى بى حاجة الى القول بأن الطائرات والمعـدات الفرنسية هى التى وجهت الضربة فى سيناء الى المصريين» ٠

ولكن موليه رفض باصرار أن يكشف عن الموعد الذى قام فيـه بن جوريون بهذه الزيارة المتناهية فى سريتها ، ترى لماذا ؟ كان موليه يعلم ولا شك عن وجود تحالف فرنسى ـ اسرائيلى ابان العدوان على السويس وهو يعرف ولا شك أن الباحثين فى قضية السويس ، قد تأكدوا من أن هذا التحالف قد اتضح تماما فى شهر أغسطس ، فلماذا يرفض ، وهو يعرف هذه الحقائق تماما ، أن يذكر الشهر الذى وقع فيه هذا الاجتماع مع بن جوريون فى باريس ؟ ٠

لاريب فى أن هذا الاجتماع وقع قبل السابع من آب (أغسطس) وهو الموعد الذى سلمت فيه شحنات الاسلحة طبقا للتفاصيل التى تم الاتفاق عليها ، ومن المحتمل أن يكون الاجتماع قد وقع بين السـادس والعشرين من يوليو ، وهو موعد بدء أزمة السويس ، والسـابع من آب ، ولكن من المحتمل أن يكون هذا الاجتماع قد وقع قبل السادس والعشرين من يوليو ، ولعل هذا الاحتمال يفسر لنا تردد موليه فى ذكر موعد اجتماعه الهام للغاية ، برئيس وزراء اسرائيل ، ومن الصعب فى الحقيقة أن نعثر على أى سبب آخر أو مبرر لهذا التردد من جانب موليه وان كان من السهل على كل انسان أن يفهم الاسباب التى تدعو الى عدم الاعتراف بأن مثل هذا الاجتماع بكل ماينطوى عليه من مغاز واستنتاجات قد وقع قبل السادس والعشرين من يوليو ، اذ أن مثل هذا الاعتراف سيقلب كل ماعرف عن أصول حرب السويس حتى اليوم رأسا على عقب ٠

اسرائيل :

لنوجه الآن اهتمامنا الى اسرائيل ، هناك كثيرون يعتقدون فى جميع أنحاء العالم ، طبقا لما أكده الناطق بلسان اسرائيل أكثر من مرة بأن قرار الهجوم على سيناء قد اتخذ فى القسم الاخير من شـهر اكتوبر عام ١٩٥٦ وانه جاء على أثر استئناف غارات الفدائيين ، والاعلان الذى صدر عن عمان بعد انتهاء الانتخابات الاردنية العامة فى الثانى والعشرين من اكتوبر عن تأليف قيادة مشتركة لقوات مصر وسورية والاردن ، لـكن جميع الدلائل تشير عند جمع بعضها الى بعض الى حقيقة تختلف عن هـذا الزعم كل الاختلاف ، وتوضح وجود تصميم طويل الاجل منذ أمد بعيد على احتلال شبه جزيرة سيناء فى الوقت المناسب ٠

وتتألف الدوافع التى تقف وراء هذا الهدف ، كما هو الوضع دائما ، من مزيج متقلب من الاحلام الدينية ـ التاريخية ، والاهداف السوقية (الاستراتيجية) والضرورات السياسية ، وأغراض الدفاع عن النفس ، وليس من البعيد عن الصواب أن يقال ان شبه جزيرة سيناء كانت قد بدأت تحتل مكانها فى التفكير الصهيونى الاسرائيلى منذ عام ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ ٠

فهناك أولا تأثير الذكريات الدينية الغامضة عن « أرض اسرائيل » فى عقول زعماء اسرائيل من أمثال بن جوريون ، وتضم سيناء عددا من الرموز المهمة عند اليهود ، وبينها الجبل الذى يعتبر محور التاريخ اليهودى ومنبعه ، وليس ثمة من شك فى وجود قوة جاذبة ضخمة تجذب الصهيونيين الى هذا الموقع ، وتضمن الامر اليومى الذى أصدرته اسرائيل الى قواتها التى هاجمت سيناء فى التاسع والعشرين من اكتوبر « حصر جيش النيل فى بلاده » ، وابلغ بن جوريون مجلس الكنيست أن الاوامر قد صدرت الى القوات « بعدم اجتياز قناة السويس أو مهاجمة الاراضى المصرية الاصلية » .. وتحدث عن أهداف الحملة ، فذكر أن من بينها « تحرير هذا الجزء من الوطن من احتلال الغزاة » ٠ وراحت الاذاعة الاسرائيلية تعلن فور بدء الهجوم أن سيناء « جزء من فلسطين » وانها لا تختلف فى طبيعتها عن النقب ، واعدت مصلحة الاستعلامات الاسرائيلية نشرة حربية ضمنتها قصة تتحدث عن الطبيعة الألفية اليهودية لشبه الجزيرة .

وأشار بن جوريون الى احتلال قواته لجزيرة تيران فى خليج العقبة فقال اننا نريد هذه الجزيرة لانها كانت « مركز دولة عبرية قديمة انتهى أمرها قبل ألف وأربعمائة عام » ٠

ولم يصل شىء من هذه المعلومات الجوهرية فعلا الى الغرب حيث كانت الصورة التى ارتسمت فى مخيلة الكثيرين هناك ، ان غزو سيناء لم يكن الا بقصد تطهيرها من أوكار الفدائيين ، واحباط هجوم كان المصريون يعدون العدة له ، لكن غزو شبه الجزيرة كان قد وقع على الصورة التى أوردتها قبل قليل ، والتى تعتبر فى منتهى الخطورة ، وليس ثمة من سبب مهما كان نوعه يدعونا الى الاعتقاد بأن هذه الاحلام التوسعية الغامضة قد ومضت فجأة فى عقل بن جوريون فى شهر اكتوبر من عام ١٩٥٦ ٠ فلقد كان مستهل عام ١٩٥١ يعلن ذلك بصورة رسمية واضحة ، ولكن الغرب ٠٠ لم ينتبه مطلقا لما قاله ٠

« ان اسرائيل دولة لاتحدد شخصيتها ، بأرضها ولا بشعبها ٠ ٠

فلقد أقيمت فقط على جزء ليس الا من أرض اسرائيل ، وحتى أولئك الذين يلتبس عليهم موضوع اعادة اسرائيل الى حدودها التاريخية كما تحددت وتبلورت وأعطيت لها منذ الازل ، لن يستطيعوا أن ينكروا مافى حدودها الراهنة من شذوذ»(١) ٠

وظهرت هناك فى عام ١٩٥٥ أيضا بعض الاشارات الرسمية الاخرى «للحدود التاريخية» لاسرائيل كما وردت فى الكتاب السنوى ٠

« ان خلق الدولة الجديدة ، لاينتقص بحال من الاحوال ، من مساحة أرض اسرائيل التاريخية » ٠

ويتضح من هذا أنه كان ثمة تيار مستمر من هذا التفكير التوسعى المسياوى (نسبة الى تحقيق ظهور المسيح الذى يؤمن به اليهود) يسيطر على الحكومة الاسرائيلية ، وهو يجعل من سيناء هدفا من أهدافه ، وكانت هناك مع هذا التعطش الناجم عن مبررات غامضة دينية ، فائدة عملية لاسرائيل من السيطرة على سيناء واحتلالها ، فهناك أولا سوقية (استراتيجية) أساسية ، يمكن تحديدها فى أبسط عبارات ممكنة ٠٠ تتلخص فى التساؤل عن خير الحدود التى يمكن أن تضمن لاسرائيل المناعة من ناحية الغرب ٠ لقد ترك ما تمكنت من الحصول عليه من أراض فى حرب عام ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ ، والهدنة التى تلتها ، جميع مساحات سيناء الشاسعة الى الغرب منها فى أيدى المصريين ، وليست حدودها الحالية الا مجرد حدود هدنة على خريطة صحراوية ، ولكن الى الغرب من سيناء تقف حدود محددة أفضل ، هى قناة السويس نفسها لا كحاجز مائى فحسب ، بل لعل هذا هو الأهم كنقطة للدول الكبرى ولجميع دول العالم البحرية مصلحة حيوية فيها ، واذا تحققت لاسرائيل هذه الحدود ، فلن يكون فى وسع مصر أن تعبرها دون أن تستنفز على الفور عملا ينطوى على الفزع والازعاج من العالم بأسره ٠

وكانت هناك اعتبارات أخرى تدخل ضمن اطار هذه الاهداف السوقية (الاستراتيجية) فلقد ظل واضعو الخطط الصهيونية سنوات طويلة واقعين تحت سيطرة سلسلة من الافكار يمكن تلخيصها على النحو التالى : يجب أن تضم اسرائيل الصغرى على الاقل ، الساحل مضافا اليه منطقة النقب ، ومنطقة النقب هذه تجزىء الوطن العربى الى جزئين ولهذا

---

(١) الكتاب السنوى لاسرائيل ، لعام ١٩٥٢ ٠

فان النقب سيكون دائما مهددا بالخطر ، مالم تصبح سيطرة اسرائيل عليه ثابتة لا منازع لها فيه ، ولا يمكن أن تغدو هذه السيطرة ثابتة الا باسكان الناس فيه ، ولكن هؤلاء الناس سيكونون فى حاجة الى الحماية يضاف الى هذا أن النقب يؤمن لاسرائيل المنفذ الى الميناء الجنوبى الذى يواجه افريقية وآسيا وهو ميناء ايلات الذى يجب أن يحمى ، وتقتضى هذه الحماية تأمين المداخل الغربية وكلها تمر عبر شبه جزيرة سيناء ٠

وهناك من جديد أدلة ثابتة على وجود هذه المعادلات فى السياسة الاسرائيلية ، فلقد أصر الصهاينة فى المطالب التى قدموها الى الامم المتحدة فى عام ١٩٤٧ ، على أن يكون مثلث النقب ضمن المنطقة المخصصة للدولة اليهودية ، فى أى مشروع لتقسيم فلسطين ،وقد تحقق لهم ما أرادوه ٠ ولكن مشروع التقسيم قد تأجل واعتبر غير عملى بسبب معارضة العرب وعدائهم ، وقد أعلنت اسرائيل عن قيام دولتها من ناحيتها هى ، وسرعان مانشبت حرب فلسطين فى عام ١٩٤٨ ، وتوصل الكونت برنادوت وسيط الامم المتحدة الى الاستنتاج القائل بأن من الآمال القليلة الضئيلة ، فى ايجاد تسوية لتلك الحرب ، اعطاء منطقة النقب الى العرب ، لتأمين الطريق البرية لهم عبر أجزاء الوطن العربى(١) ولكن برنادوت قتل فى اليوم التالى لنشر اقتراحه هذا ، وخرقت اسرائيل بعد ذلك هدنة الامم المتحدة فغزت النقب واحتلته ، وظلت تسيطر عليه حتى يومنا هذا ، رافضة كل ماتبع ذلك التاريخ من اقتراحات لاحقة لتعديل الحدود الاقليمية القائمة ٠

وأصبحت تسوية قضية النقب تسوية نهائية تؤلف عنصرا أساسيا من عناصر السياسة الاسرائيلية الرسمية عن طريق اقناع العالم كله ٠٠ بأن منطقة النقب هى جزء من اسرائيل ، ولا يمكن فصلها عنها بأى حال من الأحوال (٢) ٠ ووضع الصهيونيون مشروع الرى لضخ مياه الاردن ونقلها الى النقب ، مع مافى هذا المشروع من تكاليف باهظة تجعل أية خطة لزراعة صحراء النقب ، مشروعا خياليا ، لا تجاريا ، اذ يقضى المشروع بنقل الماء مسافة مائة وستين ميلا الى الجنوب باتجاه المثلث الصحراوى حتى يتمكن العالم من رؤية المهاجرين اليهود يستوطنونه ، ورأى زعماء

---

(١) وثيقة الامم المتحدة (A/648)

(٢) المجلة اليهودية (كومنترى) في عدد سبتمبر ١٩٥٨ من مقال لاليكس روبنر المستشار السابق لوزارة مالية اسرائيل ، الذى وصف كيف أن السلطات الاسرائيلية ابلغت خبيرا امريكيا في شئون الرى بأن هذا المشروع سينفذ لاعتبارات سياسة رغم افتقاره الى المبررات الاقتصادية ٠

اسرائيل ، ان من الواجب تأمين الحماية لهذا الاستثمار المالى ، ولخطوط أنابيب المياه ، والمهاجرين الجدد ، وطريق المواصلات التجارية الى ميناء ايلة (ايلات) من غارات اللاجئين العرب عبر الحدود من قطاع غزة • • ومن أى عمل حربى مصرى متوقع •

وليس ثمة من شـــك فى أن هذه الاعتبارات كلها قد توافقت مع الأحلام الدينية الغامضة فى منطقة سيناء وكانت تتزاوج كلها فى درجة واحـــدة من الاتساق الموســـيقى طيلة الفترة الواقعة بين عامى ١٩٤٩ و ١٩٥٥ • ويقوم المفتاح السوقى لضمان هذه الحماية واحتلال شـــبه جزيرة سيناء كلها فى تلك الشبكة فى الخطوط الصحراوية الواقعة فى منطقة العوجة المنزوعة السلاح (١) • وكانت القوات الاسرائيلية قد توغلت لمدة وجيزة فى صحراء سيناء فى ديسمبر عام ١٩٤٨ ، عبر هذه المنطقة ورأى الاسرائيليون الآن ، انه اذا كان لابد للاحتلال النهائى من انتظار تطورات أفضل وأكثر ملاءمة ، فان من الواجب السيطرة على هذه المنطقة فى أسرع وقت ممكن •

وراحت اسرائيل تنفيذا لخطتها هذه تطرد من المنطقـــة عن طريق القوة أربعة آلاف عربى (٢) •وأعلنت فى عام ١٩٥١ بصورة رسمية سيادتها على هذه المنطقة متحدية بذلك شروط الهدنة من ناحية وقرارا لمجلس الأمن فى هذا الصدد من ناحية أخرى (٣) • وراحت فى عام ١٩٥٣ بعد أسبوع واحد من تكرار ادعائها هذا تقيم مستعمرة ومركزا للشرطة فى المنطقة متحدية بذلك اتفاق الهدنة (٤) ورفضت الاذعان لمطالب الأمم المتحدة بسحب قوات شرطتها من المنطقة ، وظلت مواصلة رفضها طيلة عام ١٩٥٤ وعاملة على تثبيت مستعمراتها الجديدة فيها •

وتزايد تفكير بن جوريون فى اتجاه سيناء فى هذه الفترة الواقعـــة بين نهاية عام ١٩٥٤ ومستهل عام ١٩٥٥ ، وأمن عاملان جديدان الحافز لهذا التفكير ، أولهما الاتفاق المصرى البريطانى لجلاء القوات البريطانية عن منطقة القنـــاة ، وثانيهما ظهور الرئيس عبد الناصر فى عام ١٩٥٥

---

(١) اعتراف من شبتاى روزين عن « اتفاقات الهدنة » فى تعليق استراتيجى .

(٢) وثيقة الامم المتحدة (S/1797)

(٣) وثيقة الامم المتحدة (S/2097) ووثيقة (S.P.V; 635)

(٤) وثيقة الامم المتحدة (S/3103) ووثيقة (S/3596)

بمظهر القائد العربى الفريد فى ديناميته ، القوى فى شعبيته ، المؤيد لسياسة الحياد ، وكان وجود قوة بريطانية عسكرية ضخمة على ضفتى القناة ، يؤمن لاسرائيل دائما بعض الاحساس بالأمن والطمأنينة ، اذ يتحتم على أية قوة مصرية مهاجمة ، متجهة الى الشرق ضد اسرائيل(١) ، أن تعبر أولا هذه المنطقة البريطانية العازلة ، وقد وافقت بريطانيا فى عام ١٩٥٤ على جلاء قواتها ، وتبدل على ضوء ذلك وضع اسرائيل السوقى تمام التبدل وليس ثمة مايمكن أن يفصل بين اسرائيل وبين أضخم دولة عربية يحكمها الآن نظام ثورى الا احتلال شبه جزيرة سيناء .

فهل يمكن تحويل هذا الخطر الى فائدة ايجابية بأية طريقة من الطرق تضمن تحقيق الاهداف التوسعية والوقائية معا . ليس من الاجحاف والحالة هذه أن نقول بأن هذه المشكلة أنهكت تفكير بن جوريون وكافة مستشاريه السياسيين والعسكريين الموثوق بهم ، وقد شرح ايغال يادين وهو من العسكريين الاسرائيليين هذه الاهداف التى لجأت اسرائيل الى كل وسيلة دعائية وعسكرية لتحقيقها ، وحدد هذا المفهوم السوقى فى تلك العبارة التى أوردتها فى مستهل هذا الفصل ، وكانت القضية الآن بالنسبة الى وضع اسرائيل ، والى أهداف الصهيونية ، كما حددتها فى نهاية ١٩٥٤ ، هى ماذا لم يكن فى الامكان استغلال الاخطار الناجمة عن جلاء القوات البريطانية عن منطقة القناة كفرصة لتوسيع حدود اسرائيل الغربية الى حدودها التى تتلهف للوصول اليها على القناة نفسها .

---

(١) لم يكن تفكير اسرائيل محصورا في تقدم الجيش المصرى وحده على اسرائيل في هجوم لا تستفزه هى ، بل كان يتجه أيضا الى زحف مصرى لمساعدة الاردن في حالة محاولة اسرائيل احتلال الضفة الغربية وكان احتلال هذه الضفة يستبد دائما بتفكير اسرائيل ومخططيها السوقيين لا كهدف مسياوى يحقق وعود التوراة (كذا) فقط ، بل كهدف سوقى عسكرى ايضا . وقد ورد تحديد هذا الهدف بصورة واضحة في كتاب « على جانبى التل » لمؤلفيه جون ودافيد كيمشي (ص ٢٦٧ — ٢٧٢) وجون كيمشي من الصحفيين الصهيونيين البارزين في بريطانيا ، ويصف هذا الكتاب الذى رعاه بن جوريون الخطة الكاملة للعملية العسكرية الرامية الى احتلال ما تبقى من فلسطين في عام ١٩٤٩ ، والتى اضطرت اسرائيل الى وقفها لتكون المعركة التى لم تتم ، والعنصر الذى يتطلب الحل في الجولة الثانية .

هذا ما ذكره المؤلف وهو يضع أمام العرب في كل مكان الصورة الصحيحة لمطامع اسرائيل في الوطن العربى وهى المطامع التى لن تتوقف الا اذا توحد الشعب العربى في ظل نظام عربى ثورى صحيح ، صادق ، بعد الخلاص من الاوضاع الانفصالية التى يفرضها الاستعمار ، وأعوانه على المنطقة العربية لضمان تنفيذ الاهداف الاسرائيلية في الوقت المناسب . (المعرب)

فان هذا الهدف ، اذا تحقق ، سيضمن لاسرائيل استعادة جزء من أرض الوطن القديم (كذا) ، ويؤمن لها المرور عبر القناة بعد سنوات طويلة من الحصار الذى فرضته مصر ، وسيكرس حماية النقب ، ويبعد القواعد الجوية المصرية مسافة مائة وخمسين ميلا أخرى الى الوراء بعيدا عن مناطق المدن الاسرائيلية المأهولة ، وستقيم فاصلا أرضيا مماثلا فى بعده لهذه المسافة بين مصر وغيرها من الجيوش العربية ، وهو اتصال يتركز عليه خوف اسرائيل الدائم .

ولا أرى بى حاجة الى القول ، ان مثل هـــذه الاهداف الاسرائيلية لايمكن تأييدها بالاقوال الاسرائيلية الرسمية أو بالوثائق الاسرائيلية ، اذ أن هذه الاهـــداف والخطط ، كانت ولا تزال أفكارا فى منتهى السرية لايتحدث فيها ويناقشها الا لفيف من الرجال الذين يحيطون ببن جوريون ولكن اذا كنا حقا فى حاجة الى مايؤيد هذه الآراء التى نوردها ، والتى نؤكد فيها ان مثل هذا التفكير طبيعى ومنطقى بالنسبة الى الصهيونيين ، فان فى وسعنا أن نجد التأييد فى يوميات عسكرى بريطانى مشهور .. يعتبر من أصدقاء اسرائيل المتعصبين ، وهو لايعرف مايفكر فيه كبار الزعماء الاسرائيليين فحسب ، بل يفكر أيضا كصهيونى اسرائيلى ، فلقد دون العقيد ريشارد ماينرز تهاجن ، الذى رافق نشوء اسرائيل وعمل على تحقيقه منذ عام ١٩١٧ ، فى يومياته التى كتبها فى عام ١٩٥٥ ، أى قبل نحو من عام واحد من تفكير العالم عامة حتى فى احتمال هجوم اسرائيل على سيناء ، يعرض النتائج المحتملة لجلاء القوات البريطانية عن منطقة القناة ، ولاستمرار مصر فى اغلاق ممرها المائى فى وجه السفن الاسرائيلية فقال :

٢ نوفمبر ١٩٥٥ ـ وضعت المذكرة التالية لأقدمها الى اسرائيل مصورا فيها الوضع كما أراه ، وانى لأرى النقاط الأساسية التالية :

١ ـ حمل مصر على الظهور بمظهر المعتدى .

٢ ـ الهجوم باتجاه القناة والوصول اليها .

٣ ـ اعلان القناة ممرا مائيا دوليا ، فى ظل اشراف دولى ، مع خلق منطقة محايدة على كلا جانبى الممر ، لعزل مصر عزلا دائما عن اسرائيل .

٤ ـ اعلان سيادة اسرائيل على سيناء(١) .

---

(١) يوميات من الشرق الاوسط ـ كريسيت ـ لندن . ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨ .

ويبدو أن العقيد ماينرز تهاجن قد سلم مذكرته هذه المؤرخة فى عام ١٩٥٥ الى السفير الاسرائيلى فى لندن ، ايلات ، الذى كان دائم الاجتماع اليه وليس ثمة من سبب يدعو الى الاعتقاد ، بأن هذه الاقتراحات كانت جديدة على كبار القادة الاسرائيليين حتى فى ذلك التاريخ ٠

وكان ثمة عامل رئيسى آخر ، فى جميع هذه المخططات الاسرائيلية ٠ فقد سيطرت على الصهيونية العسكرية فكرة واحدة منذ مدة طويلة وهى « تلقين العرب درسا لا ينسونه » ٠ فمنذ حقبة الثلاثين وضع الجنرال البريطانى الصهيونى أورد وينجيت ، الخطط للصهيونيين للقيام بغارات فجائية على عرب فلسطين ، تبعث الرعب والفزع فى نفوسهم ، وكان موشيه دايان الذى قاد حملة سيناء ، واحدا من طلابه الذين تدربوا على يديه ، وظلت هذه الفكرة حية ينفذونها على شكل الغارات الثأرية التى ظلوا يشنونها على العرب منذ عام ١٩٤٩ ٠ وكانوا يرون أنه اذا كانت اعادة اسرائيل بحدودها القديمة أمرا لابد منه ، واذا كانت حمايتها وسط هذه الارض العربية المعادية شيئا لازما ، فان من واجب اسرائيل أن تظهر كل قيادة عربية حسنة التنظيم ، وديناميكية الحركة ، ومخلصة فى نضالها ، سواء أكانت سياسية أم عسكرية ، بمظهر الضعف عن طريق هزائم عسكرية واضحة يجب أن تنزلها بها (١) ٠

وقد تأكدت من أوثق المصادر ؛ أن هذه الفكرة كانت طاغية على اسرائيل ، عندما شرعت فى حملتها على سيناء ٠ فلقد عرض بن جوريون فى الثانى من ابريل عام ١٩٥٧ ، أمام البرلمان الاسرائيلى (الكنيست) الأسباب التى دفعته الى القيام بحملة سيناء وقال انه كان يخشى دائما ظهور شخصية بين العرب ، كشخصية أتاتورك فى تركيا ، الذى ظهر بعد هزيمة بلاده فى الحرب العالمية الاولى ، وأن تقوم هذه الشخصية العربية ببعث الروح الديناميكية عند العرب ، وتحقق لهم وحدتهم ، وتطورهم التقدمى ٠ ثم مضى يقول : « وكان أعظم عمل نود تحقيقه ٠ أن نضعف من شخصية عبد الناصر » ٠

ولكن رئيس وزراء اسرائيل ، لم يعين التاريخ الذى بدأ يرى فيه ، عبد الناصر ، الزعيم الذى يحمل هذه الشخصية التى يخشاها كل الخشية

---

(١) لعل هذا هو الدافع الرئيسي الذى حمل اسرائيل ، على تركيز عدائها على شخص الرئيس عبد الناصر منذ البداية ، وعلى الجمهورية العربية التى يتولى قيادها، لانها تخشاه حقا ، ولا تخشي غيره من الذين ادعوا أو ما زالوا يدعون الوطنية في الوطن العربى ٠ (المعرب)

ومن أمد طويل ، ولكننا رأينا فى الفصول السابقة ، أن عبـــد النـــاصر لم يظهر لأول مرة أمام العرب كالزعيم الدينامى الثورى الجديد ، فى عام ١٩٥٦ ، بل فى العام الذى سبقه • واذا أردنا تحديد تاريخ هذا الظهور بالدقة ، قلنا ان شخصية الرئيس عبد الناصر ظهرت فى قوتها للعرب عامة فى يناير عام ١٩٥٥ عندما شن حملته على حلف بغداد الجديد •

وقد سبق لنا أن رأينا ، فى فصل سابق ، أن بن جوريون عاد فجأة فى فبراير عام ١٩٥٥ ، من عزلته الطويلة فى داره فى النقب ؛ ليتــولى وزارة الدفاع الاسرائيلية • وراح يشن فور عودته ، أكبر هجوم عدوانى دموى وقع على غزة منذ عام ١٩٤٩ ، وراحت اسرائيل فى الشهور التى تلت ذلك تفاوض فرنسا فى موضوع صفقات الاسلحة التى تريدها ، وهى الصفقات التى أعلن الرئيس عبد الناصر تفاصيلها فى نوفمبر عام ١٩٥٥ والتى تم تنفيذها فى الاسلحة الفرنســـية التى سلمت لاسرائيل والتى استخدمتها هذه فى حرب سيناء •

وأصدر بن جوريون أمره فى سبتمبر عام ١٩٥٥ ، باحتلال منطقـة العوجة بما تضمه من طرق صحراوية متشابكة وحيوية تؤدى الى الغرب • وانتهت بذلك سلسلة الاعمال العسكرية الاسرائيلية فى هذه المنطقة التى كانت قد شرعت فيها منذ عام ١٩٥٠ •

ترى ما الهدف من كل هذا ؟ لم يحسر النقاب آنذاك عن أى من أهداف اسرائيل الحقيقية • ولكن كان من الواضـــح أن اسرائيل عازمة صادق العزم على استغلال التوتر القائم بين مصر والغرب ، اذ كانت هى أول من روج فى الغرب الدعاية التى تزعم بأن عبدالناصر ليس الا هتلر ثانيا • وبينما كان بن جوريون يزيف شعارات السلام ، ويعلن للعـــالم الخارجى رغبتـــه فيه ، كان فى الوقت نفسه يتبع سياسة مختلفة كل الاختلاف عن هذه الدعوى المزعومة مع العرب • وكان حريا بالعالم أن يرى هذه الحقيقة الواضحة فى الثالث من نوفمبر عام ١٩٥٥ • ففى صـــباح الثانى من نوفمبر عاد بن جوريون الى كرسى الرياسة ليخلف فيه موشى شاريت الاقل منه حيوية ونشاطا ، والذى أحاله الى وزارة الخارجية . وراح يعلن فى صباح اليوم نفسه للكنيست ، أنه على استعداد للقاء الرئيس عبد الناصر أو أى زعيم عربى ، فى أسرع وقت ممكن ، للوصول الى تسوية مشتركة ، شريطة ألا تكون مقيدة بشروط سابقة •

ونقلت أسلاك البرق هذا النبأ الى صحف العـــالم طولا وعرضا • ولكنه فى الليلة ذاتها راح يبعث بقوة ضخمة من الجنود الاسرائيليين ، يربو

عددهم على الالف ، يخترقون حدود مصر ، ليقوموا بغارة تفوق فى وحشيتها الغارة التى وقعت على غزة • ولم تظهر قط فى تاريخ الدبلوماسية ، طريقة أغرب من هذه الطريقة التى اتبعها بن جوريون لنشدان السلام ، مهما كانت الدوافع لما يزعمه من خوف وقائى • وليس ثمة من شك فى أن كل من يدرس هذا الحادث دراسة جدية ، لا يستطيع أن يجتنب التوصل الى الاستنتاج ، بأن السياسة الاسرائيلية وجدت شيئا جديدا تضيفه الى خداعها السابق •

ووقعت فى النصف الاول من عام ١٩٥٦ غرائب أخرى ، مضت فى حينها دون أن يلحظها أحد من الغربيين ، فقد وصل التوتر العربى الاسرائيلى الى ذروته فى ذلك الحين ، وراح المستر همرشولد يناشد اسرائيل عبثا ودون جدوى الانسحاب من منطقة العوجة . ولا ريب فى أن كبير مراقبى الهدنة ، كان مدركا أهمية هذه المنطقة ، ومغزى احتلال اسرائيل لها ، اذ قال فى تقريره :

« تتلخص الأهمية السوقية للطرق المتوزعة من العوجة ، فى أنه اذا فكر أحد الفريقين فى عدوان على نطاق واسع على أراضى الفريق الآخر ، فان طرق مواصلاته الرئيسية والفرعية اللازمة للعملية العدوانية يجب أن تمر فى هذه المنطقة المنزوعة السلاح » (١) •

وتمكن المستر همرشولد أخيرا من التوصل فى شهر أبريل الى اتفاقات جديدة لوقف اطلاق النار • وتضمنت نصوص الاتفاق اقامة مراكز ثابتة للمراقبين الدوليين على حدود قطاع غزة • ولم يلاحظ أحد فقرة صغيرة وردت فى التقرير الذى قدمه الامين العام للامم المتحدة الى مجلس الامن فى أواسط أبريل عن جولته فى الشرق الأوسط . فلقد ذكر هذا التقرير أن مصر قد وافقت على اقامة هذه المراكز لمدة غير محدودة ، فى حين اشترطت اسرائيل أن تكون مدتها محدودة بستة أشهر تنتهى فى الواحد والثلاثين من اكتوبر عام ١٩٥٦ (٢) • ولا يعقل أن يكون هناك أى سبب دفاعى معقول ، يدعو الى هذا التحديد المتعمد لواجبات فريق المراقبين الدوليين الذين تتلخص مهمتهم فى مراقبة اجتياز الحدود والحشود العسكرية عليها ومنعها •

وهناك نقطة أخرى . فلقد حاول المستر همرشولد محاولات حثيثة

---

(١) ملحق بوثيقة الامم المتحدة (S/3659)

(٢) وثيقة الامم المتحدة (S/3596)

التأكد من أنه حتى فى حالة تحدى اسرائيل لمطالبة الأمم المتحدة لهـــا بانسحاب قواتها من مثلث العوجة ، فان عليهــــا أن تقبل عبور مراقبى الهدنة بحرية الى هذه المنطقة الحيوية ، وأن تسمح لهم بحرية الحركة فيها٠ وعاد مجلس الامن فكرر الطلب الى اسرائيل لاعطاء حرية العبور والحركة للمراقبين الدوليين فى المنطقة فى الرابع من يونيو عام ١٩٥٦ (١) ٠ ولكن رئيس هيئة الرقابة الدولية تلقى فى الخامس من يوليو عام ١٩٥٦ (أى قبل ثلاثة أســـابيع من معرفة أى انســـان بوجود أزمة تدعى « أزمة السويس » وقبل اربعة أشهر ونصف الشهر من الهجوم على سينا ، مذكرة من اسرائيل تقول انها لن تسمح بعد اليوم للمراقبين الدوليين الا باستخدام طريق واحد داخل منطقة العوجة . وأنهم سيمنعون من المرور فى الطرق الاخرى ، كما لن يسمح لهم بارسال أية رسائل اذاعية باستثناء التقارير الادارية العادية (٢) ٠ واحتج رئيس هيئة الرقابة الدولية على هذا الاجراء ، واكتفت اسرائيل بأن ترد عليه قائلة ، انه لما كانت اسرائيل هى التى تحتل المنطقة « فليس ثمة ما يدعو الى وجود مراقبين عسكريين للأمم المتحدة فيها » (٣) ٠ وظلت هذه القيود مفروضة على حركات المراقبين الدوليين بالرغم من احتجاجات الامم المتحدة الى التاريخ الذى شنت فيه اسرائيل هجومها على سيناء عن طريق مثلث العوجة ٠

وهناك حقيقتان جوهريتان أخريان تتعلقان بموضوع ٠٠ ما اذاكانت اسرائيل ــ كما تدعى ــ قد قررت الهجوم على ســـيناء ، كاجراء طارىء وسريع فى الرابع والعشرين من اكتوبر فحسب ٠

كلنا يذكر أن بن جوريون قد خلف موشى شاريت ــ الاقل ميـــلا للعدوان من زميله ــ فى رياسة الوزارة فى نوفمبر عام ١٩٥٥ ٠ وظل شاريت هذا وزيرا للخارجية حتى يونيو عام ١٩٥٦ ٠ وتم فى مطلع يونيو جلاء القوات البريطانية عن منطقة قناة السويس ، وجرت ــ فى الثامن عشر منه ــ احتفالات ضخمة فى مصر ، احتفاء بالجلاء ٠

واستقال شاريت فى ذلك اليوم نفسه من أيام حزيران « يونيو » بصورة مفاجئة من الوزارة الاسرائيلية ٠ ولم يقدم الوزير المستقيل سببا

(١) وثيقة الامم المتحدة (S/3605)

(١) وثيقة الامم المتحدة (S/3659) الملحق رقم «١» الفقرة الثانية .

(٣) نفس الوثيقة الفقرة «٧» رسالة من بن جوريون الى الجنرال بيرنز فى الثالث من سبتمبر ١٩٥٦ ٠

لاستقالته ، واكتفى بأن يقول بأنه كان راغبا فى هذه الخطوة منذ نوفمبر الماضى • وقد وقع هذا التطور قبـــل خمسة أسابيع من أزمة السويس وخمسة أشهر من حرب سيناء •

وقدمت وزيرة خارجية اسرائيل الجديدة ، جولدا مايير،فى السابع عشر من أكتوبر ـ أى قبل أسبوع كامل من التاريخ الذى زعم ان اسرائيل قد اتخذت فيه قرارها الطارىء بالهجوم على سيناء ـ قائمة طويلة الى محكمة العدل الدولية ، ضمنتها التحفظات التى تراها بالنسبة لقبول اسرائيل صلاحية المحكمة فى فض المنازعات الدولية • وكان من بين هذه التحفظات ـ التى أرادت اسرائيل أن تستثنى نفسها من قيود هذه الصلاحية ـ بند ناجم عن « احتلال اسرائيل العسكرى » (١) • فلقد كان ادعاء اسرائيل القانونى والسياسى فى السابع عشر من أكتوبر عام ١٩١٧ أنها لا تحتل عسكريا أية منطقة ليست لها ؛ حتى منطقة العوجة نفسها التى ادعت سيادتها الرسمية عليها .

وعلى ضوء هذه الحقائق يمكننا أن نقول بالاختصار ، ان ثمة مجموعة ضخمة من الأدلة ، تقوم وراءها مجموعة ضخمة أيضا من الاستنتاجات المعقولة كل العقـــل ، تؤكد أن بن جوريون وعددا من مستشاريه ، كانوا يعدون العدة لاحتلال سيناء منذ أشهر طويلة بل منذ ســنوات قبــل أن يشنوا هجومهم الفعلى • وقد رأينا من قبل كيف تحول الارتباط الفرنسى الاسرائيلى الى تحالف مسلح ، ولا سيما فى الايام الاولى من أزمة السويس الصحيحة ، وحتى قبل أن تبدأ الازمة ظاهريا فى السادس والعشرين من تموز (يوليو) •

ولا يبقى أمامنا الآن الا أن نلاحظ بأن دبلوماسيى اسرائيل ومؤيديها العاملين قد شنوا حملة مستميتة لمعارضة قروض السد العالى التى عرضتها بريطانيا وأمريكا والبنك الدولى • وروت كل صحيفة موثوق بهـــا فى أمريكا وأوربا الغــربية انبــاء النشـــاط الصهيونى وراء الكواليس فى الكونجرس الامريكى لمعارضة القروض كما روت أن ما يبديه الكونجرس من عداء لها انما نجم عن النشاط الصهيونى • وقد وصلت هذه المعارضة الى أوجها فى أواخر يونيو وأوائل يوليو •

ويمكن للقارىء أن يلحظ خيطا غريبا يسير ســيرا قهريا عبر هذا

---

(١) الكتاب السنوى للمحكمة الدولية ـ الامم المتحدة ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ •

التحقيق الذى قمت به . وفى وسعنا انندون هنا كحقيقة واقعة أن كلا من فرنسا واسرائيل كانتا تبحثان بحثا جديا نشيطا فى موضوع سحب عروض القروض الغربية ، وهو الاجراء الذى أدى الى اشتعال ازمة السويس • وفى وسع المرء أن يستنتج بوضوح أن الفرنسيين فى سعيهم الى الاطاحة بعبد الناصر ؛ لم يكونوا قادرين على مهاجمة مصر وحدهم أو بدون مبرر . وكان يتحتم عليهم أن يجدوا ظرفا مبررا يسمح لهم بتنفيذ غايتهم عن طريق خلق وضع من نوع ما يبدو كمبرر للعمل المباشر ، وأن تشترك فرنسا فى هذا العمل مع بريطانيا على الاقل •

وعندما نعود الى تقديرات اسرائيل وأهدافها ، فان هذا الخيط يتخذ شكلا غريبا آخر • فما وقع فعلا فى يوليو عام ١٩٥٦ ، كان مواتيا لاسرائيل الى درجة تكاد تشبه الاعجوبة فى الطريقة العادية المألوفة فى تضارب الاحداث • وقد تركز اهتمام العالم بعد السادس والعشرين من يوليو على منطقة قناة السويس ، وهى الحد الغربى الذى تتطلع اليه اسرائيل •

وقد شرعت الدولتان الكبيرتان - أى بريطانيا وفرنسا - منذ السادس والعشرين من يوليو فى التفكير فى اعادة احتلال القناة ، فى حين ان الدول المنتفعة بالقناة انصرف همها الى البحث فى القضايا المتعلقة بسلامتها وحرية المرور فيها . وارتفعت الصيحات العدائية ضد مصر فى الغرب بعد السادس والعشرين من يوليو بشكل صاخب لم يسبق له نظير • وعندما تدخلت بريطانيا وفرنسا فى نهاية شهر أكتوبر لوقف ما أسمى بالحرب المصرية - الاسرائيلية التى أوقدها الاسرائيليون بهجومهم على شبه جزيرة سيناء ، رأيناهما تقدمان انذارا نهائيا يعطى لاسرائيل سيناء كلها ويطلب الاحتلال الدولى لحدودها الغربية الجديدة بقصد حماية القناة .

ولو شئنا التبسيط فى القول ، والايجاز فى تحديد الصورة لقلنا ان الأمور ماكانت لتسير على نحو أفضل لحكومة بن جوريون مما سارت عليه ، حتى لو كانت هى التى خططت أو ساعدت على تخطيط تسلسل الاحداث التى وقعت بين منتصف يوليو وأواخر أكتوبر عام ١٩٥٦ • ولم يكن هناك الا عامل جوهرى واحد فى كل ما وقع لم يتفق مع أهداف

اسرائيل وميولها ، وهو أن تدخل الدولتين الفعلى فى المعركة قد حرمها من الحصول على مكاسب جديدة (١) ٠

أما وقد دونا جميع هذه الاحداث العرضية الغريبـــة أرى لزاما علينا أن نقول هنا اننا حاولنا القيـــام بتحقيق دقيق ، وان الاغراق فى الحماسة لاستخدام الحقائق قد يؤدى دائما الى الخطر ٠ ولكن علينــا أن نتذكر دائما هذا الخط المشترك من « العرضية » والمصادفة ، عندما ننتقل الى البحث فى موضــــوع الحكومتين الاخريين ذواتى العلاقة بسيناء والســويس ٠

بريطانيا والعراق :

فى وسعنا سعيا وراء الاختصار أن نعـــالج موقف حكومتى ايدن ونورى السعيد معــــا بتحليل أهدافهما وسياساتهما التى أدت الى حوادث شهر يوليو الخطيرة ، وفى وسعنا أن نقيم الدليل الذى لا تتطرق اليه أية ذرة من الشك ، على أن السير انطونى ايدن وزملاءه الموثوق بهم ونــورى العراق قد صمموا جميعا ـ اعتبارا من ليلة الســادس والعشرين من يوليو ـ على الاطاحة بعبد الناصر عنوة وقسرا . ولكن علينا بعد أن قلنا هذا أن نكون جد حذرين فيما سيتبع من قول . فلقد رأينا من قبل ، كما نعرف الآن أن العمل الذى قام به عبد الناصر بتأميم شركة القناة ، والاسلوب الذى اتبعه فى التنفيذ قد بعثا الفزع عند الكثيرين من ذوى

---

(١) ارى أن المؤلف قد اخطأ خطأ كبيرا هنا ، وان كان يريد أن يقول كما يظهر انه كان في وسع الدولتين الغربيتين أن تساعدا اسرائيل سرا كما ساعدتاها فعـلا دون أن تتدخلا تدخلا مباشرا بالعدوان على السويس وأن تحققا لها ما تريد من مكاسب . لكن هذه المساعدات السرية ما كانت لتؤدى الى نتيجة عملية حاسمة لاسرائيل ، فنحن نعرف الآن ان اسرائيل بدات هجومها على سيناء مستخدمة الطائرات والاسـلحة التى ابتاعتها من فرنسا كما أن وحدات عسكرية فرنسية فعلية ، ولا سيما من النـوع الجوى والبحرى ، قد اشتركت في حملة سيناء الى جانب اسرائيـــل ، كما أيدت الوثائق التى اكتشفت فيما بعد ، ومع ذلك فقد عجزت القوات الاسرائيلية عن تحقيق أى هدف حاسم قبل شروع الدولتين الغربيتين في عدوانهما الفعلى المباشر . كما نعرف ايضا أن القوات المصرية كانت قد شرعت في هجومها المضاد على المكاسب الاسرائيلية الآنية وانها حققت انتصارات ضخمة كان في الامكان استغلالها لاحباط هجوم اسرائيل كليا لولا أن سـيادة الرئيس عبد الناصر اصدر امره بسحب الجيش المصرى الى غرب القناة في اليوم الثالث من المعركة بعد أن تبينت له مؤامرة العـدوان الثلاثى لانقاذ الجيش من الوقوع في الفخ .
(المعرب)

الرأى المتزن فى بريطانيا . ولا تدل الحقيقة الواقعة ــ وهى تصميم ايدن على الاطاحة بعبد الناصر بعد التأميم ــ على أن ايدن كان يهدف الى ذلك بحكم الضرورة قبل السادس والعشرين من يوليو . ولكن ألم يكن يهدف الى ذلك فعلا قبل خطوة التأميم ؟ أرى لزاما علينا هنا أن نبدأ مناقشة الرد على هذا السؤال وأن نعرض أحداث الأشهر التى سبقت افتتاح الأزمة بشكل رسمى .

ولقد روى مؤرخ حياة نورى السعيد ، اللورد بيردوود ، الذى كان ولا شك يتمتع بثقة نورى المطلقة قبل نهايته فى يوليو عام ١٩٥٨ والذى كان فى وضع يمكنه من معرفة الكثير عن التفكير البريطانى الرسمى ، رواية غريبة للغاية فى مستهل حديثه عن أزمة السويس اذ قال :

« كان ثمة شعور آخذ فى النمو فى دوائر وزارة الخارجية البريطانية ، بأن من الواجب ، فى وقت ما ؛ وبطريقة من الطرق ؛ وقف عبد الناصر عند حده ، وعزله ، والاطاحة به ؛ على أيدى شعبه ان أمكن ونتيجة ما قد يقع فيه من اخطاء . وقد تحول هذا الشعور بوجه خاص بعد حملته الشخصية على حلف بغداد الى سياسة مقررة . ويبدو أن من المعقول جدا أن تكون وزارة الخارجية قد أبقت رئيس وزراء العراق على اطلاع بكل تطور فى سياستها ، وبكل ما طرأ عليها من نيات جديدة » .

وكان موقف عبد الناصر من حلف بغداد وحملته عليه قد تحددا بوضوح وبصورة لا تقبل الشك أو الخطأ منذ يناير عام ١٩٥٥ . ولكن هذا التاريخ يبدو مبكرا جدا بالنسبة الى خلق نية فى وزارة الخارجية البريطانية للاطاحة به بالرغم من ان حملته على حلف بغداد كانت تعتبر بصورة جازمة عدائية للمصالح البريطانية على النحو الذى كانت تقوم فيه آنذاك . ولعل هذا هو السبب الذى دفعنى الى اعتبار رواية اللورد بيردوود غريبة بعض الغرابة ، ولكن لا يمكن أن يكون هذا القول مجرد زلة قلم ، وان كان من الحكمة لمصلحة الجميع الامتناع عن اصدار الاحكام الفورية . ولكن اقحام مجرد كلمتين فى هذه الرواية تضفى عليها على الفور شيئا من المعانى والاهمية ، اذ انه يقول : ان هذا الشعور تحول بوجه خاص الى سياسة مقررة بعد معارضة حلف بغداد فى الأردن . ونحن نعرف بالضبط تاريخ هذه المعارضة فهو مارس عام ١٩٥٦ (١) .

---

(١) أرى أن المؤلف قد خلط هنا بين حادثين وتاريخين . أما الحادثان فهما فشل تمبلر في مهمته الهادفة الى ادخال الاردن في حلف بغداد ، وتنحية جلوب عن =

ونحن نعرف من أعترافات ايدن نفسه فى مذكراته ، بالاضـــافة الى غير ذلك من المصادر ، أن وجهة نظر حكومته فى عهد عبد النـــاصر ، قد تغيرت تغيرا جذريا بين نوفمبر ١٩٥٥ وأواسط يوليو عام ١٩٥٦ ، بحيث تقرر عدم المضى قدما فى تنفيذ مشروع السد العـالى • وكان هذا العرض قد قدم عن طريق خطوة مشتركة قامت بها بريطانيا وأمريكا فى نوفمبر عام ١٩٥٥ • وفى وســعنا أن نتذكر الآن أيضا أن ايدن اتخذ فى ذلك الشهر نفسه بادرة سلمية أساسية فى موضوع فلسطين عن طريق الرئيس عبد الناصر • وكان حريا بعرض بريطانيا لتقديم قرض السد العالى أن يربطها علنا بحكومة عبد الناصر لا لمدة بضعة أشهر ، فحسب ، ولا حتى لسنة واحدة بل لعشر سنوات • ولو نجحت مبادرة ايدن فى خطابه فى جيلدهول عن فلسـطين ، الى الحـد الذى يؤدى الى مفاوضات فعـالة بين العرب واسرائيل ، لأدى نجاحها الى ترابط جديد عميق وعلنى بينها وبين حكومة عبدالناصر . ولهذا فان التبدل فى سياستها الذى تمكن رؤيته عن طريق سحب العرض الخاص بقرض السد العالى ، يعتبر مهما وجوهريا للغاية • ترى متى وقع هذا التبدل ، وما هى النتائج التى تقف وراء هـذا التبـــدل ؟ •

يرجع التبدل قبل كل شىء الى طرد جلوب من الأردن فى مستهل شهر آذار « مارس » عام ١٩٥٦ ، وهو ما وقع بعد الهزيمة التى منيت بها بعثة تمبلر لادخال الأردن فى حلف بغداد ، وما تبع هذه الهزيمة من اضطرابات ومظاهرات • ولا ريب فى أن ايدن بطريقته الغريبة الخاصة فى رواية مذكراته التى تكشـف القليل من الحقائق ولكنها برغم قلقها كافية لتأكيد بعض المصادر الاولى ، قد رسم صورة لعملية التبدل كلها • وكان يرى أن مفتاح سياسة بريطانيا وسلطانها فى الشرق الاوســط والمحور الذى تلتف حوله المقاومة لطراز التبدل الذى بات عبد الناصر يعتبر رمزا له وحافزا عليه ، هو العهد القائم فى العراق فى ظل نورى السعيد • وكان عداء عبد الناصر المكشوف لحلف بغداد الجديد قد بدأ فى يناير عام ١٩٥٥،

= منصبه كقائد للجيش الاردنى وطرده من البلاد . وقد وقع الحادث الأول في شـــهر ديسمبر عام ١٩٥٥ ووقع الثانى في الاول من مارس عام ١٩٥٦ •

فالمعروف أن تمبلر وصل الى عمان في مهمته في السادس من ديسمبر وغادرها في الرابع عشر منه بعــد استقالة وزارة سعيد المفتى وتأليف وزارة هزاع المجـالى الاولى التى هدفت الى دخول الحلف ولكنها سقطت بعد اربعة ايام امام المعارضة الشـــعبية الطافية التى تمثلت في المظاهرات الصاخبة • (المعرب)

وهو مؤذ كل الأذى لسياسات كل من نورى وايدن . لكن القضية الاساسية لم تظهر طيلة عام ١٩٥٥ . وكانت هذه القضية تتلخص فى التساؤل عما اذا كان تركيز النفوذ البريطانى عن طريق توسيع حلف بغداد ، سيتعرض للتهديد من عبد الناصر ؛ وعما اذا كانت الموجة القومية الجديدة التى قادها ؛ ستهدد بصورة خاصة عهد نورى السعيد نفسه فى العراق . ولقد منى الحلف بصدمة عنيفة فى الاردن فى يناير عام ١٩٥٦. وذكر ايدن فى يومياته فيما بعد انه كان يعتزم محاولة ضم الأردن الى عضوية الحلف فى وقت لاحق . ولكن طرد جلوب المثير من الاردن فى مستهل شهر مارس قضى على جميع الآمال فى قيام محاولة ثانية ، وهدد بالمزيد من الضغط المباشر . فقد ذكر قائلا :

« وكانت مصلحة بريطانيا القومية تقوم على الحفاظ على استقلال الاردن الذى **نعتبره مركزا أماميا للعراق** .. وكان فى رأيى أن الحل الأمثل يقوم فى التقريب بين البلدين فى وقت لاحق .

أما اذا كانت نتيجة تطور الاحداث ــ كاخراج جلوب واحباط حلف بغداد فى الاردن ــ أن يصبح الاردن دويلة تابعة لمصر ، **فان نفوذ المملكة المتحدة سيتعرض للتحطم والانهيار** . أما اذا أسفرت النتيجة عن تحول الاردن والعراق الى شريكين بتشجيع منا ، فان سياسة التعاون مع بريطانيا ستقوم على دعائم ثابتة » .

وقد أكدت فى هاتين الفقرتين على بعض العبارات لأنى اعتبرها فى منتهى الأهمية والخطورة . ولقد ظلت هذه المملكة الهاشمية الصغيرة بالنسبة الى ايدن كما كانت لغيره من مهندسى السياسة البريطانية فى الشرق الاوسط منذ رسم تشرشل حدودها لأول مرة على غطاء مائدة طعام فى أحد مطاعم لندن فى عام ١٩٢١ ، محورا أساسيا من محاور هذه السياسة ، ترى فيها مركزا أماميا للدفاع عن العراق ، الذى تعتبره بريطانيا قاعدتها السياسية التقليدية فى المنطقة ، التى ان ضاعت على بريطانيا ، أدى ضياعها الى تحطيم النفوذ البريطانى كله فى تلك المنطقة . وقد بدا هذا الخطر الآن أى فى مارس عام ١٩٥٦ ، وشيك الوقوع وماثلا للعيان . ولقد رأينا من قبل أن جلوب ولويد وغيرهما من ذوى السلطان الذين يحملون نفس التفكير ، قد أفهموا ايدن أن طرد ملك الاردن غير المتوج كان نتيجة عمل المصريين وبعض المتطرفين من الواقعين تحت نفوذ مصر أو تأثير الشيوعية . وقد أعرب نورى السعيد بالطبع عن رأى مماثل لايدن . وليس ثمة من شك أيضا فى أن موليه ، رئيس وزراء فرنسا

الذى وصل الى لندن فى الثامن عشر من مارس — على حين كانت صدمة طرد جلوب لا تزال ماثلة فى الاذهان — قد حمــل الى ايدن استنتاجا مماثلا ، وأعرب له عن شعور شبيه بتلك المشاعر التى تحدثنا عنها ، وتتلخص فى أن من الواجب الخلاص من هذا المحرض الذى يخلق لبريطانيا وفرنســا جميع هذه المتاعب .

وكنا قد ذكرنا من قبل فى فصل سابق ، أن نورى السعيد كان قد أكد لايدن أثناء المظــاهرات التى وقعت ضد تمبلر وضد حلف بغداد فى الاردن بأن مصر هى المصدر الحقيقى للمتاعب، وان من الواجب ايفاد قوة عراقية كبيرة الى الاردن «تكفى للتأكد من تحقيق النجاح» . ولقد رأينا ايدن يتحدث فى شهر مارس عن فــكرة الاتحاد بين الاردن والعراق ، مؤكدا من جديد ، ما سبق لنا أن عرفناه من عدة مصــادر أخرى . وقضى نورى السعيد وايدن طيلة المدة الواقعة بين مارس واكتوبر من عام ١٩٥٦ فى محادثات مستمرة تتناول طريقة تحقيق هــذا الاتحاد ، ووقف كل محاولة محتملة لابعاد الاردن عن جبهة النفوذ البريطانى وضمها الى الحركة القومية التى تتولى مصر وسورية الدور القيادى فيها . وكانت هذه الخطة جزءا أو جناحا كاملا من الخطة العامة الرامية الى الاطاحة بعبد الناصر فى مصر . وقد تبلورت قبل منتصف سبتمبر ، لتتخذ شكل خطط محدودة ترمى الى السيطرة العسكرية العراقية على الاردن . ولقد لعبت هذه الخطة دورا جوهريا فى السعى الحثيث العام للاطاحة بعبــد الناصر ، الى الحد الذى حمل دالاس وزير الخارجية الامريكية على ادراجها بين التهم المحدودة المتعلقة بالسويس والتى وجهها الى حكومة ايدن . ولا ريب فى أن المستر دالاس كان على علم دقيق بهذا البرنامج الخفى ، مما دفعه الى تضمين تهمته بعض التفاصيل التى تقول ان ايدن ونورى السعيد قد خططا لتجزئة الاردن بين اسرائيل والعراق ، فى محاولة نهائية لايجاد تسوية عربية — اسرائيلية يمكن فرضها وسط جو الفوضى الذى سينجم فى المنطقة اثر الاطاحة بالرئيس عبد الناصر .

ولكن متى نضجت خطة نورى وايدن لاســتيلاء العراق على الاردن لأول مرة ؟ اننا نعرف على وجه التحديد ، الحادث الذى لعب دور الزناد الاخير الذى حول الهدف الذى كان ايدن فى شــهر مارس لا يزال يعتقد باحتمال تأجيله ، الى ضرورة عاجلة سريعة ، ففى شهر يونيو من عام ١٩٥٦ ، أى قبل أسابيع من سحب عروض القرض للسد العالى وبالتالى لقيام أزمة السويس ، وافق الملك حسين على اجراء انتخابات عامة جديدة

في الاردن • وحل البرلمان الاردني ، وحدد شهر اكتوبر موعدا للانتخابات الجديدة • وكان من المتوقع طبعا أن العناصر المؤيدة لمصر هي التي ستفوز في هذه الانتخابات • وما لبث نوري أن طار فـــورا الى لندن متظاهرا ، بدافع العلاج وسوء حالته الصحية ، حيث أقام فيها طيلة شهر يوليو • وكان نوري السعيد ، في الواقع ضيف ايدن على العشاء ليلة الســـادس والعشرين من يوليو ، أي في الليلة نفسها التي كان قد عرف من قبل بأنها ستحمل الى لندن أنباء بيان خطير سيلقيه الرئيس عبد الناصر ، ردا على قرار سحب عروض القرض للسد العالي •

وليس ثمة من يشك في الدور الذي لعبه ايدن في حمل بريطانيا على اتخاذ قرارها بسحب عرض القرض • ولقد سجل ايدن نفسه في مذكراته أن نوري كان منذ بدء العام الجديد يعرب عن تذمره من عروض القرض • ترى ما هو الرأي الذي قدمه نوري الى أصدقائه الانكليز عن طريقة سحب العـــرض وعن رد فعل مصر المحتمـــل على هـــذه الخطوة ؟ أرى أنه ليس من الصعب أبدا تحديد الرد على هذا الســــــؤال • لقد كان من رأي نوري أن السحب ان تحقق يجب أن يصدر عن الولايات المتحدة أولا لا عن بريطانيا• وهكذا يتحول غضب الرأي العـــام العربي الذي توقعه نوري الى الولايات المتحدة بدلا من أن يتجه ضد بريطانيا التي يحس نوري بارتباطه الشخصي بمكانتها العامة في الشرق الاوسط • وكان من رأي نوري أيضا أن طريقة سحب العرض يجب أن تكون حازمة ومهينة ، فلقـــــد كان يعرف أن أي أسلوب آخر يجري عن طريق التطوير والسرية في مفاوضات تسير سيرا وديا سيسيء اليه والى حكومته • ترى ماذا سيحدث فيما بعد ؟ •

واذا صح ماقيل من أن ايدن ومستشاريه كانوا عاجزين عن التكهن برد فعل القاهرة ، فمن المتعذر على المرء أن يصدق بأن نوري كان عاجزا مثلهم عن معرفة الحقيقة • ان عقلا مثل عقل نوري ، كان يفترض أن الرئيس عبد الناصر سيشعر بالمهانة ، مصحوبة بالعجز عن أن يفعل شــــــيئا ، فتتعرض في مثل هذه الحالة مكانته عند العرب في المنطقة الى التدهور • ولكن كان من المحتمل من الناحية الاخرى ، أن يبحث عبد الناصر عن رد عنيف حاسم ، وكان نوري يرى أنه في مثل هذه الحالة ، ومهما كان رد عبد الناصر ، فانه سيؤدي حتما الى أزمة حاسمة في العلاقات المصرية ـ الغربية • وكان يرى في مثل هـــذه الأزمة شيئا ضروريا للغاية ، ولم يكن ايدن في حاجة الى من يقنعه بضرورتها • ولكن مهما كانت الطريقة التي ستتبع في الاطاحة بعبد الناصر ، فمن الواجب ألا تصدر عن بريطانيـــا

وحدها ، وألا تؤدى الى عودة النظام الاستعمارى القديم السابق . ان هذه الطريقة يجب أن تتركز على أساس مشكلة ذات طابع دولى (١) .

ولا ريب فى أن ماحدث ، كان صورة طبق الأصـل لهذا التخطيط فلقد أتاح تأميم شركة قناة السويس، الفرصة التى كان الجميع فى حاجة ماسة اليها ، اذ هيأ الظروف والشروط المسببة لاستخدام القوة ضد عبد الناصر ، على النحو الذى كان ايدن ونورى يؤمنان بضرورته. وكما كان الحادثان الخطيران اللذان وقعا فى يونيو عام ١٩٥٦ وهما سحب المستر دالاس الاستفزازى لعروض قرض السد العالى ، وبيان الرئيس عبد الناصر الغاضب بتأميم القناة ، بمثابة نعمة ساقتها الاقدار لفرنسا واسرائيل، فقد كانا فى الوقت نفسه هدية من السماء أيضا لكل من بريطانيا والعراق. ولما كانت الدول الاربع كلها راغبة فى الخلاص من عبد الناصر ، فان هذه الرغبة انبثقت عن أكثر من سبب واحد خاص ، أو سبب مشترك بينها وعندما حل شهر يوليو عام ١٩٥٦ كانت هذه الحكومات الاربع تتحرك مدفوعة بسلسلة من الاحداث العرضية فى الطريق الى السويس .

ومع ذلك ، أرى أن الواجب يدعونا الى المزيد من الحيطة فى هـذا التحليل الذى نقوم به . فالتحليل بعد ظهور الحقائق ، والتفسير الرجعى للتاريخ يعتبران خطرين كل الخطورة . وكثيرا ما تقع الاحداث العظمى . ومن المحتمل أن يكون كل ما وقع فى يوليو مجرد تفاعل ثورى متفجر بين أعمال جريئة وأعمال أخرى متهورة . وليس فى امكاننا حتى الآن أن نقيم نظرية أكثر تناسقا مما قلناه وأن ندعمها بالوثائق . وليس فى وسـعنا حتى الآن أن نجد الوثائق اللازمة لتوجيه الاتهـام الى حكومة أو أكثر من الحكومات الاربع ، بأنهـا عملت عامدة قاصدة على تشجيع عمـل استفزازى أمريكى على أساس الأمل بأن يؤدى هذا العمل الى دفع الرئيس عبد الناصر الى أن يخطو الخطوة التى تمكن هذه الحكومات من استخدام القوة ضده .

ولكن ليس فى وسعنا أن نستبعد هذه المجموعة الغريبة من الاحداث العرضية على أنها أمور تافهة ، لمجرد افتقارنا الى الوثائق اللازمة لاقامة الدليل على وقوعها . ولم نستطع فى الوقت نفسه أن نجمع الأدلة اللازمة

---

(١) يروى اللورد بيردوود هـذه الآراء نيابة عن نورى السعيد . مع العلم بأنه يؤكد بأنها وقعت بعد التأميم . ولكن مما لا شك فيه أن نورى السعيد كان قادرا على أن يفكر هذا التفكير قبل السادس والعشرين من يوليو . (المؤلف)

للبرهنة على أن رد فعل بريطانيا وفرنسا الرسمى على عمل الرئيس عبد الناصر كان مصطنعا أو أنه كان فى محله • وقد درسنا حتى الآن الأدلة التى تثبت أن جميع الحكومات الاربع كانت فى مطلع شهر يوليو مصممة على وجوب الخلاص من عبد الناصر ، وكانت تتبع سياسات تشير اشارات واضحة الى توقع أزمة بصدد قروض السد العالى •

ويمكننا أن نلخص بالتأكيد الصورة بالنسبة الى ايدن ونورى قبل السادس والعشرين من يوليو على النحو التالى :

١ ــ أدت أحداث الاردن الى قيام تصميم على وجوب الاطاحة بعبد الناصر ، على اعتبار أن هذا التصميم ينبعث عن عقيدة جازمة •

٢ ــ كان ايدن قد قرر قبل الخطوة التى خطاها دالاس ، ضرورة سحب عروض القرض للسد العالى •

٣ ــ يثير ما يدعيه ايدن من براءة مما فعله دالاس ، وجهل به ، الشكوك فى أن عكس هذا الادعاء بالبراءة والجهل هو الحقيقة الواقعة •

٤ ــ كان رد عبد الناصر ، هو ما توقعه أى انسان يلم بالتاريخ المصرى ، ولم يكن فى وسع أى خبير أن يتجاهل موضوع شركة القناة ، لو طلب اليه أن يقدم تقريرا عما يتوقعه من عبد الناصر كرد فعل على ما حدث •

٥ ــ يشير كل ما نعرفه عن تقويم ايدن لموقف عبد الناصر الى الاعتقاد بأن آخر ما كان يتوقعه ايدن وزملاؤه ، هو أن يقف عبدالناصر، مجرد موقف سلبى غاضب فى القاهرة •

٦ ــ ان كل ما فعله عبد الناصر فى الواقع كرد فعل على العمل الغربى الاستفزازى الذى ظل الشك يلف دور ايدن فيه ، قد خلق وضعا كان السير انطونى ونورى السعيد يودان دون شك ، أن يجعلا منه مبررا وقاعدة لاستخدام العنف ضده •

أما وقد دونا كل هذا فقد بات فى وسعنا أن ننتقل الآن الى موضوع السويس نفسه • ترى ما هو رد فعل ايدن على الانباء التى وصلته فى السادس والعشرين من يوليو ؟ وهل كان هذا الرد أصيلا ومعقولا على ضوء ما فعله عبد الناصر ؟ وما الذى فعله عبد الناصر حقا بتأميمه شركة قناة السويس ؟ • وهل يبرر ما فعله اللجوء الى القوة أو التهديد باستخدامها؟ وهل كانت مطالبة السير آنطونى لمصر بايجاد تسوية سلمية للوضع فى

قناة السويس تتفق بصورة خاصة وبشكل بارز مع عمل عبد الناصر ومع التفاسير التى قدمها هو - أى ايدن - لشعبه وبرلمانه والعالم بأسره ؟ وهل كان السير أنطونى وزملاؤه الفرنسيون يعتزمون الاطاحة بعبد الناصر منذ البداية وبطريق القوة ، مع العلم أنهم ظلوا ينادون بالاصلاح السلمى للوضع ، واللجوء الى القوة كملجأ أخير لهذه التسوية ؟ وهل كانت الصورة التى رسمها ايدن لهتلر ومنطقة الراين وتشبيههما بالرئيس عبد الناصر وقناة السويس صحيحة وتتفق مع الواقع ؟ وهل كانت هذه الصورة هى التى دفعت رئيس الوزراء حقا الى أن يفعل ما فعل ؟ .

أرى أن جميع هذه الأسئلة أساسية وجوهرية فى محاولة النفاذ الى جوهر ما وقع فى سيناء والسويس . وأرى لزاما علينا أن نقوم بدراسة هذه الأسئلة والرد عليها قبل أن ننتقل الى معالجة الخفايا الأخيرة للحرب الثلاثية نفسها .

١٠

التسوية السلمية

« تحتم علينا بوصفنا من الدول الموقعة على ميثاق الامم المتحدة ، أن نبحث أولا عن تسوية بالوسائل السلمية .. دون أن نتخلى على أية حال، عن فكرة اللجوء الى القوة ، كملاذ أخير . كان هذا دائما هو الموقف الذى اتخـــذته حكومة صـــاحبة الجـلالة ، وحكومة فرنســـا في كافة مراحـــل النزاع ... »

ــ انطونى ايدن في مذكراته ــ

هل كان ايدن صادقا فى قوله هذا ؟ وهل كان متأثرا بهـــذا المبـــدأ الذى حدده فى كافة مراحل النزاع ؟ أو انه كان يعتزم منذ البداية، هو وزملاؤه اللجوء الى القوة ، لا لاصلاح الوضع بالنسبة الى مشكلة القناة، بل للاطاحة بحكم عبد الناصر ؟ وما الذى فعله عبد الناصر أولا وحقا فى تأميم شركة القناة ؟ وما الحقائق المتصلة بهذه القناة وشركتها ؟

القناة :

كانت شركة القناة فى الخامس والعشرين من يوليو ، والى أن أزفت ساعة التأميم هى المسئولة عن عبور البواخر فى الممر المائى ، واستخدام المرشدين ، وجبى العائدات وصيانة قاع القناة وجانبيها . وكانت هذه الواجبات قد حددت بموجب عقد امتياز بين الشركة وبين الحـــكومة المصرية التى سجلت الشركة رسميا لديهـــا . وقد ضمن اتفاق عام ١٨٨٨ حرية عبور القناة ، وهذا الاتفاق هو تعاقد قصد منه بوضوح أن يظل سارى المفعول ، مهما حدث لشركة القناة ، ونصت المادة الرابعة عشرة من ميثاق عام ١٨٨٨ على ما يلى :

« ان مدة العمل بهذه الاتفاقية غير محدودة بفترة عقد الامتيـــاز الممنوح لشركة قناة السويس العالمية ... »

ولم تكن الشركة هى التى تملك قناة السويس بمياهها وقاعها وشطئانها ، وانما مصر وحدها ، هى التى تملكها . وكان السير انطونى ايدن نفسه هو الذى أقر اتفاق الجلاء لعام ١٩٥٤ . الذى نصت المادة الثامنة منه بوضوح على أن قناة السويس البحرية ... هى جزء لايتجزأ من مصر . والعامل الذى يجعل من القناة شيئا دوليا هو ما ترتبط به مصر من التزامات تعاهدية للسماح بحرية العبور فيها ، بالاضافة الى الحقيقة الواقعة وهى أن تجارة أوربا الغربية كلها ، وتجارة عدة دول أخرى ، تقوم على الانتفاع من هذه الطريق المختصرة عبر العالم .

ولم تكن الشركة تملك اى سلطان يضمن حرية العبور ، كما أن هذا الضمان لايعتبر بحال من الاحوال جزءا من واجبها . وكان هذا السلطان فى يد بريطانيا ، عندما كانت قواتها تحتل منطقة القناة ، اذ كان فى مكنتها أن تحظر العبور ، كما حظرته ابان الحربين العالميتين . ولكن السير انطونى نفسه وافق على جلاء هذه القوات ، وقد جلت فعلا عن القناة فى مايو (ايار) عام ١٩٥٦ . ولم يطلب ايدن أو الحكومة الفرنسية من مصر ، قبل الجلاء أو بعده ، أية ضمانات اضافية خاصة ، بعد أن غدت صاحبة السلطان العسكرى الوحيد فى مصر ، لضمان حرية المرور . وكانت الضمانات الوحيدة القائمة لحرية المرور فى شهرى يونيو ويوليو من عام ١٩٥٦ ، ومنذ تم الاتفاق على الجلاء فى عام ١٩٥٤ ، متركزة فى احترام مصر لميثاق عام ١٨٨٨ ، وقدرة أية دولة وحقها فى الشكوى الى المحكمة الدولية ، على مصر فى حالة خرقها لهذا الميثاق ، وما يمكن للدول أن تتخذه من اجراءات نهائية ضد مصر ، فى حالة خرقها فعلا للميثاق .

ولم تكن هناك أية سلطة مانعة تستطيع أن تؤكد حرية العبور . ولم يكن موظفو الشركة أو مرشدوها ، يحملون أية أسلحة ، كما لم تكن هناك أية قوة عسكرية غير مصرية ترابط فى منطقتها . وكان فى مكنة مصر فى أى وقت بعد جلاء آخر جندى بريطانى عن القناة ، وحتى قبل هذا الجلاء بأمد طويل بالنسبة الى الملاحة الاسرائيلية ، أن تحرم العبور فيها على أية دولة من الدول . ولم يكن فى وسع الشركة أن تحول دون هذا ، ولم تحل بالفعل دون منع سفن اسرائيل من العبور فى الماضى . ولم يكن السير انطونى ايدن قد اقترح استخدام القوة ، أو حتى خلق أزمة دولية خطيرة بسبب منع مصر لسفن اسرائيل من المرور فى القناة .

اذن ما الذى فعله عبد النــاصر حقا فى الســادس والعشرين من يوليو ؟ ان كل ما فعله هو انتزاع ملكية الشركة صاحبة الامتياز . وقد تعهد فى نفس البيان الذى صدر فى هذا الصدد ، بالتعويض العادل على جميع حملة الاسهم ، طبقـا لأسـعار الاغلاق فى بورصة باريس مسـاء الخامس والعشرين من يوليو . وأعلن كذلك أن سلطة مصرية رسمية ، ستتولى ادارة القناة ، فتجبى مصر عائداتها • وتنتفع من هذه العائدات فى تمويل السد العالى •

وقد أعلن الرئيس هذا القرار فى خطاب غاضب ثائر • تحدث فيه عن القومية العربية التى وصفها بأنهــا شعلة ســاعرة من اللهب من « الخليج الى المحيط » • ولم يكن قد أنذر الشركة بأنه سيعمل عـــلى انتزاع ملكيتهـــا ومصادرتها ، وبينما كان يلقى خطابه ، كانت سلطة القناة المصرية الجديدة تضع يدها فجـــأة على موجودات الشركة وتفرض سلطانها على موظفيها • ولم يقترح التفاوض مطلقـــا مع الشركـــة عـــلى تأميمها ، وانما جعل منه أمرا واقعا •

ولكن عبد الناصر تعهد رسميا بالتعويض • ولم تنطلق رصــاصة واحدة ، ولم يرتكب أى عـــدوان • فالشركة مسجلة فى مصر ، والقناة أرض مصرية . ولم يحظر على أية باخرة فجأة حق المرور . ولم تصدر عن عبد الناصر ، أية بادرة جهرية أو سرية توحى بأنه يعتزم اغلاق القناة فى وجه بريطانيا أو فرنسا أو أية دولة أخـــرى باستثناء اسرائيل التى انقضى أمد طويل على حصارها • فعـــلى النقيض من ذلك ، أوحى خطاب الرئيس عبد الناصر الذى أعلن فيه أن عائدات القنـــاة ستستخدم فى تمويل السد العالى ، بوجود مصلحة مباشرة لمصر فى الابقاء على القنـــاة مفتوحة امام جميع البواخر ، ولا سيما تلك التى تعود الى كبار المنتفعين بها وفى طليعتهم بريطانيا التى ألفت بواخرها فى مجموع حمولتها ربع الحمولة التى مرت بالقناة فى عام ١٩٥٥ •

وكان من حق بريطانيا وفرنســـا وغيرهما من دول العالم المنتفعة بالقناة ، أن تطلب الآن تأكيدات صريحة بأن مصر ستواصل احترام حرية المرور فيها ، وان مصر بعد أن وضعت يدها على العـــائدات ، ستبقى الرسوم على مستواها الخفيض السابق ، وتحفظه مستقرا وواحـــدا بالنسبة الى جميع الدول ، وانها لن ترفع هذه الرسوم الا بعد مفاوضات

صحيحة مع المنتفعين(١) . وكان من حق العالم أيضــا الحصول على تعهدات صريحة وواضحة بأن نسبة معقولة من دخل القنـــاة ستستخدم في صيانة قاعها وضفتيها وفى تحسينها طبقا لاحتياجات العـالم اليها . ولم تكن جميع هذه المطالب ، مجرد أمور مشروعة فقط ، بل ان الطريقة التى اتبعت فى هذا التأميم ، تفرض مثل هذا النوع من الالتزام(٢) .

ولكن السير أنطونى ايدن وزملاءه لم يطلبوا أى شيء من هذا القبيل وانما كان ماطلبوه فورا ، وهم يعدون عدتهم عسكريا مضفين عليها كل اشكال العلنية والجهر ، ايجاد سلطة دولية « تتولى ادارة القناة » .

ولقد طلب ايدن أن تقوم هذه السلطة الدولية بتشغيل القناة عن طريق التعاقد مع المرشدين وتأمين عبور البواخر فيها وجمع العـــائدات واعطاء مصر حصة معقولة (أى عقل ؟) منها ، وصيانتها وتحسين أوضاعها. وقد يكون من الواضح أن هذه المطالب ، تعتبر تدبيرا نموذجيا لادارة كافة الموارد والتسهيلات ذات الصبغة العالمية سواء أكانت قنوات وممرات مـــائية كالسويس أو بناما أو كييل ، أم مطارات جوية ذات

---

(١) كان المؤلف منصفا كل الانصاف عند تحدثه من حق مصر في القناة ، ولكننا نعتقد أنه قد جانب هذا الانصاف عندما تحدث عن حق الدول في مطالبة مصر بكيت وكيت ، من الشروط ، لا سيما بالنسبة الى الطريقة التى صاغ فيها هذا الحق . فالقناة أرض مصرية ، وان كانت تؤلف ممرا مائيا دوليا ، ولا يختلف وضعها من ناحية السيادة عليها عن وضع قناة بناما التى تمر في أراضي جمهورية بناما ، والتى تفرض الولايات المتحدة عليها حق السيادة بطريقة لا نود الخوض فيها الآن . ولكن ما اود قوله هنا ، هو أن قوانين الملاحة الدوليـــة هى التى تحدد حقوق مصر والتزاماتها بصـــدد السويس ، وأن لا مجال هناك للتحدث عن حقوق أخرى للدول المنتفعة بالقناة . وكما أن قوانين الطيران الدولية هى التى تحـدد قواعد استخدام المطارات والممرات الجـوية العالمية بموجب اتفاقات دولية منظمة لا وجود فيها لحقوق خاصة بالنســبة الى دولة أخرى غير الدولة التى توجد فيها أو تمر في أجوائها . فان القوانين الدولية البحـرية هى التى تحدد الوضع بالنسبة الى ممر السويس المائى ايضا .

(المعرب)

(٢) أعتقد أن الانصاف قد جاوز المؤلف ثانية هنا . فليس في الطريقة التى اتبعها سيادة الرئيس عبد الناصر في اعلان التأميم ، أى خروج على حقه المشروع في تأميم القناة أو في تأميم أية شركة اجنبية أخرى في بلاده ، يمنحه اياه القانون الدولى . ولم يكن من المنتظر أن يقابل سيادته قرار الغرب بسحب العروض وهو القـــرار الذى جاوز كل مألوف دولي في اعلانه وصيغته باللين والوداعة كما لم يكن من المنتظر أن ينأى عن المفاجأة في الاعلان ، ليتيح المجال للشركة المستغلة لتهريب أموالها وموجوداتها .

(المعرب)

صبغة عالمية . وهنـاك من ينادى أيضا بقيام « منظمة عالمية عادلة » تتولى السيطرة على جميع الموارد والمرافق العـالمية الاساسية كالزيت والأورانيوم وغيرهما . ولكن مثل هذه السلطة الدولية حتى على الممرات المائية الدولية ، لم تكن مفروضة على أى ممر دولى كما لم يسبق لأحـد أن طالب بها • فلماذا يستثنى ايدن قناة السويس من هذا الوضع ويطلب لها تنظيما خاصا بها ؟ •

ولقد تركزت حججه العلنيـة منذ السـابع والعشرين من يوليو على مايلى :

« لن تقبل حكومة جلالتها أى ترتيب لمستقبل هذا الممر المـائى العظيم يبقى عليها تحت السيطرة «غير المقيدة» لدولة واحدة (١) » .

ويضيف السير أنطونى ايدن فى نهاية قصته عن السويس ، تعريفا آخر ضمنه تنبؤا ينطوى على التشاؤم اذ قال :

« لا ريب فى أن أوربا الغربية ستكون من السـذاجة بمكان عظيم اذا توقعت أن تضمن لها حرية المرور فى القناة فى أوقات الطوارىء الا اذا كان لديها القوة الكافية على فرض هذه الحرية ، وهى قوة لا أعتقد أنها ستتوافر لها من جديد » •

ان هذا التأكيد فى هذه العبارة على (القوة الكافية) يرمز الى قضايا فى منتهى الخطورة • فلقـد ظل ايدن وزملاؤه طيـلة الفترة التى تلت السابع والعشرين من يوليو والتى تظاهروا فيها بالعمل من أجل ايجاد حل سلمى للوضع يؤكدون أن عبد الناصر قد « اغتصب القناة » وهذا ماذكره ايدن فى اذاعته فى الثامن من أغسطس ، وان مصر باتت تملك « سيطرة لامقيدة » عليها ، وان بريطانيا والعالم بأسره قد خسرا «القوة لفرض» حرية المرور فيها ، ولكن ايدن فى قوله الى البريطانيين بأن عبد الناصر قد « اغتصب القناة » . كان يرتكب مغالطة لا يمكن للمرء أن يشك فى انها كانت مقصودة ومتعمدة • ولم يكن ثمة خارج مصر من انسان أكثر دراية ومعرفة بأن مصر لا تستطيع « اغتصاب القناة » لانها مصرية لحما ودما ، وطبقا لنصوص جميع الاتفاقات التى كان من ضمنهـا الاتفاق الذى وقعه ايدن نفسه • ومع ذلك فقد ظل السير أنطونى ، وهو الدبلوماسى الفاره ، ذو الخبرة الطويلة طول حياته فى الدقائق القانونية وأهميتها ،

---

(١) خطاب ايدن في مجلس العموم في ٣٠ من يوليو ١٩٥٦ •

يردد منذ بداية تلك الازمة الى نهايتها ، وحتى فى مذكراته بعد انتهائها هذه الاكذوبة الضخمة ذات الطابع الملتهب بصورة علنية (١) . ولقد نجح ايدن الى حد كبير فيما هدف اليه ، اذ طبع مغالطته فى عقول البريطانيين حتى اننا نرى التعبير الشائع حتى اليوم عند الاشارة الى أزمة السويس ، يتردد على ألسنة البريطانيين على هذا النحو ... وعندما اغتصب عبد الناصر القناة أو أممها . وليس المقصود من هذا التعبير مجرد المماحكة أو المشاكسة ، بل انه يؤلف خلاصة الأزمة كلها وجوهرها.

ولعل ماهو أهم من هذا على أى حال ، ادعاؤه ، بأن مصر باتت تملك الآن « سلطة غير مقيدة » على القناة لاول مرة ، وكأنه يعنى بذلك أن هذه السلطة لم تكن موجودة لديها فى الوقت الذى كانت الشركة فيه تتولى ادارة القناة ، وان عمل عبد الناصر قد أدى الى اضاعة قدرة العالم « على فرض حرية المرور » . ولكن لو كانت الشركة قد ملكت فى يوم ما « السلطة على فرض حرية المرور » لكان فى امكانها حتما أن تجد القوة على مقاومة قرار مصادرتها فى السادس والعشرين من يوليو . فالواضح أن الشركة لم تملك قط هذه السلطة . ومن الواضح أيضا أن عمل عبد الناصر لم يفرض « سيطرة » جديدة على القناة ، اذ أن مصر كانت تملك هذه السيطرة الشرعية منذ سنوات طويلة . وجدير بنا أن نذكر ، أن وجود القوات البريطانية نفسها فى المنطقة حتى شهر حزيران « يونيو » لم يحل بين مصر ، وبين ممارستها هذه « السيطرة » فى موضوع الملاحة الاسرائيلية التى منعتها من عبور القناة .

وكان هناك تناقض أكثر بروزا فى موضوع « الحل السليم للوضع » والمبررات التى استخدمت له . فلقد اقترح السير انطونى قيام سلطة دولية لتولى ادارة القناة ، وزعم أن وجود هذه السلطة ، سيزيل « سلطة مصر غير المقيدة » عليها . وليس ثمة الا سبيل واحد ، تستطيع هذه السلطة الدولية أن تحقق بواسطته اقتراح ايدن . وهو ايجاد قوة عسكرية دولية ترابط دائما على ضفتى القناة لحماية « السلطة الدولية » وحماية البواخر التى تنشد عبورها ، من السلطان العسكرى المصرى .

---

(١) كان من بين الحجج التى أوردها ايدن ومولیه وشركة القناة . ان مقدمة ميثاق عام ١٨٨٨ ، «ضمنت» امتياز الشركة ، ولذا فان الغاء عبد الناصر للامتياز يعتبر خرقا للميثاق نفسه . ولكن ايدن ومولیه ورجال الشركة لم يكلفوا انفسهم عناء تذكير الرأى العام العالمى بأن المادة الرابعة عشرة من الميثاق تبطل هذه الحجة تمام الابطال .
(المؤلف)

ولكن ايدن لم يتقدم بمثل هـذا الاقتراح أبدا . فلقد طالب بأن يعمل مجلس الادارة الدولى طبقا لاتفـاق خطى يعقد مع مصر ، ولا يمكن أن يكون لهذا المجلس سلطان أضخم لفرض حرية المرور ـ من ذلك الذى كان فى حوزة الشركة وهى تتولى ادارة القناة . فالمعاهدات وحدها هى التى تضمن حرية المرور • فمصر وحـدها ستظل حتى مع قيـام هذا المجلس ، صاحبة السلطان الفعلى على القناة ، وصاحبة السلطة الفعليـه فى منع حرية المرور للسفن التى ترغب حكومتها فى منعها •

ومع ذلك ، كان من حق العـالم أن يطلب تأكيـدات واضـحة ومحدودة (١) من عبد الناصر بالنظر الى الطريقة التى اتبعها فى تأميم الشركة • وسنرى بعد قليـل وبصورة مفصـلة أن عبد النـاصر قد قدم مثل هذه التأكيدات بين السابع والعشرين من يوليو وبين السادس عشر من اكتوبر ، لا فى شكل تعابير عامة لا تحـديد فيها عن حرية المرور فحسب ، بل فى شكل اقتراحات عملية محددة ومفصلة أيضا •

وسنرى فيما بعد أيضا أن ايدن وشركاءه لم يكتفوا بعـد السابع والعشرين من يوليو بتجاهل هـذه الاقتراحات المصرية تجـاهلا كليـا فحسب ، بل حاولوا منع عرضها على الشعب البريطانى وشـعوب الغرب عامة • وواصل ايدن حتى فى مذكراته الرغبة فى منع الناس من تفهمها •

وبالاختصار ، حاول ايدن وزملاؤه منذ اليوم الاول للأزمة ، أن يشوهوا حقيقة ما فعله عبد الناصر ، وما يعنيه هذا العمل للمنتفعين بالقناة ، وان يلقوا عليه لباسا من التضـليل • ولقد تظاهروا بتقـديم اقتراحات سلمية لا يمكن لها أن تصـلح الوضع ولا أن تزيـل الخطر «الكاذب» الذى حاولوا تصـوير وجوده للنـاس • وشرعوا منـذ البداية فى محـاولة الحجب عن بريطانيـا والعالم أن مصر كانت تؤكد وجـود مصلحة كبيرة فى تأمين حرية المرور ، وانها كانت تعرض أوضح التأكيدات المتعلقة بكل نقطة من نقاط القلق المشروع على مستقبل القناة . ويزل القلم بيد ايدن وهو يدون مذكراته المليئة بمثل هذه الزلات ، فيعترف بحقيقة ما كان ينتويه ، باقتباس البرقية التى بعث بها الى أيزنهاور فى السابع والعشرين من يوليو والتى قال فيها :

« ومن الواجب الا نسمح لأنفسنا بالخـوض فى مجـادلات فقهية

---

(١) سبق ان أوضحت في صفحة سابقة أن لا وجود لهذا الحق مطلقـا •
(المعرب)

حول حقوق الحكومة المصرية ، فى تأميـم شركة تعتبر اصطلاحا شركة مصرية ٠٠٠ واننى لأثق بأن الواجب يحتم علينــا أن نثير المشكلة مع عبد الناصر على أوسع نطاق دولى ممكن » ٠

ويمكن لنا الآن ان نرى الطريقة التى عملت فيها هذه الخطة التى وضعها ايدن فى التأثير على الرأى العام ، من صــورة التعليقـات التى ظهرت فى صحيفة التايمز اللندنية ٠ فلقد نشرت فور ظهور أنباء التأميم فى السادس والعشرين من يوليو ، مقالا يحمل توقيع « خبير » جاء فيه أن الشركة مصرية من الناحية القانونية ، ولكنه مضى الى القول ، بان بقاء ميثاق عام ١٨٨٨ الذى يضمن حرية المرور نافذ المفعول حتى بعــد زوال الشركة من الوجود ، « تعتبر ردا على أولئــك الذين يقولون بأن تأميم عبد الناصر للشركة سيؤدى الى اغلاق القناة أو يهدد باغلاقها » ٠ ولكن هذه الصحيفة نفسها عادت الى القول فى الاول من آب (أغسطس) وبعد أن شرع ايدن يعمل على انهاء أى خوض فى بحث المجالات الفقهية »، مغيرة رأيها الاول على النحو التالى :

« ان النقاش فى القضايا الفقهية القانونية حــول ما اذا كان من حق عبد الناصر قانونا أن يغتصب القنـــاة ٠ سلوك يطرب المتأنقين ويبهج ضعاف القلوب ، ولكنه لا يصل مطلقا الى صلب القضايا وجوهرها » .

صورة ايدن عن هتلر وانتزاع الراين :

أثبتنا حتى الآن أن رد فعل حكومتى ايدن وموليـــه على عمـــل عبد الناصر ، بالنسبة الى موضوع القناة ومستقبلها ، كان مصطنعـــا وزائفا كل الاصطناع والزيف . وأرى لزاما على قبل البحث فى الاسباب التى أدت الى هذا الاصطناع . ان اتعمق فى بحث دوافع ايدن الحقيقية والخاصة ، من « جهرية وخفية » ٠ ويتلخص رأى بعض الذين يعتبرون أنفسهم وسطا بين الآراء المتناقضة كل التناقض حول قضية السويس ، والذين يتميزون بشىء من التفكير ، فى أن ايدن كان يود بالطبع الاطاحة بعبد النـــاصر ، حتى ولو لم يجهر بعـــزمه هــذا ، ويضيفون أن الحـــافز لايدن على اتخاذ هـــذا الموقف أصيل ومعقول ، اذ أنه كان يخشى أن يكون عبد الناصر ، صورة ثانية لهتلر وان يكون تأميم القنـــاة صورة أخرى لاعادة احتلال ألمانيا للرايخ ، ولكن هل كان هــذا الخوف أصيلا حقا ، أو أنه كان المبرر العاطفى ، والتبرير العقلى الظــاهرى ، لحوافز أخرى ؟

حقا لقد كانت الصور التى استثارها ايدن فى هذا الموضوع مؤثرة الى حد خطير ، ولكن هل كانت صورا حقيقية ياترى ؟

لاريب فى أن هذه الاسئلة الطريفة للغاية كانت تسيطر على المرء عندما يشرع فى قراءة مذكرات ايدن • فالكتاب يعالج موضوع عبد الناصر ، والعلاقات بين مصر وبريطانيا ، التى كان ايدن مسئولا عنها منذ عام ١٩٥٤ • ففى القصة المفصلة والطويلة التى يعرضها فى كتابه نرى رأيين متعارضين يشكلان قطبين متباعدين • بالنسبة الى وجهة نظره فى عبد الناصر • فهو يقول عنه بالنسبة الى عام ١٩٥٤ ما يلى : —

« ولم تظهر الادارة الجديدة فى مصر أيا من العلائم التى توحى بوجود تلك المطامع التوسعية التى ظهرت فيما بعد • ولهذا ظهر لنا اتفاق الجلاء بعد وزن ما فيه من مزايا وعيوب ، نافعا لنا وجديرا بتجربتنا » •

ولكن لم يكن قد ظهر حتى ذلك الحين اى مجال من اى نوع لتجربة الاتفاق • ولكن السير أنطونى أحس بوضوح على أى حال ، فى هذا العام الذى دون فيه مذكراته ، أى فى عام ١٩٦٠ ، بأن من واجبه أن يشير الى أن الاتفاق لم يكن الا مجرد تجربة ، وانه كان يفكر طيلة الوقت بأن الضرورة قد تقضى بتعديلها ، ولكننا اذا مضينا فى حديثنا ، وجدنا القطب التاريخى الثانى من الصورة التى رسمها ايدن لعبدالناصر ، فى الصفحات الختامية من قصته عن السويس ، بعد أن كانت بريطانيا وفرنسا قد شرعتا فى تدخلهما ، اذ يقول :

« لقد تأخر الغرب كثيرا فى الاطلاع على الكتاب الذى وضعه عبد الناصر عن « فلسفة الثورة » كما تأخر فى الماضى عن قراءة كتاب «كفاحى» لهتلر ، مع أن الكتاب الجديد أقصر بكثير من سابقه ، وأقل تضخما ولكن حكام الشرق قد قرأوه » •

وكانت نظرية السير انطونى كلها ، تقوم على أن الرئيس عبد الناصر قد أعلن ، مطامحه التوسعية المزعومة فى هذا الكتيب الصغير • وواصل ايدن وزمرته منذ أيام أغسطس الاولى ، تحذير بريطانيا والعالم بمنتهى الجد والخطورة ، من أن ما فعله عبد الناصر بتأميم القناة لم يكن الا مجرد خطوة واضحة فى طريق تنفيذ مطامحه التوسعية الضخمة التى اعترف هو بنفسه بوجودها . وهكذا نرى أن ايدن يؤكد أن عبد الناصر لم يكن

قد طلع بهذه « الاعترافات » في عام ١٩٥٤ ، ولكنه طلع بها الآن في اكتوبر عام ١٩٥٦ ، وان كان «الغرب» قد تأخر فى قراءتها كمـــا سبق له أن تأخر في قراءة «كفاحى» ٠

ولكن لنعد الى التاريخ قليلا ، فعندما وقع ايدن اتفاق الجلاء فى عام ١٩٥٤ ، كان كتاب « فلسفة الثورة » مطبوعا وموزعا . فلقد ظهر الكتاب أول ما ظهر فى ابريل ــ مايو ١٩٥٤ ، فى شــكل مقالات نشرتها احدى كبريات الصحف اليومية فى القاهرة ، وكانت تترجم فى كل صباح الى الانجليزية فى دار السفارة البريطانية فى القــاهرة ، ولو أردنا اضفاء شيء من المنطق على رواية السير انطونى ، لتحتم علينــا أن نصدق ، انه على الرغم من ان هذا الكراس قد تضمن المطامع المفزعة والمرعبة والشاملة التى حذر منها ايدن شعبه البريطانى ابان أزمة السويس فى عام ١٩٥٦ ، فان أى انسـان فى السفارة البريطانية فى القاهرة لم يجد فيها فى عــام ١٩٥٤ ، مايفزع أو يخيف مما يتطلب منه أن ينقله الى لندن وان يلفت انتباه وزير الخارجية ــ اى ايدن ــ الذى كان يتفاوض آنذاك مع مصر على جلاء القوات البريطانية عنها ٠

وهناك شيء آخر ، فقبل أسبوع واحد من عقد اتفاق الجلاء ، بصورة رسمية ، الذى تم فى التاسع عشر من اكتوبر عام ١٩٥٤ ، بدأ كتيب عبد الناصر ، فى الظهور على حلقات فى صحيفة الأوبزرفر اللندنية . ومع ذلك ظل ايدن ــ كما أعلن فى مذكراته ــ يرى آنذاك ان عبدالناصر لم يكن قد كشف ــ بعد عن مطامحه ، وهو يطلب الينا بعد ذلك ان نصدق ، بأنه هو وزملاؤه فى وزارة الخارجية لم يعرفوا حتى ذلك الحين بأمر هــذه الوثيقة التى عاد ووصفها بأنها مخيفة فى عام ١٩٥٦ ٠

ومضى ايدن يقول : « انه ظــل نحــوا من اثنى عشر شــهرا » بعــد اتفاق الجلاء « لايرى مدى مطامع مصر التوسعية » ويصل بنا قوله هذا الى نوفمبر عام ١٩٥٥ الذى نستنتج منه أن ايدن ظل حتى ذلك التاريخ كما يبدو لايعرف شيئا عن «كراس» عبد الناصر ، مع أن هذا الكتاب كان قد انتشر انتشارا واسعا طيلة عام ١٩٥٥ فى طول الشرق الأوسط وعرضه ، اما على شكل مطبوع أو على شكل مذاع . وكانت الحكومة المصرية قد وزعت عن طريق ســفاراتها فى كل مــكان نسخا مطبوعــة بالانجليزية من الــكتاب ٠ ومع كل هــذه الحقائق السافرة ، يطلب الينا ايدن أن نصدق أن أيا من موظفى جهاز وزارة الخارجية البريطانية سواء فى مركزها أو فى سفاراتها فى الخارج ، لم ير خطورة فيما نعته سلوين

لويد فى الرابع عشر من آب (اغسطس) عــام ١٩٥٦ ، باعترافــات عبد الناصر الواضحة عن مطامعه ٠

وأرى هنا أن نسير قدما مع رواية ايدن الخطية ، وان نتساءل عند هذه النقطة عن الطريقة التى عالج فيها فى مذكراته ما جرى بينه وبين عبد الناصر من اتصالات قبل عام ١٩٥٦ ٠ ولقد روينا فى فصل سابق المبادرة المتعلقة بفلسطين والتى وردت فى خطاب ايدن الهام فى جيلدهول فى شهر نوفمبر عام ١٩٥٥ ٠ فلقد شرع فى ذلك التاريخ فى محاولة من أكثر محاولاته الدبلوماسية أهمية فى الشرق الاوسط ، عن طريق السعى للحصول على تأييد عبد الناصر ، سرا وعلانية بصورة سابقة عن البيان الذى انتوى الافضــاء به ٠ وقد هوجم ايدن فى ذلك الحــين هجوما عنيفــا من اسرائيل عن طريق صحافتها وبياناتها الرسمية ٠ اذ وصفت صحيفة « الجيروسالم بوست » الصهيونية خطوته بأنها « هجوم سلمى صدر عن وزارة الخارجية البريطانية فى القاهرة » ٠ ولكن السير انطونى يشــير فى يومياته الى خطابه فى جيلدهول والى مبادرته الدبلوماسية اشارة عارية ، تعتبر الالفاظ التى لجأ الى التعبير بها كثيرة الدلالة اذ قال :

« وتعمــــــدت ألا أكون واضحا فى ملاحظاتى رغبة منى فى اثارة المحادثات حتى ولو بأساليب الصاعقة ٠ ٠ ٠ وسيتطلب الوضع بعد ذلك اجراء مفاوضات طويلة وكثيرة الدقة .. وقد بدأت الآن فى التفكير ، انه بعد شروع الاسلحة الروسية فى التدفق على مصر بهذه الكميات الهــائلة لم يعد من الحكمة فى شىء اثارة قضية الحدود ٠ ولكن المحاولة فشلت على أى حال » ٠

ويتعمد السير انطونى هنا أن يخفى حقيقة واحدة وهى أن هـــذه « المفاوضات الطويلة والكثيرة الدقة » ، قد وقعت بالفعل مع عبد الناصر كما روينا من قبل ٠ وهو يسقط كذلك من مذكراته حتى الاشــارة الى تلك القذائف المدفعية من نقد اسرائيل ، التى انصبت على رأسه ٠ وهو يحاول أن يمر بالحادثة كلها مر الكرام ، بطريقة تجعل القارىء عــاجزا عن تكوين أية فكرة عن الاتساق الذى كان قائما فى العمــل بينه وبين عبد الناصر ، كما يخفى عليه ، أى على القارىء ، الحقيقة الواقعة وهى أن اسرائيل هى التى أحبطت خطوته السلمية هــذه ٠ ويتضح السبب الذى دفعه الى المحاولة من اخفاء الحقائق فى مكان لاحق من مذكراته عندما تبنى ايدن وجهة نظر موالية لاسرائيل فى نزاعها الكلى مع العرب وان ماأصل اليه من استنتاج ، بالنسبة الى هدف ايدن من تعمد حذف

أية اشارة لعلاقاته بعبد الناصر فى مثل هذا الكتاب ، الذى يضـــم من التفاصيل الوافية مايتناول كل موضوع ، هو أن السير انطونى لم يرغب أبدا فى أن يظهر نفسه أمام شعبه بمظهر الذى نشد عون عبد الناصر فى أى وقت من الاوقات ، ولا ريب فى أن مأأقوله هــــذا هو تصحيح رجعى للتاريخ ٠

ولكن ترى متى قرأ ايدن نفسه ذلك الكتيب الذى زعم ان محتوياته تنطوى على الكثير من النذر ؟ لو اخذنا بعين الاعتبار جميع الأدلة السطحية لقلنا انه قرأه فى أغسطس عام ١٩٥٦ ، اذ انه فى كتاباته يؤكد ان اطلاعه على الكتيب كان عاملا حاسما فى تقرير حياته الدبلوماسية كلها ٠ ولو أخذنا بعين الاعتبار ، ماوجهه من نقد « الى الغرب » لانه لم يكن قد قرأ الكتيب قبل وقوع أزمة السويس ، لتبين لنا انه يحاول أن يوحى لقرائه بأنه قرأه فى ذلك الوقت ، وان مافيه من محتويات قائمـــــة ، هى التى وجهته فى جميع ماقام به من تصرفات ابان الأزمة ٠ ومع ذلك فقد تجاهل ايدن ـ فى جميع مذكراته التى وصفت بأنها «كتاب» ينطوى على جميـــع أفكار الساعة كما دونها فى وقتها لتتناول قضايا الســـاعة ـ الاشارة الى التاريخ الذى لفت فيه نظره لأول مرة الى هذا الكتيب ٠ حقا ان هذا أمر غريب كل الغرابة ٠ وقد تشتد هــذه الغرابة ، عنـــدما نتذكر ان سلوين لويد وزير خارجية ايدن قد أعلن لبريطانيا فى اذاعته فى الرابع عشر من أغسطس عام ١٩٥٦ ، بأنه قرأ كتيب عبد الناصر « قبل مـدة قصيرة » ، ومن هنا تزداد الشكوك لدينا بأن نظرية «تشبيه عبد الناصر٠٠ بهتلر » قد اختلقت واختيرت لاغراض تتعلق بالجدل الذى أعقب نشوب أزمة السويس ٠

ويصبح شكنا هذا طاغيا عندما ندرك أن تفسيرات ايدن ولويد لما أسمياه « باعترافات عبد الناصر الواضحة » هى من الكذب والتضليـــل على درجة كبيرة لا بالنسبة الى نصوصها فحسب بل بالنسبة الى طـاقة مصر الفعلية ، والى سلوك عبد الناصر الفعلى بعد عام ١٩٥٦ ٠ ولا ريب فى أن هذا التشويه المقصود لعبارات عبد الناصر فى كتيبه ـ ولا يمكن أن أسميه الا تشويها من جانب ايدن ولويد ـ مهما كل الاهمية لقصة العلاقات بين العرب والغرب ، وسأتناول تفصيله فى مكان لاحق من هذا التحقيق ٠

وأرى لزاما علينا بعد ذلك ان نسأل اذا كان ما فعله عبد الناصر يمكن أن يقارن ، طبقا لأية قواعد ، بما وقع فى « الراين » ، وهو تشبيه واصل ايدن ابرازه فى ذلك الوقت وكان مازال يحاول ابرازه حتى عند

كتابة مذكراته . وحرى بنا قبل الخوض فى البحث فى هذه النقطة ، أن نقــــول ان هذا التشبيه لم يكن مجرد ابتكار من مراقب هاو للشئون الدولية ، بل كان صادرا عن رجل قضى حياته فى الدبلوماسية وبرز فيها وكان على اتصال دائم بأحداث فترة « الراين - ميونيخ » وما تبعها من تطورات(١) ونحن نرى أن ايدن يطلق تحذيرا فى مذكراته من المقارنات الخطرة المستمدة من الماضى بالنسبة الى ماوقع فى الهند الصينية ، ولكنه لا يلبث أن يناقض نفسه تمام المناقضة فى هذا الصدد عندما يشرع فى الحديث عن السويس . انه يقول عن عام ١٩٥٤ :

« ولم أقتنع قط بتأكيدات المســـتر دالاس آنذاك بأن الوضع فى الهند الصينية ... يشبه احتلال هتلر لمنطقة الراين » .

ولكن هل كان عمل عبد الناصر فى موضوع السويس يشبه عمل هتلر ؟ أنا لا أرى ضرورة هنا لتبرير ماعمله عبد الناصر ، أو لاضفاء صورة زاهية عليه فى عبارات براقة . ان القضية لاتعدو أن تكون مجرد التساؤل عما اذا كان عمل عبد الناصر فى السادس والعشرين من يوليو ، يمكن أن يقارن باحتلال الراين فى حدود التجارب التى مر بها السير أنطونى طيلة حياته ، وعلى ضوء تحذيره السابق من اجراء مثل هذه المقارنات . لقد تم تأميم القناة دون اطلاق عيار نارى واحد ، ولم يجتز أى جندى مصرى أية حدود ، كما لم يكن ثمة أى تهديد بعبور هذه الحــــدود . ولم تعلن مصر أية تعبئة لقواتها للقيام بهذا العمل . ولم تغتصب مصر بعملها هذا

---

(١) أرى لزاما على أن أشرح هنا ما يعنيه الغرب أو ايدن على الاخص بتشبيه أزمة الســـويس بالراين ، لقــد نصت معاهدة فرساى في نهاية الحرب العالمية الاولى ، على أن تظل منطقة الراين الالمانية منزوعة السلاح ، لتكون فاصلا بين المانيا وفرنسا . وقد ظلت المنطقة على هذا النحو منذ عــام ١٩١٩ حتى مارس ١٩٣٦ عنــدما أمر هتلر قواته التى كانت لا تزال ضعيفة حتى ذلك التــاريخ باحتــلال المنطقة عسكريا متحديا بذلك معــاهدة فرســاى . وتتابعت بعد ذلك أعمال هتلر من ضم النمســا فالســـويد فأزمة ميونيخ ، فاحتلال تشيكوسلوفاكيا فالهجوم على بولندة . وقد ظهرت في الغرب كتب عدة تقول ان الغرب لو وقف من هتلر موقفــا حازما في عام ١٩٣٦ ، عندما عادت جيوشه الى احتلال الراين . وكان في قدرته أن يقف نظرا لضعف الجيش الالمانى آنذاك لما تكررت أعمال هتلر ونشبت الحرب العالمية الثــانية . ولكن هــذا التشبيه الغربى يناقض تماما الحقيقة ، اذ أن سيادة الرئيس عبد النــاصر ، لم ينقض معاهدة أو اتفاقا دوليا في قرار التأميم ، وانما أصلح وضعا كان جائرا بالنسبة الى مصر ، ولم يكن في يوم من الايام يفكر في الاعتداء على أحد ، وانما جعل رائده تحقيق رسالته الوحدوية التاريخية التى لا تنطوى على أى عدوان . (المعرب)

أرضا أجنبية أو أرضا يجرى النزاع حولها • ولم يكن حتى سلوين لويد كما يظهر قد قرأ مايسميه ايدن كذبا « باعترافات » عبد الناصر التى حاول تشبيهها باعترافات هتلر فى كتـابه « كفاحى » ولم تمنع مصر أية سفينة بريطانية من عبور القناة أو تحاول حتى اعاقتها ، كمـا لم تهدد باتخاذ مثل هذا الاجراء ••• فمن الصعب علينا والحالة هذه أن نجد أى وجه للشبه ـ مهما كان بعيدا ـ بين السويس وبين مشكلة الراين ، التى كانت ملامحها لا تزال حية الى حد كبير فى ذهن ايدن ، ممـا دفعه قبل عامين أى فى عـــام ١٩٥٤ ، الى التحذير من تشبيهها حتى بحرب فعلية كحرب الهند الصينية تقوم على قدم وساق •

وارى من الانصـاف للسير انطونى أن أقول على الفور ، انه لم يكن وحيدا فى ابراز هذه الصورة ، أى صورة الراين • فلقد بادر الى ذلك أيضا المستر جيتسكيل (زعيم العمال) ، فى الخطاب الاول الذى ألقاه فى البرلمان بعد أزمة الســـويس والذى تميز بالتعجل وعدم الاتزان فى التفكير ، والذى كان ولاشك حافزا للسير أنطونى ومشجعا له على ان يقول ما قاله ، كما زوده بالمادة الضخمة لمهاجمة جيتسكيل والمعارضة فيما بعد عندما شرعت تقف فى طريق تنفيذ خططه • ولكن صدور هذا التشبيه عن جيتسكيل لا يبرر مطلبا لايدن أن يحذو حذوه • فلقد كان الشخص الوحيد ـ اذا استثنينا تشرشل وقلة من الناس ـ الذى عاش فترة قيام هتلر على مقربة من الاحداث وعالجها واطلع على نتائج سياسة التهدئة التى اتبعت ازاءه •

ومع كل هذا نرى أن عبد الناصر ينقلب فى السادس والعشرين من يوليو « بقدرة قادر » الى هتلر ، وتتحول مصادرة شركة قناة السويس الى عملية « احتلال الراين » • ويصل بنا هذا ، الى النقطة الاخيرة فى هذا التحليل الخاص • فلقد رأينا كيف أن ايدن كان يشتبك منذ عدة أشهر قبل السادس والعشرين من يوليو ، فى صراع قلق مع عبد الناصر حول السياسات التى كان يتبعها فى جميـــع أرجاء الشرق الاوسط ، والاحداث التى دارت على مسرحه ، والتى كان من المعتقد أنه مســـئول عنها مسئولية شخصية مبـــاشرة كمظاهرات البحرين وطرد جلوب من الاردن وما شابه ذلك من أحداث . ولكننا لا نراه على أية حال فى قصة تلك الايام القلقة التى سبقت السادس والعشرين من يوليو ، يلقى ولو مرة واحدة أية ذرة من الشك ، أو حتى يقوم بأية محـــاولة تشبيه اختيارية للوضع بقصة هتلر وحوض الراين • وهو مع ذلك يطلب الينا

أن نصدق ، أنه على الرغم من أنه لم يقرأ كتاب عبد الناصر قبل نوفمبر عام ١٩٥٥ ، وان كان قد قرأه عندما نشأت أزمة السويس ، وأحس احساسا خطيرا بخطأ الغرب فى تأخره فى قراءته ، لم تدر فى خياله صورة هتلر الجديد قبل السادس والعشرين من يوليو .

هناك سر خفى يحيط بهذه القضية ، وهو يتلخص فى الشك شكا هائلا فى أن تكون صورة « هتلر وحوض الراين » هى الحافز الجذرى الخفى الذى دفع ايدن الى سياسته الجديدة . ويتمثل هذا الشك أيضا فى أنه هو وزملاؤه ، قد نادوا عامدين متعمدين بتفسير لكتاب عبد الناصر على أساس انه صورة أخرى « لكفاحى » ، وأن هذه الصورة كاذبة كل الكذب ، ومضللة كل التضليل . وانى لأرى هذا التشويه الخاطىء يحيط بجميع القصة المسهبة التى أوردها ايدن عن علاقاته بعبد الناصر منذ عام ١٩٥٤ ، وبكل مااتصل بها من تسلسل الحقائق المتعلقة بهذا الكتيب . وليس ثمة مايوحى مطلقا بأن التفكير فى هتلر الثانى قد ظهر قبل السادس والعشرين من يوليو ولا شك فى أن هذه المقارنة ــ حتى على صعيد تعبير ايدن نفسه بالنسبة الى ما ذكره عن الهند الصينية ــ تعتبر ضعيفة الى حد يبعث على الالتباس والريبة . فكيف يمكننا والحالة هذه أن نفسر هذا الموقف ياترى ؟

دوافع ايدن الحقيقية :

قد لا يكون هدفى من هذا البحث أن أظهر ايدن فى صورة « هتلر » التى رسمها ، بمظهر الانسان الافاك الذى يتعمد الكذب علنا . اذ أننى أعتقد أن الحقيقة أكثر تعقيدا من مثل هذا الايضاح المباشر ، لانها تتعلق كما تتعلق القضايا الرسمية دائما بتقييم لقائد مجموعة حاكمة بارز كل البروز ومتألق كل التألق ، كرجل ، وكفرد .

كان ايدن رجلا مريضا ، يحمل أعباء ضخمة من مسئوليات الحكم ولقد ظل حتى تبوأ رياسة الحكم فى عام ١٩٥٥ ، رجلا قضى حياته الرسمية الطويلة ، مفسرا ــ على حد تعبيره المجازى فى مذكراته المليئة بالاستعارات ــ للعبه الدبلوماسية . فهو يتقن تنفيذ السياسات التى يضعها سواه اتقانا كاملا ، كما يحسن التوسط فى مجال ، لا يكون هو مسئولا عنه مسئولية سياسية تامة . وقد أظهر فى توليه قيادة الوساطة البريطانية فى أزمة الهند الصينية كل ما لديه من كفايات . لكنه كان آنذاك ، مجرد ايدن الذى يقف خلف تشرشل العظيم بكل ما فيه من شموخ

وقوى خلاقة تفرض ارادتها • أجل لقـــد كان ايدن الذى يعيش فى ظل شخص آخر يتولى خلق السياسة والرد عليها ، وعندما غدا رئيســـا للوزراء ، وجد نفسه فى وضع مغاير كل المغايرة ، مختلف كل الاختلاف عما ألفه فى الماضى •

وكان ايدن رجلا عصبى المزاج ، شديد التفجر ، بالغ الحساسية الى درجة تختلف كل الاختلاف عن صورة ذلك الانسان المتأنق الذى يبدو فى رسومه الفوتوغرافية • وكان مصابا بعقدة التخوف الحاد المطلق من أن يبدو انسانا مفتقرا الى القدرة على العمل • وقد تضخمت هذه العقدة فى قرارة نفسه بعد أن صـــورته مجلة « بانش » الهزلية الانتقادية فى احدى صورها الكاريكاتورية الساخرة ، على شكل انســـان « ضعيف خائر » يمضى الى جنيف فى عام ١٩٥٤ بدلا من ميونيخ التى ذهب اليهـا تشمبرلين من قبل • وبعد أن حمل عليه اليمينيون من أعضاء حزبه كما حملوا على تشرشل بتهمة « تقطيع أوصال الامبراطورية » نظرا لتوقيع اتفاقية الجلاء عن السويس • وبات ايدن يخشى كل الخشية من أن يعجز عن اثبات «رجولته» أو عن اقامة الدليل على أنه رئيس وزراء دولة لا تزال قوية ، قادر على أن يعمل كسلفه تشرشل بجرأة والهام • وتبين له فى النصف الاول من عام ١٩٥٦ كما لم يتبين من قبل ، أن حزبه لايعبأ أبدا بزعامته للحزب • ولقى ايدن معاملة عدائية للغاية من مجلس العموم فى شهر مارس عام ١٩٥٦ ، ولاسيما بالنسبة الى مواقفه فى الشرق الاوسط والاردن ومُسئولية عبد النـــاصر المزعومة عن طرد جلوب • ولم يستطع ايدن قط أن ينسى تلك المقابلة العاصفة التى قوبل بها ، والتى تعكس فى مذكراته لمحات خاطفة من آثارها النفسية عليه اذ يقول :

« وقد تلقيت درسا بالغا لا أنساه فى مجلس العموم ، اذ ارتبك أصدقائى وغالى خصومى فى نقدهم ، وكان التعليق العام فى المجلس ، أننى بدوت ضعيفا فى معالجة موضوع كنت ولا شك أعرفه كل المعرفة » •

وقد أدت كل هذه العـــوامل ، الى مزيج من العصبية من الوقوف موقف التردد أمام أى تحد رئيسى ، ومن التلهف البـــاطنى الى التحدى وخوض المعارك • وكلنا يعرف أن الكثيرين من صغار الضباط يشكون عند تخرجهم من مدارسهم فى قدرتهم على الظهور بمظهر البسـالة فى المعركة ، ويتحرقون شـــوقا مع ذلك الى الوقوف فى موقف التـــجربة والاختبار • وهكذا يمكن القول أن هذا السياسى الذى عاش طويلا فى الظلال وراء قائد آخر ، كان يحس الآن احساسا باطنا بالتلهف على تجربة تخوضها بريطانيا تحت لوائه •

وسواء أكان ايدن قد بادر الى خلق هذه التجربة فى يوليو عـــام ١٩٥٦ مدفوعا بوعيه أو بعقله الباطن ، لا سيما وقد عرفنا من قبل الدور الخطير الذى لعبه فى مقدمات أزمة القروض للسد العالى ، فان من الثابت أنه منذ اللحظة الاولى التى بدأت الازمة فيها ، كان واقعا تحت تأثير توتر نفسى حاد كل الحدة • وكان التأثير العـــاطفى باديا عليه منذ البداية ، وسرعان ما اتخـــذ هذا التأثير شكلا متزايدا • وتعرض لحث قوى من قرارة نفسه ومن المقربين اليه • وكان موقفه الشخصى من عبد الناصر كفرد ، متسلطا عليه كل التسلط الى الحد الذى أظهره حتى على شاشة التليفزيون بمظهر الحاقد عليه ، كما تبين هذا الحقد فى تقلبات صوته وهو يخطب أو يذيع عن أمر يتعلق بعبد الناصر • واتضح لكل من كان يعرفه آنذاك أنه ينـــظر الى الازمة بمنظار عاطفى شخصى خطر ، وكأنه يخوض معركة أو صراعا داخليا مع رجل يقيم فى القاهرة .

وليس لدى من ريب فى أن هـــذا الايضاح ، هـــو جوهر القضـــية وخلاصتها • فلقد كانت أزمة القناة من الناحية الرسمية حدا فاصلا فى العـــلاقات المصرية الانجليزية ، كما كانت نقطة حاسمة فى تاريخ التوتر القومى بين العرب والغرب الذى كنا نتـــابعه • لكن ايدن ظل ينظر الى القضية نظرةتحد شخصى ليس الا . ولا ريب فى أنهذه النظرة هىالتى دفعته الى خلق صورة « الراين » ، وهى التى خلقت لديه فورا الحـــافز على خوض المعركة مع رجل واحد ، هو منالمصريين ، لا سيما وأن ايدن كان مصـــابا بأكثر من مجرد كراهية عادية لهم •• وشـــجعه خطاب جيتسكيل الاول على خوض المعركة ، وأتاح له قـــوة اضـــافية عززت مشاعره الشخصية الغريبة التى عاد ايدن عن طريقها بعقله وخيالاته الى ما كان يتسلط عليه من أحاسيس فى حقبة الثلاثين ومطلع حقبة الاربعين• وليس ثمة من ريب فى أنه شرع يؤمن بكثير من القوة العنيفة • ضمن هذا الاطار النفسى منالعقد العيمقة ، بصورة «الحلقة الكاملة» لتشبيه عبد الناصر بهتلر ، والسويس بحوض الراين ، أما المستر جيتسكيل ، فقد استفاق لتوه من الصدمة الاولى وأعاد التفكير فيمـــا قاله • وينطبق هذا الموقف على كثيرين من الزعمـــاء العمـــال ، بالرغم من تأثر بعضهم تأثرا قويا بالدعايات الصهيونية عن عبد الناصر • لكن ايدن لم يفق الى نفسه قط ، ولم يعد النظر فى تفكيره ، ولم تمض أيام عشرة ، حتى بات يعتقد بانه لايواجه هتلر جديدا فحسب ، بل كان يود دائما بحافز من عقله الباطن لو واجهه ، وبات يؤمن بأن الواجب يدعوه الى اســـتخدام هذه النظرية ــ نظرية تشبيه عبد الناصر بهتلر ــ سلاحا سياسيا لا بد

منه ضد خصمه • أما زملاؤه في الوزارة ، وكانوا أكثر منه معرفة ، وأقوى صحة ، فقد حملوا هذه النظرية على أنها صورة حديثة فى عام ١٩٥٦ ، للصورة التى رسمتها صحافة القرن التاسع عشر عن « عرابى العصامى » مطالبين بعنف باستخدام القوة ضده •

وهكذا تحقق لايدن ماكان يحلم به دائما وينتظره ، ولكنه وجد نفسه ، وقد واجه الحقيقة ، أضعف من أن يحتملها • ولم تكن حالته الصحية أيضا تسمح له بأن يتصرف في الاحداث التى أثارها هو ، تصرفا ينطوى على الكفاية ولاسيما بالنسبة الى السياسات المليئة بالخداع والمناورة ، والمفاوضات المعقدة ، والاستعدادات السرية للحرب والتعامل مع دولة حليفة نفد صبرها وصارت متلهفة على العمل السريع كفرنسا ، والتصرف فى مشكلة هذا الوزير لخارجية أمريكا الذى لم تكن علاقاته به طيبة ، والذى كان يتعذر عليه دائما أن يفهمه ، وكذلك ـ ولعل هذه المشكلة هى الأهم ـ المناقشات الحادة التى يتعرض لها من معارضة برلمانية يقظة ، غاضبة بشكل متزايد • وكانت كل هذه المشكلات بكل مافيها من جهد وأخطاء متأصلة وبعد عن السلامة ، كافية لان تحطم أى انسان ، لكنها لم تحطمه •

وكانت هذه اللحظة غير عادية فى التاريخ البريطانى • ورددت الاجواء أصداء شيلبورن ، وأصداء كل القوى ذات النفوذ فى لندن التى دفعت جلادستون الى التدخل « فى مصر عام ١٨٨٢ ضد ضابط وطنى آخر هو (عرابى) » • وكان هناك أيضا الحافز الكامن المتوتر فى العلاقات بين البلدين ، والمرارة التى تحس بها بريطانيا من تبدل مركزها فى عالم القوى الدولية ، والعداء الضخم الكامن فى نفوس البريطانيين ضد المصريين • كانت هناك جميع هذه العوامل ، والى جانبها الحقيقة البسيطة المجردة ، وهى أن الكثيرين كانوا لا يزالون يذكرون أيام ميونيخ التى ألفت بالنسبة اليهم مركز الحياة التى عاشوها • ولكن الحافز على جميع هذه العوامل الكامنة التى انطلقت من عقالها فجأة ، تمثل فى النفسية الغريبة التى حملها رئيس الوزراء ، واستعداد زملائه السليمى البنية لان يسمحوا له بل ويشجعوه على اطلاق اندفاعاته العاطفية • حقا لقد كانت لحظة خطيرة ، وكان تأثيرها خطيرا كما هو متوقع أيضا ، عندما وقف رئيس وزراء بريطانيا ليعلن الى مواطنيه والى العالم ، وهو يعرف انه ليس صادقا ، ظهور هتلر جديد .

هل كان هدف ايدن الخلاص من عبد الناصر ؟

مازالت أمامنا مجموعتان من الحقـــائق التى تتطلب مناقشتنا • وأولى هاتين المجموعتين هى الادلة التى يجب علينا أن نعرضها والتى تقول ان ايدن وموليه وزملاءهما ، كانوا يعتزمون منذ البداية أن يحققوا عن طريق القوة هدفهم بالاطاحة بعبد الناصر ، وان هـذا هو الهـدف لاحل مشكلة السويس • وقد ســـبق لنا أن رأينا أن ايدن وموليه ونورى السعيد والاسرائيليين كانوا يرغبون فى تحقيق هذا الغرض قبل السادس والعشرين من يولية • ورأينا كذلك ، أن جميع ما قدمه ايدن بعد هذا التاريخ من تفاسير لعمل عبد الناصر فى موضوع القناة ، وأن كل ماعرضه من حجج علنية « لاصلاح الوضع سلميـــا » ، وكافة شروحه « لاهداف عبد الناصر » البعيدة المدى ، كانت زائفة ، مخادعة • والآن ما الدليل المحدد على أن الهدف كان بعد الســـابع والعشرين من يوليو الاطاحة بعبد الناصر ؟

لقـــد كان ايدن ووزراؤه ينفون هذه الحقيقة ، فى ذلك الحين • وكانوا يعربون عن قلقهم على حرية العبور فى القنـــاة طيلة الاسابيع الطويلة التى امتدت بين تاريخ التأميم فى السادس والعشرين من يوليو ، ونهاية اكتوبر ، حيث تحول اتجاههم الى تبرير « التدخل » مع فرنســا بذريعة جديدة زعموها وهى الخوف الجديد الطارىء من انتشـــار الحرب المصرية ـ الاسرائيلية فى طول الشرق الاوسط وعرضه ، ممـــا يعرض القناة نفسها لخطر الدمار • وراح وزراء ايدن ينهـــالون بعد ذلك على البرلمان بعد بدء « التدخل » بمجموعة ضخمة من المبررات الاضافية • وفى وسعنا أن نتجـــاهل كل ذلك وأن ننصرف الى البحث فى تاريخ الاحداث وسجلها •

حاول ايدن كما ذكرنا فى عنوان هذا الفصل أن يؤكد فى مذكراته مابذله من مساع لايجاد « تسوية سلمية » • وهو يقوم بذلك ليرد على السؤال الذى حمل بريطانيا وفرنسا على الامتناع عن الحركة فورا لاحتلال منطقة القناة • وأرى أن من الجدير بنا أن نعيد هنا ماكتبه هو :

« هناك ردان على هذا ، أولهما سياسى • فنحن كدولة موقعة على ميثاق الامم المتــــحدة وجدنا أن من واجبنا أن نبحث أولا عن استعادة حقوقنا بالوسائل السلمية ••• وان كان هذا لا يعنى مطلقا تخلينا عن استعمال القوة كملجأ أخير • وكان هذا هو موقف حكومة صاحبة الجلالة والحكومة الفرنسية فى جميع مراحل النزاع •••

وأما الرد الثـــاني فعســـكرى • فاذا لم يكن فى الامـكان اتمـــام العملية بواسطة القوات التى تحملها الطائرات وحدها ، فلا مناص من القيام بحملة عسكرية من جزيرة مالطة ••• فقد استغرق الاعداد لغزو جزيرة صقلية ابان الحرب العـــالمية الثانية فى افريقية الشمالية قرابة ستة أســابيع • وصحيح ، كمـا قلت دائما ، ان العمـل العسكرى ضد المصريين لا يقارن عسكريا بالعمل ضد الالمان ••• ولكن لم يكن فى الامكان توفير الطائرات أو الرجال بين عشية وضحاها » •

وهكذا نرى أن ايدن يركز قبـــل كل شيء على مسألة المبـــادىء والالتزامات تجاه الامم المتحدة ، والافتقار الى السوقيات الصالحة لتأمين القوات العسكرية وتزويدها باحتياجاتها • ولكن مهمة السير أنطونى فى اعداد قصة مطولة عن مشكلة السويس تقع فى نحـــو من مائة وستين صفحة يتولى هو تحريرها وتنقيحها واضفاء الزخرف عليها ، كانت تتطلب شكلا من أشكال العناية باتزان الفكر وثبـــاته ، وهما أمران كان يفتقر اليهما افتقارا لا يثير الدهشة • فنحن بعد صفحتين فقط ممـــا رواه فى الفقرة السابقة نراه يعود فيقول ••••

« وبدا الامريكيـــون فى مطلع الازمـــة بمظهر الراغب فى ... أن يفرضوا ضغطا أدبيا على عبد الناصر ، وكانت هذه النية مقبولة لدينـــا ومرضية لنا ، لولا أنها لا تحسب حسابا لاحتمال أن يصم عبد الناصر أذنيه عن الاستماع للضغط الادبى ، فهذه النية تعنى من الناحية العملية عقد المؤتمرات ، واتخاذ القرارات دون القيام بأى عمل ، أى كلام فى كلام وبدا الاشتباه فى هذا الخلاف بين وجهتى نظرنا يتضح فى التقارير التى كنا نتلقاها من واشنطن عن ردود الفعل الاولى فيها • ولكن ما لبث هذا الخلاف أن برز بشكل واضح ••• »

أولا يحق لنا بعد هذا أن نســـأل ايدن عمـــا اذا لم تكن « التسوية السلمية » التى زعم أنه ينشـــدها ، وأنه جعل منهـــا المبدأ الذى يوجهه ، هى الضغط الادبى بعينـــه وهى المؤتمرات والقـــرارات ؟ وهل هنـــاك نوع آخر من التسويات السلمية فى العـــلاقات الدولية ؟ » ان الســـير أنطونى يفضح نفسه منذ البداية تماما ولو شئنا أن نطيل امعان النظر فيمايقوله هو ، تحتم علينا أن نلاحظ اشارة خفية ، غريبة ، فى الفقرة التى رويتها قبل قليل . فهو يقول : انه كان دائم الحث لزملائه ، على أن اعداد القوة التى تغزو مصر يجب الا تستغرق أكثر من ستة أسابيع . ولكنه يعود فيعترف فيما بعد ، وكان فى هذه المرة وحدها صادقا فى اعترافه ، بأن

الحملة الانجليزية الفرنسية ، كانت على أهبة الاستعداد (فى منتصف سبتمبر) أى بعد ستة أسابيع من بدء الازمة . ولهذا فهو لم يشعر بعد هذا التاريخ بأية حاجة للحث على الاستعجال . ولكنه كان ، كما يستنتج من اعترافاته هذه ، يحث قادة قواته المسلحة على ذلك فى الاسابيع الستة الاولى من الازمة وهكذا يظهر من زلات قلمه هذه كلها، انه لم يكن صادقا فى القول بأن جماع نظريته فى تلك الفترة كان يتركز على متابعة البحث عن الحل السلمى أولا .

وما المدى الذى نعرفه فى الحقيقة عن هذه القضية ؟ اننا نعرف أن وضع أول خطة للغزو قد تم فى الاسبوع الاول من شهر أغسطس ، وهى تقضى بالنزول فى الاسكندرية والزحف على القاهرة وقد أطلق عليها اسم « عملية الفارس » (١) ونحن نعرف أيضا أن الفرنسيين كانوا متلهفين على السرعة فى العمل ، الى الحد الذى دفع سفارتهم فى القاهرة الى اصدار الامر للرعايا الفرنسيين من الاطفال والنساء فى الواحد والثلاثين من يوليو لمغادرة مصر . ونعرف أيضا أن فرنسا حشدت قبل الثانى من أغسطس أسطولا ضخما فى ميناء طولون يضم بارجة وحاملتين للطائرات وطرادا واحدى وعشرين مدمرة وست غواصات . ونعرف كذلك أن كل صحيفة مسئولة فى لندن وباريس فهمت قبل الاسبوع الثانى من أغسطس ان الهدف الحقيقى لايدن ومولييه هو الاطاحة بعبد الناصر قوة واقتدارا . واننا لنذكر الآن أن صحيفة « التايمز » اللندنية نفسها ، نشرت فى ذلك الوقت ، بالرغم من تأييدها اللاحق لمذكرات ايدن ، أن اللجوء الى القوة كان « النتيجة الغريزية الاولى » لخطوة عبد الناصر . وقد أعلن الرئيس ايزنهاور فى الاول من نوفمبر ما يلى :

« وكان ثمة بعض حلفائنا ينادون منذ اللحظة الاولى التى أعلن فيها تأميم شركة القناة ، بأن تكون القوة هى رد فعلنا الاول على التأميم »

وأعلن المستر دالاس فى التاسع والعشرين من يناير عام ١٩٥٧

---

(١) رواية الاخوين برومبرجر ، وغيرها من الروايات. وقد تحولت خطة النزول الى بور سعيد ومنطقة القناة فى أوائل سبتمبر عندما تبين للدولتين الغربيتين أن الهجوم المباشر على القاهرة سيؤلف عدوانا مكشوفا سافرا .

(المؤلف)

امام لجنة الاعتمادات فى الكونجرس الامريكى ، بشىء من اللبـاقة التى منعته من الافصاح كل الافصاح .. ما يلى :

« وقد أرادت بعض العناصر فى بريطانيا وفرنسا الاستيلاء بالقوة على قناة السويس ، فور اعلان مصر قرار التأميم » .

وكان وزير الخارجية الامريكية قد مضى الى أبعد من هذا . فقد اتهم بصراحة ــ فور نشوب حرب السويس وسينـاء . كلا من انجلترا وفرنسا بأن هدفهما كان طيلة أيام الازمة الاطاحة بعبد الناصر ــ ورأى قبل أن أعود الى الغوص فى كتابات ايدن نفسه ، أن أقول بأن بورجيس ــ مانورى ، وزير دفاع فرنسا ، حسر النقاب بعد انتهاء الازمة عن أن العملية المشتركة الفورية « أجلت نحوا من ستين يوما » . ونحن نعرف من مختلف المصادر أن هذا التأجيل تم لان العسكريين ولاسيما من قادة القوات المسلحة فى بريطانيا قد أبلغوا قادتهم السـياسيين بصراحة بأن أى غزو يفتقر الى العون الامريكى لا يمكن أن يتم بسرعة وبشكل قوى، قبـل الاعداد له اعدادا كاملا وطويلا . وكانت هـذه النصيحة العسكرية وحدها ، مضافة الى ادراك ايدن ومولييه أن الولايات المتحدة سـتقاوم اللجوء الى القوة خارج نطاق الامم المتحدة ، هى التى أدت الى هـذا التأجيل .

وستنجلى امامنا الدلائل التى تثبت صحة هذه الاهداف الواقعية أكثر فأكثر ، عنـدما نصل الى تحليل الاحداث المفصلة التى وقعت فى النصف الثانى من شهر أكتوبر عام ١٩٥٦ . ولا يبقى أمامنا فى الوقت الحاضر الا أن ندون هنا ، ما سيحدث للقصة التى رواها السير أنطونى نفسه بعد وقوع الهجوم الانجليزى ــ الفرنسى . فلقد طفح كأسه بالمرارة من موقف الولايات المتحدة ، وانسابت منها الحقيقة العارية ، صارخة بما وقع اذ يقول :

« ولا أجد مناصا هنا من المقارنة بين موقف أمريكا الآن ، وموقفنا نحن ابان حملة جواتيمالا . فلقد قام الامريكيون فى تلك البلاد بتشجيع انقلاب ضد الحكومة الواقعة تحت النفوذ الشيوعى ، اذ اعتبروها خطرا يهدد سـلامة أمريكا الوسطى كلها . وقد تفهمنا الحوافز التى دفعت أمريكا الى ذلك العمل ، وعملنا كل ما فى وسـعنا لنحـول دون عرقلة جهودها فى مجلس الامن . ولكنهم الآن يسلكون سلوكا مغايرا لما سلكناه نحن تمام المغايرة » .

وعلى الرغم من هذا الانفجار العاطفى المذهل ، كان السير أنطونى، قبل صفحات قليلة من مذكراته يجزم جزما أكيدا بأن الهدف الاوحد من «التدخل» ، كان وقف الحرب المصرية ــ الاسرائيلية ، وحماية القناة. وهو يقتبس فى مذكراته صورة البرقية التى بعث بها الى أيزنهاور فى الثلاثين من أكتوبر ، أى فى اليوم الذى وجهت فيه بريطانيا وفرنسا انذارهما الى مصر ، والتى يقول فيها : « أعتقد أن الفرصة قائمة فى أن يقبل الفريقان انذارنا » . وهانحن أولاء نعرف الآن أن النية الحقيقية لم تكن متجهة الى قبول فريق واحد منهما ــ أى مصر ــ بالانذار وانما كانت تستهدف الاطاحة به نهائيا .

اذن لم تكن الغاية الوصول الى تسوية سلمية لمشكلة القناة ، كما لم يكن أيضا استخدام القوة لمجرد الوصول الى هذه التسوية وفرضها، وانما كان استخدام القوة للاطاحة بالحكومة المصرية . هذا هو الحكم الذى أدان به ايدن نفسه من مذكراته هو وأقواله .

التظاهر بالتسوية السلمية :

واضطر ايدن ومولييه على أية حال الى قضاء أسابيع مريرة طويلة يتظاهران بالعمل على التفاوض ، بينما كانا فى الحقيقة يحشدان قوات ضخمة ، ويبحثان عن ذرائع ومبررات جديدة • وانى لأرى لزاما علينا هنا أن ندون بعض الوجوه والصور .

ووصل المستر دالاس الى لندن فى مطلع شهر آب (أغسطس) ، وهو يهدف الى عدة غايات متشابكة . فهو يريد من الناحية الاولى توجيه بعض النكسات الحادة الى الرئيس عبدالناصر الذى كان يكره سياسته الحيادية أكثر من أى شىء آخر . وكان دالاس قد فوجىء مفاجأة كلية بخطوة التأميم التى خطاها عبد الناصر ، فلقد كانت بريطانيا وفرنسا قد ضللتاه بقولهما ان عبد الناصر لن يفعل شيئا اذا ماسحبت أمريكا وبريطانيا العرض بتمويل السد العالى ، ولذا فقد طار وهو واثق من هذه الفكرة الى جنوب أمريكا حيث كان يقضى ليلة السادس والعشرين من يوليو فى جمهورية «بيرو» . أما الآن وقد وصل الى لندن ، فى الرابع من أغسطس ، فقد وصف غضب مصر بأنه مجرد « شكاوى خيالية » ، وراح يعمل ليرغم الرئيس عبد الناصر ، على التساهل فى موضوع القناة ولكن تحقيق مثل هذا الهدف من الارغام يتطلب الدرس المشترك مع الآخرين . وكان دالاس شديد القلق من ناحيتين ، فهو يخشى من الناحية

الاولى أن تستغل موسكو الازمة التى نشأت فى الشرق الاوسط ضد الغرب ، وهو يخاف من الناحية الثانية أن يجد ايدن ومولیه المبرر للادعاء بأن جميع المحاولات لايجاد حل سلمى قد منيت بالفشل. وقرر على الفور أن قضية القناة يجب ألا تحال مطلقا على الامم المتحدة ، اذ كان على ثقة من أن ايدن وموليه سيعملان على أن تقوم روسيا باستخدام حق الفيتو مع أى قرار قد يتخذه مجلس الامن ليعلنا على الفور انه لم يبق أمامهما أى مجال آخر سوى اللجوء الى القوة .

كانت هذه هى الدوافع التى حملت دالاس ، وهى متفقة مع منطقه وان كانت مثيرة لغضب ايدن وموليه ، على أن يرفع فورا شعار الدعوة لاقامة ادارة دولية للقناة. وكان واثقا من أن ايدن قد بدأ يجهر بتمسكه بالحجج القانونية التى كان قد استبعدها فى البداية على انها « ثرثرة قانونية » ، ثم ما لبث أن شعر بالفائدة التى قد يحصل عليها منها . ويعترف ايدن نفسه فى مذكراته بهذه الشكوك الامريكية فى الحجج القانونية التى يستند اليها . ولم يكن دالاس ليخدع نفسه فى أن الادارة الدولية التى يقترحها قد تقدم ضمانات أوفى وأكثر فعلا وتأثيرا بالنسبة الى حرية العبور فى القناة ، من الاقتراحات المصرية الجديدة أو من جهاز الشركة القديمة . فهو خبير كل الخبرة بالسلطات التى تشرف على ادارة القنوات الرئيسية ، اذ أن حكومته هى التى تشرف بسلطاتها على ادارة قناة بناما . ولكن دالاس وجد نفسه عاجزا بما لديه من سلطات محدودة عن ارغام بريطانيا وفرنسا على التمسك بمبدأ المفاوضات وعلى انكار حقهما فى اللجوء الى القوة . مما اقتضاه البحث عن سلطة جديدة . وأسفر هذا الموقف عن قيام تعقيدات يائسة جديدة فى العلاقات بين الدول الكبرى الواقعة على كلا جانبى المحيط الاطلسى . وشرع دالاس فى حديثه مع ايدن على أسس «الشرعية» ، وعندما واجهه ايدن بما يراه من حجج قانونية وأسس «دولية فى العلاقات العامة» (١) ، راح دالاس يناقشه فى قانونيتها وشرعيتها. وقد واصل الوزير الامريكى الحديث عن وجوب « قص أجنحة » عبد الناصر ، ولكنه ظل صامدا كل الصمود فى معارضة

---

(١) لا أعلم ما يقصده المؤلف من ذكر هذه الحجج القانونية التى استند اليها ايدن ، فكل من يعرف شيئا من القانون الدولى ، يعرف أن مصر كانت محقة كل الحق فى خطوة التأميم من الناحية القانونية أيضا ، أما الحجج التى قيل ان ايدن لجأ اليها فليست الا مبررات لفرض الاستغلال الاستعمارى .

(المعرب)

أى اجراء قد يقرب من «العمل» لتحقيق هـذه الغاية التى كان يقول انه ينشدها . ولا ريب فى أن ما اعقب هـذا الوضع من فوضى تضرب أطنابها ، قد ظهرت بارزة كل البروز فى العرض الدقيق الذى قدمه ايدن فى مذكراته عن هذه الفترة .

ونشأت عن هذه الطريقة التى عالج فيها دالاس الموقف عدة نتائج خطيرة . فلقد منح سلطات اضافية « لسلطة الادارة الدوليـة » التى طالب باقامتها ، والتى سـبق لنا أن رأينـا ما فى الحجج الداعية الى تكوينها من تناقض . ورفض دالاس العروض المقابلة التى قدمها عبدالناصر بنفس القوة التى رفضها بها كل من ايدن وموليه ، مدفوعا بما يحس به من كراهية لعبد النـاصر ، ومتحديا فى رفضـه هـذا نصائح خبرائه ومستشاريه .. وأدى موقفه هذا الى الاسـهام فى الحملة التى شنها ايدن « لتجريم » القـاهرة ودمغها « بالعدوان والصلافة ، والافتقار الى المرونة ورفض تقديم أية ضمانات الى العالم » .

ولكن عبد الناصر كان قد شرع على الفور فى القاهرة فى تقـديم ضمانات يواجه بها هذه العاصفة الغاضبة من القلق الغربى الذى لم يكن ينتظره . (١) وراحت القاهرة منذ السابع والعشرين من يوليو ، وما تلاه من أيام ، تكرر كل يوم وبصورة رسمية احترامها لميثاق عام ١٨٨٨ . ومضى عبد الناصر الى أبعد من ذلك فراح فى الواحد والثلاثين من يوليو ، يعلن ماعاد فأكده بصورة أكثر تفصيلا واسهاما فى الثانى عشر من أغسطس اقتراحاته العلنية الجديدة لعقـد معاهدة جديدة توقعهـا كافة الدول المنتفعة بالقناة ، خلافا للميثاق السابق ، وتضع صورة رسمية منها فى الامم المتحدة لتكون بين وثائقها ، على أن تضمن هذه المعاهدة حرية الملاحة فى القناة . وكانت المعارضة فى لندن والصحف البريطانية قد أدركت الآن تمام الادراك حقيقة مايعتزمه ايدن ، فأخذت تطالب بالمفاوضات وتحذر

---

(١) يروى المؤلف في هوامشه أن سيادة الرئيس عبد الناصر استدعى سفير أمريكا هنرى بايرود وكان لا يزال في القاهرة ، وان كان الامر بنقله قد صدر عن واشـنطن ، وراح يسأله عن السبب الذى حدا بالغرب الى الهياج كل هذا الهياج من الخطوة التى قام بها وكان في الثامن والعشرين من يوليو قد ضمن خطابا له العبارة التالية : « ترى هل كانت مثل هذه الضجة ستثار بعد اثنى عشر عاما » . وكتبت صحيفة اخبار اليوم القاهرية في نفس اليوم مقالا لمصطفى أمين رئيس تحريرها يقول فيه : « علام كل هـذه الضجة ، التى ماكانت لتحدث لو أن عبد الناصر قد ألقى بقنبلة ذرية ؟ »

من اللجوء الى استخدام القوة خارج نطاق الامم المتحدة . ولكن ايدن أصم أذنيه عن سماع صوت العقل ، وتجاهل عروض مصر ، وأخذ يتبجح الى أقصى حدود التبجح بما يقوم به من اعدادات عسكرية ، ويوقد أوار الهياج عند جماهير الشعب البريطانى . وكانت طريقته فى اثارة حماسة الجماهير واضحة كل الوضوح .

وألقى ايدن فى الثامن من أغسطس خطابا نازيا أذاعه على الشعب البريطانى . ووصلت الى لندن صباح الثالث عشر من آب (أغسطس) اقتراحات عبد الناصر الجديدة ، لعقد معاهدة تضمن حرية الملاحة . وراحت وزارة العمال الرمزية (١) ، تصدر بيانا فى اليوم نفسه تقول فيه « اننا لو استثنينا الحصار الذى يفرضه عبد الناصر على اسرائيل ، فليس فيما فعله ، ما يبرر اللجوء الى استخدام القوة المسلحة » . وظهر منزيس (٢) رئيس وزراء استراليا تلك الليلة على شاشة التليفزيون فى لندن ، وكرر نظرية ايدن التافهة فى القضية كلها ، وأعاد قوله بأن عبد الناصر « أمم قناة السويس لا شركتها » وأحس ايدن بأنه فى حاجة الى المزيد من الهاب المشاعر ، فدفع فى الليلة التالية ، مساء الرابع عشر من أغسطس ، بوزيره الامين المخلص سلوين لويد الى مكبرات الاذاعة ، ليوجه الى الشعب رسالة أكثر جدية وخطورة . وقد تحدث فى هذا الخطاب عن عبد الناصر بقوله :

« كنت أقرأ فى ذلك اليوم كتيبا وضعه عن الثورة . وهو يكشف فيه صورة تفكيره ومطامحه . فهناك ثلاث مراحل واضحة كل الوضوح ،

---

(١) جرت عادة الحزب الذى يكون في المعارضة في بريطانيا ان يؤلف وزارة وهمية رمزية ، تماما كالوزارة القائمة ، لتكون على أهبة لتسلم الحكم في حالة استقالة الحكومة القائمة .

(المعرب)

(٢) روى ايدن قصة غريبة عن موقف الاذاعة البريطانية من خطاب منزيس ، ولكنه لم يذكر أبدا ، انه بذل ضغطا لا مثيل له ومخالفا للمألوف والعرف على مصلحة الاذاعة البريطانية للسماح لمنزيس بالظهور على شاشتها التليفزيونية . ولا ريب في أن سلوكه في هذه القصة وحدها ، يشير الى ما بذله من جهد يائس ليضمن التأثير الدعائى على الشعب البريطانى .

(المؤلف)

أولاها السيطرة على البلاد العربية وزيتها ، وثانيها السيطرة على افريقية كلها ، والثالثة السيطرة على العالم الاسلامى كله » (١) .

وقد ترك هذا الانذار الذى لم يصدر عن كاتب مغمور ، وانما صدر عن وزير خارجية حكومة صاحبة الجلالة انطباعا فوريا وعلى نطاق عالمى ، وما زال هذا الانطباع قائما عند الكثيرين من بسطاء الناس حتى اليوم · ولقد ظهرت بعض اشارات فى بعض الصحف البريطانية تنعت عبد الناصر « بهتلر النيل » (٢) وان كانت التعليقات العامة ، قد شرعت تطالب بشىء من الحيطة والتعقل · ولكن الدولتين العظيمتين أصرتا على اصدار النذر متلاحقة وفى وقت واحد فى كل من باريس ولندن بأن « فلسفة الثورة » ليس الا طبعة جديدة من «كفاحى» . وفى وسع المرء أن يرى ردود الفعل فى كل مكان لهذه الدعايات(٣) ، وأن يشهد التحليلات تتعاقب فى هذه الصحف التى اخترت بعضها دون هدف معين · وكانت مجلة « التايم » المشهورة قد حملت فى عام ١٩٥٥ صورة عبد الناصر على غلافها ، وتناولته بالحديث فى مقالها الرئيسى (٤) دن أن تشير الى كتاب فلسفة الثورة فى مقالها الضخم هذا ، على الرغم من انقضاء أكثر من عام كامل على صدوره كما سبق لنا أن أشرنا من قبل ·

أما الآن ولم يكن قد مضى على خطاب المستر لويد أكثر من أسبوعين صدرت « التايم » تنشر قصة غلاف أخرى(٥) عن الرئيس عبد الناصر ، تقول استنادا الى ما زعمته بالمصادر الرسمية أن « عبد الناصر يرى فى نفسه رجل القدر ، الذى بعثته العناية الالهية ليلعب دوره فى الوطن العربى ، الذى كان يبحث ضائعا عن شخصية البطل » · وتضمن «الاطار» الذى احتل ثلثى صفحة من الصفحات مقتطفات من كتاب عبد الناصر تحت عنوان ضخم للغاية ، مع مقدمة خاصة من هيئة التحرير :

---

(١) لا ريب في أن كل من يقرأ هذه الاقوال يدرك على الفور انها خيالات لا تصدر الا عن مخيلة مريضة أو أعماها الغرض ، اذ أن سياسة الرئيس عبد الناصر لم تقم في أى يوم على مثل هذه القواعد التوسعية كما لم تتناول في أى يوم الرغبة في اقامة جامعة اسلامية . (المعرب)

(٢) حملت صحيفتا الديلى ميل والديلى اكسبريس هذه العناوين في شهر يوليو وما بعده .

(٣) وحتى المستر دالاس نفسه استخدم هذا التشبيه في خطابه الذى القاه في « داره بلانكستر » في السابع عشر من اغسطس .

(٤) عدد المجلة في ٢٦ من سبتمبر عام ١٩٥٥ .

(٥) عدد المجلة في ٢٧ من سبتمبر عام ١٩٥٦ .

« الدور فى البحث عن البطل »

« الحلقات الثلاث فى طموح عبد الناصر »

« أضحى كتاب عبد الناصر الذى نشر قبـــل عامين من الكتب التى يجب أن تقرأها الجهات السياسية الرسمية فى الغرب • ويطلق عليـه موليه رئيس الوزارة الفرنسية اسم « كفاحى » بقلم عبد الناصر • وقد تكون المقارنات فى أوقات الازمات فى مكانها المناسب ، ولكنها كثيرا ماتكون خادعة مضـللة • ولكن كتيب عبد الناصر ، شأنه فى ذلك شأن « كفاحى » صورة ذاتية الانعكاس عن رجل قلق انتشى بأوسع المطامح » (١) •

وتلت هـــذه المقدمة مقتطفات من كتاب عبد الناصر ، الذى دونه بسرعة ، نال أثرها الكثير من الذيوع والانتشار ، ولاسيما فقرته المقتبسة من رواية لبيرانديللو(٢) ، يعقد فيها مقارنة مع الوطن العربى ، فيقول ان هـــذا الوطن كان قد أعد « دورا » طالت حيرته وانتظاره لظهـــــوز « البطل » الذى يمثله ، ثم يمضى فى لغة عربية نموذجية فى قوتها يقول: « ان ظروف التاريخ مليئة بالابطال الذين صنعوا لانفسهم أدوار بطولة مجيدة قاموا بها فى ظروف حاسمة على مسرحه » •

---

(١) أكثر الغربيون من رسم صور مشوهة لسيادة الرئيس عبد الناصر ولا سيما من رجال الصحافة الغربية الذين استهواهم في وقت ما أن يسايروا التيار الضخم الذى ساد الغرب في فترة ازمة السويس لتشويه صورة سيادته فيأذهانالشعب نتيجةالحملات الدعائية المضللة التى تولى قيادها ايدن وموليه ومن لف لفهما ، والتى عملت الصهيونية العالمية بما لها من سيطرة على الصحافة ووسائل الاعلام في الغرب على ترويجها . وليس أصدق من هذا المثل الذى أورده مجلة أمريكية واسعة الانتشار (كالتايم) ، فالمعروف أن سيادته ، بل كل من عرفه يؤكد انه ابعد الناس عن الاوضاع القلقة فلقد اثبت انه من أعظم الناس تحكما في أعصابه في أيام الشدائد التى مر بالكثير منها . ومثل هذا التحكم لا يتفق مطلقا مع الاحساس بالقلق . أما الاشارة الى مطامحه فتهدف الى التشـــويه والتضليل اذ أن كل عربى يعرف أن كل ما لدى الرئيس من مطامح هو أن يرى شعبه العربى في وطنه الكبيرمتحررا موحدا ، وهى امنية كل عربى مخلص لعروبته ســـواء أكان قائدا أم رجلا عاديا .

(المعرب)

(٢) لويجى بيرانديللو (١٨٦٧ ـــ ١٩٣٦) كاتب مسرحى وقصصي ايطالى مشهور ، ولد في صـــقلية ودرس في جامعة روما ثم جامعـــة بون ومن أشهر كتبه « الجيوكوندا الشريرة» و « ست شخصيات تبحث من مؤلف » . وله دراسة رائعة في فن الســـخرية في الكتابة .

(المعرب)

ولو أخذت هـــذه الفقرات التى جاءت بهـــا المجلة وحدها بعد اقتطاعها عن محتوياتها ، لظهرت غريبة . ولكن أية قراءة موزونة ناقدة لكتيب عبد الناصر الذى يقع في اثنتين وسبعين صفحة • والذى جمع بين دفتيه المقالات الصحفية التى نشرت فى مستهل عام ١٩٥٤ ، تقيم بالدليل الذى لا يقبل الشك ، ما فى هذه المقارنة مع هتلر وكفاحى من نبو عن المنطق وبعد عن سـلامة التفـكير وميل الى الشر والاذى • ان من الواضح لكل من يفهم ما يقرؤه ، أن عبد الناصر لم يكن يشـير الى نفسه فى حديثه عن « البطل » وعن « الممثل » ، الذى يجب أن يتجـه البحث اليه فى الثورة المزدوجة التى يقوم بها الشعب العربى ، وانمـا كان يشير بصورة لا تقبل الريبة أو الشك الى « مصر » التى يجب أن تقوم بدورها القيادى فى ثورة الشعب العربى • فلقد تحدثت الفقرات التى تلت مبـاشرة تلك الفقـرة التى اقتبستها مجـلة « التايم » عن دور الثورة التى جاءت أخيرا لتستقر « على حدودنا » فى تحقيق أهـداف الشـعب العربى المناهضـة للاستعمار والمطالبة بالاصـــلاح الداخلى ، و « اننا نحن ، ونحن وحدنا بالنسبة الى وضعنا الجغرافى ، القادرون على أن نمثل هذا الدور » •

وليس فى أى جزء من أجزاء هذا الكتاب ، ما يوحى حقا ، بمـا أوحاه ضلالا للغرب ، بأن عبد الناصر يربط نفســه غيبيا بالرسـالة التى اختـارت الأقدار لمصر أن تؤديها . وما الكتـاب الا مزيجـا من الذكريات الشخصية عن الأفكار والتجارب الثورية المبكرة التى مر بها وتسـجيلا وصفيا للأفكار والآمال وخيبــات الأمل التى راودت حـركة الضباط الأحـرار قبل ثورة عام ١٩٥٢ وبعدها • ولاريب فى أن ماأورده سـلوين لويد فى خطابه من مقتطفات من كتـاب عبد الناصر التى تحدث فيها عن دور مصر الحيوى ، ومجالها ، ومسرح نشاطها ، وعن رسالتها الايجابية وسط هذهالأمواج المتلاطمة ليس الا تأكيدا لما أراد عبدالناصر قوله من استحالة القبول بالعزلة الضيقة التى فرضت على مصر (١) •

وليس فى الكتاب أى تمجيد ذاتى أبدا • بل انه يضـم عددا من

---

(١) ورد مثل هذا الشرح ، للبحث عن هدف في كتاب البانديت نهرو « اكتشـاف الهند » الذى ظهر مؤخرا فقـد قال .... « هناك أسئلة عدة تتنـاول الصورة التى ستكون عليها الهند الحرة وتتناول ما تنتويه من عمل وما يربطها من علاقات بالآخرين . (المؤلف)

الاعترافات من هـذا القبيل .. « ولست أريد أن أدعى لنفسى مقعد أستاذ فى التاريخ » ، أو قوله : « ولو خطر لى أننى أستطيع أن أحل كل مشاكل وطننا ، لكنت حالما ، وأنا لا أحب أن أتعلق بالأوهام .. » .

ولا ينطوى الكتاب على أى تفكير بالسيطرة ؛ سواء أكانت عسكرية أم عن أى طريق آخر . ولم تكن « المراحل الثلاث » التى أشار اليهـا سلوين لويد فى خطابه الا « الدوائر » الثـلاث التى رسمها عبد النـاصر كمحيطات خارجية تقع مصر وسطها . أما المحيط الأول الذى يعتبره عبد الناصر أكثر أهمية ، فهو الوطن العربى ، الذى يصفه بأنه مجموعة من الشعوب المتجاورة ، المترابطة بكل رباط مادى ومعنوى يمكن أن يربط مجموعة من الشعوب . وكان عبد الناصر يطلق فى قوله هـذا ما سبق لنا أن أوردناه ، من نظرية قومية عربية شاملة عن الوحدة . وذكر وجود ثلاثة مصادر للقوة العربية وهى الروابط التى تجعل من الوطن العربى كلا واحدا متلاحما ، لا يقبل التجزئة ، والمركز الجغرافى الذى يجعل العرب يقفون على مفارق الطرق فى المواصـلات العالمية ، والزيت الذى يعتبره العمود الفقرى للحضـارة المادية . وليس فى هـذا الكلام أو ما تلاه ، أية اشارة أو تلميح لرغبة عبد الناصر فى سيطرة مصر أو سيطرته الشخصـية « على الدول العربية أو الزيت » ، وهو ما اتهمه به المستر لويد اتهاما مباشرا .

وننتقل بعد ذلك الى الحلقة الثانية التى رسـمها عبد الناصر ، وهى القارة الافريقية التى ذكر أن مصر لا يمكن لها بأية حال من الاحوال وحتى لو أرادت ذلك ، أن تظل بمنأى عن نضالها فى سبيل التحرر .. وراح يعرب عن أمله بعد ذلك فى أن تضم القاهرة فى وقت قريب «معهدا كبيرا » يتولى دراسة الشئون الافريقية ومجاهلها .

ويقع ما ورد فى الكتاب من حديث عن افريقية فى مائتين وخمسين كلمة استخلص منها المستر لويد ما دعاه « بالمرحلة الثانية » التى صور فيها مطامح عبد الناصر « فى السيطرة على القارة الافريقية كلها » . ولم يشأ المستر لويد أن يقتبس من الـكتاب الهدف الواضح الذى حـدده عبد الناصر للمعهد الافريقى الذى تصوره عندما قال :

« يسعى هذا المعهد لكشف نواحى القارة أمام عيوننا ، وليخلق فى

عقولنا وعيا افريقيا مستنيرا ، ويشارك مع كل العاملين من أنحاء الارض على تقدم شعوب القارة ورفاهيتها » (١) ٠

ومن الواضح ان في وسع المرء أن يزعم بأن هذه الاقوال ستار أراد منه عبد الناصر أن يخفى به حقيقة نياته ٠ ولكن سلوين لويد أكد فى اذاعته لبريطانيا والعالم ، انه قرأ فى هذه الفقرات نفسها اعترافا مباشرا وبيانا صريحا عن أهداف استعمارية تشبه الاهداف التى وضعها هتلر ٠ ونجد مثل هذه الصعوبة أيضا عندما نتحول الى البحث فى الحلقة الثالثة التى تحدث عنها عبدالناصر فى كتابه ، وهى حلقة العالم الاسلامى، فلقد تحدث هنا عن ضرورة قيام تعاون أوثق عرى بين جميع المسلمين فى العالم واشترط ألا يتجاوز هذا التعاون بالطبع حدود ولائهم للبلاد التى ينتمون اليها ٠

ولكن المستر لويد لم يشأ أن يقتبس هذا النص الذى أورده عبد الناصر فى الخطاب الذى أذاعه ــ أى لويد ــ للملايين من سامعيه ٠ وهو مع ذلك يجد من السهل عليه أن يستخلص « اعترافا » آخر من المائتين والخمسين كلمة التى تحدث فيها عبد الناصر عن الروابط بين المسلمين والتى أورد فيها التحفظ الذى ذكرت قبل قليل ٠ وكان هذا « الاعتراف » الذى استخلصه سلوين لويد هذه المرة هو أن عبد الناصر يهدف الى السيطرة على المسلمين فى العالم بأسره ٠ وقد يصعب على المرء أن يصدق فى عام ١٩٦٢ ، أن مثل هذه الاقوال قد صدرت عن وزير يمثل حكومة جلالتها ، ولكنها صدرت بالفعل على شكل اتهامات موجهة الى الرئيس عبد الناصر ٠

وقد أدت هذه الاتهامات الى أضرار ضخمة ؛ سريعة ٠ وسارعت الصحف فى جميع أطراف العالم الى نشر هذه المقتطفات التى أوردها سلوين لويد من كتيب عبد الناصر ، وراح القراء فى كل مكان يفسرون هذه المقتطفات على النحو الذى أراده لويد من اتهاماته ٠ ولم تكن اللحظة مواتية ٠ لأن يفكر الناس ــ الذين استمعوا الى وزير الخارجية وهو يذيع

---

(١) تعمد سلوين لويد طبعا حذف هذه الفقرة وأمثالها من مقتطافاته لان مجرد ذكرها ، يكشف الحقيقة للقراء غير البلهاء في الغرب ، وهذا ما كان يستبعده الوزير البريطانى ولا يريده ، تحقيقا لاهدافه واهداف رئيسه ايدن في الحملة على سيادة الرئيس عبد الناصر ٠

(المعرب)

خطابه ــ تفكيرا متزنا فى حقيقة ما كان يقترحه الوزير ، هذا اذا شئنا تسمية تشويه الأصول والحقائق مجرد اقتراحات . ولكن دهمائيته فى التحدث الى الجماهير تركت آنذاك أعمق الانطباعات بحيث يتحتم علينا أن نقوم أقواله الآن تقويما « رجعيا » .

فهناك من الناحية الأولى زعيم ثلاثة وعشرين مليونا من المصريين الذين كانوا حتى ذلك الوقت أى فى عام ١٩٥٤ عندما وضع الكتاب يؤلفون شعبا فقيرا للغاية ، يسيطر عليه الجهل ، وتنتشر فى محيطه الأمراض . ولا يملك مصنعا حديثا واحدا للفولاذ . ولم تكن قواته المسلحة فى ذلك التاريخ تربو على المائة ألف . وان كانت الخطط الموضوعة تقضى بزيادتها الى الربع مليون . واذا أخذنا بعين الاعتبار أن سلوين لويد اتهم الجيش المصرى بالضعف فى عام ١٩٥٦ ، أى بعد سنتين من ذلك التاريخ (١) ، فكيف يمكن أن نصدق ، أن زعيم هذه البلاد ، وهذه حالة شعبها وجيشها فى عام ١٩٥٤ ، يمكن أن يفكر فى السيطرة على سدس مجموع سكان العالم أى على نحو من أربعمائة وخمسين مليونا من المسلمين الذين يسكنون ثلث مساحة العالم كله . وكان على هذا الزعيم المصرى اذا أراد تحقيق هدفه « العالمى » هذا أن يتحدى سلطان عدد ضخم من كبريات دول العالم مساحة وقوة كروسيا والصين وبريطانيا وفرنسا والهند وجنوبى افريقية وبلجيكا وغيرها من دول العالم ، التى تؤلف غالبيتها .

واذا شئنا أن نمضى فى هذا التقويم التدريبى مرحلة أخرى ، قلنا ان المشكلات الهائلة التى تنطوى عليها مثل هذه المطامح الضخمة قد لا تعوق زعيم دولة كبرى متقدمة من الناحية الحضارية ، اذا كان مصابا بالعظام . ولكن لويد أو أيا من زملائه من ذوى السلطة لم يستطع أن يتهم الرئيس عبد الناصر ، بالافتقار الى اتزان التفكير ، بل على النقيض من ذلك ، وعلى سبيل المفارقة ، كان لويد نفسه ومن يستوحون منه

---

(١) نقلنا هذه الأرقام التى اوردها المؤلف والتى لا نود أن نناقش صحتها، لكى نثبت بما فيها من صحة تقريبية على الاقل ، مدى التضليل الذى لجأ اليه الغرب ، لتشويه صورة السيد الرئيس أمام الشعوب الغربية واظهاره بمظهر الطامع فى التوسع، وهو عين ما يلجأ اليه عملاء الغرب من الحكام العرب حتى يومنا هذا ، مع أن الحقيقة هى أن أعمال الرئيس انعكاسات قيادية لما يطمح اليه الشعب العربى . فى الوحدة الشاملة .

(المعرب)

الالهـام من المسئولين ، ينعتون عبـد النـاصر بأنه واسع الدهاء • دقيق كل الدقة فى حساباته ، التى يقدر خطاه وفقا لها • ولم يحاول لويد أن يرسم لعبد الناصر ، صورة انسان يتكىء على كرة من البلور الكريستالى فى « عش للنسر » كعش برختسجادن يتطلع منه الى الآفاق البعيـدة أمامه ، فيشتد عظامه ، وانما .كانت الصورة التى رسمهـا ، وأراد من النـاس أن يأخذوا بهـا ـ وقد أخذوا بهـا فعلا أخذا ينطوى على الخطر ـ تمثل عبد الناصر بشكل الانسان العاقل كل العقل ، الشديد الدهاء ، المتحكم فى عواطفه ، والذى يعلن بصراحة للعالم ، هذه الاهداف العالمية النطـاق التى يسعى لتحقيقهـا • ولا أرى بى حاجة الى المزيد من القول ، ولكننى أريد أن أقول ان تبدل هذه الصورة ، التى حاول لويد ورئيسه ايدن طبعها فى عقول الغربيين مستخدمين غاية الجهد هى عملية نفسية دقيقة تتطلب بعض الوقت •

ولا أكشف سرا ان قلت أن مجلس الوزراء البريطانى ، ألف فى ذلك الحين ، «لجنة لخلق الذرائع» وايجاد المبررات من بين أعضائه • والتأم عقد مؤتمر لندن ، بعد كثير من التردد الخفى من جانب الدول المدعوة ، لانها أدركت أن دعوة ايدن ومولیه لها لم تكن بقصد بحث الاقتراحات التى سيقدمانها ومناقشتها ، بل بقصد اقرارها ليس الا • وكان من المحتم أن يفشل المؤتمر ، وألا يكون مجديا ، لاسيما وقد أصر الرجلان على دعوتهما وعلى انعقاد المؤتمر ، بالرغم من الحقيقة الواقعة وهى ان الدولة صاحبة الشأن الأول فى الموضوع ، وهى مصر ، قد رفضت حضوره ، لأن جدول أعماله نص على أن توافق مصر على الطلب المقـدم اليها بالتخلى عن ادارة القناة • وحاولت الهند أن توجه المؤتمر الى اقتراحات تصلح لكى تكون أساسا للمفاوضات ، وهى تنطوى على تأكيد ميثـاق عام ١٨٨٨ وتعديله بحيث ينطبق على سياسات العصر ، وعلى أن تتولى مصر ادارة القناة شريطة أن تقدم تقريرا سنويا عن ادارتها الى الأمم المتحدة وشريطة قيام اتصال منظم ، دائم بين المنتفعين بالقناة من ناحية والسلطة المصرية التى تتولى ادارة القناة من ناحية أخرى • ولكن الرفض كان نصيب الاقتراح الهندى، وقرر المؤتمر بدلا من ذلك ايفاد «منزيس» الى القاهرة ليقدم الى عبد الناصر طلبا بانشاء سلطة دولية لادارة القنـاة ، على أن تقتصر مهمته على الطلب دون المفاوضة• وأعد ايدن ومولیه العدة، رغبة منهما فى زيادة حدة الوضع ضراما ، لـكى يعلنا فى نفس اللحظة التى يؤم فيها منزيس القاهرة ، عن وصول القوات الفرنسية الى قبرص التى لا تبعد أكثر من مائتين وخمسين

ميلا عن بور سعيد ، وعن استعداد ثماني بواخر من ناقلات الجنود في ميناء ساوثهامبتون للتحرك في اتجاه الجزيرة نفسها ٠

وكان الرجلان قد بدآ في الوقت نفسه في تنفيذ مخطط آخر للعمل ٠ فقد رتبا ليظهرا مصر بمظهر العاجزة عن تسيير الملاحة في القناة على أي حال ، أن يمتنع المرشدون الموجودون في الخارج في أجازاتهم ، عن العودة الى عملهم ، وقد اعترف ايدن بهذه الحقيقة فيما بعد في مذكراته ، وروى أنه والفرنسيين قد حثوا المرشدين على عدم العودة ، ورتبا أيضا أن تنشر الصحافة الغربية المقالات والبحوث الطوال عن الخبرة الفنية التي يطلب توافرها لارشاد السفن داخل القناة وان ترفض الصحف الغربية الموالية نشر ما يصدر من اعلانات عن مصر طلبا للمرشدين من الخارج ، ولكن القناة ظلت تعمل كعهدها ، وحصلت مصر على مزيد من المرشدين (١) ٠ وتم في النهاية سحب من تبقى في مصر من مرشدي الشركة ، وزعم ايدن في مذكراته أنه لم يعد في وسعهم البقاء في مراكزهم ٠ وبدأت شركات الملاحة في تحدي ايدن بدفع رسوم العبور الى الادارة المصرية ٠

وظهرت في شهر سبتمبر أيضا ظاهرة غريبة أخرى ، فقد وزعت عن طريق البريد على جميع أعضاء البرلمان ورؤساء تحرير الصحف ومديري شركات الزيت وغيرهم من كبار الشخصيات والمؤسسات الهامة في بريطانيا وخارجها نشرة تحمل العنوان التالي : « مصر — معلومات عامة » وقد حملت النشرة في ظاهرها كل دليل مصطنع ، على أنها نشرة رسمية مصرية ، وزعت عن طريق السفارات المصرية في كل مكان ٠

وذكرت النشرة في فصل حمل عنوان « مشروعات عامة » أن مصر تقترح انشاء منظمة عربية جامعة تحت اشراف مصر لتسوية الزيت ٠٠ ووردت تحت هذا العنوان ، الجملة الغريبة التالية التي تحمل كل نذر الشر ٠

« وسيؤدي خلق هذه المنظمة الى حرمان أعداء مصر من الزيت في حين تضمن البلاد العربية التي تحظى بحسن نيات مصر ، تأمين حاجاتها » ٠

---

(١) نسي المؤلف أن يشير هنا الى الدور البارز الذي لعبه المرشدون المصريون في تأمين عمل القناة في الايام الاولى من هذه المقاطعة ، والذي يرجع اليه أكبر الفضل في ضمان سير الملاحة في القناة نظرا لما بذلوه من جهود تفوق حدود الطاقة البشرية ٠

(المعرب)

وانطوت هذه الخطة المذهلة على بعض التفاصيل الأخرى ، فقد ذكرت على سبيل المثال ، أن المؤسسة المصرية للبترول ستتولى تشغيل مستودعات الزيت البريطانية فى القناة ، وهى المستودعات التى حدد اتفاق الجلاء وضعها وضمنه ، وأضافت أن مصر ستتمكن عن طريق « حلفائها الجدد » وبمساعدتهم من بناء مصاف جديدة لتكرير الزيت ، (لاريب أن المقصود بالحلفاء الجدد هم الاتحاد السوفياتى والدول التابعة له) وبذلك يصبح العرب فى الواقع « سادة زيتهم » وليس من المستغرب أن تكون هذه النشرة الصغيرة قد أثارت فزعا عظيما فى نفوس الكثيرين من الذين تلقوها أو اطلعوا عليها من ذوى النفوذ ، وراح الناس يتساءلون ، « أو لم يقل لنا لويد والوزراء الفرنسيون بمنتهى الجد والحزم بأن عبد الناصر كان صريحا فى اعترافاته بمطامعه ، صراحة هتلر فى الماضى ! أو لا تعتبر هذه النشرة ، مجرد اضافة على الاعترافات السابقة ؟ »

ولكن هذه النشرة كانت مزورة تزويرا كاملا ، فهى صورة طبق الاصل فى مظهرها وشكلها ، وغلافها ، وتبويبها ، واخراجها ، عن نشرة مصرية موجودة تحمل هذا الاسم ، ولكنها تختلف فى العبارة والمحتوى . ولو كانت الظروف عادية لتبين مافيها من تزوير على الفور آنذاك ، اذأن جميع مافيها من معلومات كانت مصوغة فى عبارات تحمل معنى الاذى لمصر ، وهو مالا يمكن أن يصدر عن مصر نفسها ، وليس ثمة من شك فى أنها قد « عكست » تماما عن أصلها المصرى الصحيح ، فقد أظهرت النشرة المزورة ، نسبة الامية فى مصر ، وذكرت أرقاما « تافهة » لما تم توزيعه من أراض بموجب قوانين الاصلاح الزراعى ، كما عرضت أرقاما خفيفة جدا للدخل القومى فى البلاد ، ويدرك كل من يقرؤها استحالة صدورها عن أية حكومة شرقية كانت أو غربية اذ لا يعقل أن تعرض مافيها من حقائق — اذا كانت حقائق فعلا — على هذا النحو ، لكن الظروف التى جرى فيها التوزيع ، لم تكن عادية أبدا ، وقد تم فعلا فور البيان الذى أذاعه المستر لويد ، والذى رددت الصحافة صداه ، ولم يكن فى وسع واحد فى المائه من متسلمى النشرة الزائفة ، أن يقارنوا بينها وبين النشرة الأصلية الصحيحة ، كما فعل مؤلف هذا الكتاب . ولم تكن هذه النشرة الأصلية تتضمن أكثر من اشارة قصيرة واحدة لموضوع الزيت ، اذ ذكرت أن مصر تخطط لبناء مصفاة مصرية للزيت تعمل من أجل المصريين (١) .

---

(١) في وسع القارىء المهتم بهذا الموضوع وبالمقارنة بين الوثيقتين الاصلية والمزورة أن يرجع الى الصور الزنكوغرافية للنشرتين كما صدرتا بشكلهما الكامل في صحيفة « الاجبشيان جازيت » في عددها الصادر في ١٢ من سبتمبر ١٩٥٦ . (المؤلف)

وقد أحدث التزوير على الفور الأثر المقصود منه ، وفى وسعى هنا أن أسرد على سبيل المثال ما نشرته مجلة لندن الصناعية المسماة « أسبوع البترول » فقد كتب محررو المجلة موضوعا تحت عنوان « مخطط مصر لزيت الشرق الاوسط » أكدوا فيه ثقتهم بصحة النشرة وأضافوا أن ما جاء فيها ينطبق على ما أعلنه عبد الناصر فى كتابه الذى ارخ فيه حياته ، ثم راحوا ــ اكمالا للحلقة ــ يقتبسون ما أورده لويد من اشارات لكتيب « فلسفة الثورة » (١) .

وبادرت القاهرة الى اعلان تزييف النشرة ، ونفت نفيا باتا صدورها عن اية سفارة مصرية . ولكن مثل هذا النفى ما كان ليجدى فى مثل ذلك الجو الذى كان مسيطرا فى سبتمبر عام ١٩٥٦ . وقد جاء تأثير التزوير ، معززا تعزيزا قويا لنظرية المستر لويد ، مما تكشف عنه حقيقة المقال الذى نشرته صحيفة «أسبوع البترول» . وأجرى المستر «ادوارد مارو» مراسل اذاعة كولومبيا ، مقابلة صحفية وتليفزيونية ، مع الرئيس عبد الناصر فى أواسط شهر أكتوبر ، وسأله عما اذا كان يظن بأن المثل الذى ضربه فى موضوع التأميم ، قد تحتذيه دول عربية أخرى فى موضوع الزيت فرد عبد الناصر قائلا :

« اعتقد ان الوضع بالنسبة الى الزيت ، يختلف كل الاختلاف . اذا سألتنى عن السبب ، قلت ان قيامى بتأميم الزيت يتطلب منى أن اكون مطمئنا الى طريقة نقله وشحنه ، وواثقا من وجود « الزبائن » الذين يبتاعونه ، وقادرا على تأمين ماتحتاج اليه ادارة انتاجه فى حقوله من خبرة فنية » .

وعادت مجلة «أسبوع البترول» فنشرت مقالا آخر فى هذا الصدد دعمته بما أورده المستر « لويد » فى حديث تليفزيونى ثان ذكر فيه أن « أحلام عبد الناصر فى اقامة الامبراطورية التى يريدها . قد بدأت تطل براسها » . وكان عنوان المقال الجديد .. « عندما يستعمل عبد الناصر صيغة المتكلم المفرد » . ولم يتركز المقال على ما وضعه عبد الناصر من تحفظات فى حديثه للتليفزيون الامريكى عن صناعة الزيت ، كما كان الواجب الصحفى يحتم على الصحيفة أن تفعل ، وانما ركز اهتمامه على الطريقة الانجليزية المثالية فى التعبير التى استخدمها عبد الناصر ، كقول أى انسان انجليزى ... (ولو أردت أن أؤمم صناعة الفولاذ لتحتم على ان أفعل كيت وكيت » . ولكن لفظة « المتكلم » فى حديث عبد الناصر

---

(١) مجلة أسبوع الزيت ــ العدد الصادر في ١٤ من سبتمبر ١٩٥٦ .

المشار اليه استخدمت كدليل جديد على أطماعه الشخصية وعلى ميوله الاستعمارية (كذا) بالنسبة الى الزيت الذى لايوجد فى أرض مصرية . وراحت المجلة البريطانية بعد ذلك تقتبس من أقوال المستر «لويد» ماتريد لدعم نظريتها ، ثم مضت تتحدث عن تزوير النشرة على النحو التالى .

« وسواء أصح أن هذه النشرة بالذات مزورة أم غير مزورة ، فان هذا أمر لا نعرفه ، ولا يهمنا ولا سيما فى مثل هذه الاوقات ، على أية حال من الاحوال .

اما أن يكون ما فيها من افكار أساسية انعكاسا لتفكير عبد الناصر، فهذا هو المهم ، وهو ما اتضح للملايين من مشـــاهدى التليفزيون فى الاسبوع المنصرم ، عندما رأوا عبد الناصر يبتسم وهو يقول .... وعلى اذا اردت ان أؤمم الزيت ، أن أفعل كيت وكيت » (١) ..

ولا ريب فى أن هـذه الطرائق الغـريبة والاساليب العجيبة هى التى أدت فى تلك الاشهر التى سادها القلق من عام ١٩٥٦ ، الى ظهور أعظم مثل فى أواســـط القرن العشرين ، على الايحاء الجماهيرى على الصـعيد العالمى ، عن طريق الترويج لفكرة معينـة تستثير الذكريات المرعبة عند هذه الجماهير . وراحت مصر فى مثل هذا الجو المفتعل ، تطلع باقتراحاتها المتتالية عن مشكلة القناة ، ليصطدم كلٌ منها فور صدوره بالعقبات الناجمة عن مثل هذه المواقف العامة التى اصطنع خلقها ضد مصر. وراح عبد الناصر فى الثالث من سبتمبر ، يعرض اقتراحا ما لبث أن أضفى عليه الكثير من التفصيل والصراحة فى العاشر من الشهر نفسه ، مضفيا عليه أشـياء جديدة واضـــحة كل الوضـوح . وتضمنت هذه الاقتراحات بالاضافة الى معاهدة جديدة رأى امكان توضيحها ، قيام هيئة من المنتفعين بالقناة تتولى التفاوض مع مصر لعقد «اتفاقات ملزمة» تحدد مستوى الرسوم ، واستخدام العائدات فى أغراض الصيانة ، والقيام بمشروعات مقبلة لتحسين الممر المائى . ولكن وزارة الخارجية البريطانية بادرت الى الاعلان بان اقتراحات عبد الناصر لا تنطوى على « أى شىء جديد » . وراح ايدن يعلن فى مجلس العموم فى الثانى عشر من سبتمبر أن « مصر رفضت كل مسعى لا يجاد تسوية سلمية » . وزعم فى مذكراته فيما بعد بالنسبة الى هذا التاريخ ، ان مصر لم تتقـــدم بأية اقتراحات مضادة الى منزيس . وهنا يقوم التناقض الواضح الصريح مع الواقع .

---

(١) مجلة «أسبوع الزيت» عدد ١٩ اكتوبر ١٩٥٦ .

وكان مجلس الوزراء ، قد أقر بالفعل الطريقة التى يجب أن تسير فيها الامور قبل أن يمضي منزيس الى القاهرة . وقد حاول سير انطونى هنا أيضا اخفاء هذه الحقيقة ، ولكنه لم يفلح فى اخفائها بسبب ما فى كتابته من أساوب موسيقى . فقد قرر مجلس الوزراء البريطانى فى الثامن والعشرين منأغسطس - وكان قد أدركأن الاستعدادات للحملةالعسكريه قد شارفت على الكمال - أن تلجأ بريطانيا وفرنسا الى مجلس الامن فى حالة فشل بعثة منزيس التى كان المجلس على ثقة من فشلها (١) . ويقول ايدن فى مذكراته « ان مشروع القرار الذى ستتقدمان به سيقابل على الغالب بالفيتو الروسى » ويمضى بعد ذلك فيشرح تفكير مجلس الوزراء على النحو التالى :

« وفكرنا فى أن من الخير لنا أن نسارع الى عرض القضية ، وأن من الأهمية بمكان أن نأخذ زمام المبادرة قبل أن تأخذه مصر ، أو غيرهـا من الدول .... ولكن لم يكن من الحكمة من الناحية الاخرى أن نلجأ الى مجلس الامن ، قبل ان تحصل بعثة منزيس على رد من عبد الناصر ... مخافة أن يوحى ذلك بالانطباع فى أننا كنا نتوقع من الحكومة المصرية رفض مقترحاتها » .

وليس ثمة ما هو أوضح من الهدف الذى توخاه ايدن من اللجوء الى استخدام الامم المتحدة . وكان دالاس يعرف فى واشنطن هذا الفرض ، اذ أدركه ونقلت اليه المخابرات الامريكية أن الاعدادات العسكرية الانجليزية الفرنسية للحملة المقصودة ، تسارع نحو الكمال . فراح يعمل الآن على ايجاد وسيلة أخرى لحصر ايدن ومولية ضمن نطاق البحث عن حل سلمى ، ولابعادهما عن فكرة اللجوء الى الامم المتحدة . ويدون ايدن هنا ملاحظة أخرى من تلك الملاحظات التى يحاول طمرها تحت ستار لاخفائها ، ولكنها تظهر لتشير الى كل شيء وتفضحه اذ يقول ، ان دالاس حذره من أن الولايات المتحدة لن تؤيد عرض الموضوع على الامم المتحدة لانها تخشي أن يكون هذا العرض وسيلة للحصول على غطاء للتعمية . وكانت الوسيلة فى منتهى البساطة . وقد استخدمت بالفعل فيما بعد لخلق ازمة فى الامم المتحدة عن طريق التقدم بمشروع قرار من طراز لابد وان تقابله روسيا باستخدام الفيتو ، ويكون غير مقبول بأية حال من

---

(١) « وتحتم علينا أن نستعد لتوجيه ضربتنا في غضون أسابيع قليلة ، اذا صحت عزيمتنا على توجيهها ، اذ ان الابقاء على هذه القوات في امكانها امدا طويلا امر باهظ التكاليف » في مذكرات ايدن ص ٤٥٦ . (المؤلف)

الاحوال فى مصر ، فيقوم ايدن ومولیه ، على اثر هذا التطور باعلان استحالة القيام بأية خطوة جديدة ، وان الوقت قد حان الآن للعمل .

وادى خوف دالاس من هذا التطور ، الى تقدمه فى مستهل سبتمبر باقتراحاته الجديدة لانشاء هيئة المنتفعين بقناة السويس . وتقول رواية ايدن فى هذا الصدد ان دالاس اقترح أن تتولى هذه الهيئة تسيير بواخر اعضائها عبر القناة ، وأن تجبى الرسوم ، دون أن تأبه برأى عبد الناصر ، وانه مالبث أن « تراجع » عن مشروعه هذا بالاعلان جهرا بأن امريكا لن تدعم « هيئة المنتفعين » ضد مصر الى الحد الذى يؤدى الى استخدام القوة . ولا يهمنى ان أورد التفاصيل الكاملة هنا فالمهم هو ما نعرفه حقا ، ومالا يتطرق اليه الشك مطلقا . فقد لاحظ دالاس بين أوائل ٥ سبتمبر وأواسطه ، أن ايدن ومولیه يحاولان استغلال مشروعه « لهيئة المنتفعين » وأن يجعلا منه أداة ينفذان عن طريقها ما يحاول هو تجنبه . فلقد وضعا خطتهما على أن يستخدما المشروع وسيلة لاستخدام القوة ، عن طريق ايفاد باخرة الى القناة على سبيل التجربة ، على أن يرفض قبطانها معونة المرشدين المصريين أو دفع الرسوم الى الهيئة المصرية فاذا ما رفضت مصر السماح لباخرته بعبور القناة عمد ايدن ومولیه على الفور الى اتهام مصر بخرق ميثاق عام ۱۸۸۸ . ويصبح استخدام القوة فى مثل هذه الحالة مقبولا لدى الرأى العام الغربى الذى ما زال يحس حتى تلك اللحظة بالفزع من احتمال اغلاق القناة . وأعلن دالاس جهارا قبيل مغادرته لندن عائدا الى بلاده بعد أن أقر المؤتمر مشروع « هيئة المنتفعين » ، أن حكومته لن تشترك فى أية عملية « لشق الطريق عنوة » عبر قناة السويس. وخيل اليه أنه قد كسب بعض الوقت على الاقل . وكان قد تقرر عقد اجتماع آخر ، ليحتفل رسميا بافتتاح «هيئة المنتفعين» وأكد دالاس معارضة حكومته القيام بأية محاولة « اختبارية » من النوع المقترح قبل عقد هذا الاجتماع ، وقبل أن تشرع الهيئة الجديدة فى اجراء مفاوضات صحيحة مع مصر .

ولكن بالرغم من معارضة دالاس العلنية والمعروفة ، وقبل ان تولد « هيئة المنتفعين » بشكل رسمى ، راح ايدن ومولیه فى الثالث والعشرين من سبتمبر ، يحيلان القضية برمتها الى مجلس الأمن . وكانت الحملة العسكرية قد باتت جاهزة للعمل . واحتشدت قوة هائلة قوامها مائة الف رجل وعدد كبير من السفن الحربية والطائرات ، فى البحر المتوسط ، على قدم الاستعداد للعمل الفورى .

واحس دالاس بالفزع ، فشرع يعمل بالاشتراك مع همرشولد والوفد الهندى ، والدكتور محمود فوزى ، على وضع قواعد عملية سليمة تكون أساسا لقرار يصدر عن الامم المتحدة ويبعد الازمة ثانية عن مجال استخدام انجلترا وفرنسا للقوة العسكرية . وتمت بالفعل « صياغة » ستة مبادىء ، تم الاتفاق عليها • ولكن الوفدين البريطاني والفرنسى أرفقا بهذه المبادىء ذيولا قدماها على شكل مشروع رسمى ، يدرك أى طالب فى الصف السادس الابتدائى ، أن روسيا ستستخدم حق « الفيتو » لابطاله فى حالة اقراره ، وان مصر ستعارضه حتما • وتضمنت هذه الذيول عدة بنود ينص أحدها على آن تتعاون مصر ، الى أن يتم الوصول الى تسوية ، مع هيئة المنتفعين بالقناة ، وان تبقى على القناة مفتوحة امام جميع البواخر مهما كانت جنسياتها • وقد اعترف ايدن فيما بعد فى مذكراته انه أراد القيام « بتجربة » فى موضوع حظر مصر على السفن الاسرائيلية العبور فى القناة .

وكانت جميع الصحف الكبرى فى العالم آنذاك قد روت أن لندن وباريس تنظران الى « هيئة المنتفعين » نظرتهما الى « حصان طروادة » أو ما نسميه نحن « مسمار جحا » وكان دالاس نفسه قد أعرب جهارا عن مخاوفه من أن يلجأ الانجليز والفرنسيون الى استخدامهما وسيلة لخلق المشاكل واثارة المتاعب ، وتبرير اللجوء الى القوة . ولم يكن هناك أدنى أمل فى أن مصر ستقبل هذه « الذيول » . وكان ايدن يعرف هذه الحقيقة تمام المعرفة . وكان موليه لا يقل عنه علما بها . واستخدمت روسيا حق الفيتو . ورفضت مصر الاقتراحات البريطانية ـ الفرنسية • وخرج بينو من مجلس الامن فى الحادى عشر من أكتوبر ليعلن أن « لا أساس هناك للمفاوضات » . ولحق به زميله سلوين لويد يقول ... « لقد عملنا كل ما فى وسعنا » . ومضى دالاس وهمرشولد وأعضاء الوفد الهندى ومحمود فوزى فى محاولاتهم للتغلب على النكسة. ولكن التسوية السلمية كانت قد انتهت .

وانتهى معها ما يحيط باللغز من غموض ...

١١

الحرب الثلاثية

« الاسرار أدوات حادة .
ولذا يجب ابقاؤها بعيدة عن متناول الاطفال والمجانين .. »
السير مارتن مار ــ أول

***

هل كان ثمة تواطؤ بين بريطانيا وفرنسا واسرائيل ؟ اذا كان الرد بالايجاب ، فمن الذى أوجده ، وفى أى تاريخ وجد ، وما هى الخطط التى وضعها ، وما توقيت تنفيذها ؟ وهل كان ايدن على علم بخطة الهجوم الاسرائيلى ؟ وهل كان يعرف أن الفرنسيين سيقدمون الى اسرائيل عونا حربيا مباشرا ؟ وهل كانت اسرائيل عالمة بالانذار الانجليزى ــ الفرنسى سلفا وقبل تقديمه ؟ واذا صح انها كانت على علم به ، فما الذى استنتجته اسرائيل منه ؟

ان عرض هذه المرحلة الاخيرة من القصة ، عمل من اعمال رجال المباحث . فهناك حشد ضخم من الحقائق المعروفة ، ومجموعة هائلة من الادلة والملابسات الثابتة ، وأجمات كثيفة من الفروض ، تضاف اليها كلها رواية ايدن البعيدة عن العقل ، والتى تضفى على القضية التى يراد اكتشافها المزيد من الغموض والتعقيد بدلا من التبسيط والايضاح . ولقد حاول السير أنطونى فى مذكراته الا يقول شيئا ايضا عن هذه الاسرار التى تلف قضية السويس ، وأن يترك المجال مفتوحا أمام الاجيال القادمة لاكتشاف غوامضها ومكنوناتها . فلقد وضع عرضا لا يرد فيه اى ذكر لكلمة التواطؤ أو اى مرادف من مرادفاتها ، ولا يقر فيه حتى ولو فى جملة واحدة ، ان أحدا قد اتهمه بوجود هذا التواطؤ . وهو لا ينكر أى شيء لانه لا يقر بوجود ما يستحق الانكار أو النفى . وهو يعترف بالقليل ، ولكن ما يرد على لسانه من اعترافات ــ هذا اذا استثنينا شطحات قلمه أحيانا ــ قد صيغ فى عبارات غامضة كل الغموض بحيث لا تصلح الا مادة لتحليل معقد متقاطع ، أو انها

وضعت فى لفة تحمل الكثير من المعانى والاحتمالات لما فيها من افتقار الى الوضوح • وسنتولى هنا تمحيص جميع هذه الامور ، مع تحذير القارىء سلفا وقبـــل كل شيء من انه ســـيجد عقله وقد « داخ » فى بعض المواضع من هذه الاحجيات . ولكن قبل أن نتعمق فى هذه « الفابة » من التعقيدات والفموض ، ارى أن أورد هنـــا ملاحظة أو ملاحظتين عامتين .

سبق لنا أن رأينا فى الفصول السابقة كيف سعت الحكومات الثلاث ؛ البريطانية والفرنسية والاسرائيلية ، الى الاحاطة بعبد الناصر ، وكيف كانت تقوم باعداداتها النشيطة للشروع فى هجوم عســكرى . ولكن فى وسعنا ان نكون واثقين من أنه بالرغم من وجود هـذا الهدف المشترك ، فلقد كانت هناك بعض التحفظات والكوابح الفردية عنـد حكومتين منها على الاقل ، وفى وسعنا أن نشرحها باختصار بادئين ببريطانيا .

كان تصميم الســير انطونى الذى لا يتزعزع ، كما حدده هو ، متركزا فى وجوب خروج بريطانيا من قضية الســويس وهى تملك « سلطة » أكبر ــ على حد تعبيره هو ــ من السلطة التى كانت لهـا فى الشرق الاوسط العربى ، لا أقل منها . وكان هدفه بالاشتراك مع نورى السعيد ، لا ينحصر فى الخلاص من عبد الناصر ، بل يتعداه الى اقامة نفوذ عربى ــ انجليزى دائم وجديد يحل محـل نفوذ عبد الناصر ، يقوم ويتركز حول شخص نورى الســعيد وقيام عراق أكبر ، يضم جميع الاردن أو بعضه على الاقل بصورة ثابتة ، ولضمان النجاح فى تحقيق هذا الهدف النهائى ، كان هنـاك « مؤهل » ، لا بد وأن يوجد فى الطريق الى السويس والقاهرة . وليس هذا المؤهل بالشىء الجديد . فهو قديم قدم ايدن نفســه الذى عاش فيــه ، اذ أنه كان مبـدأ أوليـا من مبـادىء السياسة البريطانية فى الشرق الاوســط ، وهو يتلخص فى أن على بريطانيا أن تتجنب تماما فى كل ما تعمله ، أن يحمل أى طابع من طوابع العلاقة الظاهرية باسرائيل مهما ضؤل شأنه ، واعتقد ايدن ، وهو جـد مخطىء أنه اذا خلص من « رجل » القاهرة ، فان العرب سيستجيبون الى قيادة نورى ، وان فى وسع هذا وغيره من « الاصدقاء » السيطرة على « الدهمـاء » • ولكن ايدن كان يعرف خـير معـرفة ، دون أن يتطرق اليه شك ، فى أن بريطانيا لو بدت تعمل متعاونة مع اسرائيل بأى سبيل من السبل ، فانها ستضيع على نفسها كل شىء • وتصبح هى

وصديقها نورى « موسومين » بوسم لا يمكن محوه أو اصلاحه عند جميع العرب في كل مكان .

علينا أن نضع هذه الحقيقة نصب اعيننا فى كل مايلى من تحقيقات وعلينا ان نذكر ايضا ما لدى اسرائيل من تحفظات . فلقد رأينا فى الفصول السابقة أن عامل « تلقين العرب درسا لاينسونه » كان مسيطرا على التفكير الصهيونى الحربى التواق الى العمل . وكان هذا الهدف أساسيا فى الخطة التى وضعتها اسرائيل للحرب فى سيناء ، فهى تريد ان تحقق نصرا عسكريا مثيرا ، يترك انطباعه عند العرب جميعا . وهى لاتريد أن يحول بينها وبين تنفيذ هذا الهدف ، ولا سيما بالنسبة الى مصر ، أية معارضة أو ضغط اجنبى ، أو تدخل آخر معاد لمصر ، يظهر معه ان اسرائيل قد حققت ما تريد من نصر عن طريق العون « الاستعمارى » . فهى تريد السلاح من الخارج ، ولكنها تريد أن تتولى هى القتال به ظاهرا على الاقل .

وسبق لنا ان رأينا أيضا أن بن جوريون كان يتوقع منذ البداية، أن يؤدى احتلال اسرائيل لسيناء ، واقامة حدود جديدة لها على قناة السويس الى ضرورة التدخل الخارجى فى منطقة القناة . ولكنه كان يتوقع مثل هذا التدخل بعد احتلال سيناء لاقبله(١) .

وكانت فرنسا هى الدولة الوحيدة بين الدول الثلاث ، التى لاتحد من حريتها فى الحركة أية قيود أو مؤهلات . ولم يكن هناك ما تخشاه من السير الى مصر جنبا الى جنب مع اسرائيل ، أمام بصر العالم وسمعه . اذا كان هذا هو السبيل الأمثل والأنفع لها . ولم يكن القادة العسكريون الفرنسيون من أمثال ماسو ، يتورعون عن القيام بأى عمل ، حتى ولا اطلاق بعض فدائييهم من الطائرات فى سماء القاهرة ليعملوا كل شىء للاطاحة بعبد الناصر (٢) ، اذا كان هذا سيحقق لهم بعض الانفراج فى الجزائر ، ويثأر للكرامة الانسانية الجريحة ، التى أصابها عبد الناصر

---

(١) و (٢) انها مجرد أحلام كانت تراود أعداء العرب من مستعمرين وصهاينة . وقد سبق لى أن اوضحت في هامش سابق ، أن العدوان لو لم يكن ثلاثيا واقتصر على اسرائيل وحدها ، لكانت نتيجته غير ما تحقق لاسرائيل حتى في الايام الاولى من المعركة . للقد كان العرب على ثقة من أن جيش مصر ، بالرغم من انه كان لايزال وقت العدوان في المراحل الاولى من تسلحه وتنظيمه الجديدين ، كان قادرا على تلقين اسرائيل درسا لا تنساه . (المعرب)

فى الصميم بتأميمه شركة القناة • وهكذا كان تحالف فرنسا مع اسرائيل، الى حد كبير ، حلفا يقوم على أكثر المصالح الذاتية علنية وصراحة • ولم تكن جماعات العسكريين تنظر الى حكومتها آنذاك أى في عام ١٩٥٦ بعين الاحترام والتقدير • ولم تكن هذه الجماعات أيضا فى وضع نفسى يسمح لها بالتسامح مع ما تبديه لندن أو حتى اسرائيل من تحفظات تفرضهـا الاوضاع الدقيقة •

وفى وسعنا الآن وقد انتهينا من تدوين هذه الملاحظات الاخيرة عن الاهداف والنزعات التىحملها منفذو حرب سيناء ـ السويس فى أفكارهم، أن نشرع فى سرد حقيقة ما وقع •

الحلف العسكرى بين فرنسا واسرائيل :

اتفق فى باريس فى السابع من أغسطس عام ١٩٣٧ ، على التفاصيل النهائية المتعلقة بتسليم شحنات ضخمة وسرية كل السرية من الاسلحة الى اسرائيل ، وذلك مع كبار موظفى وزارة الدفاع الاسرائيلية الذين أموا العاصمة الفرنسية آنذاك • وتوقفت منذ ذلك التاريخ المعلومات التى تزود بها فرنسا حليفتيها بريطانيا والولايات المتحدة ، عادة عن شحنات الاسلحة الفرنسية الى الشرق الاوسط ، عملا بسياسة التوازن فى التسلح التى نص عليها البيان الثلاثى • وشرعت الحكومة الفرنسية تستأجر السفن التى تستخدمها فى نقل الاسلحة الى اسرائيل ، بمنتهى السرية والتكتم ، وكانت تدفع الى بحارتها أجورا اضافية لتضمن تكتمهم كما تعيد طلاء هذه البواخر بين آونة وأخرى ذرا للرماد فى العيون (١) • وتدفق سيل المواد الحربية باستمرار منذ شهر أغسطس ودون توقف على اسرائيل •

ومضت الاتصـالات الفرنسية ـ الاسرائيلية منذ مطلع سبتمبر فى الاتساع السريع شاملة جميع الحقول والميادين • وصدر تلميح من كل من موليه وبينو عن وجود « سر دبلوماسى » ، مما عنى أن موضوع استخدام القوة مع مصر لم يكن أمرا مستبعدا ، وأعلن بن جوريون فى اجتماع حزبى عقد فى تل أبيب فى الثالث والعشرين من سبتمبر ، ان « اسرائيل وجدت اخيرا حليفا صادقا لها » • وسنرى عما قريب أن تعيين هذا التاريخ أمر فى منتهى الأهمية والخطورة •

---

(١) مجلة فرانس ـ أوبزرفاتور الفرنسية عدد ١٥ من نوفمبر ١٩٥٦ .

كتب السير أنطونى ايدن فى شهر أغسطس يقول :

« وبينما كانت للمملكة المتحدة ارتباطاتها الواسعة المدى مع الاردن طبقا لمعاهدة التحالف بينهما ، كانت علاقات فرنسا وثيقة باسرائيل، وكان فى الامكان تسوية الخلافات بيننا وبين الفرنسيين عن طريق الديبلوماسية ولكن هذه الخلافات لم تكن قد سويت فى ذلك الوقت بعد » .

ولعل هذا القول ، من الاشارات العديدة الواردة فى مذكرات ايدن والطافحة بالمعانى المتعددة ، اذ انه لا يعنى شـــيئا محددا بالذات ، ومع ذلك يعتبر رصيدا لرواية السير انطونى فى حالة ظهور قصة كاملة الوثائق عن سيناء والسويس . وتعزز المصادر الاخرى ، ما قاله ايدن هنا اذ تجمع هذه المصادر على أن الحكومة البريطانية لم تكن تعرف معرفة واضحة عن وجود تحالف فرنسى ـ اسرائيلى فى ذلك الوقت ، وان كنا قد لاحظنا من قبل أن فرنسا توقفت منذ شهر أغسطس عن تزويدها هى وأمريكا بأية تقارير عن الشحنات التى تبعث بها الى الشرق الاوسط .

لكن الوزراء الفرنسيين لم يحتفظوا الى حد كبير بسرية الحلف الذى عقدوه مع اسرائيل بعد انتهاء حرب السويس . فلقد أعلن المسيو بينو فى الجمعية الوطنية الفرنسية فى شهر ديسمبر بصراحة قائلا : « كنا نعرف حقيقة نيات اسرائيل . أو لم يكن من الطبيعى والحـــالة هذه أن تتشاور حكومتانا ؟ » . وقال رئيس الوزارة الفرنسية موليه فى اذاعة تليفزيونية لامريكا فى التاسع من ديسمبر ما نصه : « لقد وفينا بمـــا قطعناه من عهود لاسرائيل » .

ترى ما هذه العهود ؟ وما هو هدفهـــا وهدف هذا التحالف ، اذا استثنينا موضوع الاسلحة ؟ وما هى الاتفاقات الاخرى التى تم الوصول اليها بين فرنسا واسرائيل ؟ وهل علم ايدن بهذه الاتفاقات فى أى وقت من الاوقات قبل بدء الهجوم على سيناء ؟ .

رسالة الى بن جوريون :

وانكشف سر من غياهب المجهول فى عام ١٩٥٩ أضاف الكثير الى ما كان هنـــاك من أدلة عن هذه الاسرار التى كانت تكتنف حرب سيناء والسويس ، وهى مختلفة عن ذلك الطراز الذى يعرفه المحققون عادة من المصادر الخاصة . فلقد تحدث شخص يدعى العقيد (الكولونيل) هنريكس فى رسالة بعث بها الى مجلة « الاسبكتاتور » البريطانية يرد فيها على مقال

طويل نشرته المجلة المذكورة تحت عنوان « الانذار » (١) ، فقال : انه حمل رسالة من أحد أعضاء مجلس الوزراء فى لندن الى بن‌جوريون • وهنريكس هذا ، مؤلف مشهور ، وجندى بارز ، وينحدر من أسرة انجليزية ـ يهودية قديمة ، وقد بدأ اهتمامه بالصهيونية واسرائيل فى عام ١٩٥٦ ، ورتب لنفسه زيارة لها فى أواسط سبتمبر من ذلك العام • وقد روى فيما نشره فى الاسبكتاتور ، انه اجتمع قبيل سفره الى اسرائيل بعضو فى الوزارة البريطانية ، أطلعه على كثير من الامور ثم حمله الرسالة التالية الى بن جوريون •••

« على اسرائيل أن تتجنب الحرب مع الاردن مهما كان الثمن • أما اذا قامت بالهجوم على مصر فى الوقت نفسه الذى سيقع فيه الهجوم البريطانى عليها ، فان هجومها هذا سيكون فى مصلحة جميع الاطراف المعنية • وستتظاهر بريطانيا باستنكار العدوان الاسرائيلى فى أقسى عبارة ممكنة • ولكنها ستعمل فى مفاوضات الصلح التى ستلى ذلك على مساعدة اسرائيل فى الحصول على أحسن شروط ممكنة » (٢) •

وأوضح العقيد هنريكس ، فى رسائل أخرى ، أضفت على قصته الكثير من الصحة ، وان ألقت عليها أيضا « ظلالا » مرعبة ، أن هذه الرسالة قد سلمت اليه ليتولى ايصالها ، بدلا من أن ترسل بالطرق الدبلوماسية العادية ، لانها لم تكن بقرار رسمى من حكومة جلالتها • وأضاف يقول : « ونقلت الرسالة الى بن جوريون وقلت له أيضا ان ثمة جانبا كبيرا من الرأى العام داخل حكومة جلالتها ، يؤيد كل التأييد مساعدة اسرائيل ، ويبدو ان هذا الوزير كان يعمل نيابة عن هذا الجانب من الرأى الوزارى » •

وتثير هذه القصة قضايا دستورية خطيرة ، تتعلق بالمسلك الوزارى الذى يمكن تسميته بالمسلك الذى لا يغتفر ، ولكننى لا أرى من المصلحة اضاعة الوقت فى مناقشتها • ولكن فى وسع كل انسان أن يدرك ما فى هذه القصة من أهمية جوهرية ، فهى تشير بوضوح الى ان النية كانت متجهة فى أواسط سبتمبر أى قبل ستة أسابيع من الهجوم على سيناء ، داخل الوزارة التى يرأسها ايدن الى التواطؤ مع اسرائيل فى شن الحرب على مصر • وكانت هذه النية قوية الى حد كبير ، ويتولى قيادة

---

(١) السبكتاتور عدد ٣٠ أكتوبر ١٩٥٦ •

(٢) السبكتاتور عدد ٦ نوفمبر ١٩٥٦ •

الدعوة اليها وزير خطير الشأن كان فى مكنته أن يبعث بمثل هذه الرسالة الى بن جوريون • وسنرى بعد قليل ان جميع التفاصيل التى أوردها الكولونيل هنريكس عن هذه الرسالة ، قمينة بالتصديق، كما ان شخصية الوزير الذى بعث بها لا يمكن أن تخفى عن العيان •

وعلينا الآن أن نعرض السياق الزمنى فى هذه القضية كلها • فنحن نعرف الآن أنه فى منتصف شهر سبتمبر ، كان الحلف الاسرائيلى الفرنسى فى طريق التكوين بالنسبة الى السلاح ، وكان يسير فى الوقت نفسه وبسرعة فى طريق النضج على جميع المستويات السياسية • وعندما حل منتصف شهر سبتمبر كانت الحملة الانجليزية ـ الفرنسية قد باتت على استعداد واتخذت القوات مواقعها ، وكان الفرنسيون يلحفون بوجوب الاسراع فى العمل الفورى • وبرز الاستهلال الانجليزى ـ الفرنسى بايفاد « باخرة التجربة » نيابة عن هيئة المنتفعين ولكن المستر دالاس ، أفلح فى احباطه منذ البداية • وفى الثالث والعشرين من سبتمبر ـ وكانت الرسالة الوزارية البريطانية قد سلمت الى العقيد هنريكس ـ طلب ايدن ومولية أخيرا عقد جلسة لمجلس الامن • وأصدر بن جوريون فى اليوم نفسه أى فى الثالث والعشرين من سبتمبر بيانه الهام الذى قال فيه ان اسرائيل وجدت أخيرا « حليفا » صادقا واحدا ، ولم يقل انها وجدت حليفين •

ويروى العقيد هنريكس انه عندما سلم الرسالة الى بن جوريون ، اكتفى بمجرد بسمة لاحت على شفتيه • وبان على وجهه تعبير من يود أن يقول « ••• لقد سمعنا مثل هذه الوعود كثيرا من قبل » • ويتفق هذا القول مع كل ما كنا نعرفه من قبل عن بن جوريون • فالمعروف انه والصهيونيين عموما ، لا يصدقون الا ما يقدم اليهم من وعود واضحة محددة عن المساعدة الخارجية ، ولما كانت بريطانيا قد وقفت مواقف متعارضة من سياستهم فى فلسطين حتى عام ١٩٤٩ (١) ، فانهم لم يكونوا

---

(١) لا ادرى كيف يسمح المؤلف لنفسه ، وهو الحصيف في معالجة الاتجاهات السياسية أن يقول ان بريطانيا وقفت مواقف متعارضة من سياسات الصهيونية ، الا اذا كان يقصد الدفاع عنها متذرعا بما ذكره هو من ان بريطانيا تقصد اخفاء اى اتجاه منها تشتم منه رائحة الميل الى اسرائيل حرصا على مصالحها الكثيرة في الوطن العربى ، وحفاظا على أصدقائها من حكام العرب الذين ينفذون سياستها من أن «يحرقوا» ـ وكأنهم لم يحرقوا ـ أمام الشعب العربى ، فالقول بأن سياسات بريطانيا وقفت موقف التعارض مع اسرائيل في اى وقت من الاوقات مغالطة واضحة ، تخفى اتجاها جديدا يصح أن نسميه اتجاه « الاستعمارية الجديدة » التى تحاول اقامة علاقاتها مع العرب على اسس جديدة من التقرب والاعتراف بالخطأ احيانا . فبريطانيا ، ممثلة للاستعمار =

ميالين مطلقا الى تصديق هذه الوعود • لكن بن جوريون كان واثقا من موقف فرنسا ومطمئنا اليه • وكان لايزال على موقفه المطمئن هذا فى الثالث والعشرين من سبتمبر بالرغم من أن الحقيقة الواقعة وهى أن الخطط الفرنسية بدت وكأنها قد تحطمت على صخرة الامم المتحدة ومناقشاتها الطويلة ، أو انحرفت عن طريقها على الاقل • ومانستنتجه من هذا الوضع وهو ليس مجرد استنتاج ، ان بن جوريون كان واثقا فى الثالث والعشرين من سبتمبر من أن فرنسا لاتنوى أن تسمح للامم المتحدة ، بالهائها أو صرفها عن أهدافها مدة طويلة •

ولكن ما موقف بريطانيا ؟ هل أصبحت الآراء التى تحملها مجموعة من وزراء حكومة جلالتها قرارا رسميا اتخذته الحكومة للتواطؤ مع اسرائيل ؟ كان السير انطونى ايدن قد تحول فى شهر سبتمبر الى أشد أنصار اسرائيل تشيعا لها • وكان هذا الموقف تحولا أساسيا عما كان يعتبر سياسة بريطانية تقليدية مشايعة للعرب • وقد أدت الى هذا التحول عوامل عدة ، أولها كراهية ايدن المتسلطة عليه لعبد الناصر مما أدى بحكم الطبيعة الى الاهتمام بجميع خصومه ، وحالته العقلية العامة وتأثره بالنفوذ الفرنسى ، وقد طبع هذا الشعور من الميل لاسرائيل حتى بعد ثلاثة أعوام جميع ما كتبه فى مذكراته عن دورها فى أزمة السويس ، مستخدما ماهو مختزن لديه من الدعايات الاسرائيلية فى دعم حججه ، حتى فى أدق التفاصيل • وسبق لى أن دونت ، أن تأثره بهذه الاحاسيس الاسرائيلية قد حمله على تعديل ما سجله عن حياته الدبلوماسية بالنسبة الى موقفه بين مصر واسرائيل ، بحيث لا يجد القارىء فى مذكراته أى تلميح عن المحاولة التى بذلها فى نوفمبر عام ١٩٥٥ عن طريق عبد الناصر ، والتى تلقى عليها صدمة من بن جوريون بالنسبة الى اقتراحه السلمى الذى ضمنه خطابه فى جيلدهول •

لكن انحرافه الشديد نحو اسرائيل ، لم يقع الا فى شهر سبتمبر • وهنا نتساءل ، ومتى ازداد هذا الانحراف شدة وخطا خطوة جديدة؟ وطار

= هى التى أقامت اسرائيل فى قلب الوطن العربى لتكون حاجزا بشريا غريبا فى قلب هذا الوطن يجزئه وينفذ أهدافه ومآربه • فهى التى أعطت الصهيونية وعد بلفور ، وهى التى عملت بسياساتها طيلة عهد الانتداب على تهيئة السبل لقيام الدولة اليهودية ، وهى التى أحالت القضية عام ١٩٤٧ الى الامم المتحدة ، وعملت «سرا» على انجاح التقسيم ، كما مكنت المشروع من التنفيذ عن طريق ايحائها لعملائها من حكام العرب بالعمل على تحقيقه.
(المعرب)

ايدن ولويد فى السادس والعشرين من سبتمبر الى باريس حيث قضيا يومين فى مناقشات حارة مع موليه وبونيه • وفى وسع المرء أن يستخلص اشارة صغيرة عن الاتجاه العام فى هذه المناقشات • فلقد اعترف ايدن نفسه فى مذكراته ، انه اتفق مع الفرنسيين فى المناقشة التى دارت للوصول الى قرار تقديم القضية الىمجلس الامن ، أن «يمهدا الطريق لاجراء عملية اختبارية » بالنسبة الىتحريم القناة على البواخر الاسرائيلية• وهكذا نجد ايدن بين السادس والعشرين من سبتمبر والعاشر من أكتوبر قد وافق على اقحام اسرائيل فى الجوانب السياسية والقانونية لأزمة السويس ، مما يعتبر انعكاسا كاملا لسياسته التى كانت قائمة فى شهر أغسطس ومع ذلك فان هذه النتائج التىتوصلت اليها ، لاتؤيد ـبعدـ القول بوجود تواطؤ محدود فى الخطط الحربية مع اسرائيل ، وان أوضحت اعترافات ايدن وجود مقدمات له • وقبل أن نتوغل فى الحديث عن أحداث الاسبوعين المحمومين الاخيرين من الازمة ، وما يحملانهما من أدلة كثيرة ، أرى ان أتساءل ، عما اذا كان هناك من أمور أخرى تستدعى الملاحظة والتسجيل أيضا ؟ •

الخطط الانجليزية ـ العراقية :

لعل من أكثر المظاهر بعثا للحيرة والدهشة فى هذه المرحلة من الازمة، انالتوتر العربى ـ الاسرائيلى• كان أقوى علىالحدود الاردنية ـ الاسرائيلية ، منه على أية حدود أخرى ، ومنها طبعا حدود مصر • وقد بلغت حوادث هذه الحدود فى أشهر أغسطس وسبتمبر ومطلع اكتوبر ، ذروة التوتر مما أدى الىانتشار الاشاعاتالصحفية عنتوقع حربقريبة على حدود اسرائيل الشرقية • وشنت القوات الاسرائيلية عدة هجمات ثأرية ضخمة على الحدود الاردنية أسفرت عن قتل ثمانية وأربعين أردنيا واصابة ثلاثة وعشرين بجراح ، والحاق الدمار بقرية قلقيلية العربية فى العاشر من اكتوبر • ترى لماذا وقع هذا التطور ؟

من المعترف به الآن ، وحتى فى الروايات المتشيعة لاسرائيل ، ان هذه الحركات لم تكن الا مجرد ستار للتضليل ، وخداع يقصد منه خلق الانطباع فى الشرق الاوسط وفى الغرب أيضا ، بأن هدف الهجوم الاسرائيلى اذا كان لابد من وقوعه ، سيكون الاردن • وكان فى الهدف الاسرائيلى بعض التعقيد ولكنه كان منسجما كل الانسجام مع التخطيط العسكرى الاسرائيلى العام الذى لا يتجاهل أبدا النواحى السياسية والنفسية • فعلى أثر ما أبدته بريطانيا وفرنسا من استعراض للعضلات

في أواخر يونيو من استدعاء جنود الاحتياط وتجميع السفن الحربية وما شابهها من اجراءات ، سحب عبد الناصر نصف القوات التى يحتفظ بها عادة كحامية فى سيناء الى الغرب من القناة • وهكذا ظل فى شرقى القناة ، ثلاثون ألف جندى بدلا من العدد المألوف وهو ستون الفا ، فقد سحبت فرقتان كاملتان ولواء واحد مدرع من سيناء للدفاع عن مصر نفسها وعن منطقة القناة ضد أى هجوم قد يقوم به الانجليز والفرنسيون • وهكذا كان هدف اسرائيل الابقاء على الوضع على هذا النحو ، عن طريق تضليل مصر، بتركيز اهتمام العالم على الحدود الاردنية •

وأتاح الخوف من هذه الحرب الرئيســـية ، ويا للغرابة ، لايدن ونورى السعيد فرصا اضافية لتحقيق خططهما لاستيلاء العراق على الاردن• ولم تكن الانتخابات الاردنية قد جرت بعد • ولم يكن الملك حسين مطمئنا كل الاطمئنان الى ما يتمتع به الرئيس عبد الناصر من شعبية ضخمة فى مملكته • وخشى الضباط القوميون فى الجيش العربى الاردنى أن يؤدى انشغال عبد الناصر بالتهديد الانجليزى ــ الفرنسى ، الى عدم تقديمه عونا كافيا الى الاردن ضد الغزو الاسرائيلى ان وقع • وهكذا بذل نورى السعيد وايدن طيلة شهر سبتمبر ومطلع اكتوبر جهودا ضخمة عن طريق السفير البريطانى فى عمان ، وبعض المستشارين لاقناع الملك حسين وحكومته بقبول مجىء قوة عراقية كبيرة الى الاردن • وكان مثل هذا الطلب معقولا ومنطقيا بالنسبة الى الخطر الظاهر من ناحية اسرائيل على الاردن • أما الهدف الحقيقى فهو ضمان مجىء قوات عراقية الى الاردن ، والحيلولة دون تحول الانتخابات التى ستجرى فى الثانى والعشرين من أكتوبر باتجـــاه مصر وسورية ، وللتأكد من ضم الاردن للعراق بسرعة عند وقوع الغزو الانجليزى ــ الفرنسى لمصر • ولكن ثبت فى السادس من أكتوبر ان الامل فى التأثير على الانتخابات الاردنية كان خائبا • فلقد تشكك قادة الاردن الوطنيون فى الغاية من مجىء القوات العراقية ، ورفضوا مجىء أية قوات عراقية لا تكون تحت القيادة الاردنية مبـــاشرة • مما أدى الى توقف المحادثات • ولم تدخل القوات العراقية الى الاردن الا فى الثانى من نوفمبر، وكان نورى السعيد قد أدرك فى غضون ذلك أن الخطة كلها قد تحطمت على صخرة ما أثير من ضجة شديدة عن موضـــــوع التواطؤ بين الدول الثلاث •

فكيف يمكن لهذه القصة أن تدخل فى نطاق ما نقوم به من تحقيق عن تفكير بريطانيا الرسمى فى موضوع اسرائيل ؟ لقد سبق لنا أن لاحظنا

في فصل سابق أن وزير الخارجية الامريكية اتهم ايدن بعد انتهاء الحرب الثـلاثية اتهاما مباشرا بالتواطؤ فى وضع المخططات الحربية التى انطوت على سيطرة العراق على الاردن ليعقبه تقسيم البلاد بين العراق واسرائيل، ولا ريب فى أن هذا الاتهـــام كان خطيرا لصـــدوره عن شخصية أمريكية مسئولة ، لا سيما وانه لم يكن يفتقر الى الاسس أو القواعد • وكان من الممكن مقارنتها بالتهمة التى سبق للقاهرة أن وجهتها فى وقت مبكر أى فى يناير عام ١٩٥٦ ، وكان لهـذه التهمة مغزاها على أســاس اعتبارين • وأول هذين الاعتبارين أننا نعرف من مصادر لا عد لها ولا حصر ، بينها ما كتبه مؤرخ حياة نورى السعيد من أن رئيس الوزارة العراقية كان يرى أن تسوية مشكلة فلسطين أمر جد ضرورى ، اذا أريد الحيلولة دون قيـــام شخص آخر كعبد الناصر فى المستقبل • أما الاعتبار الثانى فهو اننا نعرف ان بن جوريون وزملاءه كانوا يشـــتهون جزءا من الاردن على الاقل وهو الضفة الغربية الممتدة الى نهر الاردن ، لان هذه الضفة كانت جزءا من أرض فلسطين ، ولأن بقاءها فى يد العرب يؤلف خطرا سوقيا (استراتيجيا) يهدد بقطع اسرائيل الساحلية الى شطرين(١) •

وفى وسعنا أخيرا أن نذكر ما تضمنته رسالة العقيد هنريكس التى حملها فى أواســـط سبتمبر الى بن جوريون من أحد أعضاء « الوزارة البريطانية » • فهذه الرسالة تحذر الاسرائيليين من مهـــاجمة الاردن ، وتعرب عن ترحيبها بمهاجمة مصر كبديل عن الاردن ، وتعد بأن تعمل بريطانيا فيما بعد على مساعدة اسرائيل فى الوصول الى أحسن تسوية صلح ممكنة • ولا ريب فى أن بن جوريون يرى ان التسوية المثلى يجب أن تتضمن تسليم الضفة الغربية من مملكة الاردن الى اسرائيل ، وهو أمر تعرفه لندن تمام المعرفة •

ونصل الآن الى لغز القصة كلها فى أواسط شهر اكتوبر •

السادس عشر من اكتوبر ١٩٥٦ :

طار سلوين لويد صباح السادس عشر من اكتوبر عائدا الى لندن بعد انتهاء اجتماعات الامم المتحدة التى أصيبت بالتوقف والتأزم • وكان

---

(١) راجع كتاب حكومة اسرائيل السنوى لعام ١٩٥٢ اذ يقول في صفحته الثالثة عشرة : لقد تمكنا من بعث دولتنا في الضفة الغربية من البلاد .. في اسرائيل » وكان الصهيونيون يواصلون المطالبة بالهجرة الى شرقى الاردن منذ عام ١٩٢١ •
(المؤلف)

هناك اجتماع لمجلس الوزراء البريطاني بحضور رئيس هيئة أركان حرب الامبراطورية • واعلن ايدن بعد ظهر ذلك اليوم انه قرر ان يطير فورا الى باريس • وكان التفسير الرسمي لهذه الزيارة التي قدم موعدها فجأة بعد أن كان من المقـرر وقوعهـا في الثامن عشر من أكتوبر أن ايدن أراد أن يعود في الوقت نفسه ليقوم بافتتاح « معرض للسيارات » •

وهبط ايدن وسلوين لويد مطار باريس مع الغسق ، وسرعان ما عقدا في غرفة مغلقة مع موليه وبينو ، اجتمـاعا سريا دام أربع ساعات لم يشهده أحد سوى الرجال الاربعة من المستشـارين أو التراجمة ، وعندما كان الوزيران البريطانيان يهبطان أرض المطار كان بينو يعلن في مجلس النواب الفرنسي قائلا : « لدينا أوراق رابحة مهمة ما زلنا نحتفظ بها في أكمامنا » • ترى ما هذه الاوراق الرابحة ؟ وما الذي بحثه الوزراء الاربعة طيلة تلك الساعات في هذه الجلسة التي أحيطت بكل هذه الظروف من السرية والتكتم ؟ وما الذي حدث بعد السادس عشر من اكتوبر ؟

لنبدأ أولا بما رواه ايدن في مذكراته • انه يقول أولا : « وبعد نحو من ساعة أو ما يزيد بقليل ••• أوقفنا اجتماعنا لننتقل الى غرفة أخرى كان فيها مستشارونا في الانتظار » • ولسبب أو لآخر ما زلنا نجهله ، لم يرغب ايدن في تذكير قرائه بالحقيقة التي لا يتطرق اليهـا الشك ، والتي اعترف بها حتى أكثر المدافعين عنه حماسة وهي أنه ظل مع رفاقه الثلاثة الآخرين وحدهم ، لايعاونهم موظفون أو مستشارون • فقد تناولوا العشاء وحدهم ، وتحدث بعضهم الى بعض دون أن يحضر أحد حديثهم(١) ولكن ترى ما الذي يقوله ايدن عن هذه المحادثات ؟ انه يقول ، انه ظهرت أخيرا وبعد عشرة أسابيع تلميحات عن وجود اقتراحات مصرية • ثم يروى بعد ذلك انه اتفق مع الفرنسيين على دراسة هذه الاقتراحات وبحثهـا • وراحوا بعد ذلك يبحثون في الاحتمالات الخطرة في الشرق الاوسط ، ولا سيما بالنسبة الى ما يحتمل أن تقوم به اسرائيل التي تشعر بالقلق والتي تتعرض للاستفزاز من هجوم على الأردن أو مصر • ونصل بعد ذلك الى فقرات أخرى من حديث ايدن من النوع الذي عودنا أن نجده محملا بالمعاني المختلفة اذ يقول :

« واذا لم يكن هناك من مندوحة من الهجوم ، فمن الافضل من وجهة نظرنا أن يكون على مصر • وعدنا ننظر الى الوضع من زاوية أخرى • فاذا

---

(١) جون كونيل ـ البلاد الكثيرة الاهمية ـ كاسل ١٩٥٧ •

ما وقع الهجوم على مصر ، فهناك أيضا مخاوف تعرض سلامة قناة السويس للخطر ، وقد درسنا جميع هذه القضايا من نواحيها السياسية والعسكرية ، وكان علينا ، أن نبحث فى حذر مشترك الاجراءات التى يجب أن نقوم بها ...

« وكنا فى الاشهر الاخيرة نضاعف استعداداتنا العسكرية لمقابلة أى اجراء من جانب عبد الناصر ضد بواخرنا أو رعايانا . أما الآن فقد بدأت سياسات عبد الناصر تتجه الى استفزاز اسرائيل بشكل لايمكن تحمله ، وأصبح يتحتم علينا أن نستعد لهذا الطارىء أيضا » .

حقا أنها لفقرة غير عادية ، فى كل حساب . وفى استطاعتنا أن نلحظ على التو مابينها وبين رسالة العقيد هنريكس فى منتصف سبتمبر الماضى من تشابه فى اقتراح الهجوم على مصر .. فمثل هذا الهجوم كما تقول الرسالة « مناسب لجميع من يعنيهم الامر » كما أنها « افضل من وجهة نظرنا » كما يقول ايدن بالنسبة الى أحداث السادس عشر من أكتوبر ولكن فى وسعنا أن نترك هذه النقطة عند هذا الحد ، وأن نمضى قدما فى عرضنا . فلقد كتب ايدن يقول انه مضى مع لويد عائدين الى الوطن ونقلا الى مجلس الوزراء فى الثامن عشر من أكتوبر رأيهما فى أن الخطر آخذ فى الازدياد بأن اسرائيل قد تقوم بعمل عسكرى نتيجة استفزاز مصر » ثم قال :

« وكان الوضع خطيرا ، ولكن حكومة جلالتها قررت فى هذه المرحلة انتظار الاقتراحات التى قيل ان فى وسعها انتظار صدورها عن مصر».

وتشير هذه العبارة التى تتميز بما فيها من مجافاة كاملة للمنطق الى محاولة ضخمة من محاولات التزويق البيانى . ويقول ايدن ان « الاقتراحات » التى وافق مجلس الوزراء على انتظارها فى الثامن عشر من أكتوبر كانت تتعلق بقضية القناة . فاذا كان ايدن يطلب منا أن نصدق بأن خطر الحرب العربية ــ الاسرائيلية أمر مختلف كل الاختلاف عن قضية قناة السويس ، فلماذا تقرر حكومته «ترقب» الاقتراحات المتعلقة بالقناة قبل أن تفعل شيئا فى موضوع الحرب التى يعترف بخطورتها ؟ سنرى عما قريب أن فترة الترقب هذه اتخذت فى الحقيقة صورة تميزت بالنشاط غير العادى .

وفى كتابه أيضا قطاع قصير فصله عن غيره تتحدد فيه أفكاره تمام التحديد . ولانرى فى هذا القطاع الا بضع عبارات قد لاتقتضى أن تعنى

شيئا بحكم الضرورة ، ولكنها قد تكون أشبه « بالبذور » الكامنة تحت القشرة الخارجية ، عاجزة عن النشاط ، ولكنهـا لن تلبث أن تنطلق ، لتخرج الثمار الى الناس . اذا قدر لاى كاتب مذكرات فى المستقبل ، سواء أكان بريطانيا أم فرنسيا أم اسرائيليـا أن يقـول كل مالديه .. اسمعوا ايدن يقول :

« وقد خبرت عددا كبيرا من هذه الاوضاع المماثلة من قبـل .. تتردى باستمرار ، ولكننى لم أجد فيها عنصرا جديدا أستطيع أن أتمسك به وأن استخدمه ، ولم يكن هناك من هو على استعداد لادخال مثل هـذا العنصر ... »

ولكن ما هو هذا العنصر الجديد الذى كان ايدن ينتظر أن يمسكه وأن يستخدمه ، وأن يجد من يدخله ؟ . وماذا يريد السير أنطونى أن يقول ؟ لكى نفهم ذلك علينا أن نضع نصب أعيننا أنه أورد هـذه الفقرة بعد أن أكد أنه هو وزملاءه الفرنسيين كانوا قد «درسوا دراسة فاحصة مشتركة» ، أى اجراء يمكن لهم أن يتخذوه تجاه هذه «المخاوف الجديدة» «كضمان سلامة القناة مثلا» فى أية حرب مصرية ـ اسرائيلية . وهاهو ذا يتحدث الآن عن ادخال عنصر جديد . وهو لايحاول المزيد من ايضاح مايعنيه سواء فى هذه الفقرة ، أو فى أية فقرة أخرى تنطوى على معـان ضمنية أخرى ، ان المفهوم الذى يمـكن استنتاجه يظل قائما « يثز أزيزا مدويا » أمام الاجيال القادمة لتصل الى حقيقته .

ونصل الآن الى الخامس والعشرين من أكتوبر . ويقول ايدن أنه تلقى تقريرا فى ذلك اليوم يفيد ان اسرائيل توشك على اعلان التعبئـة العامة ... ثم يمضى فيقول :

« وكان الوزراء قد درسوا فى اجتماعات عدة سابقة الطرق التى قد يتطور اليها الوضع . وتم تبادل الرأى بصددها مع الفرنسيين . ودرست الوزارة فى الخامس والعشرين من أكتوبر ، بصورة محددة ، احتمال قيام صراع بين مصر واسرائيل ، وقررت من حيث المبدأ مايجب عليها أن تفعله فى حالة وقوع هذا الصراع . وقررت الوزارة أن تقوم الحكومتان الفرنسية والبريطانية فورا بدعوة الفريقين الى وقف الاعمال العدوانية، وأن يسحبا قواتهما ، الى مسافة معينة من ضفتى قنـاة السـويس فى فترة معينة ، فاذا رفض الفريقان الانصياع الى طلبنا فى الفترة المحددة ، تحتم على القوات البريطانية والفرنسية أن تتدخل ، للفصل بين المتحاربين ولضمان حرية المرور فى القناة » .

لاريب فى أن هذا القول يعتبر من أخطر البيانات التى أذيعت عن حرب سيناء والسويس . ويدعونا الواجب الى تحليله بمنتهى الدقة . ولكن أرى أن نكتفى عند هذه المرحلة ، بتسجيل الجانب الذى أعتبره أكثر جوانب هذا القول أهمية وخطورة . فلقد زعم ايدن وزملاؤه طيلة عام ١٩٥٦ ان الانذار الذى أصدروه بالاشتراك مع الفرنسيين فى الثلاثين من أكتوبر ، والذى يأمر بوقف اطلاق النار وانسحاب المصريين والاسرائيليين من منطقة القناة قد وضع فى ذلك اليوم أى الثلاثين من أكتوبر ليس الا ، كاجراء وقائى طارىء أملته المفاجأة التى وقعت اثر الهجوم الاسرائيلى . وهانحن أولاء نرى ايدن يؤكد فى عام ١٩٦٠ أن هذا الانذار قد قرر قبل خمسة أيام من صدوره وقبل أربعة أيام من بدء الهجوم الاسرائيلى .

فترة «الترقب» بين ١٦ و ٢٩ أكتوبر :

ولنعد الآن قليلا الى الوراء ، لنجمع كل مانعرفه عن حقيقة ماوقع فى السادس عشر من اكتوبر ، ابان تلك المحادثات المتناهية فى سريتها فى باريس بين ايدن ولويد من ناحية وموليه وبونيه من الناحية الاخرى . وعما حدث فعلا قبيل ذلك التاريخ . علينا أن ندخل هنا فى صورتنا الصحفيين الفرنسيين ، الاخوين برومبرجر ، اللذين لانشك مطلقا فى أنهما كانا موضع الثقة ، عند اعداد كتابهما ، من أعلى الفرنسيين مكانة وشأنا ، وان كانا ولاريب أيضا قد أفهما من جانب الحكومة الفرنسية أو من جانب الجيش ، والفرق قائم بينهما ، ماتود فرنسا من العالم أن يصدقه . يقول الفرنسيان ان الجنرال الفرنسى شارل وصل الى لندن فى الخامس عشر من أكتوبر ، وراح يبلغ السير انطونى ايدن فى مقره فى داونج ستريت رقم ١٠ أن الاسرائيليين على وشك الشروع فى الهجوم على سيناء للوصول الى القناة » ويضيف الصحفيان أن ايدن رد عليه قائلا : «حقا انها فكرة طيبة» ، ولكنه أصر على الا يظهر التدخل الانجليزى ـ الفرنسى فيما بعد ، بريطانيا بمظهر الحليف لاسرائيل . ويعود الاخوان برومبرجر ، فيؤكدان أنه تم فى الجلسة السرية التى عقدت فى باريس فى اليوم التالى أى فى السادس عشر من أكتوبر خلف الابواب الموصدة تنسيق الخطط الانجليزية ـ الفرنسية مع الهجوم الاسرائيلى (١) .

---

(١) كتاب الاخوين برومبرجر ـ أسرار السويس .

ترى هل هناك مصادر اخرى تؤكد صحة هذه الرواية عن قيام فرنسا بنقل ماأعتزم الاسرائيليون القيام به الى ايدن : أجل هناك مصادر اخرى تؤكد صحتها ، وان اختلفت فى بعض تفاصيلها الثانوية عنها . فهناك أولا الزيارة التى قام بها المسيو البير جازييه الى لندن فى ذلك الوقت . ذكرت منظمة باريسية معروفة عادة بواسع اطلاعها أن المذكور نقل الى ايدن ، تنفيذا لتعليمات رئيس مجلس الدولة الفرنسى ، تفاصيل الضمانة الرسمية التى قدمتها فرنسا الى اسرائيل (١) • ونشرت عدة صحف غربية المعلومات التى تلقتها من مراسليها ، بناء على ما وجهته هى اليهم من تعليمات لتحرى كافة التفاصيل الممكنة عن حرب السويس والتى تتفق فى معناها تقريبا مع القصة التى رواها الاخوان برومبرجر عن اجتماع السادس عشر من أكتوبر (٢) •

لكن ما وقع فعلا بعد السادس عشر من أكتوبر ، هو الذى يفضح مافى قول ايدن من « انتظار الاقتراحات المصرية » من اكاذيب . فقد اتخذت منذ السابع عشر من أكتوبر الخطوات التالية ، دون أن ترافقها اية ضجة ..

١ ــ تم حشد القوات الفرنسية فى منطقة مرسيليا ــ طولون ومعها عربات كانت أساليب التعمية التى طبقت عليها من النوع الذى يستخدم عادة فى الصحراء ، وقد أفهم رجالها بأنهم ليسوا متوجهين الى الجزائر • ووزعت أوراق نقدية تحمل عبارة « احتلال مصر » على ضباط الرواتب .

٢ ــ خرجت ناقلات الجنود الفرنسية فى التاسع عشر من أكتوبر الى عرض البحر ، تحت ستار القيام بمناورات بحرية بسيطة •

٣ ــ طارت قاذفات قنابل السلاح الجوى الملكى البريطانى النفاثة فى السابع عشر من اكتوبر الى مالطة .

٤ ــ تلقت سفن الأسطول الملكى البريطانى فى السابع عشر من أكتوبر ، وهى فى طريقها من موانىء الشرق الاوسط ، أوامر بالعودة فورا الى المنطقة لتكون قريبة من مدخلى قناة السويس ومشارف مصر

---

(١) مركز استعلامات الشرق الاوسط الفرنسي ــ باريس نشرة ١٩٥٦ ــ ١٩٥٧ •

(٢) من هذه الصحف الواشنطن بوست والنيويورك تايمز والهيرالد تريبيون والاوبزرفر •

ولعل أبرز مثل عليها المدرعة البريطانية « نيوكاسل » وكانت تمخر عباب المحيط الهندى ، متجهة الى استراليا ، لحراسة الدوق أدنبره فى طريق العودة .

٥ ــ توقف توزيع نشرات الوثائق الرسمية المصنفة على كبار الموظفين البريطانيين كالعادة ، وشطبت أسماؤهم من قوائم التوزيع حرصا على مافيها من أسرار .

٦ ــ منح أحد كبار خبراء وزارة الخارجية البريطانية فى شئون الشرق الاوسط أجازة لم يكن يتوقعها ، كما منح عدد من كبار الموظفين اجازات مماثلة .

٧ ــ استقالة السير وولتر مونكتون وزير الدفاع البريطانى فى الثامن عشر من أكتوبر لأسباب وصفها ايدن بأنها صحية ، وان كان المعروف أن الاستقالة نجمت عن معارضة الوزير لسياسات ايدن فى موضوع السويس . ولم يدخله المستر ماكميلان فيما بعد فى أول وزارة ألفها ، كما لم يعهد اليه بأى منصب غير مغمور .

٨ ــ قدمت اسرائيل فى السابع عشر من اكتوبر بهدوء تحفظاتها الى محكمة العدل الدولية فى موضوع صلاحيتها واختصاصاتها .

٩ ــ استدعت اسرائيل سفراءها فى المراكز المهمة كموسكو وباريس ولندن وواشنطن فطاروا اليها فورا .

١٠ ــ بدأ شحن أضخم معدات رفع الانقاض اعتبارا من السابع عشر من اكتوبر الى جزيرة قبرص . ووصلت سفينة الجر المشهورة «ترمويل» الى ميناء فاماجوستا فى قبرص فى التاسع والعشرين من أكتوبر وهى تجر رافعة عائمة ضخمة .

١١ ــ وجد الدبلوماسيون الأمريكيون أنفسهم اعتبارا من السابع عشر من أكتوبر فى عزلة تامة عن اتصالاتهم الرسمية مع الموظفين الرسميين البريطانيين والفرنسيين والاسرائيليين فى لندن وباريس وتل أبيب .

١٢ ــ وصل العميد بيرنارد فيرجوسن فى الثامن والعشرين من اكتوبر الى قبرص حيث ظل مقيما . وقد أعلن فى الواحد والثلاثين من أكتوبر أنه يتولى ادارة حرب الحلفاء النفسية والدعائية ضد مصر .

ومن العبث ان نضيع وقتا أطول ، فى النقاش ، لنصل الى النتيجة الواضحة وضوح الشمس ، وهى انه تم الاتفاق فى باريس فى السادس

عشرة من أكتوبر أى قبل تسعة أيام من شروع اسرائيل فى التعبئة العامة لقواتها ، على المضى فى استخدام القوة . ونحن نعرف الآن ان ايزنهاور بعث فى ذلك اليوم برسالة الى ايدن (١) ، ولابد أن تكون هذه الرسالة اذا أخذنا بعين الاعتبار السرعة فى نقل الاتصالات البرقية فى أيام الازمات قد وصلت الى ايدن ابان الجلسة التى عقدها مجلس الوزراء فى ذلك اليوم او فى اثناء الاجتماع الذى عقده فى باريس مع موليه والذى انتهى فى الساعة الواحدة والنصف صباحا ولقد كان راى ايدن فى الطريقة التى سيتبعها ايزنهاور فى السماح له بتنفيذ مخططه فى قضية السويس من غوامض أزمة السويس . ولكن المعلومات المتوالية تشير الى أن هذه الرسالة التى بعث بها أيزنهاور انطوت على الوعد القاطع لايدن بتسوية قضية السويس وان كان الرئيس الامريكى قد أكد فيها ،كما قيل ، بأن يديه ستظلان مغلولتين حتى تنتهى الانتخابات الأمريكية فى السادس من نوفمبر . وقد تواءمت هذه الأنباء عن انشغال أمريكا مع المخطط الانجليزى ـ الفرنسى ، ولكن الرسالة طلبت ولاريب من بريطانيا المزيد من الحرص ولاسيما فى الاسبوعين الاولين من الفترة الواقعة بين السادس عشر من أكتوبر والسادس من نوفمبر . واتضح أن أى عمل قد يثير فزع أيزنهاور وغضبه يجب الا يتخذ الا فى أقصر مدة قبل السادس من نوفمبر . فكل يوم قبل هذا التاريخ يزيد من خطورة تمكين أيزنهاور وحزبه من اتخاذ اجراء مضاد ، ووضع تفسير له للمقترعين الأمريكيين والشروع فى العمل فورا ، وعلى هذا الأساس قرر الوزراء البريطانيون والفرنسيون فى اجتماعهم فى باريس فى السادس عشر من اكتوبر قطع جميع الاتصالات العادية مع الموظفين الامريكان كما دونا سابقا مخافة تسرب الأنباء المتعلقة بمخططهم الى أيزنهاور .

ولكن الأحداث أثبتت فيما بعد ، ان ايدن وموليه اتاحا لأيزنهاور اسبوعا كاملا قبل يوم الانتخاب . ونتساءل هنا ، لماذا وقع هذا ؟ علينا لكى نرد على هذا السؤال ، أن نفحص أولا طبيعة العملية الانجليزية ـ الفرنسية . لقدتضمنت فى سياقهاالزمنى ثلاث مراحل . ويزعم الاخوان برومبرجر بشىء من الامتعاض ، يتفق مع الصورة التى رسمناها من أن فرنسا كانت تود أن تتخطى كل عقبة تقف فى طريقها ، ان هذا السياق

(١) هناك مصادر عدة لهذه الرواية . وقد حصل راندولف تشرشل أيضا على هذه المعلومات التى اوردها فى كتابه « ظهور وسقوط السير انطونى ايدن » من تعريب المعرب أيضا .

الزمنى المنطوى على التوانى كان باصرار من ايدن . وتلخص المراحل الثلاث بوجوب تقديم انذار من نوع ما أولا ، ثم بالشروع فى حرب نفسية عن طريق الاذاعات العربية والقاء المنشورات العربية على مصر معاختيار الأماكن التى تقذف بالقنابل مع الحرص على عدم الحاق خسائر ضخمة بالأرواح ثانيا ثم الغزو ثالثا . وكان القصد من مرحلة الانذار الأولى ، شرح العدوان للعالم والقاء اللائمة على عبد الناصر . أما القصد من المرحلة الثانية فالتحريض على ثورة شعبية فى مصر ضد عبد الناصر ، فى حين استهدفت المرحلة الثالثة احتلال قناة السويس والزحف منها على القاهرة اذا تطلب الأمر هذا الزحف . وتقرر أن تتولى محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية الموجودة فى قبرص تحت اشراف العميد فيرجوسن توجيه الحملة الدعائية وتحريض المصريين على الثورة وهذا ماعملته المحطة فعلا . أما المنشورات فقد تقرر أن تتضمن تحريض المصريين على الثورة ضد عبد الناصر ، وترديد ماتبثه اذاعة الشرق الأدنى الى المصريين قائلة : « لقد رأيتم كيف أثار عليكم عبد الناصر هجوم اسرائيل ، وهاأنتم أولاء ترون كيف نستطيع قصف مطاراتكم بمنتهى الدقة ، ومالم يذهب عبد الناصر ، فسنلقى قنابلنا عليكم ونقتلكم » .

وفى وسعنا الافتراض على أساس هذا السياق الزمنى للمراحل الثلاث ، أن توقيت الانذار وعمليات الارهاب الدعائية والجوية ، قصد منه أن يتسق مع المراحل الختامية والمحمومة لحملة الانتخابات الامريكية شعورا من بريطانيا وفرنسا بأن ايزنهاور سيكون عاجزا عن القيام بأى عمل قبل السادس من نوفمبر ، وانه لايستطيع استخدام القوات الامريكية دون تخويل من الكونجرس الذى لايمكن أن يلتئم قبل انتهاء المعركة الانتخابية . وتوقعت الدولتان من أيزنهاور الا يسرع فى أى اجراء حتى ولو كان بطيئا ، وضمن نطاق الأمم المتحدة قبل السابع من نوفمبر وفى هذه الفترة .. أى فى غضون بضعة أيام لن تتأخر عن العاشر من نوفمبر ، الذى تشير كافة الدلائل ، الى أن المخططات وضعت للشروع فيه بالعمليات البرمائية ، والنزول الى منطقة القناة ، سيكون «التدخل» الانجليزى ــ الفرنسى قد بات أمرا واقعا يواجه العالم ، ولما كان ايدن واثقا ــ وقد ثبت فيما بعد أنه كان حالما ــ من أن الشعب المصرى سيثور على عبد الناصر ، فقد كان يتوقع نشوب اضطرابات فى البلاد ، تجعل من المشكوك فيه تماما أن تقوم حكومة تتقدم بالشكوى من العدوان الى الأمم المتحدة طالبة حمايتها . وليس أدل على وجود هذا الافتراض فى

تفكير ايدن من طبيعة الحرب الدعائية التى شنها ، فمن الجنون كل الجنون أن تهدد شعبا بالقتل الجماعى ، الا اذا كنت واثقا ثقة عمياء بأن هذا الشعب سيقبل الحل البديل الذى تقدمه اليه ، وهو الثورة على حكومته . وليس ثمة من شك فى أن ايدن ومستشاريه كانوا على خطأ كامل بالنسبة الى تقديراتهم لموقف الشعب المصرى .

ولنعد الآن الى خطة الحملة على مصر . فالمفروض أن تاريخ «التدخل» قد حدد بحوالى السادس من نوفمبر ، فى حين كان يوم الثلاثين من أكتوبر وهو اليوم الحاسم فى سياق الاحداث ، بعيدا كل البعد عن موعد الانتخابات الأمريكية ، وتشير طبيعة عمليات الانزال كما وقعت أخيرا ، الى أن الخطة الأصلية قد تعرضت لبعض التعديل للاسراع فى تنفيذها ، كما أن هناك بعض الدلائل على هذا الاسراع بالفعل فلقد كان هناك نحو من أحد عشر الفا من الرعايا البريطانيين فى مصر فى أكتوبر عام ١٩٥٦ • ولم يصدر عن دار السفارة البريطانية فى القاهرة ، التى لم تكن تعرف فى الحقيقة شيئا ، أى عمل أو تلميح لتحذير هؤلاء الرعايا أو حمايتهم . وكان كل أمريكى فى الشرق الاوسط ، أمكن الاتصال به قد نصح قبل التاسع والعشرين من أكتوبر بأن يغادر المنطقة فورا . أما حكومة ايدن فلم تكن حتى الثلاثين من أكتوبر وهو اليوم الذى أصدرت فيه أكثر الانذارات التى عرفها القرن العشرين استفزازا ، لمصر ، قد اتخذت أى اجراء أو خطوة لحماية أحد عشر الفا من رعايا جلالتها يقيمون فى تلك البلاد . فهل كان هذا الموقف ناجما عن الحاجة الى التكتم والسرية ، وصادرا عن قرار اتخذ على ضوء حسابات دقيقة ، وازنت فيها حكومة ايدن بين المصير المحتمل لهؤلاء الرعايا وبين المصالح القومية العليا لبريطانيا ؟ أو أنه كان ناجما عن الافتقار الى الاستعداد ، لأن كل شىء قد اتخذ على عجل وبطريق الصدفة المباغتة ؟ أو يمكن للمرء أن يتصور أن يصدر ايدن أكثر التهديدات عنفا وانذارا بسفك الدماء الى المصريين ، دون أن يبعث حتى برسالة رمزية الى سفير جلالتها فى القاهرة ليكون على أهبة الاستعداد لحماية رعاياها فى مصر ؟ ان الحقائق تثبت أن هذا السفير السير همفرى تريفليان ، لم يعلم بصدور الانذار الا من الرئيس عبد الناصر •

مساعدة فرنسا الحربية لاسرائيل فى القتال :

فاذا كان ايدن وموليه قد وضعا كافة هذه الخطط العسكرية الانجليزية ــ الفرنسية ــ فى السادس عشر من أكتوبر كما روينا من

قبل ، فما دور اسرائيل فى هذه الخطط ؟ واذا كانت بعض نواحي الخطة قد انحرفت عما هو مرسوم لها ، فما الذى حدث وأدى الى هـــذا الانحراف ياترى ؟ وما المدى الذى كان فيـــه ايدن على علم بالخطط الاسرائيلية ؟

لعل من الاهمية بمكان بالغ ، أن السير انطونى ، لم يأت فى مذكراته على ذكر الـــكثير عن بيانه التفصيلى الذى حاول فيه أن يوضـــح الأسباب والنتائج ، والذى ألقاه فى مجلس العموم فى العشرين من ديسمبر عام ١٩٥٦ . لا ريب فى أن أى قارىء لا ينعم بذاكرة قوية ، أو لايملك مجموعة « هانســارد » التى تصدر دائمــا متضمنة ســجل ما يدور فى مجلس العموم البريطانى من مناقشات ، لايمكن أن يعرف أن ايدن قد ألقى مثل هذا البيان . ولكننى أنقل هنا ماقاله فى المجلس حرفيا بعـــد أن هب من نفســـه ليرد على المناقشات قائلا .. « أود أن أجيب عن هذه الأسئلة » .

ومضى ايدن يقول :

« أريد أن أوضح قبل كل شىء انه لم يكن هناك قرار مشترك منا ومن فرنسا قبل وقوع الأعمال العدوانية الاسرائيلية بصدد اســـتخدام حق الفيتو ، (أى فى مجلس الأمن فى الثلاثين من أكتوبر بصدد مشروع القرار الذى يدين اسرائيل) . ولم يكن هناك قرار مشترك أيضا بصدد استخدام القوة الجوية الفرنسية قبل بدء العمليات العسكرية .. ولم نكن نعرف من قبل أن اسرائيل ستهاجم مصر ، أبدا ، أبدا . ولكن كان هناك شىء آخر .. كان هناك خطر من احتمال وقوع مثل هذا الهجوم، وقد عرفنا بوجوده ، وكان لابد لنا أن نجرى بعض المباحثات والمناقشات فى هذا الصدد ، وهو ما أعتقد بصحته المطلقة ، كما أعتقد أن أى انسان آخر ، كان لابد وأن يفعل مافعلته أنا » .

وقد ظهر مافى هذا البيان الاخير الذى تلاه ايدن فى مجلس العموم من أكاذيب . قبل أن تصدر مذكراته بمدة طويلة . فلقد اعترف المستر أنطونى هيد (وزير الدفاع البريطانى) فى الخامس من ديسمبر بأن أول ماوصل الى مسامع الوزارة البريطانية من معلومات صحيحة كان عندما تلقت الوزارة نبأ التعبئة العامة الاسرائيلية فى الخامس والعشرين من أكتوبر . ولـــكننا رأينا أن ايدن فى مذكراته يؤكد ، أن توقعات مجلس العموم البريطانى فى ذلك اليوم نفسه أى فى الخامس والعشرين ـ ونود أن

تستعمل هذه العبارة المتسامحة ـ عن هجوم اسرائيلي كانت قد بلغت حدا من الضخامة بحيث بات لزاما عليه ، اى على المجلس ، أن يضع خطة مفصلة عما يجب عمله « فورا » ، كتوجيه انذار نهائي يتضمن كل التفاصيل والدقائق المتعلقة بوقف اطلاق النار والانسحاب . وكان السير انطوني من الذكاء بحيث أدرك أنه لايستطيع ايراد هذه الصورة من الرواية ، في الوقت الذي يعرض فيه ماسبق له أن قدمه من نفى قاطع في البيان الذى أفضى به الى مجلس العموم في العشرين منديسمبر مما يظهر « كذبه » على المجلس ، فآثر أن يحذف ذلك البيان كلية من مذكراته بمنتهى البساطة . ولكنه لم يكتف بحذف هذا البيان وحده ، وانما حذف من مذكراته أيضا ما هو أضخم وأكثر خطورة ، نرى لزاما علينا التحدث عنه ، برغم محاولته اخفاء ما يتعلق به من حقائق ، وهو موضوع المساعدات العسكرية الفعلية التى قدمتها فرنسا لاسرائيل فى معركة سيناء . وجدير بنا أن نلاحظ أنه فى بيانه فى مجلس العموم فى العشرين من ديسمبر ، والذى أوردناه قبل قليل ، اعترف بصراحة بوجود مثل هذه المساعدات الفعلية ، ولكنه نفى اشتراك بريطانيا من قبل فى تقريرها . ولكنه عاد فى مذكراته الضخمة ، بكل ما فيها من اسهاب وتفصيل غزيرين ، يتعمد ألا يذكر أى شيء ، أو يشير أية اشارة من أى نوع لعون فرنسا الفعلى لاسرائيل، حتى ولو ماورد عنها فى بيانه الرسمى الذى ألقاه فىالبرلمان والذى آثر أن يحذفه من مذكراته. وهنا يظهرالكثير من التناقض الغريب الذى رأينا بعضه حتى الآن ، والذى سنرى الكثير منه فى تحليلنا المقبل ، بين ماقاله ايدن فى تلك الايام ، وبين مايحاول الآن قوله أو اخفاءه فى مذكراته .

فقد حلقت فى التاسع والعشرين من أكتوبر ، وهو يوم الصفر بالنسبة للهجوم الاسرائيلي ، ستون طائرة فرنسية نفاثة يقودها طيارون فرنسيون من رجال السلاح الجوى الفرنسى من قواعدها فى ديجون وسان ديزيه فى فرنسا قاصدة اسرائيل . وقد هبطت هذه الطائرات فى قبرص لتزود بالوقود وهى فى طريقها الى هدفها . ويقول الاخوان برومبرجر ، بالرغم مما فى قولهما من غرابة تكاد تصل الى حدود الخيال ، ان السلطات العسكرية البريطانية فى قبرص ، لم تعرف شيئا عن كل هذا ، كما لم تدر حتىبوجود عدد من ضباط الاتصال الاسرائيليين فى مطار أكروتيرى القبرصى ، الذى لايبعد أكثر من بضع مئات من الياردات عن الخيمة التى اتخذتها القيادة العليا لقوات الحلفاء مقرا لها . ولكن هل يمكن تصديق هذا ؟ حقا اننا نعرف أنه كان ثمة الكثير

من الاضطراب والفوضى ، والمجادلات فى العملية الانجليزية ـ الفرنسية كلها ، كما نعرف أن قبرص كانت تعج فى التاسع والعشرين من أكتوبر بالرجال والطائرات والمعدات • ولكن بالرغم من كل ذلك يصعب علينا أن نصدق بأنه لم يلاحظ أى بريطانى فى المكان كله حتى ولاضابط مراقبة المطار أو عامل الرادار ، مجىء ستين طائرة فرنسية تهبط لتتزود بالوقود ثم تستأنف طيرانها فى اتجاه اسرائيل .

وليس ثمة ريب فى أن هذا النبأ قد نقل الى لندن ، ولكن من المحتمل الا يكون قد عرض على مسامع ايدن حتى عشية التاسع والعشرين من أكتوبر أو بعده أيضا .. اى بعد أن كانت العمليات الحربية قد بدأت فعلا . فاذا افترضنا صحة هذا الاحتمال ، فان هذاالافتراض يبرر النفى الذى تقدم به الى مجلس العموم ، وهذا شىء ممكن بالنسبة الى تلك الظروف التى كانت تسود لندن وقبرص فى ذلك الوقت . ولكن مرور الطائرات الفرنسية يثير تساؤلا آخر ، وهو لماذا قبلت اسرائيل وهى التى كانت تسعى وتحلم فى احراز نصر وحدها ، هذا العون من الطائرات من دولة كبرى ، وأن تسمح لطيارى هذه الدولة بقيادة الطائرات ، وهم فى بزاتهم العسكرية الفرنسية ، وأن يقلعوا من مطارات اسرائيلية ؟ ولقد رأينا فرنسا تبعث منذ شهور طويلة قبل التاسع والعشرين من أكتوبر ، بشحنات خاصة من الاسلحة الفرنسية الى اسرائيل لتستخدمها هذه فى حرب اسرائيلية خاصة ، وفى ظل ستار من الكتمان الشديد . فلماذا اذن يتيح بن جوريون الفرصة للعرب لكى يقولوا ان القوات الاستعمارية هى التى خاضت معركة سيناء الى جانب اسرائيل ؟

والرد على هذا السؤال معروف لدينا . ففى الساعة التى سبقت الصفر نقل قادة القوة الجوية الاسرائيلية رأيهم الى بن جوريون فى أنهم عاجزون عن تأمين الحماية الجوية فى سيناء فى الوقت نفسه الذى يؤمنون فيه الحماية لمدن اسرائيل ضد طائرات الاليوشن المصرية من قاذفات القنابل ، أو ضد أية هجمات جوية عربية أخرى • وهكذا راح بن جوريون فى الثامن والعشرين من أكتوبر يطلب من باريس الحماية الجوية عن طريق طائراتها المقاتلة (١) ، ولعل هذه الطبيعة المتأخرة لهذا العون

(١) يروى الاخوان برومبرجر، فى سلسلة المتناقضات الكثيرة والمنطوية على الاهمال، قصتين مختلفتين فى مكانين مختلفين فى كتابهما عن الطلب الذى تقدم به بن جوريون الى فرنسا . فهما يقولان مرة انهما سمعا بأن بن جوريون طار الى باريس سرا فى الثانى =

الجوى من جانب الطائرات الفرنسية المحاربة ، هى التى توضح فقط لماذا طارت هذه الطائرات الفرنسية الستون مع طياريها الفرنسيين فى أزيائهم الفرنسية . وكان الوقت أقصر من أن يسمح بمحو العلامات الفرنسية عن هذه الطائرات . فالاسراب مستعدة وعلى أهبة الطيران فى مطارات ديجون وسان ديزييه ، ولا يستغرق انتقال هذه النفاثات من فرنسا الى اسرائيل أكثر من أربع ساعات . وكان فى امكانها أن تصل الى هناك فى وقت يمكنها من أن تذهب فورا الى العمل العسكرى عندما تشن اسرائيل هجومها . ولكن لم يكن هناك وقت متوافرلحمل الطيارين الفرنسيين على تبديل بزاتهم العسكرية بالبزة الاسرائيلية ، أو حتى لاقناعهم بذلك . ولعل هذا السبب هو الذى حمل عددا كبيرا من الصحفيين الغربيين فى اسرائيل ، على معرفة هذا العون العسكرى المباشر الذى قدمته فرنسا الى اسرائيل مع مافى معرفتهم هذه ، من تعريض لنية هذه فى الاحتفاظ بمظهر الفردية فى حركتها (١) .

وكانت هناك أشكال اخرى من المعونة الفرنسية العسكرية والفعلية لاسرائيل . فلقد تولت أربعون طائرة نقل فرنسية من طراز «نورد أطلس» حمل شحنات التموين والغذاء والماء ، من مطار تيمبو فى قبرص ، الى القوات الاسرائيلية فى صحراء سيناء ، بالاضافة الى ماكانت تقذفه اليها من عتاد وسيارات جيب . وتولت السفن الحربية الفرنسية حماية الساحل الاسرائيلى . وقام الطراد الفرنسى «جورج ليجوس » بقصف المواقع المصرية عند رفح بقذائف مدافعه عندما اصطدمت القوات الاسرائيلية بمقاومة عنيفة من هذه المواقع . وقد بدأ نقل المؤن والمعدات الى القوات الاسرائيلية فور بدء الهجوم عشية التاسع والعشرين من أكتوبر . أما القصف البحرى فقد وقع فى الساعة الرابعة من صباح الاول من نوفمبر .

= والعشرين من أكتوبر ليطلب من موليه تأمين الحماية الجوية لقواته.ومن هذا يستدل أن رواية اجتماع بن جوريون بموليه كانت صحيحة ، وأن الاجتماع وقع في وقت مبكر عما عرفت فيما بعد . ولكنهما في مكان آخر من الكتاب يرويان أن الطلب قدم الى فرنسا في الثامن والعشرين من أكتوبر وهذا هو الموعد الصحيح . وقد أيده العقيد هنريكس في السبكتاتور ــ كما أيدته مصادر أخرى . (المؤلف)

(١) كان بين هؤلاء مراسلو روتر والمانشستر جارديان وبارى بريس وليموند وفرانس أوبزرفاتور والنيوزكرونيكل الذين رووا أحاديث جرت لهم مع الطيارين الفرنسيين . (المؤلف)

اسرائيل والانذار :

ومن المحتمل أن تكون الوزارة الاسرائيلية فى هذه اللحظة من الخوف الذى يسبق المعركة ، قد أملت الا تكون الحماية الجوية الفرنسية ظاهرة جدا الى الحد الذى يعرض ماتريده من « سمعة النصر المستقل » الى الخطر . وكان الاسرائيليون يأملون عن طريق النفى المتكرر لوجود عون فرنسى ، مع التأكيد المتواتر عن الانتصارات الوهمية فى سيناء ، أن ينشروا فى العالم عن طريق الدعاية الصهيونية ، الواسعة النفوذ ، رأيا يتغلب على قصة العون الفرنسى ويدفع بها الى مؤخرة الصورة ، فيحققون بذلك ما يريدونه من ارهاب العرب وتخويفهم . ولكن السؤال الذى يمثل أمامنا الآن هو : هل كان الاسرائيليون حقا يريدون أن يوجه الانذار البريطانى ـ الفرنسى المشترك بعد أقل من أربع وعشرين ساعة من هجومهم ؟ . وهل كان زعماء اسرائيل يرضون طوعا بأن يذهبوا الى المعركة ، وهم يعرفون أن الحركة الانجليزية ـ الفرنسية ستبدأ بعد تسع عشرة ساعة فقط من هجومهم ، وانهم سيحملون وصمة « مخلب الاستعمار » ، ويحرمون مما يحلمون به من نصر مستقل ؟ .

من المحتمل أن يكون الاسرائيليون قد ظلوا يعتقدون حتى الثامن والعشرين من أكتوبر أن فى وسعهم أن ينتصروا وان هذا الاعتقاد أصبح معلقا بعد هذا التاريخ على الامل فى تأمين مايحتاجون اليه من حماية جوية . فلقد كانوا يعتمدون على الظن بأن مصر لم تكن قد استكملت بعد تدريب قواتها على الاسلحة التشيكية الجديدة التى لم تكن صفقتها قد عقدت منذ عهد بعيد ، وكانوا يعرفون ماسيواجهونه من هذه الاسلحة فى سيناء ، أما الحديث عن الهجوم المصرى الضخم القريب والمزعوم ، فلم يرد ذكره الا متأخرا أى بعد التاسع والعشرين من أكتوبر .

وأرى أن المجال صالح الآن للبحث فى القصة المتأخرة عن العدوان الشامل الذى زعم الاسرائيليون أن عبد الناصر كان يعده لشنه عليهم . ان هناك حقيقة واقعة ، وهى انه لم يكن قد انقضى حتى ذلك الحين وقت طويل كاف لتدريب عدد ضخم من الجنود المصريين على الاسلحة السوفياتية الجديدة وبينها الدبابات . ويصدق هذا أيضا على الطائرات النفاثة من قاذفة ومقاتلة . ولهذا فقد كانت تلك اللحظة من أسوأ اللحظات للتفكير بأى هجوم شامل على اسرائيل ، اذ أن التدريب على الاسلحة الجديدة كان يتطلب عدة شهور أخرى . ولقد رأينا من قبل

أيضا أن التهديدات البريطانية الفرنسية منذ شهر يوليو قد أرغمت مصر على سحب نصف قواتها من سيناء الى مصر للدفاع عنها ضد الدولتين الغربيتين . وكانت مصر فى أكتوبر عام ١٩٥٦ . مشتبكة فى كفاح يائس للتغلب على مايواجهها من رأى عام عدائى فى الغرب . وكان عبد الناصر يعرف تمام المعرفة أنه لايستطيع القيام بأى عمل حربى ضد اسرائيل قبل أن تتم تسوية مشكلة السويس . ومن هذا يتبين أن القصة التى نشرتها دول العدوان الثلاثى فيما بعد من أن الصور والادلة التى عثر عليها فى سيناء قد حسرت النقاب عن وجود خطة مصرية للهجوم الذى كان مرتقبا فى كل لحظة على اسرائيل ، كانت قصة خرافية وان وجدت بعض الانتشار والكثير من الاثر . أما التهديدات العربية الصحفية والاذاعية فلم تكن بالشىء الجديد . وتظل هناك حقيقة تافهة رواها كثيرون من الاسرائيليين ، وهى أن القوات المصرية فى سيناء ، كانت فى مواقع أمامية ، وسنحلل هذه الحقيقة وأسبابها فى فصل لاحق .

وكان الاسرائيليون واثقين كل الثقة من أنهم اذا منحوا وقتا « كافيا » فسيلحقون الهزيمة بمصر وحدهم . وكان ايدن ومولية يحملان الثقة نفسها أيضا ، اذ اعترف ايدن بها فى مذكراته ، وكان سلوين لويد قد ذكر فى مجلس العموم فى شهر يوليو أن ميزان القوى المسلحة فى الشرق الاوسط يميل الى جانب اسرائيل . اذن ما الفائدة لاسرائيل من هذا الانذار ؟

زعم كثيرون من الصحفيين فيما بعد ، أن بن جوريون غضب أشد الغضب من التدخل الانجليزى ـ الفرنسى . (١) ولكن الاسرائيليين كانوا يعرفون منذ عهد طويل بهذا التدخل فى حالة هجومهم ، وكانوا منذ أشهر يرون أنه جزء لا يتجزأ من خطتهم العسكرية الشاملة ضد سيناء وقد أكد لهم الفرنسيون أن التدخل سيقع ، وأوضحت لهم الرسالة التى حملها هنريكس فى منتصف سبتمبر وجوده . ولكن ترى ماالذى ذكره موليه لبن جوريون ؟ هل قال له ان بريطانيا وفرنسا ستتدخلان

---

(١) عدد الاوبزرفر في ٢٥ من نوفمبر فقد ذكر ان اسرائيل كانت تتوقع عونا من فرنسا لتخوض هى معركتها وذكرت التايمز اللندنية أن بن جوريون لم يكن يرغب في شىء من الا يتيح للمصريين الفرصة في القول بأن قوات الدول الثلاث هى التى حققت لاسرائيل ما تريده . (المؤلف)

بعد تسع عشرة ساعة فقط من صدور البلاغ الحربى الاسرائيلى الاول عن طريق توجيه انذار ، يصاغ فى عبارات تجعل أمر «التواطؤ» حقيقة واضحة محتومة ، ويوقت بحيث يغدو العمل العسكرى الانجليزى — الفرنسى ضد مصر شيئا مؤكدا بعد انقضاء مدة الانذار المضروبة ، أى فى غضون اثنتى عشرة ساعة .

لايمكن لاسرائيل أن تحقق نصرا سريعا على مصر فى سيناء فى غضون تسع عشرة ساعة أو حتى احدى وثلاثين ساعة ، فنحن نعرف أن الخطة الاسرائيلية نفسها لم تكن تقوم على أساس مثل هذا النصر السريع ، وانما كانت تتوقع أن تطول الحملة أربعة أيام . وبالفعل لم يتحقق مثل هذا النصر . ولكن النقطة المهمة ، ليست فيما ذكره البعض أحيانا من أن الاسرائيليين كانوا يعرفون أن مصر سترفض الانذار ، وأن الوقت سيتاح أمامهم لتحقيق مايطمعون فيه . وانما كانت النقطةالمهمة هى أن التعابير التى صيغ فيها الانذار نفسه ، قد قضت على كل حلم لاسرائيل فى أن تظهر بمظهر المنتصر • فلقد وصلت الطائرات البريطانية القاذفة للقنابل فى وقت أسرع مما كان متوقعا . يضاف الى هذا أن الاسرائيليين كانوا جد مخطئين فى اعتقادهم ، بأن الرئيس الامريكى الذى يخوض معركة انتخابية سيجد من الصعب عليه أن يتخذ أى اجراء ضدهم ، ولاسيما أن الانذار البريطانى الفرنسى قد أتاح لايزنهاور كل مايتوخاه من عون لانقاذ نفسه من الورطة الانتخابية التى يجد نفسه فيها اذا استنكر عدوان اسرائيل .

وهكذا اختفى حلم « الانتصار المستقل » الذى راود مخيلة الاسرائيليين . وذلك عندما وقف ايدن بعد ظهر الثلاثين من أكتوبر فى مجلس العموم ليوجه انذاره المشهور . ومن السهل والحالة هذه أن نفهم لماذا وجد الناطق الاسرائيلى نفسه مضطرا لوصف الانذار «بالقنبلة»• لقد أخطأت حسابات اسرائيل . (١) وأساء بعضهم تنفيذ الخطة .

---

(١) من الواضح أن اسرائيل كانت تريد الا يظهر أى عون من جانب فرنسا أو انجلترا لحملتها العسكرية على سيناء ، وان كانت تعتمد كل الاعتماد في خططها على هذا العون . فبالاضافة الى أنها حاربت بأسلحة فرنسا والى أن القوات الجوية والبحرية الفرنسية قد عززت هجومها التي لولاها لفشل الهجوم منذ اللحظة الاولى بسبب تفوق مصر الجوى والبحرى ، فان اسرائيل كانت تعتمد في حساباتها على تخوف مصر من الهجوم البريطانى والفرنسي وكانت مطمئنة الى انه مهما كانت نتيجة المعركة فلن يضيرها شيء بسبب عون هاتين الدولتين لها . (المعرب)

هل كانت اسرائيل هي التي أساءت التنفيذ أولا ؟

قبل تحديد المسئول عن الخطأ وطريقته ونوعه ، أرى لزاما على أن أتحدث عن غريبة أخرى من غرائب سيناء والسويس • فلقد كانت الانتخابات الامريكية بالنسبة الى بن جوريون وايدن ومولية أيضا ، قضية حرجة نظرا لعلاقتها بتوقيت الهجوم • وكان هناك فى البداية ميل قوى الى الاعتقاد بأن حزب ايزنهاور سيعارض معارضة شديدة وطاغية فى أية خطوة قد يخطوها ايزنهاور فى معارضةاسرائيل فىالمراحل الختامية من الحملة الانتخابية التى كانت الاصوات اليهودية تعتبر فيها دائما عنصرا مهما كل الاهمية ؛ يجد التقدير والاحترام من رجال السياسة • ولكن لماذا اختير يوم الصفر بالنسبة الى الهجوم الاسرائيلى قبل ثمانية أيام طويلة من يوم الصفر بالنسبة الى الانتخابات الامريكية؟ ولماذا حدد الهجوم الاسرائيلى فى التاسع والعشرين من أكتوبر بدلا من أن يكون الثالث أو الرابع من نوفمبر ؟ •

هناك احتمال معقول بأن تكون اسرائيل قد وجدت نفسها مرغمة على تقديم ساعة الصفر ، وهناك تفسيران معقولان كل العقل لهذه الخطوة• فلقد روى الرئيس ايزنهاور — فى عام ١٩٦٠ فى تعليقه على مذكرات ايدن كيف أن المستر دالاس اجتمع الى أبا ايبان سفير اسرائيل فى واشنطن قبيل سفر الاخير الى اسرائيل فى زيارة قصيرة وكيف أن دالاس قال للسفير ما معناه ••• انه اذا كان يعتقد بأن عواطف اليهود الامريكيين قد تلعب دورا فى التأثير على الانتخابات أو أنها قد تؤثر عليه هو بالنسبة الى ما قد تقوم به الحكومة الامريكية من اجراء لمنع نشوب الحركات الحربية ، فانه — أى دالاس — يود أن يصحح له معلوماته ويقومها (١)•

وقد حمل أبا ايبان هذا التحذير الى الاجتماع الخطير الذى عقده سفراء اسرائيل فى العواصم الحساسة ، مع بن جوريون فى تل أبيب بين السابع عشر والرابع والعشرين من أكتوبر • وكان لرأى أبا ايبان وزن كبير عند بن جوريون وغيره من المسئولين الاسرائيليين • ترى هل أثر هذا التحذير من ايزنهاور على التوقيت الذى كان بن جوريون قد قرره؟ وهل حمله هذا التحذير على التفكير فى حسنات التبكير بموعد الهجوم ؟ ولماذا هذا التفكير يا ترى ؟ •

وقعت مظاهرات فى بودابست فى الثالث والعشرين من اكتوبر حملت ناجى الى رياسة الوزارة فى المجر ، ولم يحل الخامس والعشرون

(١) عدد النيويورك تايمز في ٢٧ من يناير ١٩٦٠ •

من أكتوبر حتى كان قد أضحى من الواضح ، أن هناك ثورة على نطـــاق واسع ومناهضة للسوفيات ، تسير طريقها فى المجر . واصدرت الحكومة الاسرائيلية فى تلك الليلة أول أمر لها باعلان التعبئة العـــامة السرية فى مرحلتها الاولى • ولم يحل الثامن والعشرون من اكتوبر حتى كان قد بدا أن الولايات المتحدة لن تكون أقل انشغالا فى ثورة المجر من الاتحاد السوفياتى ولذا بادرت اسرائيل فى اليوم نفسه الى اعلان المرحلة الاخيرة التى لا يمكن النكوص عنها من التعبئة العامة ، وهى التى تقضى بدعــوة أفواج الاحتياطى جهارا الى الخدمة ، مما لايحتمل أى تأويل بأن القصــد منــه هو اجراء « تمرينــات » من أى نوع • وكانت الصدفة رائعة ، فقــد ظن بن جوريون أن حوادث المجــر ، ستحول بين ايزنهــاور وبين الانتباه لما قد يقع فى الشرق الاوسـط ، كما ستصرف اهتمامه عنه •

وهل هناك أى دليل على أن اسرائيل قد قدمت فعلا ساعة الصــفر بالنسبة الى غزوها لسيناء • ؟ لم تحاول وزارة الخارجية الامريكية أن تتكتم ماحصلت عليه من معلومات تفيد بأن اسرائيـــــل قد باتت تخشى أن ينتبــه البيت الابيض لما هو واقع فعــلا ولذا قدمت موعد الهجوم من يوم الى ثلاثة أيام بالنســـبة الى ماكان مقررا من قبل • (١) وقد أيدت التحقيقات التى أجرتها صحف عدة هذه الحقيقة (٢) • يضاف الى هــــذا أنه عرف بأن آخر شحنات الاسلحة الفرنسية ستصل الى اسرائيل بعــد فترة تتردد بين يوم وثلاثة أيام من موعد الغزو المقرر فى التاســــع والعشرين من أكتوبر (٣) وروت المخابرات الامريكية لحكومتها فى السادس والعشرين من أكتوبر وقوع زيادة غريبة فى الاتصالات البرقية بين فرنسا واسرائيل ، مما يشير الى البحث فى شىء جد هام ويتطلب السرعة • حقا لقد كان هذا الشىء هو قرار اسرائيل بأن تبكر فى موعد هجومها •

---

(١) روت النيويورك تايمز هذه الرواية مسندة اياها الى « مصــدر مسئول فى الخارجية الامريكية » •

(٢) الاوبزرفر عــدد ٢٥ نوفمبر . وقد اكدت أن يوم الصفر الاصلى بالنســبة الى اسرائيل كان بين الثانى والتاسع من نوفمبر • وروت وكالة الصحافة المشتركة ايضا تاريخا متأخرا مماثلا •

(٣) اكد العقيد هنريكس فى السبكتاتور ايضا وجود عدة مصادر اخرى تؤيد هذا الموضوع . والجدير بالذكر ان تسـهيلات هائلة قدمت لهنريكس ليضع كتــابه الذى أسماه « مائة ساعة الى السويس » والذى اعترف فيه بأن حكومة اسرائيل قد راقبت النسخة الأصلية منه قبل نزولها الى المطبعة . ولم يحسر العقيد هنريكس النقاب عن أى شىء يتعلق بالمساعدة الفرنسية أو التواطؤ ، أو تقديم موعد الهجوم فى كتابه الذى =

ولكن هل عرف ايدن ؟ •

لا ريب فى أن القارىء قد لمس حتى الآن بأن الادلة على وجود خطط شاملة للتواطؤ بين الدول الثلاث من الوفرة بحيث لم تعد هناك ضرورة للمضى فى هذا التحليل • ولكن اذا كنا نشعر بالحاجة الى أن يكون تحقيقنا فى هذه القصة التى لا تكاد تصدق ، صحيحا وسليما ، فان من واجبنا الا نتجاهل أية ناحية منها مهما ضؤل شأنها ، ومنطقية كانت أو غير منطقية • وليس ثمة من ريب فى أن موقف ايدن ، وعلاقة الحكومة البريطانية بكل هذا ؛ هو الذى يستحق مثل هذا التحقيق العميق • ولهذا أرى أن نعود الى خفايا الانذار من وجهة نظر ايدن البارزة نفسها •

ولقد سبق لى أن أشرت فى العدد الخاص من مجلة السبكتاتور ، أنه لو قدر لنا أن نصف ايدن وسلوين لويد بشىء من الذكاء العادى لكان من المحتوم عليهما أن يبحثا عن جدول أوقات للتواطؤ ـ يظهره بمظهر الشىء غير القائم أو الموجود بقدر الامكان • ولقد رأينا كيف جاء الانذار محطما لآمال اسرائيل • ولكنه لم يكن أقل من ذلك تحطيما لايدن نفسه، فى حين لم يؤثر على الفرنسيين الذين لم يكن يهمهم مطلقا لو ظهر التواطؤ الخفى بين الدول الثلاث أو ظل سرا من الاسرار • وهذه نقطة فى منتهى الاهمية • اذ أن ظهور التواطؤ كان حريا بأن يأتى بنتائج عكسية لاسرائيل وبريطانيا وحدهما • فلو صحت عزيمة ايدن وسلوين لويد على حماية مركز بريطانيا المقبل فى الوطن العربى وبالتالى على حماية عهد نورى السعيد بعد الاطاحة بعبد الناصر فمن الواجب أن يظل هناك فرق زمنى واضح يزيل كل الشكوك بين الهجوم الاسرائيلى و « التدخل » الانجليزى ـ الفرنسى • ولنضع هذه النتيجة المنطقية فى صورة أخرى • فى وسع اسرائيل أن تهاجم مصر اما قبل الحركة الانجليزية والفرنسية أو بعدها ، شريطة ألا يقع الهجومان فى وقت واحد • يضاف الى هذا انه كان من المهم جدا بالنسبة الى ايدن وبن جوريون أن يشرعا فى

= صدر في عام ١٩٥٧ • ولكنه مالبث في مقالاته التى نشرها في السبكتاتور بعد عامين ان دون امورا عدة تستحق الملاحظة والتسجيل • فهو يقول ان آخر طائرات « الميستير » الفرنسية المشحونة الى اسرائيل ، لاستخدامها في سلاحها الجوى لم تكن قد وصلت في التاسع والعشرين من اكتوبر ، وان دبابات « شيرمان » الفرنسية وصلت متأخرة بحيث مضت الى المعركة دون اجهزة « اذاعة » • وراح هنريكس في مقالاته هذه يعكس ماكان قد ذكره في كتابه بالنسبة الى توقيت الهجوم • (المؤلف)

حركتهما ضد مصر في الوقت الذى تكون فيه يدا ايزنهاور مغلولتين تماما فى الانتخابات الامريكية ، ففى مثل هذه الحالة وحدها يمكن أن تكون هناك نتيجة لسيناء أو للسويس ، وأن تحقق حكومة ايدن واسرائيل أهدافهما وتحميانها •

ولنضف الآن الى كل ما قلناه حقيقة أخرى ، وهى أن الوقائع أثبتت أن العملية الانجليزية ـ الفرنسية قد حدثت دون أن تكون الاستعدادات قد استكملت فى الواحد والثلاثين من اكتوبر عندما شرعت القاذفات الانجليزية والفرنسية فى التحليق فوق مصر وضربها بالقنابل ، وقد أشارت جميع التقارير التى بعث بها الفريق كيتلى ، والتعليقات التى صدرت على ألسنة العسكريين الفرنسيين للصحفيين معربة عن الملل من التأجيلات البريطانية وكذلك الدلائل التى قامت على أن انزال المظليين من الجو كان مقررا فى السادس من نوفمبر وأن بدء العمليات البرمائية كان مقررا فى العاشر من نوفمبر ، الى هذه الحقيقة التى أوردناها ، واذا ما أضفنا اليها كلها ، ما وقع من عدم تحذير السفارة البريطانية فى القاهرة لرعاياها ، وفشلها فى مساعدتهم ، وما قيل عن دهشة بن جوريون وغضبه ، لان الانذار جاء بسرعة بعد بدء الهجوم الاسرائيلى ، وما صدر عن الوزراء البريطانيين من تعليقات فظة وصريحة، على اعتراف الفرنسيين فيما بعد بوجود التواطؤ أثناء الضجة التى أثيرت (١) ، وما ظهر على ايدن وسلوين لويد وزملائهما من حيرة وعجز عن التقدم بأية ردود معقولة على الاسئلة التى أثيرت فى مجلس العموم ، والتى كان لا بد لأى طالب فى الصفوف الابتدائية أن يتوقع اثارتها بعد « الفيتو » الانجليزى ـ الفرنسى فى مجلس الامن وبعد الانذار المشترك فى الثلاثين من أكتوبر ، تبينت لنا الحقيقة واضحة جلية • وظهر لنا أيضا أن أحداً لم يعرض بعد عرضا صحيحا الاعمال التى قام بها أعضاء مجلس الوزراء البريطانى فى ذلك اليوم •

ترى لماذا كان هذا الارتباك التافه مسيطرا على الجميع فى ذلك اليوم ؟ أنا لا أشك فى أن الوزراء جميعا كانوا يعرفون بأن الأسئلة ستنصب عليهم انصبابا داخل مجلس العموم وخارجه • فقد تعرضت

---

(١) لنضرب مثلا بما قاله المستر بتلر ... « لقد اوضحنا موقفنا ، كما أوضح المسيو موليه موقفه . وليس من حقى أن أرد على ما ذكرته الحكومة الفرنسية » • وقال ايدن في العشرين من ديسمبر .. « انني أعتبر نفسي مسئولا عما أقوله في هذا المجلس ، لا عما يقوله الوزراء الآخرون في البلاد الاخرى في برلماناتهم » •

سمعة أولئك المسئولين عن الخطة كلها ومكانتهم الشخصية للخطر البالغ ، ومع هذا التعرض فقد ظهروا جميعا بمظهر الضياع والعجز عن أية ردود معقولة • لماذا ؟ ليس ثمة الا تفسير واحد ، وهو أنه طرأ لسبب من الاسباب تبدل جوهرى على الخطة كلها فى الثلاثين من أكتوبر •

طلب الانسحاب :

واذا ما طرحنا افتقار الوزراء البريطانيين الى المنطق جانبا تبين لنا ظهور ثلاثة أمور جديدة من تسلسل الاحداث التى وقعت يومى التاسع والعشرين والثلاثين من أكتوبر ، والتى أدت الى ظهور التواطؤ وبرهنت على عجزها الفاضح عن تأكيد ما وقع على الخطط من تبدل طارىء • وأول هذه الأمور ان اسرائيل ذكرت فى أول بلاغ حربى أصدرته فى الساعة التاسعة من مساء التاسع والعشرين من أكتوبر ، عبارة غريبة كل الغرابة ، اذ زعمت أن قواتها قد باتت على مشارف « قناة السويس » • وكان هذا القول فى منتهى الغرابة لسببين أولهما أن اسرائيل كانت كاذبة فيه ، اذ لم تكن قواتها فى تلك الساعة على مشارف السويس كما ادعت • والآخر أنه حتى ولو افترضنا جدلا صحة الادعاء الاسرائيلى ، فلماذا الاعلان عن هذه الحقيقة ؟ ولماذا تثير وهى المتلهفة على أن تعزو النصر لقواتها وحدها ، وباعلانها الى العالم الشديد « الحساسية » بالنسبة الى القناة فى ذلك الحين ، قلق هذا العالم ، من احتمال تعرضها الى الخطر بسبب العمليات الحربية فى الوقت الذى لم تكن قواتها قد جاوزت حدودها الى مسافة بعيدة ؟ فليس ثمة ماهو أكثر مدعاة الى التدخل الدولى من أى نوع فى هذه الحرب من مثل هذا الاعلان ، وهو تدخل سيقع حتما قبل أن يتمكن بن جوريون من تحقيق ما يتلهف على الوصول اليه وما يريد أن يبرهن عليه •

أما السبب الثانى فى الغرابة ، فهو صدور الانذار الانجليزى ـ الفرنسى فور صدور النشرة الاسرائيلية الاولى ، متضمنا طلبات تبدو متممة للبلاغ الحربى الاسرائيلى وان كانت فى الحقيقة غير متفقة مع حقائق الوضع العسكرى فى يوم صدوره أى فى الثلاثين من اكتوبر • فلقد صدر الانذار فى الساعة الرابعة والنصف من بعد ظهر الثلاثين من أكتوبر ، وهو يطلب من اسرائيل ومصر وقف اطلاق النار وسحب قواتهما الى مسافة تبعد عشرة أميال عن كلا جانبى قناة السويس ، لا كلا جانبى

خط الهدنة ، أو على الأقل من جانبى النقطة التى كانت فيها قوات الفريقين عند تسلمهما الانذار • فسرعان ما ظهرت الحقيقة الضخمة الصارخة ؛ وكان لابد من ظهورها ، وهى أن أية قوات اسرائيلية لم تكن بعد ظهر الثلاثين من أكتوبر على بعد عشرة أميال من قناة السويس • ومن هذا يتضح أن الانذار البريطانى ـ الفرنسى المشترك ؛ كان بمثابة دعوة صريحة الى اسرائيل للتقدم غربا نحو القناة ، والتوغل داخل الاراضى المصرية ، حتى قبل أن توقف اطلاق النار طبقا لنص الانذار •

ولا تكشف هذه الحقيقة وجود التواطؤ فحسب ، بل انها أيضا تثبت وجود الكثير من الحماقة ، ومن الاثم الذى يستحق اللعنة • وهنا يجوز لنا أن نتساءل ••• هل كان من الممكن أن يضمن القادة الاسرائيليون بلاغهم الحربى الاول ، تلك الاشارة الغريبة لو أنهم كانوا يعرفون أن انذارا انجليزيا ـ فرنسيا مشتركا سيصدر بعد تسع عشرة ساعة ، وسيكون محطما على هذا النحو لأهدافهم الرئيسية فى اخفاء التواطؤ ، للظهور بمظهر المنتصرين وحدهم ؟ ولماذا بحق السماء ، أدخل ايدن هذا الطلب بالانسحاب فى انذاره ثانيا ؟ ولماذا ، وقد قرر أن يصدم العالم كله ويهزه هزة عنيفة باستخدام الفيتو ضد مشروع القرار الذى اتخذه مجلس الامن تجاه الهجوم الاسرائيلى ، وبات على استعداد ليهز العالم باصدار انذاره الذى أصبح وشيك الصدور ، يوافق على اضافة ذلك الطلب المؤذى والغريب الى أنذاره ؟ ولا يبدو هذا العمل منطويا على الحمق فحسب ، بل يبدو أمرا لاضرورة له مطلقا ، فليس من المتوقع ألا يكون ايدن قد تصور ، أو حتى أراد أن يرفض عبد الناصر الانذار ، اذ أن كل خطوة تالية تتوقف على هذا الرفض . وكان مجلس الأمن فى جلسات مستمرة ، كما كان الامريكيون على وعى بما هو واقع ، وقد استفزتهم الحركات الأخيرة الى الغضب والسخط • وكيف يمكن لبريطانيا أن تشرع فى حربها النفسية وفى القاء قنابلها للاطاحة بعبد الناصر كاجراءات تمهيدية لغزو مصر ، متجاهلة الامم المتحدة كل التجاهل ، اذا كان عبد الناصر ، سيرضى مذعنا بوقف اطلاق النار وباحتلال الدولتين الغربيتين لمنطقة القناة ؟ •

كان ايدن على يقين من أن عبد الناصر سيرفض أى انذار انجليزى ـ فرنسى مهما كانت شروطه وعباراته • وكان يتوقع أن يستمر القتال بين مصر واسرائيل أياما عدة • وعلى هذا الافتراض ، تصور ايدن أن الفرصة ستتاح للاسرائيليين للتوغل داخل سيناء حتى يصلوا الى

ضفاف القناة • فلماذا اذن يكلف نفسه عناء أن يطلب منهم الانسحاب سلفا الى مسافة عشرة أميال من القناة ؟ لقد كان الوقت فسيحا أمامه لتوجيه هذا الطلب فيما بعد ، أى عندما تحين ساعة المرحلة الثالثة من خطته ، وهى النزول الفعلى فى أرض مصر عن طريق القوات الانجليزية ـ الفرنسية • وكان فى وسعه أن يحقق هدفه هذا سرا ، عن طريق الاتفاق خفية مع الاسرائيليين ليعلنوا عند اقترابهم من القناة أنهم (أخذوا فى توطيد مراكزهم) على بعد عشرة أميال من القناة وهى خطوة عسكرية عادية • واذا كان تفكير ايدن منصرفا الى السماح لاسرائيل باحتلال سيناء كلها ، والاحتفاظ بها ، فقد كان فى وسعه أن يحقق هذا الهدف دون أن يعلن الى العالم الدعوة التى وجهها الى اسرائيل لتحقيق مايريد •

اذن ما الذى حمل ايدن على اقحام طلب الانسحاب فى الانذار ؟ ان ما نواجهه من صعوبة فى هذا التحليل ، يتلخص فى أننا نحاول اضفاء صفة المنطق على « اللامنطق » ، وهو ما تميزت به وجهتا نظر كل من ايدن وبن جوريون •

وقد سبق لى أثناء تحليلى للانذار فى مجلة « السبكتاتور » قبل أن يصدر ايدن مذكراته أن قلت ان هناك دلالة ضخمة بارزة ، على أن وثيقة الانذار ، تبدو اذا ما حللت كلمة كلمة ، كشىء أعد سلفا ليعالج وضعا مغايرا تمام المغايرة للوضع الذى صدر الانذار لمعالجته ، وهو وضع كان ايدن يتوقع ظهوره بعد انقضاء فترة من التثاقل الزمنى • من الواضح أن ايدن كان يتوقع وصول القوات الاسرائيلية الى القناة ، مما يخلق خطرا فوريا على الملاحة فيها من جراء تبادل اطلاق النار فوقها ، وهنا تتاح له المبررات لحمايتها ، « والفصل بين المتحاربين » ، وتكون الحجة التى أوردها فى الانذار منطقية تمام المنطق ، ويصبح التدخل الانجليزى ـ الفرنسى بسبب ما يتصوره من انشغال أيزنهاور فى انتخاباته ، أمرا معقولا بالنيابة عن العالم كاجراء ضرورى وسريع • ومثل هذا الوضع حرى بألا يظهر وجود أى تواطؤ بين ايدن واسرائيل كما يحقق لاسرائيل هدفها فى نسبة « الانتصار » الى قواتها ، ويتيح لبن جوريون الفرصة للموافقة على التدخل ، بالنسبة الى حدود اسرائيل الغربية الجديدة • وهكذا يكون الانذار فى صيغته وعباراته كلها ، وثيقة صالحة لمعالجة هذا الوضع • ومن هذا يبدو ان الانذار

قد وضع من قبل ، وقبل الثلاثين من أكتوبر ، لمعالجة وضع خطط له أن يقوم ، ولكنه لم يكن قد قام فعلا ، عندما صدر الانذار •

رواية ايدن الجديدة :

ويعيدنا هذا الاستنتاج الى مذكرات ايدن نفسها ، والى ما حاول هو قوله فيها مبررا انذاره • فلقد ذكر الآن أن شروط الانذار قد وضعت من قبل ، أى فى الخامس والعشرين من أكتوبر ، وبينها بالطبع شرط الانسحاب • ولعل هذا هو السبب الذى دفعنى عندما اقتبست هذه الفقرة الى القول بأنها كانت من أهم البيانات التى صدرت عن قناة السويس • ويحاول ايدن أن يمر بهذه النقطة مر الكرام ، وألا يضع عليها أى توكيد معين • بل يجعلها فقرة من ألوف الفقرات التى وردت فى كتابه ، ليبدل القصة كلها • فلقد ظل هو ووزراؤه يزعمون باصرار طيلة عام ١٩٥٦ ، كما ظل زملاؤه الذين واصلوا الحكم بعد تنحيته يدعون ابان المعركة الانتخابية التى جرت فى أكتوبر عام ١٩٥٩ ، أن الانذار اجراء طارىء أملته الضرورة ، وقررته فى الثلاثين من أكتوبر لمواجهة الأنباء المفاجئة التى حملها ذلك اليوم •

وجدير بنا أن نلاحظ أن ايدن بالرغم من هذا التبدل الهائل فى موقفه لم يعترف بالتواطؤ مطلقا • وان كان لم ينفه ، مكتفيا بتجاهله واهماله • وكان كل ما أراد التأكيد عليه الآن ، أن حكومته تميزت بالتبصر وحسن الفطنة ، فأعدت بدقة متناهية ، الانذار الذى وجدت أن من المحتم أن تصدره ، فيما اذا قامت اسرائيل بالهجوم على مصر • وهكذا يعترف ايدن بأن وثيقة الانذار قد أعدت سابقا ولكنه لا يعترف أنها أعدت لمواجهة وضع مختلف كل الاختلاف عن الوضع الذى صدرت فيه • فهل هذا الاعتراف بهذه الرواية التى يوردها أقرب الى العقل يا ترى ؟ •

وهكذا نجد أن ايدن يحاول أن يقول لنا فى مذكراته ان مجلس الوزراء ، قرر قبل أربعة أيام من وقوع الهجوم الاسرائيلى ، أن يصدر الأمر الى قوات مصر وقوات اسرائيل ، فور هجوم الاخيرة ، بالانسحاب من منطقة القناة ، ووقف اطلاق النار • ولكن هناك حقائق جغرافية وسوقية (استراتيجية) يجب تدوينها الآن قبل أن نمضى فى تحليلنا • فالهجوم الاسرائيلى يعنى أن قوات اسرائيل ستعبر خطوط هدنتها مع مصر ، وتبعد هذه الخطوط نحوا من مائة وخمسين ميلا عن قناة السويس •

ويعني الوصول الى القناة ان على قوات اسرائيل أن تقطع هـــذه المسافة البعيدة عبر صحراء سيناء • زاحفة على طرق صحراوية وعرة • ومقـاتلة نحوا من ثلاثين ألف جندى مصرى ، ومهاجمة بكل ما تتطلبه القوات من معدات موسوقة للقتال والمعـارك • ولا ريب فى أن وزارة الحربية فى لندن ، كانت أكثر معرفة بهذه الحقائق من اية هيئة عسكرية أخرى ، اذا استثنينا القيادتين المصرية والاسرائيلية • وتضم هذه الوزارة عشرات الخرائط التى تم اعدادها لشبه جزيرة سيناء على أيدى الخبراء بصـــورة متكررة ، وبكل ما فى المواقع الأرضية من تفاصيل، منذ استعداد الجنرال اللنبى للزحف شرقا عبر سيناء الى فلسطين التى كان يحتلها الأتراك فى الحرب العالمية الأولى . وقد تولى المهندسون البريطانيون فى تلك الفترة الطويلة شق ما فى هذه الصحراء من طرق واصلاحها بصورة مستمرة •

ولـكن بالرغم من كل هــذه الحقائق ، نجد أن قصة السير انطونى الهادئة ، والتى يضفى عليها الكثير من الوقار والجد ، تحاول أن تقنعنا ؛ بأنه هو وزملاءه ، تبصرا منهم بمـــا سيقع قبل وقوعه ، وادراكا منهم لما يجب أن يفعلوه فورا ، اذا هاجمت اسرائيـــل مصر ، قد قرروا أن قوات اسرائيل يجب أن تكون عند القنـــاة فى الوقت الذى يتحتم عليهم هم والفرنسيون أن يبادروا الى العمل العسكرى. وهكذا نرى أن ايدن يحاول اقناعنا ، على الرغم من هذه المسافات الشاسعة التى كان يتحتم على قوات اسرائيل قطعها وهى وحدات عسكرية كاملة لا مجرد سيارت سباق خلوية، وعلى الرغم من وعورة الطرق التى ستتســـير عليها فى الصحراء ، ومن المقاومة المصرية التى يتحتم عليها أن تقهرها فى طريقها ، بأن الانذار الذى توصل اليــه والذى يطلب سحب القوات الاسرائيلية من القنـــاة التى لم تصلها والتى لم يكن فى امكانها أن تصل اليها بمثل هذه السرعة الهائلة ، هو خير خطوة لمعالجة الموقف الذى كان قائما آنذاك •

لم يسبق أن صدرت مثل هذه السخافات التى لا يمكن فهمها ، فى مثـــل هذا الوقار الذى اصطنعه ايدن ، عن أى رئيس وزراء عاقل • فى بيان رسمى يصدره • ولو شئنا أن نبسط الصورة للقـارىء الانجليزى ليفهمها ، لقلنا أن مايريد ايدن اقناعنا به ، هو تماما كأن تقوم واشنطن ، وهى فى حالة قلق من وقوع هجوم المانى على بريطانيا ؛ باتخـــاذ قرار سابق على ذلك ، بأن تصدر «فورا» سماعها ، بمغادرة أسطول الغزو الألمانى ســـواحل أوربا متجها الى بريطانيا ، انذارا للقوات الألمانية ، بالانسحاب من شوارع لندن •

ويحاول ايدن شرح المخـاوف المحددة التى أحس بها مجلس الوزراء البريطـانى من توقع الهجوم الاسرائيلى ، فيقـول انها انطوت على القلق مما قد يحل بقناة السويس من أضرار بسبب العمليات الحربية • ومن انتشار الصراع ليشمل الدول العربية الاخرى • ولكنه من الناحية الاخرى يريد منا أن نصدق بأنه هو وزملاءه ، رأوا من المناسب لحماية القناة من الضرر ، أن يضعوا صيغة انذار سـابق ، يطلب من اسرائيل وقف اطلاق النار والانسحاب ، اذا كانت قواتها قد وصلت فعلا الى القناة • لكن ايدن لم يضع أية اشتراطات أو قيود في الوصف الذى يقدمه الينا • وليس فى قصته ما يوحى بأن الوزارة البريطانية قد درسـت أية احتمالات أخرى للوضع العسكرى اذ أنهـا لم تر مايدعوها الى هذا الدرس • وكل مافعلته هذه الوزارة ، انها قررت فى الخامس والعشرين من آذار «مارس» ، مايجب أن تفعله الدولتان الحليفتـان ، بريطانيا وفرنسـا ، عندما تحين سـاعة العمل الفورى • دون تفكير فى حقيقة ما سيكون عليه الموقف العسكرى بالنسبة الى اسرائيل فى ذلك الوقت •

وحرى بنا أن نسبر غور ما فى قصة ايدن من غرابة مذهلة طيلة الوقت • فهناك أولا ، مجلس وزراء ، يفكر سـلفا بما قد يقع من جراء هجوم اسرائيلى يخشى وقوعه • ومن المفروض فى مثل هذه الحالة ، وطبقا لأبسط قواعد المنطق ، أن يدرس هذا المجلس مدى السرعة التى ستصل اليه فيها أنباء المباشرة بالهجوم • ومن المفروض أيضا بالنسبة الى الوضع هذا ان تصل اليه الانباء بسرعة هائلة ، اذ أن صـحراء سـيـناء ليست من مجاهل الهيملايا البعيدة عن كل اتصال سريع بما تبقى من أرجـاء العالم • وبالاضافة الى احتمال صـدور بيـان اذاعى من اسرائيل باعلان الحرب، والى احتمال صدور بيان اذاعى مماثل من مصر فور تلقيها الأنباء اللاسلكية الأولى ، من مراكز حدودها الأمامية، كانت هناك فرق المراقبين الدوليين المرابطة على الحدود والمجهزة بآلات الارسـال اللاسلكى المباشر • وفى مثل هذه الحالة يكون فى امكان مجلس الوزراء ، وهو الواقع تحت سيطرة الخوف من الخطر على القناة ، أن يتوقع تلقى الانبـاء بعد مضى بضع ساعات من عبور القوات الاسرائيلية الحدود المصرية • فلمـاذا اذن تكون ثمة حاجة الى انذار « فورى » يأمر بالانسحاب من مسافة تبعد مائة وخمسين ميلا عن الحدود التى تم اجتيازها قبل بضع ساعات فقط ؟ ولماذا لا يعد مجلس الوزراء هذا ، العدة لتوجيـه انذار آخر يأمر اسرائيل بسحب قواتها الى ما راء حدودها ، مهما كانت المسافة التى قطعتها عند تلقيها الانذار ؟ كان هـذا الطلب بالفعـل ، هو ما تضمنه مشروع القرار

الذى قدمته الولايات المتحدة الى مجلس الامن . ولاريب فى أن الحكومة الأمريكية وضعت صيغة قرارها وأبرقت به الى سفيرها فى لندن الذى تولى عرضه على سلوين لويد فى الساعة التاسعة والنصف من صباح الثلاثين من أكتوبر . ومثل هذا الاجراء ، ولا شك ، هو العمل المنطقى السريع والأصيل لوقف النزاع .. وبالتالى لحماية القناة من الخطر .. ومنع انتشار الحرب الى الدول العربية الأخرى ، وهى الأهداف التى ادعى ايدن أنها وجهت حكومته فى اتخاذ قرارها باصدار الانذار .

ويبرز هنا ثانيا سؤال آخر . اذ لو كان صحيحا ما ادعاه ايدن من أن حكومته ، تبصرا منها بما يجب عمله فورا فى حالة هجوم اسرائيل ، قد قررت هنا بالاتفاق مع فرنسا اصدار هذا الانذار منذ أربعة أيام ، لماذا تقاعست بريطانيا وفرنسا عن اصداره عشية التاسع والعشرين من أكتوبر أى بعد صدور البلاغ العسكرى الاسرائيلى الأول فى الساعة التاسعة مساء؟ ولماذا التأجيل المطلق اذا صح ان الغاية من الانذار ، كانت العمل الفورى لحماية القناة ووقف الحرب والحيلولة دون امتدادها ؟ .

وهناك ثالثا تساؤل آخر ، سنعود اليه حتما فيما بعد ، وهو لماذا لم تقم حكومة ايدن ، اذا صح ادعاؤها بأهداف هذا التبصر البعيد النظر ، بتبادل الرأى مع ايزنهاور فى السادس والعشرين من أكتوبر بصدد هذه الاجراءات الوقائية التى أقرتها فى الخامس والعشرين منه ؟

أرى أن من مضيعة الوقت أن نقول أكثر مما قلناه حتى الآن فى عرض هذا الجانب الخاص من رواية ايدن الجديدة على حقيقته ، وأن ننتقل منه الى البحث فى ما صدر عنه من أقوال أخرى . ويبدو لى انه وهو يخط هذه الفقرة الغريبة فى مذكراته عن قرارات وزارته فى الخامس والعشرين من أكتوبر ، قد أدرك أنها ستثير الدهشة عند الكثيرين . فهو يحاول على الفور أن يواجه هذه العقبة التى قامت أمامه ، وأن يزيل من نفوس القراء ما قد يثور من شكوك اذ يقول ..

« وقد تساءل النقاد لماذا نزلنا فى منطقة بعيدة عن ميدان القتال ؟ والرد على هذا هو أن النزول فى أية منطقة غير تلك التى سبق تحديدها فى الخطة الأولى كان سيؤدى الى التأخير حتما ، ولم يكن فى وسعنا أن نسمح بأى تأخير . يضاف الى هذا أننا كنا نعانى نقصا فى معدات الانزال وكان علينا أن نستعمل أحد الموانى لهذه الغاية » .

ولكن ايدن يناقض فى قوله هذا قصته كلها بحذافيرها ، وهى القصة

التى تركزت على أن النزول لم يكن بعيدا عن منطقة القتال ، بل كانت فى المنطقة التى كان القتال يدور فيها وهى منطقة القناة • وهو يطلب منا فى مكان آخر ، أن نقتنع بأن الانذارالذى تمت صياغته فى الخامس والعشرين من اكتوبر ، ظل صالحا للعمل فى الظروف التى وجدت فعلا فى الثلاثين منه . ويمضى بعد ذلك فيقول : انه كان من الضرورى بعد وصول أنباء الهجوم الاسرائيلى الى لندن ليلة التاسع والعشرين من اكتوبر ، التثبت من جميع الحقائق المتعلقة به • ويكفى أن نلاحظ هنا تعليقا على قوله هذا بأنه لم تكن ثمة أية حقائق تتطلب التثبت ، لو كان ايدن صادقا فى أهدافه ، سوى أن القوات الاسرائيلية قد تخطت الحدود ، وهو أمر كان ايدن يعرفه حق المعرفة • ومع ذلك فهو يقول ان « القيادة البريطانية قامت بعمليات الاستكشاف عند الفجر صباح الثلاثين من أكتوبر لالتقاط بعض الصور للقوات المتحاربة وتحديد مواقعها ان أمكن » •

ثم يقول : « وتلقى مجلس الوزراء صباح الثلاثين من أكتوبر أن القوات الاسرائيلية وصلت الى نقطة تقع فى منتصف الطريق بين الحدود والاسماعيلية ، وقيل ان قوة اسرائيلية ثانية كانت تشق طريقها نحو السويس •• وكان هذا هو الموقف الذى بحثه مجلس الوزراء قبل خمسة أيام » •

وقد يصعب على المعلق الغاضب على هذا الاختلاق الصارخ ، أن يمتنع عن القول ، بسلامة منطق ايدن فى هذه الفقرة ، لو انه كان صادقا فيما رواه منها ، ولكن السير انطونى مدفوعا بحرصه على أن يقدم كل تفصيل ممكن لما حدث قد حطم أى « منطق » أو «شبه منطق» فى قصته التى رواها فى عام ١٩٦٠ ، اذ لم يكن فى وسع أية طائرة من طراز كمبيرا أو غير كمبيرا طارت فجر الثلاثين من اكتوبر ، أو أى شخص وقف على رمال سيناء فى ذلك الصباح ، أن يحدد مواقع القوات الاسرائيلية فى المكان الذى حدده ايدن ، لانها لم تكن فى ذلك المكان أبدا ، وهو يذكر أن قوة اسرائيلية كانت تشق طريقها نحو الاسماعيلية ، وقد وجدت هذه القوة بالفعل ، ولكنها فى فجر الثلاثين من أكتوبر لم تكن فى المكان الذى زعم ايدن أن طائرات الكمبيرا قد صورت وصولها اليه ، بل كانت واقفة فى مواقعها التى لاتبعد أكثر من عشرة أميال داخل حدود سيناء فى نقطة تسمى أبو عجيلة ، وذلك بسبب المقاومة المصرية العنيفة التى واجهتها•• ولم يكن فى وسع طائرات الكمبيرا أن تحدد مواقع الاسرائيليين فى منتصف

الطريق الى الاسماعيلية الا بعد يومين ونصف اليوم من ذلك التاريخ (١)
ولم يكن في الامكان أن يقع المسئولون في خطأ في تفسير الصور التي التقطها الطيارون ، اذ أن نقطة الوسط بين الحدود والاسماعيلية واضحة كل الوضوح من الجو ، اذ تبدأ منها مرتفعات أرضية لايمكن أن تغيب عن الصورة أو العين •

ويشير ايدن الى قوة أخرى ، كانت تريد الاندفاع باتجاه السويس ففي فجر الثلاثين من أكتوبر ، كان هناك فوج معزول من المظليين يعد نحوا من أربعمائة جندي ، يخندق في مواقعه ، وقد صدرت اليه الأوامر بألا يحاول حتى الاتجاه من المكان الذي هبط اليه في مضيق « المتيلة » والواقع على بعد أربعين ميلا الى الشرق من السويس حتى تصل اليه النجدات • ترى هل كانت هذه هي القوة الثانية التي عناها ايدن ؟ ليس من الممكن أن تكونها ، اذ أن هذه القوة ظلت طيلة صباح الثلاثين من اكتوبر ولعدة ساعات تلت ، خافية على عيون الطائرات من جراء الضباب الذي خيم فوقها ، والذي حجبها عن عدسات الطائرات التي تحلق فوق ارتفاع عال • أما النجدات التي وعدت بها ، فكانت في تلك اللحظة مبعثرة فوق مساحة واسعة لا تتجاوز النقطة الأمامية منها في بعدها عن الحدود الخمسين ميلا ، وكانت طلائعها مختفية بين أكواخ وأشجار واحة « ثامد » أما بقية اللواء فتخوض في الرمال الى الخلف وقد توزعت على مساحة واسعة ، ولم تتجمع هذه القوات عند « المتيلة » الا في الساعة العاشرة والنصف من مساء الثلاثين من أكتوبر في حين زعم ايدن أن هذه القوات قد عززت بسرعة • ولكن مالبث اللواء بكامله أن واجه قتالا عنيفا وعنيدا من القوات المصرية التي تحركت الى المنطقة بحيث تحطمت قواه ولم يستطع التقدم شبرا واحدا طيلة الأيام التي تلت حتى مساء الثاني من نوفمبر •

ولكن السير انطوني ايدن ، رئيس وزراء بريطانيا ، يقف بعد ظهر الثلاثين من اكتوبر ، في مجلس العموم ، ويقول في منتهى الجد والوقار

---

(١) اذا صح ان القوات الاسرائيلية قد وصلت الى تلك النقطة ، بعد يومين ونصف من ذلك التاريخ ، فذلك ناجم عن انسحاب القوات المصرية الذي بدأ في الثلاثين من أكتوبر بعد أن تبينت للرئيس عبد الناصر حقيقة المؤامرة الثلاثية مما دعاه الى اصدار الأمر للقوات بالانسحاب غرب القناة تجنبا لوقوعها في الشرك الذي نصبته دول العدوان الثلاثي لها • (المعرب)

ان القتال كان يدور فى تلك الساعة فى نقاط « قريبة » وقريبة جدا من القناة ، بل لعله يدور فى القناة نفسها • وهو قول لم يصبح حقيقة الا بعد أربعة أيام عندما أصبحت القوات الاسرائيلية تطل على القناة بعد انسحاب القوات المصرية تنفيذا لأوامر قيادتها العليا ، ولا شك أن ايدن فى قوله هذا ، كان أكثر اغراقا فى التفاؤل من الاسرائيليين أنفسهم ، اذ أن خطة القيادة الاسرائيلية نفسها كانت تقوم على أساس افتراض الوصول الى القناة فى غضون ثلاثة أيام ، ترى هل هناك من داع الى المزيد فى الايضاح ؟ •

ولكن ما الذى حدث حقا ؟

لسنا فى حاجة الى المضى مع ايدن فى مذكراته ، فكل مافيها أحاديث لا ينطبق عليها أى منطق، هذا اذا أردنا الاعتدال فى وصفها ، كقوله مثلا فى قصته التى يحاول استدرار الدموع بها ، ان الوقت لم يتوافر للحكومة للتشاور مع واشنطن أو مع مجموعة الشعوب البريطانية مع أنه هو يعترف أن الحكومة قد وقعت تحت سيطرة الخوف والقلق قبل بدء الهجوم الاسرائيلى بأربعة أيام ، أو كانفجاره الغاضب والفجائى بعد أن انتهى كل شىء معربا عن ألمه ، فى افشاء كل ما أحاط بحملة جواتيمالا من أسرار ، ولكن مازال أمامنا واجب تقرير حقيقة ماحدث ، فكل ما فعلناه حتى الآن هو أن نظهر بأن الانذار لم يكن متفقا مع الحقائق ، ولا مع ضرورات اسرائيل وضرورات ايدن نفسه ، وانه أعد مسبقا ــ وهو ما اعترف به ايدن أخيرا ــ وأنه كان يقصد معالجة وضع مختلف كل الاختلاف ــ وهو ما يحاول ايدن حتى الآن اخفاءه ــ ولكن ترى ما هوهذا الوضع المختلف ؟ وما الذى حدث حتى انقلبت الخطة رأسا على عقب ؟ ولماذا صدر الانذار فى شكله الاصلى فى الثلاثين من اكتوبر ولم يتبدل بتبدل ما وقع من تطور ؟ •

هناك افتراض واحد ، وقد يكون أكثر من مجرد افتراض ، ولكن الوثائق التى تثبت تعديه هذه المرحلة لم تتوافر لأى كاتب حتى الآن ، وهذا الافتراض هو الذى يفسر دون سواه تسلسل الاحداث على النحو الغريب الذى وقعت فيه ، وليس ثمة من شك فى أن التواطؤ كان قائما ، فلقد عرف ايدن وزملاؤه طيلة الوقت ، واطلعوا بالتفصيل منذ السادس عشر من أكتوبر على حقيقة ما تعتزم اسرائيل فعله ، وراحوا يعدون مع زملائهم الفرنسيين خطة تغالى فى عنايتها بكل التفاصيل حتى التافه منها

لاستغلال الهجوم الاسرائيلي (١) • وقام الفرنسيون طيلة الوقت بدور الوسطاء ، ولكن ليس دائما وباستمرار ، فقد عرف أن موشى ديان القائد العام للقوات الاسرائيلية والذى تولى شخصيا قيادة حملة سيناء ، قام بزيارة لندن فى شهر أكتوبر ، وقضى وقتا لا بأس به فى وزارة الحرب البريطانية ، وكانت الخطة كما يبدو على النحو التالى :

الخطة الرئيسية

٢ نوفمبر — الجمعة — يوم عطلة عند المسلمين ، يميل فيه المسلمون الى الراحة والتراخى ، وتبدأ فى اليوم نفسه آخر عطلة أسبوع محمومة فى حملة الانتخابات الامريكية ، تقرر أن يبدأ هجوم اسرائيلى فى ساعات الصباح الباكر ، وأن يستمر منفردا حتى الخامس من نوفمبر •

٥ نوفمبر — يكون القتال مع القوات المصرية قد اقترب من القناة مهددا حرية الملاحة فيها ، يصدر الانذار البريطانى الفرنسى المشترك طالبا الى الفريقين الانسحاب الى مسافة عشرة أميال من القناة ، والى مصر قبول الاحتلال البريطانى — الفرنسى المشترك للقناة ، سيكون ايزنهاور عاجزا عن القيام بأى اجراء ، وترفض مصر بالطبع هذا الانذار •

٦ نوفمبر — يوم الانتخابات فى الولايات المتحدة ، ينتهى الأمد المضروب فى الانذار المشترك ، وتبدأ الطائرات البريطانية والفرنسية ضرب مصر بقنابلها ، تبحر القطع البرمائية من مالطة فى الطريق الى مصر التى تصلها بعد ثلاثة أيام عند بور سعيد ، يدخل المظليون فى الصورة ، يشتد الاضطراب فى الميدان الدولى ، يدخل نورى السعيد الى الأردن فى قوات كبيرة •

---

(١) هناك أدلة كثيرة أخرى تثبت هذه الحقائق وقد يكون المضي في سردها مملا للقارىء ، فمثلا ألقت الطائرات البريطانية في الواحد والثلاثين من أكتوبر منشورات باللغة العربية على مصر تشير بوضوح الى « الهجوم الاسرائيلى » فلو صح ما ادعاه ايدن ، بأن أنباء هذا الهجوم لم تكن أكثر من مجرد « تخوف » يسود لندن حتى ساعة متأخرة من ليلة التاسع والعشرين فكيف كان في الامكان اعداد هذه المنشورات والموافقة عليها ، وصوغها بالاحرف العربية ، ثم طبعها بكميات هائلة تبلغ مئات الالوف وفي صور مختلفة ، ثم اعدادها في مطارات قبرص قبل الواحد والثلاثين ، أى في مثل هذه الساعات القليلة ؟ ولماذا رفض ايدن الاشتراك مع ايزنهاور في توجيه تحذير لاسرائيل في الثامن والعشرين من أكتوبر تنفيذا لاقتراح رسمى وعاجل من الرئيس الامريكى .
(المؤلف)

٧ نوفمبر — يتظاهر ايدن ومولیه بالعمل على فصل الفريقين المتحاربين عن بعضهما ، يجتمع مجلس الأمن ولـكنه لا يتخـذ أى اجراء حاسم ، ولا تتوافر الأغلبية لمعـارضة نزول المظليين الانجليز والفرنسيين فى منطقـة القناة ٠

١٠ نوفمبر — يبدأ الغزو البرمائى الكامل٠ اما أن يمضى عبد الناصر أو تأسره قوة ضاربة تتجه الى القاهرة ، يواجه العالم بالأمر الواقع ٠

***

هذا هو التوقيت الزمنى للخطة ، ويبدو الانذار المشترك على ضـوء هذا التوقيت معقولا كل العقل ، فما الذى حدث ، وقلب الخطة والتوقيت معهـا ٠

أولا ، وقبـل كل شىء تحركت اسرائيل قبـل الموعد المقرر ، وقـد اضطر بن جوريون الى ذلك مدفوعا بثلاثة اعتبارات :

أولها — الخوف من أن يتدخل ايزنهاور بالرغم من انشـغاله فى الانتخابات ٠

وثانيها — الخوف من أن تؤدى الخطة كلها الى حرمان اسرائيل من « الانتصار المستقل » الذى تريده لنفسها ٠

وثالثها — ما غمره من ارتياح لادراكه أن أحداث المجر وثورتها فى الخامس والعشرين من أكتوبر ، خلقت وضعا جديدا قد يشـغل ايزنهاور وايدن فترة طويلة ٠

وهـكذا بدأت اسرائيل تعبئـة قواتهـا فى الخـامس والعشرين من اكتوبر ٠ وعرف الفرنسيون بالطبع بأمر هـذه التعبئة ، كما عرف أيدن بها أيضا ، ولكن ايدن — وهو الرجل المريض للغاية — منذ أن فاجأته الحمى بشكل فائق للعادة فى مطلع اكتوبر بات أسير الهواجس والشكوك ، فهو لم يمض فى طريق مغامرته هذه بالاتفاق مع اسرائيل وهو مرتاح الضمير فالحوافز التى تدفعه كلها ، وكيانه العاطفى وأعصابه المجهدة ، كلها من النوع الشاذ وغير العادى ، وعندما اقترب «صريف الاسنان» وهى العبارة التى استخدمها هو فى مذكراته ، كان قد بات نهبا للشكوك والتردد، فلقد تمكن المستر همرشـولد ومعـه دالاس ورجال الوفد الهنـدى والدكتور محمود فوزى فى الثـانى والعشرين من أكتـوبر ، من التغلب تمـاما على جميع العقبات التى وضعها أيدن ومولیه قبل عشرة أيام فى طريق الوصول

الى تسوية ، وأغرقت الصحف بالمقـالات والانباء المتفـائلة التى تعـارض استخدام القوة أو اللجوء اليها ، وهاهى ذى المجر تبرز الآن ماثلة أمام العيـان • يضاف الى هـذا أن الانتخابات الامريكية لم تشـغل ايزنهاور وحكومته ، وهاهى واشنطن تسأل لندن كل يوم عن الاسباب التى تحول دون تشاورها معها ، وعما يدور فى الخفاء ، وتحذرها من أية حيل وأعذار واهية باطلة ، ولكن ايدن قد التزم ، وكانت العملية الانجليزية ـ الفرنسية المشتركة قد مضت فى طريق التأهب والاستعداد • ولا ريب فى أن هـذا الجهد المرعب الذى عاناه هذا الرجل المريض فى تلك الايام الاخيرة ، قد أوصله الى صعدان خطرة • وهكذا مضى ايدن الى معركتى سيناء والسويس وهو فى أسوأ أوضاع يمكن لانسان أن يصل اليها •

وكان الفرنسيون يعرفون هذه الحقائق كلها ، ويعرفون أيضا ، أنه بعد الخامس والعشرين من اكتوبر ، ستزداد حدة تردد ايدن بعد أن تصل اليه أنباء تقديم اسرائيل لموعد ساعة الصفر بالنسبة الى هجومها ، وظل الفرنسيون يتصلون به عن طريق الهاتف يوميا ليبعثوا فى نفسه الثقة والطمأنينة وقرروا ألا يفزعوه أكثر فأكثر بابلاغه ماطلبه الاسرائيليون من غطاء جوى فرنسى لحملتهم • ومن هنا يظهر أن أيدن كان صادقا عندما نفى فى العشرين من ديسمبر معرفته بهذا الغطاء الجوى ، اذ أن هذا الموضوع لم يكن نتيجة « قرار بريطانى ـ فرنسى مشترك ومسبق » •

واتخذ الفرنسيون قرارا آخر ، كبير الأهميـــة ، وهو أن التوقيت الأصلى للخطة الانجليزية ـ الفرنسية المشتركة لم يعد صالحا ولا أمينا حتى ولو قدم موعده مع ابقـاء مراحله على ما هى عليه للتوافق مع التـــاريخ الاسرائيلى الذى قدم موعده ، وقرر الفرنسيون ان لامعنى لأى تسويف بعد بدء الهجوم الاسرائيلى أو لأية فترة قبل البدء بالعملية البريطانية ـ الفرنسية المشتركة ، هذا اذا كان المطلوب أن يحافظ ايدن على كلمته ، واذا كانت الغاية الاطاحة بعبد الناصر والوصول بهـا الى النهاية ، وخشى الفرنسيون أن ينهار رئيس الوزراء البريطانى المريض فى الفترة الواقعة بين الهجومين ، وأن يفقـد ارادته ، أو يخضع لواشـنطن أو لأى ضـغط قد يتعرض له من بعض زملائه فيعدل عن تنفيذ العملية كلها •

وكان موليه وبينو فى توصلهما الى هذا القرار متأثرين أشد التأثر بعامل آخر ، وهو ضغط العسكريين الفرنسيين ، فلقد كانت فرنســا الجمهورية الرابعة فى ذلك الحين قريبة من مرحـلة الحـكم الذى يقـوم على

التكافؤ بين ضدين، هم السياسيون والعسكريون(١) • وكان العسكريون قد استهوتهم الفكرة القتالية أخيرا ، ودفعتهم حماستهم لها الى الشك فى نيات الوزراء ، ولذا باتوا يلحون على موليه بوجوب الاسراع الى العمل ، بالقوة نفسها التى كان فيها هذا يلح على زميله ايدن ، وظلوا يتحرقون ارما وغيظا مدة ثلاثة أشهر طوال ، من هذا الحذر الذى تبديه بريطانيا ممثلة بساستها وعسكرييها ، وراحوا ينذرون موليه ، بأن من الواجب وضع حد لهذا التردد •• والا ، وهكذا اتخذ القرار القدرى بأن يطلب موليه الى ايدن المبادرة فورا الى العمل ، دون انتظار الفترة بين الحركتين الاسرائيلية ، والانجليزية الفرنسية ، كما كان متفقا عليه من قبل •

ولكن موليه وبينو لم يبحثا موضوعهذا القرار الجديد من قبل لا مع بن جوريون ولا مع ايدن • وعندما وافقا على طلبه تزويداسرائيل بما تريده من غطاء جوى، اقترحا عليه أن يضمن بلاغه الحربى الاول، الاشارة الى قناة السويس ، لتفيد منها فرنسا فىحركتها المقبلة ، وأبلغاه فى الوقت نفسه انهما لن يبدلا شيئا من الخطة السابقة ، ويواصلا العمل بموجبها ، أى بعد انقضاء الفترة المقررة •

وهكذا مضى بن جوريون وزملاؤه فى تنفيذ الخطة كما كان مقررا لها من قبل ، دون أن يبلغوا بقية أعضاء الوزارة بما يعتزمونه الا فى الثامن والعشرين من اكتوبر ، وهو ما اعترف به بن جوريون نفسه فى مجلس الكنيست فى الثانى من ابريل عام ١٩٥٧ •

وتوصل الفرنسيون أيضا فى هذه الساعات الأخيرة التى سبقت الحرب الى قرار آخر ، قدر له أن يكون فى منتهى الأهمية والخطورة ، فقد تلقوا فى الثامن والعشرين من أكتوبر اقتراحا من الرئيس ايزنهاور الذى أفزعته الأنباء التى تلقاها عن أعلان التعبئة العامة فى اسرائيل يطلب فيه منهم ومن ايدن اصدار تحذير أمريكى ـ بريطانى ـ فرنسى مشترك ، الى بن جوريون ، وقضى شركاء أمريكا فى البيان الثلاثى لعام ١٩٥٠ من

---

(١) وضعت الدوائر العسكرية الفرنسية في الثامن والعشرين من اكتوبر بدون علم من موليه خطتها المنطوية على الخديعة والرامية الى الامساك بقادة الجزائر المجاهدين الذين كانوا يطيرون للاشتراك في محادثات تهدف الى السلام تحت اشراف ملك المغرب، وقد الهبت هذه الخدعة مشاعر العرب في كل مكان ، وهو ماكان الفرنسيون يهدفون اليه ، وكانت أيضا بمثابة تحذير الى موليه الذى لم ينس قط ما اصابه من اهانة في الجزائر عندما قذفه المستوطنون الفرنسيون فيها بالطماطم أثناء زيارته لها في السادس من فبراير عام ١٩٥٦ • (المؤلف)

بريطانيين وفرنسيين طيلة الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من اكتوبر وهم يراوغونها ويتحايلون عليها للخلاص من هذا الطلب ، بينما واصل سلوين لويد بعث الطمأنينة فى نفس السفير الامريكى فى لندن ، مؤكدا له أن لاعلم له مطلقا بما يدعو الى القلق ، واتضح فى باريس الآن ، ان ايزنهاور سيوجه فى اللحظة التى تبدأ فيها اسرائيل هجومها ، دعوة الى مجلس الامن للاجتماع فورا ، وقررت فرنسا أن استخدام الفيتو فى المجلس أمر ضرورى للغاية • ولكن هذا القرار الخطير لم ينقل الى ايدن أيضا ، اذ أن فرنسا لم تكن راغبة فى أن تزيد من حدة الحالة العصبية التى يعانى منها حتى اللحظة الاخيرة ، ومن هذا يتبين أيضا أن نفى ايدن فى العشرين من ديسمبر لموضوع الفيتو ، كان صحيحا أيضا •

وطار موليه وبينو الى لندن صباح الثلاثين من أكتوبر وقد صمما على أن يحملا بريطانيا على القيام بالعمل الكلى الشامل فورا ، وقد نقلا الى ايدن قرار فرنسا باستخدام الفيتو ضد مشروع القرار الامريكى فى مجلس الأمن الذى كانت الحكومتان قد تلقتا تفاصيله ذلك الصباح ، وراحا يؤكدان لايدن أن خطوتهما لن تجدى فتيلا ، اذا كانت فرنسا وحدها ، هى التى ستلجأ الى استخدام الفيتو ، فلقد حملت الحكومتان صورة الحليفتين فى الشرق الأوسط أمام العالم كله ، وقد رصدت مئات الملايين من الفرنكات للحملة المشتركة ، ولا يمكن للرأى العام الفرنسى أن يسمح لبريطانيا بوقوفها موقفا متعارضا مع فرنسا فى الامم المتحدة •

وجدير بنا أن نذكر أن الرسالة التى حملها العقيد هنريكس فى منتصف شهر سبتمبر ، من الوزير البريطانى قد أوضحت لبن جوريون أن بريطانيا ستجد نفسها مضطرة لاستنكار الهجوم الاسرائيلى بشدة أمام العالم ، وكان هذا هو ما اعتزمه ايدن دائما ، حتى وعندما أصبح من الواضح عدم اجراء مناقشة فورية فى هذا الموضوع فى حالة تنفيذ الخطة الاصلية ، وكان ايدن يرى فى هذا الاستنكار العلنى ، بالاضافة الى مختلف الظروف الاخرى ، الوسيلة لدفع الشكوك عنه وعن زملائه ، فستكون هناك قوات اسرائيلية تحارب فى منطقة القناة أو على مقربة منها، وستقوم بريطانيا بتوجيه نقد علنى شديد الى العمل الاسرائيلى وسيقدم بعد ذلك انذار موجه الى الفريقين المتحاربين •

واذا ما جرؤ انسان على التساؤل عن الأسباب التى دعت بريطانيا وفرنسا الى المطالبة فى انذارهما بانسحاب القوات الاسرائيلية مسافة عشرة أميال فقط عن القناة ، لا بانسحابها الى ما وراء حدودها الاصلية

فسيكون رد ايدن : أن النقطة المهمة الآن هي ضمان ابتعاد الفريقين المتحاربين عن القناة حرصا على سلامتها وضمان وقف الحرب بينهما وان حكومته والحكومة الفرنسية قد طلبتا هذا الاجراء حرصا منهما على ضمان قبوله من الفريقين ، وسيعمل استنكار بريطانيا العلنى لهجوم اسرائيل على الابقاء على « سلطة » بريطانيا ونفوذها فى عراق نورى السعيد وفى العالم العربى على النحو الذى سيكون فيه بعد الاطاحة بعبد الناصر ، وفى وسع الدبلوماسية البريطانية فى المفاوضات التالية لعقد الصلح فى فلسطين أن تبعد مطالب الصهيونية عن مجالات النقد العلنى •

وقد ركزت كل التركيز على بحث هذه الناحية ، لأنى أراها كبيرة الأهمية فى الخطط التى وضعها ايدن ، ولأن من المهم أن نلاحظ هنا بأن الخطة الاصلية كانت فى منتهى الذكاء والدهاء ، فلم تكن على النحو الذى ظهرت فيه فيما بعد ، صبيانية وحمقاء ومضحكة ، ولم تكن حكمة ايدن الدبلوماسية قد تعرضت بعد عند وضع الخطة الأصلية للتعطل والتوقف وقد وافق المقربون من أعضاء وزارته على الخطة الأصلية ، بالرغم من أنهم لم يكونوا متحمسين للعمل من أساسه كحماسته هو ، لأنها ـ أى الخطة ـ بدت أمامهم سليمة من الناحية السياسية ، بعيدة عن كل شكوك عامة ، ومن المتعذر علينا أن نحلل قضية السويس ، الا اذا وضعنا نصب أعيننا أن حكومة ايدن لم تكن مؤلفة من رجال ذوى ادراك وتفكير صبيانيين •

ولكن ايدن ما لبث أن استسلم الآن ، أى فى الثلاثين من أكتوبر لهذه الحجج الفرنسية الطاغية الأولى ، وحملت أسلاك البرق الى السير بيرسون ديكسون أوامر حكومته باستعمال « الفيتو » ضد مشروع القرار الامريكى ، ولم يكن هذا الاستسلام الا الأول من حلقة كبيرة من الاذعان وعلائم الاستسلام • وكان الثانى تلبية لطلب فرنسا بأن تقوم الدولتان بالعمل فورا ، دون انتظار مهلة الايام القليلة التى كانت مقررة فى السابق ، فلقد أسرعت اسرائيل فى تخطى الحاجز ، وسبقت الخطة الاصلية ببضعة أيام ، وها هو ذا ايزنهاور يثور ويبادر الى العمل فورا ، وها هى ذى الأمم المتحدة تتداعى الى الاجتماع ، ولن تمضى بضع ساعات قبل أن تجتمع الأمم المتحدة ، وسيصبح من المتعذر فى غضون يوم أو يومين القيام بالعمل الوحيد وهو التدخل الانجليزى ـ الفرنسى للاطاحة بعبد الناصر ، ولذا بات لزاما الاسراع بالعملية كلها • ومن الواجب صدور الانذار فورا، وفى هذا اليوم ، ولا تستطيع فرنسا الاحتفاظ بكافة الأسرار السابقة ،

اذا انهارت المغامرة كلها وقال موليه لايدن : ان الجيش الفرنسي نفسه هو الذى سيتولى افشاء الاسرار ، وراح يسأله كيف يمكن له أن يبرر هو وبينو للجيش الفرنسي ولفرنسا كلها ، العدول عن الحملة كلها ووقف استعداداتها مع الابقاء على عبد الناصر فى الحكم ؟ ان مصير فرنسا كلها معلق بالقاهرة ٠

واستسلم ايدن ثانية ، وهو يدنو من الانهيار الكامل أمام هذه الحجج الملحفة من جانب موليه ، وتقرر اصدار الانذار المشترك فورا ٠٠ وأصر الفرنسيون على أن الخطة الأصلية ما زالت صالحة للعمل ٠ وراحوا يقولون لايدن : ان التقارير التى تلقوها من سيناء تشير الى أن زحف اسرائيل فيها أسرع مما كان متوقعا ٠ وأكدوا له أن قوات اسرائيل أصبحت على أبواب القناة، وهو ماراح يسر به الى أعضاء مجلس العموم فى جلسة اليوم نفسه ، وأن الوضع الذى كانوا يريدونه فى خطتهم الاصلية، سيتحقق فى غضون ساعات ٠ ولم تتوافر لايدن معلومات مباشرة عن معركة سيناء ٠ فلقد كان الفرنسيون هم الذين ظلوا طيلة الوقت على اتصال وثيق باسرائيل ٠ (١) وقبل ايدن الصورة التى رسمها له الفرنسيون ، واعتقد أن الانذار فى صيغته الاصلية التى وضع فيها ما زال صالحا للعمل ٠ ورأى أن فى وسع اسرائيل أن تحتفظ بسيناء، وأن فى وسعه أن يستخدم احتلالها لها وسيلة للضغط ، لتقرير مصير قناة السويس ولاقرار الصلح فى مشكلة فلسطين على النحو الذى كان هو ونورى السعيد قد اتفقا على وضعه والدعوة اليه ٠ أما الفرنسيون فكانوا بدورهم عازمين على أن تحتفظ اسرائيل بسيناء ، وأن يسترضوا بن جوريون الذى لا بد وأن يغضب لما يظنه من خديعة تعرض لها من جراء تدخل الدولتين الحليفتين قبل الموعد المقرر ٠

وحاول الفرنسيون أخيرا فى ذلك اليوم ، الثلاثين من أكتوبر ، اقناع ايدن بالتخلى ، عن فكرة العملية على مراحل دقيقة ، وأن يوافق على غزو مصر فورا عند انتهاء فترة الانذار، على أساس افتراض رفض مصر لشروطه ولكن ايدن ظل مترددا فى الاستجابة لهذا الاقتراح ٠ ولم يكن فى الامكان

---

(١) اعترف المستر هيد وزير دفاع بريطانيا بذلك في مجلس العموم في الواحد والثلاثين من آكتوبر عندما قال : « ليست لدينا معلومات مباشرة عن العمليات الحربية بين مصر واسرائيل » . ولا أرى بى حاجة الى القول ، بأن أيا من الوزراء ، لم يشر في أى لحظة في تلك الايام الى قيام طائرات الكامبيرا بأعمال التصوير الاستكشافي ، لاسباب لاتخفى على القارىء اللبيب . (المؤلف)

الوصول الى اتفاق فى هذا الصدد فى ذلك اليوم ، الذى صدر فيه الانذار المشترك • ولم يذعن السير أنطونى لرغبة حلفائه الفرنسيين والحاحهم المتواصل الا بعد مدة ، وبعد أن كان الضجيج قد علا فى كل من لندن والجانب الثانى من المحيط الأطلسى وبات النزول البرمائى ، عملا يقرب من الكارثة • وانهار ايدن انهيارا محزنا وكاملا أمام هذا الجهد المزعج الاخير وامتدت روح الثورة الآن الى معظم أعضاء وزارته وكان بين هؤلاء عدد من الوزراء الذين كانوا قد أيدوه تأييدا حماسيا فى الاشهر السابقة ، ولكنهم وقد رأوا الآن مكانة بريطانيا المالية على وشك الانهيار تحت هذا الضغط الهائل على الجنيه الاسترلينى ، أخذوا يهددون ايدن بالاستقالة الا اذا أذعن لقراراتهم الجديدة • وقد اغفلت العروض التصويرية المطبوعة الحديث حتى الآن ، عن الطريقة التى انتهت فيها قصة السويس داخل داونتج ستريت رقم ١٠ عندما قررت الحكومة البريطانية الاذعان أخيرا للأمم المتحدة •

ويعرض الاخوان برومبرجر هذه الفقرة التى لا تكاد تصدق فى كتابهما المشحون بالأخطاء ••

وقبيل صدور الأمر النهائى بوقف اطلاق النار ، اقترح الفرنسيون القيام بهجوم آخر لاحتلال القناة قبل انتهاء المهلة المقررة فى الأمر ••• وهتف رئيس وزراء بريطانيا قائلا : « آه اذن هذا ما تريدونه • ليتقدم أصدقاؤكم على طول القناة • وفى مثل هذه الحالة نستطيع أن نقصف كلا من الاسرائيليين والمصريين معا بقذائف مدافعنا » •

ولم أحاول فى هذا التحقيق أن أعنى بالقضايا التى تختلف عليها الاحزاب فى بريطانيا أو الشخصيات داخل حزب المحافظين ، كما أننى لا أود أن أخوض فى مثل هذه التفاصيل ، فى قصتى هذه • ولكن من المسموح به فى رأيى أن أدون هنا أن هذه الصورة التى رسمها الاخوان برومبرجر بالرغم من عدم اتفاقها فى أى شكل من الأشكال مع الصورة العامة التى رسمت لايدن قبل أزمة السويس الا أنها تتفق فعلاً مع صورته بعدها ، الممثلة فى شخص رئيس وزراء محطم صحيا يحاول أن يمسك حتى النهاية بأية وسيلة يعيد بها سياسة بلاده التقليدية تجاه اسرائيل ، الى سابق عهدها وهو عهد لم يكن هو راغبا شخصيا فى تحطيمه ، ولم يفكر فى يوم ما بأن اتفاقاته السرية ستحطمه • وقد حاولت الحكومة البريطانية بالفعل كل ما فى وسعها أن تعيد هذا العهد الى ما كان عليه ،

ولهذا لم تعترض بريطانيا على قرار الأمم المتحدة الذى يطلب سحب اسرائيل لقواتها سحبا كاملا • وان كانت فرنسا قد اعترضت عليه •

وهكذا تنتهى القصة • لقد كان هناك تواطؤ • ولكن أحسن وصف يمكن اطلاقه على هذا التواطؤ ، هو أنه انقلب فى اللحظات الحرجة الاخيرة الى تواطؤ مزدوج وفردى من جانب فرنسا ، وهى الشريكة الوحيدة التى لا تحمل أية تحفظات أو أية شكوك تجاه ظهورها بمظهر الاتصال مع اسرائيل والدولة التى تقع حكومتها المدنية تحت وطأة ضغط عنيف من جانب جيشها نفسه • ولم يكن ايدن وبن جوريون قد توقعا فى أى يوم مضى ، أن تتلاحم العمليتان العسكريتان بمثل هذا الوثوق ، ومثل هذه الادانة لكليهما • وكانت فرنسا هى العامل الأخير فى تحقيق هذا الالتحام• لكنها قصة لم يجرؤ ولايجرؤ حتى الآن ايدن ولا أى من وزرائه على روايتها• وقد تعمد ايدن عند كتابته مذكراته ، التقليل من الاشارة الى فرنسا ودورها فى أزمة السويس قدر الامكان • فليس ثمة من ذكر لمساعدة فرنسا الفعلية لاسرائيل فى معركة سيناء ، وليس ثمة أكثر من مجرد ايماءات عابرة عن طريق تعبيرات لفظية غامضة ، كقوله يصف المحادثات العميقة التى جرت بينه وبين الفرنسيين حول موضوع خطر الهجوم الاسرائيلى على مصر ، بأنهم « أحاطوا » علما بهذا الخطر • ويبدو أن الفرنسيين قد غضبوا غضبا شديدا بعد انتهاء العملية ، لما صدر عن الوزراء البريطانيين من تعليقات على دور فرنسا •

وأفضى موريس شومان بعد أن بدأت الضجة الهائلة فى موضوع التواطؤ ، بتصريح أشار فيه ، وهو العارف ببواطن الأمور ، اشارة زمنية غامضة اعتبرت آنذاك رامزة الى وقت أبكر من نهاية أكتوبر اذ قال :

« أيجوز لنا أن نعنف الحكومة الفرنسية لانها وافقت على تلاحم عسكرى قوى دون أن تصر فى الوقت نفسه على تلاحم سياسى مماثل ، يضمن عدم انسحاب أى من الدولتين من العملية دون موافقة الدولة الأخرى؟ ان الرد على هذا السؤال يكون بالايجاب ، هذا اذا لم تجد فرنسا نفسها مضطرة للتغلب على تردد بريطانيا والقيود التى فرضتها » •

وأرى الوقوف هنا ، فهذا الكتاب لا يتناول الديموقراطية البرلمانية البريطانية ، ولذا ، فهو ليس بالمكان الصالح للتعليق الشامل على المعانى

العميقة لهذه الحرب الثلاثية فى تاريخ تلك الديموقراطية وتركيبها ٠ ولا ريب فى أن ألوف القراء من ذوى النية البريئة السليمة قد قبلوا التاريخ الذى وضعه السير أنطونى ايدن عن حرب السويس سواء فى مذكراته التى أصدرها ككتاب أو فى مذكراته التى نشرها فى الصحف كأجزاء ٠ فقد سبق الاعلان عنها بدعاية ضخمة أضفت عليها صورة الصحة والصدق ، وأفلحت الطبول التى قرعت فى تحقيق غايتها ٠ وصدرت أقوال عن مراجع رسمية مسئولة تقول: « ان المذكرات قد سجلت الحقائق والوقائع التى حدثت فعلا (١) ! » وقد نسى الناس فى بريطانيا الآن الا قلة قليلة قضية « السويس » ورفض المسئولون كل ما قدم من طلبات لاجراء تحقيق رسمى ٠ وساعدت الانتخابات العامة التى أجريت فى عام ١٩٥٩ هؤلاء المسئولين فى رفضهم (لأنها أسفرت عن نجاح المسئولين عن السويس) ، وما زال أى فرد عاجزا حتى الآن عن عمل أى شىء لمواجهة هذا الرفض ٠ وضاعت أرواح بريطانية كثيرة ، وتحطمت حقبة كاملة من حقب الدبلوماسية البريطانية ، وبلغت تكاليف العملية أكثر من مائتين وخمسين مليونا من الجنيهات ٠ وانى لأرى من واجبى دول التحيز الى أى رأى من الآراء ، أن أقول بأن ما وقع سيظل مصدرا ضخما من مصادر القلق ، والافتقار الى راحة الضمير ، لا سيما وقد أذيع عما وقع ، بعض الاسرار، وأن ما أذيع لم يدفع الناس الى كشف الحقائق الكاملة، التى ترك أمر كشفها الى ضمائر المخلصين من خلصاء السير انطونى وزملائه ٠ ولا يمكن للانسان أن يبعد عن نفسه الشعور بأن النسيج الدائر والمستمر للحياة البرلمانية البريطانية يتضمن خيوطا من الاكاذيب ونواحى الوهن والضعف حيكت فيه حياكة غير محكمة وقد يختفى العيب عن عيون الناس شهرا بعد شهر أو عاما بعد عام ، ولكنه ما زال قائما ٠

وقد لا تشكل العيوب السابقة فى الجهاز الديموقراطى أى خطر مقبل الا على صعيد بقاء المواطنين جهلاء لا يعرفون عن وجودها ، ولا يتعظون بعبرها ، ولا بما يجب أن يتعلموه منها من دروس يتطلبها الوعى والحرص فى المستقبل ٠ وعلى هذا الصعيد وحده ، هذا اذا أغفلنا الآثار الدائمة التى تركتها حرب السويس خارج بريطانيا ، سيظل ما وقع عام ١٩٥٦ خطرا كامنا ، طالما أنه يحتاج الى الايضاح والشرح ٠

---

(١) صحيفة التايمز اللندنية ٠

ان ما حدث في مصر في غضون هذه الأيام المجنونة ، يحسر النقاب في حد ذاته ، عن الجهل الفاضح الذى سيطر على حكومة ايدن وعلى الذين يتولون تقدير المواقف لها ، بحقائق الأوضاع فى الشرق الاوسط • ولما كانت حقيقة ما دار من قتال فى سيناء ما زالت مجهولة الى حد كبير ، فسأتولى الحديث عنها فى الفصل التالى • لكن ما أود قوله هنا أنه لم يكن هناك « انتصار اسرائيلى ساحق » كما حاولت الدعايات تصويره ، بل كان هناك انسحاب كامل من سيناء ، تم بأمر صريح من القاهرة ، فور قيام طائرات السلاح الجوى البريطانى بقصف المطارات المصرية • ولم تشترك الدول العربية فى الحرب ، لأن الحكومة المصرية طلبت اليهم التريث حتى تحين الفرصة المواتية ، التى لم تحن قط •

وحلقت الطائرات البريطانية فى سماء مصر • وهدرت وزمجرت ، وألقت بالألوف من المنشورات تحض الشعب على الثورة ضد عبد الناصر، وتحذره من تصديق عبد الناصر ، ولكن الثورة التى توقعوها لم تقع ، وانما وقف الزعيم المصرى يوجه رسالة الى شعبه بصوته الرنان ، وهو يردد القول المأثور :

« سنقاتل فى كل معركة من قرية الى قرية ومن مكان الى مكان ، ليكن كل فرد منكم جنديا فى القوات المسلحة •• وليكن شعارنا أننا سنقاتل ولن نسلم ••• سنقاتل •• سنقاتل ولن نسلم» •

وأعلن الزعيم المصرى أنه سيظل مع حكومته فى القاهرة • ثم راح يسير فى شوارع العاصمة ، فى سيارة مكشوفة ليؤدى الصلاة فى أحد مساجد المدينة (الأزهر الشريف) • وأمر بتوزيع ألوف البنادق على المواطنين المدنيين الذين أغرقتهم المنشورات « الانجليزية ••• الفرنسية » والذين أمطرتهم الدعايات الاذاعية بوابل من منشوراتها ، طالبة اليهم الثورة عليه ، وصدرت الاوامر الى الجنود المنسحبين من سيناء ، بالعودة الى قراهم وأعدت العدة لحرب من أعنف حروب الفدائيين وأكثرها دماء ، ليخوض الشعب المصرى غمارها ضد الغزاة فى حالة استمرار الغزو ، ولم يكن ثمة هلع أو ذعر • وأثبتت فرق مكافحة الغارات الجوية من رجال الدفاع السلبى كفايتها وحسن تدريبها ، وهرع الشبان والشيوخ الذين يمثلون مختلف نواحى الحياة المصرية الى مراكز التطوع والتدريب فى الميادين العامة ليتسلموا بنادقهم ويتدربوا عليها • وعومل الأحد عشر ألفا من الرعايا البريطانيين فى مصر ، الذين أعرب ايدن فى مجلس العموم ، عن تخوفه من مصيرهم ، دون أن يكلف نفسه عناء الايعاز لسفارته فى القاهرة بتحذيرهم

قبل البدء بعدوانه ، معاملة تنطوى على الطيبة وضبط النفس ، وأغلقت مصر قناة السويس ، واحتفظ عبد الناصر بقوته الجوية فى مواقعها الأرضية ، قائلا لطياريها المتلهفين لخوض المعركة انهم أعز عليه ، وأثمن من أن يضحى بهم فى معركة جوية غير متكافئة وضد قوات هائلة تفوقهم عددا وكما .

وهكذا وجدنا ساسة الغرب ، مندفعين وراء نتيجة مغايرة لما وقع فعلا يتوخون الوصول اليها ، يضعون مصر للمرة الثانية، فى غضون أشهر قليلة ، أمام المحك والتجربة . تجربة للكرامة ، عند رجال ، كان ايدن وأضرابه عاجزين عن فهمهم ، ولم يكونوا يتوقعونها من مصريين أو عرب ، لأنهم من جبلة تختلف عن جبلة الذين عرفوهم فى الماضى من الباشوات والشيوخ . وكانت اللحظة غريبة كل الغرابة فى تاريخ العلاقات بين الغرب والعرب . ففى نوادى بريطانيا ومواخيرها ، كان البريطانيون الذين أفلح ايدن وسلوين لويد فى اثارتهم وتحريضهم يغرقون فى الحديث عن هؤلاء « المصريين » و « الدهماء » و « الأهالى » وغير ذلك من العبارات التى تنطوى على الزراية والامتهان التى ألفوا توجيهها عندما يقرعون « أجراس » فندق شبرد لاستدعاء الخدم . لكن هؤلاء « المصريين » و « الدهماء » و « الأهالى » كانوا يقفون منتصبى القامات رافعى الهامات يدافعون عن كرامتهم ووطنهم وقال لى أحد المصريين : « لقد حملت على عبد الناصر فى وقت مبكر من هذا العام . أما الآن . فانى نادم . لقد ثبت انه كان على حق . واننى لأحس بشعور غريب كل الغرابة ، ولاول مرة فى حياتى . اننى أحس بأن فى وسعى أن أرفع الآن رأسى أمام أى شخص من أمثال ايدن ومولیه ودالاس وحتى بولجانين ، بالرغم من مساعدته لنا » . وتوقف لحظة يبحث عن عبارة يود أن يوضح بها ما يريد قوله .. ثم قال : « وحتى الآن لم أكن فخورا بنفسى وشعبى ، ولكننى الآن فخور » .

ولم يكن هذا الاحساس خاصا بمصر أو ما جاورها ، بل كان شعورا ساد الشرق الاوسط برمته . ولم تكن « كسرة » سيناء بالشىء الذى يعلق الشعب عليه كبير أهمية ، ولكن ما همه أكثر من أى شىء آخر ، هو أن هذا الزعيم « وهذا الشعب » ، وقفا صامدين أمام هذه القنابل التى تقذفها طائرات دولتين كبيرتين ، مرفوعى الرأس موفورى الكرامة . ولم يكن فى وسع انسان أن يتوقع أن «تنتصر» مصر عسكريا على القوة المشتركة لدول ثلاث هى بريطانيا وفرنسا واسرائيل . ولكن هناك نصر من نوع آخر نصر طالما كان العرب فى حاجة اليه ، وطالما استهوى نفوسهم فى كل مكان

أكثر من انتصار السلاح ، وهو نصر الكرامة · ومن هنا يظهر المعنى العظيم للشعار الذى رفعه الشعب العربى بعد انتهاء معركة السويس والذى تغنى به وهو « انتصار بور سعيد » ، ولم يؤد الافتقار الظاهرى للوحدة العسكرية بين العرب انتصارا لمصر عند العرب الى نفس الاستنتاجات التى توصل اليها الغربيون بسرعة فائقة · وصدق العرب فى كل مكان ما قاله لهم الرئيس عبد الناصر ، من أنه هو الذى اعتذر عن قبول عروض المساعدة من بعض الدول العربية فى حين أن الشكوك كانت تغلى وتتقد فى صدور بعض العرب الآخرين ، عاكسة المسئولية فى ذلك على العهود القديمة وفى طليعتها عهد نورى السعيد فى العراق ، الذى كاد ينهار آن ذاك ·

ومع هذا الاحباط الكلى لآمال الرسميين الانجليز والفرنسيين فى حوادث مصر التى أثبتت عكس ما توقعوه ، عجز الغرب كل العجز عن هضم ما عناه « نصر » بور سعيد للعرب ، مما أشار الى الهوة الضخمة من سوء الفهم التى تقوم بين الغرب والعرب · وكنت أقف ذات يوم من أيام أواخر يناير عام ١٩٥٧ ، عند ناصية أحد الشوارع الرئيسية فى القاهرة ، وقد حملت نسخة من احدى صحف لندن كانت صادرة قبل أربعة أيام فقط وقد تضمنت نبأ قالت انها استقته من أحد المصادر العليمة ، يقول : « ان عبد الناصر يعيش فى خوف دائم من قيام ثورة شعبية عليه » وفى اللحظة نفسها التى كنت أحمل فيها الصحيفة التى نشرت هذا النبأ تحت عنوان بارز ، مر « الرجل الذى يعيش فى هذا الخوف الدائم » أمامى فى سيارته المكشوفة وسط جماهير غفيرة من الناس وقفت لتراه وتهتف له ، لا لتثور عليه · ولم يقتصر مروره على شارع واحد من شوارع المدينة أو جزء من شارع ، بل سار موكبه يذرع القاهرة طولا وعرضا ·

***

قد يكون من اللازم اللازب ، أن نوضح بدقة حقيقة ما حدث فى سيناء والسويس · لقد قامت حكومة بريطانية تمثل حزب المحافظين بعدوان متعمد وضعت له الخطط المحكمة ، متعمدة تعمدا كليا ومدروسا تضليل مواطنيها وبرلمانها ، ودول جامعة شعوبها ، وحلفائها فى حلف الاطلسى ، وأعضاء الأمم المتحدة · وقد وضعت خططها متظاهرة بأنها تهدف الى انقاذ الممر المائى العظيم ، مع علمها الثابت الأكيد ، بأن عدوانها سيغلق هذا الممر فى وجه الملاحة الدولية عدة أشهر ومستغلة معرفتها المسبقة الواضحة بالعدوان الذى تعتزم دولة آخرى القيام به وهى اسرائيل ، وزاعمة أن كل

ما تفعله انما يرمى الى رفع لواء القانون الدولى ، وسيادة الأخلاق ، وأنه يتفق .كل الاتفاق مع شرعة الأمم المتحدة ٠

ولما كانت كل هذه الادعاءات قد لامست حالة من الانفعال والتشنج عند الرأى العام البريطانى ، فان العقيدة التى مازالت سائدة عند الكثيرين هى أن كل ما وقع من خطأ فى معالجة قضية السويس انما نجم عن خطة غير محكمة الاعداد ليس الا ٠ ومن المعقول أن يكون هذا الشعور بتحميل مسئولية ما وقع لمجرد « عدم احكام الخطة » هو الذى أنقذ حزب المحافظين من الفشل فى الانتخابات ، بالاضافة الى هذا « الكابوس » من المرارة والعداء الذى يسيطر على هذا الرأى العام تجاه ذلك « الرجل » ، الذى تقررت الاطاحة به ، ولكنه صمد وظل قائما ٠

وأرى لزاما على أن أؤكد هنا بكل ما فى التأكيد من شدة ، أنه لم تكن هناك فرصة ، ولا للحظة واحدة ، فى تحقيق أهداف حكومة ايدن ٠ ولو افترضنا جدلا أن العدوان قد استمر ، وأن الانجليز قد استولوا على القاهرة ، وأسروا عبد الناصر أو قضوا عليه أو أبعدوه ، فان أهداف ايدن ما كانت لتتحقق أبدا ٠ اذ أنى على يقين من أنه حتى ولو صحت هذه الافتراضات ، فان روح المقاومة فى مصر كانت ستستمر ، وستقوم حرب يقوى عود فلول الشيوعيين والاخوان المسلمين ليس الا ٠

وأى نوع من الحكومات يا ترى كان فى الامكان ضمان قيامها لتخلف حكومة عبد الناصر ، ان ما عجز ايدن عن فهمه ، هو أنه لم يكن فى استطاعة أية قوة سياسية فى مصر فى عام ١٩٥٦ ، أن تقيم حكومة ثابتة مستقرة ، تعيش فى ظل قوى الاحتلال الأجنبى ٠ ولو وجد من يؤلف هذه الحكومة وأنا أشك فى وجوده ، فان حكومته ما كانت لتعمر طويلا ، اذ سيطاح بها حتما ٠ ولم يكن فى وسع أى من الزعماء السياسيين السابقين أن يشرع حتى فى فرض سيطرته على البلاد ٠ وكل ما كان يمكن وقوعه ، هو أن يقوى عود فلول الشيوعيين والاخوان المسلمين ليس الا ٠

ولو حدث هذا أيضا لتعرضت أرواح الرعايا البريطانيين والفرنسيين وممتلكاتهم للخطر ، اذ أن تلك الاصالة فى ضبط النفس وكبت العواطف من المصريين حكومة وشعبا ما كانت لتستمر مع وجود هذا العدوان الباغى وما يصاحبه من عنف ، الا اذا افترضنا أن المصريين من الملائكة ، لا سيما وأن وصول المحتلين الى القاهرة ، كان يعنى زوال حكومة عبد الناصر، التى ضمنت من شعبها هذا الانضباط الرائع ٠

ولو حدث هذا أيضا ، واستمر الغـزو ، فان النتيجة الحتمية ، هى أن يقوم الوطن العربى كله ، من المحيط الى الخليج قومة رجل واحد كمرجل يغـلى بالعنف ، ليحطم كل رمز من رموز السـيطرة والنفوذ البريطانيين والفرنسيين فى هذه المنطقة ، وكان هذا التحطيم سيتخذ صورة « اضرب واهرب » ، لا سيما وقد دلت الاحداث التى وقعت ، على أن السير انطونى ايدن وجى دى موليه قد اقتربا فعلا من مرحلة اشـعال النيران فى المنطقة كلها ، تاركين آثارا مرعبة لا يستطيع المرء تصويرها •

وكان ثمة تناقض غريب فى الطريقـة التى اتبعت فى وقف الهجوم فقد أسدلت ستارا كثيفا من الغموض على بعض الدروس والعبر الكثيرة الأهمية • والتى كان من الواجب تعلمها بسرعة وبصورة كاملة ، لضرورتها لأى اعادة نظر للسيـاسات الغربيـة فى الوطن العربى • وكان حريا بالمستر دالاس • وبقيادة حزب المحافظين وبعض زعماء حزب العمال ، أن يتعلموا هذه الدروس وأن يعوها تمـام الوعى • ولا يكفى أن ندين قضية « السويس » بالخطأ وأن نحـكم على خططها بأنهـا كانت « غير محـكمة » فلقد كان هنـاك خطأ أكبر بكثير من كل هذا ، يقبع خلف هذه المأسـاة ، ويمس بجريرته كل مصلحة ضخمة من المصالح التى يحتاج الغرب الى الحفاظ عليها فى الشرق الأوسط (١) • ولكن لما كانت كل هـذه الاخطاء العميقة قد ظلت أسرارا لم تكشف كارثة السويس عنها ، ولما كان « الـكابوس » الذى جثم على صدر ايدن ما زال حيا ، ويجثم على صدر الكثيرين فى الغرب فان الغرب قد خسر الكثير ولا يزال يخسر • وضاعت العلاقات الغربية • • • العربية فى متاهات من سوء الفهم التلقائى الوضع والخلق • وهذا الكابوس الجاثم حتى الآن ، كغيره من الكوابيس العميقة الضخمة ، لايرتفع بسهولة بعد أن يبدأ جثمه على صدور من يصابون به • وسـيظل الكثيرون من الغربيين طيلة السنوات القادمة ، يلفظون عبارة « عبد الناصر » بطريقة تنطوى على الانحراف والخطأ اللفظى ، مع بقاء ما فى هذه العبارة من معان بعيدة عن عوامل « الزمن » و « الواقع » • ولقد جعلت الاسباب العامة لهذا الكابوس جزءا لا يتجزأ من قصتى هذه كلها • لكن أية دراسة دقيقة

---

(١) تبدو في هذه الحملة وما يتبعها من عبارات ... طبيعة المؤلف في صـورتها الصحيحة . فهو غربى قبل كل شيء . واذا كان قد توخى الحقائق في كتابه هذا الى حد كبير ، فالدافع له على توخيها هو حرصه ، على الحفاظ على ما للغرب من مصـالح في الوطن العربى ، شريطة ان يقوم هذا الحفاظ على أسس التفهم المتبادل والمتكافيء . (المعرب)

لطبيعته ٠٠ ستساعد الغرب ، بالرغم مما فيها من مرارة ، على تجنب كوابيس مماثلة نحملها عن الآخرين ٠

***

تلعب شخصية « القائد » دورا أكثر أهمية فى قضايا السياسة الدولية ومشكلاتها من النحو الذى نود نحن أن نؤمن به فى دولنا الديمقراطية ونحن ندون هذه الملاحظة تبعا لما نبديه من اهتمام بالمذكرات التى وضعها « رجالنا العظام » عن أيام الحروب ، وفى أوضاع لانود أن تسود عندنا فى أيام السلم أو فى الايام التى تسبق الحروب ٠ ونحن نفترض أيضا أن الشخصيات الذاتية لرؤساء وزاراتنا أو رؤساء جمهورياتنا لا تستطيع أن تؤثر تأثيرا خطيرا على تمثيلهم لنا ولآمالنا ومخاوفنا وطرائق حياتنا ، وسياساتنا الخارجية التى نود من قادتنا أن يعرضوها ٠ ولكننا نسارع بالرغم من ذلك الى الافتراض بأن الشخصية الذاتية للقائد الوطنى الذى نتهمه « بالفردية » هى التى تقرر طريقة تعاملنا معه٠ ولقد وقع جيل الساسة الذين تولوا قيادة مصائرنا فى حقبة الخمسين فرائس لهذا الافتراض الخاطىء ٠ فلقد كانوا يشعرون ـ بالنسبة الى سياساتهم فى الشرق الأوسط ـ أنهم انما يعاملون « عبد الناصر » عاجزين « تبعا لذلك » عجزا مضاعفا عن تفهم الشعب الذى نبع منه « عبد الناصر » والمحيط الذى دفعه والتراث التاريخى الذى حركه ٠ ولعل هذه الهوة فى النظرة الى الشخصية قد سارت فى خط متواز مع الهوة فى تقرير السياسات التى توسعت مع مضى السنوات التى سبقت ظهور عبد الناصر ، وهى جديرة بملاحظتنا وتدويننا ٠

فعبد الناصر ، لم يكن قديسا من القديسين كما أنه لم يكن ولن يكون انسانا متعطشا للدماء كما حاولوا تصويره ٠ هذه حقيقة واقعة يجب أن نسجلها ٠ فلقد رفض عندما كان الزعيم المنتخب لحركة الضباط الاحرار ، القيام بانقلاب على العهد فى عام ١٩٥٢ ، تسفك فيه دماء فاروق ورجال عهده ، ولذا كانت الثورة التى تولى قيادها ثورة بيضاء ٠ ولقد ظل طيلة حكمه رجلا يكره الدم ، ويعارض سفكه ٠ وروى لى قصة رآها فى شبابه جعلته يكره كل أمر دموى ، وذلك عندما سألته ذات يوم عن السبب الذى يمنعه من قتل نورى السعيد ٠٠ فقال : « لقد كان فى مكنتنا دائما أن نقتل نورى ، ولكننى ضد الاغتيال ولا أوافق على هذا الطراز من العمل مطلقا ٠ ثم ما جدوى قتل رجل فرد ، اذا كان نظامه سيبقى ؟ » ٠

ولكن هذه « النزعة السلامية المتأصلة فى نفس عبد الناصر » ، على حد تعبير صحفى بريطانى موضوعى كتب عنه (١) لاتنعكس فيما يعرفه الغرب عنه ، على ضوء ما ينقل اليه من ترجمة مشوهة لأقواله • وهو يرى فى هذا الرجل الهادىء الحديث الذى تمتزج ابتساماته بصلابته ، والذى قابله المئات من ساسة الغرب ومبعوثيه وصحفييه فى سنوات الأزمات صورة واحدة ظاهرة تخفى الصورة الحقيقية ، وليس هذا الرأى فى الواقع الا التعبير عن الموقف العام الذى يقفه الغرب من كل زعيم قومى • يقف مصارعا له • أما الجانب الثانى من الصورة ، فيعكس ما يراه العرب فى شخص ايدن ، وهو رأى اذا تحرينا الموضوعية ، يتمثل فى شخصية الرجل الهادىء الذى تظهر فيه رقة أبناء المدينة ، والذى يقدم (فى اللحظة نفسها التى يتحدث فيها الى هذا الزعيم الوطنى — أى عبد الناصر — متقربا اليه) على محاولة طعنه فى ظهره بالدعوةلحلف بغداد ، وزعامة نورى السعيد • فيصدق فيه وصفهم لأمثاله بالرجل ذى الوجهين •

ولكن المفارقة بين طبيعة عبد الناصر السلامية الاصيلة وبين مسلكه الظاهرى ولهجته تقوم فى سياق تعابيره • فهو انسان هادىء كل الهدوء ، ولكنه يثور لكرامته أشد الثورة ، وقد تجلت ثورته هذه فى غضبه الذى بلغ الأوج عندما تعرض للضغط الغربى الخارجى الذى جعلته موضوع هذا الكتاب ، وللضغط الخارجى من الشرق كما حدث فى مستهل عام ١٩٥٩ ، فهو رجل يقف وسطا بين عالمين مصطرعين • نشأ فى الريف المصرى ، فاحتفظ بذلك الوعى المتقد الذى ألهبت به مصر كلها من جراء ماتميز به الماضى من استغلال واذلال • وهذا الاتصال بجماهير الشعب من الفلاحين كان أكثر اصالة وأقوى غريزة عنده ، من اتصال نهرو مثلا ، الذى ولد فى طبقة ارستقراطية ثرية، وقام اتصاله بجماهير القرويين فى بلده نتيجة الفكر والادراك ، والاتقاد العاطفى الذى نشأ أول ما نشأ تحت تأثير غاندى • أما عبد الناصر ، الذى نما من وسط شعبه وفلاحيه ، ورفع التعليم من شأنه ، فقد ظل على وعى بأن انفصامه عن شعبه وماضيه • — وان كان ممكنا — لايستطيع أن يبعده عن قرارة عواطفه التى هى عواطف أولئك الفلاحين عينها ، الذين لم يكونوا يجدون الطاقة على التعبير عنها ، وان ظلت أملا يتعلقون به• وظل عبد الناصر مفتقدا لذلك الحد من الانفصام عن العواطف التى تأصلت فى نفسه ، والذى نؤثر نحن فى الغرب تسميته

---

(١) يعنى توم لتيل مؤلف كتاب « مصر — طباعة لندن » سنة ١٩٥٧ •

« بالفراهة السياسية » • فلم يكن من أبناء تلك « الطبقة الوسطى » التى يستطيع أفرادها ، أن يقفوا بهدوء فى نوافذ وزارات الخارجية فى مدنهم، وهم يرون عروض السد العالى تسحب بمثل تلك الصلافة ، وانما كان فردا متحررا من أبناء تلك الطبقة البائسة من « الفلاحين » الذين يشعرون شعورا عميقا ، بأن ليس من واجب مصر أن تتعرض لمثل هذا النوع من الضغط الأجنبى ويجب ألا تتعرض له •

ولكن هذا الرجل الذى ارتفع الى المسئوليات الثورية والدبلوماسية كان من عالم يختلف نفسانيا كل الاختلاف عن ذلك العالم الذى ينتمى اليه أمثال ايدن ولويد وماكميلان وحتى دالاس ، وهم الذين ظلوا طيلة الوقت يعتقدون بأنهم يتعاملون معه وحده • ولعل هذا السبب هو الذى جعل من بعد النظر الذى تميز به بشكل خاص ، مبعوثان من ممثلى الغرب فى القاهرة ، أمرلايقدر بثمن للغرب الذى أضاعهما فى الفترة المبكرة فى الصراع • فلقد كان هذان المبعوثان هما الوحيدان اللذان يستطيعان أن ينفذا الى قلب هذا الضابط الشاب القادم من قرية « بنى مر » وأن يفهما مزاجه النابض بالحيوية والاندفاع • وأول هذين المبعوثين هو هنرى بايرود سفير الولايات المتحدة • الذى أدت به صراحته فى الحديث عندما كان يقضى أجازته فى بلاده ، الى تعرضه لحملات دالاس والكونجرس والصهيونيين الامريكيين الذين اتهموه بمحاولة « استرضاء » عبد الناصر ، وسلبوا منه منذ مطلع عام ١٩٥٦ كل نفوذ وتأثير • وأما المبعوث الثانى • فهو السفير الكندى اللامع نورمان الذى قضى وقتا قصيرا بعد أفول نجم بايرود ، والذى بات فريسة بائسة لاضطهاد المكارثية الظالمة التى هاجمته بعنف متهمة اياه بالانحرافات الشيوعية ، مما ضاق به ذرعا فآثر الانتحار فى القاهرة فى ابريل عام ١٩٥٧ • وكان فى وسع الدكتور محمود فوزى وزير خارجية مصر ، الدبلوماسى المصرى المحترف والناشىء على الأساليب الغربية فى الدبلوماسية ، أن يبذل كل مافى وسعه لسد الثغرة القائمة بين خريجى كلية « ايتون » من الساسة البريطانيين ودالاس المتعلق بمثل طائفة «المتطهرين» «البيوريتان» وأخلاقهم من ناحية وبين هؤلاء الشبان الخارجين من حصار « الفالوجة » من الناحية الاخرى ولكن عندما انهار الموقف ، أصبح من الأسهل على رجال من أمثال سلوين لويد أن يتحدثوا الى القمر ويتفاهموا معه من أن يتحدثوا الى عبد الناصر ويتفاهموا معه ، وكانت القفزة ويا للأسف مفاجئة من عصر الى عصر • فلقد اختفت عبارة « الأهالى » من قاموس مصر ، واختفى معها استدعاء «الخادم»

فى فندق شبرد بمجرد لمسة سحرية من الجرس ، وأصبحت رسالة جورج واشنطن الوداعية للمستعمرين الانكليز ، النور المهيمن على القارتين الافريقية والآسيوية • لكن كل هذه المعانى التى عمت الآفاق كلها لم تصل الى مسامع القابعين فى « داوننج ستريت » فى لندن وشارع بنسلفانيا فى واشنطن (يعنى المسئولين الانجليز والامريكان) ، ولم يكونوا قد أدركوها بالنسبة الى الوطن العربى (*)

ولم يكن العنف الذى بدا فيه عبد الناصر فى بعض مواقفه العامة ناجما عن سورة عارضة من سورات الغضب ، أو من ضعف سيطرته على القائمين بأمر دعايته من المتحمسين • وانما كان ناجما عن شيء أصيل فى قرارة نفسه حمله معه من قرية « بنى مر » ، فلقد كان يعرف مايتميز به الفلاحون من قصور ذاتى وطاقة على الاستمرار فى الحركة • وكان يعرف أن الوطن العربى لم يكن من القوة فى أى عنصر من عناصره ، بحيث يضمن بصورة آلية فرض احترامه على ساسة الغرب واسرائيل • ولو لم يتلق عبد الناصر تينك الصدمتين المترابطتين زمنيا من حلف بغداد وغارة غزة لظل اتجاهه الاساسى قائما على التركيز على بعث متدرج للنهضة فى بلاده وضمان قوتها عن طريق الاصلاح الداخلى والزيادة فى الانتاج • ولقد رأيناه فى منتصف عام ١٩٥٤ ، يصدر النداء تلو النداء الى شعبه معلنا أن الصراخ مهما علا لا يجدى فى ميدان القوى •• وأن تغيير الماضى لا يمكن أن يتم بجرة قلم واحدة • ولكن عبد الناصر ، رأى فى حلف بغداد وغارة غزه ، كما رأى غيره من القوميين العرب ، نذرا عاجلة ، بأن ايدن لم يكن يعنى ما يقول ، عندما أعرب عن أمله فى قيام « عهد جديد » بين البلدين أثر اتفاق الجلاء •

وهكذا••فحماية البيت الذى نبنيه «على حد تعبير الرئيس عبد الناصر» تتطلب استثارة المصدر الوحيد للقوة العربية وبعثه الى الحياة ، وهو الكرامة وهو مصدر ظل كامنا لا يجد من يبعثه ، وينفخ به فى روح الجماهير وارادتهم ، داعيا الى الوعى الجديد بين الفلاحين • ولقد قال لى الرئيس عبد الناصر ذات يوم •• « لا أدرى ان كنت قد حققت شيئا ، ولكننى آمل أن أنجح فى أن أعيد لأبناء شعبى احساسهم بكرامتهم » •

لكن هذه المواقف التى كان عبد الناصر يقفها ، وهذه الروح التى ينفخها فى شعبه ، كانت تبدو فى عيون المسئولين الغربيين شيئا مناقضا كل التناقض للكرامة ، وهنا يظهر من جديد هذا التناقض فى النظرة والتـ.. بين الفريقين وكما أن أى واحد من النواب البريطانيين الذين أطلق عليهم

اسم « ثائرى السويس » لمعارضتهم حكومتهم فى الجلاء عن مصر ، لم يكن ليتأثر مطلقا من رؤية عبد الناصر ، يقف ودموع الفرح تنساب من عينيه على وجنتيه ، يرفع العلم المصرى على بور سعيد فى يونيو عام ١٩٥٦ ، بعد أن تحررت مصر نهائيا من جنود الاحتلال ، فان أى غربى كان يرى فى تحدى زعيم مصر للدول العظمى ، أمرا زريا ، أجوف . فمن القواعد التقليدية العميقة الجذور فى « الفراهة السياسية » عند الغربيين ، ألا تتبع أية حكومة سياسات لا تملك « السلطان » لفرضها ، وهم يعنون بالسلطان القوة العسكرية والانتاج الاقتصادى والمكانة الدولية المعترف بها . وكان الغربيون يعتقدون أن عبد الناصر لا يملك أيا من هذه العناصر الثلاثة للسلطان لدعمه . وكل مايملكه فى رأيهم هو حماسة الجماهير والدهماء .

وبينما كان هذا الافتقار لعناصر السلطان التقليدى . يبدو للغرب شيئا زريا ، كان عبد الناصر ، يرى فيه دعوة صريحة الى استخدام وسائل أخرى للتعويض عنه . وسيطرت عليه بعد حلف بغداد وغارة غزه مشاعر من الخوف من دوام السيطرة الأجنبية فى وطنه ، ألا اذا استفاقت الحركة العربية القومية ، ووحدت شعبا يغرق ثمانية أعشاره فى حالة من اليأس والقنوط ، وينشغل العشران الباقيان فى مناقشات جدلية سفسطائية ومطامع شخصية انتهازية . ورأى ان عامل الزمن ليس فى صالحه ، فهو لا يستطيع الاعتماد على اليقظة البطيئة المتدرجة عن طريق الاصلاح الداخلى فى ميدان الاقتصاد والاجتماع ، ولذا فقد قال : « لقد حاولنا جهدنا أن تتجنب معركة صريحة ، فقدكنا ندرك حاجتنا الى الوقت لكى نبنى بلادنا ولكن الاستعمار كان يرى غير ما كنا نراه » .

وكان هذا الوضع فريدا من نوعه فى سلسلة التجارب التى مر بها الغرب مع الحركات القومية فى آسيا بعد الحرب العالمية الثانية . ويرجع السبب فى هذا التفرد الى عاملين ، أولهما : ان الغرب لم يفرض مثل مافرضه من ضغط هنا على أى جزء آخر من المنطقة الافريقية — الآسيوية ولم يقاوم التطور فيه كما قاومه هنا ، وثانيهما : أن أية حركة قومية أخرى ، لم تجد نفسها معرضة ، كتعرض الحركة العربية ؛ لمثل هذا العدوان الفعلى ، أو حتى مكشوفة له . وكان عبد الناصر بعقلية المتخرج فى كلية أركان الحرب ، والمدرب عسكريا أحسن تدريب ، لايرى فى وطنه جزيرة ، أو شبه قارة متماسكة الاطراف ، ذاتية الاكتفاء واضحة الحدود الطبيعية . وكثيرا ما قال فى وصفها انها منطقة مكشوفة

وهو يعنى بذلك أنها منطقة فسيحة الأرجاء ممتدة على أنحاء واسعة من الجيوب التى تفصلهـا الصـحارى يسـكنها شعب عـربى واحـد ، يتيح موقعها هذا للدول الغربية الكبرى فرصا مختلفة لا حد لها للعودة اليها اذا ماخرجت من الباب « من النوافذ الخلفية » ومن هنا تنشـأ ضرورة الحملات لليقظة والاستعداد لمقاومة أية مؤامرات جديدة ٠

ولم يكن عبد الناصر ، ذلك الرجل الماكر الذى رآه الغرب فيه ، فهو اذا ما استثنينا أهدافه ومثله العليا ، وما يضعه بمعونة مستشاريه من خطط التنمية الاقتصادية والتطوير الاجتماعى لبلاده ، لا يضع نصب عينه مشروعات طويلة المدى من النوع الذى يتصوره الغرب فيه ٠ وقد صرفته الاحداث التى وقعت بين عامى ١٩٥٥ و ١٩٥٩ الى محاولة تلطيفها أو الرد عليهـا ، فى سلسلة متلاحقة الحلقات من الاعمـال ٠ ولقـد قال لى ذات مرة ٠٠٠ « ان منطقتنا غنية بالمفاجآت ٠ ولن تتركنا الدول الكبرى وشأننا أبدا ، وهى لن تنسحب من منطقتنا نهائيا كما انسحبت بريطانيا من الهند ٠ فكيف نستطيع أن نخطط لأنفسنا ؟ أن كل مانستطيع أن نفعله هو أن نرد على ما نواجهه » ٠ ولقد أيد سجل الاحداث ما قال منذ حلف بغداد وغارة غزة حتى اليوم ٠ فهو يخوض معركة دفاعيـة ـ هجومية متصلة الحلقـات منذ ذلك الحين ترتكز على حـركة غربية كبيرة أو اسرائيلية ، لا تلبث أن تهدأ ، ويشرع العرب فى التعلق بأهداب الامل فى أن « يتركوا هذه المرة وشأنهم » راكنين الى فترة من الاستجمام والراحة فى المعركة ليبدأوا «تطعيم الشعب ضد الخطر وتهيئته للغد» (١) حتى ينطلق انفجار غاضب آخـر ، ضد حادث جديد ، وترتفع الصيحات عن وجود « مؤامرة » جديدة ، وعن شن حملة دعائية عنيفـة أخرى ٠ ولا تشـير كل هـذه الاحداث المتـلاحقة الى تخطيط سابق من جانب عبد الناصر ، وانما تشـير الى النقيض من ذلك ، وهو الرد على ما يحاك ضد بلاده ٠

وكان أمل عبد الناصر فى البداية ، أن يكون ايدن قد عنى حقيقة ما قاله وهو قيام « عهد جديد » بين مصر وبريطانيا ، منطو على سلامة النية والاخلاص ٠ أما فيما بعد ، فقد استند فى الآمال التى كانت تعاوده

---

(١) من مقال لسيادة الرئيس عبد الناصر في مجلة «لايف» بتاريخ : السابع عشر من اغسطس عام ١٩٥٩ ٠ وكان يشير الى حملته الاخيرة ضد الشيوعية رابطا بينها وبين حملاته ضد حلف بغداد ومشروع أيزنهاور ٠ (المؤلف)

بين الفينة والفينة ، الى تقديره المبنى على أساس التجارب ، لما اعتبره مصالح غربية ، لا يستطيع أى سياسى غربى ، أن يفكر فى تعريضها للخطر • وعلى هذا الاساس وصف الانذار الانكليزى ــ الفرنسى المشترك والهجوم الذى تلاه بقوله :

« لقد أثبت ايدن أنى كنت على خطأ •••• فقد أقمت تقديرى للموقف على أساس وجهة نظره هو •••• وكنت أناقش أنهم من وجهة نظرهم هم ، سيفقدون الكثير بل أكثر من الكثير » (١) •

ولا ريب فى أن هذه العبارة التى انطلق بها لسان عبد الناصر قد تضمنت من السخرية أكثر مما كان يتصور • ولكن المسئولية فى ذلك لا تقع على عاتق ايدن وزملائه وحدهم • فقد نمت فى الغرب قبل عدوان السويس وابانه وبعده حملة من سوء الاعلام التى شملت تقريبا كل وجه من وجوه الاتصال بين الشعوب ، وبانت وقائعها فى جميع الصحف والمجلات من الاكاديمية العلمية الى صحف التوزيع الجماهيرى الواسع • وقد تأثرت بهذه الحملة تأثرا مؤسفا كل الاسف مقاييس الدقة وتحرى المصادر وانتقاء العبارات التى نعتز بها فى الغرب أشد الاعتزاز ويبدو هذا واضحا عندما نعرض أوضاع صحافتنا ووسائل نشرنا • فلقد ظهرت فى انجلترا مثلا ابان أزمة السويس ، نشرة رخيصة تافهة تؤكد أن مصر تحكمها زمرة من مقلدى الفاشية الموسولينية (٢) • وعلى الرغم من أن هذه النشرة كانت بقلم شخص كان يعتبر فيما مضىحجة فى شئون الشرق العربى ، الا انها تضمنت أخطاء واقعية مذهلة للغاية ، كقولها أن عبد الناصر لم ينضم الى جماعة الضباط الاحرار الا بين عامى ١٩٤٩ و ١٩٥١ ، فى حين تثبت الوقائع أن عبد الناصر هو مؤسس الجماعة فى مطلع حقبة الاربعين ، وحاولت النشرة أن تثبت أن القاهرة كانت تثير فى دعايتها المسلمين ضد المسيحيين واستشهدت على قولها هذا بأقوال زعمت أنها اقتبستها من اذاعات القاهرة فى تواريخ اختلقتها • وكانت الصورة التى رسمتها النشرة من النوع المرعب الى الحد الذى يرغم الانسان على تحرى صحتها • وكان بين الخطباء المزعومين الذين اتهمتهم النشرة بالحملة على المسيحية الاستاذ عباس محمود العقاد ، الذى تبين أنه مؤلف سفر جليل عن حياة السيد المسيح ، أصدرته احدى دور

---

(١) حديث صحفى مع ديزموند ستيوارت مؤلف كتاب « مصر الحديثة » ١٩٥٨ •

(٢) وولتر لاكير فى كتابه « مصر عبد الناصر » نيكولسون ١٩٥٦ •

النشر المشهورة • وزعمت النشرة أيضا أن خطيبا آخر هو سليمان حزين قد ذكر من اذاعة القاهرة أن « المسيحية عنصر غريب حتى على أوربا » ، وقد تبين بعد قراءة نص الحديث الاذاعي ان ما قاله الدكتور حزين هو « ان المسيح كان ولا ريب رسول السلام والحب والتسامح »•

وزعمت النشرة فى أماكن أخرى من مزاعمها الكثيرة ، وهى نشرة واحدة من مجموعة نشرات مماثلة ، ان اذاعة القاهرة بدأت فى عام ١٩٥٥ حملة « تمجيد لكل ما هو سوفياتى » • وادعت أن هذه الاذاعة قد أذاعت فى الحادى عشر من أكتوبر عام ١٩٥٥ ، ان « الديموقراطية الامريكية تتيح المجال للرأسمالية للتحكم فى البلاد ••• وان الاتحاد السوفياتى هو البلاد التى تتمثل فيها الديموقراطية الصحيحة »• وعندما قمت مرة ثانية بتحرى حقيقة ما أذاعته القاهرة فى ذلك اليوم تبين أنها اذاعت ما يلى :

« ليس ثمة ما يدعو الولايات المتحدة الى التخوف من احتمال انتشار الشيوعية بين العرب عن طريق استخدام الاسلحة السوفياتية والقروض الروسية ، وذلك لان للعرب مبادىء ونظما وعقائد ، لا يمكن لهم أن يتخلوا عنها » •

وكانت هناك مصادر عدة لهذا التأييد المتعمد لهذه الافكار المسيطرة على الشرق الأوسط ذاته • وبذل المسئولون الاسرائيليون وأنصار الصهيونية والحانون عليها فى جميع أنحاء العالم ، كل مالديهم من جهود، لبعث الفزع والهاب مشاعر الغرب ضد الزعيم المصرى الذى يمثل البعث العربى الجديد والوحدة العربية ، وهما أمران تشعر اسرائيل ، بحتمية التخوف منهما على حد اعتراف بن جوريون نفسه • وتمكنت صحيفة «النيويورك تايمز» من أن تنشر فى أواخر شهر أغسطس ، رسالة أنباء صحفية تلقتها من تل أبيب ، كأخبار واقعية لا مجرد تعليق ، تقول « ان اسرائيل لم تعد تقف وحيدة ضد عبد الناصر وأحلامه التوسعية فى اقامة الامبراطورية » • ولا ريب فى أن هذا القول ، كان بمثابة دليل قوى كل القوة .

ونجد من الناحية الاخرى ، أن حكام العرب من رجال العهد القديم ، كانوا يؤكدون النظرية القائلة بأن عبد الناصر « شيوعى مقنع » وأنه على حد تعبير نورى السعيد « يود أن يتألق كزعيم للعرب كلهم

وهذا هو خطوه » (١) ، وكان الصحفيون الغربيون ـ وقد ألفوا هؤلاء الحكام ، ونعتوهم بأنهم من مؤيدى الغرب لانهم وقعوا أحلافهم معه ـ يميلون الى تقبل ما يصدر عنهم من بيانات وتصريحات على اعتبار انها حقائق واقعة لا تقبل الشك أو النقض • وبات الاجراء الطبيعى عند هؤلاء الصحفيين أن يصدقوا كل اتهام يوجه الى مصر فى أى موضوع يتعلق بمؤامرة لاغتيال أحد الناس ، على أنه حقيقة ثابتة ، وأن ينشروا هذا الاتهام تحت عناوين بارزة ، كما ينشرون نبأ طرد الدبلوماسى المصرى الذى يوجه اليه رجال العهد القديم هذا الاتهام ، ثم يمتنعون بعد ذلك عن نشر أية أنباء لاحقة قد تتعلق بالموضوع ولا سيما اذا كانت تحمل طابع النفى للتهمة أو دحضها • أما اذا أعلنت القاهرة نبأ مؤامرة تحاك ضد مصر ، « الجمهورية العربية المتحدة فيما بعد » فان هؤلاء الصحفيين المغرضين يصفون هذه التهمة بأنها « أكذوبة كبيرة » • وليس ثمة من ينكر أنه كانت هناك حلقات متصلة من التآمر والتجسس • يقوم بها رجال العهد البائد ضد مصر وسورية والقوميين العرب • وليس ثمة من ينكر أيضا أنه كان هناك تفاهم وتعاون بين الدبلوماسيين المصريين وبين القوميين العرب الذين يلقون الاضطهاد من حكوماتهم ، وكان هذا يتم دون علم أحيانا من الرئيس عبد الناصر • وهكذا نشأت فى الغرب حالة تشبه حالة « العسكر والحرامية » فلا خطأ فى رأيه يمكن أن ينجم عن عهد مناوىء لعبد الناصر وموال للغرب ، ولا اتهامات كاذبة يمكن أن تصدر عنه • وكانت الاتهامات التى يوجهها مثل هذا العهد ، تقبل على علاتها ، وجملة وتفصيلا ، أما الاتهامات التى توجه الى هذا العهد نفسه فلا تلقى تشجيعا ولا تنشر فى الغرب مطلقا ، الا اذا كان القصد من النشر تكذيب القاهرة أو دمشق(٢) •

---

(١) حديث نورى السعيد الى صحيفة « الديلى تلجراف » اللندنية . عدد ٣٠ مارس ١٩٥٦ .

(٢) من أمثلة هذه المواقف التى وقفتها الصحف الغربية الاتهامات التى ادعاها الملك حسين عن مؤامرة « ابريل » المزعومة في عام ١٩٥٧ ، والتى سأتولى شرحها في مكان لاحق . ومنها أيضا مزاعم المسيو سوستيل المرتكزة على «اساءة الترجمة » من اللغة العربية ، والتى ادعى فيها ان عبد الناصر يسيطر سيطرة مباشرة على الثورة الجزائرية ويوجهها .

أما المثل الثالث فهو ما زعمه الملك حسين في عام ١٩٥٨ من محاولة الطائرات السورية النفاثة الاعتداء على طائرته . وقد اتهم الجمهورية العربية المتحدة ، بأنها أعدت مؤامرة لاغتياله ، واحتل اتهامه الصفحات الاولى من الصحف الغربية التى نشرته تحت

وكانت هناك أيضا عملية غير عادية من الاطراء المستمر في الصحافة الغربية لعهد نوري السعيد • ولقد قيل مثلا لقراء صحيفة التايمز اللندنية قبيل حرب سيناء والسويس « ان العراق يؤثر الازدهار الاقتصادي على الفكرة القومية » • ومع ذلك فقد كان نوري السعيد وايدن يعدان العدة فعلا في تلك الآونة لاستيلاء العراق على الاردن وضمه اليه • وأخذت الصحف الغربية بعد انتهاء حرب السويس تبرز القصص الموحى بها من العراق ، بأن سورية توشك أن تصبح دولة شيوعية تابعة • ومع ذلك ، كان نوري السعيد في الوقت نفسه ينشط في اعداد العدة لانقلاب مسلح في دمشق ، ويبعث بالاسلحة اللازمة الى سورية لضمان نجاحه • وعندما أحبطت الحكومة السورية هذا الانقلاب، وقدمت المتآمرين الى المحاكمة ، راحت بغداد تكيل التهم بأن المحاكمة ليست الا صورة من « المحاكمات السوفياتية الصورية » ، وهي قصة راحت الكثيرات من صحف الغرب تنشرها بدقة وأمانة • وبينما كان المستر ماكميلان ونوري السعيد يتهمان الجمهورية العربية المتحدة علنا في يونيو عام ١٩٥٨ ، » بالعدوان غير المباشر « ، كانا يبحثان في الوقت نفسه موضوع غزو يقوم به العراق لسورية ، وهكذا طيلة هذه الفترة من السنوات الطويلة كانت صحافة الغرب تمجد « حسنات القيادة الثابتة المستقرة » في العراق ، بينما كانت تصم أذنيها عن سماع مايقوله أولئك الذين كانوا يعرفون خير معرفة أن نوري السعيد انما يجلس على فوهة بركان من الاقطاع سينفجر حتما مفجرا معه كل ما للغرب من مصالح ومطيرا هذه المصالح وعهد نوري السعيد معها في السماء •

وتظهر أية دراسة تشخيصية دقيقة لصحافة الغرب في هذه السنوات وحتى عند وضع هذا الكتاب ، صورة أخرى من هذه العملية المشحونة بالضرر والأذى • فكثيرا ما تكون الصورة والتعليقات التي يرسمها محررو بعض الصحف البارزة والمجلات الاسبوعية ومراسلوها الدبلوماسيون مختلفة كل الاختلاف عن البرقيات التي يبعث بها مراسلو هذه الصحف والمجلات في الشرق الاوسط الى الدرجة التي يصعب في حينها على القارىء أن يصدق بأن تلك التعليقات وهذه الرسائل تظهر في

عناوين بارزة • أما ما أبرق به بعض المراسلين الغربيين الكثيري النشاط من حقائق تفند هذا الاتهام وتظهر بطلانه ، وبينها نفي وكالة الامم المتحدة لما ادعاه حسين من انه طلب الاذن بالطيران فوق أراضي الاقليم السوري عن طريقها ، فلم يلق اية عناية من هذه الصحف •
(المؤلف)

صحيفة واحدة • والسبب فى هذا التباين واضح كل الوضوح ، وبسيط كل البساطة ، فمكاتب التحرير فى الصحف واقعة تحت تأثير اعلامى معين ، رسمى أو غير رسمى ، ولهذا فهى لا تأخذ بعين الاعتبار ما يرد اليهـا من مراسليها فى المنطقة من أنباء وصور تختلف عن الصـورة المرسومة لها فى الوطن ، وتعتبرها « غير صالحة » ، وتـكون النتيجـة الثانية لهـذا الوضع ، أن يتعرض المراسلون فى الشرق الاوسط لضغط مستمر من ادارات صحفهم ، لاخفاء « لون معين » على ما يبعثون به من برقيات • وكثيرا ما صبغت الحقائق الاساسـية فى عبارات تحمـل معانى الشك والزراية ، تلبية لرغبـات المكاتب الرئيسـية فى الوطن ، وارضاء لأذواق جماهير القراء فى الغرب الذين يحملون صـورا مشوهة عن العرب ولا سيما عن المصريين • ولو قمنا بعملية مقارنة دقيقة بين البرقيات الصحفية التى صـدرت عن الشرق الاوسط بين عامى ١٩٥٥ و ١٩٥٨ ، وتلك التى صدرت عن جنوب شرق آسيا مثلا ، لتبينت لنا حقيقة واقعة ، وهى أن برقيات الشرق الاوسط لم تكن تسير فى طريق صحيح وسليم •

وكان ثمة عامل مهم آخر ، وهو الطريقة التى تتبعها اذاعات الغرب وصحافته فى التعبير • فكثيرا ماكنا نسمع بعبارات من أمثال « موال للغرب » أو « معاد له » و « موال لعبد الناصر » أو « معاد له » ، ولم تكن هذه التعبيرات الا ناجمة « عن رغبة هيئات التحرير » فى الصحف فى الاختصار بالتعبير لأداء المعانى من ناحية ، وعن ظهور نوع من « المكارثية » السياسية التى تحث على استخدام طريقة للتفريق بوضوح للقراء بين العهود الموالية للغرب فى الشرق الاوسط ، وتلك التى تقف مناوئة له • وكثيرا ما تكون هـذه التعبيرات خاليـة من أى نوع من أنواع التحليـل لأسباب الموالاة أو العداء ، مما يجعلها تترك أثرا سيئا كل السوء فى توجيه الرأى العام •

ولم تكن عبارة « موال للغرب » تعنى فى عين الحقيقة المجردة أكثر من وجود انسان من طراز نورى السعيد ، على استعداد للاشتراك فى تنفيذ سياسات معينة يروجها الساسة الراهنون ترويجا آليـا فى بعض الدول الغربية ، أى انهم يتلونون ويختلفون مع تلون تلك السياسات واختلافها ، أما عبارة « معـاد للغرب » فلا تعنى الا أولئـك العرب الذين يعـارضون منفذى تلك السياسات من أمثال نورى السعيد كما يعارضون السياسات نفسها • ويصدق هذا التفسير أيضا على عبارة «معاد لبريطانيا» ، ومع ذلك

فقد أدى تكرار هذه التعابير الى تثبيت أكثر الصور التعميمية خطورة فى عقول الغربيين العاديين ، وهى صور « العرب الطيبين » أو « العرب الاخيار » وهم الذين يعتبرون الى جانبنا ، وصورة « العرب الاشرار » الذين يريدون « دمارنا » • وأدت هذه العناوين البارزة التى تظهر فى صحف الغرب عن « الفتن التى يثيرها العرب المناوئون للغرب » الى احياء ذكريات الحروب الصليبية وأغانى رولاند وصليل السيوف ، فى أذهان الغربيين بصورة جماعية ، وكان عبد الناصر ، قبل أى انسان آخر المحور الذى تتركز عليه كل هذه الرؤى والصور •

ولو هبطنا من مستوى الصحف الكبيرة ، الى المستويات الخفيضة من صحف الاقاليم ذات التوزيع الضخم فى الغرب ، وما تنشره من صور ، لتمثلت لنا فيها صورة الرئيس عبد الناصر ، التى وجدت فيها « نغمة » ركزت عليها أكثر من أربع سنوات طويلة ، لتبغضه الى قلوب الناس من قرائها •

ولم يقتصر هذا الاتجاه على الصحافة وحدها ، ففى مطلع عام ١٩٥٨ التقطت شبكة تليفزيونية أمريكية شريطا لمقابلة صحفية استغرقت عشرين دقيقة بين الرئيس عبد الناصر ، وبين مراسلها المقيم فى القاهرة، وظهر الرجلان فى الشريط يتحدثان بهدوء وقد ارتديا الملابس المدنية • ونقل الشريط بالطائرة الى نيويورك ، وعندما عرض على مديرى الشركة، وجدوا أن الشريط « يفتقر الى القوة » ، وسرعان ما حذفوا من الشريط صوت مراسلهم فى القاهرة ، واستعاضوا عنه بصوت رجل أمريكى أجش ، يوجه أسئلة قاسية توحى بوجود جو من التوتر بين الرجلين ، كقوله ••• موجها الحديث المدسوس الى الرئيس ••• « هل لك يا سيادة الرئيس أن تعترف أو تنكر كذا وكيت » وسرعان ما استخرج المسئولون أشرطة قديمة من محفوظاتهم يعود تاريخ بعضها الى أربع سنوات ، وقصوا منها ما يعجبهم من صور أدخلوها غشا ، وتضليلا على الشريط الجديد • وعندما عرض الشريط بشكله المزور ، على جماهير النظارة من الامريكيين ، سمعوا أسئلة استفزازية وتنطوى على الشك توجه الى الرئيس ، واستمعوا الى ردود أضفوا عليها نغمات عدوانية ، ورأوا عبد الناصر وهو فى زيه العسكرى يتحدث الى جماهير ثائرة من الناس يهدرون ويزمجرون • وعمت الدهشة سفارة الجمهورية العربية المتحدة فى واشنطن ، من رؤية موظفيها رئيس جمهوريتهم وقد عاد الى

ارتداء بزته العسكرية ، فأبرقوا الى القاهرة ، ينقلون اليها ما رأوه ٠ وغضب الرئيس عبد الناصر لهذا التزوير الفاضح ، وامتنع لمدة ستة أشهر أخرى عن السماح للصحفيين الغربيين بمقابلته ٠

وقد سبق لى فى فصول سابقة أن استعرضت الاسباب الاخرى التى تدعو الى مثل هذا التركيز ٠ ولكننى أرى الواجب يحدونى هنا الى ذكر سببين آخرين ، أولهما أن عبد الناصر كان أول حاكم قومى عسكرى يظهر على المسرح الافريقى الآسيوى بعد الحرب العالمية الثانية ، وثانيهما ما يقوم فى أذهان أفراد الدوائر المتحررة الفكر فى الغرب ، والمتيقظة عادة ، من ردود فعل تجاه ما يتسلط على المسئولين المحافظين من ضغوط فكرية مسيطرة ، تثير الشكوك العميقة والامتعاض ٠ وليس من اضاعة الوقت فى شىء أن نتساءل اذا كان « كابوس » عبد الناصر !! كان سيمضى عميقا فى سيطرته على أذهان هؤلاء ، لو أن الغرب فى عام ١٩٥٦ ، الف قيام الحكام من الثائرين العسكريين ، وكان قد فهم مايساور الدنيا الافريقية الآسيوية من شكوك فى اصلاح النظم الغربية البرلمانية لها ، مما أدى الى قيام عدد كبير من أمثال هذه الانظمة الجديدة فى الحكم فى عام ١٩٥٨(١) ٠

وأخيرا يمكن القول ان الشرق الاوسط ، لم يكن فى نظر هؤلاء الأحرار من الغربيين ، منطقة مستعمرة ٠ ولم يكن هؤلاء الأحرار فى نظرتهم الى المستعمرات سواء أكانت بريطانية أم فرنسية أم هولندية يأخذون بما تلجأ اليه السلطات الرسمية من تعابير محافظة لنعت الحركات الوطنية فيها كعبارتى « المطامع الشخصية » ، و « حفنة من مثيرى الشغب » ، وغيرها من عبارات الاغراق فى تبسيط الامور ، بل كانوا ينظرون اليها نظرة الشك وعدم التصديق ٠ أما بالنسبة الى العرب ، فلم يحمل الاحرار أمثال هذه الشكوك أبدا تجاه ما يصدر عن الدوائر الرسمية المحافظة من تعبيرات ٠ ولم يكن هناك قط بالنسبة الى العرب ، نفس الاحترام الذى يبديه الاحرار تجاه الحركات الوطنية فى أى مكان آخر من المستعمرات ، اذ أن العرب كانوا يعتبرون «أحرارا» يضاف الى هذا ، أن الصهيونية لعبت دورا كبيرا فى تشويه الموقف

---

(١) كان بين هذه الانظمة الجديدة نظام الفريق عبود في السودان ، وقاسم في العراق ، وأيوب خان في الباكستان ونيوين في بورما وناسوتيون مع سوكارنو في اندونيسيا ، وكذلك نظام نكروما في غانا ٠ (المؤلف)

الليبرالى الغربى من السياسات العربية ، اذ أن دعاتها ـأى الصهيونيةـ كانوا يواصلون وبنجاح نشر فكرتهم فى أن الشرق الاوسط ، لاينطوى الا على حركة وطنية صحيحة واحدة وهى حركتهم ٠

ولعل من المهم هنا أن نلاحظ أن الصحف والمجلات البريطانية نشرت صورا « كاريكاتورية » بعد صدور تقرير ديفلين عن نياسالاند ، تمثل الافكار المتسلطة عليها تجاه الحركات الوطنية ، ولم تظهر بينها أية صورة لاى زعيم عربى ٠ وكانت هذه الرسوم تمثل صورا تاريخية لشخصيات وطنية تحدت السلطة الاستعمارية البريطانية وأدينت بتهم « القتل والارهاب واثارة الفتن » ، لتعود فتعترف بها كشخصيات قادة لها وزنها واحترامها ٠ وكان بين هذه الشخصيات التى أظهرتها هذه الصور ، ديفاليرا ، ونهرو ونكروما ومكاريوس ، وكذلك الدكتور باندا ، وهو يقف وراء القضبان ينتظر دوره ليصبح فى عداد أولئك القادة ٠ ولكن لم يكن بين هؤلاء حتى سعد زغلول أو أى قائد وطنى آخر من قادة الشرق الاوسط ، على الرغم من الحقيقة الواقعة وهى أن تاريخ زغلول لا يختلف مطلقا عن تاريخ هؤلاء حتى فى أدق تفاصيله ، وبينها النفى بالطبع ٠ لكن سعد زغلول ، لم يعمر حتى تستقبله لندن كما استقبلت قادة البلاد الاخرى التى استقلت ٠ لكن هذه الحقيقة لم تكن السبب فى عدم ظهوره أو ظهور شخصية عربية أخرى بين قائمة هذه الشخصيات التى جالت فى خواطر راسمى الصور الكاريكاتورية فى لندن فى عام ١٩٥٩ ٠

***

ويظل أمامنا فى هذه الدراسة التى نقوم بها لحرب سيناء والسويس ، موضوع أساسى يجب أن نتولى التحقيق فيه ٠ فلقد كانت هناك معركة سيناء نفسها فى خضم هذه الازمات التى لفت العالم كله فى الايام الاولى من شهر نوفمبر عام ١٩٥٦ ٠ وكانت الصورة العالمية الشاملة التى برزت لنتائجها هى السبب فى اضفاء لون جديد على أفكار الغرب تجاه الشرق الاوسط منذ ذلك الحين ، كما أثرت تأثيرا حيويا على جميع التقديرات اللازمة الاكثر اتساعا ، والتى انهيت دراستها الآن ٠ والآن أرى أن نتساءل ٠٠٠ ترى ما الذى وقع فى سيناء حقا ؟

١٢

حرب سيناء

« لقد كانت حملة مستقلة ، خاضها الاسرائيليون وحدهم . وقد حاربوا فيها دون أى ارتباط بالقوات البريطانية أو الفرنسية .. ودون اى عون منهما » .

« من أكاذيب جون كونيل في كتابه الذى أصدرته الهيئات الصهيونية »

بينت من قبل أن الاسرائيليين استهدفوا من هجومهم على سيناء كغاية قصوى الاستيلاء على شبه الجزيرة كلها ، وتأمين الوصول عن طريق التدخل الانكليزى ــ الفرنسى اللاحق فى وقت معين الى حدود غربية جديدة لاسرائيل تقف منسجمة ومتجاورة مع منطقة قناة السويس التى سيتم تدويلها . وكان أدنى ما طمعت فيه اسرائيل ، احراز نصر مستقل ، ينتشر أمره فى جميع ربوع الشرق الأوسط ، وجميع أرجاء العالم . ويبدوان اسرائيل ، وقد عجزت عن تحقيق هدفها الاقصى ، أرادت اقناع العالم بأنها نجحت في تحقيق هدفها الادنى ، والخلاص من حرب سيناء والسويس بأقل ما يمكنها من مغانم ، فراحت تعمل على صدور تصريحات وأقوال كالتى أوردتها فى مقدمة هذا الفصل اذ يتاح لها أوسع انتشار فى الصحافة الغربية . مما أدى الى تصديقها على نطاق عالمى واسع . وبدأ الناس فى الغرب يتحدثون عن « انتصار » سيناء ، حتى أن هذه الدعاية باتت جزءا من التاريخ الذى يكتب فى الغرب . وقد أدى تكرار هذه الادعاءات الى أنها باتت تصور على أنها حقائق .

ولكن سبق لنا أن رأينا أن الحقائق الواضحة المستندة الى التقارير المستقلة الموثوق بها والتى لا يمكن نعتها لحظة واحدة بالتحيز الى المصريين تناقض هذه الادعاءات المزعومة عن الزحف الاسرائيلى السريع الذى قامت به القوات المهاجمة . وسبق لنا أن رأينا أيضا كيف انهارت المزاعم التى وردت عن هذه الفترة من تاريخ الشرق الاوسط . واحدا اثر آخر ، على أنها أساطير وأكاذيب . ولهذا فان أى تحليل لحرب السويس ، لا يمكن له أن يمر مر الكرام بحقيقة ما دار من قتال فى شبه جزيرة سيناء . هل

كان هناك نصر اسرائيلي حقا ؟ هذا هو السؤال أما الرد عليه ، فيتطلب من المحقق أن يجمع الحقائق وان يربط بينها ويظهر أوجه التناقض بين مختلف المصادر سواء أكانت مستقلة أم اسرائيلية أم مصرية . وأنا لا أعرف ان دراسة موثوقا بها ومحايدة حقا قد صدرت حتى الآن عن هذا الموضوع بكل مافيه من تفاصيل . لكن في وسع القارىء أن يعثر على وقائع الميدان المجردة بتفاصيلها واردة في السرد الذي سأتلوه . والذي نشرة الرائد ادجار أوبالانس في كتابه « حملة سيناء » ، وهو الكتاب الذي لايمكن لانسان أن يتهمه بالتحيز لمصر (١) .

واري قبل كل شيء ، أن نتناول بالشرح والتفصيل الفكرة القائلة بأن حملة سيناء كانت « حملة مستقلة » ، بين اسرائيل ومصر ، ولا شأن لاحد آخر بها . وهنا اود أن أقول : ان هذه الحرب كانت بالطبع ومنذ البداية حربا ذات طابع دولي كامل ، منذ استهلالها في التاسع والعشرين من اكتوبر ، بل وقبل هذا التاريخ مذ كان في وسـع واضعي الخطط العسكرية الاسرائيلية استغلال العوامل الدولية . فلقد رأينا في فصل سابق ، ان القاهرة اضطرت منذ أواخر شهر اغسطس ، الى سـحب نصف قواتها التي ترابط في سيناء للدفاع عنها وبينها لواء مدرع كامل . الى مواقع أعدت للطوارىء غرب القناة . كرد على ماصدر من الدولتين الغربيتين الكبيرتين ـ بريطانيا وفرنسـا ـ من تهديدات راعدة ، ومن حشود عسكرية بيتت نية العدوان ، في جزيرة قبرص ، وعندما أتمت اسرائيل تعبئتها العامة . كان الجنرال دايان يعرف تمام المعرفة انه لن يواجه في سيناء ، القوات المصرية العادية المؤلفة من سـتين ألف جندي بسلاحها المدرع . وانما سيواجه ثلاثين آلفا فقط ، وكان على يقين أيضا من أنه لن يجد أمامه قوة الدبابات السـوفياتية الضخمة التي زعموا وجودها فيما بعد ، وانما سـيجد نحوا من سـبعين دبابة معظمها من الدبابات الانكليزية والامريكية القديمة . وقد حشدت اسرائيل أمام هذه القوة الدفاعية ، نحوا من خمسة وأربعين ألفا من الجنود ونحوا من مائتين وثلاثين دبابة . وعلينا أن نضيف الى هذه المقارنة العددية حقيقة واقعة

---

(١) أكدت عبارة « وقائع الميدان » بالنسبة الى هذه الدراسة ، لاني لا اعتبر ان الكتاب الذي لا يشير الى المعونة العسكرية الفرنسية الفعلية لاسرائيل او حتى الى احتمال وجود التواطؤ كهذا الكتاب مصدرا مقبولا تماما كحجة في الموضوع . وجدير بالذكر أيضا أن الرائد أوبالانس قد قبل أيضا بصورة خاطئة التاريخ الذي قيل أن اسرائيل قد قررت الهجوم فيه . فهو تاريخ خاطىء روجته الدعايات الصهيونية .

(المؤلف)

أخرى ، وهى أن ثلث القوة المصرية المؤلفة من ثلاثين ألف جندى كانت من جنود خط القتال المحاربين ليس الا ، أما نسبة الجنود المحاربين الى غيرهم من الفئات العسكرية الاخرى . فكانت أعلى فى القوة الاسرائيلية .

وكان ثمة عامل آخر أكثر أهمية ، يجعل هذه الحملة بعيدة عن أن تكون حملة اسرائيلية ، فلقد دخل الجنرال دايان معركة سيناء ، معتمدا على العون الفعلى المباشر من جانب فرنسا ، المتمثل فى قاذفات سلاحها الجوى المقاتلة النفاثة وفى البحرية الفرنسية . أجل لقد اتكل على ما سيلقاه من عون من ستين طائرة فرنسية نفاثة من القاذفات المقاتلة وأربعين طائرة أخرى من طائرات النقل من طراز « نورد أطلس » ستتولى نقل المعدات والمؤن من قبرص لقذفها من الجو الى القوات الاسرائيلية الامامية ، والى ماستضفيه السفن الحربية الفرنسية من حراسة على المدن الساحلية الاسرائيلية لحمايتها من أى عمل حربى مصرى . واذا ما أردنا تقويم العون الذى حصلت عليه اسرائيل من القاذفات المقاتلة الفرنسية وحدها ، أمكننا أن نؤكد تأكيدا قاطعا ، بأن هذه الطائرات قد أتاحت مجال التفوق الجوى على مصر فى النفاثات الخارقة لحجاب الصوت . وكانت مصر تملك فى عام ١٩٥٦ ، نحوا من مائة طائرة من طراز ميج (١٥) وخمسين طائرة (اليوشين) من القاذفات النفاثة وثمانين طائرة من طراز ى فامباير وميتور ونحوا من عشرين طائرة قديمة من الطائرات القاذفة التى عرفتها الحرب الثانية . (١) وكانت اسرائيل تعرف (٢) انه فى آكتوبر عام ١٩٥٦ ، كان تدريب الطيارين المصريين على هذه الطائرات الروسية الصنع ، الحديثة ، قد بدأ قبل فترة قصيرة للغاية ، وانه لم يكن لدى مصر أكثر من ثلاثين طيارا مدربا على الميج وعشرة طيارين على الاليوشن ، وان عددا آخر من الطيارين كان لا يزال يتدرب خارج البلاد . تنفيذا لصفقة الاسلحة التشيكية التى نصت على أن يدرب الطيارون المصريون

---

(١) لا يعنى ادراج هذه الارقام التى وردت فى الكتاب الانكليزى اى اقرار بصحتها ، كما ان نقلها لايعنى مطلقا الكشف عن أسرار حربية ، اذ أن هذه الارقام انتشرت فى النص الانكليزى للكتاب وهو فى متناول العدو . وكل ما قصدناه من نقلها ، هو أن نعرض وجهة نظر الكاتب فى حقيقة ما دار فى حرب سيناء . (المعرب)

(٢) اعترف حتى العقيد هنريكس المعروف بتشيعه للصهيونية فى المقالات التى كتبها عن حرب سيناء ، والتى تشبعت بروح التشيع لاسرائيل ، أن واضعى خطة الهجوم فى سيناء من الاسرائيليين قد ركزوا خطتهم على أساس « أن مصر لا تستطيع استخدام أكثر من نصف مالديها من الطائرات لافتقارها الى الطيارين المدربين » .

(المؤلف)

بدء حرب سيناء ٢٩ اكتوبر ١٩٥٦

فى أوربا الشرقية لا فى مصر ، منعا لمجىء عدد كبير من المدربين الى مصر نفسها .

وهكذا لم يكن لدى مصر فى الواقع الا ثلاثون طائرة ميج عاملة فعلا وعشر طائرات اليوشن وأربعون طيارا يصلحون لقيادة الطائرات النفاثة البريطانية القديمة . وكانت اسرائيل تملك مقابل هذا نحوا من ستين أو سبعين طائرة « ميستير » نفاثة ، وهى التى كشف عنها الرئيس عبد الناصر فى عام ١٩٥٥ ، وستين طائرة «ميستير» من السلاح الجوى الفرنسى وبعض الطائرات الامريكية من طراز (ف ـ ٨٤) واثنتى عشرة نفاثة من طراز أوراجان . وخمسا وعشرين طائرة من طراز ميتور وبعض طائرات الفامباير والموســـتانج القديمة . ومن هذا يتبين أن قوة الطائرات المحاربة عند اسرائيل ـ وبينها الطائرات الفرنسية الفعلية طبعا ـ كانت تبلغ أكثر من مائة نفاثة مقابل ثلاثين مصرية ، مع شىء من التعادل فى الطائرات القديمة . وكانت لدى مصر عشر طائرات قاذفة تستطيع أن تهاجم اسرائيل ذاتها اذا تمكنت من خرق ذلك السياج الواقى من الطائرات المقاتلة التى تفوق الصوت فى سرعتها .

وهناك أخيرا عامل مهم آخر ، من عوامل المساعدة الخارجية التى تلقتها اسرائيل ، فى التاسع والعشرين من أكتوبر ومن الواجب أن نذكره فلقد ظلت اسرائيل طيعة أكثر من ثلاثة أشهر قبل الهجوم ، تقوم بعملية تظاهر مدروسة ومحكمة فى خلق التوتر مع الاردن وهدفها اقناع القاهرة واقناع العالم أيضا ، بأنه اذا كان ثمة من خطر لحرب حول فلسطين فان هذا الخطر قائم على الحدود الاردنية لا فى سيناء . وكل ما ظهر فى هذه الفترة بالطبع سلسلة من الاتهامات توجهها اسرائيل الى الاردن بتهمة خلق حوادث الحدود ، وسرعان ما تتبع هذه الاتهامات بغارات انتقامية على قرى حدود الاردن كالغارة التى وقعت على قاقيلية مثلا فى العاشر من أكتوبر . وقد اعترف الاسرائيليون بعد انتهاء حرب سيناء بأن كل ماوقع من نشاط على حدود الاردن لم يكن أكثر من مجرد ستار أو غطاء تخفى به خطتها التى وضعتها لسيناء .

وسمعنا السير انطونى ايدن ، فور حادث الاعتداء على قاقيلية يحذر اسرائيل علنا من مهاجمة الاردن . وكان التفسير الرسمى الذى صدر للعالم عن ذلك الاجتماع الخطير الذى عقد فى باريس فى السادس عشر من أكتوبر ، أن الدولتين الكبيرتين ، أى بريطانيا وفرنسا ، وجدتا ضرورة للبحث فى « الوضع الاردنى » . وتعنى هذه الحقائق بالاختصـــار ، أن بريطانيا وفرنسا ـ وقد كانتا تعرفان حق المعرفة حقيقة نيات اسرائيل

واتجاهها ــ قدتعاونتا معها فيحملةتضليلها وخداعها ، وساعدتا على ابعاد العالم عن رؤية الاتجاه الحقيقي للخطر . ويقال ان القاهرة لم تكن تعرف في التاسع والعشرين من آكتوبر بأن اسرائيل ستهاجم سيناء ، مما يشير الى أن حملة « الخداع » التي قامت بها الدول الثلاث قد حققت غايتها (١) .

وأعدت اسرائيل خطتها العسكرية ، على أساس الافادة مما حققته الاستعدادات السياسية والعسكرية والنفسية التي قامت بها الدول الثلاث من ثمار ونتائج . وقد عرفت المخابرات الاسرائيلية ، ان مصر قد ركزت قواتها الدفاعية الامامية على حدود قطاع غزة ، وعلى مراكز تقاطع الطرق المهمة في العوجة ، لمنع اسرائيل من تكرار اعتداءاتها ، على مدن القطاع كما وقع في فبراير عام ١٩٥٥ عندما أغار الاسرائيليون على مدينة غزة ، كما عرفت تبعا لذلك ان القوات الدفاعية في منطقة سيناء نفسها ، ولا سيما على الطريق الصحراوي الممتد من الكنتلا عبر مضيق المتيلة الى بور توفيق على قناة السويس ، لم تكن كثيفة لان التركيز في الدفاع كان قائما في المنطقة الساحلية . ولم يكن بالفعل في هذه المنطقة الصحراوية فيالتاسع والعشرين من أكتوبر عام ١٩٥٦ أكثر من ألف وخمسمائة جندي موزعين على بعض النقاط المهمة كثامد ونخل .

وهكذا تركزت الخطة الاسرائيلية كما يظهر في الخريطة الملحقة على القيام بتوغل عميق في هذه المنطقة الوسطى الصحراوية عن طريق القاء قوات من المظليين على مضيق المتيلة وارسال لواء مدرع على جناح السرعة بطريق البر على طريق (الكونتيلة ــ المتيلة) للاتصال بالمظليين . واعتقد الاسرائيليون ان نجاح هذه الخطة سيذهل القيادة المصرية ويحول انتباهها فورا الى مضيق المتيلة ، مما يؤدي الى اغلاق الطريق الى وسط شبه جزيرة

---

(١) قد لا يكون قول المؤلف صحيحا هنا ، ولكن القاهرة ، وهي تتجه بأنظارها الى هذه الحشود الهائلة التي تحشدها بريطانيا وفرنسا من قوات عسكرية وأساطيل بحرية وجوية في جزيرة قبرص ، وغيرها من قواعد البحر المتوسط ، والتي تتوافد الانباء اليها عن عزمها ــ اى هذه الحشود ــ على مهاجمة مصر ، لم تكن لتستطيع أن تفعل شيئا أكثر مما فعلته . فهي تدرك أن الخطر الهائل ماثل في هذه الحشود الضخمة من قوات الدولتين الكبيرتين ، وأن عليها أن تعد العدة لمواجهته حال وقوع العدوان . ومن هذا يتبين أن حشود الدولتين الكبيرتين كانت اقوى عامل لعب اثره ، في حرب سيناء ، اذ لولاها لرتبت القيادة المصرية خطتها على أساس مواجهة عدو واحد هو اسرائيل ، وكان حريا بهذه الخطة ان تضمن هزيمة اسرائيل ، لو كانت وحيدة في هجومها على مصر .

(المعرب)

سيناء نفسها . وهنا يبدأ تنفيذ المرحلة الثانية من الخطة الاسرائيلية . بعد أن يكون اهتمام القوات المصرية قد انصرف الى المتيلة فى الصحراء ، وهى تقضى بهجوم قوى باتجاه الغرب من مثلث العوجة على الخطوط المصرية الدفاعية حول «أبى عقيلة» باتجاه الطريق المهم الآخر الذى يعبر سيناء الى الاسماعيلية وتبدأ المرحلة الثالثة فى موعد مقرر بعد ذلك بشن هجوم رئيسى ثالث على رفح فى الشمال لعزل قطاع غزه وفتح الطريق الساحلى الى القنطرة على القناة ، فى حين تتجه قوة رابعة من ميناء أيلة فى الجنوب على طول ساحل خليج العقبة للوصول الى شرم الشيخ .

وأود أن أؤكد نقطة مهمة هنا ، وهى أن بن جوريون ودايان ، بالرغم من اعتمادهما الكلى على تواطؤ فرنسا وبريطانيا معهما . وعلى مايتيحه لهما هذا التواطؤ من مزايا ، لم يقيما خطتهما لحملة سيناء على أساس قصف الطائرات البريطانية لمطارات مصر بعد ثمان وأربعين ساعة من بدء الهجوم على سيناء ، أو على التدخل البريطانى ـ الفرنسى عن طريق الانذار المشترك بعد أربع وعشرين ساعة من نقطة البداية ، فلقد أوضحت من قبل ، ان الخطة الاسرائيلية كانت تستهدف منذ البداية الحصول على « نصر مستقل » وهو ما كان ايدن يريده أيضا لابعاد شبهة التواطؤ عن بريطانيا . وتنتج عن هذه النقطة عدة ملاحظات يجب ايرادها ، وهى أن الاسرائيليين لم يفترضوا أن يقوم السلاح الجوى البريطانى بابعاد سلاح مصر الجوى عن سماء المعركة ، فى مثل هذا الوقت القصير . وكانوا يفترضون انهم سيواجهون قوة مصر الجوية العاملة والتى شرحناها من قبل . ولم يكن الاسرائيليون أيضا يتوقعون عملية انسحاب مصرى مبكر من سيناء أمام التدخل الانكليزى ـ الفرنسى ، وانما كانوا يركنون الى شيء آخر . وهو أن التدخل الانكليزى ـ الفرنسى بعد أربعة أيام من بدء هجومهم سيؤدى الى عزل القوات المصرية فى سيناء ، والى ابعاد الطيران المصرى عن سماء المعركة بعد هذه الايام الاربعة .

وليس المهم فى ايضاح هذه النقطة . مجرد النزاهة فى العرض بل تبيان المصدر الذى دفع اسرئيل الى الاقدام على هذا الهجوم كله ، مع مالها من مخابرات نشيطة . فالصورة الظاهرية للوضع ، تتمثل فى أن اسرائيل قد اقحمت نفسها فى هذه الحرب الصحراوية ودفعت اليها بالقسم الاكبر من قواتها كلها ، لتواجه دولة عربية واحدة لها حليفتان عربيتان اخريان ترتبط اليهما بالتزامات عسكرية ثابتة وهما سورية والاردن ، بينما تقوم وراءهما دولة عربية ثالثة هى العراق لا تستطيع تحت تأثير شعبها الوقوف مكتوفة اليدين فى أية حرب عربية اسرائيلية

شاملة . لكن اسرائيل كانت واثقة بل لعلها كانت وقحة في ثقتها هذه . فهي مفترة أولا بما حققته من مكاسب في حرب عام ١٩٤٨ ، وان لم تكن عمياء عما طرأ على الجيوش العربية بعد ذلك التاريخ من اعادة تنظيم واعادة تجهيز وبعث للمعنويات . وقد تستطيع اسرائيل الهجوم على الاردن ، والوقوف موقف الدفاع من سورية ومصر ، ولكن الهجوم بجيش قوامه خمسة وأربعون ألفا من الجنود وبضعف ما تملكه من الدبابات على الأقل على صحراء سيناء ، التي تبعد مسافات نائية جدا عن أية جبهة جديدة قد تفتح عليها ، شيء آخر ، لا سيما اذا تحقق لها ما هدفت اليه من خرق الجبهة المصرية في « أبو عقيله » ورفح والتوغل عميقا في سيناء .

وهنا بالذات ينشأ الترابط في التوقيت بين الهجوم الاسرائيلي والحملة البريطانية ـ الفرنسية . فلقد كان بن جوريون ودايان على ثقة بأن الدولتين المتواطئتين معهما ستتدخلان بعد أربعة أيام على الاكثر . واقاما تبعا لذلك حساباتهما على قيام فترة أولية من الاضطراب في الوسط العربي ، ومن الاتصال بين القاهرة والعواصم العربية الاخرى ، مما يتيح لهما مجالا للتنفس قبل أن تقدم أية دولة عربية اخرى على شن هجوم مؤيد لمصر . وكان كل ما تخشاه اسرائيل آنيا ، وفي الفترة الاولى ، قيام الطائرات من الدول العربية الاخرى بالاغارة عليها ، كرد فعل آني ، وقد عالجت خوفها هذا ، بالستين طائرة الاضافية الفرنسية التي استقدمتها لمساعدتها في حربها وكلها من أحدث المقاتلات النفاثة . وكانت تتوقع من الناحية الاخرى أن يؤدي توغلها السريع الاولي ، في اتجاه لايتوقعه العرب ، الى خلق شيء من الاضطراب والتردد عند الدول العربية الاخرى وهذا يفسر زعمها في بلاغها الحربي الاول بأن قواتها وصلت الى مشارف القناة . وسيؤدي هذا التردد الى كسب الوقت الثمين الذي تريده اسرائيل ، قبل أن تشرع الدول العربية الاخرى بهجوم جدي مضاد عليها ، هذا اذا قدر لهذا الهجوم أن يقع مطلقا ، ليحين موعد التدخل الانجليزي ـ الفرنسي ضامنا لها ما أرادته من نصر مستقل ومحافظا لها على غنيمتها الكبرى في سيناء . وآنذاك لايعود ثمة مجال لتدخل عربي آخر . أمام التدخل الغربي .

وكانت المغامرة والحالة هذه خطيرة ، ولكن ما يخفف من خطورتها أن لها فترة محدودة ضمنها التواطؤ بينها وبين الدولتين الغربيتين وهو التواطؤ الذي يحول حتما دون وقوع أي هجوم من دولة عربية أخرى . وكان مدى التوغل عاملا هاما في انجاح الخطة الاسرائيلية ، مما دفع قادتها المسئولين الى الادعاء في البلاغ الحربي الاول ، زورا وبهتانا . بأن قواتهم

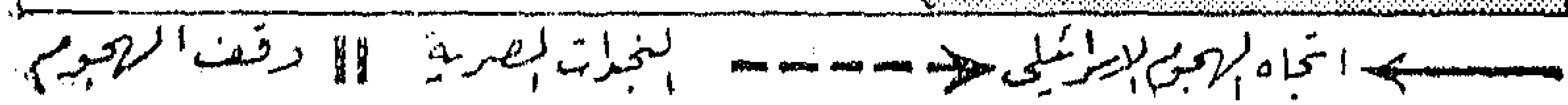
وصلت الى مشارف القناة . ومن هنا تظهر أهمية النزول من الجو فى مضيق المتيلة ، فى الخطة الاسرائيلية كلها ، اذ أن هذا النزول ، كان يهدف الى اكســاب اسرائيل ما تريده من هدف عن طريق ادعاء التوغل البعيد المدى ، بالاضافة الى ما يتركه من آثار نفسية فى القاهرة وعمان ودمشق وغيرها من العواصم العربية ، وكذلك من آثار فى دول العــالم تهيئها لقبول فكرة التدخل الانجليزى ــ الفرنسى . ولا أكون مبالغا أن قلت : ان محور الخطة الاسرائيلية كلها قد تركز على هؤلاء الاربعمائة مظلى ، الذين انزلتهم الطائرات فى المتيلة ليكونوا محور المفهوم الاسرائيلى التقليدى عن « السوقية اللامباشرة » .

وقد استهلت حملة سيناء بحركة أخرى تنطوى على الحيلة والخداع اتجهت نحو الاردن عندما تحرك اللواء الاسرائيلى المدرع الثانى بعد المائتين ناقصا فوجا واحدا ، فى التاسع والعشرين من أكتوبر فى اتجاه الحدود الاردنية على مسمع من العالم وبصره . أما الفوج الناقص ، فقد حملته طائرات النقل ، ليهبط رجاله فى الساعة الخامسة من مساء اليوم نفسه عن طريق المظلات فوق مضيق المتيلة ، فى الوقت الذى حولت بقية اللواء اتجاهها فجأة لتذرع الارض بسرعة نحو ســـيناء ، ونقطة الحدود فى الكونتيلة على الطريق الى المتيلة ، وكانت الطائرات الفرنســية الســتون بطياريها الفرنسيين . رابضة فى مطارات اسرائيل بعد أن قطعت البحر المتوسط ، متأهبة لخوض المعركة . وأقلعت من مطار تيمبو فى جزيرة قبرص الطائرات الاربعون من طائرات النقل الفرنسية فى طريقهــا لتلقى الى المظليين الذين هبطوا فى المتيلة ، ما يحتاجون اليه من معدات وعتاد وأســلحة وذخائر ومؤن . واندفعت من مثلث العوجة الذى اغتصــبته اسرائيل متحدية الامم المتحدة فى ســـبتمبر عام ١٩٥٥ ، ثلاثة ألوية اسرائيلية كاملة ، أحدها مدرع ، لتهــاجم الخطــوط الدفاعية المصرية الرئيسية عند « أبو عقيلة » . واجتازت الوحدات الاولى من الرتل الاسرائيلى المندفع من ميناء « ايلة » جنوبا خطوط الهدنة فى زحفهــا على شرم الشيخ . ووقفت السفن الحربية الفرنسية وفى طليعتها جورج ليجو وسيركوف وكيرسانت ، تحمى سواحل اسرائيل ومشارفها البحرية على المتوسط . وهكذا بدأ سباق اسرائيل مع الزمن .

وصلت أنباء الهجوم الاسرائيلى عبر خطوط الهدنة الى القــاهرة ، وكان جل اهتمامها منصرفا الى هذه الحشود البريطانية الفرنسية الهائلة فى قبرص ، والى تلك المناورات الخادعة التى تقوم بها اسرائيل على حدود الاردن . وتلقت القيادة العامة من قائد السرية المصرية فى المتيلة نبأ هبوط

الوضع الحربى
مساء ٣٠ اكتوبر

غزه
رفح
العريش
بورسعيد
القنطره
ابو عجيله
القسيمة
الاسماعيليه
السويس
نخل
العقبة
سيناء
شرم الشيخ



المظليين الاسرائيليين فراحت تبعث بأولى النجدات الى ذلك الموقع ، وهى مؤلفة من فوجين من أفواج المشاة . ولم يكن قد اتضح للقاهرة بعد حقيقة ما تنويه اسرائيل . وهل تقصد من هذه الحركات تغطية هجوم شامل على الاردن ، لاتستطيع القاهرة أن تقف منه مكتوفة اليدين بالرغم من تركيز جل اهتمامها على حشود قبرص ، ولم تمض بضع ساعات حتى كانت الأوامر قد صدرت بارسال نجدات قوية على جناح السرعة الى سيناء بعد أن اتضحت حقيقة الاهداف الاسرائيلية . وعلى الرغم من هذا الواقع الذى أضحت مصر تجابهه لم تستطع القيادة العامة ، وحشود قبرص ماثلة أمامها أن تبعث الى الميدان بأكثر من عشرة آلاف جندى آخر ، معهم مائتا دبابة . وهكذا اضطرت مصر . حتى فى تلك اللحظة التى تواجه فيها هجوما اسرائيليا عاما . الا ترسل الى سيناء العشرين ألفا الآخرين من الجنود الذين كانت تحتفظ بهم عادة فيها ، بسبب ما تتوقعه من هجوم الدولتين الغربيتين عليها ، نتيجة هذه الحشود الضخمة فى قبرص ، وطبعا اعتمدت اسرائيل فى حساباتها على هذا الواقع ، كما اعتمدت على المدى الزمنى الذى يتطلبه نقل النجدات عبر سيناء الى الجبهة الرئيسية فى منطقة العقيلة ـ رفح ـ غزة ، أمام هجمات من الجو تشنها الطائرات الفرنسية والاسرائيلية . ولكن فى وسع المرء أن يقول ان المعركة دارت فى صباح الثلاثين من اكتوبر فى أقصى شدتها .

وقد تميزت المعركة بمرحلتين واضحتين ومختلفتين فرضتهما القوى الخارجية ، أولاهما سياسية نفسية وثانيتهما عسكرية وقعت فيها نقطة تحول ، بدلت طبيعة المعركة كلها . ولن أحاول فى هذا الكتاب سرد وقائع المرحلتين ساعة بعد ساعة ، اذ اننى أعتقد أن مما يفى بالغرض من هذا البحث ، ان اكتفى بدرس ماكان واقعا أولا عند صدور الانذارالانجليزى ـ الفرنسى فى الساعة السادسة مساء (وقت سيناء) فى الثلاثين من اكتوبر ، وما حدث عندما بدأ السلاح الجوى البريطانى فى قصف مصر بصورة مستمرة فى الساعة السابعة والنصف من مساء الواحد والثلاثين من اكتوبر . وتظهر الخريطتان الملحقتان الاخريان حقيقة الوضع فى هذين التاريخين .

عندما أعلنت الدولتان الغربيتان انذارهما المشترك ، وراح ايدن يعلن فى مجلس العموم متحدثا عن القتال الاسرائيلى ـ المصرى ان الحرب أخذت تدور على مقربة من القناة بل لربما كانت تدور الآن فوقها . لم تكن اسرائيل قد حققت اى تقدم بارز ومهم ، الا على الطريق الصحراوية بين الكونتيلة والمتيلة ، الخالية من وسائل الدفاع . فقد تمكن اللواء الاسرائيلى

الزاحف بدباباته للاتصـــال بالمظليين الذين انزلوا فى مضـــيق المتيلة من التغلب على مركز واحد فى ثامد ، لاتدافع عنه الا سريتان من المشاة ظلتا تقاتلان ببسالة وبطولة حتى خسرتا أكثر من ستين جنديا من رجالهما . وواصل الاسرائيليون تقدمهمفى طريق خالية لا يعوقهم شىء الا مايتعرضون له من الغارات الجوية المصرية ، والتى أنزلت بهم خسـائر فادحة للغاية . الى أن وصلت مظلة جوية من الطائرات الفرنسية والاسرائيلية لحمايتهم بعد ظهر ذلك اليوم . وعندما صدر الانذار كان الاسرائيليون قد شرعوا فى هجومهم على نخل ، وهى المركز الدفاعى الوحيد بين ثامد والمتيلة . وجدير بنا اذا أردنا أن نفهم طبيعة العملية كلها فى هــذه المنطقة من أواســط سيناء ، أن نتحرى بعض الشىء عن حقيقة موقع نخل ومعركته .

كان للمصريين فى هذا الموقع فوج واحد من أفواج المشــــاة تؤلف السريتان اللتان كانتا تتوليان الدفاع عن الثامد جزءا منه • وقد هاجم الاسرائيليون هذا الموقع بقوة تضم نحوا من الفى جندى تعززهم مجموعة من دبابات Aux الفرنسية الجديدة ، وخمس وثلاثون من العربات نصف المجنزرة التى تجعلها نصف دبابات ، وثمانية عشر مدفع ميــدان وثمانية عشر مدفع هاون ثقيل . وليس فى المعقول الا تفلح هذه القوة الهائلة من الاسلحة الثقيلة فى التغلب على القوة المدافعة الصغيرة . وكان هذا العامل ، هو الذى مكن القوات المهاجمة من الوصول الى مضيق المتيلة، وهو الذى يقيم الدليل على بطلان الادعاء بأن اسرائيل حققت نصرا ساحقا على قوات تفوقها عددا .

وتعرض المظليون الذين هبطوا من الجو فى مضيق المتيــــلة لنيران السرية المصرية المرابطة فى المكان ولنيران الطائرات المصرية التى اغارت عليهم فى فترات متعاقبة الى أن وصلت الطائرات الفرنسية والاسرائيلية فضمنت لهم شيئا من الغطاء الجوى • واقام المظليون فى خنادق حفروها فى التلال الصخرية بعد أن جمعوا ما قذفته اليهم طائرات النقل الفرنسية من مؤن وعتاد بواسطة سيارات الجيب التى أنزلتها اليهم هذهالطائرات فى الليل أيضا ، وتعرضوا طيلة اليوم الثلاثين من اكتوبر لنيران حامية من مدافع الهاون المصرية التى ردت عليها الطائرات الفرنسية بصواريخها منزلة بعض الخسائر بالنجدات الوافدة من السويس • ولم يتقدم المظليون شبرا واحدا طيلة ذلك النهار ، وظلوا فى حالة سيئة الى أن وصلت اليهم طلائع اللواء المدرع فى منتصف ليلة الواحد والثلاثين من اكتوبر .

أما فى الشمال الشرقى حيث وقع الاندفاع الرئيسى ضد «أبو عقيلة»

فى الطريق الى الاسماعيلية ، وحيث واجه المهاجمون الخطوط الدفاعية المصرية الجدية ، فلم يتمكن هؤلاء من احراز أى تقدم يذكر قبل صدور الانذار المشـــترك . ولم يكونوا قد توغلوا أكثر من عشرة أميـــال عن الحدود(١) . وكانت القوة الاسرائيلية المهـــاجمة تتألف من ثلاثة ألوية أحدها مدرع ومعها خمس وثمانون دبابة ثقيلة ومتوسطة الحجم . أما المدافعون المصريون فقد تألفوا من ثلاث كتائب مشـــاة . ولم تكن هذه الاميال العشرة التى اجتازتها القوات الاسرائيلية الا نتيجة حركة التفاف فى نصف دائرة الى الجنوب عبر القسيمة . ولكن الخطوط المصرية التى تحمى شمال سيناء كله ، كانت صامدة كل الصمود ولم تظهر أية اشارة تومىء الى ضعفها . وأرى من الجدير بنا أن نسجل هنا ملخص الوصف الذى عرضه الرائد «أوبلانس» عن صورة الوضع العسكرى فى نهـــاية الثلاثين من أكتوبر اذ قال :

« احتل الاسرائيليون القسيمة بصعوبة هائلة وبعد خسائر جسيمة، وفشلوا فشلاً ذريعا فى مضيق المتيالة ، كما ردوا على أعقابهم عند « أبى عقيلة » . وكان المصريون من الناحية الاخرى ، قد بوغتوا فى بداية الامر . ولكنهم سرعان مانجوا من وطأة البغتة ، ولم تمض اثنتا عشرة ساعة على بدء العمليات العســكرية حتى كانت النجدات القوية تتحرك بسرعة الى الجبهة » .

لاريب فى أن هذه الصورة الشاملة للوضع العسكرى ، بعد انقضاء ثلاثين ساعة على بدء الحرب ، تثبت بالدليل القاطع ان اسرائيل لم تكن قد حققت حتى ذلك التاريخ ـ أى مساء الثلاثين من اكتوبر عندما صدر الانذار البريطانى الفرنسى المشترك ـ أى نصر مهما كان شكله . ولا ريب أيضا فى انها تنفى نفيا قاطعا ، كما سبق لى ان قلت : أية حجج يتذرع بها للدفاع عما جاء فى الانذار من نص وتعابير . فالقتال بين مصر واسرائيل ، لم يكن عند صدور الانذار يهدد القناة أى تهديد . وحتى القوات البرية المتقدمة فى وسط الصحراء الى مضيق المتيلة ، لم تتمكن من الوصول الى الاربعمائة مظلى المحصورين فى المضيق الا بعد انقضاء عدة ساعات على صدور الانذار . واذا ما استثنينا هذه القوة الصغيرة المحصورة ، التى لا تؤلف خطرا فى حد ذاتها بالاضافة الى أنها كانت بعيدة عن القناة أكثر من أربعين ميلا .

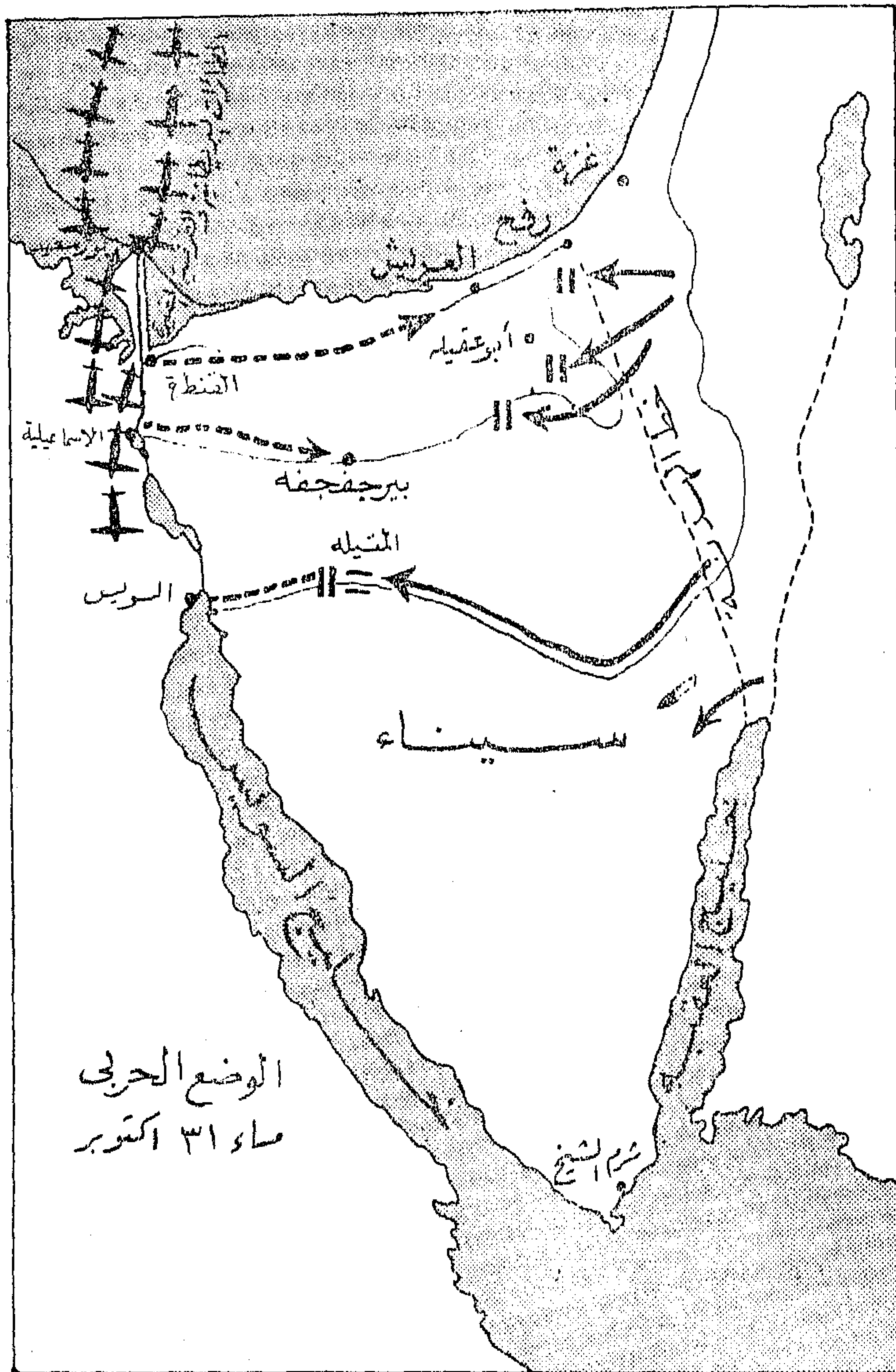
---

(١) حرى بنا هنا ان نعيد ما زعمه ايدن في مذكراته من ان طائرات الكمبيرا التقطت صورا في فجـر الثلاثين من اكتوبر للقـوات الاسرائيلية وهى في منتصف الطـريق الى الاسماعيلية ، لتظهر مدى ما أورده هذا الرجل من افتراءات .　　(المؤلف)

فان أية قوة اسرائيلية لم تكن فى نقطة يقل بعدها عن المائة والعشرين ميلا من القناة نفسها .

وهز الانذار المشترك القاهرة هزة عنيفة ، ولم يصدق الناس فيها ما سمعوه حتى فى هذه المرحلة . وأعلن الرئيس عبد الناصر جهارا أنه لايصدق كون هذا الانذار أكثر من مجرد « بافة » ، وانه لايصدق بأن الحكومة البريطانية ستهاجم مصر ، حتى تقذفها فعلا بقنابلها ، وهو ماوقع بعد أربع وعشرين ساعة من صدور الانذار . وتؤيد الاعمال التى قامت بها مصر فى غضون هذه الساعات الاربع والعشرين حقيقة هذا الاتجاه الفكرى . وصحيح أن مصر لم تأمر بارسال نجدات أخرى فى غضون هذه الفترة الى سيناء ، ولكن النجدات التي صدر الامر بارسالها قبل طلوع الانذار كانت لا تزال متجهة الى الشرق ولم تتلق أى ايعاز بوقفها عن السير بله ارجاعها . وواصلت جميع المواقع الدفاعية المصرية بذل اقصى طاقاتها فى المقاومة . وانتهت المهلة التى أعطاها الانذار فى الساعات المبكرة من صباح الواحد والثلاثين من اكتوبر ، ولم يقع اى هجوم فرنسى ــ انكليزى . ومر النهار دون أى هجوم . ولم يقبل عبد الناصر ورفاقه مرارة الواقع ويبادروا الى العمل الا فى الساعة السابعة والنصف من مساء ذلك اليوم عندما ظهرت الموجات الاولى من طائرات السلاح الجوى البريطانى فى سماء مصر .

ولا يشك أحد ، او أى حجة موثوق به ، فى القرار الذى اتخذه عبد الناصر ورفاقه . كما لا تجرؤ السلطات الاسرائياية نفسها على انكاره سرا . وان كانت قد أصرت على رفض الاعتراف به علنا وطواعية لاسباب واضحة سأتولى الآن شرحها . كان هذا القرار يتلخص فى سحب كل جندى وكل معدات ممكنة على التو ، وفى أقصى سرعة ، من شبه جزيرة سيناء كلها قبل أن يتمكن الغزو الانكليزى ـ الفرنسى من قطعها ، وايقاعها فى الشرك . وتتابعت الاوامر صادرة عن القاهرة منذ الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم ، ويرجع التأخر فى تنفيذ بعضها مما أثار بعض الشكوك فى أنها قد تكون صادرة فى وقت لاحق الى سببين ، أولهما: ما دار من نقاش بين القاهرة وبين قادة الميدان ، حول ما تنطوى عليه هذه الأوامر من مساس بمصر ، وثانيهما : مادار أيضا من نقاش كثير حول خير السبل لانفاذ هذه الاوامر . وقد نص الأمر الأساسى على وجوب انسحاب جميع الوحدات التى لم تكن قد اشتركت بعد فى المعركة فورا ، أما الوحدات المشتبكة فى القتال فيتحتم عليها أن تبدأ فورا بانسحاب متدرج ، يقرر طبيعته قادتها ، على أن تستمر عمليات الاعاقة فى المؤخرة . وكان الاستثناء الوحيد ، متعلقا بالقوة المرابطة فى قطاع غزة والمؤلفة من



الهجوم الاسرائيلى ← ‎‎- - - - → النجدات المصرية ‖ وقف الهجوم وصده

نحو خمسة آلاف جندى . فقد كان عبد الناصر ورفاقه يعرفون ان نشوب أية معركة رئيسية فى القطاع ، سيؤدى الى خسائر مريعة فى ارواح اللاجئين الفلسطينيين الذين يكتظ بهم القطاع الضيق والذى يربو عددهم على المائتى ألف . ولكن القاهرة كانت تخشى أيضا أن يؤدى أى انسحاب من القطاع الى خلق حالة من الفزع والرعب . قد تسفر عن نتائج لا تقل خطورة عن نتائج الصمود . ولهذا فقد صدر الأمر الى الحاكم العسكرى للقطاع ، بأن يستسلم عندما يقرر ان اللحظة تحتم عليه التسليم .

وليس ثمة من شك فى ان قرار القاهرة بالانسحاب من سيناء مهم بالغ الأهمية فى تقدير المعركة كلها ، مما يحتم علينا على الأقل تحليله باختصار ، وهنا لا بد من القول أولا ، وقبل كل شىء ، انه ليس «تراجعا» أبدا امام الاسرائيليين أو تسليما لهم نتيجة نجاح حققوه ، فلم يكن هناك حتى هذه اللحظة ، وبرغم انقضاء يومين كاملين على بدء المعركة، اى نجاح ظاهر ، ولكن الامر جاء نتيجة قرار عسكرى حتمه الخوف من سقوط قوات سيناء كلها فى فخ تنصبه حركة كماشة اسرائيلية ـ فرنسية ـ انجليزية وكان قصف مصر جوا على صعيد ما جاء فى الانذار منبئا بغزو انجليزى ـ فرنسى شامل ، لمنطقة السويس كلها ، قاذفا بخط من النار والفولاذ تملؤه دولتان عظيمتان ، يقام عبر الممر الوحيد الذى ستنسحب منه القوات من سيناء أو الذى سيجرى تعزيزها عن طريقه ، ولم يكن فى وسع اى قائد عسكرى فى القاهرة سواء أكان مصريا أم غير مصرى ، أن يصل فى مثل هذا الوضع الى غير النتيجة التى توصل اليها عبد الناصر فى ليلة الواحد والثلاثين من اكتوبر تلك ويمكن القول أيضا أن أى جيش فى الحروب الحديثة لم يواجه مثل هذا الموقف اليائس الذى واجهه جيش مصر ، أو مثل هذا القرار الحتمى الذى لم يكن ثمة مناص منه .

ولقد أطلقت حكما عاما فقلت : ان اسرائيل لم تكن قد حققت أى نجاح فى سيناء . عندما هدرت طائرات السلاح الجوى البريطانى مرعدة فى سماء مصر ، وعندما وصلت القاهرة الى مثل هذا القرار المتناهى فى خطورته ، وارى لزاما الآن ان افصل هذا الحكم وان أسنده بالادلة والبراهين ، ولنأخذ المعركة قطاعا بعد قطاع ، بادئين بالقطاع الجنوبى ، لم يكن زحف اسرائيل فى اتجاه شرم الشيخ فى هذا الوقت قد بدأ حركته الرئيسية باتجاه الجنوب على الساحل بعد . ولم يكن أكثر من فوج واحد قد اندفع الى ماوراء رأس النقب .

أما فى الجهة الوسـطى ، عند مضيق المتيلة ، فقد انضـمت بقية اللواء المدرع الى المظليين الأربعمائة ، الذين كانوا قد هبطوا من الجو ، ولم تتمكن هذه القوات كلها طيلة الواحد والثلاثين من أكتوبر من عمل شيء سوى تعزيز مواقعها فى «حيطان ديفلة» فى منطقة الممر ، ولقد ذكر الرائد أوبيلانس فى كتابه أن هـذه المعركة كانت أقسى ماعرفته الحملة كلهـا وأكثرها ضراوة ، وأضاف أن الاسرائيليين كانوا قد وصـلوا الى حالة شنيعة من الجهد والانهاك .

وأما فى الشمال فى منطقة « أبو عقيلة » فقد صد المصريون كافة الهجمات الاسرائيلية من الشرق ، وصمدت مواقع المصريين الأساسية صمودا رائعا ، وان كان الاسرائيليون قد قاموا بحركة التفاف من الجنوب. يضاف الى هذا أن أيا من النجدات التى يبلغ تعدادها عشرة آلاف لم تكن قد وصلت الى هذا القطاع من الجبهة بعد ، لاهى ولا دباباتها المائتان، وكانت لا تزال تتحرك شرقا على الطريق من الاسماعيلية ، وعلى الطريق الساحلى ، وهى تواصل تقدمها برغم ماتتعرض له من غارات جوية عنيفة تقوم بها الطائرات الفرنسية والاسرائيلية ، وثبت أن دايان نفسه شعر ليلة الواحد والثلاثين من أكتوبر بالقلق الزائد على مصير معركة «أبو عقيلة» فى حالة وصول هذه النجدات المصرية اليها .

وكان الاسرائيليون قد فتحوا جبهة جديدة فى الشـمال الاقصى باتجاه رفح لدى سماعهم بسقوط أول قنبلة من قنابل الحلفاء على أرض مصر ، ولم تكن هذه المعركة قد سارت سيرا حسنا بل كان الهجوم قد توقف وظل متوقفا الى أن تعاونت المدافع الاسرائيلية والبوارج الفرنسية فى قصف المواقع المصرية فى الساعات المبكرة من صباح الاول من نوفمبر .

ويلخص الرائد اوبالانس الذى عاد فاستعمل عبارة « انتصار » فى النهاية فى سرده للقصة ، الوضع عشية الواحد والثلاثين من أكتوبر على النحو التالى :

« وتبين بعد يومين من القتال أن الاسرائيليين لم يكونوا قد حققوا بعد شيئا على النحوالذى كانوا يطمعون فيه ، وان كانوا قدأحرزوا بعض التفوق .. أما بالنسبة الى المصريين ، فلم يكونوا قد أضاعوا كل شيء بعد فهناك لواء مدرع يزحف على الطريق الوسطى ولم تكن رفح قد سـقطت بعد ، كما لم تكن مواقع «أبو عقيلة» قد ضعفت أمام المهاجمين ولم يكن الهجوم على العريش قد بدأ بعد » .

ويستحق هذا التلخيص للوضع أيضا بعض الانتقاد لما فيه من تناقض غريب ، ولانه لايؤلف صورة صحيحة عن الوضع كما كان عليه ليلة الواحد والثلاثين من أكتوبر ، ولا سيما بالنسبة الى ماكان متوقعا ، وكل ماحدث بعد الآن كان شيئا حاسما حتما ، فالرائد أوبالانس يعترف بتأثير أوامر القاهرة بالانسحاب ، ولكن اعترافه جاء فى صورة غريبة ومخالفة للواقع الذى تحتمه الطبيعة العامة للمعركة ٠

فلقد توقف الوضع منذ تلك اللحظة عن أن يكون حربا ، وشرعت قوات مصر الرئيسية فى تلك الليلة ، أى ليلة الواحد والثلاثين من اكتوبر فى تنفيذ أوامر الانسحاب من قطاع اثر آخر ، متراجعة على طرق صعبة الى الغرب باتجاه القناة ٠ وفى الشمال البعيد ، أى فى رفح ، تلقى القائد المصرى ــ وهو يرى مدافع البارجة الفرنسية جورج ليجو ، والمدافع البرية الاسرائيلية تصب نار قذائفها على مواقعه ــ تلقى الامر من القاهرة بالانسحاب وتمكن برغم الهجوم الجديد الذى شنه الاسرائيليون على مواقعه تلك الليلة وفى الساعات المبكرة من صباح الاول من نوفمبر من اخراج معظم قواته وسحبها باتجاه العريش ، بفضل الحماية التى أمنتها له وحدات صغيرة قاتلت قتال مؤخرة تميز بالبسالة طيلة الوقت ، قبل أن تسقط رفح فى ذلك اليوم ٠

وتكرر الوضع نفسه ، وان تأخر بعض الشىء فى قطاع أبو عقيلة فلقد كان الانسحاب من هذا القطاع ، صعبا بعض الصعوبة من جراء حركة الالتفاف التى وقعت من ناحية الجنوب ولكن وحدات المؤخرة تمكنت من الصمود طيلة اليوم الاول من نوفمبر فى المواقع الرئيسية الى أن تم انسحاب الجزء الاكبر من القوات المصرية نحو الغرب ، ولم يتمكن الاسرائيليون من احتلال هذه المواقع الا فى صباح الثانى من نوفمبر ٠٠ عندما وجدوها تقريبا خالية من جنودها ٠

وأصبحت الطريق الى الاسماعيلية الآن من الناحية النظرية مفتوحة ولكن حرى بنا أن نتوقف قليلا عند هذه الطريق لنشرح كيف وقع الانسحاب ، ففى الساعات المتأخرة من صباح الاول من نوفمبر اندفعت الوحدات الامامية من الحركة الالتفافية حول العقيلة باتجاه الغرب على الطريق تعززها قوة كبيرة من دبابات شيرمان الضخمة ، ولكن هذه القوات الاسرائيلية ، اصطدمت فى «بئر سالم» بالعناصر الامامية من رتل النجدات المصرى الذى كان يتحرك شرقا باتجاه «أبو عقيلة» منذ الثلاثين من أكتوبر برغم مايتعرض له من هجمات جوية عنيفة ، ودارت معركة عنيفة بين عدد

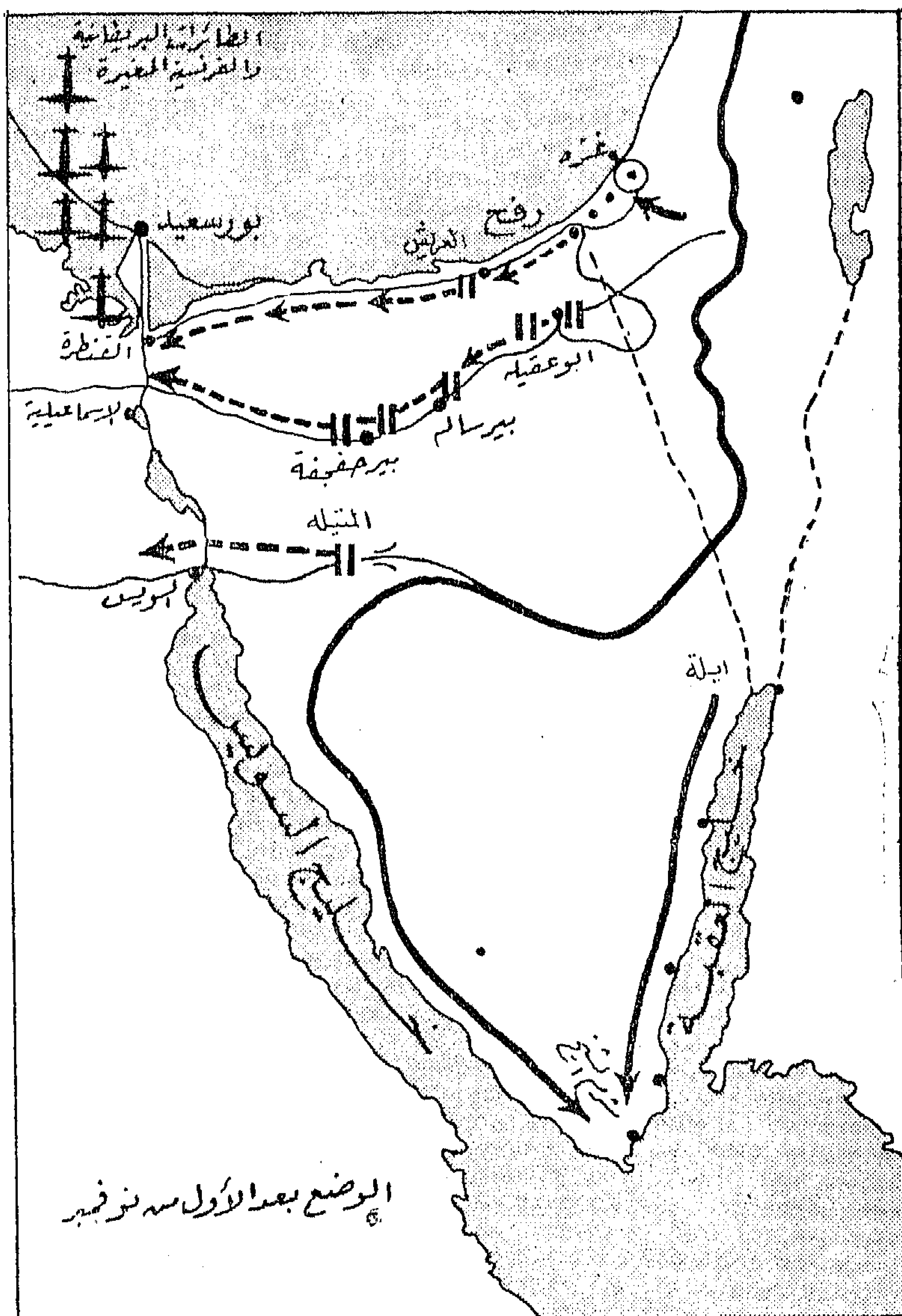
متساو تقريبا من دبابات شيرمان الاسرائيلية ودبابات (ت ٣٤) المصرية مما أدى الى وقوع اصابات وتلقت القوات المصرية آنذاك الامر بالانسحاب فانسحبت غربا ، بينما ظلت القوات الاسرائيلية فى مواقعها أربعا وعشرين ساعة أخرى طلبـــا للراحة من المعركة العنيفة التى خاضتها ، ولو صح مازعمه العقيد هنريكس وغيره من الكتاب المتشيعين للصهيونية من أنمصر قد «هزمت» فى هذه المعركة لكان الانسحاب المصرى فى معركة «بير سالم» قد تحول الى هزيمة يسيطر عليهـــا الذعر ، ولا تقف حدودها الا عند الاسماعيلية ، ولكن القوات الاسرائيلية ما لبثت أن اشتبكت فى « بئر جفجفة » فى صباح الثانى من نوفمبر أى بعد مضى أكثر من يوم على صدور الامر من القاهرة بالانسحاب مع الدبابات المصرية ، ولننقل هنا ما قاله الرائد أوبيلانس عن هذا الاشتباك :

« ودارت معركة دبابات استمرت طيلة ساعات بعد الظهر ، ومنى فيها الفريقان بالخسائر ، ولكن المصريين تمكنوا من صد الاسرائيليين حتى حل الظلام ، وراحت دباباتهم تتراجع بنجاح وبسرعة فى اتجاه القناة »

ويتبين من هذا أن القوات المصرية كانت تقوم حتى مســـاء الثانى من نوفمبر بعمليـــات مؤخرة تعويقية لتغطية الانســحاب ، وهنا كان الاسرائيليون قد وصلوا الى النقطة التى كان ايدن قد زعم وصولهم اليها فى الثلاثين من اكتوبر أى قبل ثلاثة أيام كاملة . ومع ذلك لم تكن القوات التى وصلت الى هناك الا طليعة أمامية فى الدبابات ، ما فتئت حتى تلك اللحظة تلقى مقاومة مصرية منظمة وعنيدة ، برغم انقضـــاء يومين على صدور الامر بالانسحاب .

وتظهر هذه الصورة نفسها عندما نستدير جنوبا الى مضيق المتيلة وكان القائد المصرى هناك قد تلقى الاوامر بالانسحاب فى ساعة مبكرة من ليلة الواحد والثلاثين من اكتوبر ، وشرع على الفور فى تنفيذها وهكذا عندما شرع اللواء الاسرائيلى الكامل فى الهجوم فى الصباح ، وجد أن معظم الخطوط المصرية قد أخلى من الجنود الذين خلفوا وراءهم جماعات مؤخرة صغيرة لتغطية الانسحاب بزرع الالغام فى الطريق، واعاقة التقدم الاسرائيلى ولكن الاسرائيليين وقد أنهكهم القتال ، على حد تعبير الرائد أوبيلانس، لم يحاولوا التقدم غربا طيلة ذلك اليوم كله ، ولم يحاولوا أيضا التقدم باتجاه القناة طيلة الثانى من نوفمبر ، اذ لم يستطيعوا اسكات آخر جيب من جيوب المقاومة المصرية الصغيرة فى المضيق قبل الثالث من نوفمبر .

ونعود فنتطلع الآن الى الوضع فى أقصى الجنوب فى شرم الشيخ: ولم



الهجوم الاسرائيلي ⟵ الانسحاب المنظم ⟵ - - - عمليات المؤخرة ||

يكن التقدم الاسرائيلى نحو حامية هذا الموقع قد حقق نجاحا كبيرا ولم يشرع فى هجومه الفعلى قبل الرابع من نوفمبر ، وكان القائد المصرى فى شرم الشيخ قد تلقى أمرا من القاهرة بالانسحاب ، ولكنه رد على ذلك باستحالة التنفيذ وانه سيقاتل والحالة هذه حتى النهاية ، وكان الضابط يقود ألفا ومائتين من الجنود ليس الا ، تواجههم قوة اسرائيلية ضخمة مؤلفة من لواء مدرع كامل ، وبعض القطع البحرية فى أيلة ، وتعززها غارات جوية تقذف قنابل النـــابالم المحرقة ، وتنزل المظليين فى بعض المناطق، ومع ذلك ظل القائد المصرى صامدا حتى النهاية رغم ما أصيب به من خسائر أربت على المائتى شهيد والثلثمائة جريح ، ولم يستسلم الا فى الخامس من نوفمبر أى بعد خمسة أيام كاملة من تلقيه ما يشعره من القاهرة باستحالة وصول أية نجدات اليه ، وما يبلغه أن بقية القوات المصرية ، أخذت تنسحب من سيناء ، وهنا يجوز لنا أن نتساءل ، هل هذه الحقائق الثابتة المؤكدة تنطبق مع ما زعمه الاسرائيليون من « نصر خاطف » أو « هزيمة » ؟

وأرى أن أنتقل الآن بعد أن سردت ماوقع بعد ليلة الواحد والثلاثين من اكتوبر ، من صدور الاوامر بالانسحاب الى البحث فى عامل آخر ذى أهمية عسكرية بالغة الخطورة . فعندما وصلت التقـارير الى الرئيس عبد الناصر فى الاول من نوفمبر عن نتائج الغارات التى قامت بها الطائرات البريطانية على مطارات مصر • أصدر الزعيم المصرى أمرا آخر • وكانت هذه الغارات قد أنزلت بعض الخسائر بالمطـــارات المصرية ، فتوصــل عبد الناصر، على الرغم من حماسة قادة سلاحه الجوى، الى قرار آخر بوقف كل نشاط جوى مصرى • وكانت حفنة الطيارين المصريين الممتازين قد قامت بنحو من (١٥٥) عملية طيران فوق ســـيناء طيلة الثلاثين والواحد والثلاثين من اكتوبر ، وحققت نجـــاحا ، يفوق كل ما عرف من أرقام قياسية ، وان كانت الطائرات الفرنسية والاسرائيلية النفاثة التى تفوق سرعة الصوت ، قد بدت متفوقة كماً على الطائرات المصرية . أما الآن فقد تغير الوضع تماما • وبات لزاما على الطائرات المصرية أن تخترق السياج الجوى الذى فرضته الطائرات البريطانية والفرنسية فوق مصر ، قبل أن تصل الى سماء المعركة لتواجه الطائرات الفرنسية والاسرائيلية النفاثة التى تفوقها عددا والتى تعمل من مطارات سيناء نفسها. وآمن الرئيس عبدالناصر ، بأن قيام الطيارين المصريين بأية حركات جديدة فى مثل هذه الاوضاع ومن مطارات تتعرض باستمرار للقصف الجوى من الطـــائرات البريطانية والفرنسية يعتبر عملا انتحاريا ولا جدوى منه مطلقا •

ولم يكن هناك في القاهرة من يستطيع التكهن في هذه المرحلة أي بعد الاول من نوفمبر ، بحقيقة ما سيحدث ، وان كان التصميم قائما على القيام بنضال طويل ضد الغزو الانجليزي ــ الفرنسي وضد اسرائيل أيضا. وقرر عبد الناصر ان حفنة الطيارين المصريين الموجودين أثمن من أن نضحي بهم عبثا ، لان مصر ستكون في حاجة اليهم في نضالها الطويل المقبل • ولهذه الاسباب كلها ، أصدر الرئيس عبد الناصر أوامره بوقف كل نشاط جوى ، وراحت طائرات الاليوشن والميج ، يقودها طياروها ، تجد الملجأ الامين لها ، في مناطق بعيدة لا تصل اليها طائرات الدول المعتدية. وقامت بعض الطائرات العاملة من مطارين عسكريين في سيناء ، بآخر طيران بعد ظهر الاول من نوفمبر • وباتت الاجواء منذ تلك اللحظة على حد تعبير الرائد أوبيلانس ، السخيف ، تحت سيطرة القوة الجوية الاسرائيلية• ولكن يجب أن نضيف ، اذا كان هو قد نسي هذه الاضافة أو تجاهلها ، ان الاجواء باتت تحت سيطرة القوة الجوية الفرنسية العاملة في سيناء على مساعدة الاسرائيليين •

وأثر خلو الجو من الطائرات المصرية على القوات المنسحبة غربا في سيناء باتجاه القناة ، اذ أخذت الارتال المنسحبة تتعرض لجحيم من نيران الطائرات الفرنسية والاسرائيلية ، كما تعرضت لهذا الجحيم أيضا القوات التي كانت لاتزال صامدة في العريش وخان يونس وشرم الشيخ • وكان حاكم قطاع غزة قد نفذ أمر التسليم ظهر الثاني من نوفمبر ، لكن حامية خان يونس قررت أن تصمد ، وحاولت أن تستمر في القتال ، ولكنها لم تستطع المقاومة أمام ما تعرضت له من جحيم الذبابات والطائرات ، فانهارت صباح الثالث من نوفمبر •

وكان الانسحاب أمرا شاقا في وجه هذه الاوضاع التي لم يلقها جيش من الجيوش في الحروب العصرية ، لا سيما بعد أن فقدت القوات المنسحبة أي غطاء جوى ، بعد قرار وقف النشاط الجوى المصرى، وأصبحت هدفا صالحا للطائرات النفاثة المغيرة التي تستخدم ضدها المدافع الرشاشة والصواريخ والقنابل وقذائف النابالم المحرقة • ولا يعنيني هنا أن أبحث في أمر ما تميزت به هذه الغارات من بعد عن كل ما يسمى « بالاخلاق » لان الطيارين الفرنسيين والاسرائيليين ، كانوا يعرفون أنهم لن يواجهوا أية مقاومة سوى ما يحمله الجنود المنسحبون من مدافع وبنادق • ولكن الحاجة الى وضع الصورة على حقيقتها ماسة لاثبات ما في كلمة « نصر » من زيف ومين •

ولم يكن هناك أمل في النجاة أو في الرد على الطائرات المغيرة ، أو في النجدة تأتي من أية جهة كانت • وكان الضباط والجنود يعرفون ان بلادهم تتعرض لهجوم من دولتين عظيمتين . وأن الاوامر صدرت اليهم بالانسحاب من ميدان المعركة مع اسرائيـــل • وهم يرون أنفسهم سواء أكانوا مشاة أم في سيارتهم هدفا يائسا لنيران الرشاشات والصواريخ والقنابل والقذائف المحرقة والتي تحدث أزيزا مخيفا وهي تنزل عليهم من الطائرات الفرنسية والاسرائيلية التي تروح وتغدو كما تشاء • ولم يكن ثمة مكان تختفي فيه هذه القوات ، فالارض صحراوية ومكشوفة تعلوها الرمال •

ولا أدري ما سيكون عليه موقف جنود اسرائيل لو وجدوا انفسهم في مثل هذه الاوضاع النفسية والبدنية • ولكن ما أعرفه أن سلوك جنود مصر ، لم يكن مختلفا عن سلوك أي جنود يمتون الى أعظم الدول العسكرية • فالجنود ينسحبون وفقا لخطة مرسومة من القتال ، ويجدون أنفسهم فجأة وقد فقدوا كل حماية جوية ، وليست لديهم مدافع كافية ضد الطائرات وليس أمامهم من ملجأ أمين أو غطاء طبيعي من صخور أو أشجار تخفيهم عن عيون الطائرات المغيرة عليهم باستمرار •• انها أوضاع لاتنطبق في رأيي على أي عرف للمعارك • ومع ذلك فقد أثبت جنود مصر شجاعة وبسالة فائقتين في دفاعهم مما اضطر بن غوريون نفسه ازاءه الى الاعتراف به وهو مندهش في أول تقرير عسكري قدمه الى برلمانه •

ولو أخذنا بعين الاعتبار عدد الذين استشهدوا في معارك « شرم الشيخ» و «قسيمة» و «حيطان ديفلة» و «أبو عقيلة» طبقا للارقام التي اعترفت بهما اسرائيل نفسها لتبين لنا ، بوضوح ، أن هذه الارقام لايمكن أن يقدمها الا شجعان بواسل ، صمدوا في مراكزهم يقاتلون حتى النهاية •

وأرى لزاما علي الآن أن ألخص الوضع • ففي التاسع والعشرين من اكتوبر ، لم تكن اسرائيل قد حققت أي نصر في سيناء ، واذا كانت قد حققت أي نجاح ، فان هذا النجاح لم يكن اسرائيليا ، وانما كان بريطانيا ــ فرنسيا ــ اسرائيليا . وفي وسعي أن أقول : انه لم يكن هناك أي «نصر» بما تحمله هذه الكلمة من معنى حتى بدأ القصف الجوي البريطاني والفرنسي على مصر • وأما بعد صدور أوامر الانسحاب ، فلم يكن هناك في رأيي الا « نصر » واحد تستطيع اسرائيل أن تتبجح به في سيناء ، وهو ما أنزلته ، بهؤلاء الجنود المنسحبين المفتقرين الى كل حمـــاية جوية من خسائر في الارواح •

ونتساءل الآن ... ما مدى أهمية أوامر الانسحاب فى المعركة ؟ ان الرائد أوبالانس الذى سمح لنفسه باستعمال عبارة «نصر» برغم عدم وجودها ، والذى لا يمكن للصورة التى رسمها أن تسمى « مؤيدة لمصر » يحكم على الاثر الذى تركه التدخل الفرنسى الانجليزى على النحو التالى:

« لو لم يقع التدخل ، لطالت حملة سيناء أياما وأياما ، وأسابيع وأسابيع وقد لا تتغير النتيجة ، ولكن اسرائيل ، كانت ستخرج من القتال حتما ، وهى مثخنة بالجراح ومجهدة ماليا واقتصاديا وماديا ، وكانت خسائرها فى الارواح ستبلغ حدا مرعبا بالنسبة الى دولة صغيرة كاسرائيل » (١) .

وكانت العوامل الرئيسية فى هذه الحرب ، مقررة فى مجموعها منذ أمد طويل ، وهى من الوفرة بحيث يجب تقديمها فى أى تكهن عن الحرب لو وقعت فى شكل مغاير ، وكان من المستحيل أن نفترض حربا تقع فى شكل مغاير فى عام ١٩٥٦ ، فلو افترضنا مثلا عدم وجود «تدخل» فرنسى ــ انجليزى ، لتحتم علينا أن نفترض أيضا عدم وجود «تواطؤ» سابق، ومثل هذا الافتراض ، يستلزم ألا تكون هناك أزمة « قناة » وما رافقها من يهدتدات انجليزية ــ فرنسية مستمرة قبل سبتمبر وبعده ، واذا افترضنا أن «التدخل» الانجليزى ــ الفرنسى لم يقع، تحتم علينا أن نفكر «بتدخل» عربى ، كان لابد وأن يقع ، ولم يمنع وقوعه الا طلب القاهرة من الدول العربية بألا تتدخل وان تقف دون حراك .

وعلينا فوق هذا كله، اذا افترضنا عدم وجود «تدخل» انجليزى ــ فرنسى ، أن نضع بعد ذلك السؤال العريض الضخم .. هل كان فى الامكان فى مثل هذه الحالة أن يقع هجوم اسرائيلى ؟ انى أرى للاسباب التى شرحتها فى هذا الفصل وفيما سبقه من فصول ، ان ثمة مبررات تدعو الى الاعتقاد بأن مثل هذا الهجوم ماكان ليقع ، ولو وقع لما وقع فى اتجاه سيناء أبدا ، وهل كان فى وسع موشى دايان أن يتحدى القوة المصرية الكاملة التى تحتفظ بها عادة فى سيناء ، والقوات الاضافية التى كان فى وسعها أن تزج بها فى الميدان لولا الخشية من حشود قبرص ؟ وهل كان فى

---

(١) هذا ماراه هذا الكاتب المشايع لاسرائيل والذى يظهر تشيعه في اشارات الكاتب اليه وفي استخدامه لعبارة «نصر» اكثر من مرة ، وهو ادرى من سواه بانه لم يكن هناك اى نصر من اى نوع ، اما راى المحايدين فهو مختلف كل الاختلاف عن هذا الرأى ...
(المعرب)

وسعه أن يتحدى قوة مصر الجوية بدون هذه الطائرات النفاثة الفرنسية الستين التى جاءت لنجدته ؟ وهل كان فى وســعه أن يتجاهل الدول العربية الاخرى ؟

أجل لقد كان هناك نصر لاسرائيل فى سيناء ، ولكنه نصر على الورق ليس الا ، وفى صـــحافة الغرب وبرلماناته التى خلقت أسطورة « النصر الاسرائيلى المســـتقل» ولم تكن هذه الاسطورة آلا واحدة من الاساطير العديدة التى ظل الصهيونيون يخلقونها فى الغرب طيلة أربعين عاما .

١٣

الى النقطة التى لا ردة عنها

« كان فيوسع الولايات المتحدة الامريكية فيشهر اغسطس عام ١٩٤٥، ان تعمل على مساعدة البعث الثورى لاسيا ، وان تعترف بالتبدل الحتمى في الاوضاع الراهنة ، وان تتولى قيادة الثورة نفسها .. وكانت تلك الفترة بالنسبة الى آسيا من أكثر الفترات حراجة في تاريخ العالم ... ولكن الولايات المتحدة فشلت في أنتحمل لواء رسالتها التاريخية في آسيا، وذلك لان الحكومة الامريكية كانت آنذاك اكثر اهتماما بميزان القوى منها بالبواعث الاجتماعية » .

روبربرت بين ـ ١٩٤٩
في كتاب « تقرير عن امريكا » لجون داى

***

« هل ترانا سنكون مخلصين لتقاليدنا عندما نرى الشعوب الاسيوية تتقدم الينا طلبا للتفاهم والثقة . أو هل سيكون موقفنا منها موقف الزاجر، مرددين نغمتنا المأثورة .. سيسيطر عليكم الروس اذا لم تفتحوا عيونكم ؟ »

شيستر باولز في كتابه
« تقرير سفير » ـ لندن ١٩٥٤

***

هناك نوع من التاليف التاريخى بين هذه المعارك الضخمة التى تخوضها الآمال ضد التقاليد الاستعمارية وبينهذه الكوابيسالتيتخوض معاركها ضد الواقع • ولقد أتيحت للدول الكبرى ، المرة تلو المرة ، أوضاع نسميها نحن بنقاط التحول التاريخية ، تكون فيها دروس الماضى وعبره تحت تصرفها . ولكن هذه الدول الكبرى كانت تمر بهذهالنقاط بشيء من التردد المفجع مر الكرام ، فيظل الصراع قائما بل ويمضى فى الحدة والاشتداد • وآنذاك تقع النقاط التى لا تحول فيها ولا ردة عنها ، والتى لايمكن التأجيل فيها فى اعادة تقدير المواقف ، لأن السياسات والمواقف التى تتطلب اعادة التقدير والنظر قد هوت حطاما ، وقد أنتقل

زمام المبادرة الغربية في الشرق الاوسط ، بعد نقطة التحول فى السويس الى الولايات المتحدة ، وانتقلت معه الفرصة التى لا تقدر بثمن ، للافادة من عبر السويس ودروسها ٠

وكنت ذات يوم من أيام ديسمبر عام ١٩٥٦ ، أتحدث فى حانوت صغير فى بلدة أريحا (فى الاردن) الى رجل مثقف من اللاجئين الفلسطينيين عن الاثر الذى تركه عدوان السويس عند الخمسة والثمانين ألف لاجىء فلسطينى المقيمين عند سفوح جبل التجربة (جبل قرنطل وراء أريحا) فقال لى الشاب ٠٠٠ « اتعرف ٠ انه أمر مدهش ٠ فنحن كبار السن نهتم بالسياسة طبعا ، ولكن الغريب أن أجد ولدى الذى لا يتجاوز الثالثة عشرة من عمره ، يتحدث فيها ويفكر كما نفكر لأول مرة » .

وسألت الرجل بالطبع ، عمـــا قاله الصبى حتى حمله على قول ما قاله ، فابلغنى ان زلزالا أرضيا عنيفا وقع ذلك اليوم وهز الاردن كله ٠ وجاءه ولده يسأله عن سبب وقوعه ، فلما رد الوالد بأنه لا يعرف ٠٠٠ انفجر الولد هاتفا ٠٠٠ كم كنت أود لو وقع فى لندن وباريس وهدمهما ٠

وسأله أبوه ٠٠٠ ولمـــاذا لندن وباريس ؟ لا موسكو وواشنطن مثـلا ؟ ... فرد الصبى والدهشـة تعلو وجهه ... لا . لا . انهم أصدقاؤنا ٠

***

وكان نقع سيناء وبورسعيد قد بدأ ينجلى ، كما أن سورة الغضب العاصف ، أخذت تهدأ شيئا فشيئا ٠ ولقد انتهى الخطر الحاد الماثل ٠ وسلبت حكومتا ايدن وموليه بلاديهما ما كان لهمـــا من نفوذ نافع فى الوطن العربى ، وكان ايدن فى هذا أكثر ضررا من زميله ٠ فلقد كان فى مكنة العرب أن يفهموا أن تخوض فرنسا حربا ضدهم فى مصر ، طالما انها تخوض حربا ضدهم فى الجزائر ، ولذا لم يكن عدوانها غريبا بالنسبة اليهم ، لكنهم أصيبوا بما يشبه الصدمة العنيفة من جراء عمل بريطانيا ٠ وكانت هذه الظاهرة غريبة ولكنها مألوفة فى المفاهيم القومية ٠ ففى هذه الموجة من الغضب الثائر ، كان المرء يسمع أحيانا من العرب قولهم ٠٠٠ « لا ريب فى أن ايدن رجل مريض ٠ ومريض للغاية ٠ اذ ليس من المعقول أن تقدم بريطانيا على مافعلته » ٠ ويميل الانســـان الوطنى الى دراسة الحدود المحتملة لما يمكن أن يقوم به خصمه من أعمال على ضوء مصالح هذا الخصم وحدها ٠ وعندما يقوم هذا الخصم بعمل يقضى على مصالحه

هو ، فان الوطني لا يكتفي باظهار الدهشة وحدها ، وانما يحس أيضـــا وبطريقة غريبة بالالم من أجل خصـــمه • وليس هذا الشـــعور زائفا ولا مصطنعا ، وانما هو شعور حقيقي أصيل •

لكن كل هذا لم يكن أكثر من مجرد التفاتة متباطئة الى الماضي • فلقد خلفت الدولتان الكبريان فعــــلا فراغا في المنطقة ، وكان في وسع المرء أن يلمس هذا الفراغ في كل مكان • ولكن ترى أي نوع من الفراغ خلفتا ؟ وجد العرب أنفسهم يتأرجحون بين الاحساس بالاعتراف بالجميل للاتحاد السوفياتي ، وبين التوقعات المذهلة والتي لا تكاد تصدق من جانب أمريكا • حقـــا لقد كان هذا هو الميزان الصحيح ، الاعتراف بجميل موسكو ، والامل في واشنطن • وأخفتت أصوات المدافع في بورسعيد وسيناء ، وتلك التي ما زالت مدوية في الجزائر منذ عام ١٩٥٤ ، هدير الدبابات السوفياتية وهي تقتحم شـــوارع بودابست • ولكن اذا ظلت مذابح المجر ، خفية على العرب لا يرونها • فان موقفهم الاساسي من الحياد لم يتبدل أبدا • وعاد الغرب يخطيء في قراءة الوضع وتفهمه من جديد • فالشعور بجميل موسكو لا يعني مطلقا الاستعداد لتوقيع أحلاف معها ، أو منحها أية قواعد • وعلى النقيض من ذلك تماما ، فان الطريقة التي اتبعتها روسيا في تهديد بريطانيا وفرنسا بالصواريخ ، قد ذكرت القادة الوطنيين بشيء من القوة ، بأن هناك دولة عظمى أخرى • (١)

وأخطأ عدد كبير من العرب في الوقت نفسه ، في فهـــم ما عملته أمريكا • وقد اعتبر هؤلاء عملها مجرد اســـتنكار لهجوم استعماري • وانطلقت بارقة أمل لفترة قصيرة في شهر نوفمبر عام ١٩٥٦ ، ما لبثت أن عمت العرب ، في أن تكون الولايات المتحدة قد تخلت عن ذلك الطراز من السياسات الذي ورطها في سحب عروض القروض للسد العـــالي ، وانها قد عادت الى تقاليدها المناهضة للاســـتعمار • واذا كان قد وجد فراغ في الشرق الاوسط ، فان هذا الفراغ لم يكن متعلقا بالنفوذ بـــل بالآمال المتجهة الى أمريكا • وليس ما أقوله مجرد تلاعب في الالفاظ أو

---

(١) ألقى الرئيس عبد الناصر خطابا عنيفا في الواحد والعشرين من نوفمبر ١٩٥٦ أعلن فيه ان مصر لن تصبح دولة تابعة لأية دولة عظمى ، وقال انها لن تسير في ركاب الماركسية أو الفاشية أو العنصرية أو الاستعمارية أو الاستيطانية . ولاريب في أنه كان مصمما على مراقبة شعور الاعتراف بالجميل الذي غمر جمـــاهير شعبه . وظلت اذاعة القاهرة تذكر المستمعين طيلة الفترة التالية بأن القومية العربية لا تعني الشيوعية . (المؤلف)

اســـــتعارات ، بل كانت اللحظة تاريخية من تلك اللحظات التى يمكن مقارنتها بما وقع فى آسيا فى عام ١٩٤٥ • والتى يمكن اعتبارها نقاط تحول لا ردة عنها •

ولم يتح للولايات المتحدة فى أى وقت منذ عام ١٩٤٨ ، أن تقف مثل هذا الموقف المليء بالفرص فى الشرق الاوسط • ويتساءل المرء ماذا عنته تلك الفرص يا ترى ؟ لم تكن الحـــاجة ماسة آنذاك لاية خطوات مثيرة ، كما لم يكن هناك أى مجال لترياق شاف ، ولم يكن فى الامكان اجراء أية محاولة فى موضوع فلسطين لعدة أشهر قادمة على الاقل ، كما لم يكن من المتوقع القيام بأى شيء عاجل فى موضوع قناة السويس • وكل ما كانت الحاجة ماسة اليه آنيا ، هو أن تتبع أمريكا سياسة حذرة ، واضحة تعمل على تشجيع ثقة القوميين العرب بها ، وتستغل ببطء ولكن بشيء من التأكيد ، ذلك الوفر الضخم من الآمال التى علقها العرب عليها من جراء موقفها تجاه العدوان الثلاثى على السويس •

وكانت الحاجة ماسة من الناحية العقائدية الى ايماءات واضحة من جانب الولايات المتحدة تشير الى استعدادها للتسليم للعرب بموقف عدم الانحياز الذى سلمت به للهند ، والى اعترافها وتفهمها لحلم العرب فى وحدتهم ، وانها على استعداد للســـماح للعرب باختيار القيـــادة التى يشاءونها • أما اذا تعذر على الولايات المتحدة أن تتخذ هذه المواقف كلها • فقد كانت فرصتها تحتم عليها على الاقل أن تمتنع عن مطالبة العرب ، وهزة العدوان الانجليزى ــ الفرنسى ، ما زالت حية وقوية فى اذهانهم ، بالاعتقاد بأنهم معرضون لخطر العدوان السوفياتى •

لكن شيئا واحدا ، كان واضحا كل الوضوح بحيث بدا لى أن من الفجاجة بمكان أن أدونه وأنا أطوف أرجاء المنطقة فى نوفمبر عام ١٩٥٦ اذ لم يكن من مصلحة أمريكا نفســهـــا ، ولا من مصلحة الغرب عامة فى المنطقة أن تبحث هى عن الحصول على التزامات سوقية (استراتيجية) جديدة من المنطقة او من أية دولة عربية ، مهما كان الاسم الذى ستتحمله هذه الالتزامات • ولم يكن الوضع يسمح بتفضيل دولة عربية على أخرى أو اختيار تلك العهود الراغبة فى قيام مثل هذه الالتزامات • فلقد جاء عدوان السويس بمثابة دليل جديد للشباب العربى بأن الحلف الاجنبى فى أى مكان من الوطن العربى يهدد المنطقة كلها • ولم يكن ثمة جدوى من مناقشة هذا الرأى ، فهناك حقيقة مجردة وهى أن التسهيلات الخاصة باتفاقات حلف بغداد والتى تشمل السماح بقيام قواعد للسلاح الجوى

البريطاني في العراق ، كانت جزءا لا يتجزأ من الشبكة السوقية لدولة عظمى ، لم يمض طويل وقت على غزوها مصر .

يضاف الى هذا أن تبنى الولايات المتحدة لسياسة عدائية تجاه مصر وسورية ، يعرضها لعداء الملايين من العرب خارج هذين البلدين أيضا . فلقد تحطم النسيج الغربى كله عن موقف عبد النـــاصر ، على صخرة السويس التى أدى هو الى العدوان عليها ، ولم تكن هذه النتيجة مجرد تخمين أو افتراض مطلقا .

لا انها ليست فرضية بل حقيقة واقعة ، انطلق صوتهـــا عاليا فى سماء كل عاصمة بل قرية عربية ، ولم يكن المستر ايزنهاور فى حاجة الى أن يهدى الرئيس عبد الناصر مسدسا آخر مطليا بالفضة ، غربونا على صداقته وكان فى وسع ساسة أمريكا أن يحملوا ما يشاءون من آراء شخصية عن الرجل . ولكن كان من الضرورى جدا تجنب سياســـات تتعارض مع الاتجاهات التى جعلت من عبد الناصر الزعيم والرمز للعرب جميعا .

ولم تكن هذه الضرورات بالنســـبة الى السياسة الامريكية تمثل مثالية أو احسانا ، وانما كانت فى حكم كل تقويم صحيح ، الرد المصلحى والصادق على « المقدمات » السوفياتية . فلقد أضحى الاتحاد السوفياتى فى الواقع دولة من دول الشرق الاوسط فى دبلوماسيته ، وهو وضع لم يكن فى الامكان تبديله فى عام ١٩٥٧ كما لم يكن فى الامكان تجنبه فى عام ١٩٥٤ . وقد قرر الاتحاد الســـوفياتى أن يدخل حلبة الصراع الثقافى المستمر فى الوطن العربى الثورى . وبينما كانت مراكب الانقاذ التابعة للامم المتحدة تتولى تطهير القناة . كانت فرقة للرقص الشعبى التشيكى تؤدى أدوارها على مسرح دار الاوبرا فى القـــاهرة .. وهى الدار التى بنيت للامبراطورة الفرنسية يوجينى عند مجيئها الى القاهرة لافتتاح قناة الســـويس . والتى كانت أوبرا « عائدة » لفيردى ، أول ما مثل على مسرحها . ولم يكن فى الامكان أيضا الحيلولة دون اشـــتراك الاتحـــاد السوفياتى فى هذه المنافسة الثقافية . وكان الاتحاد السوفياتى قد أخذ يسعى الى التغلغل عميقا فى أسواق تجارة الوطن العربى ومشاريع عونه الاقتصادى .. وقرر الاتحاد السوفياتى أن يكون دولة عظمى ذات مهابة فى عيون العرب ، يتـــولى الدفاع عن حركاتهم الوطنيـــة . والتأكيد لهم باحترامه لحيادهم ، وبيعهم ما يحتاجون اليه من سلاح وسلع، دون أية اشتراطات سياسية ومقدمة اليهم ما يحتاجون اليه من قيود غير مشروطة

بفوائد طويلة الاجل لا تعدو الاثنين والنصف فى المائة . فهل كان فى مكنة الغرب أن يرد على الاتحاد السوفياتى ردا ايجابيا فى كل هذه النواحى ؟

وكانت هناك فى التركيب المعقد للسياسات السوفياتية ، بعض الآمال التى تنال حق الأولوية والتفضيل على غيرها . وكان أول هذه الآمال ، امكان العثور ضمن الحركة القومية العربية التى يسميها الشيوعيون « بورجوازية » والتى يقودها الرئيس عبد الناصر ، على عدد كاف من الرجال المتسترين عقائديا بحيث يصبح فى الامكان اضفاء تصاميم الصداقة العربية ـ السوفياتية ـ الصينية ، على المشهد الكامل للحركة العربية . لكن آمال الخبراء الروس فى شئون الشرق الاوسط فى تحقيق هذا الهدف مالبثت أن طاشت فى نهاية عام ١٩٥٦ . ففى مصر ثبت أن عبد الناصر لايمكن أن يكون من ذوى العقائد الانطوائية المتسترة كما توقف فى سورية التعاون التكتيكى المعادى للرجعية بين البعثيين الاشتراكيين وبين شيوعيى خالد بكداش . أما الشيوعيون فى مصر . فكانوا اما رهن المراقبة الشديدة أو رهن الاعتقال . وكانت موسكو نفسها قد يئست من نشاطهم وحيويتهم ، وأصبحت تطلق عليهم اسم الانتهازيين (١) .

ولكن ظل هناك هدف بعيد المدى ، وهو السعى الى الرفع من مكانة الاتحاد السوفياتى دائما فى عيون العرب ، بحيث اذا حلت لحظة ثورية مواتية فى مكان ما خارج مصر ، ظهر حزب شيوعى محلى ، ضمن اطار جبهة تقدمية ، يفرض عن طريقها سلطانه السياسى المباشر . وكان الابقاء على هذا الاحتمال قائما ، يتطلب ثلاثة شروط أساسية : أولها : اهتبال الفرص المستمرة المواتية للظهور أمام العرب بمظهر المدافع عنهم أمام المطامع الاستعمارية الغربية . وثانيها : استغلال كافة الفرص للظهور أمامهم أيضا بمظهر الدولة الكبرى الوحيدة التى تمنح القروض غير المشروطة الى دولة الحياد العربى ، وثالثها : الابقاء على التجزئة الرسمية والسياسية بين العرب ، بحيث يمكن القيام بعمل مرن متلون لمواجهة زعامة عبد الناصر .

---

(١) قام المؤلف بتحقيقات خاصة في هذا الموضوع لدى عدد من مصادر الاعلام . ففى عام ١٩٥٧ ، منع عرض أحد الافلام السوفياتية في دمشق . والغى عرض سلسلة من الأفلام السوفياتية في مهرجان سينمائى في القاهرة . (المؤلف)

وكان من الواضح الى حد بعث الرعب فى النفوس ، أن فى امكان الاتحاد السوفياتى • أن يحقق هذه الشروط الثلاثة بسهولة مابعدها من سهولة ، اذا سلكت الولايات المتحدة سلوكا خاطئا بعد انتهاء مشكلة السويس • وكانت الدول المعتدية الثلاث فى سيناء والسويس ، قد حاولت علنا وجهارا ، أن تبرر عدوانها بين ماقدمته من تبريرات بالحاجة الى مواجهة خطر العدوان الروسى فى الشرق الاوسط • وكان هذا الادعاء بمثابة تضليل وخداع صارخين فى عيون العرب ، بل حجة باطلة لجأ اليها الاستعمار الغربى ، أظهر الموقف الذى اتخذه الاتحاد السوفياتى بطلانه وكذبه ، ولقد ثبت للعرب ، ان المساعدات الغربية مشروطة ، بل مغالية فى شروطها • وبدت حكومتا سورية والاردن (فى عهد الحكم الوطنى) وورائهما تأييد شعبى قــوى ، راغبتين رغبة أكيدة سجلتها الوثائق الرسمية ، فى اقامة اتحاد تعاونى (فيدرالى) مبكر ، مع مصر ، كخطوة حثيثة فى طريق انجاز الوحدة العربية الشاملة التى جاء عدوانا سيناء والسويس دليلا واضحا على ضرورتها السريعة • وهكذا ظهرت ثلاثة تساؤلات جوهرية أمام العرب ، كان عمل الولايات المتحدة أن تجيب عنها • وقد توقف على طريقة جوابها ، كل ما للغرب من علاقات مع العرب ، وكل ما لموسكو من فرص فى المستقبل •

وظهر هناك عامل آخر فى هذه الفترة من الترقب فى اواسط نوفمبر عام ١٩٥٦ ، ويتلخص فى مخاوف رجال العهد القديم المحافظ فى الشرق الاوسط وأهدافهم ، من جماعات نورى السعيد وشمعون ، وساسة المدرسة القديمة فى الاردن ومعظم أفراد الاسرة المالكة السعودية ، اذا وجد هؤلاء الافراد عونا خارجيا قويا ، وكان نورى السعيد قد اعتمد سنوات طويلة ، على ذريعة الخطر الشيوعى لاضطهاد المعارضة الوطنية داخل العراق ، والحفاظ على العون الغربى لعهده ونظام حكمه ، ورأى رجال المدرسة القديمة فى العهود الرجعية فى الشرق الاوسط ، فى الجهود المحمومة التى بذلتها حكومة ايدن لتبرير عدوانها على السويس بادعاء وجود قواعد سوفياتية فى سيناء ، دليلا مرشدا لهم يستطيعون السير على منواله والتمسك به • وكانت الدولة الغربية الوحيدة التى ظلت تملك شيئا من المبادرة فى الشرق الاوسط ، هى الولايات المتحدة وكانت مصابة بعصاب أكبر ضد الشيوعية ، يبلغ حدود الهوس • وقد فشلت الخطة التى رسمها نورى السعيد مع ايدن لضم الاردن الى العراق ، وجرت انتخابات حرة هناك فى الواحد والعشرين من أكتوبر أسفرت عن فوز العناصر الوطنية بالاغلبية الحاسمة • لكن الخطر من قيام وحدة

بين مصر والاردن ، ظل متوقفا على قيام وحدة بين مصر وسورية ٠ ورأى نورى السعيد وهو الماكر الداهية ، فى سورية الفرصة لاعادة التوازن مع القومية العربية الفتية التى يمثلها عبد الناصر ، وللحصول على عون أمريكى حاسم . وكانت هناك حتى فى صفوف الجيل العـربى الجديد جماعات من المثقفين ثقافة غربية ، وكانوا يخشـــون متأثرين بالدعايات الغربية الكاذبة التى يقرءونها من أن يغدو عبدالناصر اسير الســياسة السوفياتية ٠ ورأى نورى السعيد فى كل هذه العوامل فرصة فعزم على اهتبالها ، ولم يضيع وقته ٠

وصدرت فى أواسط نوفمبر موجة صوتية متصاعدة تنشر الشائعات التى تبعث الرعب ، وتنسبها الى المصادر الموثوق بها ، ناقلة اياها الى الغرب ، زاعمة أن المقدم عبد الحميد السراج رئيس المكتب الثاني السوري (آنذاك) ، يوشك أن يصبح « القوميسار الاحمر فى سورية » وقيل ان هناك انقلابا مشايعا للسوفيات يوشك أن يحدث فى سورية ، كما قيل ان الطائرات السوفياتية النفاثة شوهدت فى مطارات سرية فى سورية ، وان الخبراء السوفيات يتدفقون على البلاد ، وهم متنكرون تنكرا بسيطا ، ولم يكن فى سورية الا عدد قليل من الصحفيين الغربيين ، اذ أن البلاد كانت لا تزال فى حالة طوارىء نتيجة العدوان الثــلاثى ، وكانت تغلق حدودها اغلاقا محــكما ٠ وانتشر الذعر فى الغرب انتشــار النار فى الهشيم ، تغذيه الروايات التى تصدر عن بغداد وبيروت وأنقرة وباريس ولندن ٠ (١) ولكن مؤلف هذا الكتاب ، تمكن من التــجول بحرية فى سورية داخلا اليها وخارجا منها كما يشــاء ٠ وتبين له أن كل هذه الشائعات ، كاذبة ولا أساس لها من الصحة ، وأن عبد الحميد السراج ليس الا ضابطا وطنيا شابا ، وقد أثبتت الايام صحة رأى المؤلف اذ أن السراج سرعان ما قاد فى عهد الجمهورية العربية المتــحدة حملة لمكافحة الشيوعية فى الاقليم السورى . وعلى حين كانت الانباء الرسمية المستمرة التى يوحى بها شمعون ، تحتل صحف بيروت متحدثة عن الخطر الشيوعى فى سورية ، راح ضابط كبير فى المخابرات اللبنانية يعترف لى بصراحة ، انهم على يقين من أن السراج ليس شيوعيا ٠

---

(١) نشرت « التايمز » اللندنية في عددها الصادر في ٢٨ نوفمبر عام ١٩٥٦ رسالة من بغداد تقول ان المستشارين الروس يتدفقون على سورية . وان الاسلحة الروســية بدت تغمرها وان رئيس الوزراء صبرى العسلى رجل لا حول له ولا طول ، وان السراج هو حاكم سورية المطلق ٠ (المؤلف)

لكن الضرر كان قد وقع وحتى قبـــل أن يتمكن رجال من أمثال هانسون بلدوين المحرر بصحيفة « النيـــويورك تايمز » من الطيران الى سورية باحثا عن القواعد السوفياتية ليعـــود فيبعث الى صحيفته بأنه لم يعثر على قاعدة واحدة منها • وراح المســتر دالاس يعلن تأكيد بلاده مساعدتها لحلف بغداد • وأخذت واشنطن تعج بالانباء الرسمية عن خطوة أمريكية جديدة تهدف الى « مواجهة الخطر الشيوعى فى الشرق الاوسط » ومعالجة وضع « فراغ النفوذ » الذى خلقته أزمة السويس • وراح نورى السعيد فى أواسط شهر ديسمبر وبعد أن تمت له تهيئة الرأى العام فى الغرب ، يحاول القيام بانقـــلاب عسكرى مسلح فى دمشق ، فيبعث بالاسلحة العراقية عبر الحدود الى شركائه من السوريين المتآمرين • (١) وتمكنت الحكومة السورية من احبـــاط المؤامرة ، ولكن عندما بدأت محاكمات المشتركين فى المؤامرة الانقلابية ، أخذت بغداد فى اشـــباع وسائل الاعلام الغربية بنظريتها عن « المحـــاكمات الصورية على الطراز الشيوعى فى سورية » •

وحملت أسلاك البرق ليلة الخامس من يناير عام ١٩٥٧ الى بيروت الرسالة الخاصة التى وجهها الرئيس ايزنهاور الى الكونجرس الامريكى والتى باتت تعرف بمبدأ ايزنهاور . وكانت هذه الرسالة أول بيان رئيسى عن السياسة الامريكية فى الشرق الاوسط منذ انفـــجار سيناء • وقد ضمت الرسالة عدة ألوف من الكلمات ، وكانت موجهة قبل كل شىء الى الكونجرس الامريكى ، وان كانت الاستعدادات الرسمية والدبلوماسية قد اتخذت من قبل لضمان وصولها الى أكبر عدد من العرب • وعلى الرغم مما فى الرسالة من عدد كبير من الكلمات ، فان الفقرات التالية ، كانت الاشارات الوحيدة التى تمت ولو من بعيد الى الافكار والمخاوف والعواطف التى كانت تجتاح الوطن العربى عندما خرج من محنة السويس وسيناء ••• قالت الرسالة :

« وقعت مؤخرا حركات حربية أقحمت فيهـــا الدول الغربية التى كانت تتمتع بنفوذ كبير فى المنطقة نفسها • وادى الهجوم الكبير نسبيا ، الذى شنته اسرائيل فى شهر اكتوبر الى توسيع شقة الخلافات الاساسية

---

(١) عثر على الادلة القاطعة على محاولة الانقلاب فيما بعد في أوراق نورى السعيد الخاصة بعد ثورة العراق ، ولم يحاول أى من رجال نورى الســعيد انكار صحتها في محاكمات بغـــداد ١٩٥٨ ، وان كان هؤلاء قد انكروا بعض التهم الاخـــرى التى وجهت اليهم • (المؤلف)

القائمة بينها وبين جيرانها العرب . وعملت الشيوعية الدولية على تضخيم ما وقع من عدم استقرار ، مستغلة اياه أحيانا كل استغلال ... ولن يحل هذا البرنامج الذى وضعت ، جميع مشكلات الشرق الاوسط .. فهناك مشكلات فلسطين ، ومشكلة مستقبل اللاجئين العرب .

« وهناك مشكلة الوضع المقبل لقناة السويس . وتزيد الشيوعية الدولية فى حدة هذه المتاعب ، ولكنها تظل فى معزل عن تهديدها .

« ويهدف التشريع المقترح الى معالجة احتمالات العدوان الشيوعى سواء أكانت مباشرة أم لا مباشرة » (١) .

وهكذا كان المستر ايزنهاور يتحدث عن « شرق أوسط » لا يشبه فى قليل أو كثير «الشرق الاوسط» الذى كان مؤلف هذا الكتاب وغيره من الصحفيين الغربيين يتولون آنذاك دراسة أوضاعه . فلقد كان الوطن العربى لايزال يترنح من صدمة العدوان الغربى الثلاثى . ومع ذلك يقوم رئيس الولايات المتحدة بعد أن يعرض لهذه الاحداث بعبارتين يصف فيهما عدوان الدولتين الكبيرتين « بالحركات الحربية » وعدوان اسرائيل « بالهجوم الكبير نسبيا » ، فيبدى رأيه فى أن هذه الاحداث لا يمكن أن تقاس بخطر العدوان الشيوعى . وراح مراسل التايمر اللندنية فى واشنطن يبعث بعد أسبوع من صدور رسالة ايزنهاور الى صحيفته بالبرقية التالية .

« كانت وزارة الخارجية الامريكية تأمل منذ وقت ليس بالقصير انه فور جلاء القوات البريطانية والفرنسية عن الاراضى المصرية ، وفور خلاص عبد الناصر من الضغط الاجنبى ، سيتعرض عبدالناصر لمظاهر جديدة من الضغط من أسرة الدول العربية ، تفرض نفسها عليه فرضا فتخفف من غلوائه وعناده . ومن المتوقع أن تعنى وزارة الخارجية بتشجيع هذه الامتعاضات ضمن الاسرة العربية الواحدة ، عن طريق تطبيق وسائل الاغراء او الوعيد مع مجموعة الشخصيات العربية البارزة التى ستقصد واشنطن عما قريب » (٢) .

وكانت هذه المجموعة من الشخصيات التى أشار اليها المراسل البريطانى تضم الملك سعود ، وشارل مالك وزير خارجية لبنان الجديد

---

(١) عدد النيويورك تايمز في ٦ يناير ١٩٥٧ ، نص رسالة ايزنهاور .

(٢) عدد «التايمز» في ١٢ يناير ١٩٥٧ .

والامير عبد الاله ولى عهد العراق اسما وملكه فعـــلا • وقد تحدث الى فى هذه الآونة فى بيروت موظف كبير فى شركة الزيت العربية الامريكية (أرامكو) فقـــال ان شركته هى التى أعدت أمر زيارة ملك العربية السعودية الى واشنطن ، أملا منها فى أن يغدو الملك ســعود الشخصية التى تلتف حولها « جميع القوى المعادية لعبد الناصر والمناهضة لسياسة الحياد » • وكانت وزارة الدفاع الامريكية (البنتاجون) ، متلهفة على الوصول الى اتفاق عقد اجارة طويلة المدى لقاعدة الظهران الجوية التى كان يستخدمها السلاح الجوى الامريكى حتى تلك اللحظة بموجب عقود ايجار شهرية • وكان سعود بدوره متلهفا لزيادة عائداته ، التى كانت على الرغم من موارد الزيت أقل بكثير من نفقاته الشخصية ونفقات أسرته المالكة التى تبلغ عشرين مليون جنيه فى السنة ، أى خمس مورد الزيت والتى يدفعها كمرتبات شخصية لنحو من ألف أمير من أقربائه (١) •

ووقع تطور مهم آخر فى مصر فى شهر يناير ، لم يلق آنذاك أية عناية من مناقشات الصحافة العالمية • فلقد أدى تجميد أرصدة مصر من الاسترلينى والفرنك والدولار منذ شهر أغسطس عام ١٩٥٦ ، وما تبعه من وقف وصول المؤن ابان حرب السويس وسيناء ، الى البلاد أن أشرفت على الشلل الكامل • وتبلجت الحقيقة ذات يوم من أيام مستهل يناير ، عندما أدركت السلطات المسئولة ، أن مخزون الحنطة فى البلاد لا يكاد يفى باحتياجاتها الاستهلاكية مدة أسبوعين وان مخزون الزيت (البترول)، لايكفى لأربعة أيام ، وان ما فى البلاد من كميات البنسلين وبعض أنواع العلاج الاخرى ، قد استهلك فى مستشفيات بورسعيد وفى تلبية طلبات الجماهير فى بلاد يسهل انتشار الامراض السارية فيها اذا ضعفت الرقابة الصحية عليها • وناشدت الحكومة المصرية الولايات المتـــحدة أن تبعث اليها بعون عاجل ، ولكن المستر دالاس ، رفض تلبية هذا النداء ، وبعثت مصر بطلب آخر الى واشنطن ، تسألهـــا فيه الافراج عن بعض أرصدة دولاراتها المجمدة لتتمكن من شراء ما تحتاج اليه البلاد حاجة ماسـة •

---

(١) كتاب سنت جون فيلبى « عبد الله فيلبى » ـ أربعون سنة في الصحراء • والمعروف أن نفقات الملك سعود الشخصية قد تجاوزت هذا الرقم الذى أورده فيلبى بكثير ، ولا سيما في السنوات الأخيرة ، عنـدما كثرت رحلات الملك الى الخـارج وتزايدت نفقاته على هذه الرحلات وعلى ما يقوم به من مؤامرات في أرجاء الوطن العربى • والمعروف أيضا أن هذه النفقات قد أربت مؤخرا على الأربعين مليونا من الجنيهات اى مايزيد على ربع الميزانية العامة كلها • (المعرب)

ولكن أمريكا رفضت تلبية هذا الطلب أيضا(١) وراح عبد الناصر بعد ذلك يبرق الى بولجانين فتلقى ردا فوريا منه بأن السلع التى تريدها مصر ، قد شحنت حالا وبينها ستمائة ألف طن من القمح • وعرف المصريون فى شهر فبراير من لون الخبز الذى أكلوه ، أن روسيا قد أقامت الدليل على أن : « الصديق عند الضيق » • أما ماحققه المستر دالاس من رفضه ، فكان أقل وضوحا وجلاء •

وعلى الرغم من أن دالاس كان ينفى بين الفينة والفينة ما يقال من انه يرى أن هناك « فراغ نفوذ » فى الشرق الأوسط ، وان احدى الدول العظمى يجب أن تملأه ، الا أن هذا التعبير ظل ينتشر ويذيع عند الناس ولا ريب فى أن هذا التعبير كان يعتبر عند الوطنيين العرب استفزازيا فى معناه • وعلق البانديت نهرو من مكانه البعيد فى دلهى الجديدة غاضبا على هذا القول : بأن هدف الوطنية الاصيلة ، الحلول محل كل نفوذ دخيل غريب • وقمت فى القاهرة بزيارة المكتبة التى أنشأها مكتب المعلومات الامريكى ، وواجهتنى فى مدخلها لوحة اعلانية ضخمة تقول ان هناك نسخا مجانية للتوزيع من « مشروع ايزنهاور » وقد حملت العنوان الضخم التالى : « هل هناك فراغ فى الشرق الاوسط ؟ » •

وأوفد الرئيس ايزنهاور المستر ريتشاردز مبعوثه الخاص بمشروعه ليجول أرجاء الشرق الاوسط ، ويطلع الحكومات العربية على مضامين السياسة الامريكية الجديدة • واكتسب المشروع نتيجة هذه الزيارات طابع الاتفاقات الثنائية التى يعقدها مع الحكومات الراغبة ، لمقاومة الشيوعية وسياسة الحياد وذلك فى البلاغات المشتركة التى كانت تصدر اثر زيارة المبعوث الامريكى لكل عاصمة عربية • وأخذت الخرائط الجديدة تظهر مرحلة اثر أخرى ، فى الصحف الامريكية والصحف البريطانية المحافظة مقسمة الشرق الاوسط الى مناطق « موالية للغرب » وأخرى « موالية لعبد الناصر » ، طبقا لموقف كل حكومة من مشروع ايزنهاور الجديد • وكان الوطنيون العرب ، يرون كل هذا ولا يغيب معناه عن أذهانهم • وأعلنت الولايات المتحدة الامريكية فى الثالث والعشرين من

---

(١) عدد صحيفة « التايمز » اللندنية في ١٨ يناير ١٩٥٧ . لمراجعة التفاصيل . وقد أطلع المؤلف على تفاصيل اخرى عن طريق التحقيقات التى قام بها في ذلك الوقت، والتى تأيدت له في المقابلة الصحفية التى اجراها مع الرئيس عبد الناصر في اواخر عام ١٩٥٨ . راجع أيضا مقابلة الرئيس مع رؤساء تحرير الصحف الامريكية في مارس ١٩٥٧ . (المؤلف)

مارس انها ستنضم الى اللجنة العسكرية لحلف بغـــداد • وكان المستر دالاس قد أقسم قبل أيام ، بأن الولايات المتحدة لم تأسف أبدا على قرارها سحب عرض القرض للسد العالى ، وأن « الاحداث » قد برهنت على أن هذه العروض لم تكن فى مصلحة أمريكا أو بريطانيا • ولا ريب فى أن مثل هذه التصريحات كانت تزكي شكوك العرب وتؤيدها وهكذا لم تمض فترة خمسة شهور ، حتى كانت أمريكا قد أضاعت الفرصة التاريخية التى أتيحت لها • فقد اتخذت السياسة الامريكية الجديدة شكلا ، كان فى امكان المرء أن يتوقع نتائجه ، وهى النتائج التى تحققت وانتهت فى يوليو ١٩٥٨ •

***

من المتعذر على الكاتب أن يعرض فى مجلد واحد ، كل ماوقع فى تاريخ الشرق الاوسط بعد أزمة السويس من احداث ، عرضا عميقـــا مفصلا ، متحدثا عن أزمة الاردن فى ابريل عام ١٩٥٧ وثورة لبنـــان ، والنقطة التى لاردة عنها فى بغداد فى الرابع عشر من يوليو (تموز) عام ١٩٥٨ وقد لا أوافق على التزمت والاصرار على رأى معين فى التـــاريخ الانسانى لان من طبيعة الانسان الشك فى كل تزمت ولكن القضية هنـــا من القوة والطغيان بحيث يتضح لـكل انسان ان العوامـــل التى دفعت السياسات الغربية فى الشرق الاوسط الى تلك النقطة التى لاردة عنهـــا لم تكن بنت ساعتها ، وانما كانت تنمو وتقوى منذ أمد بعيد قبل أزمة السويس • وكل ما آمله الآن ، ان تكون هذه الآراء السياسية والافكار والاخطاء ، قد أصبحت واضحة لقراء هـــذا الكتاب • ويمكن تلخيص ماأدت اليه هذه الآراء والاخطاء فى ثلاث من دول الشرق الأوســـط عـــلى النحو التالى : ـ ١ ـ الاطاحة بحكومة شعبية منتخبة فى الاردن ليحل محلها عهد يقوم على الاحكام العرفية ويستند الى الولايات المتحدة وبريطانيا. ـ٢ـ ثورة أهلية فى لبنان كلفت مئـــات الارواح وكادت تنقلب الى حرب أهلية طائفية لولا أن اللبنانيين ـ لا الامريكان ـ قد حالوا دونها فى الوقت المناسب ـ ٣ ـ ثورة فى بغداد قذفت بكل ما للسياسة الغربية من بنيان الى الحضيض ، محطمة اياه من أساسه •

أزمة الاردن فى ابريل عام ١٩٥٧

حملت الانتخابات التى جرت فى الثانى والعشرين من اكتوبر عام ١٩٥٦ ، أى قبل بضعة ايام من بدء حرب سيناء والسويس ، والتى تعتبر

حتى على حد تعبير التايمز (١) اللندنية، « أهدأ ما عرفته البـــلاد فى تاريخها من انتخابات واكثرها نزاهة » الى مقاعد البرلمـــان غالبية من الوطنيين . وأعلنت الحكومة الجديدة التى انبثقت عن البرلمان المنتخب والتى رأسها سليمان النابلسى ، السياسات التى كانت الاحزاب المشتركة فيها قد تعهدت ابان المعركة الانتخابية بتبنيها ، وهى سياسات تسـير فى التيار المباشر للقومية العربية التى يتولى قيـادها عبـد الناصر . وتضمنت هذه السياسات اقامة قيادة عربية مشتركة مع مصر وسورية وقيام علاقات دبلوماسية مع موسكو وبكين ولكن مع التزام سـياسة الحياد ، والغاء المعاهدة الانجليزية ــ الاردنية ، والسير فى خطوات فعلية للاتحاد مع سورية . وأوضحت المقابلة الصحفية التى أجراها النابلسى مع مراسل « التايمز » (٢) هذه السياسات ايضـاحا أوفى اذ قال : ان الاردن سيواصل قبول العون الامريكى غـير المشروط وسينشد السلاح فى الغرب أولا ، ولكنه لن يتوانى عن أخذه من أى مكان آخر اذا اقتضت الضرورة . وبدأت على الفور الخطوات اللازمة للاتحاد مع سورية ، اذ توحدت المناهج الدراسية وتم التوقيع عـلى وحـدة جمركيـة . وكان النابلسى صريحا كل الصراحة فى تحديد الهدف عندما قال فى بعض خطبه: أن مصير الاردن النهائى ، هو أن « يختفى » كيانه ويذوب فى وحدة عربية أشمل . ولم يحتج أحد على هذه الاقوال أو تلك السياسات ، ولم تقع مظاهرات عدائية ، فالهدوء يعم المملكة « المفتوحة » لكل انسان ، وذلك لان حكومتها كانت تتمتع بتأييد شعبى لاشك فيه .

وحظى الملك حسين الشاب ، آنذاك بقسـط من هـذه الشعبية . وسمح قادة الاردن الوطنيون سواء فى الجيش أو خارجه ، للناس بأن يصدقوا أن «حسين» وحده ، هو الذى طرد جلوب باشا فى مارس عام ١٩٥٦ ، وقبل الملك الغلام ــ تتنازعه سرا عوامل الادراك لما يريده شعبه حقيقة ، وما تفرضه عليه كبرياؤه الملكية ــ نتيجة الانتخابات ، متظاهرا بالترحيب بها ، ونال الملك اعجاب حتى الغالبية من رعاياه من أبنـاء فلسطين الذين لايدينون بأى ولاء خاص للأسرة الهاشمية وتقـاليدها . وراحوا يقولون عنه ... « يبدو انه قد تحول الى أكثر من ملك ، وأصبح وطنيا عربيا » .

لكن «حسين» لم يكن فى الحقيقة من ذلك الطراز الوطنى العربى الذى

---

(١) عدد « التايمز » اللندنية في ٢٢ اكتوبر ١٩٥٦ .

(٢) عدد « التايمز » اللندنية في ٢٨ ديسمبر ١٩٥٦ .

خاله شعبه وحكومته الجديدة ، والذى ظنه الرأى العام السائد فى الشرق الأوسط (١) • اذ لم يكن طويل وقت قد مضى على اخراج جلوب من البلاد ، عندما وقع حادث فى القصر أوضح الخلاف فى الرأى بين الوطنية التى يفهمها هو، والوطنية التى يفهمها شعبه. فقد استدعى الملك الفلام الضباط الاحرار ، الذين كانوا قد شجعوه على طرد جلوب ، وأعدوا بالفعل خطة ابعاده . وراح يشكرهم ، ثم قال لهم : انه يأمل فى أن يساعدوه الآن فى المهمة العظمى وهى «الدفاع عن القومية الاردنية ضد اعدائها » . وخيم صمت قصير على الموجودين ، وانبرى «على أبونوار» الضابط الشاب الذى يتزعمهم يقول : « لا نفهم يا صاحب الجلالة ما تعنيه كلمة القومية الاردنية . ولم يحدث قط أن تحدثنا اليك عنها. فنحن لا نعرف الا قومية واحدة ، هى القومية العربية » .

وقد تأجل منذ ذلك الحين ، الصدام بين الاهداف وان ظل قائما وراء الكواليس. وكان السبب الوحيد فىهذا التأجيل، هو أن «حسين» ورجال العهد القديم الذين يحيطون به فى القصر ، لم يستطيعوا ايجاد مخرج لهم من هذه الورطة • وتبخر بعد معركة السويس كل أمل لحسين فى العون البريطانى • وكان حسين يعرف انه مع العجز الذى يبلغ الاربعة عشر مليونا من الجنيهات فى العام فى موازنة حكومته ، لايستطيع البقاء مستقلا اذا توقفت المعونة المالية البريطانية التى تنص عليها المعاهدة ، فى حالة الغائها ، ولكنه كان يعرف أيضا ، أن شعبيته كلها تعتمد على السماح بالالغاء الموعود للمعاهدة بل على تشجيعه لهذا الالغاء • وكان يعرف أيضا أن الخطوة التالية لالغاء المعاهدة هى الانضمام الى سوريه وضياع عرشه • وبدأ لحسين وساسة العهد القديم حتى شهر يناير عام ١٩٥٧ ، انهم عاجزون عن عمل أى شىء مع هذه القوى الجديدة التى أقر حسين نفسه بظهورها • وبالفعل تم فى التاسع عشر من يناير اقرار معاهدة المعونة العربية المشتركة للأردن التى وقعتها كل من مصر وسورية والعربية السعودية •

لكن شيئا خفيا كان يدور فى تلك الآونة وراء الكواليس وظل مستمرا حتى ابريل من ذلك العهد ، وهو الخطوة الحاسمة التى قامت بها الولايات المتحدة ، وأطلقت عليها اسم « مشروع ايزنهاور » • وكان

---

(١) كان السبب الحقيقى الذى حمل حسين على الموافقة على طرد جلوب ، مقالا قرأه في نهاية فبراير عام ١٩٥٦ في احدى مجلات لندن ، تصف جلوب بأنه « ملك الاردن غير المتوج » . (المؤلف)

الرئيس النابلسى قد طلب معونة غير مشروطة منواشنطن بقيمة ثلاثين مليون دولار ، ولكن واشنطن رفضت طلبه هذا • وراح السفير الامريكى فى عمان فى هذه اللحظة ، يهمس فى اذن الملك حسين على انفراد بأن الولايات المتحدة ستعين الملك فى المحافظة على «استقلال» الاردن ، اذا تخلت حكومته عن سياسة الحياد وعن اقامة العلائق الدبلوماسية مع موسكو وبكين •• وراح السفير يطمئنه ، بأن أمريكا لاتطلب منه أن يؤيد مشروع ايزنهاور تأييدا علنيا ، نظرا لكراهية الشعب له ، ولكنها تشترط عليه أن يقيم الدليل للكونجرس على وجود خطر شيوعى فىالاردن ، وانالملك قادر على السيطرة على ذلك الخطر •

واستهل الملك الفتى العنيد تنفيذ اتفاقه مع السفير الامريكى ، برسالة وجهها فى الواحد والثلاثين من يناير الى الرئيس النابلسى يحذره فيها من الشيوعية ، وأمر باذاعتها ونشرها حتى قبل أن تصل الى رئيس وزرائه الموجهة اليه ، اذ رأى فى هذا العرض الامريكى الوسيلة التى تخرجه من الورطة التى يجد نفسه فيها • وكانت الخطوة الغربية فى هذا الموضوع أمريكية الصفة تماما ، ولكنها استخدمت معونة العربية السعودية الدبلوماسية • (١) لكن وزارة الخارجية البريطانية كانت على اطلاع على هذا الاستهلال فى المناورة الجديدة ، وعملت على مساعدته عن طريق تساهلها فى الغاء المعاهدة مع الاردن بعثا للآمال فى نفس حسين (٢) وأخذ النزاع يشتد احتداما اسبوعا بعد آخر بين الملك الذى انتحل لنفسه سلطات دستورية اضافية وبين الحكومة • ولكن الجانبين حرصا على ابقاء الخلاف بعيدا عن أعين الجمهور ، وكان دافع الحكومة الى ذلك ، أن كثيرين من أعضائها كانوا لايزالون يأملون فى امكان اقناع حسين بتقبل التيار الشعبى الواضح ، على حين كان دافع حسين والساسة القدامى الذين دبت الحياة فيهم من جديد ، تجنب كل مايؤدى الى الاضعاف من موقفه كوطنى عربى أمام الجماهير • ولم يدهش معظم الاردنيين من تصريحات حسين المعادية للشيوعية ، لانهم كانوا قد سمعوا من عبدالناصر أكثر من مرة أن « الشيوعية ليست طريق القومية العربية » • وكان

---

(١) عدد الايكونومست الصادره فى ٤ أيار ١٩٥٧ •

(٢) حصل السفير البريطانى مثلا على موافقة حسين على احتفاظ بريطانيا بحقوقها السابقة فى مرور قواتها العسكرية جوا فى سماء الأردن ثم جاء الى مائدة المفاوضات ليواجه الوفد الأردنى بقبول الملك كأمر واقع • ولكن الوزارة رفضت اعطاء بريطانيا هذه الحقوق • (المؤلف)

الرئيس النابلسى قد أوضح هذا الامر أيضـا أكثر من مرة ، وعاد فى التاسع عشر من مارس فكرر « أن الاردن لن ينتمى الى الكتلة الغربيـة أو الكتلة الشرقية » •

والغيت المعاهدة الانجليزية ـ الاردنية بصورة رسمية فى الثامن عشر من مارس عام ١٩٥٧ ، وشارك حسين مرة أخرى وزارته فى الشعبية العظيمة التى نالتها عند الاردنيين الذين طربوا ابتهاجا • ولكنه أحس أن الوقت قد حان الآن للعمل • وأوفد حسين فى الاول من ابريل رئيس ديوانه الى القاهرة ليطلب الى الرئيس عبد الناصر عقد اجتماع لرؤساء الدول العربية • ولم تعرف الحكومة الاردنية بما وقع الا بعد وقوعه • وطلبت الحكومة من حسين التمسـك بالدسـتور ، وان يطرد عددا من كبار الموظفين الرجعيين الذين يحتلون مراكز حساسة • والذين يؤازرونه فى اعماله هـذه المنافية للدسـتور . ولكن «حسين» رفض اجابة طلب الحكومة •

وتزعم الروايات الغربية فى حديثها عن أزمة ابريل التى وقعت فيما بعد ، أن الملك اكتشف مؤامرتين متعاقبتين للاطاحة به وانه « بشجاعته » احبطهما وانقذ الاردن من السيطرة الناصرية والشيوعية. ويجد القارىء الذى يهمـه الموضوع ، صـورة صحيحة لما وقع فى الذيل الذى الحقته بهذا الكتـاب . ويكفى أن أقول هنا : ان « حسين » نفسه هو الذى « اصطنع » هاتين المؤامرتين المزعومتين بمنتهى الذكاء ، كالوسيلة الوحيدة للخلاص من حكومة النابلسى ، مع الاحتفاظ لنفسه بالشعبية التى تمتع بها ، وذلك اعتقادا منه بأن هناك مجالا فى أن يلقى الدعم من الاردنيين اذا صدقوا بأن الحكومة كانت على وشك الاطاحة به ، على حين سيفقد هذا الدعم حتما اذا اكتفى باقالة حكومة النـابلسى دون أى سبب من الاسباب •

واقال الملك حكومة النابلسى فى العاشر من ابريل • وقدم وفـد من النواب فى الثالث والعشرين من ابريل سـلسلة من المطالب الى الملك الذى رفضها • ووقعت فى اليوم التالى مظاهرات جمـاهيرية واسـعة واضرابات عامة شملت البلاد كلها ، فلجـأ الملك الى اذاعتـه وألقى حديثا اتهم فيه مصر بأنها كانت وراء المؤامرتين اللتين سبق أن أعلن عن وقوعهما للاطاحة به ، واتهم النابلسى بالعمل فى خدمة الشيوعية واسرائيل ومبدأ ايزنهاور (وهى مزيج غريب من التهم يكفى مافيها من غرابة لاظهـار بطلانها) • وراح يعلن فى تلك الليلة نفسها فرض الاحـكام العرفية •

وشرعت قوات البدو الموالية له باعتقال الوطنيين ، وسرعان ما صدر عن واشنطن أكثر الاعمال خطورة منذ اعلان مشروع ايزنهاور • فلقد هرع الاسطول السادس الى الناحيــــة الشرقية من البحر المتوسط ، وهو يوجه انذارات صريحة مكشوفة بأن المظليين الامريكيين على اســـتعداد للنزول فى الاردن لحماية « كيان المملكة واستقلالها » • وراحت واشنطن تعلن تقديم منحة فورية وغير مشروطة قدرها عشرة ملايين دولار الى الملك حسين •

ولم ينتـــــه شهر ابريل حتى كان كل شيء قد انتهى فى الاردن • وأضحى أكثر من خمسمائة شخص من الوطنيين رهن السجون ، ورزحت البلاد تحت نير الاحكام العرفية الصارمة مدة سنة ونصف السنة • وبدأت مع مطلع مايو الحرب الـــكلامية التى تبودلت فيهـــا الاتهـــامات بين حسين والزمرة التى تحيط به فى قصره من ناحية وبين دمشق والقــاهرة من الناحية الاخرى • وهكذا أطاحت الولايات المتحدة بحكومة شـــعبية وببرلمان انتخب انتخابا حرا لم يقدر لهما أن يعيشا أكثر من أربعة أشهر وظهرت أمريكا فى عيون العرب فى كل مكان بمظهر الوارث لبريطانيا تقوم عنها بأداء الدور الذى اضطرت هى الى التخلى عنه • وكان عبد النـاصر قد حذر الغرب منذ أكثر من عام من أن « الشيوعية لاتكون خطرة الا عندما تستغل الرأى الجماهيرى للحركات الوطنية » • وهكذا افسح المجـــال لروسيا ، بعد أن سلمتها اياه الولايات المتحدة على طبق من الفضة •

واذا لم تكن الشيوعية فى الواقع قد أحرزت تقدما عظيما فى الاردن بعد ابريل عام ١٩٥٧ ، فان الفضل فى ذلك لايعود الى مشروع ايزنهاور ولا الى الموقف الذى وقفه الملك والذى راح الغرب يتغنى بشجاعتــــه وعناده ، وانما يعود ــ وهنا تقوم المفارقة العجيبــة التى تعتبر من زمرة المفارقات الكثيرة والتى لاتكاد تصدق فى هــذه الفترة من تاريخ الشرق الاوسط ــ الى تعلق عرب الاردن تعلقا قويا بالقومية التى يتولى عبدالناصر وانصاره قيادتها، وهىالقوة نفسها التىكان الغرب متلهفا علىتحطيمها. ولننتقل الآن الى لبنان ، حيث وقع ماهو أسوأ بكثير •••

ثورة لبنان :

كانت حقائق الشعور الشعبى فى الاردن ووقائعـــه واضحة كل الوضوح بعد أزمة السويس لاى خبير أمريكى كلف نفسه عنـاء دراسة وضع الانتخابات التى أوصلت وزارة النابلسى الى الحكم • ولا ريب فى

أن كل ما وقع في الاردن ، مما سردناه قبل قليل ، نجم اما عن جهل فاضح بواقع الوضع وحقائقه أو عن تجاهل متعمد لهذا الواقع وتلك الحقائق ، ولم تكن هناك في لبنان بعد حرب السويس وقائع أقل وضوحا وجلاء من مثيلاتها في الاردن ٠

ولقد ظل الميثاق الوطني الذي عقد عام ١٩٤٣ والذي اتفق عليه قادة المسلمين والمسيحيين ليوحدوا كلمتهم ضد السيطرة الفرنسية هو الموجه طيلة ثلاثة عشر عاما لسياسة الجمهورية الصغيرة الخارجية ولم يكن هذا الميثاق الا اتفاقا كريما عقد بين زعماء الطائفتين الكبيرتين ليكون اساسا لحركتهم المتحدة في سبيل الحرية وهو ينص في جوهره ، على وجوب التفاهم بين المسيحيين والمسلمين على سياسة « وسط » بالنسبة الى علاقات لبنان المتحرر مع العالم الخارجي ٠ ووافق المسلمون بالرغم من تشبعهم الفطري بالروح القومية التي تسود جيرانهم من العرب على أن يظل لبنان بلدا مستقلا ، شريطة أن « يظل له وجهه العربي (١) » ووافق المسيحيون بعد أن اطمأنوا الى ما حولهم من قومية عربية يسيطر عليها المسلمون أن يظل لبنان حرا من أية أحلاف مع أية دولة أجنبية ، أي مع الدول الغربية(٢) وكانت لدى الفريقين ذكريات قوية أخضعوها لارادتهم عندما توصلوا الى هذا الاتفاق « الوسط » ٠ وكان المسيحيون، بما لهم من ارتباطات ثقافية بالغرب ، يذكرون ماحدث في عام ١٨٦٠ ، في حين كان المسلمون يذكرون أن فرنسا ظلت طيلة قرن كامل ، ومعها بريطانيا الى حد ما ، تحاول استغلال وجود الجيوب المسيحية على سواحل البحر المتوسط لتؤمن لنفسها القواعد والسيادة على المنطقة ٠

وهكذا كان ميثاق عام ١٩٤٣ ، مقامرة جريئة في الفراهة السياسية اذ انها أتاحت للمسيحيين شيئا من التفوق في السلطان الداخلي ٠ ولكنه نجح نجاحا كاملا في السياسة الخارجية ٠ وكان لبنان واقفا مع أشقائه

---

(١) هذا القول مقتبس من العبارة الشهيرة التي وردت على لسان المرحوم رياض الصلح عند توقيع الميثاق في اكتوبر عام ١٩٤٣ ٠ ويمكن للقارىء الحصول على نص الميثاق من الصحف العربية التي صدرت في ذلك التاريخ ومن مجلة « منبر الشرق الاوسط » من مقال للسيد ديب في يناير ١٩٥٧ ٠

(٢) قال المرحوم رياض الصلح ٠٠ « لا يريد اخواننا في الوطن العربي من لبنان أن يكون للاستعمار مقرا ، او ممرا » ٠ (المؤلف)

العرب في موضوع اسرائيل . وتمكن بانضمامه الى الجامعة العربية في عام ١٩٤٥ من ضمان سيادته ، اذ أن ميثاق الجامعة العربية يضمن سيادة جميع الدول الاعضاء فيها . ولكن ميثاق عام ١٩٤٣ حال بين لبنان وبين الانضمام الى حلف بغداد . وكان يتولى رياسة الجمهورية فى اكتوبر عام ١٩٥٦ مسيحى هو كميل شمعون فى حين كان يتولى رياسة الوزارة ، وذلك طبقا للعرف الدستورى المتبع ، مسلم هو عبد الله اليافى وكان الاول معاديا عداء ظاهرا للتيار القومي الجديد الذى يتولى قياده عبد الناصر ، بينما كان الثانى يعرب عن عطف مسلمى لبنان على هذا التيار . وبالرغم من هذا التضارب كان فى مكنة لبنان أن يظل هادئا هدوءا معقولا فى أموره الداخلية عن طريق هذا التوازن الدقيق المعقول .

وجاءت ازمة السويس فكادت تمزق لبنان شر ممزق ، وذلك بالنسبة الى ماوقع من خلاف حول الاجراءات التى يجب على الحكومة القيام بها . فلقد اتقد غضب المسلمين من جراء العدوان الثلاثى على مصر ، وطالبوا لبنان بأن يقطع على الاقل علاقاته الدبلوماسية بالدولتين الباغيتين ، أى بريطانيا وفرنسا . ولكن الفئة المسيحية الحاكمة والتى يتولى شمعون رياستها رفضت أن تقوم بهذا الاجراء (١) . واشتد التوتر بين الجانبين . وفرض شمعون الاحكام العرفية ، ولم يكن فى الامكان حفظ النظام فى البلاد لولا الجهود التى بذلها قائد الجيش اللواء شهاب ، الحيادى النزعة ، وذو الكفاية الكبيرة . وآثر رئيس الوزراء اليافى الاستقالة على أن تنقسم البلاد الى قسمين ، بعد أن توصل الى اتفاق وسط مع الرئيس شمعون قضى بأن يقنرع لبنان فى الامم المتحدة مستنكرا عدوان بريطانيا وفرنسا ، دون أن يقطع علاقاته بهما . وتولى رياسة الوزارة ، سامى الصلح الكبير السن . الكثير الاستسلام ، وأصبح الدكتور شارل مالك ، الذى تعرفه أمريكا أكثر مما يعرفه لبنان وزيرا للخارجية . وأعربت الصحف اللبنانية عن ارتياحها لحل المشكلة الحل الذى حفظ لها وحدتها وصان لها ميثاقها الوطنى ، واستقبل اللبنانيون عام ١٩٥٧ وقد هزتهم الأزمة الماضية هزا ، وهم لايكادون يصدقون أن الجمهورية قد اجتازت المحنة وعاشت .

وفى هذا الجو من الهدوء الذى يعقب العاصفة ، والذى كان الحياد

---

(١) رحب شمعون وأنصاره سرا بالهجوم على مصر . وقد روى الملق المعروف دروبيرسون أن شمعون قال له : ان الخطأ الوحيد في الهجوم هو انه لم يسمح لاسرائيل بتوجيه ضربة قاضية الى الرئيس عبد الناصر . (المؤلف)

فيه بالنسبة الى لبنان أكثر من ضرورة قصوى ، نقلت أسلاك البرق الى بيروت ذات ليلة من ليالى يناير عام ١٩٥٧ نص مشروع ايزنهاور الجديد . وليس لهذا المؤلف من فضل فى أن يذكر : أن لبنان لو قبل تلك السياسة الامريكية الجديدة على النحو الذى اعلنت فيه ، لانفجر فى حالة من الاضطراب والفوضى لم يسبق له أن رأى مثيلا لها من قبل . ولم يمض أسبوع على اعلان المشروع ، حتى بدأت الأنباء تتردد وبصورة لاتكاد تصدق بأن واشنطن تأمل فى تركيز نفوذها على لبنان والعربية السعودية ... اذ يقال ان لبنان سيكون أول دولة تتلقى المعونة الاقتصادية ، على اعتبار أنه سيكون مركز الاستقطاب فى المنطقة الى الناحية الثانية (١) ولا ريب فى أن هذا الاستقطاب لم يكن يعنى فى عرف المستر دالاس الا اتخاذ موقف العداء للناصرية (٢) .

وهذا ماحدث فعلا . فقبل أن يقر الكونجرس الامريكى التشريع اللازم المتعلق بمشروع ايزنهاور ، راح شارل مالك يعلن موافقة لبنان على المشروع ، فى حين شرعت أجهزة الاعلام والدعاية فى البلاد ، فى شن حملة تأييد ضخمة له . ولعبت « مغانم » المعونة الامريكية ومخاوف المسيحيين ، وحملات التخويف من شيوعية السراج فى سورية ، والرشوة دورها فى الحصول على أغلبية فى البرلمان اللبنانى أيدت المشروع . واستقال سبع أعضاء المجلس على أية حال فورا احتجاجا على نتيجة الاقتراع ورفض الرئيس شمعون طلبا للمعارضة بتأليف حكومة انتقالية تشرف على الانتخابات العامة التى تقرر شهر يوليو موعداً لها ، وتمكنت حكومة شمعون ـ مالك ، من احراز الاغلبية الجديدة التى تريدها عن طريق تزييف الانتخابات . وكان هذا التزييف واضحا لجميع المراسلين الصحفيين الغربيين الذين يقدرون مسئولياتهم ، ولكن غطت على انبائه فى الصحافة الغربية الاتهامات العالمية التى وجهت عن وجود « تدخل » سوفياتى ومصرى وسورى فى هذه الانتخابات ، واعتقد أن ايراد مثال واحد على ماوقع فى هذه الآونة أمر كاف . فلقد وقعت فى هذه الايام مظاهرة عدائية لمشروع ايزنهاور وانفجرت فى المظاهرة بعض القنابل ، وراح المسئولون يعلنون انها من صنع سورية وبتحريضها ، وهو مانقلته الصحف الغربية

---

(١) صحيفة التايمز اللندنية عدد ١٨ يناير ١٩٥٧ .

(٢) يطلق الغربيون اسم « الناصرية » على الفكرة التى ينادى بها الرئيس عبد الناصر من دعوة الى التحرر والحياد الايجابى والاشتراكية والوحدة ، وما تتضمنه هذه الفكرة من مذاهب سياسية واجتماعية وفكرية .

تحت عناوين واسعة ، ولكن ضابطا لبنانيا من ضباط الامن العام ، أعلن فى شهادة قدمها فى المحكمة نيما بعد أن الاوامر صـدرت الى دائرته باصطناع الانفجارات ، من حكومة شمعون ـ مالك • ولم تنقل الصحافة الغربية بالطبع نبأ هذا الاعتراف •

وانطلقت الآراء المناهضـة لمشروع ايزنهاور الى العراء واضحة مكشوفة ، حتى قبل بدء المعركة الانتخابية • ولم يخف البطريرك الماروني نفسه وجهة نظره فى معارضة المشروع ، كما خرج الشيخ بشارة الخورى أول رئيس للبنان المستقل فى أواخر شهر مايو عن صمته السياسى الذى استمر ست سنوات ، ليعلن استنكاره لقبول مشروع ايزنهاور على اعتبار أن هذا القبول خروج على الميثاق الوطنى لعام ١٩٤٣ ، ولكن البادرة الاستهلالية أحرزت نجاحا مؤقتا وساعدت فى نجاحها زيارات الصداقة وحسن النية التى قام بها الاسطول الامريكى لميناء بيروت ووصول الاسلحة الامريكية الجديدة التى زافقتها طبول الدعاية ، عن طريق الجو الى لبنان عشية يوم الانتخاب • واخذ لبنان يسير قدما نحو الفوضى والاضطراب بسبب غضب المسلمين على ماقام به الامريكيون فى الأردن ، وبسبب ما انتشر من فضائح مالية وأخلاقية طيلة الشتاء نسبت الى كبار موظفى الدولة (١) وتزايد تهريب الاسلحة عبر الحدود تزايدا خطرا • لكن الاعتقاد ساد الغرب كله ، بأن لبنان بات كسبا مستقرا مؤيدا للغرب فى نزاعه مع الناصرية •

وجاءت أنباء الوحدة بين مصر وسورية المجاورة للبنان فى مستهل فبراير عام ١٩٥٨ وسرت هذه الانباء التى سنشرحها فى فصل لاحق سريان الكهرباء فى لبنان كله • وأخذ الألوف بعد الألوف من اللبنانيين يقطعون التسعين ميلا من الارض الجبلية الى دمشق لحضور احتفالات الوحدة ، ولكن زعماء المسلمين بالرغم من التحيات التى كانوا يزجونها للوحدة ، ظلوا يصرون على استقلال لبنان وكيانه ، ومع ذلك مالبث المسيحيون أن هاجوا وماجوا بعد أن راح الرئيس شمعون يتهم فورا الرئيس عبد الناصر بصورة علنية ، بأنه يعتزم فى خطوته الثانية ضم لبنان الى الجمهورية العربية المتحدة • ولم يكن هذا الاتهام مجرد كذب صراح

---

(١) ادعت الانباء التى نشرتها الصحف الغربية في هذه الآونة أن أموالا قد صرفت في لبنان ابان المعركة الانتخابية لانجاح مناهضي مشروع ايزنهاور ولكن ماظهر فيما بعد في محاكمات بغداد من وثائق يثبت أن نورى السعيد كان يدفع رواتب منظمة لبعض الشخصيات الرسمية في لبنان •.

بل ثان أكثر من ذلك ، اذ لو قبلنا جدلا وجود الاطماع المزعومة عند عبد الناصر ، فان لبنان لم يكن بالهدف المغرى أبدا ٠ فضم لبنان يستدعى ترويض نحو من ستمائة ألف مسيحي ، كما يستفز غضب الغرب وتدخله العسكرى بصورة حازمة ٠ وتعتمد تجارة لبنان ، وهى كثيرة الازدهار والثراء فى ظاهرها ، على تجارة الاستيداع والعبور ، والتعامل بالنقد ، وهو ازدهار لايلبث أن يزول اذا ما فقد لبنان سيادته٠ ولم يكن فى وسع عاقل أن يتجاهل كل هذه الاخطار التى لا يمكن قهرها أو التغلب عليها ، وليس ثمة من يقول بأن عبد الناصر ليس بالانسان الذكى الواسع الادراك والذى يحسب للعواقب حسابها ، ومن هذا يظهر أن هذا الاتهام حتى فى معايير المناهضين لعبدالناصر ، باطل ولا صحة له٠

لكن الاتهام ترك على أية حال آثارا ضارة كل الضرر فى كل من لبنان والغرب ٠ وسرعان ما اتضح هدف شمعون من توجيهه ٠ فلقد سمح في مستهل شهر ابريل بأن يقال على لسانه بأنه يعتزم ترشيح نفسه لرياسة الجمهورية مرة ثانية ، ولما كان الدستور يحظر انتخاب الرئيس لدورة ثانية ، فقد بات لزاما أن يعدل الدستور ، لتحقيق غايته ، ولما كانت المعارضة قد أدركت الآن أن الاسلحة الامريكية الجديدة باتت توزع على الفئات المؤيدة لزمرة شمعون الحاكمة ، فقد وحدت جهودها استعدادا للمعركة الفاصلة ، وأخذت تعمل على تسليح رجالها بشراء الاسلحة لهم من الاسواق غير الرسمية فى سورية ٠ واغتيل فى الثامن من مايو رئيس تحرير صحيفة التلغراف ، الاشتراكى النزعة والمناهض لمشروع ايزنهاور ، ولحكم شمعون ، وكان من المسيحيين الذين يعارضون دكتاتورية شمعون ومساعيه لاعادة انتخابه ٠ ولم تمض أربعة أيام حتى انفجر لبنان، فانتشر الأضراب، وقامت المظاهرات ، ووقعت الاصطدامات مع الشرطة ، وتحول الوضع الى ثورة داخلية عنيفة ٠ وبدأ مشروع ايزنهاور الذى طبق عن عمد على أكثر الدول ضعفا فى الشرق الاوسط ، يجنى ثماره الكثيبة المرة ٠

وتقدمت حكومة شمعون ـ مالك ، بتأييد علنى من أمريكا وبريطانيا بشكوى الى مجلس الامن من أن الجمهورية العربية المتحدة تقوم « بتدخل جماعى » فى لبنان ٠ وجريا على مألوف هذه السنوات ، تجاهل الغرب كل التجاهل الحقيقة الواقعة وهى أن جميع وزراء خارجية لبنان السابقين منذ بدأ عهد الاستقلال ، قد استنكروا فى مذكرة جماعية هذه الشكوى ، وأن بطريرك المسيحيين وشيخ عقل الدروز قد

استنكراها أيضا ، وان ضابطا كبيرا من ضباط الشرطة ، قد استقال احتجاجا على تسليح الجماعات العسكرية المسيحية مثل أفراد الكتائب • وكانت الادلة التي قدمها شارل مالك ، وتبنت الولايات المتحدة تأييدها ، سخيفة الى درجة لا تكاد تصدق (١) • وعندما جاءت هيئة المراقبين الدوليين الذين انتدبتهم الامم المتحدة للتحقيق فى أمر التدخل ، لم تجد أى أثر لأى تدخل جماعى أو غير جماعى ، اذ لم يكن هناك فى الحقيقة أى تدخل •

ولا أجد مبررا يدفعنى الى المضى فى سرد كل ما وقع بعد ذلك ، اذ ما زالت الاحداث المتلاحقة التى وقعت ماثلة فى الخواطر ، وبينهـا بالطبع نزول قوات البحارة الامريكية فى لبنان ، وتجمع القوات الامريكية داخل لبنان وخارجه ، والانضباط الذى تميزت به هذه القوات فى أثناء أدائها لمهمة لم تكن واضحة لها ، وتسليم شمعون أخيرا بالأمر الواقع ، وانتخاب اللواء شهاب الذى ظل طيلة الوقت يرفض استخدام الجيش فى سحق المعارضة والثورة ، رئيسا للجمهـورية • ومضى مشروع ايزنهاور الى زوايا الغيب والنسيان • ولم يحقق الغرب أى كسب من قبول لبنان بصورة غير ديموقراطية وآلية رتيبة للمشروع ، برغم ما فى هذا القبول غير المشروع من استفزاز لثورة نصف سكان البلاد وغضبهم استفزازا قد يستدعى استخدام القوة معهم ، لقمع ثورتهم • وبالطبع لم يكسب لبنان من كل هذا بل خسر خسارة كبيرة • فقد أدت الثورة الى ضياع المئات من الارواح، الأمر الذى تقع مسئوليته على جهة لا تخفى على اللبيب•

واذا كان ثمة من كسب ، فان هذا الكسب ساخر مضحك • ففى هذه الثورة الغريبة التى كانت أشبه بمسرحية ساخرة ، شرع اللبنانيون كبارا وصغارا يفكرون لاول مرة فى الشئون السياسية ، وفى الشرور الطائفية الكثيرة القائمة فى حياة بلادهم الداخلية والتى ظلت لا يلمسها أحد من قريب أو بعيد ببحث أو درس • ولن يعود لبنان قط الى ماكان عليه قبل الثورة • فلقد بعث الى الحياة ذلك البحث عن انهاء الطائفية الذى كان رياض الصلح فى عام ١٩٤٣ قد ناشد شعبه أن يقوم به ، ولكن الوقت لتحقيق هذه الغاية بات ضيقا للغاية •

---

(١) تضمنت الأدلة التى عرضها شارل مالك صورا فوتوغرافية لرشاشات زعم انها من صنع مصر في عام ١٩٤٩ ، وكان ضباط المخابرات البريطانية والامريكية يعرفون تماما ان مصر لم تكن تصنع الرشاشات في عام ١٩٤٩ . ولكن هذه الصورة برغم مافيها من تزوير ظاهر ، وجدت مجالا واسعا للنشر في الصحافة الغربية . (المؤلف)

ولكن السخرية فى هذه القضية مزدوجة • فهـذا الشـد والجذب فى الحياة الداخلية اللبنانية انما جاءا نتيجة ما وجده الشعب اللبنانى كله ، لا المسلمون وحدهم ، أخيرا من مفارقة لا يستسيغونها بين ماتعلموه من البعثات الامريكية من رسالات سامية قبل نحو من قرن وبين هـذه السياسات التى تتبناها الحكومة الامريكية الآن أى فى عام ١٩٥٨ •
ولقد صور معلق أمريكى واسع الادراك ، الوضع كما رآه عندما حلت اللحظة الثانية من لحظات الدهشة الامريكية فى يوليو عام ١٩٥٨ وعنـدما هوى كل شىء للغرب فى بغداد متحولا الى خرائب وأنقاض فقال :

« لقد ظللنـا نقيم أوضاعنا بالاستناد الى الملوك لا الى الشـعوب ، تماما كما فعل الانجليز من قبل • وعلى أساس الوضع الراهن الذى توقف عن الوجود منذ أمد طويل • تماما كما فعل الانجليز » (١) •

ونصل الآن الى النقطة التى لا ردة عنهـا فى القصة الطويلة المؤلمة ••• الى الثورة فى العراق •

الثورة فى العراق :

كان نورى السـعيد الذى علق عليه ايدن أكبر الآمال فى خلق العهد الجديد فى العلاقات العربية ــ الانجليزية بعد الاطاحة بعبد الناصر الضحية الاولى ، فى الحقيقة لحرب سيناء والسـويس • وكان الرد الطبيعى على هذه الحرب فى العراق ، أن تقوم الثـورة الحتمية لولا مشكلة ظلت تقض على الوطنيين العراقيين مضاجعهم عدة سنوات طويلة، فلقد كان الاشـتراك بين السـلطان البريطانى الممثـل فى قاعدة السلاح الجوى الملكى ، وفى كل ما قام من علاقات بين انجلترا والعراق ، وبين نظام الامن الذى أقامه نورى السعيد وفرضـه على البـلاد متينا وقويا • ولم يكن بالامكان تحـدى نظـام الحـكم عن طريق الاجراءات الدستورية • وكان معارضو العهـد ، يجدون أنفسـهم وراء القضبان لمجـرد أن تثير تصرفاتهم شـكوك الشرطة السرية ، وأن تعتقد هـذه الشرطة بأن ثمة احتمالا لوقوع أى اضطراب • وكانت البرلمانات تحشد دائما بالأنصـار ؛ وتعطل اذا ما ظهر منها أى اعتراض • ولم يكن فى المستطاع قيام تنظيم صحيح للضباط الأحرار يتطور فى طريق النضوج، داخل نطاق القوات العراقية المسلحة ، لأن هذه القوآت كانت تتعرض

(١) اذاعة لهوارد سميث من شبكة كولومبيا في ٢٠ من يوليو ١٩٥٨ •

دائما لعمليات تطهير شاملة ، وكانت التفرقة تسود صفوفها بفضل ما يلجأ اليه كبار الضباط الذين يحسن نورى السعيد انتقاءهم من اجراءات • وعلى هذا الاساس ظل مفتاح الثورة في يد نورى السعيد الذى تمكن باجراءاته الماكرة من الحيلولة دون وصول أية وحدات عسكرية يشك فى قيادتها الى بغداد او الى مقربة منها ، ومعها عتادها وذخيرتها •

وهكذا عاش نظام نورى السعيد وعبد الاله ، أكثر من سنة واحدة بعد عدوان السويس وسط جو من النقمة الشعبية المتزايدة ، فى حين ظل التردد يسود أوساط القوميين من المدنيين والمؤيدين لهم من رجال الجيش ، متأثرين بالكثير من الأحداث التى يقف فى طليعتها نجاح الانقلاب الرجعى الذى قام به الملك حسين فى الأردن ضد شعبه وحكومته وجيشه • وجهد نورى متعاونا سرا ، تعاونا وثيقا مع الحكومة التركية ، ومع شمعون رئيس لبنان ، ومكميلان وسلوين لويد ، للاطاحة بالحكم الوطنى فى سورية ، محاولا تحقيق ذلك ، المرة تلو المرة • وأقام نورى حساباته مع ماكميلان ، فى عام ١٩٥٧ على ان السبيل الأمثل « لعزل عبد الناصر » يتوقف على خلق نوع من التحالف (غير المقدس طبعا !) فى الشرق العربى يضم العراق ، والأردن بعد خلاصه من الحكم الوطنى ، ولبنان فى ظل حكومة ثابتة فى ولائها للغرب ، وسورية بعد تطهيرها من الحكم الوطنى الحيادى فيها • وراح دالاس فى واشنطن يمنح بركته لهذه المشروعات ، ويتعاون تعاونا متعمدا يفتقر الى الادراك فى انفاذها أما التعمد فقد أوضحناه فى سياسات مشروع ايزنهاور التى سبق لنا أن أوضحناها • وأما الافتقار الى الادراك والذكاء فقد ظهر فى تصديق واشنطن لهذه الانباء الزائفة التى تروجها بغداد وعمان وبيروت وأنقرة ولندن عن هذا « التغلغل السوفياتى » فى سورية خالقة نوعا من الذعر عند الرأى العام الامريكى يتطلب من حكومته المبادرة الى الاجراءات المضادة •

ولا أجد نفسى فى حاجة الى المزيد من التفصيل ، للتدليل على أن الأثر الوحيد لهذه السياسات فى العراق ، وفى أجزاء المشرق العربى الأخرى ، يتمثل فى تقوية العداء الشعبى وتركيزه فى النفوس ضد نورى السعيد ، وضد جميع أولئك الذين كان ماكميلان يصر على تمجيدهم فى الخطب التى يلقيها فى ويستمنستر (مجلس العموم) ناعتا اياهم « بالأصدقاء المخلصين جدا » ، والذين اتجهت نية دالاس الى ضمهم

الى صفوف « حلفائنا فى العالم الحر » • وقد ظل هذا التضليل مستمرا طيلة عام ١٩٥٧ • وما كاد عام ١٩٥٨ ، يهل على الوطن العربى ، حتى جاءت مفاجأة الوحدة بين سورية ومصر فهزت قواعد السياسة الغربية هزا • وأحس نورى السعيد وحسين بنذر الشر ، التى اشترك معهما فى الاحساس بها كل من ماكميلان ودالاس وشمعون ، فهرعا يقيمان اتحادا عربيا (بالاسم فقط !) يضم العراق والأردن ويوحد بين العرشين الهاشميين فى نظام اتحادى تعاونى • لكن النتيجة الحتمية ظلت تواصل السير فى طريقها نحو النهاية •

والتقى عدد من ضباط الجيش العراقى ، وكلهم من رتبة العميد (الزعيم فى الاصطلاح العراقى) فى ايار (مايو) عام ١٩٥٨ أثناء مناورات عامة ؛ وكانت المرحلة السلبية فى تفكيرهم قد وصلت الى نهايتها • واتفقوا على أن الأمل الوحيد فى الخلاص ، وفى الثورة المبكرة ، يقوم على اهتبال أول فرصة ممكنة ، يعرضها وصول احدى وحداتهم الى العاصمة لأمر ما ، وهى فى كامل أهبتها وعتادها • واتفق المجتمعون على أن يقوم أى منهم تتاح له هذه الفرصة بالقبض على ناصية السلطان فورا ، ليلحق به الآخرون على الأثر • وبالطبع لم تكن هذه هى الطريقة المثلى فى الاعداد للثورة •

وعندما نشبت الثورة فى لبنان ، قرر نورى أن يعين شمعون ، فى احتلال سورية ، والاطاحة بحكومة الاقليم الشمالى من الجمهورية العربية المتحدة ، محطما بذلك وحدته مع الاقليم الجنوبى فى مصر ، ليقيم اتحاد الهلال الخصيب الذى تتزعمه بغداد ، والذى كان تفكيره قد انصرف اليه منذ عام ١٩٤٢ • ووضع خطته للشروع فى العمل فى يونيو ، ولكنه اضطر الى التأجيل بسبب النصيحة التى تلقاها من ماكميلان ، نتيجة وصول مراقبى الأمم المتحدة الى لبنان • واتضح فى شهر يوليو ، أن المد الثورى فى لبنان يسير معاكسا لشمعون ، كما أن قرار مراقبى الأمم المتحدة ، جاء معاكسا له تماما • ووصلت أوامر نورى السعيد الى الزعيم عبد الكريم قاسم ، قبيل الرابع عشر من يوليو ، وقد تضمنت أن يمضى فورا بالوحدة التى يتولى قيادتها الى الأردن ومعها كامل معداتها وعتادها ، ليفض بعد وصوله اليه ، غلافا

يحمله يتضمن أوامره الجديدة .(١) وكان الشرق الأوسط يعج بالشائعات بأن شمعون قد طلب الى نورى السعيد مساعدته وتدخله ، وأن هذا الموضوع سيدرس فى الاجتماع الذى ستعقده دول حلف بغداد فى أنقرة فى الخامس عشر من يوليو . وتوصل قاسم عن طريق الاستنتاج ، الى ما يمكن أن تحتويه الرسالة السرية التى يحملها من أوامر لا يجوز له أن يعرف محتوياتها الا عند وصوله الى الأردن على مقربة من الحدود السورية . وكان يعرف كما يعرف غيره من الضباط العراقيين ان نورى السعيد ، كان يرسل الأسلحة سرا وبطريق الجو الى شمعون منذ عدة سنوات .

وفى الساعات المبكرة من صباح الرابع عشر من يوليو ، دخل العقيد عبد السلام عارف ، الذى يعمل تحت قيادة قاسم (٢) بوحدته الى بغداد بحجة تنفيذ الأوامر الصادرة باجتياز المدينة فى الطريق الى الأردن وقام بتنفيذ انقلاب خاطف بسرعة البرق ، قابضا على زمام السلطان فى العاصمة . واذا كنت فى هذا الكتاب سأمر مرا عارضا بالتفاصيل الكاملة لما وقع فى الساعات المذهلة والمرعبة الأولى ، فاننى أرى على أية حال ، أن من الواجب عدم التقليل من أهميتها . لقد كانت الثورة العراقية ، عند مقارنتها بثورة مصر البيضاء فى عام ١٩٥٢ ، تفجرا دمويا . ولا ريب فى أن أسباب البون بين الثورتين فى منتهى الأهمية . ففى مصر ، كان هناك تنظيم سرى للضباط الوطنيين يعمل فى الخفاء

---

(١) يبدو ان المؤلف اعتمد في التحقيقات التى قام بها في هذا الصدد على كتاب اللورد بيردودر الذى وضعه عن تاريخ حياة نورى السعيد ، والذى كان متشيعا لنورى كل التشيع . ولكن ما كشف من أسرار الثورة العراقية حتى الآن ، يختلف في نقاط كثيرة عن هذه الرواية ، فهناك أدلة ثابتة على ان الضباط الأحرار ، الذين أعدوا للثورة ، لم يكونوا كلهم من رتبة العميد « الزعيم » كما قال المؤلف ، بل كان الكثيرون منهم دون هذه الرتبة ، كالعقيد عبد السلام عارف مثلا ، أو كالعقيد الشهيد رفعت الحاج سرى . يضاف الى هذا أن هناك حقيقة ثابتة أيضا ، وهى تختلف في مضمونها عما أورده المؤلف ، وهى أنه كان ثمة تنظيمان سريان يعملان للثورة ، وان هذين التنظيمين اللذين ينتمى قاسم وعارف الى احدهما ، قد وحدا جهودهما في الأيام الاخيرة التى سبقت الثورة .

على أية حال . انا لا أرى هنا أن المجال في هذا الهامش الصغير يفسح لاستعراض الوقائع التى سبقت الثورة ، فلها مكانها في أى تاريخ صحيح يوضع عنهما .

(٢) أعتقد أن المؤلف قد أخطأ هنا ، اذ أن عبد السلام عارف لم يكن مرءوسا لقاسم . وان كان أقل منه رتبة ، اذ كان عارف يقود وحدة أخرى غير وحدة قاسم ، نيابة عن قائدها الاصيل . (المعرب)

منذ سنوات • وكانت الخطط توضع وتدرس وتمحص ، ويجرى النقاش حول القرارات فى لجان خاصة • كما كان على رأس الحركة ، زعيم ، هو عبد الناصر ، يعارض سفك الدماء ، وقد اختبر زملاؤه قيادته وتقبلوها باعجاب • أما ثورة العراق ، فلا تحمل أى وجه شبه لهذه العوامل • وقد تم تنفيذها بشيء من السرعة المباغتة لأن الفرصة للتنفيذ لاحت أخيرا • وكل ما يمكن أن يقال ، الى أن تتوافر جميع التفاصيل الثابتة ، هو أن قاسم وعارف ، لم يختارا لحظة يمكن فيها اعتقال عبد الاله وفيصل الثانى ونورى السعيد ضمن اطار خطة مدروسة تتنكب العنف سبيلا لها (١) •

لكن ما وقع فى ثورة العراق من حوادث عنف ، انما نجم عن حقيقة واقعة ، وهى انها كانت تفجرا ثوريا اجتماعيا شاملا ، يتشابه الى حد كبير مع ما وقع فى باريس يوم الباستيل فى الثورة الفرنسية • فلقد اندفع من أحياء بغداد الفقيرة ، ومن « صرايفها » القذرة الألوف من الناقمين ، الذين أعماهم الجنون الثورى ، والاندفاعات العاطفية يجتاحون الشوارع كالحمم البركانية تجرف كل ما أمامها • واتصلت أنباء الثورة بنحو من مائتى ألف رجل يعيشون فى أكناف المدينة القائظة فى أكواخ من القصب والأغصان ، مفتقرين الى كل وسائل الصحة العامة الى الحد الذى يجعل حتى جراثيم البلهارسيا عاجزة عن العيش فى المياه الملوثة التى يشربونها ، فاندفعوا الى المدينة ، ولم يحل دون ما يؤدى اليه انفجارهم الرهيب الا مبادرة قاسم وعارف الى نشر القوات العسكرية لمنع تدفقهم على العاصمة • ولكن حوادث العنف التى قام بها « دهماء » المدينة نفسها أدت الى اختفاء بعض الاجانب الأبرياء (رأى المؤلف !) فى اتونها • وحاول نورى السعيد الهرب فاعتقل وقتل • وعلقت جثة عبد الاله بعد تشويهها خارج بوابة وزارة الدفاع ذات الأقواس • ووقفت بين جماهير الشعب الغاضب الثائر ، التى احتشدت لمشاهدة هذا الاحتفال المكفهر ، السيدة ديفارج ، أرملة الضابط الوطنى ؛ سراج الدين ؛ الذى كان عبد الاله قد أعدمه ؛ وعلق جثته فى نفس هذا المكان العام من الفجر حتى الظهر فى عام ١٩٤٨ • (٢)

---

(١) تقول الرواية الرسمية للثورة أنه عندما دخلت جماعة من الجنود القصر الملكى لاعتقال الملك وولى عهده عبد الاله ، انتضي الأخير مسدسه ، وأطلق حراسه النار ، فوقع ما وقع نتيجة معركة استخدمت فيها المدافع والبنادق • (المؤلف)

(٢) ارتكب المؤلف هنا بعض الأخطاء ، فالمقصود بالضابط الوطنى «سراج الدين» =

وحاول أحد الزعماء الوطنيين من المدنيين ، مناشدة الجمهور الساخط انزال جثة عبد الاله ، مؤنبا اياه على هذا السلوك « غير المتحضر » فقابله الناس بالصفير والسخرية وهم يقولون ٠٠ « هل نسيت سراج الدين » ؟٠ هكذا تعمل ذكريات الشعوب ٠

وأعاد قاسم وعارف الأمن الى نصابه ، وبدأت الدول الغربية في ردود فعلها على ما حدث ، والذى اعتبرته أعظم صدمة فردية منيت بها فى الشرق الأوسط فى أواسط القرن العشرين ٠ واقتنع المستر دالاس ، بما جاء فى تقارير مخابراته بأن موسكو والقاهرة ، هما اللتان خططتا للثورة ، ووضعتا تصاميمها ، وان الثورة نفذت بأمر من عبد الناصر ٠ وأصدرت الحكومة الامريكية أمرها بالتدخل العسكرى على الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، قبل نصف ساعة من تلقيها طلب شمعون الرسمى للتدخل ٠ وطلب الرئيس ايزنهاور عقد جلسة عاجلة لمجلس الأمن الدولى ، ولكنه أصدر أمره لقواته بالنزول فى لبنان ، وفى الوقت نفسه الذى أرسلت فيه قوات المظليين البريطانيين الى الاردن ، قبل أن ينعقد المجلس ٠ ولم يكن التدخل الامريكى اجراء « طوارىء » لاطفاء نار شبت بصورة مفاجئة ، وانما كان تنفيذا لعملية عسكرية خطط لها منذ أمد ما ، وأعدت على شكل انزال متسلسل الحلقات ، ووضعت تصميماته الكاملة والمعقدة من قبل ، وتدعمه قوات جوية وبحرية ، وعمليات تموينية تامة الاعداد ٠ وتبينت فى غضون يوم واحد ، الطبيعة الكلية لهذه العملية ، وتبين بالدليل أنها فى جوهرها ، ليست الا عملية واحدة من العمليات العديدة التى تم تدريب الاسطول الامريكى السادس على القيام بها وفقا لدراسات كاملة ، لمواجهة بعض حالات الطوارىء ٠

ولا أرى بى حاجة هنا الى الاكثار من الاهتمام بما دار من جدال

= هو المرحوم العقيد صلاح الدين الصباغ أحد قادة الجيش الاربعة الدين اشتركوا في ثورة رشيد عالى الكيلانى في عام ١٩٤١ . وقد اعتقل الشهيد في تركيا بعد مضي مدة على انتهاء الثورة وسلم الى السلطات البريطانية التى تولت بدورها تسليمه الى حكومة نورى السعيد في العراق ، فقضت باعدامه . والمعروف أن عبد الاله قد حضر تنفيذ الاعدام الذى تم في الخامس عشر من اكتوبر عام (١٩٤٥) وليس في عام (١٩٤٨) كما ذكر المؤلف خطأ ، وأصر على تعليق جثته امام وزارة الدفاع تشفيا وانتقاما وليكون عبرة على حد قوله للعراقيين . ولكنه لقى نفس المصير ، الذى لقيه خصمه الشهيد مع الفارق طبعا بين الميتتين على ضوء معايير الشرف والكرامة . أما السيدة ديفارج فهى زوجة الشهيد الاول وهى من اصل فرنسي . (المعرب)

حول طبيعة الحوافز التى دفعت الى حركات النزول البريطانية والامريكية ، ومبرراتها . أما العامل الكامن فهو عجز هاتين الدولتين عن فهم امكان القيام بثورة داخلية يخطط لهـا من الداخل ضد « أصدقائهما » ولم تكن حكومة ماكميلان تتوقع مطلقا نشوب ثورة فى العراق ، ولهـذا فان الصدمة التى واجهتها كانت عنيفة الى الحد الذى جعلها عاجزة عن التفكير بهدوء وروية واتزان . وكان الملك حسين قد وضع نفسه بتشجيع من الانجليز والامريكان فى مأزق خطر مع شعبه ، الى الحد الذى يخشى معه أن تؤدى أحداث بغداد الى اشعال نار الثورة عليه فى الاردن فورا . أما بالنسبة الى الأثر فى لبنان ، فان تقديرات المخابرات الامريكية للموقف عن وجود تدبير « شيوعى ــ ناصرى » للثورة فى بغداد ، قد جعل التفكير الهادىء المتزن فى واشنطن أمرا مستبعدا أيضا . ولو كان هناك شىء من التبصر والتفكير ، لمثلت أمام المسئولين فى واشنطن الصورة الصحيحة وهى أن جيش الجمهورية العربية المتحدة ، سواء فى مصر أو سورية لم يكن قد عبىء أو وضع فى حالة الطوارىء وأن عبد الناصر نفسه كان فى يوغوسلافيا عندما وقعت الثورة .

وراحت المصادر الرسمية فى واشنطون ولندن ، تدعى فيما بعد أن خطر تحرك اسرائيل ضد الاردن للحيلولة دون وقوع أى تبدل فى نظام الحكم فيه ، هو الذى أدى ، قبل أى عامل سواه ، الى اتخاذ القرار بارسال القوات الى لبنان وعمان . ولو صح هذا الادعاء ، فان من المؤسف حقا ، أن تحمل أعظم دولتين غربيتين العالم معهمـا الى شفير الحرب النوويه المفاجئة ، لمجرد أن دولة صغيرة ــ كاسرائيل ــ أدينت قبل عامين بالعدوان، كانت لا تزال قادرة على التهديد باتخاذ عمل من جانب واحد . واذا افترضنا جدلا أن من حق بريطانيا وأمريكا أن تخشيا على اسرائيل من هجوم يقع عليها من وحدة جديدة لم تقع بعد بين الجمهورية العربية المتحدة والاردن ، فان مثل هـذا الهجوم لا يمكن أن يقع فور تحقيق الوحدة ، وبين عشية وضحاها . ولم نكن نحن فى عام ١٩٥٨ ، لنتسامح فى أى مكان فى العالم باللجوء الى التهديد بالحرب ، الا اذا كان القصد من هذا التهديد الحيلولة دون هجوم مفاجىء . وتحتاج هذه النقطة الى بعض التأكيد والشرح ، لأن هـذا الوضع ، ما زال قائما عند وضع هـذا الكتاب . فلقد كان أمام اسرائيل متسع من الوقت فى عام ١٩٥٨ ، وسيظل دائما أمامها هذا المتسع من الوقت ، فى أية لحظة يتم فيها انضمام الأردن الى دولة عربية أخرى ، للتقدم بالشكوى الى الأمم المتحدة ، واقامة الدليل أمامها على وجود الخطر الفورى الذى يهددها . ففى عام ١٩٥٨ ،

وعندما زعمت لنـدن وواشنطن أن تهديد اسرائيـل هو الذى دفعهما الى فعل ما فعلتاه ، لم تكن الجيوش العربيـة المعنية قد عبئت ، ولم تكن مصر قد طلبت أو ضمنت حتى انسحاب قوات الطوارىء الدولية من الحدود التى تفصـلها عن اسرائيل . ويدرك كل من يعرف شيئا عن الشئون العسكرية ان هاتين الخطوتين ضرورتان لازمتان لاى هجوم ، وان تنفيذهما يتطلب بعض الوقت . وليس ثمة من مبرر من أى نوع ، لا لاسرائيل فى التهديد بحرب من جانبهـا اذا تغير الوضـع القائم فى الاردن ، ولا لاية دولة غربية فى أن تقبل ببساطة هذا التهديد وان تكيف اجراءاتها عـلى ضوئه دون أن تحسب حسـابا مطلقا للامم المتحدة .

وعلى الرغم من كل هذا ، فما زالت الحجج التى تذرعت بها الدولتان الغربيتان لتبرير تدخلهما فى لبنان والاردن تحتل مكانتها عند الغربيين ولا سيما تلك التى تقول بأن التدخل كان نافعا للجميع ـ وحتى العرب ـ لأنه حال دون وقوع حرب بين العرب واسرائيل . ولقد كان من مقاييس المواقف الشاذة كل الشذوذ التى وقفها الرأى العام الغربى والتى مازال يقفها حتى الآن من قضية فلسطين ، ان سلوك اسرائيل لم يكن يتعرض فى أية حال من الأحوال للنقد ولا للمناقشات الحادة. ولم نسمع الا أصواتا قلية فى الغرب تتعالى موجهة السؤال الذى لابد وأن يسأله كل عاقل ، وهو ... اذا كانت اسرائيل تشعر حقا بمثل هذا الخطر فلماذا رفضت ولا تزال مصرة فى رفضها السماح لأية قوات من الامم المتحدة بالمرابطة فى جانبها من حدود الهدنة ، حيث فى مكنة هذه القوات ان تبقى لحماية اسرائيل ، حتى لو طلبت الجمهورية العربية المتحدة سحب قوات الطوارىء الدولية من ناحيتها ؟ ولم يسأل احد من الغربيين عن الأسس التى استند اليها بن جوريون فى الاقتراح الذى قدمه آنذاك ، لتجريد الضفة الغربية من الاردن من السلاح ، تحت اشراف الامم المتحدة ، دون أن يقترح تجريد منطقة مهما كانت صغيرة من السلاح على الجانب الاسرائيلى من الحدود ، وكان رد اسرائيل فى الرفض بالنسبة الى السؤال الأول أنه ليس ثمة مكان فى اسرائيل للقوات الاجنبية . ولم يكلف الكثيرون من المعلقين الغربيين أنفسهم عنـاء الطعن فى هـذا المبرر عن طريق القول بأنه يتنـاقض تمام التناقض مع الحملات السـنوية التى تقوم بها حكومة اسرائيل لتـأمين الهجرة الواسعة النطاق الى تلك المنطقة التى يحتجون باكتظاظها بالسكان.

ولقد نسى الغرب حركات النزول الانجليزية والامريكية فى الاردن ولبنان . وتم سحب تلك القوات دون أن تطلق رصاصة واحدة . ولم يحدث أى انفجـار فى المنطقة أو تسـودها أية فوضى . وتقول الحجج

الرسمية ، ان التدخل كان مفيدا ، ويقول البعض ان فائدتهـا تقوم فى تجنب خطر اسرائيل ، وقد ناقشنا هذا القول من قبل ، ويقول البعض الآخر ان فائدتها قائمة فى انها حالت على أى حال بين عبد الناصر وبين « ابتلاع » أراض جديدة (١) .

وأرى من الضرورى أن نناقش هذا القول اذا أردنا أن نحكم أخيرا على الطريقة التى انتهت بوساطتها فى عام ١٩٥٨ حقبة طويلة من العلاقات العربية ـ الغربية . ولكن هذه المناقشة تتطلب تقويما شـاملا لحركة الوحدة العربية ، وهو ما يقتضى البحث فيه فصلا منفردا .

---

(١) كثيرا ما تحدث الغربيون عن أطماع عبد الناصر التوسعية وعن «ابتلاع» أراض جديدة . والسبب في هذا الحديث أن الغرب لا يريد أن « يفهم » ، وان فهم فهو لايريد أن يقبل ، وحدة عربية تضم أرجاء الوطن العربى ، لان في هذه الوحدة القضاء على نفوذه وتعرض مصالحه للخطر . ولقد أدى الاستعمار الغربى دوره في تجزئة الوطن العـربى للحفاظ على هذا النفوذ وتلك المصالح ، وما زال يستخدم نفوذه وأمواله ، وأجراءه ، ومؤامراته ، للحيلولة دون تحقيق هذه الوحدة التى يقصد من اقامته « لاسرائيل » في قلبها ، منع وجودها . ولو فهم الغربيون هذه الحقائق أو اعترفوا بفهمهم لها ــ والفهم واقع ــ لما قالوا ان لعبد الناصر « أطماعا » ، فما الرئيس الا الانعكاس القيادى لآمال الشعب العربى كله في الوحدة ، واذا كان يعمـل لها فلأن عمله تعبير عن ارادة هـذا الشعب الذى أسلمه قياده بكل ايمانه وجوارحه .

أما نزول القوات الامريكية في لبنان والقوات البريطانية في الاردن ، فلم يهدف الا لتقوية مركز الملك حسين في الاردن وهو المركز الذى كان ينتظر له ان يهوى بعد انتفاضة العراق ، ودعم العناصر الرجعية في لبنان ، والتمهيد لضرب الثورة في العراق التى حطمت للغرب أهم قاعدة له في المنطقة ولكن وعى الشعب العربى ، والموقف الخالد الذى وقفه الرئيس عبد الناصر ونقمة الرأى العام العالمى ، هى التى حالت بين الغرب وبين هدفه في ضرب ثورة العراق . (المعرب)

١٤

الوحدة العربية

« اليوم اتحد الشعب العربى في سورية مع الشعب العربى في مصر، وكونت الجمهورية العربية المتحدة . هذه الجمهورية ستكون سندا للعرب جميعا ، ستكون قوة للعرب جميعا » ..

«لننظر الى القومية العربية التى نادينا بها والتى حلمنا بها والتى كانت لنا من الامانى ، وسنعمل جميعا بعون الله على تثبيت اهداف القومية العربية وعلى تثبيت اسسها » .

« من إعلان الوحدة المشتركة في أول فبراير سنة ١٩٥٨ »

« اننى لاثق نفس ثقتى بالله ، أن هذه التجربة لن تكون الاخيرة ، انما كانت التجربة عملية رائدة استفدنا منهـــا الكثير في تقديرنا . أعان الله سورية الحبيبة على أمورها وسدد خطاها وبارك شعبها » .

« من خطاب الرئيس جمال عبد الناصر بعد الانفصال في الخامس من آكتوبر عام ١٩٦١ »

***

أعلن فى الرابع من فبراير عام ١٩٥٨ ، فى كل من القاهرة ودمشق ، عن قيام أول وحدة فعلية بين دولتين عربيتين ذواتى سيادة ، وقد استقبل بعاصفة ضخمة من الحماسة الاصيلة عند جماهير العرب فى طول الشرق الاوسط وعرضه . ولا ريب فى أن قيام الجمهورية العربية المتحدة التى ضمت مصر وسورية كانت نقطة تحول ، وكانت المحاولة الاولى لدحض التشاؤم فى موضوع الوحدة العربية الذى عبر عنه ابن‌خلدون قبل قرون خلت ، والذى جعله الكثيرون من الملقين موضـــوع تعليماتهم فى القرن العشرين (١) ولكن هذه الوحـــده ما لبثت أن تحطمت بعـــد ثلاثة أعوام ونصـــف العام ، على أثر حركة انقلابية مفاجئة قام بهـــا ضباط الجيش

(١) فاز صايغ ــ الوحدة العربية ــ نيويورك ١٩٥٨ .

السورى ضد ما أسموه ، واشتركت معهم فى تسميته وزارة السياسيين التى أقاموها « بالطغيان المصرى » (١) .

وكان رد الفعل عند الغربيين لهذه الأحداث المثيرة ، التى وقعت فى أواخر عام ١٩٦١ ، والتى كانت للعرب مفجعة حقا ، يشير الى شىء من التحسن فى الفهم • فلقد ظهر –لاول مرة حقا منذ نمت فى الغرب تلك الافكار المسيطرة عليه عن عبد الناصر – استعداد جديد لتفهم بعض الدوافع الحقيقية القائمة عند عبد الناصر خلافا لما يحمله الغرب من أفكار عن أطماعه الاستعمارية الشخصية • وقد أصيب معظم المعلقين الغربيين بالدهشة المطلقة عندما رفض عبد الناصر كرئيس للجمهورية العربية المتحدة استخدام القوة ضد الثائرين ، مؤكدا أن الوحدة داخل سورية نفسها هى أهم شىء عنده ، وعندما أوضح أن حكومته لن تعارض فى عودة سورية من جديد الى عضوية الجامعة العربية أو الأمم المتحدة . ولكن هذه الدهشة لم تكن الا انعكاسا للظنون السيئة السابقة . ومع ذلك فقد كان هناك استعداد متجدد فى الغرب ، للاعتراف بهذه الدهشة، وللاعتراف على سبيل التغير بوجود دوافع معقولة عند عبد الناصر . (٢) وقد كشف رد الفعل هذا عند الغربيين ، ما فى قرارة نفوسهم من شعور بالابتهاج لانحلال الجمهورية العربية المتحدة ، ولما توهموه من « هزيمة شخصية » لعبد الناصر ، لم تتحقق عند عدوان السويس • وهناك صورة ثانية صحيحة وان كانت سلبية قد بدأت الآن فى الظهور فى ردود الفعل الغربية ، فقد تبين للغرب أخيرا أن عبد الناصر ليس بالموالى للشيوعية ، وأن خطر الانفصال يتمثل الآن فى احتمال انتهاء ما كانت تنعم به من استقرار من ناحية مكافحة الشيوعية .

ولكن ترى ماذا حدث حتى انهار هذا الحلم المكبر الذى مثلته الوحدة لجميع العرب فى كل مكان ؟ لا ريب فى أن تحلل الوحدة الممثلة فى الجمهورية العربية المتحدة ، يحمل أكثر من تفسير واحد . فلقد نجم عن مجموعة من الأعباء الخفية التى فرضتها الوحدة ، مضافة الى الاخطاء المصرية والسورية

---

(١) لم تقم بالحركة الانفصالية الا فئة قليلة من ضباط الجيش السورى ، تجمع بين فريقى الانتهازيين والعملاء ، وقد ثبت أن الايدى والاموال الاجنبية لعبت دورا كبيرا في الحركة الانفصالية . أما الادعاء بوجود « طغيان مصرى » فلم يكن الا ذوبعة زائفة لجأ اليها الانفصاليون ، لتغطية الجريمة الكبرى التى ارتكبوها في حق الوطن العربى .
(المعرب)

(٢) مقتبس من مقال في عدد ٨ أكتوبر عام ١٩٦١ من صحيفة «الساندى تايمز» .

وعوامل لضغط الخارجى • وأرى أن يبدأ أى تشريح لكل هذه العوامل ، بعرض موجز عن طبيعة الجمهورية السورية وشخصيات قادتها .

الجمهورية السورية :

انتقل ما تبقى من سورية الكبرى فى عام ١٩٤٦ بعد قصف المدافع الفرنسية لدمشق الذى أدى الى مصرع أكثر من ألف انسان ، الى مرحلة السيادة المطلقة بعد أكثر من حقبتين من السيطرة الفرنسية الانتدابية . وكانت للحساسية التى تسود السوريين تجاه الاجانب ، وهى ما يطلق عليه الغربيون اسم « كره الاجانب » أسباب وجيهة ماموسة ، تتعدى حدود الاوضاع النفسية التى تعقب الصراع مع الاجنبى عادة . فلقد بدأ هذا الصراع العاطفى أثر انتهاء الحرب العالمية الأولى وقيام الحلفاء بتجزئة سورية — على الرغم من اشتراكها المفروض فى حرب التحرير ضد الأتراك — بين بريطانيا وفرنسا ، والصهيونية . وعندما بدات حقبة الخمسين أحس القوميون العرب فى سورية ، الذين تحمل عاصمتهم ذكريات الخلافة الأموية العظيمة ، أن مخلفات هذه التجزئة تحيط بهم من كل ناحية •

فالى الشمال ، تقوم تركيا ، الدولة العضو ، فى الاحلاف الغربية• السوقية (الاستراتيجية) • والى الغرب يقوم لبنان الانعزالى ، الذى استغلت فيه فرنسا المدارات الطائفية كسلم لبسط نفوذها على المشرق العربى لمدة مائة عام • والى الجنوب الغربى تقوم فلسطين العربية التى كانت أيضا جزءا من سورية ، والتى اغتصبت الصهيونية معظم أجزائها بموافقة الغرب وتأييده ، بعد أن طرد معظم أهلها العرب عن طريق القوة والارهاب ليجبروا على الاقامة فى معسكرات اللاجئين • والى الجنوب يقع الاردن الذى يسيطر عليه البريطانيون ، والذى يحتفظ فيه ملوكه بأطماعهم فى الاستيلاء على دمشق • والى الشرق يقوم عراق نورى السعيد وعبد الاله ، المربوط أيضا الى عجلة بريطانيا • والذى يتلهف حكامه أشد التلهف للسيطرة على اتحاد يضم سورية الى العراق • وفى عام ١٩٥٥ أضيفت شبكة حلفاء بغداد الى هذه الاجواء المحيطة بسورية، رابطة بين العراق وبين تركيا ، مع احتمال شد الاردن اليه أيضا •

وفى مثل هذا الجو النفسى المفعم بالمرارة والشكوك ، بدأت تظهر فى سورية موجة من المد الوحدوى ذات طابع تقدمى اشتراكى تثبت وجودها فى سورية . وقد تبلور هذا الاتجاه الوحدوى الاشتراكى فى حزب

البعث الاشتراكي وبين الضباط الشبان في الجيش السوري ، وأخذ يتطلع ــ والامل يحدوه والسخط على الاوضاع القائمة في الوطن العربي يحرقه ــ الى ثورة مصر وعبد الناصر، لتحقيق ماينشده ، وكان الشيوعيون العرب ، بعد أن فقدوا أملهم في غضون ذلك ، في العثور على أرض خصبة في مصر في ظل عبد الناصر ، قد ركزوا اهتمامهم وجل نشــاطهم في سورية • وبدت سورية بين عامي ١٩٥٥ و١٩٥٨ ، الحقل المفضل لانتشار الشيوعية في الشرق الاوسط • فلقد كانت تلتزم سياسة الحيــاد ، وكانت شكوكها في الدول الغربية الكبرى قد حملتها على رفض كل نوع من أنواع العون الغربي الرسمي ·· بينما يفتقر تكوينها الســياسي والاقتصادي الى الاستقرار والاصلاح ·•

وأخذت الاحداث المتلاحقة على حدود سورية ، كحلف بغداد وبعثة «تمبلر» في الاردن ومؤامرة نوري وايدن لضـم الاردن الى العراق وحرب السويس وسيناء ومؤامرة الاســلحة العراقية السورية ، وحرب التشهير بالمقدم السراج والتلويح بالخطر الاحمر ، ومشروع ايزنهاور وانقلاب الملك حسين الرجعي في الاردن ، تضخم بصورة متدرجة ، من هذا الجيشان العميق الجذور في صدور السوريين • ولم يحل صيف عام ١٩٥٧ ، حتى أخذ الرأى العام في سورية يميل ميلا متزايدا الى التطلع الى الاتحــاد السوفياتي كالصديق المخلص الذى لا قيد له ولا شرط للقومية العربية•· وأخذت اذاعة موسكو تحسن من برامجها العربية وتكسب في كل يوم أنصارا أخر مع كل خطيئة جديدة ترتكبها أمريكا •

وفي هذه الآونة ، بدأ الهيكل السياسي الداخلي في سورية يتفاعل مع الأخطاء الغربية الضخمة ويصطدم بها وباتت هذه المصادمات بمثابة مقدمة للوحدة مع مصر • ولم تكن هناك أية ثورة اصلاح داخلي في سورية• وظل البرلمان واقعا تحت سيطرة أغلبية من «المستقلين» ، ومن حزبين هما حزب « الشعب » اليميني والحزب « الوطني » اليميني ــ الوسط ، وجميع هؤلاء وأولئك من النواب المحافظين من أصحاب الأرض والتجار وأرباب المصارف وفئات الطبقة الوسطى •

وكان الشيء الجديد الوحيد هو دور البعثيين لا في مجلس النواب حيث لم يكن لهم الا ستة عشر نائبا من مجموع مائة واثنين وأربعين نائبا بل في الوزارة السورية التي تألفت في عام ١٩٥٧ • وكان الدور المحوري الذي لعبه الحزب في هذه الوزارة مشجعا وتافها في آن واحد ، اذ كان

ثمرة المناورات التى تقع فى المسرح السياسى السورى غير المستقر والذى تسيطر عليه الخلافات الحزبية ٠

وقد أسقط اكتشاف مؤامرة الأسلحة العراقية من قيمة حزب الشعب الذى كان زعماؤه يتطلعون بصورة تقليدية الى الاتحاد مع العراق٠ وقد لعب حزب البعث وأنصاره من العسكريين دورا كبيرا فى الحط من قيمة حزب الشعب ٠ وكان الاتجاه البعثى اليسارى قد نال من التأييد الشعبى ما ضمن لقادته أن يكونوا عنصرا أساسيا فى كل وزارة شريطة أن تكون ائتلافا يضم العناصر السياسية الأخرى ٠ وأقام الحزب الوطنى الدليل على أنه حليف ودود للبعث ضد حزب الشعب ، ولذا فقد كان ممثلا فى الوزارة . ولما كان خالد العظم قد ألقى بثقله بين النواب « المستقلين » وراء حزبى البعث والوطنى ، فقد كوفىء بمقعد وزارة الدفاع ٠ وقد أشارت هذه الضرورة الى وجود الأخطار المتأصلة فى السياسات السورية الداخلية فى عام ١٩٥٧ ، ولا ريب فى أن استخدام خالد العظم لوزارة الدفاع قد فجر أخطارا أخرى ٠

يعتبر خالد العظم من أكثر الناس ثراء فى الهلال الخصيب وواحدا من القوى الفعالة على مسرح السياسة المحورية ٠ وكان له مطمح واحد ، يكاد يلهبه ، وهو أن يغدو رئيسا لجمهورية سورية ، ولم يترك ناحية من نواحى المحيط السياسى فى سورية ، دون أن يطرق بابها ناشدا عبثا مساعدتها فى تحقيق هدفه ٠ وكان يكفى للمرء أن يقابله فى واحد من بيوته التى تشبه القصور فى عام ١٩٥٧ ، ليدرك أن هذا الرجل يمكن أن يكون كل شىء الا أن يكون مشايعا للشيوعية ، ومع ذلك فلم يكن يتورع عن أن يلجأ الى الاستعانة بالشيوعيين وبما يقف وراءهم من مكانة سوفياتية ٠ وقد أتاح له منصبه كوزير للدفاع فى أغسطس عام ١٩٥٧ هذه الفرصة التى كان ينشدها ٠

ووقع الوفد السورى الذى يرأسه خالد العظم فى السادس من أغسطس فى موسكو اتفاقا أساسيا نص على تقديم أنواع مختلفة من العون السوفياتى ، العسكرى والمالى لسورية. ووجه وزير الدفاع العظم وهو فى موسكو دعوة شفوية الى الزعماء السوفيات لزيارة سورية ، دون أن يكون مخولا من الحكومة السورية بتوجيه هذه الدعوة ، وعندما عاد الى دمشق ، استخدم صلاحياته كوزير للدفاع فى اقالة رئيس الاركان العامة وعدد من الضباط الذين يحتلون مراكز حساسة ، مستعيضا عنهم بآخرين سرعان ما أقاموا الدليل على أنهم من المؤيدين لتوثيق علاقات

الصداقة مع روسيا • وقام بمحاولة لابعاد السراج المناوىء للشيوعية من البلاد ، ولكن بقية أعضاء الوزارة أحبطوا محاولته هذه فى الوقت المناسب •

ولم تكن الوزارة فى أغسطس عام ١٩٥٧ أكثر تشيعا للسوفيات مما كانت عليه فى بداية ذلك العام • وقد اتجهت الى موسكو تطلب عونها لنفس الاسباب التى حملت مصر على طلب عونها من قبل ، ولعل فى مقدمتها أن موسكو تعرض مساعداتها دون قيود أو شروط • ولكن قدرة الاتحاد السوفياتى والزعيم الشيوعى الكبير خالد بكداش على استغلال هذا العون استغلالا خطرا كانت تعتمد كل الاعتماد على الطريقة التى ستسلكها الولايات المتحدة فى الرد على هذه الخطوات السوفياتية الجديدة • ولم يكن كل شىء قد ضاع فى سورية بعد فى أغسطس عام ١٩٥٧ ، وكان فى مكنة السياسة الرشيدة لو اتبعها الغرب ، أن تسمح للرئيس القوتلى وقادة حزب البعث وغيرهم من الزعماء ، بأن يواصلوا سياسة الحياد • ولكن العمى الاخرق الذى تميزت به كل خطوة قامت بها واشنطن فى المنطقة فى هذه الآونة ، أتاحت لخطط خالد العظم أن تخلق حالة من الهوس الجنونى فى سورية •

وراح المستر دالاس يبعث فى التاسع والعشرين من أغسطس بالمستر لوى هندرسون فى رحلة صحبتها حملة من الدعايات العريضة يطوف فيها عددا من بلدان الشرق الاوسط باستثناء سورية نفسها ، معلنا فى الوقت نفسه أن لدى « جارات سوريا » كل مبرر للفزع حقا من الحالة فيها • ونقلت كميات ضخمة من الأسلحة الأمريكية بطريق الجو الى سورية فى تلك الآونة مصحوبة بحملة دعائية مثيرة ، كما أقلع الاسطول السادس الى القسم الشرقى من البحر المتوسط من جديد • وراحت الحملات الصحفية الخرقاء ، تزيد النار ضراما بعناوينها الهوجاء من أمثال ••• « رأيت المتطوعين الحمر » و « الرجال القساة الجامدى الوجوه بالألوف » • وتبودلت وجهات النظر بين الملك سعود وحسين ونورى وحكومة شمعون ــ مالك • ومضى سعود ونورى السعيد الى دمشق ، (١) فقوبلا برد فعل عنيف من الشعب السورى ، ووجدا أن الحكمة تتطلب منهما أن يصدرا بيانا ينفيان فيه ادعاء المستر دالاس الذى زعم فيه ان هناك ما يبرر لجيران سورية قلقهم من الوضع فيها • وراحت

---

(١) اعتقد أن المؤلف خلط هنا بين نورى السعيد ، وعلى جودت الايوبى ، فلقد كان الاخير هو رئيس الوزارة العراقية في تلك الآونة ، وهو الذى أم دمشق ، وأصدر البيان المشار اليه هنا • (المعرب)

اذاعة موسكو وقد ساعدها اطلاق القمر السوفياتي الاول « سبوتنيك رقم واحد » تستغل جميع الفرص الذهبية التى أتاحتها لهـا تصرفات واشنطن الحمقاء ٠

وكان عبد الناصر يرقب جميع هذه الاحداث من القاهرة بشيء من القلق ، وقد بذل كل ما في وسعه لمساعدة الوزارة السورية ٠ وقد أصدر بيانا حازما يعلن فيه تأييده لسياسة الحياد السورية ٠ وعندما اشتدت الأزمة على الحدود بين تركيا وسورية في سبتمبر عام ١٩٥٧ ، كجزء من الخطة الغربية العامة للضغط على سورية ؛ راح عبد الناصر يبعث الى شمال سورية بوحدة من القوات المصرية كرمز للتضامن معها ٠ وكان هذا العمل أول تنفيذ فعلى لاتفاق القيادة المشتركة بين البلدين الذى قرره الميثاق الدفاعى المعقود بينهما فى عام ١٩٥٥ ٠ ولكن الغرب اعتبر هـذه الخطوات ، محاولة استعمارية من مصر للاصطياد فى ميـاه سـورية العكرة ، كما اعتبرها اجراء محتملا يحقق الاهداف الموالية للسـوفيات أيضا ٠ ولعل المفارقة الغريبة فى الموضوع أن مصر كانت تحاول الرد على الاستغلال السوفياتى لاخطاء السياسة الامريكية ، فى الوقت الذى تعين فيه سورية على دفع أى تدخل تركى أو عراقى ٠ ولا ريب فى أن السوريين كانوا سيستديرون حتما نحو موسكو لولا العون الذى جاءهم من مصر ٠

ولكن الضرر الذى سببه حمق الغرب وهوسه ، تركزالآن فى نقطتين فى سورية ؛ فلقد ارتفعت أسهم خالد العظم فى عيون ضباط الجيش السورى ، على اعتبار أنه الرجل الذى حصل للجمهورية على سلاحها الجديد الذى تحتاج اليه لا للدفاع ضد اسرائيل فحسب ؛ بل لمواجهة الخطر المتزايد فى تركيا والعراق أيضا ٠

ونال خالد العظم عن طريق القرض الكبير الذى حصل عليه من موسكو ، مكانة بارزة عند الشعب أيضا ٠ وراح الشيوعيون السوريون الى جانب هذه التطورات ؛ يستغلون هذا الضغط الذى يفرضه الغرب على بلادهم ، وما تلقاه من عون سوفياتى لدرئه ، ولم يكن للشيوعيين الا مقعد واحد فى البرلمان ، وهو المقعد الذى يشغله خالد بكداش ٠ ولكن منظمى الحزب وأركانه أخذوا يكسبون القوة فى المجالس البلدية ، وكان لهم عدد من المؤيدين فى أوساط الجيش ٠ وأدرك البعثيون ورفاقهم فى نهاية عام ١٩٥٧ ٠ أن التحالف بين خالد العظم والشيوعيين أصبح احتمـالا تكتيكيا قويا ٠ وبدا حقا أن سورية ماضية فى طريقها نحو الفوضى ٠ وقد

شرح لى صلاح البيطار الزعيم البعثى هذا الوضع عندما اجتمعت اليه ·· فقال :

« ·· لم يكن هناك خطر عاجل من قيام انقلاب شيوعى · ولكن كان من المحتمل أن يغتنم الانتهازيون الفرصة وأن يكسبوا عن طريق استغلالهم تأييد الشيوعيين ، والسمعة التى يتمتع بها الاتحاد السوفياتى · وكنا نخشى خشية أكيدة ما قد يسفر عنه هذا الائتلاف من نتائج فى الانتخابات النيابية التى كان من المقرر اجراؤها فى هذه السنة ، وما قد تؤدى اليه هذه النتائج من تطور فى انتخابات رئيس الجمهورية ·

« .. وكان لزاما علينا ان نختار هذه اللحظة لتحقيق الوحدة . اذ أنها كانت لحظة لو أضعناها ، لضاع علينا حلمنا لسنوات طويلة فى هذا الجحيم من دوامة الديموقراطية البرلمانية الزائفة » (١) .

ويجدر بنا أن نذكر أن هذه هى صورة الاوضاع التى كانت تسود سورية والتى وضعها البعثيون أمام الرئيس عبد الناصر ليدعموا بهـــا طلبهم ، تحقق الوحدة الفورية والكاملة مع مصر ·

نداء الوحـــدة :

لم تكن فكرة الوحدة جديدة ، عندما طار وفد من الساسة السوريين والضباط القوميين فى الجيش ، وفى طليعتهم ممثلو حـزب البعث الى القاهرة ، يحملون معهم نداء الوحدة · فلقد كان الدستور السورى لعام ١٩٥٦ يتصور شعبا عربيا واحدا فى المستقبل تضمه دولة واحدة · ونص دستور مصر الذى صدر فى عام ١٩٥٦ على أن مصر جزء من الوطن العربى ·· وقد أدى هذا الاتجاه الذى سبق لنا شرحه لايجاد تعاون وثيق مع مصر الى اتخاذ قرار بالاجماع فى المجلس النيابى السورى فى الخامس من يوليو عام ١٩٥٦ للشروع فى مفاوضات لخلق اتحاد تعاونى (فيدرالى) بين البلدين · ولكن هذه الخطوات ما لبثت أن توقفت بسبب الأزمات التى توالت فى عامى ١٩٥٦ و ١٩٥٧ وفى طليعتها أزمات السويس ومشروع أيزنهاور وانقلاب الاردن الرجعى · ولكن الدولتين أعلنتا فى الرابع من سبتمبر ١٩٥٧ وصولهما الى اتفاق مبدئى على قيام وحدة اقتصادية بينهما يتم تنفيذها عن طريق اقامة صناعات ومصارف وشركات للنقل مشتركة

---

(١) مقابلة للمؤلف مع صلاح البيطار في ألقاهرة في اكتوبر عام ١٩٥٨ ·

وأن تنتهى هذه الخطوات باقامة نقد موحد • وتم الاتفاق فى التاسع عشر من نوفمبر عام ١٩٥٧ على الشروع فى مفاوضات لاقامة اتحاد تعاونى (فيدرالى) بين البلدين •

ولكن بالرغم من الموافقة على أهداف الوحدة ، الا أن القاهرة لم تكن تتوقع صورة هذه الوحدة التى طلبها السوريون الآن ولا توقيتها • ولم تمض بضعة أسابيع حتى كان معظم المعلقين الغربيين ومعهم الدعاية الاسرائيلية يتهمون عبد الناصر ، بعملية ضم « سورية الصغيرة التى لا حول لها ولا طول » ، ويشبهونها بضم هتلر للنمسا (الانشلوس) ، ويصورونها على أنها الخطوة الرئيسية الأولى فى طريق اقامة «الامبراطورية» التى كان الحديث عنها دائرا على قدم وساق منذ عام ١٩٥٥ • لكن الواقع كان يختلف عن هذه الدعايات اختلافا عموديا كاملا • وقد اعتمدت فى هذا السرد ، الذى سأتلوه هنا ، عن حقيقة ما دار ، على المعلومات التى جمعتها من الفريقين •

لقد دهش عبد الناصر وزملاؤه دهشة حقيقية مما تضمنه الطلب السورى من حث على الاسراع فى تحقيق الوحدة ، ومن تطرف • وكان عبد الناصر يتوقع ، كما كان يتوقع أى انسان آخر ، أن تستمر المفاوضات التى تم الاتفاق على الشروع فيها لتحقيق الاتحاد التعاونى سنوات عدة • ولم يكن الزعيم المصرى قد ضمن برامجه الأولية أية أهداف لوحدة دستورية بين البلاد العربية حتى ينساير عام ١٩٥٨ • وكان ينشد أول ما ينشده « التضامن » وهو التعبير الذى طالما استعمله ، فى شئون الدفاع والسياسات الخارجية ، لينتقل من مرحلته الى مرحلة الاصلاحات الداخلية ومن ثم الى الوحدة الاجرائية فى الشئون الاقتصادية والتربوية والدفاعية ، على ألا تتحقق الوحدة أخيرا الا بعد اتفاق يقوم على دراسة حذرة ودقيقة • وكان يدرك ، ادراكا عاما ؛ ما تتعرض له سورية من أخطار سياسية • وكان أول رد فعل صدر عنه بعد أن استمع الى العرض الكامل الذى قدمه اليه السوريون عن أوضاعهم ومشاكلهم ، توجيه النصح اليهم، بأن يقوموا الآن بذلك الطراز من الثورة الداخلية ضد الرجعية وضد ما يبدو من ضعف فى النواحى الخارجية ، الذى تبناه هو وزملاؤه من الضباط الاحرار فى ثورة عام ١٩٥٢ •

ورد السوريون قائلين بأن جيشهم يفتقر الى الوحدة التى تسود الجيش المصرى • وأن الوقت لا يسمح لهم بأى ابطاء لتمهيد الطريق تمهيدا سليما لتحقيق تلك الثورة • وأضافوا أن السبيل لتحقيق

ما ينشدونه من اصلاح لا يتم الا عن طريق تقوية وضعهم باقامة الوحدة مع مصر التى تلقى تأييدا شعبيا طاغيا . وعندما تساءل عبد الناصر ، عن السبب الذى يحول دون قيام الاتحاد التعاونى (الفدرالى) الذى سبق لهم أن تصوروه ، ردوا بأن هذا المشروع لم يعد يفى بالغرض من ايجاد القوة المنيعة . وهنا أضاف السوريون بعض الحجج التى انطوت على شئ من الملامة وراحوا يتساءلون .. ولماذا لا نحقق الوحدة الكاملة على أى حال ؟ أو لا تحقق هذه الوحدة بالتأكيد الهدف القومى العربى ، وتحظى بالتأييد الطاغى من جماهير العرب ؟ أولا يشير تاريخ العرب الحديث الى الضير من التردد والخوف من التقدم الى الامام ، مما يترك ثغرات للدسائس الاجنبية التى تكدس التجزئة ؟ وهل يرضى عبد الناصر أن يترك سورية العربية تهوى فريسة للشيوعية أو للعناصر الرجعية الانتهازية المتحالفة مع عراق نورى السعيد والدول الغربية ؟

ولقد قدر للرئيس عبد الناصر بعد ثلاث سنوات ونصف السنة أن يستذكر هذه الحجج والأقوال بشيء من السخرية المرة التى يمكن فهمها ، مهما كانت الاخطاء التى وقعت فى هذه الآونة (١) . ولكنه فى يناير عام ١٩٥٨ ، راح نهبا لثلاثة مؤثرات ، فلقد أدرك أولا . أنه لا يستطيع هو ولا يستطيع سفيره فى دمشق الذى كان يوصى بالأناة والتمهل البالغين فى موضوع الطلب السورى ، أن يسبرا حقا غور الخطر على سورية ، كما يستطيع السوريون أنفسهم أن يسبروه . ولكنه كان من الناحية الثانية يحس فى قرارة نفسه بذلك الشعور الحماسى لتحقيق هذه الوحدة . الذى يسيطر على الشرق الاوسط بكامله . ويرى أهمية ما فى سبق الزمن من قيمة للحركة العربية . ومع ذلك فقد ظل يحتفظ من الناحية الثالثة بذلك التشكك العميق ، من جراء الانغماس فى مثل هذا الالتزام الجذرى بدون أن تسبقه دراسات عميقة ودقيقة للغاية . وادرك أن هذه الوحدة التى يصر السوريون على تحقيقها ، ستواجه عداء متواصلا من الحكام العرب الرجعيين ومن الصهيونية والدول الغربية والشيوعية . وأدرك أن هؤلاء الأعداء ، سيجدون منافذ تتمثل فى أى

---

(١) قال الرئيس عبد الناصر في خطابه الذى القاه في الثامن والعشرين من سبتمبر عام ١٩٦١ : « لقد قلت ان الوحدة تحتاج الى تمهيد . الوحدة متاعب والوحدة مشاكل والوحدة امتزاج .. قلت هذا ولكنهم قالوا لى أين الاهداف التى أعلنتها ؟ هل تتنكر لهذه الاهداف ؟ وهل تترك سورية ؟ هل تتركها لتتنازعها الاحقاد ؟ هل تترك سورية لتضيع ؟ » . (المؤلف)

مصدر من مصادر الضعف فيها أو من علائم الفرقة الداخلية ، لطعنها ومهاجمتها • ولكن كانت هناك الاحتمالات الأخرى التى عرضها السوريون؛ فاما أن تتعرض بلادهم لانقلاب شيوعى ؛ أو الى حالة من الفوضى يستغلها نورى السعيد بموافقة الغرب أو حتى عن طريق تدخله الفعلى ، مما يعرض قيادته للحركة العربية للخطر •

ولعل من الصعب على المرء أن يتصور معضلة تعادل تلك التى واجهها عبد الناصر • وكان ما توصل اليه من حل أخيرا هو أن يضع أمام الوفد السورى تلك الشروط ، التى يرى ضرورة توافرها أولا وقبل كل شىء حتى تقبل مصر تحمل هذا الالتزام العظيم • ولقد آكد زملاؤه فيما بعد لمؤلف هذا الكتاب ، أن عبد الناصر كان يأمل فى أن تؤدى هذه الاشتراطات التى وضعها الى أن يعيد السوريون النظر فى موقفهم ليقرروا ما اذا لم يكن من الأفضل لهم أن يحاولوا الوصول الى علاج أقل جذرية ، أو يقرروا على الاقل أن الاتحاد التعاونى (الفيدرالى) قد يكون أصلح لهم من الوحدة الكاملة •

ونصت الشروط التى وضعها الرئيس عبد الناصر ، على أن واقعية الوحدة الكاملة تتطلب القيام فى سورية بخطوات لمواجهة العوامل السياسية تضاهى ما اتخذ فى مصر لمواجهة العوامل المشابهة ، كحل الاحزاب السياسية كلها فى سورية والاستعاضة عنها بتكوين اتحاد قومى ، كما نصت أيضا على وجوب ابتعاد الجيش السورى ابتعادا تاما عن السياسة وعلى أن يختار الضباط الراغبون فى العمل السياسى أو الحكومى بين هذا العمل وبين مناصبهم العسكرية • وأضافت أن الوحدة الكاملة تتطلب الدمج بين اقتصادى البلدين ، وأن تشمل قوانين الاصلاح الزراعى وخطط التنمية الاقتصادية التى توجهها الدولة للاقليم السورى أيضا. وحذر عبد الناصر الوفد قبل كل شىء ، من أنه فى حالة اتمام الوحدة على النحو الذى يطلبونه ، فمن الواجب ألا يكون هناك أى تأفف أو تذمر ظاهر ، وكما أنهم قد ذكروه بمسئولياته تجاه القضية القومية كلها ، فانه يود أن يذكرهم أيضا بمسئولياتهم ؛ هذا اذا كانت القضية ستتعرض لامتحان من جراء هذه المغامرة الشاقة •

وطار الوفد عائدا الى دمشق للتشاور ولكنه ما لبث أن رجع الى القاهرة قبل انقضاء بضعة أيام ، وقد حمل الموافقة على جميع الشروط ، وقبول الرئيس شكرى القوتلى للمشروع . واقترح الوفد مع هذه الموافقة ، اعلان الوحدة فورا كاجراء عاجل على أن يترك أمر التخطيط

للمستقبل ، وهكذا لم يحل اليوم الأول من فبراير عام ١٩٥٨ ، حتى اهتز الوطن العربى كله بذلك الاعلان القصير الذى نقلته فى مستهل هذا الفصل • أما الآن وبعد أن وقع الانفصال فليس فى وسع أى انسان أن ينكر لحظة واحدة ، بأن تلك الخطوة كانت تاريخية عند العرب جميعا ، اذ تفجرت فيها الآمال ، والأمانى المشرقة ، وارتفعت مشاعر الاعتزاز الى أسمى الذرى ، بشكل لم يسبق له مثيل فى تاريخ العرب الحديث ، وانتقل عبد الناصر الى سورية • وتدفقت الجماهير أياما ثلاثة متوالية من جميع أنحاء البلاد ، لترابط أمام القصر وقد زحفت اليه لرؤيته ، حتى اضطر الى مناشدتها شخصيا العودة الى الاماكن التى جاءت منها لمباشرة أعمالها • واذا كان الأجنبى الغربى الذى لا علاقة له بالموضوع يحس بالألم كلما عاد بذاكرته الى تلك اللحظات ، فان من الممكن أن نتصور مدى الآلام التى أحس بها الكثيرون من العرب عندما انفصمت عرى الوحدة التى أحاطوها بمهجهم •

وعندما رد الغرب ، بتوجيه التهم الى الرئيس عبد الناصر ، بأنه ضم اليه سورية عنوة كما ضم هتلر النمسا الى ألمانيا وعندما سارع الغرب الى اقامة الاتحاد الهاشمى المنافس القصير العمر بين عرشى بغداد وعمان ، ظل عبد الناصر من ناحيته متخوفا كل التخوف • ولقد سمعناه بعد أربعة أيام من الاعلان التاريخى الذى عمت أنباؤه الشرق الأوسط بأسره ، يقول فى خطاب ألقاه عن الوحدة •••

« ان الطريق الذى نقبل عليه طويل وشاق ••

« ان رحلتنا عليه ليست نزهة نروح بها عن النفس ••

« وانما رحلتنا هى مشاق ومتاعب ، وكفاح وجهاد ••

« ••• ولكن علينا أن ندرك أن لهذه الفترة الرائعة اخطارها أيضا • وربما كانت شهوات أنفسنا هى أكبر الاخطار التى يتعين علينا مواجهتها • لقد مرت علينا قرون من الزمان ، وأحلامنا ، وأمانينا ، ورغباتنا ، وأهدافنا •• حبيسة وراء الحواجز والسدود التى صنعها الاستعمار •

« ولقد تهاوت الحواجز والسدود ، لما زال وجود الاستعمار من بلادنا ، وهكذا بدأت الأحلام والأمانى والرغبات والأهداف تنطلق من عقالها • وتتدافع بسرعة فى مثل تدفق الفيضان •

« ولقد كان هذا هو التفسير الحقيقى لسرعة الحوادث فى جيلنا ،

وهذا أمر طبيعى ، بعد أجيال عديدة مكبوتة ، ولكن هذا أيضا تحذير كما هو تفسير •

« انه تحذير بأن من أول واجباتنا أن نقيم من الحكمة خزانات على أمانينا ، ثم تفتح عيونها ليمر التيار •• على شكل الفيضـــان المنظم ، ولا يخر فوق رءوسنا كالطوفان العالى الشديد » (١) .

ولا ريب فى أن هذا القول غريب على زعيم كان الغرب يفترض فيه بصـــورة عامة ، أنه كان منتشيا فى تلك الأيام بتحقيق « امبراطوريته الجديدة » وأنه كان قد شرع يتطلع حوله لتوسع جديد فى العـــراق أو الاردن أو لبنان • ولم يكن هذا القول على أى حال آخر دلالة على تحفظ عبد الناصر فى موضوع الوحدة العربية الدســـتورية وعلى شكوكه فى موضوع الوحدة مع سورية • ففى الثانى والعشرين من يوليو عام ١٩٥٨، كان العراق يعيش فى ظل موجة عارمة من الحماسة الثورية ، وكان الغرب واقعا تحت سيطرة كابوس التخوف من استعمارية عبد الناصر ، وكان الجانبان يتوقعان منه أن يدعو الى الوحدة بين الجمهورية العربية المتحدة والجمهـــورية العراقية الجديدة • ولكن عبد الناصر ، أشار فى الخطاب الهام الذى أذاعه فى ذلك اليوم الى الخطر الذى قد ينجم عن التسرع فى اقامة الوحدة (٢) • وأضاف أن الوحدة مع سورية قد تمت بصـــورة

---

(١) خطاب سيادة الرئيس الى مجلس الامة في الخامس من فبراير ١٩٥٨ ، وقـــد نقلته الاذاعة أيضا .

(٢) أنا أختلف مع المؤلف في رأيه هـــذا عن تخـــوف الغرب من ســـيادة الرئيس عبد الناصر ، وان كنت لا أنفيه ، أو أنفى وجوده . فالغرب يتخوف من الوحدة العربية التى يحمل سيادته راية الدعوة اليها ويمثلها . وهو ــ أى الغرب ــ يناهض تحقيقها ، ويحاول الابقاء على تجزئة الوطن العربى رعاية منه لمصالحه . ولهذا السبب أقام اسرائيل وأبقى على العروش الوهمية في المنطقة العربية ، ولهذا السبب أيضا قام بعدوانه على السويس وارتكب ما ارتكب مع العرب من آثام . فالاستعمار الغربى يرى في القـــومية العربية التى يحمل سيادة الرئيس لواء الدعوة اليها ، «البعبع» الذى يفزعه . ولقـــد سبق له أن عارض الوحدات التى كان يحاول القيام بها حتى من يسميهم أصدقاءه ، فلقد عارض في وحدة الاردن والعراق في عهد الملك عبد الله عام ١٩٥٠ مع أن عبد الله وعبد الاله ومعهما نورى السعيد كانوا يسيرون في ركابه ويأتمـــرون بأمره ، لانه يخشى مستقبل هذه الوحدة لا حاضرها ، ويخاف من تحولها مع الايام الى أيدى الشعب من أيدى الاعوان . واذا كان قد وافق في عام ١٩٥٨ على الوحدة المصطنعة بين العرشـــين الهاشميين ، في الاردن والعراق ، فلانه وجد نفسه مضطرا لقبولها ليواجه بهـــا الوحدة الحقيقية المنبثقة من ارادة الشعب والتى يتولى قيادتها الزعيم المؤمن الملهم الرئيس عبد الناصر ، والتى خلقت الجمهورية العربية المتحدة . فالخوف اذن هو من الوحدة ، =

عاجلة ، دون أية دراسات مسبقة من النوع المعتاد وأن حكومته لم تكن قد درست حتى الميزانية السورية التى ثبت وجود عجز كبير فيها ٠

ورحت أسأل الرئيس عبد الناصر ، فى حديث طويل أجريته معه فى شهر أكتوبر عام ١٩٥٨ ، عما يراه فى حركة الوحدة العربية ، وعن المرحلة التى يعتقد أنها وصلتها ٠ فكرر على مسامعى ما سبق له أن ذكره أكثر من مرة ، بأن هدفه الاول هو التضامن فى السياسة الخارجيـــــة وشئون الدفاع ، وتوحيد الخطة الرامية الى تحقيق الاصلاح الداخلى ٠ وقال ان هذا الرأى انما نجم عن الثورة العراقية وأضاف أن ليست لديه أية خطط عن الوحدة مع العراق ٠ أبدا أية خطط ٠ ثم قال « لقد مللت من تكرار هـذا القول دفعا لما يوجهه الغرب الى من اتهامات» ٠ ورحت أسأله عما يمكن فعله الآن فى موضوع الوحدة طالما أن العرب ينادون بها ، سواء أكانت هناك خطط موضوعة أم لم تكن فقال ٠٠

« لا ريب فى أنك تعلم أننا كنا حتى الآن نفكر على صعيد روحى أو معنوى لا على صـــــعيد محدود ، وأن تفكيرنا لم يكن يعدو حدود الامانى والآمال ٠ ويشبه موقفنا وضع ذلك الشاب الذى لا يتوقف عن الاحلام قبل الزواج ٠٠ قل لى هل أنت متزوج ؟ » ٠

وقلت للرئيس اننى متزوج ، واننى فهمت مايعنيه فابتسم ، ولكنه ما لبث أن قال بمنتهى الجد وهو يبحث عن الكلمات التى يريد أن يرددها على مسمعى وسط سحابة من دخان لفافة التبغ التى كانت فى يده ٠٠

« ٠٠ اذن فالشاب يوالى بحثهوهو حالم ، يأمل فى الحب ، وفى المرأة التى يبنى بها ، والاطفال الذين سينجبهم والاسرة التى سيبنيها ، وكل ذلك بطرق روحية ٠ ويحقق أمله أخيرا فيتزوج ٠ وهنا تبدأ المشاكل فى البروز أمامه ٠ فعليه أن يجد القوت والملبس لزوجته وأطفاله ، وعليه أن يؤثث بيته ٠ وأن يخطط لغده ٠ وأن يبقى على علاقاته الجديدة فى أسعد حال ٠ وسرعان مايجد أن تفكيره العملى لم يهيئه لمواجهة كل هذه المشاكل العملية ٠٠

هـذا على ما أظن هو حالنـا الآن بالنسبة الى القومية العربيـــة والوحدة ٠ فالأحلام وحدها لاتكفى » ٠

= ولان الرئيس هو الذى يتولى لواءها منطلقة من الايمان الاصيل بها وحدة متحررة من كل نفوذ وتبعية ، فان الغرب يخشاها كل الخشية وقد عمل وما زال يعمل على احباطها والحيلولة دون قيامها . (العرب)

تبعات الوحدة ومسئولياتها :

ولدت الجمهورية العربيـــــة المتحدة أول ما ولدت تحت كنف من التبعات والمسئوليات المتأصلة التى لو قمنا بتعدادها وحدها ، لتبين لنا الكثير مما دعا الى تحللها • فليست هناك حدود مشـــــتركة بين مصر وسورية ، وانما تقوم بينهما الاردن واسرائيل • ولم يمر شعباهما بفترة تمهيدية من التعارف المشترك الذى ينضج ببطء واستمرار ، ولا تقتصر فيها الاتصالات على الزعماء والمسئولين عن الحكم أو حتى البارزين من المواطنين بل تتعداها الى مختلف الفئات لخلق جو من التفهم الصحيح للفروق بين الأمزجة والطبـاع والبيئات • ولكن فجأة ، وبين عشـــية وضحاها ، وجد هذان الشعبان نفسيهما شعبا واحدا فيدولة واحدة ذات علم واحد • ويصح أن يقال ، أن مثل هذا الوضع لم يحدث من قبل فى أى مكان آخر فى العالم (١) .

وكان هناك أيضا عامل الحجم ، فالاقليم المصرى عملاق فى حجمه ، اذ يضم ستة وعشرين مليونا من السكان ، وهو يتحد مع الاقليم السورى الصغير، والذى لايتجاوز تعداد سكانه الاربعة ملايين ونصف المليون من النسـمة. ولو كانت الوحدة التى قامت من نوع الاتحاد التعاونى (الفيدرالى) الذى تحتفظ فيه الاطراف بسيادتها ، لكان فى الامكان تدبير مشـــاعر الاحتكاك الناجمة عن الاتحـــاد ، ولكان فى مقدور القائمين عليه ، ازالة الشعور الحتمى الذى يخالج الشريك الاصغر دائمـــا بأنه واقع تحت سيطرة الشريك الأكبر • أما بالنسـبة الى الاندماج الكلى الذى خلقته

---

(١) وقع المؤلف هنا في خطأ أساسي أوصله الى النتيجة الخاطئة التى سجلهـا هنا .. فهو كما يبدو يفترض وجود شعبين مختلفين في مصر وسورية ، تختلف أمزجتهما وطباعهما وبيئاتهما ، مع أن الشعب واحد في البلدين ، وفي الاجزاء الاخرى ــ من الوطن العربى ــ التى مازالت تتلهف على تحقيق الوحدة . ومن هنا تجاهل المؤلف الدوافع المادية والعوامل الروحية التى تقوم حتمية الوحدة العربية على أساسها ، ولعله لم يسـتطع أن يعرف أن للشعب العربى كله تاريخا واحدا ومشتركا ، وأن أرضـه واحدة مشتركة تؤلف كيانا ماديا متكاملا ، وان له لغة واحدة وان اختلفت لهجاتها ، وفكرا واحـدا ، وتراثا قوميا واحدا ، ومصالح مادية واحدة ، بالاضافة الى ما يوحده من نضال مشترك ضد عدو استعمارى واحد ، وان اختلفت الدول التى تؤلف جبهته .

وارى لزاما علينا هنا ان نؤكد نقطة واحدة ، وهى أن الشعب السورى لم يكن هو الذى قصم الوحدة التى كان الفارض لها ، وانما الذى قصمها جماعات من الانتهازيين المرتدين والتجار والرجعيين من كبار الرأسماليين والاقطاعيين ، وعملاء الاستعمار .

(المعرب)

الوحدة الكاملة بين اقليمى الجمهورية العربية المتحدة ، فان هذا العامل وحده كاف لخلق مشاعر التوتر الحادة ، حتى ولو كانت الاوضاع القائمة فى الجمهورية العربية المتحدة وحولها مثالية فى صلاحها لدعم الوحدة • مع العلم بأن هذه الأوضاع لم تتوافر أبدا •

عوامل الضعف الاقتصادية :

وفى وسعنا أن نتميز المصاعب التى فرضتها الوحدة بوضوح ، اذا لاحظنا بعض الأوضاع المعاكسة التى نشأت منذ البداية • وقد تبين أن الفروق بين الكيانين الاقتصاديين والاجتماعيين فى مصر وسورية ، قد ألفت مصدر الخطر الأكبر منذ البداية • فلقد بدأت مصر التى ضاقت بسكانها ثورة داخلية جذرية ، تقضى على الامتيازات الاقتصادية وأوجه السلطان السياسى السابق ، التى كان يتمتع بها الاقطاعيون والاغنياء والقلة من التجار وذوى المهن • وكان فى مصر اصلاح زراعى يسير فى طريقه • وكانت هناك تنمية اقتصادية توجهها الدولة ، كما كانت هناك رقابة صارمة على التجارة والصيرفة ، واعمال البنوك • ولم تؤد هذه الاجراءات الهادفة الى ازالة عدم التكافؤ الاقتصادى والاجتماعى الى أية هزة سياسية لأن معظم اصحاب الامتيازات الذين فقدوها لم يكونوا من المصريين بل من المقيمين الاجانب من بريطانيين وفرنسيين وبلجيكيين ويونان وغيرهم •

أما فى سورية ، وعلى سبيل المقارنة المرعبة ، فلم تكن هناك أية ثورة داخلية من اى نوع ، كما يدلل على ذلك العدد الصغير من نواب حزب البعث الاشتراكى فى البرلمان • وعندما وقعت الوحدة كان فى سورية نظام اقتصادى يفوق ، فى حريته وعدم تقيده وانفتاحه امام أصحاب الاعمال ، أى نظام آخر فى أى بلد ثان بعد الحرب العالمية الثانية • وكان التجار وارباب المصارف السوريون قد تعودوا على ما ألفه القرن التاسع عشر من افتقار الى تدخل الدولة فى توجيه الاقتصاد ، لا سيما وانهم هم الذين يسيطرون على هذه الدولة مباشرة أو عن طريق الفئات المختلفة من ضباط الجيش • وليس ثمة من يشك أو يناقش فى أن سورية كانت فى حاجة ماسة الى الاصلاح الداخلى ، وفى حتمية هذه الاصلاحات • ولكن عندما بوشر الآن فى التطبيق ، ولا سيما فى حدود القرارات الاشتراكية العربية التى صدرت عن الرئيس عبد الناصر فى يوليو عام ١٩٦١ ، صبت الفئة القليلة من ذوى الامتيازات فى سورية جام نقمتها على مصر وعلى الوحدة ولم يكن عدد الاجانب من ذوى الامتيازات فى سورية كبيرا جدا

بحيث يمكن حرمانهم منها • وتحتم أن يكون الصراع الذى سيحدث بين السوريين انفسهم • وكان الخطر قد اتضح منذ السنة الاولى للوحدة فى بيان صريح كل الصراحة صدر عن الرئيس عبد الناصر ، اثر مقابلته لوفد من غرف التجارة فى سورية جاء يشكو اليه فلقد قال .. « اذا بعثنا اليكم ببعض مسئولينا ، قيل انهم جاءوا ليحكموا سورية، أما اذا امتنعنا عن ايفادهم ، فيقال ان مصر لا تهتم بسورية » (١) .

واذا أضفنا الى هذا العامل المعاكس ، بعض الاخطاء التى وقعت . تبينت لنا صورة عن الاوضاع • فلقد افترض المخططون والاداريون ،ان ما يصلح لمصر من أساليب واجراءات ، يصلح لسورية أيضا . وكثيرا ما ضاق هؤلاء صبرا ، من رؤيتهم الاقليم الشمالى ، لا يتقبل بســـهولة مفاهيم التنمية الاقتصادية التى تخططها الدولة وتوجهها ، لان هذا الاقليم لم يألفها • وصحيح أن الحاجة الى الاصـــلاح والتخطيط كانت قائمة ، الا ان المثقفين السوريين وحتى المؤمنين منهم بمثل هذه الاصلاحات الاشتراكية ، لم يكونوا يحسون بالحاجة الملحة اليها ، والتى تتسلط على التفكير فى الاقليم المصرى بسبب الضغط الناجم عن تكاثف السكان .

عوامل الضعف السياسية :

هناك عدد كبير من علامات الاستفهام التاريخية فى قصة الوحدة بحيث يصبح من الصعب ، لا سيما وأن الوقت لم يطل بعد ، على وقوع المأساة ، للحكم على ما اذا لم تكن المتناقضات الاجتماعية ــ الاقتصادية الاساسية من النوع الذى سيطغى على أى حال . ولكن المشاكل السياسية الداخلية فى الجمهورية العربية المتحدة ، كانت من نوع ضخم أيضا .

---

(١) هناك حقيقة واقعة يجب الا نتغافلها . وان تغافلها المؤلف ، وهى أن سورية كانت تضم طبقة من الاقطاعيين والراسماليين وذوى المصالح ، شأنها في ذلك شأن الاجزاء الاخرى من الوطن العربى الذين أفزعتهم القرارات الاشتراكية لما ستؤدى اليه من تهديد لمصالحهم الشخصية الاستغلالية التى تقوم على ابتزاز عرق العامل والفلاح وجهدهما ، وان أفراد هذه الطبقة تتشابك مصالحهم دائما مع مصالح الاستعمار ، وان لم يكونوا يرتبطون به ارتباطا مباشرا في الظاهر على الاقل . ولما كان هم الاستعمار أن يفصم الوحدة حرصا على مصالحه ، وابقاء على ربيبته اسرائيل التى كانت الوحدة تمثل الخطر الاول عليها ، فقد استغل ، عن طريق أعوانه واجرائه في الاجزاء الاخرى من الوطن العربى ، هذا الشعور الطبقى عند الفئات الرجعية والراسمالية في ســـورية ، وســـخر أفرادها بعضهم عن طريق العمالة المباشرة ، والبعض الآخر دون وعى وادراك في العمل على تحطيم الوحدة . ولهذا لعبت هذه الفئات دورا بارزا في عملية الانفصـال . (المعرب)

ولقد كان أول رد فعل عند الغرب لحركة الانفصال هو الافتراض بأن القوى الديموقراطية فى سورية قد ثارت على ما أسمته بالسيطرة المصرية. لكن ما يبدو فى هذا الافتراض من بساطة .. سرعان ما ظهر بطلانه من الحقيقة الواقعة . وهى ان العهد الانفصالى نفسه . لم يتح للاحزاب السياسية حريتها ، ولم يسمح بقيامها . وسأتولى فى الفصل المقبل البحث فى مفهوم عبد الناصر ، عن البنيان السياسى الذى يقوم على عدم وجود الاحزاب ، وهو مفهوم يسير فى خط مماثل ومتواز مع كل مفهوم من نوعه فى الدنيا الافريقية ـ الآسيوية . ولكننى أرى من الاهمية بمكان هنا أن شرح بعض نقاط الضعف فى جهاز الاتحاد القومى الذى قبل به السوريون انفسهم كشرط من شروط الوحدة الكاملة التى أصروا هم على قيامها .

واذا ما وضعنا نصب أعيننا حقيقتين أساسيتين ، وهما : حجم مصر الضخم ، وزعامة عبد الناصر الشعبية الجارفة الطالعة من القاهرة ، فان سؤالا ضخما سرعان ما يبرز أمامنا ، وهو ألم يكن الوفد السورى الذى ذهب الى القاهرة فى يناير عام ١٩٥٨ ، سعيا وراء الوحدة ، يدرك أن مصر ستكون هى صاحبة الدور الاكبر ، كنتيجة طبيعية فى الاندماج الذى يطلبه ؟ ان الرد على هذا السؤال يتطلب منا نظرة اعمق تجاه الاهداف الايجابية التى دعت زعماء البعثيين المطالبة بالوحدة ، ويبدو لمؤلف هذا الكتاب أن هذا الرد يعرض قضية عقائدية أساسية بالنسبة الى خالقى الوحدة . فأكرم الحورانى الزعيم المحترف لحزب البعث ، وميشيل عفلق وصلاح البيطار ، الزعيمان العقائديان للحزب ، كانوا جميعا يرون فى شخص عبد الناصر الزعيم الصادق والنزيه ، وذا الدور التنفيذى التاريخى للحركة العربية ، وكانوا يؤمنون بأن مصر يجب أن تكون مركز الثقل فى هذه الحركة . ولكنهم مدفوعين بشىء من الغرور والاغراق فى الثقة بالنفس اللذين يظهران بوضوح فى غموض برامجهم ، كانوا يعتقدون أن هذه الحركة فى أشد الحاجة الى محتواهم العقائدى وسياساتهم المتلاحمة .

وعلى الرغم من اعترافهم ـ أى زعماء البعث ـ بأن قيادة عبدالناصر مالبثت أن طلعت بمحتواها ومفاهيمها العقائدية ، الا انهم ركزوا عند طلب الوحدة ، هدفهم على أساس الافتراض بل النية ، على أن يكون التلاحم قائما بين قيادة عبد الناصر ، ومفاهيمهم العقائدية .

ولم تمض بضعة أسابيع على صدور اعلان الوحدة ، حتى كان زعماء

البعث يسرون حتى الى رجال الصحافة الغربية بأنهم يتوقعون بسرعة الحصول على نفوذ مسيطر لا مجرد نفوذ نسبى ، أو حتى متكافىء فى حكومة الجمهورية العربية المتحدة كلها . ولا ريب فى أن هذه المطامع هى التى حدت بهم الى ذلك التسرع فى تجاهل جميع تلك الاخطار الضخمة من قيام وحدة متسرعة وغير مدروسة أو مقامة على أسس خطط لها ، وهى الاخطار التى حذر الرئيس عبد الناصر منها عندما حاول اقناعهم بتعديل مطالبهم وكان البعثيون بالنسبة الى قرار حل الأحزاب ، قد رأوا ، وهم الذين يعتبرون منظمتهم أكثر من مجرد حزب ، ان هذا الحل لاينطبق عليهم ، اذ أنهم توقعوا أن يصبح البعث فى الحقيقة الحركة « الرسمية » فى الاقليم السورى .

ولا ريب فى أن هذه القضية الباطنية من الثقة ، هى أحد العوامل الغريبة التى لعبت دورا هاما فى الجمهورية العربية المتحدة . ولعل من الصعب جدا على الباحث أن يحكم على المدى الذى كان فيه عبد الناصر غير محق فى خلافه مع قادة البعث أو على المدى الذى كان لا بد لهذا الافتراض الغريب الذى أشرت اليه والمختفى وراء هدفهم ، من أن يجعل الصدام شيئا حتميا ويستفزه . فلم تكن الحقائق الواضحة فى « الواقع السياسى السورى » داخل سورية نفسها تبرر ما قام به الرئيس عبد الناصر فى بادىء الامر من العطف عليهم كل ذلك العطف الذى جعله يرفعهم الى مركز الزعامة القيادية فى سورية . وكان هدفه الرئيسى من اقامة « الاتحاد القومى » ومفهومه ، اقناع جماهير السوريين بأن الاحزاب السياسية أصبحت شأنا من شئون الماضى . ويجب علينا على كل حال أن نقول ان حزب البعث ، كان العنصر السياسى الواضح الوحيد فى سورية الذى يحمل مفاهيم اصلاحية متطرفة أمام الناس وأمام مؤيديه من ضباط الجيش والموظفين ذوى النزعات المتطرفة . وعلى هذا الاساس فقد كان الحزب ، النواة التى تلتف حولها الحركة النضالية الطبقية ضد الطبقة المختارة القديمة بشكل واضح عند السوريين . وعندما وقعت القطيعة بين الرئيس عبد الناصر ، وبين قادة البعث فى عام ١٩٥٩ ، لم تنبثق زعامة شعبية سورية جديدة ، من صفوف الاتحاد القومى الذى كان لا يزال يمر بفترة من فترات التجربة البطيئة .

وهكذا يمكن تلخيص النتيجة فى عبارات عامة . ففى الوقت الذى شرع فيه عبد الناصر ضمن اطار هذه الوحدة التى كان من الطبيعى تفوق العنصر المصرى فيها فى تنفيذ برامج الاصلاح والتطور والانماء فى سورية ، مستفزا بذلك صراعات طبقية حادة ، لم تكن هناك على

المسرح السياسى السورى ، قيادة شعبية متطرفة . ولم يكن هنـــاك الا حب الجماهير من السوريين الذى يبلغ درجة العبادة لعبد النـــاصر المقيم فى القاهرة . وجهاز الاتحاد القومى الجديد الذى مازال موضـــع التجربة . يضاف الى هذا انه كان هنـــاك ســـخط متزايد النمو لدى الفئات المثقفة الفتيه من السوريين على الاجراءات البوليسية التى يقوم بها المسئولون فى الاقليم السورى .

نقطة ضعف خارجية :

وقد يغدو الحكم على الفرقة التى وقعت بين الرئيس عبد الناصر وحزب البعث اكثر صعوبة عندما نضيف الى الموضوع الهدف الاساسى الثانى الذى حمله البعثيون عند سعيهم الاســـاسى لتحقيق الوحدة . فلقد كانوا كمعظم القوميين السوريين على بعض الغلو فى التطرف . وذلك بسبب مفاهيمهم العقائدية ــ الفلسفية المستمدة من التاريخ العربى ، ولذا فقد آمنوا بما كانوا يسمونه دائما « بالمراحل التاريخية الحاسمة » . وكانوا يعتقدون أن الشعب العربى يواجه الكثير من المصالح الداخلية التى تجد استـــثمارها فى الانفصـــال والتجزئة ، كما يواجة الكثيرين من اعداء الوحدة من الاجانب بحيث باتوا يرون التدرج فى تحقيق الوحدة عملا لا أمل فيه بل قد يكون معرقلا لها . وكانوا يعتقدون أيضا أن هناك لحظات حاسمة فى التاريخ العربى وتطوره ، يكون فى وسع عمل ثورى جرىء يتميز بالدينامية فى طريق الوحدة ، أن يغير الصورة العربية كلها، فى حين قد يؤدى التردد الى تأخير الحركة كلها مدة حقبة كاملة .

وهكذا رأوا فى أزمة سوريا الداخلية فى يناير عام ١٩٥٨ ، لحظة من تلك اللحظات التاريخية الحاسمة ، التى قد يتحول فيها المأزق الى نصر حاسم . ولم يدركوا قط ان الزمن عامل أساسى فى الوحدة بين مصر وسورية ، وان تحقيقها يتطلب بعض الوقت . فعلى النقيض من ذلك كان من الطبيعى بالنســـبة الى مواقفهم أن يصروا على أكثر أنواع الوحدة اثارة وحماسة ، كما كانت ثقتهم بأنهم سيسيطرون هم على الوحـــدة ، هى التى دفعتهم أيضا الى المطالبة بسرعة ضم العراق والاردن اليهـا . وكانوا يعرفون أحسن من غيرهم من الفئات العربية الأخرى أن ما يراه عبد الناصر من شروط يجب توافرها فى المراحل التى تسبق الوحدة ، يختلف عن مفاهيمهم تمام الاختلاف . ولكنهم كانوا يتوقعون أن يكسبوه الى صفهم ، وأن تمتد الجمهورية العربيـــة المتحدة وتتسع بسرعة عن طريق القدوة ، والدعوة ، والقوة .

القضية العراقية :

وقع الخلاف بين الرئيس عبد النــاصر وبين البعثيين بالنسبة الى هذا الهدف الخارجى بعد اشهر قليلة من تحقيق الوحدة ، أى بعــد الرابع عشر من يوليو عندما وقع الانفجار الثورى فى العــراق ، وليس ثمة من شك فى أن نداء الوحدة فى تلك الايام الاولى من ثورة العراق التى تميزت بالحماسة والتفجر العاطفى ، كان يلقى لو صــدر عن الرئيس عبد الناصر ، استجابة جماهيرية طاغية فى العراق . وكان الناس يتوقعون تحقيق الوحدة بين العراق والجمهورية العربية بين لحظة واخرى ، اذ انها تعتبر مستلزما أساسيا من مستلزمات الثورة . أو لم يكن نورى السعيد على اى حال هو الذى عزل العراق عن العرب وابقى على عزلته هذه أو لم يذهب العقيد عبد الســلام عارف « بطل بغداد » على الفور الى دمشق لتحية عبد الناصر باسم الثورة ؟ ومع ذلك ظلت القاهرة على صمتها ولم تصدر عنها أية دعوة للوحدة أو حتى أية اشارة . وبدلا من أن تصدر هذه الدعوة راح عبد الناصر بعد تسعة أيام من قيام الثورة ، يلقى ذلك الخطاب الهام الذى تحدث فيه عن مساوى التسرع فى تحقيق الوحدة على أسس غير مدروسة . وانقضت الايام ، وطار كامل الجادرجى الزعيم العراقى ورئيس الحزب الوطنى الديمقراطى الى القاهرة ، بعد أن رأى العقيد عارف وجمــاعة البعث فى العراق ينادون علنا بتحقيق الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة ، رافعين شعارها . وبعد أن رأى أن بعض المسئولين المصريين فى بغداد . يفترضون أن الوحدة واقعة لاريب فيها . وعاد المذكور الى بغداد ، وقد زالت من نفســه الشكوك بعد أن قابل الرئيس عبد الناصر ، واقتنع بأنه لا يريد أية وحــدة عاجلة (١) .

وكان الرئيس عبد الناصر ، بالرغــم ممــا تعرض له من ضغط شديد من وزرائه ، قد نقل وجهة نظره الى عبد الكريم قاسم (٢) . وكان عبد الناصر يؤثر الوحدة العملية على الوحدة العاجلة ، وتم الاتفاق فعلا عليهــا ، واتخذت خطوات فعالة لتنسيق شئون الدفاع والتعليم والتخطيط الاقتصادى بين البلدين (٣) . وذكر عبد الناصر لقاسم ، أنه

---

(١) مقابلة صحفية للمؤلف مع الجادرجى بعد مقابلته للرئيس عبد الناصر .

(٢) مصادر قاهرية عديدة في سبتمبر ١٩٥٨ وفي حديث شخصي بين الرئيس عبد الناصر والمؤلف .

(٣) استقرت وحدات من الطائرات العربية النفاثة في العراق وكان طياروها =

حتى لو طلب العراق الحديث علنـا الوحدة مـع الجمهورية العربية المتحدة ، فانه ـ أى عبد الناصر ـ سيصر أولا على وجود براهين واضحة تثبت أن الغالبية الطاغية للرأى العـام العراقى تؤيدها ، وثانيـا على اجراء مفاوضات ودراسات طويلة ودقيقة . واتفق بصراحة ، على وقف اى حديث عن الوحدة ، سواء أكان بالسلب أم بالايجاب . وقد يقال ان هذا الصمت كان ينطوى على شىء من الخطأ ، اذ لو صدر بيان مشترك يدعو الى وقف كل نقاش فى الموضوع ، لأمكن عن طريق هـذا البيـان تجنب الكثير من المتاعب . ولكن لم يكن من المعقول ، أن يتولى الرئيس عبد الناصر اصدار هذا البيان بشكل منفرد ، لان قادة الثورة العراقية ، كانوا قد انقسموا فى الموضوع .

ومع ذلك استمرت الضجة فى طلب الوحدة من جانب البعثيين فى سورية وممثليهم فى حكومة الجمهورية العربية المتحدة من ناحية ومن جانب العقيد عارف والبعثيين العراقيين من الناحية الثانية . وكانوا على ثقة من ضرورتها وكانوا يعرفون أن الرئيس عبد الناصر ، لايستطيع أن يرفض طلب الوحدة ، اذا جاء مطلبا شعبيا عاما ، وكانوا يخشـون خشية كبيرة من أن يقع اتفاق بين الدول الغربية والشيوعيين العراقيين وأن يؤدى أتفاقهم الى تعقيد قضية الوحدة وتأجيل قيامها . وكانت هنـاك قوتان تعاكسـان عارف والبعثيين ، أولاهما : الحزب الوطنى الديمقراطى الذى يعارض فى الوحدة ، لأنه يخشى من أن يؤدى تحقيقهـا الى الحيلولة دون قيام نظام ديمقراطى على الأسس الغربية ، وهم يؤثرونه ويودون وجوده عندهم ، وثانيتهما : تمثل الشيوعيين العراقيين ومعهم حلفاؤهم من الاكراد الانفصاليين الذين يؤلفون نحوا من ثمانمائة ألف ...

ويقيمون فى شمال العراق .. ويعارضون فى قيام الوحدة . وبدا للشيوعيين العراقيين والعرب والسوفييت والصينيين أن الثـورة فى العراق قد أمنت لهم تلك الفرصة التى طال ترقبهم لها فى الشرق الاوسط ، والتى طالما ضاعت منهم ، وهى فرصة اسـتغلال المكانة السوفيتية واقامة قاعدة محلية للسـلطان الشيوعى المحلى النموذجى والفعلى . وكانت الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة التى لايسمح فيها بأى نشاط شيوعى . والتى سـتؤدى الى تقويـة زعامة الرئيس عبد الناصر على الصعيد العربى العام ، تعتبر بمثابة «مصيبة» تحل بهم . ولقد كانوا

= يتولون تدريب العراقيين . وذهبت بعثات تعليمية واقتصادية وزراعية عربية الى العراق . (المؤلف)

كالديموقراطيين الوطنيين يريدون حريــة حزبية كاملــة يســتغلونها لتحقيق أهدافهم .

وكان عبد الكريم قاسم هو مفتاح هذا الصراع كله · وكان مفتاح السلوك الغريب الذى يسلكه قاسم ، هو افتقاره الى الشخصية الثابتة المستقرة ، وهو ما لاحظه الشيوعيون القريبون منه والذين لم يفصحوا فى بادىء الأمر عن حقيقة ميولهم العقائدية ، وأخذوا فى استغلاله · وقد اكتشف الشيوعيون فيه ظاهرتين نفسيتين أولاهما المســاس الــكامن العقلى بفكرة واحدة وثانيتهما عقدة الاحساس بالاضطهاد التى كثيرا ما يصحبها نوع من ازدواج الشخصية (١) · وكانوا يحثون هذا «الزعيم» الانطوائى المعقد المفتقر الى كل تجــربة وعقيــدة سياسيتين بأن يظل « فوق الاحزاب » وأن يغــدو « الزعيم الأوحد » للعراق الجديد . وراحوا يوحون اليه بأن العقيد عارف والبعثيين يتآمرون عليه وهو مابدا معقولا لديه بسبب دعوتهم المستمرة للوحدة . وأخذوا يقنعونه بصورة بطيئة ولكنها مستمرة ، بألا يصدق ما يقال له من أن الجمهورية العربية المتحدة لاتقف وراء عارف والبعثيين فى دعوتهم الوحدوية .

وظل قاسم فى بادىء الأمر يرفض هذه الأقوال التى يهمسون بها فى أذنيه عن عارف وعن البعثيين · ولكنه ما لبث أن أخذ يصــــدقها ، فأنزل من مكانة عارف ، وأقصى حزب البعث عن تأييده وعطفه · ولكنه ظل واثقا من تأكيدات الرئيس عبد الناصر ، حتى بعد أن أبعد العقيد عارف فى اكتوبر عام ١٩٥٨ الى منصب فى ألمانيا الغربيــة(٢) · لكن هذه الثقة أخذت تقلق عبد الناصر ، الذى ساورته المخاوف من ظهور هذه العناصر الشيوعية القوية التى أحاطت بقاسم واحتلت المناصب المهمة(٣) وتزايد الضغط على قاسم · وشرع الشيوعيون العراقيون الذين يحتلون المراكز الهامة ، التى تسللوا اليها ، يشنون الحملات العلنية على عبد الناصر والجمهورية العربيــة المتحدة · وتمكنوا من اقناع قاسم بأن عبد الناصر هو عدوه الاول · وانفجرت الحملات الشــيوعية داخل محكمة الثورة ، وفى صفوف فرق المقاومة الشعبية وعلى صفحات الصحف وعبر موجات

---

(١) لايشك أى من المراقبين المدققين في هذه الظواهر النفسية ، ولكن الواقع أنها ظواهر غير مستمرة وانما تقع في شكل نوبات . وتعتبر مطالبته بالكويت في عام ١٩٦١ ، دون مشاورة مجلس الوزراء . احدى أمثلة هذه الظواهر . (المؤلف)

(٢) مصادر مراقية رسمية في بغداد والقاهرة .

(٣) مقابلة شخصية مع الرئيس عبد الناصر .

الاذاعة ، في حين أن رئيس الوزراء المفتقر الى الاستقرار ٠٠ بدا وكأنه قد تخلى عن الحكم ٠

وبعث عبد الناصر في هذه المرحلة بأربع رسائل متتابعة الى قاسم مقترحا عليه عقد اجتماع عاجل طبقا للظروف التي يقررها قاسم والموعد الذي يحدده (١) ٠ واعترف رئيس وزراء العراق بتسلم الرسالة الاولى ، ولكنه لم يرد على أي منها ٠ واعتقد الشيوعيون العرب في ديسمبر عام ١٩٥٨ ان الفرصة أصبحت مواتية لهم للاسراع في تنفيذمخططهم البعيد المدى ، فشرعوا في حملة اثارة مكشوفة داخل سورية يحرضون الناس ضد الوحدة مع مصر ، ويفهمونهم أن « مصير سورية الطبيعي » يقوم في ارتباطها مع العراق ٠ وفي غضون ذلك ؛ كان جميع القوميين في العراق؛ حتى المعتدلين منهم في سعيهم وراء الوحدة ، أو أولئك الذين يرونها الهدف النهائي كزعماء حزب الاستقلال مثلا ، قد غدوا اما رهن السجون أو تحت الرقابة ، أو مبعدين في الخارج أو مختفين في الداخل ٠

وهنا فقط كما يدعي نقاد عبد الناصر من البعثيين شرع الرئيس العربي في حملته العلنية ضد الاتجاه الذي يسير فيه العراق ، واصابت حملته هذه برشاشها حتى نيكيتا خروشوف ٠ ولكن هذا التسلسل في الاحداث أدى الى تدعيم اتجاهين رئيسيين في الجمهورية العربية المتحدة ، أولهما : الخلاف بين الرئيس عبد الناصر ، وبين قادة البعث السوريين ، وثانيهما : اتكاله على قوات السراج ، لمقاومة الحملة الشيوعية ضد الوحدة في سورية ٠ وعندما حل منتصف عام ١٩٥٩ ، لم يعد الخلاف قائما بين عبد الناصر والبعث فحسب، بل ركزت جميع العناصرالناقمة على الوحدة في سورية ، سخطها على البعث ، باعتباره عاملا رئيسيا في قيامها ٠ ونفد صبر المثقفين السوريين المخلصين للوحدة ورئيسها عبد الناصر من تصرفات أكرم الحوراني الذي كان يشغل منصب نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة ٠ وأسفرت الانتخابات التي أجريت في سورية في يوليو عام ١٩٥٩ للجان الاتحاد القومي عن فشل المرشحين المعروفين بميولهم البعثية بالرغم من أن الحزب كان قد حل رسميا مع بقية الاحزاب ٠ واتسعت شقة الخلاف مع هلال عام ١٩٦٠ ، واستقال الوزراء البعثيون الاربعة من حكومة الجمهورية العربية المتحدة ٠

---

(١) مصادر رسمية في الجمهورية العربية المتحدة ، وأكدتها مصادر بغداد .
(المؤلف)

وقوى نفوذ السراج في غضون ذلك في سورية . فقد إضطر الرئيس عبد الناصر ، نظرا لاستمرار الحملة الشيوعية من ناحية ، وبعث عبد الكريم قاسم لمشروع العراق القديم في وحدة « الهلال الخصيب » متحديا بذلك وحدة الجمهورية العربية المتحدة تحديا مباشرا وكذلك نظرا لمعارضة الطبقات الرجعية المتسترة للوحدة في سورية ، الى اللجوء الى سياسة الحذر ، والقبض على ناصية الامور بالحزم والشدة وكان يوفد الى دمشق بين الفينة والفينة نائب رئيس الجمهورية المشير عبد الحكيم عامر الذي يأمر بتقديم الشكاوى من السوريين اليه مباشرة . وقد خوله الرئيس الصلاحيات المطلقة لابدال أية سياسات في الاقليم فورا اذا اقتضى الامر. فقام مثلا بمحاولة اجراء تعديلات على سياسة الاصلاح الزراعي فور ظهور أخطاء فيها ومع ذلك فقد برزت من جديد وعلى هذا الصعيد قصة الحزازات الاقليمية بين المشير والسراج وهو آخر سوري كان في وسع الرئيس أن يركن اليه (١) .

وحفزت قرارات عبد الناصر الاشتراكية في أواسط عام ١٩٦١ وتوسيعها على صعيد الجمهورية العربية كلها ، جماعات المعارضة اليمينية في سورية للوحدة الى العمل المباشر . ووجد هؤلاء الرجعيون بعض التأييد لدى فئات الطبقة الوسطى وبعض العناصر المحافظة من ضباط الجيش . واستغل هؤلاء جميعا وجود فئة أخرى من الضباط الذين لم يكونوا يعارضون الوحدة ، وانما كانوا مستائين من بعض الاوضاع فاعتقدوا أن في امكانهم الركون اليهم . ورأى المتآمرون أن القيام بعمل حاسم يتطلب المزيد من الضباط المتعاونين معهم . وكان المشير في سورية في نهاية سبتمبر عام ١٩٦١ . وقام الرئيس – حسما للخلاف بين المشير والسراج – بتعيين الاخير كنائب للرئيس في القاهرة ، بعد أن عدل الوزارة وجعلها مؤلفة من أربعة عشر من الاقليم السورى وخمسة وعشرين من الاقليم الجنوبى ، كما أصدر أمرا بمنع اعتقال أى انسان دون أمر من النيابة العامة . وأشار المقدم النحلاوى ، السكرتير الشخصى للمشير وهو من أركان المؤامرة . على قائده باجراء بعض التبديلات في الجيش الاول واحالة عدد من الضباط الى الاستيداع ، فوقع المشير الأمر الذى استغله

---

(١) اخطأ المؤلف في رد ما وقع في آخر أيام الوحدة من خلاف بين نائبي رئيس الجمهورية المشير عبدالحكيم عامر والسيد عبدالحميد السراج ، الى النزعة الاقليمية. فلقد كان من الواضح ان الخلاف قائم في الآراء حول خير الوسائل لتعزيز الوحدة وخدمة الجمهورية العربية المتحدة . (المعرب)

النحلاوى فى اقناع الضباط الذين وردت أسماؤهم فى الامر ، بالاشتراك فى المؤامرة الانفصالية •

بعض الاحكام :

لم يكن من السهل على وأنا أكتب هـذا الفصل بعـد أسبوعين من الانفصال ، أن أتوصل الى أحكام جازمة عن الاسباب العميقة التى أدت اليه ، أو الى تكهنات صادقة عما سيؤدى اليه من نتائج • ولـكن يتضح من التعقيـدات التى أوردتهـا عنـد التحدث عن الاسس التى أدت الى الانفصال ، أن من المستحيل ظهور ايضاحات جلية فى مثل هـذا الوقت القصير • أما الزعم الذى سـاد أوساط الغرب بأن الانفصال لم يكن الا هزيمة « لأطماع عبد الناصر الاستعمارية » فليس الا نتيجة تلك الضغوط الغربية التى تسـيطر على عقول الغربيين وليست الا تجاهلا للحقـائق الاساسية • فلقد كانت هنالك وحدة لم يكن عبد الناصر متوقعا لها بمثل هذه السرعة ، ولم يكن هو الذى فرضها على سورية ، وانما حمل نفسه أعباءها تلبية لطلبات السوريين العاجلة الملحة • وكان عبـد الناصر هو أول من اعترض على طبيعتهـا المتلاحمة الاندماجيـة ، وأول من خاف من نتائج التسرع فيها • وكان عبد الناصر أيضا « هو الذى رفض باصرار توسـيع حدودها بشىء من التسرع برغم الفرص العظيمة التى أتيحت له ، كما كان هوالذى رفض الابقاء عليها باستخدام القوة وقتالانفصال• ومن الواجب ألا تلقى جميع هذه الحقائق دهشة من أحد ، اذ أنهـا تتفق مع ماضى عبد الناصر ؛ وأهدافه المعروفة سابقا وفلسفته السياسية •

ولقد وقعت بعض الاخطاء فى تنفيذ سير الوحدة ، أما اذا كنت على غير استعداد لاستنكار الاشراف المركزى على سورية أيام الوحدة ، فان مرد ذلك الىسبب واضح ؛ وهو أن مانعرفه نحن فى الغرب كحريةلايمكن أن يصلح للتطبيق العمـلى فى مجتمعات لا غربية كالمجتمعات الافريقيـة الآسيوية اليوم • وسأحاول شرح هـذه النقطة بمزيد من التفصيل فى الفصل المقبـل • وهناك سبب وجيه آخر ، يدعونى الى تسخيف تلك الانتقادات التى يوجههـا الغربيون للحكم المركزى فى سورية ، وهو أن الديموقراطية القـائمة على سياسات الاحزاب ، ظهرت كتجربة فاشـلة فى سورية وما لبثت أن انهارت • ولا ريب فى أن تلك الديموقراطية التى أسماها صلاح البيطار نفسه بالزائفة ، كانت تسبب أخطارا على استقرار البلاد وكيانها ، وتعرضها لمخاطر التغلغل الشيوعى والسيطرة النهائية على الجمهورية •

ولا ريب فى أنه كان من الخطأ السماح لسيطرة المباحث فى الاقليم السورى ، بالوصول الى أقصى حدود التطرف . ولكن قبل القول بأن الواجب كان يحتم السماح للسوريين بممارسة النظام السياسى الذى يرغبون فيه ، أرى من الضرورى الاشارة الى تحفظين . فما الذى يعنيه المعلقون الغربيون بعبارة « السوريين » عندما يستخدمونها ضمن هذا المحتوى ؟ هل يعنون الجناح اليمينى المحافظ من الطبقة المختارة ؟ أو هل يعنون التركيب القديم من القادة السياسيين وضباط الجيش المتنافسين وأصحاب المصالح المستثمرة ، والذى أوصل سورية الى تلك الأوضاع ، التى شرحها الوفد السورى لعبد الناصر فى يناير عام ١٩٥٨ ؟ أو هل هم أولئك الفريق من المتخلفين تعليميا ، والمحرومين من الامتيازات ، والذى يحسبون اسميا من جماهير المقترعين فى أية انتخابات ؟ ان الردود على هذه الاسئلة هى فى أيدى السوريين من جديد ، وأنا غير متفائل من أنها ستجد التعبير الصحيح . وها هى ذى جميع العناصر السورية القديمة ، قد عادت وأنا أدون هذا الفصل الى الظهور من جديد على المسرح السياسى .

وأرى لزاما علينا ثانيا ونحن نحاول الحكم على الاسلوب الذى كان من الواجب اتباعه لسياسة الحكم فى سورية فى ظل الوحدة ، أن نتذكر الخطر الشيوعى الذى كان مبعث الدعوة العاجلة الى الوحدة ، والحملة التى كان الشيوعيون قد شرعوا فى شنها فى سورية. وكانت هذه الحملة التى تبدأ بخروشوف وتنتهى بأصغر شيوعى ، قد بلغت ذروتها فى العراق الذى تسوده الفوضى ، والمجاور لسورية ، وامتدت الى نشاط الشيوعيين السوريين فى الاقليم الشمالى .

وكان الامل متركزا فى أن تقوم قيادة سورية تتمكن من كسب التأييد الشعبى ، وتقف وسطا لتحول دون نشاط اليمين المتطرف واليسار المتطرف أيضا . وهناك حقيقة لا يمكن نكرانها أو مناقشتها ، وهى أن سورية كانت تفتقر الى مثل هذه القيادة ، فى يناير عام ١٩٥٨ ، وذلك باعتراف الذين كانوا يرشحون أنفسهم لها ، وقد أدى هذا الافتقار الى قيام الوحدة مع مصر . فهل كان فى الامكان أن تخلق هذه القيادة فى غضون السنوات الثلاث والنصف التى انقضت منذ قيام الوحدة ؟ ويعيدنا الرد على هذا السؤال الى قضية العلاقات بين البعثيين وبين عبد الناصر ورفاقه، اذ أن عملية خلق قادة جدد وشخصيات جديدة لتولى القيادة من قاعدة الاتحاد القومى ، كان لا بد وأن تكون بطيئة كل البطء

حتى في أحسن الاحتمالات • وقد اعترف الرئيس عبد الناصر في الخطاب الذى ألقاه في السادس عشر من أكتوبر عام ١٩٦١ بأن نظام الاتحاد القومى لا يفى بالاغراض المتوخاة منه •

وتطور الخلاف مع حزب البعث تطورا سريعا ، ولا سيما بعد أن ظهرت أطماع قادته ، ولا سيما أطماع زعيمهم أكرم الحورانى ، مثل غيره من السوريين ، فى الحصول على النفوذ المسيطر ضمن الجمهورية العربية المتحدة ، وسرعان ما لحق به أيضا الخلاف على توسيع الوحدة ومدها الى أقطار أخرى • ولا ريب فى أن مما يستدعي المناقشة التساؤل عما اذا كان من الصواب التخلص منهم وابعادهم عن الحكم ، أو أن الصواب هو الاحتفاظ بهم على الرغم من أن الرأى العـام السورى كان قد تحول ضدهم تحولا ظاهرا ، وبالرغم من أطماعهم التى تكشفت ، ولكن خلف كل هذه التكهنات ، كان يقوم عامل أساسى أصلى ، وهو أن الوحدة كانت متسرعة بين شريكين يختلفان كل الاختلاف ، وكان صغيرهما فى طلبه للوحدة ، ينشد حماية الشريك الاكبر من مكامن الضعف التى يعانى منها (١) •

---

(١) لا ريب في اننا نختلف مع المؤلف في الكثير من النقاط التى اوردها في تحليله لاوضاع الوحدة ، وتتالجها ودوافع الانفصال واسبابه ، وكذلك بالنسبة الى ما اورده من استنتاجات لجميع هذه التحليلات التى أوردها . وقد آثرنا ان ننقل وجهات نظر المؤلف كما هى ، دون أن يعنى ذلك اننا نتبناها ، ليطلع القارىء على وجهة نظر كاتب غربى ، لا نشك في سعة فهمه للامور ، ولكن مناقشة كل نقطة من هذه النقاط ، يتطلب أكثر من مجرد تعليق في هامش . لكن هناك نقاطا نحب أن نؤكدها ، لا سيما وقد مرت على الانفصال مدة كافية تبينت فيها الكثير من غوامضه وخفاياه ، وأهمها ان الانفصال كان جريمة في حق الامة العربية ، تقع مسئوليتها على الفريق الذى دبر مؤامرته بليل، ليفصم عرى الوحدة تنفيذا لمآرب الاستعمار واعوانه، وخدمة مباشرة للصهيونية وأهدافها، وعلى الفريق الذى انساق مدفوعا بانتهازيته التاجرة أو المرتدة، او بحزازاته الشخصية وراء الفريق الاول ، منفذا له اغراضه ، وقد ثبت ان الحملات التى شنت على طريقة الحكم في الاقليم السورى أيام الوحدة ، كانت منبثقة اما عن العناصر اليمينية الرجعية التى هالها التقدم الذى حققته الوحدة في الطريق الاشتراكى السليم ، أو عن العناصر الشعوبية التى تجد في ظل الفوضي السياسية ، والحكم الرجعى الارض الخصبة لانتشارها وطعن الوحدة في ظهرها ، أو عن العناصر الخائنة التى تدين بالولاء للاستعمار واعوانه في المنطقة ، الذى هاله قيام الوحدة لتهديدها لمصالحه في الصميم ولما يمكن ان ينبثق عنها ـ ولا بد أن ينبثق ـ من خطر على اسرائيل التى خلقها الاستعمار ركيزة له في الوطن العربى •

وقد تبين بعد انقضاء اكثر من عـام على الانفصال أن المبررات التى قيلت في السابق، لوقوعه ، لم تكن الا مجرد ادعاءات «زائفة» قصد منها تخدير جماهير الشعب ـ

والآن ترى ما هي التركات التي خلفتها تلك الوحدة السيئة الحظ والطالع • كان العهد الانفصالي الجديد في سورية ، عندما كنت أضع هذا الكتاب ، قد وجد نفسه مضطرا الى الاشادة بالاصلاحات التي حققتها برامج التطور في سـورية منذ تمت الوحدة في عام ١٩٥٨ ، وكان قد عكس أيضا بعض الوعي لدى الفئات الرجعية القديمة الناعمة بالامتيازات ، في أن ليس في وسعها أن تعود بعجلة التقدم الى الوراء، وأن تعود الى سابق عهدها في التنعم بامتيازاتها كما كانت قبل الوحدة • وقد بدأ الكزبري أول رئيس وزراء بعد الانفصـال ، عهده باعلان العودة الى نظام « حرية المشاريع والعمل الاقتصاديين » • ولـكن هذه الوزارة نفسها وجدت من الضروري لها أن تعلن بعد أسبوعين فقط من قيامها ، عزمها على التمسك بمعظم نواحي الاصلاح الزراعي التي حققها عهد الوحدة ، ومعظم القوانين التي قضت باشتراك العمـال في أرباح المؤسسات التي يعملون فيها ، وبمعظم القرارات التأميمية التي اتخذها ، والقيود على الارباح التي أقرها• ولـكن مهما كان نصيب هـذه العهود للشعب السوري من الصـدق أو الخداع ، ومهما حدث لها ، فان هذه العهود نفسها ، حتى ولو عاد النظام السياسي في البلاد الى ما كان عليه قبل الوحدة ، ستؤلف تركة من أهم التركات التي خلفتها الوحدة •

لـكن أهم تركة خلفتهـا الوحدة في رأيي هي ذلك التشبيه الذي رسمه الرئيس عبد الناصر ، والذي صور لي فيه ذلك الشاب الذي يحلم بالزواج • والامل قائم في سورية وفي جميع أرجاء الوطن العربي في أن تؤدي تجربة الوحدة بين سورية ومصر ، الى درس ما وقع فيها من أخطاء ، وأن تكون حافزا أخيرا للقوميين العرب لوضع الوقائع العملية في صف واحد مع أحلامهم النبيلة • (١) ترى ما هـذه الوقائع ؟ وما المصـاعب الحقيقية التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار عند نشدان وحدة عربية تجمع بين الهدوء والثورية ؟

= السوري المؤمنة بالوحدة بعد ان تبين لهذه الجماهير هول ما وقع • وقـد نجح هذا التخـدير في تحقيق غايته بعض الوقت ، ولكن ارادة الشـعب العـربي في الوحـدة ستنتصر في النهاية ، ولا سيما بعد أن تبينت لجماهيره الحقيقة، وبعد صحوة الضمير عند بعض الفئات التي انساقت وراء الانفصال في البداية . (العرب)

(١) ليست الوحدة العربية حلما يتطلع العرب الى تحقيقه ، سواء اتصف هذا الحلم بالنبل أو لم يتصف ، بل هي حتمية وجـود ، يفرضـه الواقع المادي والواقع التاريخي • ولو ارتفعت من الوطن العربي عوامل التجزئة التي فرضها الاستعمار عليه على اختلاف صورها ، وهي كثيرة لحظة واحدة ، لرأينا الشعب العربي يتحد في ومضة =

العقبات أمام الوحدة :

هناك أولا عدد من المشاكل الجغرافية والسكانية الاساسية فالعالم المتعرب (تسمية غريبة من المؤلف للوطن العربى) لا يؤلف وحدة جغرافية متلاصقة ، وانما هى مجموعة من الجزر الانسانية فى محيط من الرمال والسهوب يمتد فوق مساحة تعدو الخمسة ملايين من الاميال المربعة ، أو ما يعادل جزءا من أحد عشر من مساحة اليابسة فى الكرة الارضية . وقد أزالت طرق الاتصال الحديثة ، العزلة عن هذه الجزر من الانسانية المستعربة ؛ بالنسبة الى ما كانت عليه فى أيام الامبراطورية العربية القديمة . ولكن الحقيقة الواقعة تظل قائمة وهى أن الاوضاع الجغرافية للوطن العربى لا تؤدى الى وحدة سياسية متماسكة(١) .

= عين في كيان موحد ، ليس فيه اى اثر لهذه المصاعب التى يتصورها المؤلف والتى لاتعدو أن تكون من تلك العوامل التى خلقها الاستعمار بوسائله السياسية والعسكرية والاقتصادية والفكرية لفرض التجزئة وليس أدل على هذه الحتمية من وحدة الشعب العربى في كل مكان في الاهداف التى تؤلف الجمهورية العربية المتحدة طليعتها القيادية والتى يمثل الرئيس عبد الناصر انعكاسها القيادى . (المعرب)

(١) و (٢) — هناك نقاط عدة في هذا البحث ، نختلف فيها مع المؤلف . أولا : نحن لا نقر هذه التسمية التى يطلقها المؤلف على الوطن العربى ، وهى «العالم المتعرب» وما الهدف من هذه التسمية الا الادعاء بأن الوطن العربى من المحيط الى الخليج لم يكن عربيا وانما استعرب بعد الفتح العربى . ولست الآن في معرض التدليل على الجذور العربية التى كانت في جميع أرجاء هذا الوطن قبل عهد الفتوحات العربية ، ولكننى أود أن أقول ان الاخذ بهذا المنطق الظاهرى للمؤلف ، يعنى حرمان كل بلد في العالم من قوميته الراهنة . فانجلترا لم تكن انجليزية قبل القرن السابع الميلادى وانما كانت «كلتيه» وكذلك الحال بالنسبة الى فرنسا التى جاءتها قبائل الفرنجة في القرن الرابع للميلاد والمانيا التى جاءتها قبائل التيوتون في القرن الرابع قبل الميلاد . واخيرا القارة الامريكية كلها ، التى جاءها اهلها بعد اكتشاف امريكا في عام ١٤٩٢ . فاذا أخذنا بهذا المنطق لم تبق لأى بلد من بلاد العالم طبيعة القومية الراهنة .

ثانيا — نحن لا ندرى هذا المنطق في اعتبار الصحارى أو السهوب اجزاء منفصلة عن الوطن أو حدودا تفصل بين أجزاء الوطن الواحد ، ولو أخذنا بهذا المنطق لتحتم تقسيم الولايات المتحدة الى وطنين تفصل بينهما صحارى تكساس وكولورادو وسهول الوسط ، وتقسيم الاتحاد السوفياتى الى عدة أوطان تفصلها الصحارى والسهوب وكذلك الحال بالنسبة الى الصين والهند واستراليا وكندا والبرازيل ومئات البلاد غيرها .

ثالثا — لا يمكن لاتساع مساحة الوطن الواحد أن يكون عاملا أصليا في التجزئة ولا سيما في هذا العصر الذى قربت المواصلات الحديثة بين الابعاد وجعلت العالم « عالما واحدا » . واذا كان الوطن العربى الحالى بما كان يتبعه من بلاد ضمت أسبانيا في الغرب ، وايران وشطرا من الهند والصين في الشرق ، قد ألف وحدة واحدة ، لها =

وهناك تناقض عجيب فى الاثر الذى تخلفه هذه الاوضاع الجغرافية فلقد أدى الافتقار الى حدود طبيعية واضحة بدوره ، الى محاولات لايضاحها من الشعوب التى تعيش على جانبى الوطن العربى ؛ مما دفع العرب الى أن يكون بحثهم عن شخصيتهم القومية مرنا ومائعا حقا • فانسياب أى جزء من الارض العربية انسيابا يؤدى فى النهاية الى الاختفاء فى الصحراء ، أو فى سهب من السهوب التى يعيش فيها الناس بشكل متناثر ، قد أدى الى أن تكون القضايا الكبرى المتعلقة بالعقيدة القومية وبالتركيب القومى أكثر عرضة للانفتاح فى هذا الوطن منه فى غيره من الاوطان • لكن هذا الانفتاح ، ساعد من الناحية الاخرى على ظهور حلم قوى يتغنى بالقومية، فالحلم بوجود شعب واحد تقوم مقوماته فى التقاليد المشتركة ، واللغة الواحدة، والدين السائد المشترك الى حدما قد أضحى أكثر تأثيرا من النواحى العاطفية ، لان الخصائص المميزة للوطن المستعرب الواحد قد ضعفت نتيجة العزلة • ويؤلف الشعور الاسلامى بالأخوة الدينية جزءا واحدا فقط من القومية • ولا يتطلب هذا الشعور الكثير من التشابك الانسانى على نطاق واسع ، كما أن أوجه التباين المحلية فى البيئات والطباع ، لا تعتبر المقياس لهذا الشعور ، اذ أن هذه الفروق ، لا تتضح للعرب ، لأنهم لا يعيشون فى حالة من الامتزاج الكامل •

لكن هذا الانفتاح، وتلك المرونة ، وذلك الشعور العاطفى فى الاتجاه القومى يمكن أن تكون « موجودات » ضخمة تعمل على تحقيق الوحدة الحقيقية • فالعوامل التى تدعو العرب الى الوحدة على الرغم من تنوعها ، أكثر منها عند أى شعب آخر فى العالم • ووحدة اللغة التى تضمهم

= دولة واحدة ونظام واحد ، قبل ثلاثة عشر قرنا عاشت مئات السنين في عهد الراشدين والامويين وشطرا من الخلافة العباسية ، فكيف يمكن لهذا العامل الجغرافي الذي يعرضه المؤلف ان يعتبر عائقا في طريق الوحدة العربية الراهنة اليوم !!

رابعا ــ لم يعتبر العرب في أى وقت من تاريخهم وحدة الدين عاملا أساسيا في مفاهيمهم القومية ، فللرابطة الاسلامية قوتها ولا شك ، ولكنها لا تؤثر على المفاهيم السياسية ، ولعل خير تدليل على ذلك ، ان العرب كانوا يعطفون على نضال القبارصة اليونانيين القومى في سبيل التحرر مع ما في ذلك من تعارض مع مصالح الاتراك المسلمين ، وهناك أمثلة كثيرة من تاريخ العرب القديم والحديث على هذه الحقيقة لا مجال لسردها الآن وان كنت أود التأكيد على ان مقومات القومية العربية هى مقومات كل قومية اصيلة ، من وحدة الارض والتاريخ واللغة والثقافة والهدف والمصالح المادية والنضال في سبيل التحرر •

(المعرب)

تعطيهم ميزة فريدة على غيرهم من الشعوب على صعيد هـذا البحث عن الوحدة ولهذا فان ما يقوله الغربيون دائما من « أن العرب يدعون الاخوة بينما يمسك البعض منهم بخناق البعض الآخر » ليس الا قولا زائفا • ولكن الغرب لايكلف نفسه عناء السؤال عن سبب هـذا الواقع • ان كان واقعـا ؟ ولا ريب فى أن ليس فى مصلحة الغرب نفسه أن يردد هذا القول ، اذ أن مسئوليتنا عن فرقة العرب الظاهرية مسئولية كبرى حقا •

فلقد استغل الغرب أوضاع العرب الجغرافية وما كانوا عليـه من ضعف سياسى نتج عن قرون طويلة من الحـكم التركى الاجنبى ، فراح يعمل فعـلا على تجزئة الجماعات العربية التى لم تكن فى حاجة الى هـذه التجزئة ، ويرغمها على أن تستنفد كل ما لديها من طاقات سياسية لرفع كابوس السيطرة الغربية عنها ويميل بعض الغربيين الآن الى صرف النظر عن هـذه التذكيرات المستمرة بالحقـائق المرة التى هى من هـذا النوع ، ويحملون على من يورد ذكرها قائلين انها باتت من شئون الماضى والتاريخ واذا صح أن هذه المرحلة من العلاقات العربية ـ الغربية الحديثة قد انتهت الآن فانها لم تنته الا منذ سنوات قليلة ، ولا يمكن أن تتم الوحـدة العربية من النوع الذى يريده العرب فى غضون سنوات قليلة (١) •

وحتى لو افترضنا أن أسوأ أوضاع الصراع بين العرب والغرب ، قد انقضت الآن ، فان ذروة هذا الصراع فى حقبـة الخمسين ، ولدت عددا من الحوافز التى تخلق صعوبات فى طريق الوحدة الهينة • وكان بين هذه الحوافز السـعى من الغرب دائما للوقوف موقف الخصم من قيـادة عبد الناصر الثورية الدينامية • وأدى هذا الى تولد الشعور لدى عبدالناصر وغـيره من القوميين العـرب فى كل مـكان الذين يتطلعون الى دور مصر القيادى والمؤازر ، بأن الواجب يدعوهم الى حشد العرب فى كل مكان فى صف واحد ، والى بث ذلك الاحساس بالكرامة والانفة والتصميم الحازم،

---

(١) لكن هذه المرحلة لم تنته حقا ، فمـا زالت للاسـتعمار قواعده في الوطن العربى ، وما زال له نفوذه في بعض أرجائه وما زال له اعوانه وأجراؤه الذين ينفذون له غاياته ، وما زال هذا الاستعمار مستخدما جميع السبل والوسائط ، يقف سـدا منيعا في طريق الوحـدة ، ويحـاول تحطيم ما يتحقق منها كلما تمكن العرب من فرض مشيئتهم ، ولعل ما قام به الاستعمار من دور غير مباشر في انفصال سورية ، وما يقـوم به الآن عن طريق اعوانه في محاولة العدوان على اليمن ، خير مثل على ما نقول • (المعرب)

لمقاومة الضغط الاجنبى ، لا سيما وان هذا الحشد هو السلاح الوحيد المتوافر فى أيديهم • ولكن مع هذا الحشد ، ومع جميع الشعارات التى يرفعها القوميون فى وجه الاعداء الاجانب ، يقف أيضا حافز قوى يدعو الى تحقيق الوحدة العربية • وظل عرب الاردن ، الذين أفزعهم هدير النفاثات البريطانية وهى تطير فى موجات كان القصد منها أن تبث الرعب فى نفوسهم فى يوليو عام ١٩٥٨ (بعد ثورة العراق) ، يتعلقون بحبال ثلاثة آمال ضخمة • فهم لم يركزوا آمالهم فحسب على الخلاص مما يعانونه من كبت واضطهاد فى داخل الاردن يفرضها عليهم ملك « مرتد » ، ولا فى الخلاص مما تمثله تلك الطائرات النفاثة من ضغط أجنبى يهدف الى دعم ذلك الملك ، وانما ركزوا أملهم العظيم الثالث ، الذى تغذيه فى كل يوم اذاعات القاهرة ودمشق وبغداد فى مطلع عهد الثورة ، عن طريق دعاياتها القومية ؛ فى أن يحققوا اخوتهم مع العرب الآخرين ضمن اطار وحدة ايجابية محددة •

وهكذا نشأ هذا « الطوفان من الأمانى » الذى اضطر عبد الناصر نفسه الى التحذير من خطره عندما دارت محادثات الوحدة مع سورية، وكان الشعار البعثى باقتناص « اللحظات التاريخية الحاسمة » واقامة الوحدات فورا ثم البحث عن التفاصيل العملية ، هو التعبير العقائدى فى معناه الصحيح عن الاحساس القومى العربى الجماهيرى بالضرورة الماسة القصوى فى تحقيق الوحدة العاجلة • ولكننا رأينا من قبل أن القيادة المسئولة عن تعبئة هذا الرأى العام على صعيد جماهيرى ، للاحساس بخطورة الحاجة الى الوحدة لمواجهة الضغط الغربى ، لم تكن ميالة الى المغامرة فى اقامة وحدة متسرعة لا تلبث أن تتطاير شذر مذر • وهنا يتساءل الغربى ••• « أو لم يكن فى استطاعة عبد الناصر أن يوضح ايضاحا أكثر جلاء للعرب، الفرق بين « التضامن » و « الوحدة » ؟

هناك أسباب تدعونا الى حد ما الى الاعتقاد بأن عبد الناصر كان قادرا على أن يفعل ذلك ، ولكنه لم يفعله ولم يكبح من جماح الدعايات اليومية التى كان ينشرها ويذيعها معلقوه الاذاعيون • ولكن القضية لم تكن فى رأيى على هذا القدر من البساطة • فالدائرة المفرغة التى تشبه « هل البيضة من الدجاجة أو الدجاجة من البيضة » والمتعلقة بالاحاجى التى تنطوى عليها الحركة العربية هى أكثر تعقيدا من أن يستطيع أى انسان ، حتى ولو كان عبد الناصر نفسه ، حلها • فليس فى وسعه مع ماله من شعبية هائلة ، تحتل قلوب الملايين أن يكتفى بمجرد القول

للعرب ، أن ليس فى الامكان اقامة وحدات دستورية لهم الا بعـد سنوات طويلة من الدراسـات العميقة الممحصة • ولو قال لهم هذا القول ، لما فهموه أبدا • فهناك أربعة اشتراطات جوهرية يجب توافرها فى الفراهة السياسية المرتبطة بالحـركة القومية فى المنطقـة ، وما لم تتوافر هـذه الاشتراطات وتفهم فهما كاملا فان ما فى دائرة الاحاجى العربية المفرغة من تعقيدات لا يمكن أن يحل •

القيادة المركبة أو الجماعية :

أول هـذه الاشتراطات التى يجب أن أسردها بايجاز ، هو القيـادة المركبة أو الجماعية التى يجب أن تتوافر فيها نفس الخصـائص الاساسية ومثل هذه القيـادات وحدها ، اذا انبثقت من كل جزء من أجـزاء الوطن العربى هى التى تستطيع وقف المد القومى الثائر فى فيضانه (١) • ولو القى المرء نظرة الى « الخريطة السـياسية للشرق الاوسـط » لرأى أنهـا لا تتألف فقط من مجرد عدد من الكيانات المصطنعة على الغالب ، بل تضم أيضا طرزا من أنظمة الحكم المجزأة ، داخل كل كيان من هذه الـكيانات • واذا كانت الوحدة العربية ، ستعنى أكثر من مجرد ترابط رسمى ظاهرى ضمن نطاق الجـامعة العربية ، وهى تعنى بالفعل للفـكر القومى العربى الحديث أكثر من هذا الترابط ، فان تحقيقها ، لا يمكن أن يتم والحالة هذه الا عندما تختفى هذه الفروق كلها ، أو معظمها على الأقل • ولا ريب فى أن ثمة حقيقة لا تقبل نقاشا أو جدالا لمـا فيهـا من وضوح ، وهى أن هـذه السنوات الشاقة المرهقة الاخيرة ، التى بلغ فيها المد القومى أوجـه ، لم تدفع الى الصف الامامى فى أى بلد من بلاد الشرق الاوسـط ، قائدا يستطيع أن يقف موقف المضاهاة أو حتى التشبيه بعبد الناصر •

وليس من الحتمى أن تكون هذه القيادات الجماعية فى الاجزاء الاخرى من الوطن العربى منبثقة عن الجيش أو ممثلة فى شخص قائد قومى ذى شخصية طاغية ، بل يكفى أن تنبثق عن حكومة ثورية مهما كان تركيبها ،

---

(١) ومن قال للمؤلف ان أية قيادات عربية تود « وقف المد القـومى الثائر في فيضانه » فالمد القومى سيظل هادرا في كل مكان من أرجاء الوطن العربى ، أما ماكان يفتقر اليه في مراحله الأولى من تخطيط صحيح على أسس روحية ومادية سليمة فهو في حيز الوضع الآن ، وقد خطط الميثاق الوطنى الذى قدمه سيادة الرئيس عبدالناصر الى الشعب خطوطه العريضة التى سيكون من مهام الاتحاد الاشـتراكى العربى وضع تفاصيلها . (المعرب)

شريطة أن تكون متمتعة بتأييد شعبها ، ميالة ميلا أصيلا الى الاصلاح • حيادية النزعة فى سياساتها الخارجية ، ومستقرة فى بلدها استقرارا معقولا • ولا ريب فى أن الغرب يخطىء أشد الخطأ ، اذا أنحى بالملامة على عبد الناصر ، لعدم ظهور مثل هذه القيادات فى الاجزاء الاخرى من الوطن العربى • فاذا كانت الفرصة قد أتيحت للأردن بعد انتخابات اكتوبر عام ١٩٥٦ ، فى اخراج مثل هذه القيادة ، فان هذه الفرصة ما لبثت أن ضاعت وحرم منها عرب الاردن بفضل الانقلاب الرجعى الذى قام به الملك حسين وأشرف على تنفيذه الانجليز والامريكيون بعد نحو من ستة أشهر • أما فى سورية فكان ضعف هذا الطراز من القيادة وان كانت قد انعكست اسميا فى الوزارة التى تألفت فى عام ١٩٥٧ ، قد بلغ حدا خطيرا ، حمل الذين كانوا يدعون لها ، الى البحث عن وحدة وثيقة العرى مع مصر لحماية ما تمكنوا من تحقيقه • أما فى العراق ، فقد وصلت التناقضات الداخلية بعد الرابع عشر من يوليو عام ١٩٥٨ الى ذروتها •

فلقد كانت القيادة الثورية التى نجمت فى العراق نتيجة سنوات طويلة من القمع الذى يسنده الغرب للقومية الفتية من الطراز الضعيف ، غير المستقر • وقد تضاعف هذا الضعف وذلك الافتقار الى الاستقرار ، نتيجة ظهور النشاط الشيوعى الضخم ، والخوف من الذوبان فى تلك الوحدة العظيمة المتمثلة فى الجمهورية العربية المتحدة ، والناتجة عن ضعف القيادة السورية (١) •

واذا ما استثنينا هذه الفرص القصيرة ، غير الكافية لقيام قيادات جماعية عربية مركبة أو متشابهة فى تفكيرها ، فان الشرق الاوسط مازال فى حاجة ماسة الى انتاج قيادات من طراز يختلف عن طراز السلالات التقليدية • وشبه الاقطاعية (٢) • وكانت نتيجة هذا الوضع ، تركيز الاهتمام الأخرق من الغرب على شخص واحد ، يحمله كل التبعات ومن

---

(١) اعتقد ان المؤلف يخطىء كثيرا عندما يربط بين الوحدة وبين ضعف القيادات العربية الاقليمية او توتها ، فالدعوة الى الوحدة ليست ناجمة عن الضعف أبدا والتصميم على الانفصال ليس ناتجا عن قوة القيادة مطلقا وانما ينجم عن تفوق النزعات الانتهازية عند هذه القيادات على النزعات القومية الصافية والصادقة مصحوبة بالكثير من المشاعر الانوية الانانية • (المعرب)

(٢) لقد استثنيت عن عمد عهد الرئيس عبود في السودان والقيادة التى ظهرت في لبنان بعد ثورتها من هذا التقييم للأوضاع ، وذلك بسبب وجود مشاكل خاصة في هذين البلدين ، تجعلهما خارج التيار الرئيسي الاولى للجدل في موضوع القومية العربية • (المؤلف)

العرب الذين يحملونه كل ما فى القومية من مسئوليات ومتطلبات ، مع أن هذا القائد يمثل عهدا يقوم فى بلاد كان تفوقها على غيرها من أجزاء الوطن العربى فى نواح عدة مصدر ضعف كما هو مصدر قوة فى الحركة الوحدوية ٠

الثورة الاجتماعية :

وتعرض القيادة العربية الجماعية أو المتشابهة فى تفكيرها ، بدورها اشتراطا ثانيا وهو مد الثورة الاجتماعية الاساسية فى الوطن العربى لتشمل أجزاءه الأخرى . وقد غالى عبد الناصر ،وأنصاره الذين لايعدون ولا يحصون فى جميع أرجاء الوطن العربى فى تقويم الدور الذى لعبته العناصر « الرجعية » فى الانفصال السورى . فمن الواضح أن التوترات التى وقعت ابان الوحدة قد انطوت على أكثر من مجرد المعارضة الشخصية الأنانية التى واجهت بها الجماعات الثرية فى سورية اصلاحات عبد الناصر الاشتراكية ٠ ولكنى لا أنكر أن الرجعية كانت موجودة ، وأنها كانت فى قلب الحركة الانفصالية ، وكان دورها الضخم السابق فى « مناورات الديمقراطية الزائفة الجهنمية » فى عهد ما قبل الوحدة ، قد ترسب فى قرارة ما واجه الوحدة المتسرعة من معارضة داخل سورية ، وليس هذا هو كل ما فعلته الرجعية ، بل كان هناك ما هو أكثر من ذلك ٠ ولا ريب فى أن القوميين العرب الشبان على حق تماما عندما يرون فى « الرجعية » عقبة أساسية من العقبات التى تقف فى طريق الوحدة ولا ريب أيضا فى أنهم رأوا ولم ينسوا المثل البارز لما تلعبه الرجعية فى معارضة الوحدة فى المؤامرة السعودية الملكية التى جرت فى مطلع عهد الوحدة لاغتيال الرئيس عبد الناصر ، والحيلولة دون تحقيقها . (١)

واذا كان الغرب لم يفهم فهما كاملا أهمية هذا العامل فان القوميين العرب أيضا فى حاجة الى دراسة موضوع « الرجعية » من جديد ٠ فليس ثمة من مشكلة كبيرة بصدد السعوديين وما يشبههم من عهود حاكمة . وقد يندفع الأمير السعودى مع التيار القومى العام ، متاثرا بالمفاهيم القبليــة التى ترجع الى عدة قرون والتى تعنى اعتزاز البدوى بالقبيلة التى ينتمى اليها . ولكن هذا المفهوم غير المفهوم الذى يحمله العالم العربى الجديد الفتى عن القومية ، أو ما يفهمه الأفارقة الجدد عن حركاتهم

---

(١) سبق لى أن ذكرت فى هذا الكتاب ان حقيقة هذه المؤامرة لا يتطرق اليها اى شك ابدا ، وان كان الغرب قد تجاهلها ، وتجاهل مغازيها . (المؤلف)

القومية أو عن الجامعة الافريقية • ولا تستطيع الوحدة التى ينشدها قوميو العرب اليوم أن تستسيغ الاستغلال الملكى السعودى، ولا التزمت العقيدى الوهابى • وليس ثمة من شك فيمن سينتصر فى النهاية • ومن المؤكد أيضا ، انه عندما توجه التعليقات الغربية نقدها للقوميين العرب لما يبدونه من عدم احترام « لكيانات » كالكيان السعودى ، فان هذا النقد يخلق فرقة جديدة بين عالمى الغرب والعرب فالغرب يمتعض مما نسميه «بالتدخل» ولكن القوميين العرب يحسون بالسخط على مايبذره المالكون السعوديون من دخل هو دخل الشعب العربى فى السعودية كله • ويتحرقون لهفة على وضع نهاية لهذا السفه فى تبذير أموال الشعب العربى فى السعودية •

وستظل هناك حتى تقع تبدلات أساسية فى العهود العربية التى هى من هذا النوع ، مســاحات كبيرة بيضــاء فى الخريطة المثالية التى يرسمها الشاب العربى فى فكره عن الوحدة • ولكن المشكلة الاكثر تعقيدا وصعوبة بالنسبة الى القوميين العرب هى تحديد « الرجعية » فى الاجزاء الأكثر تقــدما من الوطن العربى • أو بكلمة أوجز تحــديد الاختلافات العرضية فى مفاهيم الاشتراكية العربية ، وقد ثبت أيضا بوجه التحديد أن المصالح المستثمرة فى وجود عدم التــكافؤ والفروق الطبيعيــة على الصعيدين الاجتماعى والاقتصادى، انما نجمت عن الكيانات العربيــة المتفرقة التى ظهرت فى القرن الحالى • ولعل عبد الناصر كان عظيــم التوفيق عنــدما حدد أكثر هذه المصالح ظهورا بعبــارة واضحة جلية ذكرها فى خطاب أخير له قال فيه انه « لم يعد فى مجتمعنا متسع لاصحاب الملايين (١) لكن الصــعوبة تنشأ عن صعيد أخفض من صعيد أصحاب الملايين ، أى فى الطبقة التى يسميها الغرب « بالوسطى » والتى تضــم التجار وأرباب الصناعة والمهن • وليس ثمة من شك فى أن لأفراد هذه الفئات مصالح يستثمرونهــا فى الأوضــاع الراهنة وفى بقاء التجزئة العربية • ولقد ارتفعت مستويات الحياة التى يعيشها أفراد هذه الفئات

---

(١) وردت هذه العبارة فى الخطاب الذى القاه الرئيس عبد الناصر فى السادس عشر من اكتوبر عام ١٩٦١ والذى حدد فيه أهداف حكومته الاشتراكية واخطاء الماضى • (المؤلف)

دارتفع دخلهم عبر حقب من التجزئة التى فرضعهـــا الغرب • ولم يكن جميع هؤلاء من الاوغاد الجشعين • أو من المحتالين أو المتميزين بأنانيتهم كما لم يكونوا جميعا عاجزين عن الاحساس بما يحس به القوميون العرب من أمانى الوحدة ولا ســـيما الفتيان والفتيات منهم • ويؤلف الانطباع الذى تخلفه الاشتراكية والتقليل من الكيانات فى كثير من الحالات صراعا بشريا طبيعيا يعمل فى صدورهم بين الوطنية والولاء للأسرة •

ولا ريب فى أن هـــذا الصراع الطبقى المتزايد فى الوطن العربى ليس الا النسخة المتأخرة من صـــورة الصراعات الطبقية فى الغرب • ولكن تجربة الوحدة بين مصر وسورية أوحت بعبرة ضمن محتوى الوحدة العربية وهذه العبرة هى أن أى اتحاد تعاونى « فيدرالى » رخو الوشائج أما التوترات والأزمات التى تفرضها الثورة الاجتماعية على البـلاد التى تشترك فى وحدة أوثق عرى ، حتى ولو اختلفت هذه البلاد فى مراحل تطورها الاجتماعى ، فهى أعظم من أن تتصور • وليس ثمة من شـك فى أن مثل هذه الازمات والتوترات ، كانت ستظهر حتما لو وقع اندماج بين سورية والعراق ، على غرار الوحدة التى تمثلت فى قيام الجمهورية العربية المتحدة •

الأنظمة السياسية :

ولو افترضنا أن الثورة الاجتماعية قد خلقت جيلا جـديدا من القيادات العصرية والمستقرة ، والمتجانسة فى تفكيرها ، وان هذه القيادات قد تمكنت من رسم مخططات الوحدة والتفاوض بصددها ، فان ثمـة اشتراطا أساسيا سيظل قائما وجوهريا ، يتطلب التحقيق • فمن الطبيعى أن يظل الشعب الذى لم يتأكد من أى السبل هو الأمثل لحكم نفسه ، مترددا فى الاندماج مع مايحمله من شكوك فى أى شعب آخر • فهنـاك عدة قوى طاردة من المركز (طرد يمركزية) قوية فى الوطن العربى ، من النوع الواقعى ، الذى يجعل من الاستقلال الداخلى الذاتى ضرورة أساسية فى آية عملية وحدوية ، كما أن النظام المركزى فى الحـكم ، هو الذى يهدم كل استقلال داخلى ذاتى • وأرى أن هذا العامل أيضا يتطلب تفهما من الغرب من ناحية ومن العرب من الناحية الاخرى • فمن الثابت أن من المشاكل الخطيرة التى واجهتها الوحدة السورية — المصرية ، مشـــكلة الافتقار الى نظام سياسى يسمح بشىء من الحكم الذاتى ، ولكن جدير بنا أن نضع الى جانب هذه الحجة حجة منطقية أخرى ، وهى أنه لو «سنمح»

لسورية بالاحتفاظ « بالديموقراطية » التى كانت قائمة فيها ، فان هذا السماح يعنى تجاهل الاوضاع التى كانت قائمة فى الجمهورية السورية عندما تمت الوحدة • ولا ريب فى أن من الجرأة بمكان كبير ، أن يقدم أى معلق غربى على القول بأن «الديموقراطية» على النحو الذى يفهمه الغرب ، قد زالت من سورية بعد تحقيق الوحدة •

وكانت المشكلة الآن تتلخص فى الطريقة التى يمكن بوساطتها اعادة بناء المنظمات الديموقراطية المهدمة أو تحديدها على الاقل • وستقع مسئولية البحث فى هذا الموضوع على عاتق الفصل المقبل • ولكن يبدو لى من زاوية الوحدة العربية التى أفرق دائما بينها وبين التضامن العربى أن على القوميين العرب أن يواجهوا هذا التحدى بشكل أكثر واقعية • فاذا ظلت الانظمة السياسية الديموقراطية الجديدة صعبة على التطور أو بطيئة فيه ، فليس هناك مرة ثانية من وحدة أكثر أمنا وسلاما للعرب من الاتحادات التعاونية (الفيدرالية) • وقد يكون من الخداع القول بأن الفكرة « الناصرية » تؤلف عقبة خاصة فى هذا الصدد ، اذ يمكن للمعلق أن يفهم بوضوح أن أية وحدة بين أية دولتين عربيتين مهما كان الحكم القائم فيهما فى الوقت الحاضر ، قد تضمن وجود أنظمة ديموقراطية فيهما متحررة من الناحية السياسية بحيث تضمن لهما حتى بعد الاندماج ، نوعا من الأستقلال الذاتى •

وليس هذا التحدى للعرب لدراسة ما اذا كانت الاندماجات الكلية لاتحد من المتاعب السياسية الفردية الراهنة للدول العربية الا طريقة أخرى من طرق عرض الحاجة الماسة اليها • ولم تتوافر فى الشئون العربية فترة طيلة القرن الحالى ، كهذه الفترة التى يتمكن فيها علماؤهم السياسيون وقانونيوهم الضليعون ، واقتصاديوهم وساستهم ، من بحث المشاكل العملية للوحدة العربية بحثا دقيقا موزونا • وكان التفكير المنظم وتبادل الآراء فى الموضوع ، يتعرضان دائما لأزمات داخلية وخارجية والى كبت واضطهاد من الخارج وشكوك متبادلة ومراقبة من الداخل • وكان طوفان اللهفة الساعرة للوحدة الذى يواجه مثل هذا العدد الضخم من الاعداء كالغرب والصهيونية والعهود القديمة والشيوعية مؤخرا أشد عنفا من أن يتغلب عليه الحذر أو الروية • وهل كان فى وسع الرئيس عبد الناصر أن يتبنى عملية درس من هذا النوع ؟ لو انه فعل ذلك لسارع الغرب واصدقاؤه الى اتهامه من كل ناحية بالتآمر « لاقامة امبراطورية له » • وهل كان فى وسع العراقيين أن يتولوا مثل هذه الدراسات ؟ ان

عهد نورى السعيد الذى كان الانجليز يؤيدونه ، ماكان ليسمح بأى نقاش فى موضوع الوحدة الا على شروط نورى وعبد الاله • ويصدق هذا القول على بقية أنحاء الوطن العربى •

وانى لاتمنى لو أن الكتاب الامريكى «أوراق فيدرالية» يوزع باللغة العربية فى المنطقة كلها ، ليطلع العرب ، لا عن طريق الوصاية بل عن طريق الود ، على ما فكر به شعب ثورى آخر ، وما ناقشه من مشكلات ، وهو يسعى الى وحدة ولاياته . وليس للأمريكان الذين تعود الى ذاكرتهم أحداث الحرب الاهلية التى سببت أشد الآلام لاتحادهم قبل أن يمضى على قيامه سبعون عاما أو للأوربيين الذين يذكرون ولا شك أحداث التاريخ الاوربى الحديث أن يظهروا استنكارهم لما يحس به العرب من عذاب والم . ولكن العرب فى حاجة حقيقية ماسة الى «أوراق اتحادية» عربية ، فى كمها وعربية فى تنوعها .

التحرر من الضغط الاجنبى :

ونصل الآن الى الاشتراط الجوهرى الرابع للسير الهين فى طريق الوحدة العربية ، وهو التحرر من كل ضغط أجنبى • فلقد ادعى الغرب فى أفريقية اليوم ، كما ادعى فى الوطن العربى من قبل ، انه قد تخلى فى سرعة البرق الخاطف عن ضغطه السابق ، وأن عهد الضغط قد انتهى • ولهذا السبب نرى الغربيين يصفون التهم التى يوجهها القوميون ضد « المؤامرات الاستعمارية » وضد « الرجعية التى يؤيدها الاستعمار » بأنها مجرد دعاية . وقد تكون هذه التهم احيانا كذلك ، ولكن اذا فهم الغرب مرة واحدة ، أن الوعى السياسى القومى عند العرب فى كل مكان الآن لا ينحصر فى البلد الذى يسكنون فيه بل يشمل منطقتهم كلها ، فان ما يبادر به الغرب من سخرية عاجلة سرعان ما ينقلب الى شعور بالخجل . ولا ريب فى أن كل من يقوم بتحقيق دقيق فى المنطقة العربية اليوم ، أى فى عام ١٩٦١ أو عام ١٩٦٢ ، يجد حتما أن الضغط الغربى لم ينته من المنطقة مطلقا •

ففى المغرب العربى مازالت هناك قواعد عسكرية أمريكية يكره الشعب وجودها فى مراكش ، كما توجد فيها بعض رواسب الاستعمار الفرنسى الجديد • وتوجد حرب مكشوفة فى الجزائر مع فرنسا (انتهت هذه الحرب والحمد لله باستقلال الجزائر) ، وهناك فى تونس أكثر من ألف أسرة تبكى أبناءها الذين استشهدوا فى معركة بنزرت • وهناك

قواعد عسكرية أمريكية وبريطانية فى ليبيا ، لايستسيغ الشعب وجودها بالرغم مما تحمله الى البلاد من موارد مالية ، كنفقات يصرفها القائمون عليها • واذا ماتجهنـــا شرقا وصلنا الى مصر ، حيث لاتزال ذكريات العدوان على السويس القريبة عالقة فى الاذهان ، وحيث يقوم وعى كامل بما يحمله الغرب لها من عداء مستمر • وفى السودان ذكريات ، وفيها احساس بالوجود الاستعمارى فى افريقية . ويؤلف الاردن حالة خاصة ظاهرة تحتاج تعليقا خاصـــا منـــا • وتؤلف مأساة فلسطين رمزا حيا مستمرا على الضغط الغربى ، وكأنها خنجر يظل دائم الحركة فى جرح لا يندمل • ولم يمض على ارتحال القوة الحربية الامريكية عن لبنان أكثر من اربع سنوات . أما سورية فقد سبق لنا أن شرحنا ما أحاط بها من اجواء نفسية غريبة • وفى العراق احساس بوجود الحلف المركزى فى جارتين من جيرانها ، وبوجود السلطان البريطانى العسـكرى والسياسى فى الخليج والبحر العربيين ، وما حدث مؤخرا من اطلاق بريطانيا سراح الكويت ، ليس الا نموذجا بارزا لما يجب على بريطانيا أن تفعله الآن على طول السواحل العربية ، هذا اذا أردنا حقا أن يزول من الاذهان تماما الاحساس العربى بوجود الضغط الامريكى •

ولا ريب فى أن الأثر الجماعى على العرب لهذه الامثلة الواقعة عن «الوجود» البريطانى فى بلادهم ضخم هائل • وهو مختلف كل الاختلاف حتما عن الصورة التى تنطوى عليها العبارة التى كثيرا مانسمعها ، ... « حسنا لقد خرجنا ... أو لم نخرج » ، ولاريب أيضا فى أن هذا الخلاف يمثل مظهرا جديدا من مظاهر الانقسام بين العرب والغرب . ويتحول هذا الشعور بالضـــغط الى حافز جديد يدفع العرب دفعا الى البحث عن الوحدة • حتى فى المناطق التى لا وجود فيها لأية عقبة غربية تقف فى طريق الوحدة . وليس ثمة من شك فى أن هذا الخوف من الغرب قد لعب دورا لا يقل عن الدور الذى لعبه التخوف من الشيوعية فى الاسراع بقيام الوحدة بين مصر وسورية وكان الســوريون يعرفون كما يعرف عبد الناصر نفسه أن فى استطاعة نورى السعيد أن يضمن تأييد الغرب لأى مشروع يضـــعه للتدخل فى سورية ، معتمدا على الأمل برغبته فى ابعاد الخطر الشيوعى عنها • ولا نستطيع نحن فى الغرب أيضا أن نحل انفسنا من مدى المسئولية فى الضغط الذى فرضناه على الوحدة ، مما أدى الى تشـــديد قبضـــة عبد الناصر على ســـورية . وكان عداء الدول الغربية للوحدة من الحقائق المكشوفة الصريحة فى عام ١٩٥٨ حتى قيام ثورة العراق ، ولا يمكن لانســـان أن ينفى الادلة القاطعة على أن الغرب

والدول الشيوعية قد تعاونا فى أواخر عام ١٩٥٨ ، فى تشجيع الخلاف الذى عاد الى الظهور والاستقطاب بين القاهرة وبغداد . وتجدد شك العرب فى السياسة الغربية واستمر فى الوجود .

وظلت الاردن تحتل النقطة الأساسية فى أقحام الغرب لنفسه فى معارضة بحث العرب عن الوحدة . وكان لابد أن تتخذ بريطانيا والولايات المتحدة قرارا نهائيا فى موضوعه ان آجلا وان عاجلا . ومهما كانت صفات الجرأة والاقدام التى يحاول الغرب الصاقها بالملك حسين فان عهده يؤلف مفارقة خطرة على نفسه وعلى الغرب والعرب أيضا . فكل سلطة فى الغرب تدرك حق الادراك أن عهد الملك لا يحظى بأى تأييد شعبى ولا يعيش هذا العهد الا على حراب جنوده من البدو وما يقومون به من اجراءات القمع والاضطهاد والا على ما يلقاه من عون مالى مستمر وتأييد عسكرى متحفز للعمل من الولايات المتحدة وبريطانيا ، وعلى تسامح الدول الغربية بتهديد اسرائيل الدائم باحتلال الاردن فى حالة وقوع أى تبدل فى نظام الحكم فيه . ولا يكاد يقع أى اضطراب فى الاردن،أوتجرى اية محاولة على الملك . أو تصل اذاعة القاهرة الذروة فى حملتها عليه ، حتى ترتفع الصيحة بصورة متأججة فى الغرب نصرة للملك . ولكن لاتكاد تمضى بضعة أسابيع حتى يصدر اعتراف جديد من جانب الغرب فى أكثر من صحيفة واحدة ، بأن عهده لا يحظى بأى تأييد من الشعب الأردنى .

ولا يعنى هذا الوضع أى استقرار ، وانما يعنى فرض سياسات القوة التى لا تعدو نهايتها حقيقة واحدة يمكن التكهن بها بسهولة . وهو يعنى أيضا التحريض المستمر للقوميين العرب على أن يمارسوا مساعدة منهم لعرب الاردن ما تمارسه الدول الغربية نفسها فى الأردن . ولا شك فى أن استنكار الغرب للهجمات التى يشنها العرب على عهد حسين فى الوقت نفسه الذى تقدم فيه له عمدا ومباشرة ، وأحيانا عسكريا اذا اقتضى الأمر العون الذى يحتاج اليه للصمود أمام غالبية الشعب الأردنى ، رياء لا يمكن للغرب أن يستمر فيه فى الشرق الأوسط الى أجل غير مسمى .

وقد تكون الحقائق مرة أحيانا ، ولكن يجب على المنصف ألا يتردد لحظة واحدة فى قولها . فلقد كان الغرب هو الذى استن سنة « التدخل الخارجى » بين الدول العربية ، وهو الذى أرغمها على ممارستها بين بعضها البعض ، ولعلها حقيقة ثابتة لا تحتمل أى نقاش ، أذ باتت جزءا من التاريخ انه لم تمر سنة واحدة على الوطن العربى ، منذ عام ١٩٢٢

لم تتدخل فيها الدول الغربية تدخلا مباشرا ومتعمدا • فى شئون دوله عربية أو بينها وبين دولة أخرى . ومن المرغوب فيه كل الرغبة . أن يجد العرب وسائل لاشأن للعنف فيها لتحقيق الانسجام بين بعضهم البعض . ولقد سبق لنا ان رأينا استحالة توقف مايطلق عليه الغرب أسم « التدخل الخارجى » الا اذا أفلحت الثورة الاجتماعية فى جميع أجزاء الوطن العربى فى ابعاد تلك القوى التى تحتم عليها مصالحها واوضاعها مقاومة القومية العربية فى اى مكان عن مجالات الحكم والسلطان • ولكن الغرب لا يستطيع ادعاء البراءة فى موضوع الاردن أو فى غيره من المواضيع ، وما دام الغرب يلجأ الى تطبيق وسائله القديمة فان كابوس « الاستعمار » الذى يجثم على صدور العرب سيستمر، وسيظل سعى العرب الى الوحدة مرتكزا على الاساليب التى يستهجنها الغرب •

وقد يكون من المفيد أخيرا أن نعرض فى فكرنا صورة قاتمة أخرى فيها بعض المفارقة عن قصة القومية العربية وتطورها حتى اليوم • فليس ثمة من شك ، بالرغم من وجود بعض مظاهر الرياء والنفاق ومن عمليات محاولة البقاء حتى اللحظة الأخيرة ، فى أن الغرب يرغب على العموم فى الخلاص من مشكلات الوطن العربى ، وأنه قد بدأ يفهم أن من حق العرب أن ينشدوا الوسائل التى يريدونها لتحقيق وحدتهم (١). ولكننا لم نستفق الى الواقع والحقيقة الا متأخرين ، فقد وقفنا أمدا طويلا نحول بين العرب وبين تطورهم الاجتماعى ، ونفرض عليهم التجزئة، ولم نكد نفكر فى الخروج من المنطقة حتى ظهر على عتبتها عدو جديد للوحدة العربية • وقد تبنت الشيوعية التى تسيطر عليها روسيا الآن نفس سياسة « فرق تسد » التى كنا نتمناها، لتحقق لنفسها السيطرة، ولتعرقل كل وحدة لاتضمن لنفسها حق الاشراف عليها • وقد سبق لى أن أوضحت فى فصل سابق حقيقة الوضع فى عراق الثورة وما حوله من بلاد . وليس ما وقع هناك الا مقدمة أو مجرد بداية . ولا أرى أن

---

(١) لا أدرى من أين جاء المؤلف بهذه الفكرة الجديدة من ان الغرب قد غسل يديه في وطننا العربى وعدل عن مقاومته لوحدتنا . لاننا لم نر أى تطور في سياسة الغرب في هذا الاتجاه ، فهو لا يزال يبقى على العهد الرجعى في الأردن ، وهو يحتل سواحل الجنوب العربى وهو الذى يحيك المؤامرات ضد الوطن العربى ، ووحدته وقد ظهر ذلك في هذه الحركات العدوانية التى يقوم بها في اليمن لوقف المد التحررى العربى •
(المعرب)

العبر التى تعلمناها من مواقفنا السابقة تجاه الوحدة ، ومن ظهور قيادة عبد الناصر فى مظهرها المتميز بالنشاط وبالانسجام العقائدى ،بعيدةعن الشيوعية ، وكذلك من آخر المواقف التى وقفهـا الغرب والتى عملت بصورة ساذجة على دعم الشيوعية ، تتطلب مزيدا من الشرح والتفصيل ، واذا كان على العرب أن يواجهوا اليوم بشىء من الفجيعة هذا التحدى الجديد لتطلعهم الى الوحدة ، فان الغرب سيواصل معارضته لها مع ما فى ذلك من تعريض لنا ولهم للخطر .

الوحدة العربية ــ المستقبل :

ترى ما الذى نصل اليه من كل هذا البحث الدقيق وعرض ما فى هذا الأمل الذى يطمح اليه العرب من مصادر القوة والضعف ؟ فهـذا الأمل هو فى الواقع حلقة مفرغة شريرة ذات طابع تاريخى معقـد من الحوافز والعقبات ومن القوى المركزية الطاردة والجاذبة التى تعتمل فى أفئدة تسعين مليونا من البشر يؤلفون واحدا من ثلاثين من مجموع أبناء الجنس البشرى . ومن الواجب أن يكون واضحا لكل انسان أن الكثير من العقبات التى تقف فى طريق الوحدة العربية ان لم يكن معظمها لم تكن وليدة الحاضر الذى نعيش فيه بل وليدةحقب طويلة تمت فيها وتطورت .

فهل يمكن لاية صورة عن الوحدة العربية المقبلة أن تكون ذات معنى؟. فى وسعنا فقط أن نتصور خطوطها العريقة بالاضافة الى كل ما بحثناه حتى الآن من عناصرها . وهناك بالنسبة الى الحـاضر الفورى الجامعة العربية ، التى تعتبر هدفا لحملات العدو فى نفاد الصبر ، على جمودها الناجم عن وجود جذورها فى حقبة « العهود القديمة » والقادرة حتى الآن على العمل الايجابى الخلاق الذى يحمل طابع الالهام كما ثبت فى عملهـا بالنسبة الى أزمة الكويت . ويبدو لى أن هذا الترابط الرخو بين الكيانات الرسمية سيظل الى أمد ما المحور الذى يرتكز عليه التعاون العربى النافع رغم ما فيه من تقلب .

ومن المتوقع أن تقـوم حلقة اقليمية من الوحدة فى المغرب العربى الكبير بعد أن تحل المسألة الجزائرية حلا نهائيا . وتقوم هناك «موجودات» وحدوية خاصة تعمل على تعزيز الدعوة للوحدة وأهمها : وجود العنصر الثقافى البربرى الخاص ، والدروب الثقافية الفرنسية الخاصة ، والموارد

الاقتصادية المشتركة • (١) وقد اتفقت الاحزاب الرئيسية في المغرب والجزائر وتونس في المؤتمر الذى عقدته في ابريل عام ١٩٥٨ على اتحاد تعاوني (فدرالى) في المستقبل يضمها مبتدئا بقيام مجلس استشاري • وليس هناك من يتجاهل وجود صراعات داخل المغرب على الصحراء بين النزعة المحافظة في المغرب (مراكش) والبورقيبية التونسية ، والاشتراكية الوطنية الدينامية في الجزائر • ولكننى أعتقد أن العوامل الوحدوية ستتغلب على هذه الخلافات المؤقتة فور خروج الفرنسيين من البلاد • ولا يستبعد أن تتطلع ليبيا غربا نحو هذه الوحدة(٢) •

وتقف الجمهورية العربية المتحدة (مصر) الآن ، أمام قرارات جديدة وستظل اتجاهاتها الخارجية دائما مزدوجة • وهي العمل على وحدة وادى النيل مع السودان والقيام بدور فعال في الاتجاه الوحدوى ضمن المنطقة العربية كلها • وأنا لا أعتقد باحتمال قيام أية حكومة سودانية فىالمستقبل القريب بالدعوة الى أكثر من مجرد وحدة اجرائية عامله مع مصر • بسبب ذكريات تعود الى المحاولات التى كانت تبذلها الملكية الرجعية القديمة في مصر للسيطرة على أعالى النيل ، وبسبب الحاجة الماسة الى تحقيق وحدة اقوى عرى داخل السودان نفسها بين شمالها وجنوبها • وستحول هذه المشكلة السودانية الداخلية في الوقت نفسه وهي تعريب قبائل الجنوب ودمجها قوميا في السودان ، دون اشتراك السودان اشتراكا فعليا في الشئون العربية الداخلية •

---

(١) اختلف مع المؤلف في هذا الراى الذى أورده بالنسبة الى الوحدة المغربية ، ولا سيما ما يتعلق منه «بالعنصر الثقافي البربرى الخاص» كما أسماه ، فليست هناك اية نزعة منصرية بربرية خاصة ، وان كان الاستعمار الفرنسي قد حاول طيلة المدة الطويلة التى قضاها في اجزاء المغرب العربى ، ان يخلق هذه النزعة وأن يستغلها فخابت مساعيه كلها . واثبت النضال الجزائرى الجبار ، الذى اشترك فيه العرب والبربر معا فشل الاستعمار الفرنسي فيما هدف اليه ، اذ أن قبائل البربر ، في الجزائر ومراكش وتونس تعتبر نفسها جزءا من الشعب العربى في المغرب الكبير ، ولقد كانت دوما كذلك كما يثبت التاريخ العربى بأدلته وشواهده، ويكفى أن نقول انطارق بن زياد ، الفاتحالعربى الاعظم كان من اصل بربرى . ويؤكد التاريخ أن قبائل البربر هى من موجات الهجرة العربية من الجزيرة العربية .

(٢) انالشعب العربى سواء اكان فيالمغرب العربى أم في الوسط العربى والمشرق العربى او الجنوب العربى شعب واحد ، له هدف واحد ، وهو الوحدة العربيةالكاملة الشاملة . اما القول بالاتجاه غربا أو شرقا أو جنوبا ، فلايعنى مطلقا البحث عن وحدات خاصة ، وانما يعنى تحرى خير السبل المؤدية الى تحقيق الهدف الكبير .

(المعرب)

ومن الصعب على أن أتصور أن الرئيس عبد النـاصر سيقبل أية وحدة متسرعة لاتقوم على أسس ثابتة مع أية دولة من دول المشرق العربي. ولكن من الصعب على فى الوقت نفسه أن أصدق أن الرئيس سـيتخلى عن القومية العربية التى جعلها عقيدة يؤمن بها أشد الايمان . وكان أول رد فعل له لحركة الانفصال السورية ، مناشدة الشـعب المصرى التمسك بعروبته ، وعدم قبول العزلة الروحية ضمن حدود وادى النيل ودلتاه .(١) وتشير الخطب الاولى التى ألقاها الرئيس بعد الانفصال الى أن تفكيره اتجه اتجاها جديدا وهو وجوب تحقيق الثورة الاشتراكية العربية قبل السير فى أية محاولات جديدة نحـو الوحدة . ولكن هذه النتيجة التى توصل اليها ليست غريبة ، ولا تمثل أى تحول أساسى فى تفكيره ، فلقد كانت ماثلة فى خاطره فى يناير عام ١٩٥٨ عندما طلب الى أعضاء الوفد السورى الذى جاء يسعى للوحدة . أن ينظموا شئون بلادهم الداخلية قبل التفكير فى الوحدة .

ومن الصعب على المؤلف ، ولم يمض على الانفصال الا أمد قصـير جدا أن يتكهن بالأثر الذى سيتركه هذا الانفصـال على مكانة الرئيس عبد الناصر فى الوطن العربى (٢) فهناك عدة عوامل تقوم وراء الافتراض

---

(١) هناك نقطة واحدة يبدو أنها غابت عن تفكير المؤلف ، وهى أن كارثة الانفصال ، برغم مافيها من فجيعة ، قد اظهرت بجلاء ، حقيقة لاتقبل الشك ، وهى استحالة «التهادن» بين القومية العربية التى يمثلها الرئيس عبد الناصر ، وبين الرجعية العربية التى تعمل «مخلب قط» للاستعمار ، وان ظهور هذه الحقيقة قد أدى الى قيام المعركة السافرة بين هذين الاتجاهين الذى ظهر بجلاء ما بعده جلاء ، في الثورة التحررية الرائعة التى قامت في اليمن للخلاص من عبودية الرجعية والانطلاق في الطريق التحررى السليم ، وما عقب هذه الانطلاقة الجدية في الجنوب العربى ، من وقوف الجمهورية العربية المتحدة بكل امكانياتها تنصر الانطلاقة ، التى سيكون لها شأن وأى شأن في تحطيم معاقل الرجعية العربية في كل مكان من أرجاء الوطن العربى . كما أثبتت الانطلاقة ان الاستعمار ، وأعوانه من ملوك الرجعية لم يفلحوا في الغاية الاساسية التى توخوها في مؤامرة الانفصال وهى عزل الجمهورية العربية المتحدة ، وصرف أنظارها عن التيار الوحدوى ، بل فشلوا فشلا ذريعا اذ ظلت الجمهورية وستظل قلعة النضال العربى ، كما أثبتت مؤامراتهم أن وحدة الهدف الذى يتلخص في « التحرر والاشتراكية والوحدة » هى أقوى أثرا من الوحدات «الشرعية» التى يظل للرجعية فيها دورها ، وانه لم يعد هناك مجال لما يسمونه بالتضامن العربى أو بكلمة أصح التهادن مع الرجعية . (المعرب)

(٢) نود أن نطمئن المؤلف بأن مكانة الرئيس العـربى جمـال عبد الناصر ، قد ازدادت قوة ورسوخا بعد الانفصال عند جماهير الشعب العربى في كل مكان ، فقد تبين لهذه الجماهير نتيجة الحلف غير المقدس الذى تم لدعم الانفصال في سوريا بين قـوى الاستعمار والرجعية العربية والانتهازية المرتدة والشيوعية المحلية ، والذى تؤيده اسرائيل

المتسرع بفقد شيء من المكانة • فسيظل العرب الى الشرق من مصر ، يتطلعون اليها كعنصر جوهرى لا غنى عنه فى أية وحدة عربية ، سواء فى شئون الدفاع أو فى شئون الزعامة القومية والاصلاحية ، ولم يكن عبد الناصر هو الذى خلق هذا الرباط المقدس • بل كان القائد الذى عرف كيف يوجهه وكيف يمثل له الرمز الدينامي الفعال • ولكن الاحداث قد تثبت ، انه الى أن يتحقق الاصلاح الاجتماعى الداخلى فى كل من العراق وسورية والاردن ، والى أن يتحقق الاستقرار فيها على أسس شعبية ، فان المشكلة المعقدة ستظل قائمة وهى كيف يمكن لمصر أن تكون أوثق اتصالا بالمشرق العربى • ويرى كثيرون من القوميين العرب الذين يؤمنون بزعامة مصر وقيادة الرئيس عبد الناصر ، ان البرامج الاشتراكية العربية التى يقوم الرئيس بتطبيقها فى مصر الآن عظيمة الاهمية لهم أيضا ، وآن فى وسعهم انتظار نتائجها • وقد يصل عبد الناصر الى النتيجة نفسها أيضا • وستواجه القرارات الاشتراكية التى أصدرها فى يوليو عام ١٩٦١ والتى تعهد بتنفيذها فى شهر أكتوبر أعظم تحد لها وسيتوقف على نتائجها الكثير (١) .

ويبدو أن أية محاولة جديدة ، فى غضون هذه الفترة لتحقيق وحدة أوثق لدول الهلال الخصيب أى العراق وسورية والاردن ستكون موضع النقاش ، عما قريب • ولقد بات مستقبل سورية السياسى كله يؤلف من جديد علامة استفهام كبيرة • ولا يمكن لأى عهد وطنى أصيل ويسارى وشعبى فى سورية أو العراق أن يتصور امكان الارتباط فى وحدة مع عهد الملك حسين فى الاردن الذى تشرف عليه بريطانيا وأمريكا (٢) ولا ريب فى ان الغموض الداخلى الذى يكتنف قيادة قاسم فى العراق ، وما يرافقه من اضطرابات ضخمة تقوم بها الاقلية الكردية الكبيرة هناك

بصورة لا مباشرة ان لم تكن مباشرة ، ان القومية العربية التى يمثلها الرئيس العربى هى العدو المشترك . ورات هذه الجماهير أن من واجبها الوقوف وراءه في معركة العروبة .
(المعرب)

(١) لم يعد هناك مجال لهذه المخاوف التى أعرب عنها المؤلف . فقد اثبتت التجربة الاشتراكية العربية نجاحها لانبثاقها من دوافع مادية وروحية أصيلة . وها هى ذى تجربة الاتحاد الاشتراكى العربى تسير في طريقها الصحيح الذى يعلق عليه كافة القوميين العرب اضخم الآمال . (المعرب)

(٢) لا يمكن لأى عهد وطنى اصيل يرتكز الى ارادة الشعب في سورية ، كما يصفه المؤلف ان يتجه اى اتجاه سوى العودة الى الوحدة مع مصر ، اما مشروع الهلال الخصيب وغيره من المشاريع التى يقصد منها عزل « مصر عربيا » ، فلا يمكن ان تحظى باى تأييد شعبى من الجماهير الواعية . (المعرب)

سيدفع اليمين السورى واليسار اللاشيوعى الى الحذر من أية وحدة مع العراق ٠

وقد أتيحت الآن فرصة جديدة لموسكو ولشبكات الشيوعيين العرب في خضم هذه المجهولات الجديدة فى الميدان السياسى فى المشرق العربى ٠ ولكن هذه المجهولات ، ستظل تدفع جميـــع القوميين العرب فى المشرق العربى الى التطلع نحو مصر وعبد الناصر ، كما ستدفع هذين الى التطلع اليهما بشيء من القلق والتخوف على مصيرها ٠

وهكذا سيظل التطلع مستمرا نحو الوحدة ، فى منطقة يرتبط أهلها العرب فى جزء من أجزائها بأوثق العرى بأهل الجزء الآخر ، وسيظل هذا التطلع يحمل طابع اللهفة والايجابية، ويهدف الى الغايات الدفاعية والمادية العملية ٠ وقد يكون تفهم هذه المشاعر الايجابية أكثر صعوبة على الغربى من تفهمه لما فى الدعوة الوحدوية من اصطفائية وتناقضات (١) ٠ وليس تقبل عبد الناصر لما وقع من انفصـــال الا مثـــلا واحدا فى معناه لهذه التناقضات (٢) والتباين فى الشـــعور بين العربى المغربى وبين العربى العراقى اللذين تفصل بينهما ألوف الاميال مثل آخر (٣) ٠ أو كيف يمكن لنا أن نفسر كيف أن الموظفين الســـوريين الذين كانوا يشتركون فى المناقشات الحادة حول حسنات الوحدة ومساوئها قبل وقوع الانفصال ، أحسوا بما يشبه اليأس وتفجرت دموع الألم والقنوط من مآقيهم عندما حانت ساعة الانفصال فعلا ؟ ٠ لقد كانت هذه العواطف أكثر من مجرد التعبير عن ألم لانقضاء عهد زمالة شخصية ٠

وقد تكون هذه التناقضات الواضحة منافذ للغربيين يعربون فيهـا عن ارتياحهم أو سخطهم أو طربهم ، طبقا لما يحملونه من اتجاهات تختلف

---

(١) سبق لى في هامش تعليق سابق أن أوضحت عدم وجود أية تناقضات في الدعوة الوحدوية ، لان حوافز الوحدة عند العرب أكثر اصالة منها عند اى شعب آخر .

(٢) لا ريب في ان المؤلف مخطىء كل الخطأ ، عندما يقـول ان سـيادة الرئيس عبد الناصر قد تقبل الانفصال كأمر واقع . أما ما حـدث فعـلا فهو أن سـيادته رغب مدفوعا بنزعاته الاصيلة في تجنيب الشعب العربى في سورية الفتنة الداخلية التى كان لابد من وقوعها لو اتخذ موقفا آخر غير الموقف الذى اتخذه ، مع ماقد ينجم عن ذلك من نتائج دامية هى أبعد شيء عن تفكير الرئيس لتناقضها مع جبلته الطبيعية . ولا ريب أن الرئيس كان مدفوعا الى موقفه ذلك ، بايمانه المطلق في انتصار ارادة الشعب العربى أخيرا في سوريا الذى لايقبل عن الوحدة بديلا .

(٣) ليس هناك من فروق بين عربى المغرب وعربى العـراق ، الا بعض الفروق الوهمية التى خلفها الاستعمار طيلة حكمه الطويل للوطن العربى ، وهى فروق سطحية لا تلبث أن تنهار أمام الدعوة الوحدوية الاصيلة . (المعرب)

باختلاف أشخاصهم • ولكن لما كان العرب في كل مكان سيواصلون مساعيهم لتحقيق الوحدة وسيواصلونها حتما ، مهما كانت العقبات التي تقف في طريقهم • فان من الخير لنا نحن في الغرب أن نبحث هنا عن المكان الذى نقوم فيه مصالحنا حقا • ولن يكسب الغرب من استمرار التجزئة العربية ، ومن خلافاتهم المهلكة ومن تبديد مواردهم الاقتصادية ، كما لم يكسب شيئا من السنوات الطويلة التى قضاها فى اقرار مثل هذه التجزئة • ويحس الغرب بمثل هذا الواقع بالنسبة الى الافريقية التى تنطوى دعوتها الى الجامعة الافريقية على مشاكل وظواهر متباينة تفوق ما تنطوى عليه الدعوة الى الوحدة العربية من مشاكل وظواهر • وقد ظهر على المسرح الآن ، العنصر الجديد الذى يفيد من بقاء التجزئة العربية ، وهو الشيوعية التى قد تفيد فعلا من بقائها ، بينما لم تفد الدول الغربية منها، وذلك لان الشيوعيين أكثر عناية بشئون الظلم الاجتماعى واصلاحها من الغربيين •

واذا كان لا بد للغرب من أن يتابع التمسك بدوافعه السلبية لسياساته فى الوطن العربى ، فان حاجته الى التعرف على ما يختلج فى نفوس العرب من شوق متحرق تصبح أشد وأكثر مساسا • فبالاضافة الى المشاعر الانسانية التى تدعو الغرب الى العطف على الوحدة ، هناك عامل ايجابى آخر يجب أن يحفز الغرب على تأييد الدعوة الوحدوية • فوراء هذه الدعوة فكرة نحن نسهم فى المسئولية عنها ، وهى مفهوم الشخصية القومية الذى نقلناه الى العرب ، وأدخلناه فى تقاليدهم ، وروابطهم المشتركة • (١) وقد حان الوقت لنا للاعتزاز بهذا الاسهام ، وقد حان الوقت أيضا لنا للتوقف عن معارضة نتائجها السياسية واعاقتها ومحاولة تهديمها • وحان الوقت كذلك لنتخلى عن مخاوفنا القديمة ولنساعد العرب على دحض ما ادعاه ابن خلدون فى القرن الرابع عشر من تشاؤم بصدد الفكرة العربية الوحدوية وعلى الساسة ورجال الصحافة والمعلقين من أهل الغرب ، الذين يجدون فيما يحس به العرب من عذاب لعدم تحقيق وحدتهم وسيلة سهلة لاظهار تفوقهم فى فن التهكم ، أن يدركوا أنهم انما يهزأون ماجنين ، بأروع ما قدمه الغرب للوطن العربى

---

(١) سبق لنا ان بينا في تعليق سابق أن المؤلف يخطىء كل الخطأ في اعتباره الوحدة العربية فكرة مقتبسة أو مستقاة من الافكار الغربية أو مقلدة لاية فكرة سابقة • فالحركة الوحدوية العربية ، حركة أصيلة ، منبثقة من ضرورة الوجود العربى ، ومن حوافزه المادية ، ورسالته الروحية ، وتاريخه المشترك ، وتقاليده الواحدة ، ولغته ، وعاداته وثقافته وتراثه الحضارى • (المعرب)

من اسهام ادراكى • وعليهم أن يدركوا أيضا أنه كلما قرأ عربى أو سمع هذا التهكم الماجن منهم على مشكلة يعتبرونها أعمق المشـــاكل التى تحز الألم فى نفوسهم ، فان خيطا آخر من خيوط الايمــان العربى بالثقافة الغربية سينقطع حتما •

ولا أستطيع انهاء هذا الفصل الا باعلان أحدد فيه ايمانى • أن وحدة هذه الملايين من العرب ، قادمة حتما ، ولكنها قد تتأخر بعض الشىء ، وقد لا تكون فى شكل دولة جامدة مركزية الحكم تمتد من المحيط الى الخليج • ولكن اليوم الذى سيعثر فيه العرب على الواقع السياسى والدستورى لحلمهم ولقوميتهم «التى لا ترسم حدودها على الارض بل فى القلوب والارواح» (١) قادم حتما • ولا ريب ان أمام العرب مهمة شاقة ، وعملا مجهدا ، وتفكيرا مضنيا ، واصلاحا يجب أن يتحقق قبل أن يتحقق الحلم • وليست المشكلة أمام الغرب الا أن يتقبل العرب على حقيقتهم بشرا لا يشعرون بالتفوق أو الامتياز ، ولا نعتبرهم متخلفين أو غير مروضين على حكم أنفسهم بأنفسهم• واذا ماوصل الى هذه المرحلة التى يتخلى فيها عن أفكاره السابقة ، أصبح لزاما عليه أن يعيد النظر فى سياساته السابقة ، وأن يبعد منها آخر أثر من آثار مساعيه لوقف مدهم الوحدوى • أجل سنرى عما قريب الولايات المتحدة العربية • وأنا لست واثقا من أن علاقاتنا بهـــا ستكون آنذاك صدوقة ودية ، اذا لم نسرع الآن ، وقبـــل فوات الاوان الى تنمية هذه العلاقات •

---

(١) من كتاب « فرق تخسر » لميشيل ايونيدس ــ من تعريب المعرب •

١٥

الثورة الداخلية

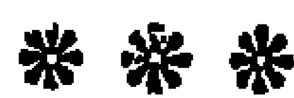
« وكانت عقولنـا تحـاول أن تلحق بقافلة البشرية المتقدمة التى تخلفنا عنها خمسة قرون أو يزيد ، وكان الشوط مضنيا والسباق مروعا مخيفا » .

من كتاب « فلسفة الثورة » للرئيس عبد الناصر .

« لم تعد التربة الاقتصادية والاجتماعية في الشرق الأوسط بعد عميقة عمقا يكفى لتمكن جذور الديمقراطية السياسية من النمو والانبات ... ويتطلع معظم سكان الشرق الأوسط الى حكوماتهم طلبا للتوجيه والمبادرة كما أن بعضهم يتوخى أقصر الطرق بوساطة الانقلابات العسكرية. ويستحق هذان الاتجاهان عناية أكثر وتفهما أعمق مما حصلا عليه حتى الآن من المراقبين الانجلو ـ سكسون » .

الاستاذ شارل عيساوى في مقال له في مجلة الشئون الدولية عدد يناير ١٩٥٦ .

« ترى متى يتخلى العالم الغربى من فلسفة حكوماته التسامية » فينوبابهاف الهندى في كتاب « القديس يسير » .



عالجت فى هذا الكتاب حتى الآن سير الثورة الخارجية فى الوطن العربى وتفاعلهـا مع السياسات الغربية . ولكن فى كل ما كتب عن الازمات المتلاحقة فى هذا الوطن ، كانت الثورة الداخلية العربية تعترض طريقى وتبرز كعامل له أثره أيضا فى تلك العواطف الهوجاء من سوء الفهم فى العلاقات العربية الغربية فالثورتان متلاحمتان ولا يمكن تجزئتهما مطلقا اذ أن المشكلات الداخلية المتعلقة بالتطور السياسى والاقتصادى عند العرب تؤثر تأثيرا مباشرا على سعيهم المتواصل لتحقيق الوحدة ، كما تؤثر على بحثهم عن العون الخارجى . وعلى قدرتهم على « النفاذ » الى عقول ساسة الغرب ومعلقيه كشعب عاقل له مكانته التى يجب أن تحمل على محمل الجد .

ولقد تركز اهتمام الغرب على مصر فى الدفتة الطويلة من الازمات التى تتابعت بين عامى ١٩٥٤ و ١٩٥٨ ، ولذا فمن حقنا أن نشرع فى هذا البحث فى عرض ما حظيت به ثورة مصر الداخلية من اهتمام ضئيل جدا فى أوساط الغرب • فلقد سادت الغرب فكرة شائعة ، وهى أن عبد الناصر قد « تخلى » عن نياته السابقة فى الاصلاح الداخلى والتطوير الانمائى ، التى كان الغرب قد لاحظها عنده قبل عام١٩٥٥ وذلك لانشغاله فى « المغامرات الخارجية الشاملة ، والحملات الجماهيرية ، وليس ثمة من شك الآن ، فى أن هذا الانطباع كان خاطئا وأن عبد الناصر ، كان قد ركز الكثير من اهتمامه فى تلك السنوات على القضايا الخارجية • ومن الواضح أيضا أن نسبة كبيرة من موارد مصر الاقتصادية ، وامكانات قروضها الخارجية قد استهلكت فى « تعصير » قواتها المسلحة عن طريق صفقة الاسلحة التشيكية • وقد شرحت فى الفصول السابقة الاسباب التى أدت الى هذه الخطوة • ولكن مما يجب تسجيله أيضا أن الحكومة المصرية كانت حتى فى تلك السنوات من الازمات الخارجية غارقة فى مشاريع انمائها ، لا تتخلى عنها وانما تعمل على توسيعها •

وقد مضت حكومة القاهرة قدما فى تطبيق الاصلاح الزراعى واعادة توزيع خمس الاراضى المزروعة التى تمت مصادرتها ، واقامة حزام من الزراعة التعاونية فى الاراضى الموزعة حديثا وفرض الحد الاعلى لاجور الارض الذى قررته الحكومة لاول مرة فى تاريخ مصر • ومضت أعمال التنمية الاخرى من توزيع البذور الجديدة وتربية الماشية ، وتحسين وسائل الرى قدما فى الاراضى الاخرى مؤدية الى زيادات ملحوظة فى نسبة الانتاج السنوى • وقطعت الخطط الرامية الى تنفيذ مشروع السد العالى كما ذكرت سابقا خطوات ضخمة ، هادفة الى غاية مزدوجة وهى زيادة مساحات الارض المزروعة ، وتثبيت موارد المياه السنوية ، وتأمين القوة المحركة للمشاريع الصناعية الجديدة • وقامت وحدات خاصة بأعمال المسح الصحراوية ، مما ضمن توفير مليونى فدان أخرى للمشاريع الزراعية • وتم تنفيذ مشروع استنباط القوة الكهربية الجديدة من خزان أسوان الحالى ، حتى قبل الشروع فى بناء السدالعالى ، وبدأ المولد الجديد الجبار فى انتاج قوة كهربية بمعدل ٣٤٥ ألف كيلو وات ، فى عام ١٩٦٠ • ونفذت الحكومة اصلاحات ضخمة فى حقل الوقاية والصحة العامة ، وبينما كان وباء التيفوس قد أدى فى عام ١٩٤٧ الى وفاة أكثر من ثمانية عشر ألف شخص ، لم تقع فى عام ١٩٥٨ وفاة واحدة بهذا الوباء ، وبينما كانت نسبة انتشار البلهارسيا تبلغ فى عام ١٩٥٢

الثمانين في المائة من مجموع عدد السكان ، هبطت هذه النسبة في عام ١٩٥٨ الى أربعين في المائة • وشرعت الحكومة منذ عام ١٩٥٤ في مشاريع ضخمة لتأمين مياه الشرب النقية لجميع سكان البلاد بينما لم تكن نسبة أهل الريف الذين يشربون المياه الصالحة تربو قبل هذا التاريخ على الخمسة عشر في المائة • واستمرت عملية بناء « الوحدات المجمعة » في القرى والارياف وتزويدها بالموظفين ، وفي كل وحدة منها طبيبها الخاص والعدد اللازم من المساعدين والموظفين الزراعيين لتقدم خدماتها لأكثر من خمسة ملايين انسان في سنوات الازمات • وتضاعف عدد المدارس الابتدائية في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٥٢ و ١٩٥٨ • وتم التعاقد على انشاء مصنع جديد للحديد والصلب خارج القاهرة وقد تم بناؤه لتبلغ طاقته الانتاجية مائتي ألف طن في السنة الواحدة مستمدا مواده الاولية من مسحوق الحديد الذى عثر عليه في مصر العليا حديثا • وتم بناء مصنع مارد لانتاج الاسمدة الكيماوية في أسوان أيضا •

ومن المحتمل أن يكون بعض الابطاء قد وقع ، وأن تكون أخطاء قد حدثت ، ولكن مهما قيل عن هذا الابطاء أو تلك الاخطاء ، فان ما حدث فعلا يختلف عن الصورة الشاملة التي كان يحملها الغرب عن أحداث مصر الداخلية في هذه السنوات • وليست القضية أننا ركزنا انظارنا في الغرب على سياسة مصر الخارجية فحسب ، بل ان مصر نفسها قد ركزت الاهتمام في الظاهر على النواحي الخارجية أيضا ، مما أدى الى تغالي الغربيين في ادعائه بأن حكومة عبد الناصر وزملائه لم تحقق الا القليل في الميدان الداخلي بينما تشير الحقائق الى عكس هذا الادعاء والى أن ثورة أساسية في الميدانين الصناعي والاجتماعي مضت قدما في مصر أمام أعيننا •

ولا ريب في أن عقد الكراهية التي سبق لي أن شرحتها في فصل سابق قد ساعدت على بقاء هذه الثورة الداخلية خافية عن عيون الغربيين •

ولا ريب أيضا في أن الدعاية الصهيونية قد لعبت دورا بارزا في هذا المضمار • مدفوعة الى ذلك بأمانيها العذاب من ناحية في بقاء العرب على تخلفهم ، واصرار الصهيونية المتعمد على نظريتها القديمة القائلة بأن العرب قوم متخلفون ، وان اسرائيل التي يدعمها الغرب ويتولى حمايتها ، هي القادرة وحدها على نشر التقدم الحضاري الحديث في الشرق الاوسط • ولكن الغرب ظل على تأثره بهذه الدعاية وهو تأثر يجب أن نتجه اليه في بحثنا الآن لنستجلي أسبابه ونستشفها • والمشكلة لا تقتصر على نطاق

العلاقات بين مصر والغرب ، بل تعمد الى العلاقات العربية الغربية كلها ، وتصل الى حدود العلاقات الغربية فى المنطقة الافريقية الآسيوية كلهـا أيضا •

ونميل نحن فى الغرب ، أكثر من غيرنا من الجماعات الثقافية وذلك بسبب ما كان لجماعتنا نحن من ارتباطات مغالية فى ثقتها بنفسها مع خارج حدودنا ، الى فحص المجتمعات الاخرى وتتويجها على أساس قواعدنا وتجاربنا • فنحن نقيس « الحكم العسكرى المطلق » على ضوء مقاييسنا ، ونحن نعنى بالديمقراطية ، مفاهيمنا الديمقراطية الغربيـــة ، ولا تعنى « الاشتراكية » فى نظرنا الا الاشتراكية على قواعدها الاوربية ، وهكذا دواليك • وكانت الحاجة التى « نفترضها » الى من نسميهم « بأصدقائنا » فى الشرق الاوسط هى التى دفعتنا كما سبق لى أن أوضحت فى جميع الفصول السابقة فى عملياتنا الدبلوماسية والعسكرية اليومية، الى تجاهل ما يرتكبه هؤلاء « الاصدقاء » من أخطاء فى ســـياساتهم الداخلية • وفى وسعنا تلخيص النتائج التى حققناها من هذه المواقف •

تكونت لدينا فى الغرب وجهة نظر عميقة الجذور ، لا بالنسبة الى العرب وحدهم بل الى جميع الشـــعوب الافريقية ـ الآسيوية ، تنطوى على عقدة محافظة متزمتة بأن أى شعب لا يقيم نظام حكمه بعـد استقلاله على أسس الديمقراطية السياسية الغربيـة ليس بالشعب الذى يستحق الاستقلال • ونجم عن هذه الفكرة خيبة أمل حتى عند العناصر الليبرالية فى الغرب ، سرعان ما تحولت الى شـــكوك ، وذلك عندما انتهت الفكرة الليبرالية الداعية الى تلقين أسس الديموقراطية الغربية الى الشـــعوب الحديثة بقيام الديكتاتورية عند هـذه الشعوب • وكانت السلطة الغربية المحافظة أكثر اســـتعدادا للوثوق بارســـتقراطيى القرن التاسـع عشر « فى عقليتهم » من العرب ، والذين يحكمون حكما ديكتاتوريا صريحا ، منها بالضباط القوميين الشـــبان ، الذين يرفعون صادقين شـــعارات الديموقراطية وان كانوا يرفضـــون أن يقيموا فى بلادهم أنظمة الحكم الديموقراطية الغربية • وكان هؤلاء الغربيـون يثقون كل الثقة بنورى السعيد مثلا • لأنهم يرون « ان بغداد لا تعرف الهزل ، وان أبناء الصحراء فى حاجة الى حاكم قوى يسيطر عليهم » ولكن هؤلاء المحافظين أنفسهم يرون « الشر » فى عبد الناصر ، لأنه كما يقولون لا يحكم حكما ديموقراطيا •

هذا بالنسبة الى المحافظين ، أما بالنسبة الى الاحرار (الليبراليين) فقد كانوا يرون فى حكم نورى الســـعيد لعنة من اللعنات ولكن نظرتهم

هذه قد تكون أسوأ بالنسبة الى الحكم فى القاهرة ، لأنهم يرون فيه انحرافا عن الثورة التقدمية ، نجم عن المطامح الشخصية . وقد ضخمت الدعايات الصهيونية هذه النظرة ونشرتها وعملت على أن يحاول الليبراليون المقارنة دائما بين هذه الفكرة ، وبين ما تعرضه لهم من ادعاء التقدم الاجتماعى فى اسرائيل لتكون هذه المقارنة معبر مراقبة يتطلع منه الغرب الى الوطن العربى (١) . ومع ذلك فقد ظل هناك بعض الاحرار الذين يشككون فى دقة ما تقدمه الدعايات الصهيونية اليهم من معلومات عن المسرح العربى والذين لا ينسون الحقيقة الواضحة وهى ان الغربيين أنفسهم هم الذين أقاموا هذه المنظمات التقدمية فى اسرائيل ، وأنفقوا عليها مساعدات تفوق حدود التصور اذ تبلغ ما معدله ثلاثمائة ألف جنيه فى اليوم الواحد ، يدفعها الغرب لاسرائيل .

لكن كلتا النظريتين خاطئتان ، وعلينا أن نحكم على الانظمة السياسية والاجتماعية الراهنة من زاوية مختلفة تماما . علينا أولا وقبل كل شىء أن نرى ما اذا كان المجتمع العربى اليوم يشبه فى أية صورة من الصور فى تركيبه أو قواعده المجتمع الغربى الذى تنفذ فيه مفاهيمنا الديموقراطية . ومن المفروغ منه وان لم يكن كذلك فعلا فى الغرب حتى الآن ان على الغرب اذا أراد الحكم على أى مجتمع عربى أو افريقى آسيوى على أسس المفاهيم الغربية ، أن يرى أولا وقبل كل شىء أن هناك قواعد متشابهة بين هذين المجتمعين .

علينا أولا أن نبرز وجود عدة صراعات فى المجتمع العربى نجمت عن تأثيرات الحضارة الغربية فى القرنين التاسع عشر والعشرين ولم تحل بعد ، فقد فصلت الدنيا المسيحية بشكل رسمى بين السلطتين الدينية والزمنية . وقد انتقلت مسئوليات الفرد الاجتماعية ودوره فى المجتمع الذى ينتمى اليه بصورة متدرجة الى رمز زمنى أو علمانى دائم التطور والانتشار اتخذ شكل الدولة القومية والحكومة الوطنية وجدير بنا أن نلاحظ هنا تحقيقا لهدفنا من هذا التحليل الذى نقوم به الآن ، ان الحكومة الوطنية فى الدولة القومية هى ثمرة هذه العملية التطورية لا بدايتها .

---

(١) نشأت هذه الصورة الخاطئة عن الدعايات الصهيونية المضللة التى تسيطر على وسائل الاعلام فى الغرب . ولا حاجة بى الى التدليل على خطئها ، ولا سيما أن المؤلف كان موفقا كل التوفيق فى بيان خطئها وبالنسبة الى أن لقوله وزنا أكبر لعدم وجود اية عوامل تدعوه الى التحيز مع العرب . (المعرب)

ولم تقع فى المجتمع الاسلامى ولا فى المجتمعات الافريقية الاسيوية الى حد ما عملية مماثلة من هذا النوع • وفى وسعنا ان نرسم صـــورة المجتمع العربى ــ الاسلامى على النحو الذى كان فيه قبل أن يتأثر باشعاعات الغرب فى القرن التاسع عشر على النحو التالى :

١ ــ كان الفرد فى هــذا المجتمع يعى تمام الوعى أنه عضــو فى الأمة أو فى المجتمع الاسلامى الذى تنظم شريعته طريقة سلوكه ، كما تحدد له الخطأ والصواب ، طبقا لعمق عقيدته ، ولتقبله أحكام العلماء •

ولا يختلف هذا التعريف بالنسبة الى المجتمعات المسيحية المستقلة استقلالا ذاتيا والموجودة فى الوطن العربى •

٢ ــ ظـل نشاط الفرد فى المجاملات السـياسـية والاقتصــادية محصورا فى حدود جماعته الاجتماعية المباشرة والجهة التى ينتمى اليهـــا سواء أكانت قبيلة تعيش فى الصــــحراء ، أم جماعة تعمل فى الزراعــة ولكنها منظمة قبلية ، أو نقابة مهنية مدنية ، أو اتحاد أو أخوة صوفية •

٣ ــ وبدت السلطة المركزية أو سلطة « الدولة » كمنظمة ازدواجية تجمع بين السلطتين الروحية والزمنية ، وتتولى المهام العسكرية والسياسية والاقتصادية المشتركة للامبراطورية العربية الاســـلامية •• وظلت هذه السلطة المركزية المستودع الامين للاسلام • ولكن لما كان الاسلام لم يحل مشكلة « الخلافة » حلا واضحا ، فان « الدولة » غدت فريسة للمنازعات بين السلالات المتنافسة • وقد تعرض زعماء المسلمين الدينيون لهذا الصراع مما أدى الى أنهم باتوا غير قادرين على فرض سلطة سياسية مركزية • كما لم يستطيعوا عزل أنفسهم عنه لخلق طبقة وراثية حاكمة ، ولم يجدوا من يرغمهم على عزل أنفسهم عنه أو على حل الخلافات العقائدية بالنسبة الى الأمة كلها •

٤ ــ وهبطت منزلة الزعامات الدينية فى ظل الســيادة العثمــانية التى بدأت فى القرن التاسع عشر الى القيام بدور الوساطة بين الســـلطة السـياسية للامبراطورية القائمة فى أيدى الخلفاء المســلمين ، وبين التوترات الداخلية التى تخلفها الشيع المختلفة • وتدهورت قيمة الجماعات الصوفية • وسار الحكم فى الولايات العربية العثمانية على أسس اقطاعية تقريبا ، ولم يندمج أهلها لا سياسيا ولا اقتصــــاديا فى أى كيان للدولة الإمبراطورية •

« ٥ ــ وهــــكذا حرم الفرد من أى رمز حافز له يقـــوم على رأس

بمجتمعه الديني وظلت الدولة التى كان عليه أن يدين لسلطانها الزمني بالولاء أو كان عليه أن يثور عليها اذا لم يكن راضيا عنها تحمل فى نظره طابع الطغيان وتقع بعيدة عنه فى أعمالها السياسية ـ الاقتصادية وظلت هذه السلطة فى شكلها الخلافى البعيد غير العربى فى القسطنطينية ، تمثل له رمزا يحيره ويذهله ٠

كانت هذه هى الأسس الاجتماعية القائمة ، عندما القت المفاهيم الغربية عن الدولة القومية العثمانية ، بما فيها من حكم منظم ومن تقدم ومن عقيدة عن الشخصية القومية ، بثقلها على جمهرة من الفئة العربية المثقفة فى القرن التاسع عشر ٠ وهنا لابد من التحديد والايضاح ، فبينما قام عثمانيو القرن التاسع عشر ، وأسرة محمد على فى مصر ، باقتباس خصائص الدولة الحديثة الاجرائية والتكوينية ، وراحت أقلية من المفكرين المثقفين تبحث عن الطريقة اللازمة لاقتباس ما وراء هذه الدولة العقائدية ، هى مفهوم القومية ٠ ولكن الجماهير الطاغية من العرب ظلت تعيش فى أوضاع من الشك والعجز والفقر ، وفى حالة من الخواء الاجتماعى العميق ، بعيدا فى الريف ٠ وظلت العقيدة الدينية متراخية فى استجابتها للآثار الغربية العقلية ٠ واذا كانت بعض تعاليم المصلحين العظام الحديثة الداعية للتجديد والبحث قد توصلت الى التاثير على جماهير العرب المسلمين ، فان وصولها لم يتم على الطريقة التى يعرفها الغرب عن تعاليم الكنيسة اذ لا نظام يشبه النظام الكهنوتى فى الاسلام ٠ ولكن هذه التعاليم لم تخلق أية روابط اجتماعية جديدة لملء الفراغ ٠ واحتفظ العلماء المحليون بسلطانهم برغم هذا التجديد فى التعاليم ٠

واذا شئنا التعميم قلنا : ان مفهوم الدولة القومية وأعمالها وصل الى المجتمع العربى فى القرنين التاسع عشر والعشرين عن طريق القمة فى هرمه الاجتماعى ٠ ويمكن القول أيضا بالنسبة الى المدى الذى يقوم فيه تنظيم اقتصادى مركزى ، أن هذا المفهوم من الناحية الاقتصادية قد فرض أيضا فرضا على المجتمع من عل ٠ وهكذا يتضح الفرق بين هذا الوضع وبين تطور المجتمع الديموقراطى العربى الحديث فى نواح عدة ٠ ولعل أبرز مثل على ذلك هو أن حكومة الدولة القومية قد أقيمت فى المجتمع العربى ، دون أن يكون لها تقاليد حية من الحكومات الذاتية ، المحلية ، وان نظام الحكومة المركزية قد نشأ دون أى نمو يصاحبه فى هيئات الحكم المحلى ، البلدية والقروية ، ولا نستطيع الغلو فى تأكيد هذه النقطة ، ففى نظم الحكم التى عرفها الوطن العربى فى القرن التاسع عشر

ومطلع القرن العشرين كان الحكام الذين تعينهم الحكومة المركزية أو المجالس التى تختار هى أعضاءها من النبلاء الاثرياء يقومون بالأعمال الادارية التى يتوجب اجراؤها على المستويات المحلية ، كما يقوم بها أيضا موظفو الحكومة المركزية وشرطتها وعسكريوها ، والشيوخ أو كبار الملاك الذين تنتدبهم هى • ولم يكن هناك عند العرب ما يماثل المجالس البلدية أو القروية الانكليزية التى عرفت منذ قرون أو الهيئات البلدية الامريكية •

ووسعت الدولة من نفوذها مع تطور التنظيم السياسى والاقتصادى والتعليمى • ولكن البرلمانات التى خلقت مع هذا التطور ظلت تضم « ممثلين » عن الاغلبية الساحقة من أبناء الريف العربى • ينتمون الى الطبقات التقليدية من أصحاب السلطة أو من محدثى النعمة من أرباب المال والتجارة • وكان جل هؤلاء فى مصر مثلا من كبار ملاك الارض والتجار ، وكبار أرباب الصناعة المحدثين • أما فى العراق ، فقد سيطرت على برلماناته المتعاقبة ، طبقة شيوخ القبائل ، الذين وسعت سلطاتهم ضمن اطارات التشريعات — الاقتصادية الجديدة التى ضمنت توزيع أراضى الدولة عليهم • وكانوا يعودون من بغداد بعد انتهاء الدورات البرلمانية الى مناطقهم فى الارياف • وهى المناطق التى يحكمونها كشيوخ قبليين وكنبلاء اقطاعيين ، ولايمثلونها تمثيلاصحيحا • ولم تكن الحكومة المركزية التنفيذية لتصل الى أوساط جماهير أهل الريف ، الا على شكل مراسيم وأوامر وغرامات وضرائب • ولم يكن من السهل فى مثل هذه الأوضاع أن يجتذب المزارع العربى الى اسهام ذاتى الشعور فى هيكل اجتماعى ، يزيد عن القرية التى يعيش فيها المجتمع البدوى الذى ينتمى اليه • اذا قدر للتعليم المجانى أن يصل اليه ، وحدث عرضا أن تضمن هذا التعليم القواعد الاساسية فى مسئوليات التربية الوطنية وتبعاتها • فان هذا القروى لا يجد فى محيطه المباشر أى تنظيم سياسى يستطيع عن طريقه تطبيق ما تعلمه من أفكار • واذا حدث وتسربت اليه أفكار الخلاص من الفقر ومن الدين ، وقد تسربت فعلا ، فانه يجد نفسه لا يزال محروما من التنظيم الاقتصادى والطبقى الذى يستطيع عن طريقه التعبير عن مطالبه •

وفى هذا التركيب الاجتماعى ، قامت بين طبقتى الشعب السائدة الحاكمة ، والمسودة الفقيرة ، طبقة من الأقلية التى آخذ عددها فى النمو ، تضم المثقفين الذين نميل نحن فى الغرب الى تسميتهم بالطبقة الوسطى على الرغم من ان هذا الابراز للتجربة الغربية قد ينطوى على شىء من

التضليل • وقد انتشرت بين هذه الطبقة انتشارا ينطوى على القلق ونفاد الصبر ، ومفاهيم العدالة الاجتماعية والاقتصادية الحديثة المقتبسة من الغرب ، ومفاهيم الديموقراطية البرلمانية الصحيحة • ويمكن للانسان أن يقول ان تسعة أعشار الشبان والشابات العرب ، الذين ولدوا بين عامى ١٩١٠ و ١٩٣٠ والذين هيأت لهم الظروف الحصول على تعليم ثانوى أو تعليم عال ، قد تشبعوا بالمبادىء الغربية العامةعن الديموقراطية السياسية والاجتماعية • وعلى ضوء هذه الحقائق يتبين أن الضباط الاحرار من أبناء هذه الاجيال الذين قاموا بثورتهم انما كانوا يحملون نفس الافكار التى يحملها أبناء جيلهم من المثقفين المدنيين ، وقد بينا من قبل أن الافتراضات الغربية • عن انهم يمثلون طبقة « فاشية » عسكرية ، خاطئة كل الخطأ ، على ضوء هذه الحقائق التى أوردتها •

ولم يكن عبد الناصر ، نسيج وحده فى هذا الموضوع • فلقد كان فى عام ١٩٥٢ ، المدافع الاول بين اخوانه الضباط الاحرار ، عن الرأى القائل باعادة الديموقراطية البرلمانية فورا • وعندما رفض اخوانه الضباط من أعضاء مجلس قيادة الثورة فى نهاية يوليو عام ١٩٥٢ ، اعادة السلطان الى البرلمان ، انسحب الرئيس من المجلس اذ كانت نتيجة الاقتراع سبعة مقابل واحد ، وراح زملاؤه يفكرون فى اليومين التاليين فيما يفعلونه ، وما فتئوا أن استدعوه وأعلنوه بموافقتهم له على مايراه •• واقترح عبد الناصر تكليف حزب الوفد بالحكم مقابل شرط واحد وهو أن يسن قانونا للاصلاح الزراعى ، فرفض الوفد هذا الشرط • وهكذا أحس عبد الناصر لأول مرة بخيبة الأمل ، ومضى مجلس الثورة يصدر قانونا بمرسوم ينص على الاصلاح الزراعى ، فى مطلع شهر أغسطس كما أصدر قرارا آخر بالشروع فى التحقيقات اللازمة حول نزاهة الحكم فى جميع الاحزاب السياسية •

ولكن عبد الناصر واخوانه لم يكونوا يفكرون فى الاحتفاظ بالحكم السياسى بصورة دائمة • وكانوا يعتقدون أن البلاد بحاجة قبل كل شىء الى ازالة ما للملكية من ثروة خاصة وسلطان ، والى ازالة ما للاقطاعيين والتجار الفاسدين من نفوذ ، والى فرض الاصلاح الزراعى وتوزيع الارض على مستحقيها • وكانوا يتوقعون انه بعد تنفيذ هذه الخطوات الاصلاحية الجديدة ستقوم فئات من الساسة المدنيين من غير ذوى المصالح الذاتية ومن ذوى العقول الاصلاحية النيرة بممارسة الحكم البرلمانى • وكان ايمانهم بما فى الديموقراطية الحزبية من صلاح طبيعى للعمل • لا يزال

قويا الى الحد الذى دفعهم الى الاعتقاد بأن دورهم لايعدو تطهير مجتمعهم الفاسد مما فيه من أدران وجراثيم ٠ وكان الرئيس عبد الناصر لا يزال يقول علنا وجهارا فى عام ١٩٥٤ ، طبقا لايمانه الشخصى ٠٠٠ فى كتابه فلسفة الثورة ٠

« وأما دورنا فهو دور الحراس فقط ، لا يزيد ولا ينقص ٠٠ الحراس لمدة معينة بانذات موثوقة بأجل » ٠

ووصف مهمة الضباط الاحرار بأنها تجميع « قافلة هاجمهـا اللصوص وقطاع الطرق ، فتفرقت ، ومضت كل جماعة منها فى طريق ثم قال :

« وما أشبه مهمتنا فى هذا الوضع بدور الذى يمضى فيجمع الشاردين والتائهين ليضعهم على الطريق الصحيح ثم يتركهم يواصلون السير » ٠

واعتقد الفريق أيوب خان فى الباكستان عام ١٩٥٨ ، ان فى وسع الجيش أن يترك الحكم لجهاز الموظفين ، ولكن سرعان ما تبين له أن الفساد قد استشرى أيضا بين الموظفين الى حد كبير ٠ وفى مصر بدأ عبد الناصر ورفاقه يتساءلون يوما بعد آخر ٠ عن الطريقة التى يمكن بها أن يعود الحكم الى أيدى المدنيين ٠ وقد نما الشك فى امكان تحقيق ذلك فى غضون مرحلتين ، أولاهما مرحلة الشك المتزايد فى امكان العثور على قوة سياسية : متحدة ومستقرة ومتحررة الى حد معقول من المصالح الاقتصادية الخاصة ، وغير خاضعة لسيطرة الاخوان المسلمين أو الشيوعيين ٠ أما المرحلة الثانية ، فقد وقعت فى مطلع عام ١٩٥٧ ، عندما بدأ الشك فى امكان تطبيق الديموقراطية الحزبية على النظام الغربى فى مصر تطبيقا أصيلا يضمن تمثيل جماهير الفلاحين التى تنفذ سبعين فى المائة من السكان وتضمن خلاصهم من الاستغلال ٠

وقبل أن ننتقل الى بحث ما تنطوى عليه هذه الشكوك من مغاز سياسية خطيرة ٠ أرى لزاما علينا أن ندون بعض المشكلات الاجتماعية ، والاقتصادية التى تواجه الراغبين فى أن يغدوا من الاشتراكيين الديمقراطيين فى الوطن العربى ٠ ومن بين الاتجاهات التى كثيرا ما أوغرت صدور الاشتراكيين الغربيين قيام دعاة الاصلاح من الافريقيين الآسيويين باغداق الوعود بأنهم عندما يصلون الى الحكم سيقومون باعادة توزيع الثروات والاراضى ، فاذا ما وصلوا اليه فشلوا فى توزيع شىء ، أو اذا ما قاموا

بتنفيذ أية اصلاحات فانها تكون من النوع المعتدل ، الذى يشير الى ميولهم في اثارة حماسة الجماهير بدلا من أن يشير الى عقيدة راسخة لديهم • فهم لايقدمون على أى اصلاح زراعى الا من النوع الجزئى ، ولا يكادون يمسون أنظمة الضرائب التى وجدوها عند وصـــولهم الى الحكم • ويبدو هؤلاء المصلحون خائفين أو غير راغبين فى سن أية قوانين تمس الطبقات الثرية من أبناء المدن ، لمنفعة الجماهير • وقد حافظت الطبقة الوسطى فى المدن على مستوى معيشتها المرتفع نسبيا ، وبدت قادرة على المضى فى استهلاك السلع الكمالية التى تستخدمها الطبقات العالية والتى يجب استيرادها مبددة فى ذلك الارصدة الثمينة من النقد الاجنبى •

وتقوم وراء هذه الايماءات ، مشاكل عميقة ، تشير بوضوح أيضا الى الفروق الجوهرية الهائلة القائمة بين الاوضاع الآسيوية ـ الافريقية والأوضاع العربية • ظهرت الحركات الاصلاحية والعهود الثورية فى هذه البلاد تحمل طابع « الطبقات الوسطى » اذ أن القـائمين عليها ، كانوا يجدون استحالة فى أداء أى من الخطوات البارزة التى يعتبرها الاشتراكى الغربى ضرورة أوتوماتيكية رتيبة بالنيابة عن جماهير الطبقة العـــاملة « البروليتارية » • واذا ظلت الاسباب التى تقوم وراء هذه المواقف غـير مفهومة ، فان الحوار الدائم بين الانسان الغربى والانســـان الافريقى ـــ الآسيوى يظل مفتقرا الى الواقعية •

فالطبقة العمالية العربية ، التى تؤلف خمسة وسبعين فى المـائة أو يزيد من مجموع سكان البلاد ، ليست طبقة من أهل المدن أو من الفئات المثقفة أو المنظمة أو التى تعمل فى الصناعة • انها طبقة ريفية تعمل فى الزراعة جاهلة لاتعرف القرءاة والكتابة ، محدودة فى آفاقها السياسية والاجتماعية (١) وقد أخذ تكوينها الاجتماعى القديم فى الانهيار ، ولكن لم يقم حتى الآن أى بنيان دينامى جديد يحل محلّ البنيان القديم • وما زال الفلاح يعيش فى حالة من الجمود فى ذلك الخواء الاجتماعى الذى نجم عن أوضاع التأثيرات الغربية السابقة والتى شرحتها فى فصل سابق • ولقد بات الفلاح على وعى متزايد بامكان التبــدلّ ، وبأن ليس من الضرورى أن يموت الاطفال الرضع ، وان فى الامكان القيام باجراءات غريبة فى الحقل

---

(١) لعل الاستثناء الوحيد الظاهر لهذا الوضع يقوم في تونس ، حيث توصلت خلايا حزب الدستور الجديد الذى أقامه أبو رقيبة الى فئات الطبقة العمالية في كل قرية ولكن هناك عاملا خاصا سرعان مايبرز ، وهو أن ثلث السكان من أهل المدن وأن التنظيم النقابى متقدم تقدما غير عادى •

الزراعى لزيادة المحصول • ولكنه لايملك من العلم ومن التقنية ، حتى فى أبسط اشكالها مايضمن له القيام بالاصلاح اللازم بنفسه • وهو مدرك أيضا بشيء من الاعتزاز وبكثير من الحماسة للنظرية القومية بمفاهيمها الواسعة ، وجوب الخلاص من المحتل الأجنبى . ولكن مفهومه عن دوره لايتعدى ، وهذا أمر مهم بل فى غاية الأهمية ، حدود التابع للبطل ، وهذا البطل هو جمال عبد الناصر • ولكنه لايستطيع من الناحية الايجابية ومن ناحية التفهم ، أن يربط بين بطله « جمال » وبين المفهوم الواقعى عن « حكومة الدولة القومية التى يعتبر نفسه مواطنا فيها عليه واجباته وله حقوقه » • فعلى النقيض من ذلك ، يميل الفلاح فى هذه المرحلة الحالية من مراحل تطوره الاجتماعى ، الى مقاومة الفكرة القائلة بأن « بطله » هو « الحكومة » لأن الحكومة تحمل الى ذهنه ذكريات ذلك الرجل الذى يصل الى قريته ليصدر الاوامر ويفرض الغرامات ويجبى الضرائب والأتاوات • ولم تكن للفلاح أيضا تنظيمات سياسية أو اقتصادية ، ولا يحمل فراغه الاجتماعى أيا من هذه النواحى ، ولم تعمل الاحزاب القديمة على تشجيع اقامة الخلايا القروية عنده ، لأن السلطات المحلية التقليدية عنده من شيوخ وعمد وعلماء تعارض وجودها •

واذا كان هذا أحد الفروق الجوهرية بين الوضع هناك وبين العناصر الجذرية فى الديموقراطية الاشتراكية الغربية ، فان هناك فروقا أخرى أيضا •ويعتمد العمل فى مجتمع الدولة العربية ، فى حالة وجود أى تنظيم فيه على الاقلية المثقفة التى نسميها بالطبقة الوسطى والتى يود مناضلوها الشبان سواء أكانوا من المدنيين أم العسكريين أن ينفذوا الديموقراطية الاشتراكية فى بلادهم • وقد ألفت غالبية هذه الفئة طرازا معينا من الحياة ذا مستوى خاص ، وهم على أى حال من البشر • ويكتفى المصلح بنزع ملكية الثروة الارضية من الفئة المختارة القديمة ، لكن هذا الاجراء يثير المشكلة الحقيقية ، التى تتلخص فى سؤال واحد ، وهو: الى أى حد متطرف يمكن تغيير نظام فى مثل المجتمع الذى يبرز فيه الثراء الصارخ المفرط ؟ وما هى ياترى الاجراءات المعقولة ، والاجراءات التى يمكن تنفيذها ؟

واذا كانت ادارة البلاد كلها تتركز فى أيدى قلة صغيرة تعودت أن تعيش فى مستوى أرفع من ذاك الذى تعيش فيه الكثرة ، فهل تؤدى الارباح الناجمة عن اعادة توزيع شيء من ثرواتهم الى موازنة الخسائر ، وقد تطلب هذا النوع من الثروة الاشتراكية على أى حال حيوية متحمسة من بلاد جديدة طليعية لا من مجتمعات قديمة تؤلفها التقاليد وتربطها •

واذا كان من الصعب توليد هذا الطراز من الروحية بين الجماهير ، فهل من الحكمة أن نهدم ذلك الطراز من الروحية ، التى تسيطر على الاقلية ؟ ولكن هل يمكن الابقاء على ثروتها الكبيرة نسبيا سليمة لا تمس ، لا فى حدود الحاجات المالية ولا فى حدود السخط الشعبى المتزايد ؟

هذه هى بعض المشاكل القاسية التى كانت تقف وراء القرارات الخطيرة التى اتخذتها حكومة عبد الناصر ، فى البرامج الاشتراكية العربية التى أعلنها عام ١٩٦١ ، ولا ريب فى أن مشاكل مماثلة لها تواجه كل حكومة افريقية آسيوية ؛ ولا ريب فى أن الحد الأعلى للدخل الذى حدد بخمسة آلاف جنيه فى بلد كمصر ــ التى لا يتعدى متوسط الدخل الفردى فيها الخمسين جنيها فى السنة ــ يعتبر مبلغا ضخما ، ومع ذلك فان تقبله يتطلب ثورة نفسية فى أوساط أقلية « الطبقة الوسطى » ٠ واذا ما أخذنا بعين الاعتبار مشكلة تزايد السكان فى البلاد بشكل ضخم مع بقاء الارض محددة لاتزيد ، فان تخفيض الحد الأعلى لملكية الارض من مائتى فدان الى مائة فدان يبدو شيئا حتميا ، ومع ذلك فان الأقلية من الطبقة الثرية قد لاترضى به ٠

وأخذ قادة الشعوب الافريقية ــ الآسيوية المناضلون ، يواجهون بصورة متزايدة ، موضوع ما اذا كانت الاصلاحات التى هى من هذا النوع يمكن أن تصدر على شكل قوانين تقرها برلمانات ، تسيطر عليها «الطبقات الوسطى» ٠ ولكن المشكلة لم تكن أهون بالنسبة الى أى حكم مركزى ، وكان على عبد الناصر أن يتكل على هذه الطبقة تماما كمايتكل عليها نهرو فى الهند ٠ وكانت المشكلة بالنسبة الى الحكمين ، فى موضوع اعادة توزيع الارض هى : هل يمكن العثور على عدد كاف من رجال الشرطة النزيهين ، الذين يستطيعون تنفيذ مثل هذه الاجراءات ؟

وعدم النزاهة تعبير لامعنى له تقريبا فى الاوضاع التى يسودها الفقر المدقع ، ولقد كان يسود الغرب فى يوم ما ٠ وقد تشتد هذه الظاهرة فى المجتمعات التى يرتفع فيها عدد أفراد الاسرة الواحدة الى المئات ، اذ أن الالتزامات العائلية على الذين لديهم شىء ما بالنسبة الى أولئك الذين لايملكون شيئا تكون كبيرة ، ومن هنا يشتد الضغط على موضوع النزاهة الى حد مخيف ٠ فالموظف ينشأ على التقليد القائل بأن عليه أن يؤمن القوت للفقراء من أبناء عمومته ٠ فاذا وجدت وظيفة خالية ، فكر أول ما فكر فى اعطائها الى ابن عم له دون أن يكون للكفاية أى وزن ٠ ومن هنا ينشأ

الضعف في الجهاز الاداري من ناحية ، ويكون التجاهل للقانون كجهاز للخير العام من الناحية الاخرى ٠

وليست هذه الا بعض الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي حفزت على اثارة الكثير من الشكوك في الدنيا الافريقية الآسيوية فيما اذا كانت الديمقراطية السياسية الغربية التي تقوم على نظام الاحزاب صالحة على الاطلاق لهذه البلاد ٠ ولا تكون هذه «البدع التوظيفية» على حد ما يوجهه أي مفكر غربي حر أو مثقف افريقي ـ آسيوي ثقافة غربية ، من تسمية لهذا الوضع ٠ شيئا يعتبر فسادا ، أو حكما متسلطا في أي بلد من البلاد ، فهي ترتكز من ناحية على الاشكال السياسية الغربية الصـــورية ، ومن الناحية الاخرى ، على الجهد المضني في المحاولات الواقعية لايجاد مجتمعات افرو ـ آسيوية تتوافر فيها العناصر الاولية التي ترتكز عليها الديمقراطية الغربية نفسها ، وقد يؤدي الشك بالطبع الى اتاحة الفرص لبعض المصابين بالعظام من الافراد ، للتعبير في السياسات العامة التي يتبنونها ، عن الافتراض ، بأن في وسعهم أن يحكموا ويقودوا بشكل أفضـــل بسبب الافتقار الى نظام أخير ٠ ولكنني أرى أنه من الخطأ بالنسبة الى الغرب أن نعتبر كل من يحمل هذا الرأي في الدنيا الافريقية ، الآسيوية ، مصابا بشهوة الحكم ٠ فأنا أعتقد أن مثل هذا التفكير يصدر أيضا وبصورة طاغية عن قادة يؤمنون ايمانا قاطعا بأن الحكومة يجب أن « تنبثق من الشعب » وأن يتولاها « رجال من الشعب » لتعمل في سبيل « خير الشعب » ، ولكنهم لا يجدون في الاوضاع الاجتماعية الراهنة في بلادهم ، أي وجه شبه مع المجتمع الغربي ، الذي نبتت فيه هذه العقيدة مصورة في منظمات تنبض بالحيوية ٠

وأرى لزاما على قبل أن نعرض ما في هذا القول من شرعية على محك التجربة أن ندون عامـــلا آخر في الوطن العربي ، وهو عامـل الضغط الاجنبي والتصادم بين سياسات القوة وبين التطلع العربي للاصـــــلاح الاجتماعي ٠ ولم تمر سنة واحدة طيلة الاربعين سنة الماضية ، لم تتعرض فيها أي بلاد عربية ، للمناورات التي تقوم بها دولة أو أكثر من الدول الكبرى ، عن طريق ذوي المكانة العالية في تلك البـــلاد أو عن طريق مجموعات من السـاسة من ذوي النفوذ أو الاحزاب السياســية ٠ ولقد لاحظنا من قبل أن الضغط الغربي كان أكثر مبـاشرة ، ويتخذ أشكالا تتراوح بين الضغط الاقتصادي ، وبين الدبلوماسية التي تفرضها «البوارج الحربية ، فالهجوم المباشر الواضح ٠ وانا لا أرى أن هناك جزءا آخر من

الدنيا الافريقية — الاسيوية قد تعرض لمثل هذا الضغط الخارجي المستمر الذى تعرضت له أرجاء الوطن العربى · وسواء أكان هذا الضغط فى أى وقت من الاوقات واقعيا أم خياليا ، وسواء أكان أحيانا وسيلة لتبرير الحكم الفردى أم لم يكن ، فان الحقيقة الواقعة تظل ماثلة ، وهى أن مثل هذا الضغط الخارجي وحده سبب كاف ليجعل قيام الديموقراطية الحية الاصلية أمرا يشبه الاعجوبة أو المعجزة · وقد بات الاتحاد السوفياتى الآن يمارس هذا الضغط ممارسة كاملة · وبات لزاما على الدول الغربية الكبرى الثلاث أن تضع سياسات واضحة تجاه المنطقة وأن تقيم علاقاتها معها على أسس غير الضغط والتآمر والتناور ، والا فان الغرب نفسه سيسهم اسهاما فعالا فى قيام أشكال الحكم الفردى التى يشكو هو من وجودها ·

وهناك أسباب جوهرية أخرى تبعث على هذا الشك فى الديمقراطية القائمة على نظام الاحزاب · فالنظام البرلمانى المستند الى الانتخابات التى تجرى من حين الى حين يفترض وجود المستلزمات التالية :

١ — أن تكون هناك أغلبية من المقترعين قادرة على تقرير مواقفها فى السياسات القومية المختلفة التى تعرضها الاحزاب السياسية على ناخبيها بعد استثناء القواعد الثلاث التى تتفق عليها جميع الاحزاب وهى التحرر الوطنى والحياد والوحدة ·

لكن التجارب الماضية وحتى النقدات المنبثقة عن العطف ، على الاوضاع الاجتماعية الراهنة والمستويات التعليمية بالنسبة لجماهير الفلاحين العرب ، لا توحى بأن هذا الوضع متوافر وقائم ·

٢ — أن تؤلف الاحزاب السياسية على أساس التقاليد السائدة بوجه عام ، والفروق القائمة فى الدخل والطبقة ، والتباينات الواضحة بين السياسات الوطنية المنبعثة من هذه الموارد ·

ولكن ليست هناك تقاليد حزبية سياسية فى الوطن العربى تشبه من قريب أو بعيد تقاليد المحافظين والعمال فى بريطانيا أو تقاليد الجمهوريين والديمقراطيين فى الولايات المتحدة · وليس ثمة شك فى أن الاحزاب التى تقوم على الاسس الطبقية العربية الراهنة ، تكون ممثلة ، كما يفترض للطبقة الفقيرة التى تؤلف جماهير الشعب من ناحية والطبقة الوسطى الصغيرة من الناحية الثانية ، وهما طبقتان تتصارعان

وتتصادمان طبقيا فى موضوع الفقر القومى • والخلاف فى السياسات بالنسبة الى المرحلة الراهنة من التطور الاقتصادى، ضئيل جدا الى الحد الذى يجعل من الاحزاب السياسية فى الدنيا الافريقية ــ الآسيوية ، اذا استثنينا البعض منها ، غير ممثلة فى الواقع لأية قضايا تتطلب من المقترعين أن يختاروا•

٣ ــ أن يقوم هناك توازن كاف فى السلطان الاقتصادى والفرص، والدينامية الاجتماعية ، والقيادة السياسية النيرة ، بين مختلف قطاعات الناخبين ، بحيث تدور المنافسات الطبيعية على الحكم ، الذى تقضى به الديموقراطية الحزبية فى جو من احترام القانون ، وتفوق رأى الاغلبية فى الاقتراع ، وحرية الاجتماع والدعاية الانتخابية •

ولكن ما يتميز به الفلاحون العرب من جمود وأمية وخواء اجتماعى ، وما يظهر منهم من اندفاع فى تيار انتقال الفائض من العمال الى المدن والبلدان الصغيرة ، مشاكل تجعل من العسير وجود هذا التوازن بين عشية وضحاها • وينتج عن هذا أن تكون الاقلية الصغيرة المثقفة هى التى تتولى تأليف الاحزاب السياسية العربية وتوجيهها وقيادتها والتأثير عليها الى حد كبير جدا فى الدعايات الانتخابية •

٤ ــ أن توزع أعمال الرأى التمثيلى فى الحاجات الملموسة والقضايا العامة ، عن طريق التدرج فى جهاز الدولة القومية ، وهذا يعنى أن يقوم التوازن بين الجهاز الممثل للبلاد على صعيدها العام فى مناقشاته وتقرير سياسته وبين أنظمة الحكم المحلى الممثلة فى البلاد والمجالس القروية •

ولكن سبق لى أن قلت ان دساتير البلاد العربية ومنظمات القومية ، قد صيغت لأوضاع مجتمعات عربية لا تقاليد لها فى الحكم الدستورى ، ولم يسبق لها أن مارست أنظمة الحكم المحلى الذاتى •

هذه أربعة من المستلزمات الجوهرية التى تتطلبها الديموقراطية الغربية الحزبية لتكون قواعد لها ووسائل لتطبيقها • واذا ماطبقنا هذه المستلزمات على الاوضاع فى الوطن العربى فى ظروفه الراهنة ، تبين لنا خطل ما فى الافتراض بأن «الديموقراطية» على النحو الذى يفهمه الغرب ، يمكن أن تعيش وتزدهر بين العرب ، وقد قام المؤلف بتعميم هذه المشاكل

فى البنود السابقة ، وان كانت قوتها وضعفها تختلفان بين بلد وآخر • ولكن هذه هى الوقائع ، بكل تأكيد ، التى حاول الغربيون أن يعرضوا عن طريقها اعتقادهم المتحمس بأن هذا الشكل من أشكال الديموقراطية يمكن تحقيقه بوجه عام •

ويصل المفكرون العرب ، ومعهم معظم المفكرين الأفريقيين ــ الآسيويين شيئا فشيئا الى استنتاج جوهرى ، وهو ان حكومات الاحزاب السياسية كانت ولا تزال وستظل « ديموقراطية زائفة » حتى تتوافر للجماهير العربية الحوافز والوشائج العقائدية اللازمة التى تربطها بفكرة الدولة القومية ، وحتى تتهيأ لها سبل التعليم والسلطان ــ الاقتصادى التى تمكنها من الشروع فى تمثيل نفسها • وهم يشعرون ، أنه مالم تتوافر هذه الشروط فان حكومات الاحزاب السياسية تخلق خطر البطء فى تنفيذ الاصلاحات الاساسية ، كما تخلق العقبات فى طريق برامج الانماء والتطور ، التى لايتناولها على أى حال ، أى مجال أساسى للخيار ، وتسبب أوضاع المحسوبية فى الحصول على الوظائف والدعايات الانتخابية على أسس رجعية من قبلية أو طائفية ، أو ما شابه ذلك • وعن طريق وجوه البلاد المحليين المعترف بهم كالاقطاعيين والشيوخ والعلماء الذين تتعارض مصالحهم تمام التعارض مع تحرر الفلاح من الرق والجهل •

وتنبثق عن هذه الشكوك ثلاث فكر ايجابية تهدف الى خلق «طريق رابعة» بالاضافة الى الطرق الثلاث المعروفة ، وهى الديموقراطية الغربية ، والجماعية الدكتاتورية ، والشيوعية • أما الفكرة الاولى فتقول: ان العيوب الثابتة التى نجمت عن وضع السلطة التنفيذية (الوزارة) تحت رحمة البرلمان القائم على الاساس الحزبى ، قد أدت ــ مع مايصاحبها من الاتجاه القومى للعثور على القيادة القومية الملهمة فى أوساط الجماهير ــ الى النزعة الى قيام سلطة تنفيذية ينتخبها الشعب لفترة مقررة ، ولا تكون للبرلمان السلطة على الاطاحة بها • ولا ريب فى أن هذا الاتجاه هو الذى يسيطر على جميع البلاد التى تمزقت فيها أحزاب التحرر الوطنى بعد الاستقلال ، كمصر والمغرب والباكستان وبورما واندونيسيا •

وتقضى الفكرة الثانية بالتأكيد على ضرورة تأمين التمثيل المحلى أولا لجماهير أبناء الريف عن طريق أجهزة ، يتناقشون فيها ويتحملون مسئولياتهم ، ويتدربون فيها على الديموقراطية الصحيحة ويكتسبون الاحساس بالاسهام كأفراد فى مجتمعات أكبر من المجتمع المباشر الذى ينتمون اليه كالقرية أو الأسرة أو العشيرة • وقد هدف الرئيس

عبد الناصر عن طريق الاتحاد القومى « وعن طريق الاتحـاد الاشتراكى العربى الجديد) ، الذى يقوم على أســـاس الانتخابات الشعبية للجان المحلية ، الى تحقيق هــذه الغاية ، وقد أقر الرئيس صراحة فى عــام ١٩٦١ ، بوجود بعض الاخطـاء فى هذا التنظيم التى نجمت عن الهـوة بين الحكومة المركزية والقرية ، (وهى الاخطاء التى يتوخى الاتحـــاد الاشتراكى العربى اصلاحها) • وقد شرعت الباكستان مؤخرا فى مثل هذا التنظيم الذى أطلقت عليه اسم « الديموقراطيات الاســـاسية » ، ولكنه مازال فى مراحله الاختبارية الاولى ، وقد تكلل بالنجاح •

وتمثل الفكرة الثالثة ، وهى مهمة كل الأهمية ، مابتنا نشهده فى معظم الاقطار الافريقية الآسيوية فى بعث العقيـدة الاغريقية القديمة المتركزة فى « اجماع الرأى » • وهذه الفكرة هى التى تقبع وراء التعبير الذى بتنا نسمعه أكثر فأكثر فى الاوساط السياسية العربية والافريقية الآسيوية عن « الديموقراطية غير الحزبية » ، ومن الأمور البـــارزة مثلا أن الزعيم الاشتراكى الهندى جايا براكاش نارايان ، تلميذ الفيلسوف الهندى فينوبا بهاف ، استقبل استقبالا حارا فى الشرق الاوسط أثناء الرحلة التى طاف بها أرجاءه • وقد قضى نارايان ــ الذى يظهر شــكوكه فى صلاح الديموقراطية الغربية الطراز للهند وقدرتها على العمـــل فى أوضاعها الراهنة ــ نحوا من اثنتى عشرة ساعة فى أحـــاديث مع قادة الاتحاد القومى فى مصر • وعندما عاد نارايان الى الهند ، أعلن فى تصريح علنى أفضى به فى بومباى ، انه يعتقد اعتقادا جازما بأن عبد الناصر ، ديموقراطى مخلص فى ديموقراطيته • وأثارت آراء نارايان الاهتمـــام الكبير فى عراق الثورة ولا سيما عنــــد زعماء حزب الاستقلال من أمثال صديق شنشل •

وتتلخص زبدة هذه الفكرة فى أن من الضرورى فى شــعب يعتمد تقدمه ورخاؤه ، على العمل والتضحية ، ويعيش حاليا فى وضــع يائس من الفقر ، أن يكون فى الامكان خلق « اجماع فى الرأى » على كل مستوى من مستويات الحكم من المحلى الى القومى ، دون الحاجـــة الى أية أحزاب سياسية • ويشعر اصحابها انه ليست هناك قضايا جوهرية «تجزىء » الشعب ، وانه لايمكن السماح بتجزئة الشعب دون خلق الفوضى ، وان من الواجب العثور على وسائل جديدة ، لحشد رأيه وراء الحـكومة ، عن طريق قيام « اتحاد قومى » متحرر من المنافسات بين الاحزاب العـديدة واذا كان الغربى يرى فى هذه الفكرة شـــيئا من « ديكتاتورية الحزب الواحـــد » ، فان شكوكه يجب أن تكبت ، فليس من قبيـــل الصدفة

أن يظهر تعبير « الاتحاد القومى » شـيئا فشـيئا فى أسماء الاحزاب الجديدة التى تظهر فى الدنيا الافريقية ــ الآسيوية وفى أحاديث السياسة ، فى هذه الدنيا الجديدة . ويعكس هذا التعبير لهفة مخلصة لايجاد الحيوية الجماعية وللتضحية بالذات الجماعية وللحد الجماعى للاطماع الشخصية أو الطبقية . وهو ينشد بصورة خاصة أن تحد الاقلية المتعلمة ــ الاكثر رفاهية مادية والتى يحتم أن تتولى زمام القيادة لعدة سـنوات قادمة على الاقل ــ من حرصها على مصـالحها الشخصية وهى تطالبهم كمواطنين بأن يكونوا على استعداد للعمل ضمن منظمة سياسية شـاملة الى الوقت الذى يخلص فيه مواطنوهم فى القرى من أوضـاعهم الجامدة الراكدة ، ومن شنقائهم ومن خوائهم الاجتماعى .

ولا ريب فى أن هذه الفكرة رائعة كل الروعة . وقد ناشد غاندى المؤتمر الهندى بعد تحقيق الاستقلال ، عبثا ودون استجابة ، أن يتبنى هذا المفهوم وأن يطبقه في عمل من أعمال الانكار الذاتى روحيا وجماعيا . ويأمل ناريان في أن يحقق هذا النكران للذات عن طريق صناديق الاقتراع . ويحققه بورقيبة عن طريق السلطان الجماعى القوى لحركةحزب الدستور الجديد التى حققت الاستقلال وعن طريق اخفاق أية معارضة جدية . ويمثل اتحاد تنجانيقا الافريقى الوطنى الذى أقامه جوليوس نايبرى ، صورة ثانية من صور مفهوم الديموقراطية غير الحزبية وسيتعرض لمحك التجربة بصورة كاملة عما قريب . وتحاول مصر والباكستان ، حيث كان النظام الحزبى قائما ، تطبيق هذه الفكرة عن طريق القانون . فالاحزاب ممنوعة فى البلدين . وتنحصر مهمة المؤتمر العام للاتحـاد القومى فى الناحية الاستشارية ، مما يضع السلطة على عاتق الهيئة التنفيذية التى يتحتم عليها أن تظهر للنواب أن انتقاداتهم تلقى التقدير والعناية دون أن تكون مبعثا لخوف الجهاز التنفيذى . ويشـير تكوين الاتحاد الى احتمال النجاح . فالنواب أعضاء فى اللجان الاقليمية والمحلية ، التى تضم ممثلين عن لجان القرى والمدن . وعلى هذا يترتب أن تكون هنـاك طريقة سليمة فى الربط بين القضـايا المحلية والقضـايا العامة ، لتتمكن جماهير المواطنين من الحصول على ما هى فى حاجة اليه من فهم لدورها على جميع المستويات .

وليست هذه الطريقة الا واحدة من طرق اختبارية أساسية عدة لتحقيق الديمقراطية التى تتجاوب مع الاوضـاع السـائدة فى الوطن العربى . فهل يمكن لهذه الطريقة أو لاية طريقة أخرى ، تقوم على أساس اللاحزبية ، أن تحقق النجـاح فى عملها ؟ من الصعب علينا أن نصـدر

أحكاما جازمة متيسرة ، ولكن ثمة مخاطرة ومتطلبات يجب ادراجها وايضاحها .

تشترك هذه الانظمة كلها فى شىء واحد ، وهو انها تؤمن شيئا جديدا لجماهير الشعب فى الوقت الذى تحد فيه من الحرية السياسية للأقلية أو ما نسميها فى الغرب بالطبقة الوسطى المثقفة ثقافة غربية . ولا يمكن للفكرة أن تسير فى طريق النجاح فى قطاعى الشعب ، الا اذا تضمن تطبيقها العملى عدة عناصر . فاذا أخذنا جماهير الشعب الجاهلة التى تمر الآن - على حد تعبير الرئيس عبد الناصر - فى مرحلة التمرس على الديموقراطية ، وهى المرحلة الجديدة والغريبة التى تتضمن اختيار الممثلين ، ومناقشة السياسة ، وممارسة الحوافز الفردية ، فان هذه الفكرة لايمكن أن تعيش ويكون لها معنى ، الا اذا كانت مترابطة مع المشاكل التى يستطيع الفلاح فهمها ومع الامور التى تتصل بحياته اليومية . ومن الواجب أن تظل « لجنة الاتحاد القومى » التى يشترك هو فيها ، على اتصال دائم ، ومسئولة بشكل متزايد عن عمليات التطوير المحلية كشق الطرق مثلا ، والعناية بالصحة القروية وبناء المدارس ، واقامة التعاونيات الزراعية .. ومن الواجب أن يكون للجان القروية ميزانياتها الخاصة التى تتولى الانفاق منها بمشورة الخبراء المختصين . ومن الواجب ايضا عدم توفير أى جهد لدمج كافة اجراءات التمثيل السياسى والتنمية الاقتصادية ، والعناية بالرفاء الاجتماعى فى تجربة متكاملة واحدة ومستمرة . فمن طريق الملموسات اليومية التى يصطدم بها الفلاح فى حياته ، يستطيع أن يدرك المكان الذى يحتله هو ويحتله صوته فى الحياة القومية .

أما العنصر الثانى الذى لايقل أهمية وحيوية فى القطاع الشعبى ، فهو السرعة التى يتحقق فيها التقدم الاجتماعى والاقتصادى . ولقد قال لى الرئيس عبد الناصر ذات يوم ... « ان الشعب يتوقع منا أن نقطع عصور البخار والكهرباء والزيت فى ومضة عين لنجد أنفسنا على عتبة العصر الذرى ، وذلك لان الجماهير على الرغم من أن غالبيتها لا تقرأ ولا تكتب الا انها تعرف عن طريق الاذاعة ، أن هذه المعجزات ممكنة ، وهى تريد أن نحققها فى سرعة هائلة » .. ويطلق القادة المعارضون بصلابة للشيوعية ، من أمثال عبد الناصر - عن طريق فتح القرى العربية أمام الحياة والفكر العصريين واغراءاتها - قوى نفاد الصبر الجديدة من عقالها . وما لم تسر مجالات التقدم الاقتصادى على نحو مطابق فى سرعته لذلك التطور ، شريطة أن يكون هذا التقدم حقيقيا ومعقولا ، فان النتائج

ستكون فى منتهى الخطورة ، وقد يكون من المفارقات ، بالرغم مما فيها من صحة ، أن احدى الدعامات المؤقتة الضخمة التى تستخدم حاجزا ضد التحديات الشيوعية الرئيسية فى الوطن العربى ، هى العزلة الجامدة التى تفرض على الفلاحين ، مع العلم بأن الزحف الشيوعى فى العراق ، مثلا ، لم يتم الا فى المدن فى البداية • ولا ريب فى أن البحث عن الديمقراطية الأصيلة ، سيسرع فى انهيار هذه الدعامات . وسيتمثل الخط الفاصل فى المستقبل بين لجنة قروية غير شيوعية من لجان الاتحاد القومى وبين كوميون شعبى قروى فى شق طريق جديدة ، أو فتح عيادة قروية ، أو بناء قناة للرى فى الوقت المناسب ، أو التأخر فى القيام بمثل هذه الخطوات اللازمة ، مما يتيح المجال لانتشار الشيوعية •

وتتطلب هذه السيولة المتزايدة فى المجتمع الريفى العربى ، المترابطة مع مشاكل الفقر والأمية الاساسية ، المعونة الكبيرة من رءوس الاموال الاجنبية • وما لم تفهم الدول الغربية المتقدمة حراجة هذه المشكلة المعينة بالنسبة الى افريقية وآسيا ، فستفيق ذات يوم • بعد سنوات طويلة من السفسطة العقيدية فى اظهار مساوى الافتقار الى الديموقراطية الغربية الطراز ، ومقارنته بهذا العبث من المطبوعات التافهة ، لنجد أن الوسيلة الممكنة الوحيدة لتحقيق مثلنا واهدافنا ، قد هزمت هزيمة نهائية حتى قبل أن نتفهم هذه الحقيقة • وعلى الغرب ، والحالة هذه ، أن يقدم عونه بسرعة ووفرة ودون قيود أو شروط •

ولنستدر الآن الى قطاع الأقلية من الشعب ، لنرى أن هناك تحديات خطيرة مماثلة ومتعادلة بالنسبة الى الاصلاحيين والهراطقة الجدد من أهل البلاد الافريقية الآسيوية ، من ناحية ، والى الغرب من الناحية الاخرى • ولا يقل العربى من خريجى جامعات هارفرد وكمبردج والسوربون وبيروت والقاهرة فى عدم تفهمه للديموقراطية غير الحزبية وشكه فيها عن الليبرالى الغربى (١) • ولم يستطع دعاة هذه النظرة

(١) اعتقد أن المؤلف قد اخطأ فى تعميم هذا الحكم ، فهناك المئات بل الالوف من خريجى الجامعات التى ذكرها ، الذين باتوا يؤمنون عن اقتناع ، بأن « الديموقراطية الزائفة » التى كانت متبعة فى بعض ارجاء الوطن العربى ولاتزال متبعة فى بعض ارجائه الاخرى ، عقبة كأداء فى طريق التقدم الحضارى الصحيح ، وأن الديموقراطية الحزبية ضمن المفهوم الغربى لاتصلح لاوضاع الوطن العربى الراهنة ، لما تؤدى اليه من بقاء سيطرة طبقة واحدة هى طبقة الاقطاع ورأس المال المستغل على الحياة السياسية وبالتالى الحياة الاجتماعية فى الوطن العربى • وقد آمن هؤلاء عن اقتناع بأن الديموقراطية غير الحزبية ، التى تعمل على تمثيل جماهير الشعب كلها ، على مختلف الصعدان هى الوسيلة الصحيحة لدفع عجلة التقدم الحضارى الى الامام بسرعة تتفق مع عصر الصاروخ شريطة =

الاصلاحية المتطرفة حتى الآن أن يوضحوا نظريتهم هذه ايضاحا متلاحما ودقيقا وعميقا (١) لانها تتناقض مع كل مفهوم ومع كل سابقة فى الكتب العلمية الموثوق بها عن الديموقراطية · ومن هنا تنشأ الشكوك والفوارق العاطفية عند الفئات المثقفة التى لاتقدر وطنيا بثمن · ويعتقد الكثيرون من أبناء هذه الفئات أن القادة ، من أمثال عبد الناصر ، مخلصون كل الاخلاص ، وهم يعجبون أشد الاعجاب بتجردهم الشخصى وتطهرهم المسلكى ، وقد وقفوا يؤيدونهم طيلة الازمات الخارجية فى حقبة الخمسين · ولكن هؤلاء الشبان والشابات الذين يتلقون ايحاءهم من الثقافة الغربية قد اقتبسوا من الغرب العقيدة القائلة : انهم بالنظر الى ثقافتهم ، وعلو كعبهم فى الادراك يستحقون أن يتحملوا المسئوليات الديموقراطية كأوصياء على اخوانهم المواطنين الأميين · وهم يتململون من أية قيود قد تفرض على نشاطهم السياسى أو الفكرى أو الصحفى · وهم ينتظرون الايضاح ، فى حدود التعابير التى يفهمونها لهذه العقائدية الجديدة التى تقوم وراء فكرة الديموقراطية غير الحزبية ·

ومن هذا يبدو لى ، أن هناك اشتراطين أساسيين تماما لهذه التجربة الجديدة الخارجة على القواعد المألوفة ، يجب توافرهما ، ولم يتوافرا بعد · وأول هذين الاشتراطين ، انه لما كان من المعروف ضمنا ، ان أى تنظيم حزبى أو نشاط سيحظران قانونا خارج نطاق « الاتحاد القومى » ، فان من الضرورى خلق جو من الحرية والتحرر الفكرى فى الصحافة والطباعة والمناقشة والنشر ، يتيح للمثقفين العرب ، الحافز والمجال لبيان ما لديهم من أفكار بناءة · ولن يكون فى امكان أى قدر من النيات على تحقيق الديموقراطية أخيرا ، أو أى قدر من اعلان هذه النيات ، أن يخلص حكومات « الانتقال » من الاقدام على خلق تجمد فكرى عن طريق الرقابة والحظر ، ومن الواجب ألا يعتبر هذا « الجو من الحرية » امتيازا أو تساهلا · فعلى القادة من أمثال عبد الناصر وعبود وبورقيبة وأيوب خان وغيرهم أن يتبينوا أن الحيوية الفكرية عند الأقلية المثقفة هى رأسمال ضخم · فهى كنز لا يقدر بثمن ولا تقل خطورة كبتها

= توافر فرص النقد والنقد الذاتى اذا كانا من الطراز البناء ، وكانا صادرين عن وعى ولهم صحيحين للمسئوليات والتبعات الوطنية .

(١) أصدر المؤلف كتابه قبل صدور الميثاق الوطنى الذى حدد فيه سيادة الرئيس عبد الناصر بوضوح وجلاء كل هذه النقاط التى يوردها المؤلف ، فكان بذلك النهج العقيدى لهذه المفاهيم الجديدة . (المعرب)

مهما خلصت النيات عن خطورة السماح بالصراع الحزبى الفوضوى غير المقيـــد • ولكن على الغربيين ألا يقللوا من صعوبات تأمين هذه « الاجواء الحرة » فى الاوضاع العربية الراهنة ، حيث لا يزال القادة العرب يواجهون مشاكل ضخمة كمشكلة الصراع لتحقيق الوحدة العربية ، ومشـــكلة مواجهة التحدى الدينامى الجديد للشيوعية • ومع ذلك لايستطيع أى من هؤلاء القادة احتمال مثل هذه الاجواء • واذا كان من المقرر أن تتوقف هذه الاقلية المثقفة عن ممارسة عملها السياسى على المقاييس الغربية ، فلا بد أيضا ، أن يعتبر السماح لها بمقاييس تفكيرها وتنميتها ، أمرا حكيمـا وعادلا •

أما الاشتراط الثانى ، وهو يتصل بالاول تمام الاتصال ، فيتناول العزلة غير المستحبة القائمة بين القادة القوميين وبين المثقفين من رجال ونســـاء ، الذين تعتبر طاقاتهم الفكرية وعبقرياتهم وحماستهم القومية ، واحساسهم بحاجة الوطن اليهم ، ارصدة وطنية ضخمة لا تقدر بثمن • وارى من الضرورى أن يبذل كل جهد ، وأن يبتكر كل تنظيم ممـكن لاشراكهم فى أعمال الحكم والقيادة والتوجيه والتخطيط السـياسى • وارى أن الحاجة تفوق مجرد الاكتفاء بالمشورة الظاهرة فى المنظمـــات الرسمية الاستشارية ، التى لا أعتبرها أكثر من مجرد صمام أمن • وانى أرى أن هناك كل ما يبرر الاستعانة بهم فى أكثر من مجرد العمل الرسمى ، وأن يكونوا جزءا من الرسالة الوطنية • وليس لدى شك فى أنهم سيستجيبون استجابة دينامية ، اذ ان هذا هو ما ينشـــدونه ، على ضـــوء اى تحليل ، وهو أن يشـــعروا بأنهم يستخدمون فى خدمة شعبهم وأن خدماتهم تختبر الى أقصى حدود الاختبار ، اذ أن تحقيق هذا الارضاء لمشاعرهم يفوق فى استهوائه لنفوسهم السماح لهم بتأليف الاحزاب السياسية • ولقد لمست هذا الشعور بالعزلة من رجال يمكن أن يكونوا موضع الثقة والاعجاب ، وهو شعور يجب أن يقهر •

ولقد كنت فى سردى لهذه الضرورات السالفة أشير بصفة خاصة الى الفئة المختارة من الطبقة المثقفة فى الوطن العربى • ولكن هناك طبقة أخرى ، وهى الطبقة المتزايدة عددا والتى تضم الشباب من ذوى التعليم الثانوى والمهنى الذين يحتاجون بدورهم الى طراز جديد من التوجيه • وهنا يتجه المرء بفكره بصورة خاصـــة الى فيالق الشباب التى يجنـــد افرادها تجنيـــدا ديمقراطيا لأعمـــال التطوير الوطنى • وقد شرعت الجمهورية العربية المتحدة فى مثل هذا التنظيم الذى يسمى « بمنظمة رعاية الشـــــباب » ، كما اقامت غانا تنظيما ممـــاثلا اسـمته « لــواء

البنائين » . ومن الواجب ايلاء هذه التنظيمات الكثير من العناية فى ادارتها مخافة أن يؤدى بعض الاهمال أو الانحراف الى تحويلها الى منظمات شبه عسكرية للمجندين . ولكن هدف هؤلاء الشباب يجب ان يظل ، تأليف فرق طليعية ريادية للعمل والخدمة الوطنية ، وتحويل الطاقات والاحاسيس التى كانت منصرفة حتى الآن الى القضايا الوطنية الخارجية الى أقنية لبناء التطورات الداخلية المثمرة •

وللغرب فى هذا التطلع المائع والمعذب للعثور على طريق جديدة للديموقراطية الأصيلة فى البلاد العربية والافريقية الآسيوية ، دور آخر لا يقل اهمية عن الدور الذى سبق لى أن اشرت اليه وهو تقديم المعونة الاقتصادية والتقنية الضخمة • فعلى الغرب أن يظل الحارس الأمين لمفاهيم الحرية السياسية التى تسربت الى هذه الشعوب(١) . ولا يعنى ظهور ما فى الامل الليبرالى الغربى التقليدى من غرس هذه المفاهيم عند هذه الشعوب جنبا الى جنب مع نقل الحرية السياسية اليها ، من تفاهة ، ان على الغرب أن يضعف من الدور الذى يجب أن يتولاه كحارس ومدافع بليغ الحجة عن هذه المفاهيم .

فمهمتنا الآن أكثر دقة وصعوبة . اذ علينا من الناحية الأولى أن نواصل الرقابة والتذكير والنصح بوجوب الاحتفاظ بالمثل الديموقراطية مخافة أن تنحسر هذه المفاهيم بصورة مبتسرة ، وعلينا من الناحية الثانية أن نعين ديموقراطيى الغد فى الدنيا الافريقية الآسيوية على قبول التحدى ، الذى لم نهيئهم له أثناء مدة وصايتنا ، والذى لم نتهيأ له تهيؤا كاملا • وفي وسع الغرب أن يقدم هذا العون عن طريق الوقوف موقفا اكثر تفهما واقل سخرية من هذه التجربة السياسية التى تقدم فى هذه الدنيا الجديدة ، والتى لا نزال نسميها « هرطقة » بالنسبة لمفاهيمنا ، وأن يتمثل هذا العون فى مقالات وتعليقات ودودة تظهر فى الصحافة الغربية التى ما زال لها قراؤها من الافريقيين ــ الآسيويين . فهناك شعور متزايد فى هذه المنطقة كلها من السخط ونفاد الصبر تجاه مايبدو للافريقين الآسيويين بمظهر الفطرسة الثقافية الغربية المندفعة . وهم يرون هذه الفطرسة فى الادعاء بأن كل مايمكن تعلمه عن الديموقراطية

---

(١) قد يحمل هذا القول رغم مافيه من تظاهر بالتحرر معنى دوام السيطرة الفكرية بعد زوال الاستعمارين السياسي والاقتصادى. من الشعوب الافريقية ــ الآسيوية التى تحررت وتود استكمال تحررها من كل قيود التبعية ، لايمكن ان تقبل بالتبعية الفكرية . اذ ان في وسعها ان تختار لنفسها ما يتفق مع اوضاعها من مفاهيم وعقائد دون تبعية أو تأثر . (المعرب)

وعرضه وتطبيقه ، هو من منجزات الغرب ، وهو صالح للتطبيق فى كل مكان فى العالم . ولكن ترى هل نحن نؤمن حقا بما نقول ؟ انى أشك فى ذلك كل الشك . ومع ذلك فنحن نوحى للناس بأن هذا هو ايماننا .

وهناك ضرورة أخرى تقف وراء هـذا العون المتمثل فى تحـديد المواقف ، وهى أن يواصـل الغرب الحث على القيام بدراسـات علمية اكاديمية جديدة لمشـاكل الحرية والسياسـة فى هـذه الدول القومية المتخلفة والناشئة . ولعل الدليل النافع على وجود الحاجة الى هـذه الدراسات ، تقوم فى أن المراجع أو الكتب التى توضع عن اعادة التفكير المتفتحة والجدية فى موضوع الديموقراطية على النحو الذى يمكن فيه تعهدها فى خارج الغرب ، قليلة للغـاية . ولقد التقيت بعدد من القـادة الافريقيين والآسيويين فى مكاتبهم التى تغص بالرفوف التى صفت فوقها عشرات المراجع الغربية وكتب الفلسفة السياسية ، وكانوا يشـيرون بمنتهى الصدق والمنطق الى هذه الكتب قائلين ـ بشىء من اليأس ـ : « لم نعثر فى كل هذه الكتب على ما يفيدنا نحن هنا فائدة عملية » .

ويمكن للغرب عن طريق تنقيح كتبه الجامعية ، وتخصيص المنح للدراسات الجامعية الاكاديمية على أسس جديدة ، أهمهـا أن أشكال الديموقراطية الدستورية والعلمية فى الغرب ، قد لاتكون ملائمة للشعوب الافريقيـة الآسيوية ، وعن طريق الاشراف على عقـد المؤتمرات والحلقات الدراسـية المتكررة مع المفكرين الأفرو ـ آسـيويين ، أن يعمل الكثير لضـمان قيام الديموقراطية أخيرا عند هـذه الشعوب التى تبلغ ثمانمائة مليونا ، وقد يدعونا هذا ، الى حد ما ، الى مواجهة تحد جديد وهو أن نزيل صورة « غربية » أخرى كانت تحجب الواقع والحقيقة عن عيوننا أمدا طويلا . وهـذه الصورة هى جزء من الرحلة الفـكرية التى كانت مغلقة على الغرب من ناحية ، والشعوب الافريقية الآسيوية ، ولا سيما العربية منها ، من الناحية الثانية . وعندما نكون نحن فى الغرب ، قد بتنا حقا فى أمس الحاجة الى اعادة التفكير جـديا فى نواحى ديموقراطيتنا ضمن نطاق منطقتنا نفسها ، فان هذا الحافز الاضافى بالنسبة الى الدنيا الافريقية ـ الآسيوية ، لا يعتبر بحال من الاحوال شوكة ناخزة مذلة . وحرى بى أن أقتبس هنا بعض العبارات التى أوردها مراقب بريطانى معروف عن الوضع العربى اذ قال :

« لو كان هناك نظامان محدودا المعالم قادران على أن يضمنا تعلم الناس لهما وتطبيقهما ، فان فكرة الاختيار الواضح بينهما ، تصبح أمرا مفهوما . ولكن ليس هنـاك مثل هذا التحديد . فالقضـية فى البـلاد

المتخلفة ليست قضية الاختيار بين نظام معروف ونظام آخر . وانما هى قضية ابتكار طرق جديدة لضمان سير الأمور وتنفيذها ...

« ويمثل التحدى الحقيقى لابتكاراتنا التنظيمية العملية ، لا لما فى محطات اذاعاتنا من قوة ، أو لما فى كتابات واضعى شعاراتنا من صقل لفظى ، أو لما فى تصرفات المحاربين من ساستنا من نعومة ، أو حتى لما فى جيوشنا من قوة »(١) .

ولم نشرع نحن فى الغرب حتى الآن فى فهم ما فى هـذا التحـدى الواقعى من اهمية زمنية . ولكن هذا التحدى بدأ فعلا فى الوطن العربى. وفى أنحاء الدنيا الافريقية الآسيوية . وفى مارس عام ١٩٦١ قال نيكيتا خروشوف لوفد برلمانى من الجمهورية العربية المتحدة ، كان يزور موسكو ما نصه :

« سيكون التاريخ الحكم الفصل بيننا . فنحن شيوعيون ، وانتم لا علاقة لكم بهذه الكلمة . ولكن التاريخ سيعلمكم ... انكم لا تريدون الشيوعية الآن . حسنا فليكن ما تريدون . ونحن لا نغضب من هـذا . ولكنكم ستجدون فى المستقبل أننا على حق » .

وسرعان ما ردت الجمهورية العربية بجواب نشر فى القـاهرة . ولا ريب فى أن هذه الوثيقة فى منتهى الأهمية والخطورة ، ولكنها لم تحظ كالعادة بأى أهتمام من الغرب . وترجع زبدة هذا الرد أصداء الأفكار التى تعم الدنيـا الافريقية الآسيوية كلها ، كما تؤلف جزءا من الحوار المستمر حينا مع الغرب وحينا آخر مع الكتلة السوفياتية ــ الصينية ، والذى يؤكد فيه القادة الافريقيون ــ الآسيويون حقهم المطلق والمستقل فى تكوين تنظيمـاتهم على النحو الذى يريدونه . قال رد الجمهـورية العربية المتحدة ...

« وفيما يتعلق بالرأسمالية والشيوعية ، فاننا لا نقتنع حتى الآن بان التطور التاريخى للانســان يسير فى طريق مسدود ، الرأسمالية بدايته ، والشيوعية منتهاه الحتمى وانما نحن نعتقد أن مجال الاجتهاد الفكرى مفتوح لجميع الشعوب ...

---

(١) رسالة من ميشيل ايونيدس فى صحيفة التايمز بعنوان « معركة آسيا » عدد ١٣ يناير ١٩٥٩ .

« أن شعبنا لا يقبل أن يكون محصورا فى هذا الخيار ويعتقد ان الافق الفكرى للعالم الآن أرحب من هذه الدائرة المغلقة » (١) .

ويؤلف هـذا الرد العربى على خروشوف تحديا أيضـا للغرب . ومن المؤسف أننا حتى هذه اللحظة لم نظهر أى احساس مناسب به . اذ ان الغرب فى هذا الطراز من التطلع الافريقى ـ الآسـيوى ، يتفوق تفوقا واضحا على الصينيين ـ السوفيات . فنحن هنا فى بلادنا ، نظهر اعتزازنا وتفاخرنا بما فى منتظماتنا من مرونة ، وذلك من ناحية استعدادنا لتعريض اجراءاتنا السياسية والاقتصـادية ضمن أطار مثلنا العليا . وعلينا ، حرصا على مصلحتنا نحن ، أن نبذل عناية خاصة فى أن نظهر للعــرب بل ولجميع الافريقيين الآسـيويين أننا نقبل حقهم فى أن تظهر مثلما نفعــل ، وسنرى أشياء غريبة تعزى الى تعابيرنا « كالديمقراطية مثلا أو « الاشتراكية » » ، وهى التعابير التى نفترض عن ثقة وأيمان بأننا الوحيدون القـادرون على تفسيرها وشرحها . وسنسمع القـادة القوميين العرب ينـادون بسياسات « الاشتراكية الديموقراطيـة التعـاونية » ، وقد نجد من الصعب علينا أن نتميز ما نعنيه نحن بمثل هذه التعابير فى حقيقة ما يقومون به هم . وليس من حقنا مهما كانت الظروف أن نتوقف أو نهمل الحكم حكما نقديا على ما يقومون به من تجربة وما يتطلعون اليه من أهداف . فهنالك طراز من النقد يكون فى نصه ومحتواه نافعا كل النفع لهذه الشعوب الحديثة .

ولكن كلما قرأت فى صحيفة غربية ما يشبه السخرية المتغطرسة، ورأيت التطبيق الذى يحمل طابع التقريع لشعاراتنا وتعبيراتنا الغربية المتزمتة ، وذلك فى التعليق على ما يبدو على هذه الشـعوب من حيرة أصيلة فى بحثها ونشدانها الحقيقية ، أتذكر فورا ، ذلك العربى الذى قذف بالصحيفة الغربية التى كان يقرؤها ذات يوم من يده ، ملتفتا الى ـ وفى وجهه سيماء السخط ـ قائلا عبارة أرى أنها خير خاتمة لهذا العرض لما فيها من بساطة . . . «انك تعرف أننا كما تقولون قد أنتهينا من مرحلة الحاجة الى التعهد والتنشئة ، ولكن بحق السماء ، لماذا تحاولون فى الغرب ، كما يحاول الشـيوعيون ، الافتراض بأن لديكم الحلول لكل مايواجه المجتمع الانسانى من مشكلات ؟ »

---

(١) نشر هذا الرد في عدد صحيفة الاهرام الصادر في التاسع من يونيو عام١٩٦١ لا في الثالث من مايو كما يقول المؤلف . وكان الرد صادرا من السيد أنور السـادات رئيس الوفد البرلماني العربي الذى قام بزيارة موسكو والذى واجهه خروشوف بتلك الاقوال . (المعرب)

الخـــاتمة

« لابد بالطبع من الواقعية ، اذ ليس ثمة من بلاد تقيم سياساتها الداخلية او الخارجية على مجرد حسن النية او التحليق في الخيال ». ولكنها الواقعية الغربية هي التي تتشبث بقوقعة الماضي الجوفاءوتتجاهل أو ترفض فهم حقائق الحاضرالقاسية ، التيلاتتناول النواحي السياسية او الاقتصادية فحسب ، بل تشمل ايضا مشاعر عدد كبير من الناس وامانيهم » .

جواهر لال نهرو ــ عام ١٩٤٤

***

هناك دلائل برزت منذ وقوع جوائح عام ١٩٥٨ (انهـا ليست جوائح بالنسبة الينا) على أن حكوماتنا وعددا من معلقينا العامين ، قد شرعوا فى تبين الدروس والعبر الواضحة لتي تمخضت عنها الاعوام الأربعون من العلاقات العربية الغربية ولكننى اعتقد بضرورة ايلائها المزيد من الايضاح هنا . وقد بتنا الآن أكثر تسامحا مع سياسة الحياد أو اللانحياز التى تتبعها القارة الافريقية الآسيوية مما كنا عليه فى الفترة الواقعة بين عامى ١٩٥٥ و ١٩٥٨ . وليس ثمة من شك فى أن أية حكومة بريطانية ما عادت لتفكر مجرد تفكير بالقيام بمغامرة كمغامرة سيناء والسويس . ومن المأمول أيضا ألا تفكر الحكومة الامريكية الجديدة فى أية عملية تقويض لحكومة عربية تنال تأييد شعبها وبرلمانها كالعملية التى قامت بها الحكومة الامريكية السابقة عن طريق الملك حسين فى الأردن عام ١٩٥٧ للاطاحة بالحكم الوطنى فيها . (١)

ولم يصدر حتى هذه اللحظة أى بيان يثير الدهشة عن داوننج

---

(١) لكن مهزلة الهجوم على كوبا في عام ١٩٦١ تلقى بعض الشكوك على هذا القول ــ المؤلف .

ستريت يقول ان ريح التطور قد اكتشفت وهى تهب عبر أرجاء الشرق الاوسط . ولكن اكتشاف رياح مماثلة فى سماء افريقية قد يعكس تبدلا كافيا فى التفكير عند أولئك المسئولين عن الســـويس ، ليشمل بآفاقه العلاقات الغربية ـ العربية ايضا . وهناك احتمال فى أن يأمل الانسان بأن يكون العهد القديم قد مضى وانقضى .

ولكننى كغربى لا أستطيع أن أحس بأية كبرياء وان كنت أحس بشىء قليل من الارتياح ، لانقضاء تلك العقبة ، ذلك لانهـــا خلفت من الجراح عند العرب ما لا يمكن له أن يندمل بسرعة وقد تبقى أمدا أطول مما نعترف به ونقره ، لا سيما وأن الفضل فى انقضاء تلك الحقبة يعود الى العرب لا الى ســياستنا . واذا كان عــرب الشرق الاوســط لم يتحولوا « الى الشيوعية » فان هذا تم على الرغم من السياسات الغربية التى كانت تبدو وكأنهــا تقصد تحويلهم الى تلك النتيجــة . واذا كنــا قد تخلينــا عن تلك السياسات الى حد كبير ، فان السبب فى ذلك يرجع الى تبيننــا فى أعقاب عام ١٩٥٨ ، أن هذه السياسات لا يمكن لها أن تكلل بالنجاح ، فلقد أختفت معظم العهود التى كانت تلك الســياســـات تعتمد عليها . واذا كان لا يزال هنـــاك عند العرب بعض الشــعور العميق بالاحترام للغرب ، والاهتمام به بحيث تستطيع بعض « فضـــائل » ثقافتنا أن تسهم فى خلق مستقبل عربى أفضل ، فان مرد ذلك الى أن كثيرين من العرب ظلوا يرفضون دائما التخلى عن أملهم فى الثقافة التى استمدوا من منبعها الكثير من الالهام على الرغم من كل ما فعله ساستنا لتشويه ذلك الالهام . (١)

ترى ما هى الجراح التى خلفناها وراءنا هناك ؟ أول هذه الجراح هو الشك ، الشك العميق المستشرى كالسرطان فى عقول الشبان العرب ، بأن أسوأ ما عند دول الغرب قد انتهى . ومن ســـــوء حظنا أن ليست هناك دلائل كثيرة على أن الغرب فى مجموعه يدرك هذه الحقيقة . فلقد كان فى وسع بعض الصحف والشخصيات العامة فى الغرب ، أن تظهر الحنق حتى فى عام ١٩٦١ ، على ما تواصله القاهرة من حملات دعائية

---

(١) يغالى المؤلف كل المغالاة في حديثه عن الهام الثقافة الغربية وأثرها على العرب وفي ربطه بين التأثير الثقافي والتأثر السياسي . فالثقــافة تراث حضــارى واحد تتناقله الشعوب وقد أخذ العرب عن الغرب في القرون الاخيرة ، كما اخذ الغرب عن العرب في نهاية القرون الوسطى . ولهذا فلا شأن لتأثر العرب بثقافة الغرب في اتجاهاته وروابطه السياسية . (المعرب)

ضد بريطانيا ، وكان فى مكنة بعض المعلقين عندنا أن يقولوا - بمزيج من الهياج والسخرية - ان القوميين العرب ما زالوا يرون فى الاستعمار الغربى السبب فى كل نكبة . ولكن هذه الاقوال تصدر ولما تنقض على أحداث العدوان على بور سعيد وقيام أهلها بانتشال جثث الضحايا من أقربائهم من تحت الانقاض أكثر من خمس سنوات ، ولما تنقض أكثر من ثلاث سنوات على رؤية القوات المسلحة للدول الغربية تجتاح بلدين عربيين (لبنان والأردن) ، ودون أن تمضى أية مدة على حشد دولة غربية أخرى لنحو من اربعمائة ألف جندى ضد أخوانهم العرب فى الجزائر . حقا أن أمرنا عجيب ، اذ أننا نطلب من الشعوب أن تنسى بسرعة . وقد يكون من الفطرسة كل الفطرسة أن نتوقع من العرب أن يعدلوا عن شكوكهم فى بريطانيا ، بينما لايزال يحكمها رجال كانوا من المسئولين عن السويس ، ولم تصدر عنهم أية ايماءة تشير الى الندم على ما فعلوه . انها غطرسة ، اذ كيف يمكن لمصر أن تنسى وهى لا تزال تبكى موتاها فى سيناء وبورسعيد .

وهناك نقطة أخرى ، ولعلها من أكثر المفارقات سخرية ، وهى أننا لا نستطيع أن نفهم ما خلفناه من شكوك ومرارات فى مصر ، اذ أن الانجليز الأفراد ، مازالوا يستقبلون استقبالا حارا فى مصر . وتقوم السخرية فى الحقيقة الواقعة وهى أن معظم العرب فى الشرق الأوسط كله ، ما زالوا يعتقدون بأن غالبية البريطانيين العاديين كانوا يعارضون فى عدوان السويس . لكن الحقيقة أكثر مرارة . ولعل مما يسرى عن النفس ، أن هذا الوهم الذى يعيش فيه العرب ، هو دليل جديد على ايمانهم الدائم والمستمر بالغرب ، وبأن شعوب هذا الغرب فى عزلة عن سياسات حكوماته . وانى لأرى فى هذا التناقض مبعثا على الشعور بالخجل والعار من جانبنا .

ولكن هناك ارثا أقدم ، يتصل باساءة لا يمكن أن تغتفر وبجرح لا يمكن أن يندمل . فليس ثمة من عربى مفكر يعتقد بأن تحقيق الوحدة ، أية وحدة سواء أكانت دينامية ثورية ، أم هادئة هينة ، يمكن أن يتم بسهولة . وهو فى كل مرة ، يستعرض العالم الذى يعيش فيه اليوم ، يرى يد السياسة البريطانية تحول طيلة أربعين عاما دون تحقيق أهدافه وتفرض عليه هذه التجزئة المتعمدة والمصطنعة ، لكى تصبح الآن ثابتة الاقدام فى وطنه وبين شعبه . وفى كل مرة يكتب فيها مقال فى الغرب ، أو ترسم صورة كاريكاتورية ، أو يبرق بتعليق عن التجزئة العربية ، يرى العربى فيها حافزا يذكره بمساوىء السياسة الغربية

الماضية • وقد شرع الأفارقة اليوم فى نضالهم من أجل التغلب على الحدود المصطنعة التى رسمت فى قارتهم • ولكنهم يفعلون ذلك كرعايامستعمرات تحرروا بوضوح وجلاء ، ويرغبون فى الوحدة على النحو الذى يريدونه أما فى الشرق الاوسط فقد أقمنا حواجز صناعية • وأقمنا فيهـا مصالح مستثمرة ، ثم أعلنا حرية كل جزء منها ، وقضينا اثر ذلك عشرين عاما نلجأ الى كل وسيلة وبينها الحرب ، لنحول بين حريتها فى الاتحاد ، الا اذا كان هذا الاتحاد وفق مشيئتنا واهوائنا وشروطنا • ولا ريب فى أن قليلا من ذلة الندم من هـذه المواقف قد تسـاعدنا الآن ونحن نتطلع الى الوراء على اقامة علاقات أفضل من التفاهم المتبادل مع العرب •

وهذه القضية التى تتعلق بجوهر مواقفنا مع العرب ، هى فى حكم الحقيقة والواقع المشـكلة الكبرى الراهنة فى علاقاتنا معهم • ولو كنا صادقين مع أنفسنا بعض الصدق ، لتحتم علينا أن نعترف باننا هنا فى الغرب ، لا نولى العرب ذلك الاحترام الأسـمى الذى نوليه لغيرهم من الشعوب فى الدنيا الافريقية الآسيوية • فهناك نغمة خاصة فى المقالات التى ننشرها عن الشئون العربية • ويبدو أن أكثر صحفنا مسـئولية تحتفظ ولو عن غير عمد بأكثر التعابير سخرية وتهكما عندما تتحدث عن العرب • وتقوم الأسباب كما سبق لى ان أوضحت فى قرون طويلة من التاريخ • ولـكن عنصر المقـارنة بين سلوك العرب ، وسـلوك غيرهم من الشعوب الافريقية الآسـيوية فى السنوات الاخيرة يعتبر سببا آخر ، وسببا له وزنه الطبيعى • فلا يمكن للعرب مثلا أن يقـارنوا حتى ولو ظاهريا ، بالهنود فى حقبة الخمسين •

وحتى بعد هذا الاعتراف بالمشكلات الضخمة التى ورثتها الهند الحرة وأنا آخر من يقلل من خطورتها ، ارى من واجبى ان اسأل اذا كان هذا الطراز من المقارنة مجديا أو مفيدا • ولنفكر ولو بصورة مختصرة ، وعلى وجه عام بما لم نخلفه فى الهند وراءنا عنـد تخلينا عنها • فنحن لم نضمن خلق دولة كاسرائيل فى قلب الهنـد وعلى أرض يسكنها الهنود • ولم نرسـم سياستنا فى الهند على اسـاس ظهورها فى أواسط القرن العشرين بمظهر الخـرقة المرقعـة التى تضم عـددا من الدويلات المجـزأة المصطنعة السيادة والتى تقوم على امرها حكومات رجعية لا تحظى بأى عطف شعبى ، تتحكم فى شعب يريد أن يتحد .. ولم نطلب من الهند قبل تخلينا عنها أية قواعد استراتيجية ، كثمن على انسحابنا منها • ولم نعمل على تحقيق غايتنا هذه عن طريق المؤامرات التى تستهدف الفرقة والخلاف ، أو عن طريق الضغط الاقتصادى أو حتى الحرب ،

التى تعـاونا فيها وتواطأنا مع اسرائيل .. وفى وسعى أن أواصـل هذه السلسلة الطويلة من الفروق . والنتيجة التى نتوصل اليها من كل ذلك ، والتى لا اشك فى أن الباندیت نهرو سيكون أول من يقرها ، هى أن الهنـد كانت ستسلك سلوكا مغـايرا للغاية لو أن قصـة الشرق الأوسط قد أعيد تمثيلها بحذافيرها فى وسطها .

وهكذا نصل الى هذه النتيجة ، وهى أن عقولنا محشوة بالظنون السيئة عن العرب . وما زالت سمعتنا بينهم حتى هذا اليوم ملطخة بما ألحقناه بهم من أضرار سياسية دائمة ، لاتقل خطورة عن أن تبز فى خطورتها اية اساءات ارتكبناها فى الدنيا الافريقية الاسيوية . ولا ريب فى انهم سيتمكنون من التغلب على هذه الاضرار التى ألحقناها بهم ان عاجـلا وان آجلا ، واذا تطلب هذا التغلب مزيدا من النزاع مع المحاورة الاخيرة من سياستنا القديمة فان اللوم فى ذلك يقع على عاتقنا نحن دون غيرنا ، وستكون الضحية فى ذلك مصالحنا الحقيقية فى الشرق الأوسط . وفى وسعنا أن نعدد الأماكن التى مازلنا فيها نعرض خير مصالحنا للهزيمة والخيبة وهى الأردن وفلسطين وعدن ومشيخات الجنوب العربى المرتبطة بمعاهدات عتيقة بالية ببريطانيا وكذلك الجزائر . ولم نسـتطع بعد الخروج من أجمة القصة الطويلة لصراعنا مع العرب . ولكن ما نحتاج اليه أكثر من اى شىء آخر هوالمزيد من الحرص ، وتنقيةعقولنا ومقالاتنا وكتبنا من الشوائب والاقرار بمسئوليتنا التاريخية عن الكثير ممايستثير سخطنا من الاوضاع فى الوطن العربى ، وأن يتبع ذلك تبدل حكيم فى سياستنا تماما كما يعقب الليل الحالك السواد ، وضح النهار .

ولعل من قبيل المناقضة أن نقول ونحن على وشك الاعتراف بكل هذه الاخطاء ، ان مما يساعدنا كثيرا ، أن ندرك نحن الغربيين ، بأننا مسئولون مسئولية هامة عن جزء كامل من نفس الفكرة القومية التى كنا نقاومها عند العرب . فلقد اقتبسوا عنا فكرة مالبثوا أن صاغوها لتصلح لهم ، ثم البسوها ثوب شخصيتهم النامية وأضفوا عليها احساسهم المعتز بماضيهم . ورحنا ننهمك فى محاربة الرسالة التى حملناها لهم لسنوات أكثر عددا مما يحلو لنا تذكره . أما فى فلسطين فلم نكتف بحرمانهم من هذه الرسالة فحسب ، بل قمنـا اذا كنا صادقين شرفاء فى اعترافنا ، بالعمل على حرمان شعب من وطنه ، وطنه الذى يملكه بموجب كل عرف وطبقا لكل تعريف ، لنفى بدين علينا ، لا على العرب ، لشعب آخر .

وامامنا نحن والعرب الكثير مما يجب علينا أن نفعله ، هذا اذا أراد

الجانب منا أن يكفر للآخر عن الماضى ، ويفى بالتزاماته له (١) . فاذا تمكنا من أن نشرع فى العمل مع حركتهم القومية ، على اعتبار أنها تمثل فى نظرنا تجربة أيجابية ، يجب علينا جميعا أن نسير فيها ، لأنها تمت فى بعض نواحيها الى تراثنا . فاننا لابد وأن نحصل منهم على استجابة سريعة لتعاوننا هذا . ولا ريب فى أن هذه الحركة القومية التى تدين بها هذه الشعوب الفتية فى وثبتها العريقة فى ماضيها ، حركة غريبة ، فهى حركة انسانية تعبر عن فكرة الكرامة الانسانية ، ولذا فهى تنطوى على جذور الاخوة العالمية . ولكن من الواجب أولا ، ان يعثر هذا الشعب العربى على مكانته وسط المجتمع الانسانى . وقد يبدو سعى هذا الشعب الوسيط المتداخل ، وسط ما تبذله الشعوب المستقلة الأقدم تمركزا من بحث أضخم فى مجالاتها ، أمرا يثير الحنق ، ولكن الخطأ فى ذلك ليس خطأهم وليس من الحق أن نحرمهم من نشدان ما يتطلعون اليه . وقد يبدو استنكارا لحركات الشعوب الافريقية الآسيوية القومية على أعتبارها « موضة قديمة » أمرا ينطبق مع نظرتنا العصرية ، لكن هذه النظرية ليست فى صالح تلك الشعوب ، وليست فى مصلحتنا نحن اذ اننا مشدودون اليهم شدا وثيقا ، شئنا ذلك أو ابينا ، فى هذه المغامرة المشتركة .

كان هذا هو الوضع دائما ، فالموقف لم يتغير بالنسبة الى العرب ولن يتغير . وعندما ندرك نحن فى الغرب ذلك حق الادراك ، يصبح فى وسعنا أن نبدأ من جديد ، اذ نوفر سنوات أخرى من العذاب .

لم ارجو أن نفهم ذلك ، بأقصى سرعة ممكنة .

---

(١) اعتقد أن التفكير يجب ان يكون من جانب واحد ، هو جانب الغرب . اذ اننا لم نسيء اليه بشيء ، وانما كنا دائما ومازلنا حتى هذه اللحظة ، نتعرض لاساءاته وجرائره التى لاتغتفر وما فلسطين ، ولا الانفصال ، وما يقع في اليمن والجنوب العربى ، وما وقع في الجزائر الا بعض من كل من أمثلة على هذه . (المعرب)

تعقيب لابد منه

ارى لزاما على وقد انتهيت من تعريب هذا الكتاب القيم ، وتقديمه الى القارىء العربى الكريم أن أدون ثلاث ملاحظات ، لا بد منها ، أعوض بها ما فاتنى قوله فى المقدمة .

أولى هذه الملاحظات : أن ما قدمته من تعليقات ، على بعض أقوال للمؤلف أو آراء لا تتفق مع آرائنـــا ، كان مقتضبا فى الغالب ، نظرا لطبيعة التعليق التى تتطلب الاقتضاب ، فهى والحالة هذه لا تمثل كل ما أحمــله من رأى ، اذ أن بعض الموضوعات التى طرقهــا المؤلف ، والتى تناولتها بالتعليق تتطلب أكثر من بحث وأكثر من كتاب ، بالأضافة الى حقيقة ثانية ، وهى أن ما أغفلت التعليق عليــه ، لا يعنى أنه متفق كل الاتفاق مع آرائنا وافكارنا ، فلقد راعيت القول المأثور .. ما يصعب كله لا يترك جله .

وثانية هذه الملاحظات : أن تعليقــاتنا يجب ألا تترك لدى القارىء انطباعا سيئا بالنسبة الى المؤلف . فهو على النقيض من ذلك ، من أكثر كتاب الغرب تفهما لمشاكلنـــا ولوجهات نظرنا ، ومن القــلة النادرة منهم التى تقف موقفا لا متحيزا وصادقا من قضايانا . ولعل هذا على الاقل ، هو ما ننشده من كتاب الغرب الذين يعالجون قضايانا ببحوثهم ، اذ أننا لا نطلب أكثر من التجرد والنزاهة والموضوعية ، وهى صفات ثلاث اعتقد أنها متوافرة لدى المؤلف ، وان توافرها النسبى هذا ، يجعله الى حد ما فى منزلة الكاتب المنصف الصديق . أما ما نختلف معه عليه من آراء ، فقد يكون ناجما عن حسن نية ، وهذا ما نفترضه فيه .

وثالثة هذه الملاحظات وآخرها : أن المؤلف رغم تجرده وموضوعيته غربى قبل كل شىء ، يضع مصالح الغرب فى المنزلة الاولى من تفكيره ، ولهذا فان ما هدف اليه من كتابه ، هو الدعوة الى وضع علاقات الغرب بالعرب ضمن اطار جديد من التفــاهم المتبادل ، متناسيا حينـا أو أحيانا الحقيقة الواقعة ، وهى أن سياسة العرب الأحرار ، تقوم على أساس عدم الانحياز المطلق على الصعيد الدولى ، وأن العرب لا يقيمون سياساتهم ، ولا سيما ما يتعلق منهـــا بأهدافهم التحررية ، ونشدانهم الوحدوى ، وتطلعهم الاشــــتراكى الا على قواعد متينة من واقعهم المادى وتراثهم التاريخى .

(المعرب)

ملحق (١) تطور أزمة السويس

التاريخ	اجراءات مصرية	اجراءات انجليزية فرنسية مشتركة عامة	اجراءات عسكرية	تكتيك بريطانى فرنسي	الصحافة
٢٦ يوليو	تأميم شركة القناة : التعهد بتعويض حملة الاسهم				
٢٧ يوليو		الوزراء يعلنون استنكارهم بوجه عام			صحافة لندن المحافظة تدعو الى استخدام القوة
٢٨ يوليو		تجميد أرصدة مصر من الاسترليني والفرنك			
٣١ يوليو	مصر تؤكد حرية الملاحة في القناة وتقترح عقد اتفاق جديد للقناة	أعلن ايدن « الاجراءات الاحتياطية للطوارىء » فرنسا تطلب الى رعاياها من النساء والاطفال مغادرة مصر			
٢ أغسطس		المطالبة بالاشراف الدولى ـ الدعوة الى مؤتمر في ١٦ من أغسطس	أستدعاء الاحتياطى ، ايفاد قوات جوية بريطانية الى مالطة ؛ تأهب الاسطول الفرنسي		الايحاء للصحافة بالتحدث عن اللجوء الى القوة اذا لم تقبل مصر فورا طلب الدولتين الغربيتين الاشراف الدولى على القناة

٣ اغسطس	مواصلة التأكيد بحرية الملاحة مع طلب قوى بالاعتراف بحق مصر في التأميم	موليه يقول : سنفرض على عبد الناصر ما نتخذه من قرارات	وصول أركان الحرب الفرنسيين الى لندن		
٨ اغسطس	اعلنت مصر عن طريق سفارتها في لندن ، أنها تعتبر من الامور الحيوية لها ، المحافظة على حرية الملاحة في القناة ، والعمل على زيادتها .	وجه ايدن اذاعة عامة : « ان نزاعنا ليس مع مصر وليس مع العالم العربى . انه مع عبد الناصر » . واتهم الرئيس بسلسلة طويلة من الاكاذيب والاجراءات المعادية لبريطانيا ثم قال : « لقد عرفنا هذا جيدا من الفاشيين ، كما عرفنا الثمن الذى ندفعه نتيجة التسليم لهم .			
١٢ اغسطس	عقد عبد الناصر مؤتمرا صحفيا مهما ، رفض فيه مؤتمر لندن ، ولكنه عرض عقد معاهدة جديدة تسجل في الامم المتحدة		استمرار الاعلان عن التحركات والاستعدادات العسكرية ــ الاستيلاء على السفن	شركة القناة في مشاورات مستمرة مع سلوين لويد .	دعوة الصحافة للتحدث عن ابحار الجنود

التاريخ	اجراءات مصرية	اجراءات الانجليزية فرنسية مشتركة عامة	اجراءات عسكرية	تكتيك بريطاني فرنسي	الصحافة
١٣ سبتمبر		تحسن الموقف بالنسبة الى مصر اثر حملات المعارضة في البرلمان على اجراءات الحكومة .			الصحف تتحدث عن معارضة الولايات المتحدة لاستخدام القوة . شرعت بعض الصحف التى كانت تؤيد استخدام القوة في مهاجمة ايدن
١٤ اغسطس	السفن تمر كالمعتاد . السماح للمرشدين بالاجازات	اذاعة عامة لسلوين لويد يحذر فيها من تجارب الماضي ويعلن أن عبدالناصر دون مطامحه في السيطرة على العالم والزيت العربيين وعلى افريقيا ومسلمى العالم		أعلنت الشركة أن جميع مرشديها مخلصون لها . أعلن مديرها بيكوان تحذيرا بأنه سيشل العمل في القناة .	
١٥ اغسطس	مصر تبدأ البحث عن المرشدين للاستعاضة بهم عن الذين تركوا الخدمة عن طريق الاعلان والقنصليات المصرية .		الحشد العسكرى مستمر، محادثات عسكرية مشتركة بين بريطانيا وفرنسا ، دعوة ٢٥ الفا من الاحتياطى .	رفض نشر الاعلانات المصرية بطلب المرشدين في عدد من الصحف . دفع زيادات لمرشدى قناة كييل .	شرعت الصحف الغربية في الدعوة لنظرية لويد وموليه عن ان « فلسفة الثورة نسخة أخرى من كفاحى » .

١٦ أغسطس	مصر توفد مراقبا الى لندن . الهند تتحدث باسم مصر .	عقد مؤتمر لندن الذى ضم ٢٢ دولة .			
٢٢ أغسطس	مصر تعلن تقدم عشرة مرشدين للعمل في القناة			٥٨ مرشدا يمضون في أجازة بطلب من الشركة ـ تأخر ٢٧ عن العودة .	الصحف تتحدث عن المهارة التى يتطلبها العمل في ارشاد السفن
٢٣ أغسطس		بعثة منزيس تستعد للسفر الى القاهرة لتقترح تشكيل مجلس دولى للقناة .			
٢٧ أغسطس		منزيس يتحرى عما اذا كانت مصر مستعدة للتفاوض .		الشركة تتخلى عن مسئوليتها تجاه المرشدين الى الحكومتين البريطانية والفرنسية	أنباء صحفية موحى بها عن اللجوء الى القوة اذا رفض عبد الناصر .
٢ سبتمبر		منزيس على وشك الوصول الى القاهرة .	بيان خاص يعلن ابحار القوات الفرنسية الى قبرص . اعلان آخر بأن (٨) ناقلات للجنود على استعداد للابحار من موانيها .	خطب تحمل روح الحرب من الوزيرين أنطونى هيدوبيتو .	

التاريخ	اجراءات مصرية	اجراءات انجليزية فرنسية مشتركة عامة	اجراءات عسكرية	تكتيك بريطاني فرنسي	الصحافة
٢ سبتمبر	عبد الناصر يقترح عقد اتفاقات ملزمة في موضوع الرسوم				
٥ سبتمبر		استمرار محادثات عبد الناصر ـ منزيس .		الشركة تعلن أن المرشدين في حالة اعياء	حملة صحفية على المتاعب في ارشاد السفن في القناة .
٩ سبتمبر	عبد الناصر يرفض فكرة المجلس الدولي ، ويؤكد حرية المرور من جديد	فشل بعثة منزيس			
١٠ سبتمبر	عبد الناصر يقترح مؤتمرا لجميع المنتفعين بالقناة لتأليف هيئة تتولى التفاوض في موضوعات حرية المرور والرسوم وتحسين القناة .	منزيس يعلن ان الوضع خطير للغاية .		نشرات مزورة يزعم انها صادرة عن سفارات مصر توزع على أعضاء البرلمان البريطاني والصحف وتتحدث عن مشاريع مصرية مزعومة لمنع عبور البترول الى أعداء مصر .	

١١ سبتمبر		وزارة الخارجية البريطانية تقول : لا جديد في اقتراح مصر		الشركة تسحب جميع مرشديها .	
١٢ سبتمبر	بقي في القناة ٧٠ مرشدا من مجموع ٢٠٥	ايدن يعلن في مجلس العموم ان مصر رفضت كل محاولة للوصول الى حل سلمي، ويقترح انشاء هيئة المنتفعين ، ويذكر أن مستوى الحياة في غرب أوربا أصبح تحت رحمة عبد الناصر اذا أهملت اقتراحاته . يهدد بالقوة اذا لم تسمح مصر لبواخر الهيئة بالمرور .			
١٣ سبتمبر	مصر تعلن وسميا التزوير في المنشورات	يقول موليه ان فرنسا تحتفظ بحقها في استخدام القوة اذا منعت مصر مرور هيئة المنتفعين بالقناة ــ دالاس يرفض استخدام القوة .		تحويل البواخر الى طريق رأس الرجاء الصالح ، شركة لويد ترفع رسوم التأمين	الصحافة تقول ان « هيئة المنتفعين » ستبعث بباخرة تجربة الى القناة .

التاريخ	اجراءات مصرية	اجراءات انجليزية فرنسية مشتركة عامة	اجراءات عسكرية	تكتيك بريطانى فرنسي	الصحافة
١٦ سبتمبر	حركة المرور تضرب رقما قياسيا ــ عبور ٤٢ باخرة				استمرار الحملة الصحفية الضخمة في الغرب تغذيها أموال شركة القناة لنشر الاشاعة بأن الفوضي تسود حركة المرور في القناة بسبب جهل المرشدين
٢٢ سبتمبر ــ		ولدت هيئة المنتفعين نصف ميلاد ولكنها لاتؤيد القوة ، ايدن وموليه يحيلان القضية الى الامم المتحدة .			

	وبعد فشل مشروع هيئة المنتفعين في ارسال سفينة اختبار عبر القناة وبعد أن اتضحت للولايات المتحدة حقيقة النوايا الانجليزيه الفرنسية في استخدام القوة ، بدأت الدول التى تستخدم القناة في التعاون الخفى مع السلطة المصرية التى أثبتت نجاحها . وفي أوائل اكتوبر أصبحت الهيئة المصرية تتلقى (٤٠) في المائة من رسوم القناة . أما الباقى فيدفع الى حساب مغلق . وفي ٢ اكتوبر عاد عدد المرشدين الى ما كان عليه قبل الازمة عن طريق التعاقد .				
١٣،١٢ اكتوبر	الوصول في مجلس الامن الى اتفاق على ستة مبادىء لادارة القناة	التعديلات الانجليزية ـ الفرنسية تعطل اجراءات الامم المتحدة عدة أسابيع وتستفز الفيتو السوفياتي .			
١٦ اكتوبر		قرر ايدن وموليه في اجتماع سري عقداه في باريس مدة خمس ساعات الهجوم على مصر .			

ملحق (ب)

قبل الغرب فى الصورة الرسمية التى يرسمها لتاريخ الشرق الاوسط المعاصر رواية الملك حسين عن ازمة « المؤامرة » فى ابريل عام ١٩٥٧(١) . وتتلخص قصة المؤامرة هذه فى ان العناصر الوطنية حاولت القيام بانقلاب اول للاطاحة بالملك ليلة السابع من ابريل ، ثم حاولت القيام بانقلاب آخر ليلة الثالث عشر من الشهر نفسه . واعلن الملك رسميا ان الوطنيين كانوا يلقون التأييد فى المحاولتين من الاتحاد السوفياتى ومصر وسورية .

وزعم الملك فى قصته عن المحاولة المختلقة الأولى أن الوطنيين كانوا سيرغمونه على توقيع بيان معد سلفا بالتنازل عن العرش ، فى حين تكون الوحدات الوطنية فى الجيش محيطة بقصره واضاف ان الخطة كانت ترمى الى حمله بالطائرة الى قبرص فى حين تعلن الاذاعة الاردنية نبأ تنازله عن العرش . ولكن قصة الملك لم تشرح كيف احبطت المؤامرة المزعومة . كما لم توضح السبب الذى يدعو المشتركين فى تخطيط هذه المؤامرة المنظمة تنظيما هائلا ، والتى تشترك عدة دول فى تنفيذها ، الى نقل الملك الى جزيرة قبرص التى يسيطر عليها البريطانيون ، والتى تضم محطة اذاعية عربية قوية يستطيع الملك فورا ان يمضى الى ميكروفوناتها ، ليذيع على العالم أن تنازله تم تحت الضغط والارهاب . وارى لزاما على أن أؤكد هنا ، عند تحليل هذه الادعاءات عن المؤامرة أن حسينا كان لا يزال فى اللحظة التى ادعى وقوعها ، يتمتع بشعبية فى الاردن ، وكانت حكومة النابلسى نفسها تصر على القول للشعب ، بأن الأمور تسير سيرا حسنا ، وان كل شيء على ما يرام . ففى الخامس من ابريل ، أذاع الرئيس النابلسى خطابا من الاذاعة الاردنية قال فيه للشعب ما نصه : « لقد اذهلت الانتصارات التى حققتموها تحت لواء ملككم المستعمرين وحيرتهم » (٢) . وليس من المعقول ان يلجأ النابلسى الى مثل هذه

---

(١) كتاب جلوب الذى يروى القصة الرسمية كلها .

(٢) مقتبس من تسجيل للاذاعة البريطانية فى الخامس من ابريل عام ١٩٥٧

العبارات وهو يهيىء الرأى العام لعمل يطيح بالملك ، ويبعده عن البلاد، هذا اذا أخذنا بعين الاعتبار أن تاريخ الاذاعة سبق الموعد الذى زعمه الملك للمؤامرة بيومين اثنين ليس الا .

ولم تكن تهمة «المؤامرة» الثانية أقل غرابة . فقد زعم هذه المرة أن على ابو نوار ، قائد الجيش الاردنى ، قد أمر بارسال وحدات البدو الموالية للملك حسين الى مناورات بعيدة ، لتمكين الوحدات الوطنية من تنفيذ مؤامرتها فى عمان ، وأضافت القصة المزعومة أن القصر الملكى علم بالخطة المرسومة ، وطلب الى الوحدات البدوية أن تعصى الامر الموجه اليها . وعلى الأثر نشب القتال فى معسكر الزرقاء الواقع الى الشمال من عمان ، مما دفع الملك الى الاسراع بسيارته الى المعسكر مستصحبا معه قائد جيشه . وفى الطريق قابل الملك وحدات البدو المخلصة له وهى مندفعة الى العاصمة ، بعد أن صدقت ماقيل لها من أن الملك قد اعتقل. وتمضى الاسطورة فتقول : ان حسينا تمكن بشجاعته الشخصية الفائقة من تهدئة الجنود وحال بينهم وبين اطلاق النار على القائد أبى نوار الذى اتهموه بالخيانة . وراح الملك بعد ذلك يعتقل القائد «الذى تذلل للملك» فيفر عبر الحدود الى سورية ، ويعين خلفا له اللواء على الحيارى قائدا للجيش . وتمضى القصة فتقول ان الحيارى أيضا « برهن على خيانته للملك » ، وانه فر بدوره الى دمشق .

ولكن التحقيق الدقيق فى خفايا الموضوع ، أسفر عن قصة تختلف تماما عن أسطورة الملك الرسمية (١) . فلقد كانت المهمة الاولى التى عهد الملك الى اللواء الحيارى القيام بهـا ، هى أن يكتشف الضباط غير الموالين للملك فى الزرقاء وان يقدمهم الى المحاكمة العسكرية ، وقد شرع القائد الجديد فورا فى تحقيقاته ، بوصفه عسكريا يمتاز بتدريبه العظيم وخبرته الطويلة ، وسرعان ما تبين له أن اربعة ضباط من البدو هم الذين أثاروا الفتنة فى الزرقاء . وهرع الحيارى الى القصر ، فقدم أسماءهم الى الملك الذى طلب اليه فورا ، أن يقفل البحث فى القضية كلها . وراح القائد يذكر الملك بالتعليمات التى كان قد أصدرها اليه ، وبوعده له فى أن يكون حرا فى تحقيقاته ، فثار الملك غاضبا على قائده . أودى هذا التحية وخرج من غرفة الملك ، ثم كتب استقالته ، ومضى فى سيارته الى دمشق

---

(١) هذه التفاصيل مستقاة من الاستنتاجات التى توصلت اليها ومما نشرته مجلة « التايم » في عددها الصادر في السادس من آيار عام ١٩٥٧ . (المعرب)

حيث اعلن أن المؤامرة «زائفة مزورة» ، وان الولايات المتحدة تقف وراء خطة الملك الراميــة الى التشهير بحكومة النابلسى وأعضائها ، وأن الاوامر كانت قد صدرت اليه «بتهيئة الجيش لضرب الشعب» .

وكان ضباط البدو الاربعة الذين دبروا فتنة الزرقاء يجلســون فى احدى غرف القصر تحت حماية الملك ، اثنــاء مقابلته العاصــفة للقائد الحيارى .

وسرعان ما راح الملك يسرد تفاصيل مختلقة لهــا مدلولاتهــا عن « المؤامرة الشيوعية ــ الناصرية » ، وكان بين هذه التفاصيل ماقيل من العثور على علم غريب فى مكتب ابى نوار . ورددت القصة الرسمية وقتا قصيرا ، أن هذه الراية اعدها على ابو نوار ليرفعها فوق سيارته عندما يصبح « الحاكم العسكرى » (١) فى الاردن بعد خلاصه من الملك ، ليضم بعد ذلك كمقاطعة الى سورية ، ولكن هذه القصة سرعان ما تبدلت ، وصورت الراية على انها « علم الجمهورية الاردنية » (٢) وكانت الانباء الغريبة قد خلقت جوا متوترا عن الازمة الاردنية الى الحد الذى لم يلاحظ فيه احد فى الغرب هذا التبدل الغريب فى رواية (الراية) التى لا يمكن أن تكون لا لجمهورية أردنية ولا لمقاطعة سورية .

ولعل من السخرية ، ان هذه الراية كانت فى حقيقتها العلم الذى كان جلوب يرفعه على مقدمة سيارته وكانت تحمل شعار المملكة الاردنية الهاشمية . وعندما عثر على هذا العلم مدفونا فى درج مكتب أبى نوار ، الذى كان مكتبا لجلوب من قبل ، لاحت فى ذهن موظف بارع فى الاختلاق، من موظفى القصر ، أن يخترع هذه القصة التى سرعان ما انتشرت فى أرجاء العالم . هذه هى الطريقة التى كتبت بها تفاصيل تاريخ الشرق الاوسط فى الغرب فى تلك السنوات الغريبة .

ترى ما الذى حدث حقا فى هاتين «المؤامرتين» ؟ عندما أحس الملك حسين بالقوة اثر الوعود التى اغدقها عليه الامريكيون بمساعدته ماليــا ودبلوماسيا وكذلك عسكريا اذا اقتضى الامر (٣) راح يرتب مع ساسة

---

(١) صحيفة التايمز اللندنية عدد ٢٩ ابريل ١٩٥٧ م.

(٢) كتاب جلوب ص ٤٣٢ .

(٣) تم اعداد مؤامرة الملك حسين بمساعدة الملك سعود. وذكرت مجلة الايكونومست في عددها الصادر في الرابع من آيار عام ١٩٥٧ ، أن حسينا طلب قوات من العربيــة السعودية ومن العراق ، فدخلت الى الاردن بعد اقالة وزارة النابلسي في العــاشر من ابريل .
(المؤلف)

العهد القدامى ، الطريقة الوحيدة التى يمكن لها أن تشوه سمعة الوطنيين الاردنيين ، دون أن تحطم مكانته فى نفوس الجماهير . وتقرر أن ترسم الخطة على أساس الادعاء بوجود محاولة للاطاحة به وخلق صورة مسرحية ترسمه بطلا جريئا يقف أمام الخونة . كانت هذه هى الفرصة الوحيدة . فلقد كانت حكومة النابلسى بسياستها القومية العربية واتجاهها غير الانحيازى ، متمتعة بشعبية هائلة . وكانت للملك أيضا شعبيته الهائلة لوقوفه فى الصف الوطنى . ورأى أن الضرورة تحتم عليه استغلال شعبيته فى نفس الوقت الذى يستفز فيه الى جانبه حماسة أكبر عدد من البدو من جنود الجيش العربى . ولهذا فقد أخرج مسرحية « فتنة الزرقاء » عن طريق أربعة من ضباط البدو . ولكن اللواء الحيارى باخلاصه لواجباته الجديدة ، ومتابعته التحقيق بحزم وأمانة ، أفسد على الملك قصته وخطته . وتمكن الوطنيون ، ثقة منهم بتأييد الجماهير لهم ، من عقد مؤتمر وطنى عام فى نابلس احتجاجا على اجراءات الملك ، مما اضطر حسينا وأنصاره السياسيين القدامى الى استخدام القوة المسلحة العارية ، فوزعوا قوات البدو ، وقد صبغ رجالها وجوههم بالسواد فى جميع أنحاء البلاد ، ومعهم دباباتهم وسياراتهم المسلحة . ولكن الغرب ، كان قد صدق قصة «المؤامرتين» .

وهناك ناحية أخرى فى هذه القصة المفجعة توضح ما تميزت به معلومات الغرب من خطأ فى هذه الايام . فما زال الاعتقاد الذى يسود الغرب حتى اليوم هو أن أزمة الاردن فى أبريل عام ١٩٥٧ كانت من تخطيط القاهرة وتنفيذها ونتيجة تحريض اذاعة القاهرة للجماهير على تأييد المتآمرين ، وقد نجم هذا الاعتقاد عن تصديق الاتهامات التى وجهها حسين ، وعن الانباء والتقارير الصحفية التى بعث بها المراسلون الغربيون آنذاك عن المؤامرتين وعن الميل الطبيعى فى الغرب لتصديق كل اتهام يوجه الى القاهرة ولم أكد أصدق أذنى ، أنا شخصيا لتأثرى آنذاك بهذه الدعاية الكاذبة ، عندما أبلغنى الرئيس عبد الناصر فى مقابلة شخصية أنه أصدر أمره ، فور ابتداء الأزمة فى الأردن ، الى اذاعة القاهرة ، بعدم التعرض بما يسىء الى الملك حسين (١) وقد ثبت لى أن هذا الأمر كان

---

(١) قال لى الرئيس عبد الناصر أيضا أنه بعث برسالة الى النابلسي يرجوه فيها الا يعمل على فصم الاردن بين الملك والشعب ، والا يستقيل والا يذيع سبب استقالته اذا اضطر اليها . هذا ولم اتمكن من مقابلة النابلسي في عهود الاردن التالية بسبب =

صحيحا تمام الصحة، وكشفت لى الدراسات الدقيقة التى قمت بها أن « العدوان الاذاعى غير المباشر » انما صدر أول ما صدر عن الجانب الآخر من المسرح العربى ، أى من «اصدقاء» الغرب طيلة أيام أزمة ابريل .

ولو كانت المؤامرة صحيحة ،وكان دور مصر فيها صحيحا،لتحتم على اذاعة القاهرة ان تبدأ فى مطلع ابريل بشن حملة على الملك حسين لتهيئة الرأى العام الاردنى لتقبل المؤامرة . لكن وثائق اذاعات القاهرة الرسمية تثبت أن أى تعليق لم يصدر عن هذه الاذاعة باستثناء سرد الاخبار المجردة عن الازمة بين الاول والواحد والعشرين من ابريل ، وعثرت فى سجلات اذاعة دمشق — وكانت دمشق وثيقة الاتصال بالقاهرة آنذاك — على نص اذاعة فى الرابع من ابريل اى عشية المؤامرة المزعومة الاولى ، تقول : «ان الحكومة تتمتع بثقة الملك والبرلمان والشعب» . ووجه الرئيس النابلسى فى الخطاب الذى القاه فى الخامس من ابريل ، اتهاما صريحا الى الولايات المتحدة بأنها أوقفت معونتها الاقتصادية الى الاردن. لاجباره على التخلى « عن سياساته القومية العربية واتجاهاته المحالفة لمصر » . وقد حذفت اذاعة القاهرة ، وهى تنقل الى مستمعيها نص الخطاب عامدة هذه العبارة التى يهاجم فيها النابلسى الضغط الامريكى.

وعندما استقالت حكومة النابلسى فى العاشر من ابريل ، اكتفت اذاعة القاهرة بنقل النبأ مجردا . أما اذاعة بغداد فقد هاجمت النابلسى ، واطرت الملك حسينا وزعمت وجود علاقة بين النابلسى وبين سفير الاتحاد السوفياتى فى اسرائيل وراحت اذاعة اسرائيل العربية فى اليوم التالى تذيع نبأ « العدوان المصرى غير المباشر » على الاردن ، وتتهم النابلسى بأن « عملاء مصر هم الذين أوصلوه الى الحكم » وانه كان يريد ان يجعل من الأردن « قاعدة سوفياتية » . واستمرت إذاعة نورى السعيد فى بغداد فى مهاجمتها للنابلسى طيلة أيام الازمة .

واذاع راديو القاهرة ما ذكره اللواء الحيارى فى مؤتمره الصحفى فى دمشق من ان الغرب كان يحاول من جديد أن يشد الاردن الى عجلة حلف بغداد عن طريق مشروع ايزنهاور ، اذ كانت الولايات المتحدة قد اشتركت فى لجنة الحلف العسكرية فى الشهر السابق واستمرت

= الاجراءات التى فرضت عليه ولكن وثائق اذاعة القاهرة الرسمية تثبت ان القاهرة لم يكن لها شأن مطلقا في « المؤامرة » المزعومة ، هذا على افتراض انها صحيحة مع انها ليست كذلك . (المؤلف)

اذاعة القاهرة فى هذا الاتجاه مع الاشــارة الى « موظفى القصر » دون الاشارة الى الملك نفسه . ووصف معلق صوت العرب المعـروف أحمد سعيد فى اذاعة له فى ذلك اليــوم ، المؤامرة ، بأنهـا تآمر « على الاردن وجيشه وملكه وعروبته » .

ولم تشن القــاهرة فى المــدة الباقية من شــهر ابريل هجـوما على حسين ، مع انه كان قد شرع فى فرض الاحكام العرفية واعتقال العناصر الوطنية . ولقد ذكر لى الرئيس عبد الناصر « أنه لم يفسح المجال لاذاعة القاهرة لتقول ما تشاء الا بعد ان شرع حسين فى مهاجمة مصر علنا ». ولا ريب فى أن ســجلات اذاعة القــاهرة تقيم الدليل على هذه الحقيقة المجردة . وفى الثانى من مايو أذاعت محطة بغداد حديث حسين الصحفى الى مراسل صحيفتى «الاوريان» و«الجريدة» اللبنانيتين ، والذى اتهم فيه مصر وسورية اكثر من مرة بالعمل على قلب الملكية فى الاردن . وبعد هذا التاريخ بدات الحرب الاذاعية بين دمشق والقاهرة من جهة وبين اذاعة حسين ، بعد أن طال سكوت الاذاعتين السابقتين .

مراجع الكتاب

١ ـ مقالات عن الشرق الاوسط للسير آى . بولارد . في مجلة الجمعية الملكية البريطانية للشئون الدولية . الطبعة الثالثة عام ١٩٥٨ .

٢ ـ موجز عن افريقيا الشمالية الغربية ـ نفيل باربر . اكسفورد . ١٩٥٩ .

٣ ـ العودة الى المأساة ـ الصراع من أجل فلسطين ـ الدكتور وليام بولاك ودافيد ستالر وادوارد عصفور ـ بيكون ١٩٥٧ .

٤ ـ الحقيقة عن العالم العربى للمؤلف وترجمة المعرب ـ غولانكز ١٩٦٠ ـ المكتب التجارى ـ بيروت .

٥ ـ فرق تخسر ـ لميشيل ايونيدس وترجمة المعرب ـ لندن ١٩٦٠ ـ دار الطليعة ـ بيروت .

٦ ـ منبر الشرق الاوسط ـ مجلة الجامعة الامريكية في بيروت .

٧ ـ تطور مصر ـ مارسيل كولومب ـ باريس ١٩٥٠ .

٨ ـ خطب جمال عبد الناصر ١٩٥٨ ، ١٩٥٩ ـ مصلحة الاستعلامات ـ القاهرة .

٩ ـ مصر ـ لتوم ليتل ـ لندن ١٩٥٨ .

١٠ ـ ناصر مصر ـ ويلتون وين ـ ارلنغتون ١٩٥٩ .

١١ ـ مذكرات انطونى ايدن ـ الحلقة الكاملة ـ ترجمة المعرب لندن ١٩٦٠ وبيروت ١٩٦٠ .

١٢ ـ أسرار السويس ـ ا م . واسي . برومبرغر ـ لندن ١٩٥٧ .

١٣ ـ البلاد الكثيرة الاهمية ـ جون كونيل لندن ١٩٥٧ .

١٤ ـ حملة سيناء . ادغار اوبالانس ـ فابر ١٩٥٩ .

١٥ ـ رجال مذنبون ـ ام فوات وام . جونز غولانكز لندن ١٩٥٧

١٦ ـ مائة ساعة الى السويس ـ روبرت هنريكس كولنيز ـ لندن ١٩٥٧ .

١٧ ـ أزمة الشرق الاوسط ـ جى ونيت وبى كالفاكوريس بنغوين لندن ١٩٥٧ .

١٨ ـ صحف الديلى اكسبريس والنيوز كرونيكل والمانشستر غارديان . والاوبزرفر . والنيويورك تايمز . وواشنطن بوست ، والاكسبريس الباريسية وفرانس أوبزرفاتور والايكونوميست ، ومجلة تايم .

١٩ ـ أزمة الشرق الاوسط ـ الحكومة الكندية .
٢٠ ـ وثائق الامم المتحدة .
٢١ ـ وثائق مصلحة الاستعلامات ـ القاهرة .
٢٢ ـ الاصـــلاح الزراعي والانمــاء في الشرق الاوسط ـ دورين وانير ١٩٥٧ .
٢٣ ـ الاسلام والتقدم الحديث في مصر ـ شارل ادامز ـ لندن .
٢٤ ـ الشرق الاوسط ـ فيشر ـ ١٩٥٠ .
٢٥ ـ المجتمع الاسلامي والغرب ـ جيب وبوين ـ ١٩٥٠ .
٢٦ ـ البيروقراطية والمجتمع في مصر الحديثة ـ مورو برغر ـ لندن .
٢٧ ـ مصر في منتصف القرن ـ شارل عيساوي .
٢٨ ـ الاصلاح الزراعي في مصر ـ سيد مرعى ـ القاهرة ١٩٥٨ .
٢٩ ـ امراض قديمة وعلاجات جديدة ـ ايفا غرزوزي ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٥٨ .
٣٠ ـ عائلة في مصر ـ ماري راولات .
٣١ ـ الاقليات في العالم العربي ـ البرت حوراني ـ اكسفورد ١٩٤٧ .
٣٢ ـ الدولة والاقتصاد في الشرق الاوسط ـ الفريد بونيه .
٣٣ ـ القرية العراقية . (ب.مار) مجلة منبر الشرق الاوسط ـ بيروت ١٩٥٩ .
٣٤ ـ الدول الافرو ـ آســيوية ومشــاكلها . بانيـكار اللين واونوين ١٩٥٩ .
٣٥ ـ عبرة فلسطين . موسى العلمي .
٣٦ ـ يقظة العرب ـ جورج انطونيوس ـ هاميش هاملتون لندن ١٩٥٥ .
٢٧ ـ مصر في منتصف القرن ـ شارل عيساوي .
٣٧ ـ نوري السعيد ـ اللورد بيردوود ـ كاسيل ـ لندن ١٩٥٩ .
٣٨ ـ حياة جونسون ـ جيمس بوزويل ـ أوكسفورد ١٩٢٧ .
٣٩ ـ تقرير سفير ـ شيستر باولز ـ غولانكز ـ لندن ١٩٥٤ .
٤٠ ـ ثورة العراق ـ كراكتاكوس وترجمة المعرب ـ لندن ١٩٥٩ وبيروت ١٩٦٠ .

فهرس

الموضوع	الصفحة

هيئة قناة السويس

مناقصة عامة

بين مقاولى القطاع العام

تطرح هيئة قناة السويس فى مناقصة عامة عملية انشاء المركز الثقـافى والاجتماعى والمتحف والمكتبة بالاسـماعيلية ويمكن الحصول على مستندات العملية بالحضور شخصيا الى مقر الهيئة بالاسماعيلية - الادارة الهندسـية (المشروعات) وذلك نظير دفع مبلغ ثلاثين جنيها .

وتقدم العطاءات باسم السيد / رئيس هيئة قناة السويس (الادارة الهندسية) فى ميعاد أقصاه الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم الاثنين ٢٥ من نوفمبر سنة ١٩٦٣ مصحوبة بتامين ابتدائى قدره خمسة آلاف جنيه ولن يلتفت الى أى عطاء يقدم بعد هذا الموعد أو غير مصحوب بالتأمين الابتدائى المذكور .